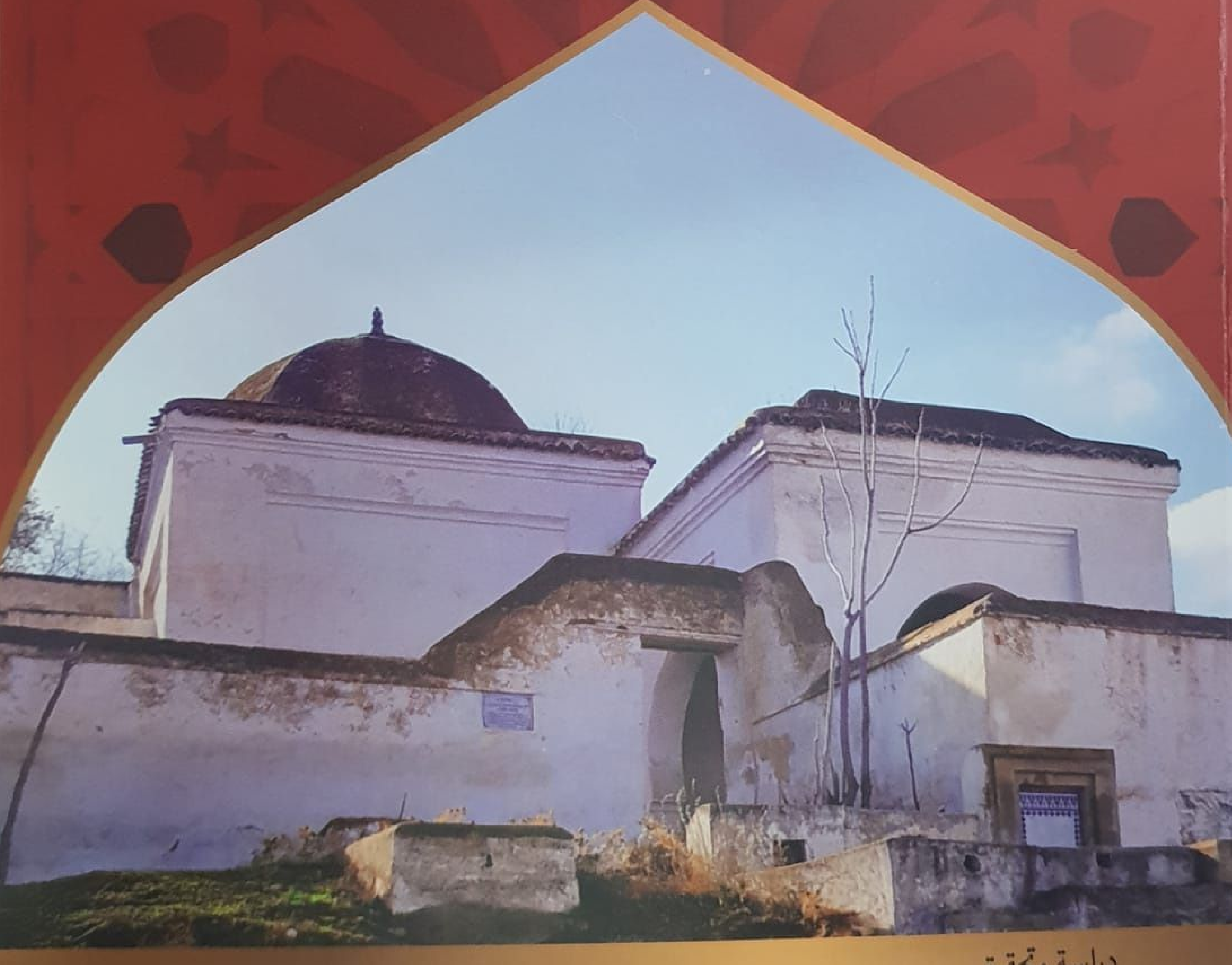
المقصد الأحمد

في التعريف بسيدنا ابن عبد الله أحمد

(جد العائلة المعروفة حاليا ب : العبدلاوي معن)

لعبد السلام بن الطيب القادري الحسني



دراسة وتحقيق
قمر العبدلاوي معن

2020م / 1442هـ

المَقصَدُ الأَحْمَدُ في التَّعْرِيفِ بِسَيِّدِنا ابنِ عبدِ اللهِ أحمد

لعبدِ السَّلامِ بنِ الطَّيِّبِ بنِ مُحمَّدٍ القَادِرِي الحُسَيْنِي رَحِمَهُ اللهُ وطَيَّبَ ثَرَاهُ
(١٠٥٨- ١١١٠هـ)

تحقيق وطبع التكية العلاوية الدَّرقاوية الشَّاذلية
بأشراف الشيخ محمد جهاد ناصر الصالحي
رضي الله عنه وقدس سره
العراق – كركوك
١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م



المؤلف

أسمُهُ

السَّيد عبد السلام بن السَّيد المُبارك المرحوم السَّيد الطَّيب بن السَّيد مُحمَّد بن السَّيد مُحمَّد بن السَّيد مُحمَّد بن السَّيد مُحمَّد بن السَّيد مُحمَّد بن السَّيد بن مُحمَّد بن السَّيد أبي الخيرات سعد بن السَّيد أحمد بن السَّيد الصالح أبي العباس أحمد بن السَّيد أحمد بن السَّيد العارف المُحقِّق القدوة أبي عبدالله مُحمَّد ابن السَّيد أبي الحسن علي بن الشَّيخ الفقيه الصالح الزاهد سيف الدِّين أبي العباس أحمد بن الشَّيخ الناسك الورع أبي عبدالله مُحمَّد بن الشَّيخ الإمام العالم الصالح سراج الدِّين أبي اسحاق إبراهيم بن شَّيخ المشايخ وقطب الأقطاب مولانا عبد القادر الجيلاني نفعنا الله به

ولادتهُ ونشأتهُ

ولد بفاس حاطها الله بمنِّه ونشأ في عفاف وصيانة وتُقىً وديانه, مُكباً على اقتناء العلوم حتى تضلَّع من ورائها وأضلع على مكنوزتها وأطَّلع بأعبائها فسما مع تواضعه على الأقران وقارن بين العلم والصَّلاح أحسن قران.

ووِلِد صاحب الترجمة وقت صلاة الجمعة عاشر رمضان سنة ثمان وخمسين وألف.

شُيوخهُ

أخذ عن جماعة من الائمة ومشايخ هذه الأمة كشَّيخ المشايخ وطود الديانة الشامخ أبي مُحمَّد سيِّدي عبد القادر بن علي يوسف الفاسي وولديه الإمامين مُحقِّق أوانه سيِّدي مُحمَّد وحافظ عصره سيِّدي عبدالرَّحمن وأُعجوبة الزمان

وعلاَّمة الأوان سيّدي أبي علي الحسن اليوسي والعلاَّمة الأجل الخطيب البليغ قاضي المدينة البيضاء سيِّدي مُحمَّد بن علي الفلالي وغيرهم من الأفاضل رحمهم الله أجمعين وأعاد من بركاتهم.

أتَّصل بسيِّدنا وسَندنا الى ربنا زين الزمان وشمس الأوان, بحر الحقائق العرفانية ومنهل العلوم الرَّبانية, جبل السُّنة الراسخ وطودها المرفع الشامخ, شهاب الملَّة والدين وحجة المهتدين والمقتدين القدوة, الأعمد سيِّدنا أبي العباس أحمد بن الشَّيخ العارف الكبير الولي الشهير أبي عبدالله سيِّدي مُحمَّد بن عبدالله به عرف الأندلسي القاطن بالمخفية من عدوة فاس الأندلس ﷺ.

ولقي قبلهُ شيخه العارف المحقق الفاني المستغرق أبا الفضل سيِّدي قاسماً بن قاسم الخصاصي رحمهُ الله ونفعنا به, زارهُ مراراً وتبرَّكَ به ولقي مواخيه في الله الفقيه الفاضل العارف الكامل أبا العباس سيِّدي أحمد بن مُحمَّد اليمني نفعنا الله به وحضرَ من مجالسه مالا يُعد ولا يُحصى ولا يكاد يُستقصى لكن عمدتهُ وملاذهُ وملجأهُ واعتمادهُ سيِّدنا شيخ الاسلام وبركة الانام والعالم بالله سيِّدنا أحمد بن عبدالله ﷺ وأرضاه.

مؤلفاتهِ

1- نيل القربات بأهل العقبات.
2- رجاء الاجابة بالبدريين من الصحابة.
3- مناهل اللهفان الى أسانيد ذوي العرفان.
4- منهج الرشاد في لامية الاسناد.
5- وسيلة السائلين بالعارفين الكاملين.
6- الدرَّة الخطيرة في مهم السيرة.
7- العرف العاطر فيمن بفاس من أبناء الشَّيخ عبدالقادر.

8- تحفة النبيه في بني طاهر وبنيه الشبيه.

9- الدر السني فيمن بفاس من أهل النسب الحسني.

10- الأشراف في نسب الأقطاب الأربعة الأشراف وهم ابن مشيش والجيلاني والشاذلي والجزولي.

11- مطلع الاشراق في نسب الشرفاء الواردين من العراق.

12- عقود اللّآل ووسيلة السؤال بما له ﷺ من الآل.

13- أداء الحقوق في ابداء الفروق.

14- وتنبيه المعرضين عن آيات السموات والأرضين.

15- تتميم الأفراح بتنعيم الأرواح.

16- ذخيرة الأكتساب فيمن يدخل الجنَّة بغير حساب.

17- المقصد الأحمد في التعريف بسيّدنا أحمد, وهو الكتاب الذي بين أيدينا.

18- معتمد الراوي في مناقب سيِّدي أحمد الشاوي.

19- نظم مختصر ابن فارس في السير.

20- نظم قواعد ابن هشام ومعونة الاخوان بمعرفة الايمان والإسلام.

21- تقييد على سورة الإخلاص.

22- الجواهر المنطقية نظم فيه مختصر السنوسي.

23- النسيم المعبق في توجيه الخلاف في المنطق.

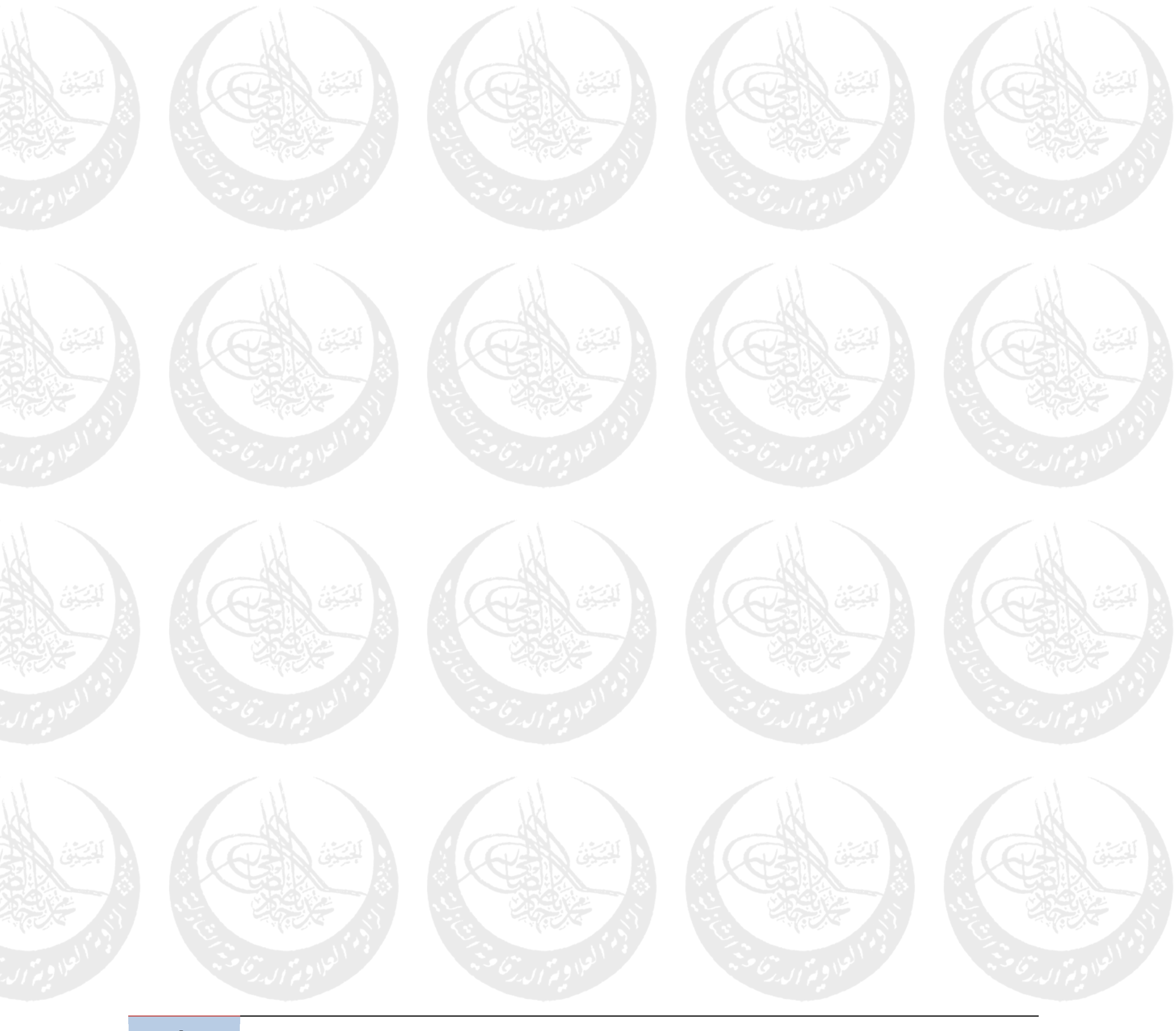
24- أحكام المعروف من أحكام الظروف.

25- التماس البركة في أجوبة سيِّدي الحاج علي بركة.

وكانت لهُ اليد الطولى في الفنون وخصوصاً العربية والمنطق وعلم الكلام والتصوف والفقه والسِّير فقد كان يرجع اليه في مشكلاتها مع وجود غالب أشياخه وكذا البيان والأحوال والحديث والأنساب, وتخرَّج به جماعة من العلماء.

وفاته

توفي رحمه الله غداة يوم الجمعة لثلاث عشرة من ربيع الأول عام عشرة ومائة وألف وعُمرهُ نحو خمسين سنة ﷺ ونفعنا به.



بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ
وصلَّى اللهُ على سَيِّدِنا مُحمَّد وآلِهِ

يقولُ العبدُ الفقيرُ الأحوجُ إلى رحمةِ اللهِ الغَنيّ عبدُ السَّلام بنُ الطَّيِّبِ بنُ مُحمَّد القادري الحُسيني كانَ اللهُ لهُ وليّاً وبِهِ حَفِيّاً وغفرَ لهُ ولوالدَيْهِ ولأشياخِهِ وسائرِ مَنْ أحسنَ إليهِ آمين.

المقدمة

الحمدُ للهِ الذي أفاضَ على أوْليائهِ وأحبابِه وأصفيائهِ من النُّورِ الأحمدي أنواراً وأصفاهُم من مكنونِ سِرِّهِ, وجوهرِ علمهِ ودُرِّهِ, معارفَ وأسراراً، وحلَّاهُم بِحِليةِ سنائِه, وحُلَلِ جَمالِهِ وبهائهِ, وأكمَلَهُم في سماءِ التَّوحيدِ أقماراً فاستضاءتْ بأنوارِهِم الخليقةُ, وسلكُوا بِهِمْ من الدِّين طريقَهُ، وتبوَّؤوا مِنْهُ وطناً وقراراً، وصاروا للسَّالكينَ هُداتَهُ, وعلَماً بالمحجَّةِ وآية, وبرزُوا بِكُلِّ لاهبٍ مناراً, فلولاهُم ما سلَكَ من تِلكَ السُّبلِ فِجاجَها، ولا قَوَّمَ مِنْ ضلَعِ النُّفوسِ اعوجاجَها، ولا تبيَّنَ لها الهدى استبصارا, فسُبحانَ مَنْ خصَّهُم بالحكْمَةِ والنُّورِ, وشرحَ بِهِمْ القلوبَ والصُّدورَ، وجعلَهُم للدِّينِ أعواناً وأنصارا.

والصَّلاةُ والسَّلامُ على سَيِّدِنا ومولانا مُحمَّد الذي من فيضِ بحرِهِ يغترفُونَ, ومن روضِ مواهبِهِ يقتطفونَ, ويجتنُون ثِماراً وأزهاراً، ومن نورِهِ يستمدُّون, وعنهُ يرثُونَ ويَستبدُونَ, وعَلَيْهِ يحومُ كُلُّهُم مَداراً, فما من نعمةٍ واصلةٍ أو رحمةٍ مُتراسلةٍ إلَّا على يدَيْهِ أُرسلت مدرارا, فهو بابُ اللهِ العظيمِ, وصراطُهُ المستقيم, وغيثُهُ

النَّافعُ إكثارا, فلولا طلعتُه الكريمةُ, وامداداتهُ العَميمةُ, الفاتحةُ قلوباً وأبصاراً ما استطعمَ لذيذَ الوصلِ ونعيمَهُ, ولا عرفَ كأسَ الحُبِّ ونديمَهُ, ولا استنشقَ صَبٌّ من شميمهِ عرارا, صلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَيْهِ وعلى آلهِ المُكَمِّلِ شرفَهم بشرفهِ وكَمَالِهِ السَّامِينَ مَجداً وفَخاراً, وعلى صحابتهِ الأبرارِ, المنتخَبِينَ الأخيارِ مهاجرينَ وأنصار.

أمَّا بعدُ فإنَّ أحسنَ ما يَصرِفُ إليهِ الإنسانُ اهتمامَهُ ويصرفُ فيهِ لياليهِ وأيَّامَهُ ويعملُ فيهِ فكرَهُ وأقلامَهُ، ويجعلُ ذكرَهُ نديمَهُ ومُدامَهُ, ويَتَّخذُهُ محرابَ وجهِهِ وإمامَهُ، ويقصدُ فيهِ سَمتَهُ وأمامَهُ، ويقتَنِي ذُخرَهُ الأسنى, ويجتلِي بِكرَهُ الحَسَنا، ويقتبسُ من مشكاةِ نورهِ، ويَستضيءُ بشموسهِ وبُدورِهِ، ويَرتعُ في خمائلِهِ ورِياضهِ ويَكرَعُ من مَواردهِ وحِياضهِ, ويتَّضِخُ مِنْهُ بأذكى عِرقٍ وطِيبٍ, ويتذكَّرُ بِهِ المنزلَ والحبيبَ، محاسنُ أهلِ اللهِ الأوْلياءُ, وخاصَّتُهُ الأصفياءُ, حزبُ اللهِ وأهلُ حَضرتهِ الفائزينَ بشهودِهِ ونظْرَتِهِ, المجذوبينَ إليهِ والمحبوبينَ لديهِ الواقفينَ بينَ يدَيْهِ والعاكفينَ عَلَيْهِ, السَّاجدةُ للهِ على الدَّوام قلوبُهُمْ, والحافظةُ لعهدهِ سرمداً شهاداتُهُم وغيوبُهُمْ, مظاهرُ آياتِ المُصطفى ونُوَّابِهِ الخلفاءُ, الواردينَ من مِنهَلِهِ الأروى والشَّاربينَ مِنْهُ زُلالاً صَفْواً, المُتخلِّقينَ بشيَمِهِ وخِلالِهِ, والمُتَّبعينَ لأقوالِهِ وأفعالِهِ وإنَّ مِمَّنْ أكرَمَهُ اللهُ بهذهِ الكرامةِ، وأحلَّهُ بمكانتِها وأقامَهُ, وأنزلَهُ مِنْها أعلى مرتبةٍ ومرقبَةٍ, وأولاهُ مِنْها أعظمَ آيةٍ ومَنقبَةٍ, وحازَ في مَربَعِها الخصيبِ أكبرَ حظٍّ وأوفرَ نصيبٍ, سَيِّدَنا وسندَنا ووسيلتَنا إلى ربِّنا, الشَّيخَ الواصلَ القدوةَ الكاملَ الطَّودَ الشَّامخَ, العارفَ الرَّاسخَ, جبلَ السُّنَّةِ والدِّينِ, وعَلَمَ المُتَّقينَ والمُهتدينَ الواضحَ الآياتِ وسِرَّ الأسرارِ, الفائضَ البركاتِ والأنوار, البحرَ الزَّاخرَ الطَّامي المعترفُ بخصوصيَّتهِ الخاصُّ والعامُّ, نادرةَ الزَّمانِ, ومصباحَ الأوان أبا العبَّاس سَيِّدي أحمدَ بنَ الوليِّ الشَّهيرِ العارفِ الكبيرِ الشَّيخِ الإمامِ القُدْوةِ الهُمامِ المُربِّي النَّفَّاعِ النَّبويِّ الإتِّباعِ أبي عبدِ اللهِ سَيِّدي مُحمَّد بن عبدِ اللهِ

مَعن ما، وإنِّي لمَّا مِنَ اللهِ عليَّ بمعرفتهِ, والإنحياشِ إلى حزبهِ وزُمرتِهِ ورأيتُ من سِيَرِهِ وشمائلِهِ، ومَحاسنِهِ وفَضائلِهِ.

وسمعتُ من كلامهِ ومعارفهِ وأشارَاتهِ ولطائفهِ ما عزَّ وجودُهُ, وقَلَّ ورودُهُ, وعُدِمَ مثلُهُ, وفُقِدَ شكلُهُ مِمَّا هو جديرٌ أنْ يُفادَ ويُستفادَ, ويُقصدَ إليهِ ويُرادَ, وتُسطِّرُهُ في الطُّروسِ الأقلامُ, وتدوِّنُهُ في الدَّواوينِ الأعلامُ, حدا فيَّ ذلكَ معَ ما طلبَهُ منِّي بَعضُ الإخوانِ، والفقهاءِ الأعيانِ، أنْ أتعرضَ لِمَا تيسَّرَ لديَّ, وساقَهُ اللهُ إليَّ , من التَّعريفِ بِهِ وبطريقِهِ, وعِرفانهِ وتحقيقِهِ, ونشأتهِ وسيرتِهِ, وخلُقهِ وشيمَتهِ, وكلامهِ وإشارَاتهِ, ومكاشفاتهِ وكراماتهِ وغيرِ ذلكَ من مآثرِهِ وآياتهِ فجمعْتُ في هذا التَّأليفِ ما استحضرْتُهُ من ذلِكَ، مِمَّا هو بَعضُ ما هُنالِكَ, إسعافا لمَنْ طلبَ, وإتحافاً لذوي الرُّغَبِ, وإعانةً لذوي الإعتبارِ, وإبانةً لأهلِ الاستبصار, وإفادةً لأهلِ المحبَّةِ والوِدادِ, وهدايةً لذوي الإنتسابِ والاستنادِ, إذ التَّعلُّقُ بأهلِ اللهِ واللِّياذِ بجنابِهِمْ، والانحياشِ إليهِم والوقوفِ ببابِهِمْ, تعلُّقٌ بجنابِ اللهِ الكَريمِ, ووقوفٌ ببابهِ العظيمِ, وتَعرُّضٌ لرحمتهِ العَميمةِ ونعمتِهِ الجسيمَةِ.

وفي حديثِ الطَّبراني

" إنَّ لربِّكُمْ في أيَّامِ دهرِكُم نفَحاتٍ فتعَرَّضُوا لَها لَعلَّهُ أنْ تُصيبَكَمْ نفحةٌ مِنْها فلا تُشقَوْنَ بعدَها أبداً ".

فيا فوزَ الذين نهضُوا إليها, وتعرَّضُوا لها, فاستمَدُّوا من تِلكَ النَّفحةِ مدداً، وإذا كانَ عِندَ ذكرِهم كَمَا في الأثرِ الموقوفِ والخبرِ المعروفِ, تتنزَّلُ الرَّحَماتُ وتتِمُّ عواطرُ النَّسماتِ، فما بالُك بنشرِ محاسنِهم ومفاخرِهم، وتعدادِ مناقبِهِمْ ومآثِرهم وذِكرِ سِيَرَهِم النَّبويَّةِ, وأخلاقِهم المُصطفَويَّةِ التي هي هدى ونورٌ وشِفاءٌ لِمَا في الصُّدورِ ودواءٌ للقلوبِ, وجَلاءٌ للكُروبِ, وفتحٌ للبَصائرِ, ونفعٌ للسَّرائرِ, وهدى للسَّالكِ والسَّائرِ, يُطرِبُ السَّامعَ حديثُها, ويَحُثُّ الأشواقَ إلى حضرتِهم حثيثُها وما مُلئتِ الدَّواوينُ والدَّفاترُ، ولا فاهتِ الأفواهُ والمحابرُ بعدَ شمائلِ رسولِ

اللهِ وسِيَرِه وشِيَمِهِ الطَّاهرةِ وأثرِهِ بأفضلَ من أخبارِهم ومَكارِمِهم وآثارِهم، إذ هُمْ أصحابُهُ الصُّحبة المعنويَّة, ومعجزاتُهُ الباقيةُ السَّرمدِيَّةُ, وللهِ دَرُّ القائلِ فيهِمْ

يا سادَتِي يا أفضلَ السَّــــاداتِ   لأُزيننَّ بذكرِكُمْ أوْقاتِـــي
يا خيرَ صَحبِ مُحمَّد مِنْ بعدِهِ   يا أفضلَ الأحياءِ والأمــواتِ

ونحن وإنْ لم نكنْ من أهلِ الإتِّباعِ, ولا من الأشياعِ حقيقةً والأتْباعِ, فَحَوْلَ نفحاتِهِم نحومُ, وبشيءٍ من بركاتِهِم نَرومُ

خُذْ ما دَنا إنْ فاتَكَ الأجلُ   إنْ لم يُصِبْها وابلٌ فطلٌّ[1]

وجديرٌ لِمَنْ ردَّدَ أخبارَهُم, واستمعَ آثارَهُم، وأكثرَ حديثَهُم، وأحبَّ قَديمَهُم وحَديثَهم أن يدخلَ دَيْرَهُم, وينالَ سِرَّهُم أو يَعْلَقَ منها بفائدةٍ تكونُ منفعتُها عَلَيْهِ عائدةً وفي معنى ذلِكَ قلتُ

حدِّثِ السَّمعَ بالمَحاسِنِ مِنهُمُ   فالحَديثُ لنا نديمُ النُّفـــوسِ
فإذا ما سُقيتَ بكـــــأسٍ   زالَ عنْكَ من العَنا كُلّ بـُوسِ

جعلَنا اللهُ مِمَّنْ أحبَهُمْ وتبِعَ طريقَهُم وحزبَهُمْ ورزقَنا التَّلذُذَ بِخَبرِهم واستحسانِ سيرَهِمْ وأثَرِهِم.

واعلمْ أنّي لا أستوفِي ما لِسيّدِنا أحمدَ ﷺ من المآثِرِ والآياتِ والمَناقِبِ والكراماتِ أبدَ الآبدينَ ودهرَ الدَّاهِرينَ, لأنّي كُلَّما تذكرْتُ فضيلةً وجدْتُ فضائلَ أُخرى, وكُلَّما تدبَّرْتُ آيةً رأيتُ أكبرَ من أُختِها إلى هلُمَّ جرًّا لا سيَّما وهو ﷺ باقٍ في قيدِ الحياةِ لهذا العهدِ سنةَ اثنتينِ وتسعينَ بتقْديمِ الفَوقيَّةِ وألفٍ فكُلَّما يردُ عليكَ ذكرَهُ فإنَّما هو بَعضُ ما فاتَ مِمَّا سلفَ قَبلَ هذا التَّاريخِ وخلف من خلفٍ،

[1] . هذا البيتُ للمؤلف.

وإنِّي كُلُّ ما أثبتُّهُ هنا وسطَّرتُهُ فهو مِمَّا حضرتُهُ أو تنزَّلَ منزلةَ ما حضرتُهُ ولا استطردُ شيئاً من المسائلِ العِلميَّةِ وإنْ ناسبَ استطرادُه إلَّا نادراً مِمَّا تعيَّنَ للضَّرورةِ إيرادُه بحيثُ يكونُ على اختصارٍ وعجلَةٍ واقتصارٍ حِرصاً على جمعِ سيرتهِ السَّنيَّةِ نسَقاً واحداً وتيسيراً لِسَماعِها كَذلِكَ دونَ أنْ تُمازِجَ زائداً, وقَدْ جئتُ بِها والحمدُ للهِ على إنموذجٍ حسنٍ وعلى أتقنِ طريقٍ وسَنَنٍ، ورتَّبتُها ترتيباً وبوَّبتُها تبويباً وهذا برنامجُ الأبوابِ لتتبيَّنَ مناهجَ الكتاب

البـــابُ الأوَّلُ . في نسبهِ وأبوَيْهِ وعشيرتهِ الأقربينَ إليهِ.

البابُ الثَّـــاني . في نشأتُهُ وبدايتُهُ وأخذُهُ طريقَ هدايتِه.

البابُ الثَّالــثُ . في مواجدِه وأحوالِه ومقامِه المُتَّصِفِ بِهِ وكمالِه.

البابُ الرَّابـــعُ . في سيرتهِ السَّنيَّةِ وجُملٍ من اخلاقِه السَّنيَّةِ.

البابُ الخامسُ . في كرمهِ وسخائِه وعظيمِ فُتوَّتِه ووفائِه.

البابُ السَّادسُ . في عُلُوِّ همَّتِه وورعِه وزُهدِه وحرّيتِه.

البابُ الســابعُ . في دلالتِهِ على اللهِ وجمعهِ عَلَيْهِ وسَوْقِهِ الأقوامَ بحالِهِ ومقالِهِ إليهِ.

البابُ الثَّــامنُ . في كلامهِ وأشارَاتهِ وبعضِ ما سمعتُ من تقريراتهِ.

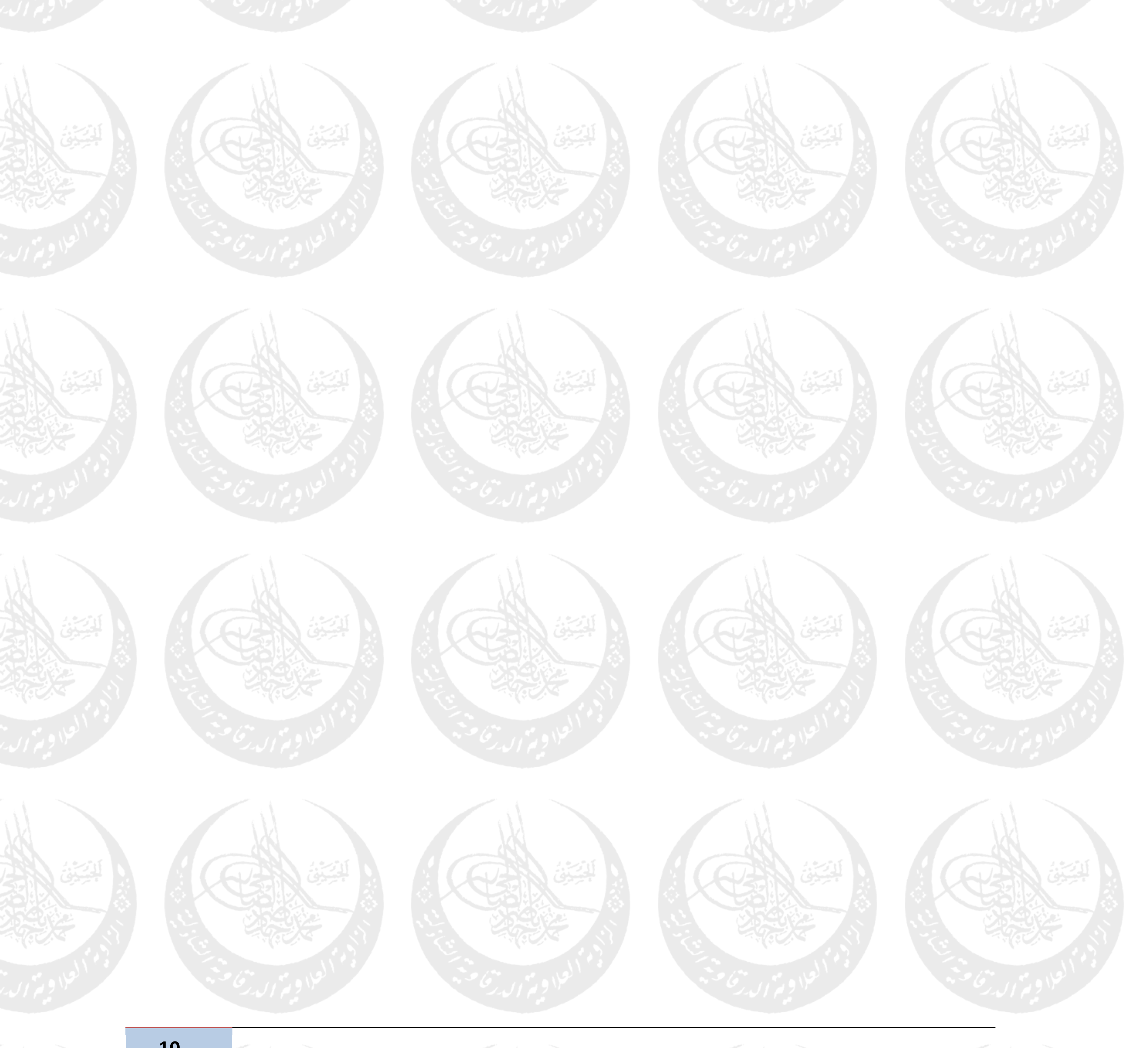
البابُ التَّــاسعُ . في جُملَةٍ من كراماتهِ وبعضِ ما جرَى من تصريفاتِهِ.

البابُ العاشــرُ. في شيخهِ الهُمامِ ومشايخِ شيخهِ الأعلامِ.

البابُ الحادي عشرَ. في أسانيدِ طريقهِ وتحريرِ رفْعِها وتحقيقِهِ.

البابُ الثَّاني عشرَ . في بَعضِ ما قيلَ فيهِ من القصائدِ الشِّعريَّةِ المُنبِئةِ عنْ محاسنهِ السَّريَّةِ أوردتُها آخرَ الكتابِ لتكونَ مِسكَ خِتامِهِ ويكمُلَ فيهِ ما يُستملَحُ من الكلامِ نثرِهِ ونِظامِهِ, ويظفرُ المُحِبُّ بمرامِهِ, ويشفي غليلَ لوعَتهِ وغرامِهِ وسمَّيتُهُ " **المقصَدُ الأحمدُ في التَّعريفِ بسيِّدِنا ابنِ عبدِ اللهِ أحمدَ** ".

وإلى اللهِ الاستنارةُ وعَلَيْهِ الاعتمادُ ومِنهُ الفتحُ والإمدادُ والتَّوفيقُ والإسعادُ فهو الكريمُ الجوادُ وبِهِ سُبحانَهُ القُوَّةُ والإعانةُ, وعَلَيْهِ التَّعويلُ في الإتمامِ والتَّكميلِ فلا قُوَّةَ إلَّا بِهِ ولا ركونَ إلى لِعَليّ جَنابهِ, فهُوَ الوليُّ الكفيلُ وهو حسبي ونِعمَ الوكيلُ.



البابُ الأوَّلُ في نَسبِهِ وأبوَيْهِ وعشيرَتهِ الأقربينَ إليهِ

نسبُه رضي الله عنه

هو الشَّيخُ الإمامُ, القَدْوةُ الهُمامُ, مصباحُ الزَّمانِ, وعينُ الأعيانِ, العارفُ الكاملُ, والمُحقِّقُ الواصلُ, العالِمُ باللهِ والنَّاصرُ لسُنَّةِ رسولِ الله، ذو السِّيرةِ النَّبويَّةِ والاخلاقِ المُحمَّديَّةِ, بحرُ التَّوحيدِ, ومعدِنُ التَّفريدِ، الوارثُ الجامعُ المُربِّي النَّافعُ, الدَّالُّ على اللهِ بحالِهِ ومقالهِ, والدَّاعي إليهِ بِكُلِّ خِلالهِ وفِعالهِ صدْرُ الصُّدورِ الفائضُ النُّور, ذو الآياتِ الظَّاهرةِ والكراماتِ الباهرةِ, الحجَّةُ الأعمدُ شهابُ الدِّين سَيِّدُنا أبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ الشَّيخِ الإمام قَدْوةِ الإسلامِ الوليِّ الشَّهيرِ العارفِ الكبيرِ أبي عبد اللهِ سَيِّدي مُحمَّد الفاضلِ الخيِّرِ الاجَلِّ الحسيبِ الأصيلِ المُبجَّلِ أبي عبد اللهِ مُحمَّد عبد اللهِ بنِ مِعنِ الأندَلُسي المَحتدِ الفاسي الآباءِ والمولِدِ, القاطنِ بالمَخفيَّةِ[1] من عَدْوَةِ فاسِ الأندَلُسِ وبها وُلِدَ ونشأ يُعرفُ والدُهُ قديماً بِمعَن والآن بابنِ عبدِ اللهِ وهو مِنْ ذُرِيَّةِ يعقوبَ المنصورِ المُوحِدي.

أخبرَنا بِهِ غيرَ واحدٍ مِنهُمْ عنْ كبارِهِم، ويعقوبُ كوميُّ السَّلفِ مُضريُّ الأصلِ من قيسِ عيلان بالمُهملَةِ بنِ مُضرٍ كَمَا ذكرَهُ جماعةٌ من المُؤرِّخينَ لدولتِهِم وهو الصَّحيحُ وأصلُه من خطِّ حفيدِهِ الأميرِ أبي مُحمَّد عبدِ الواجد حسْبَمَا نقلَهُ ابنُ أبي زرعٍ وغيرِه.

---

[1] . المخفية هي القسم الغربي من مدينة فاس القديمة

وقالَ بَعضُ الأعلامِ المؤرخين إنَّ يعقوبَ المنصورَ شريفُ النَّسَبِ حسنيٌّ إدريسيٌّ من أبناءِ مُحمَّد بنِ القاسمِ بنِ إدريسٍ ورفعَهُ فقالَ يعقوبُ بنُ يوسف بنُ عبدِ المُؤمنِ بنُ عليٍّ بنُ علون بنُ يعلى بنُ مروانٍ بنُ نصرٍ بنُ مُحمَّد بنُ عليٍّ بنُ مُحمَّد بنُ القاسمِ بنُ إدريسَ بنُ إدريسَ بنُ عبدِ اللهِ بنُ حسنٍ بنُ الحسنِ بنُ فاطمةَ وعليٍّ رضي الله عنهما.

وسلفُ سَيّدِنا أحمدَ ﷺ كانُوا رُبَّما يذكرُونَ شرفَ النَّسَبِ لهُمْ فيما بينَهُمْ ويُمسكُون عنهُ ولا يُظهرونَهُ حسْبَما أخبرَنا بذلِكَ أقاربَهُم وبنوهُم ولعلَّ إمساكَهُم عنهُ وقعَ احتياطاً لِما قيل من أنَّ يعقوبَ من قيسِ عيلان، وأوصى الشَّيخُ سَيّدي مُحمَّد بنُ عبدِ اللهِ والدُ سَيّدِنا أحمدَ رضىَ الله عنهُما أولادَهُ أنْ لا يذكُروا القولَ بالشَّرفِ بل يدَّخرونَهُ للآخرةِ إنْ كانَ.

وقَدْ اتَّفقَ للشَّيخِ الوليِّ الكبيرِ أبي الحسنِ سَيّدي علي حمامُوش دفينَ خارجَ بابِ الفُتوحِ مثل هذا في نَسبِهِ لكونِهِ مِنْ ذُرِيَّةِ يعقوبَ المذكور أيضاً فقيل رُسِمَ شرفٌ لهُ بعلاماتٍ كثيرةٍ وقفْتُ أنا عَلَيْهِ مرفوعاً مِنْهُ إلى يعقوبَ ثُمَّ إلى الحسنِ بنِ عليٍّ ﷺ كَمَا تقدمَ، وذكَرَ فيهِ أنَّهُ لمَّا إطَّلَعَ على كتابِ الفقيهِ العالِمِ العلَّامةِ المُؤرِّخِ أبي العبَّاسِ أحمدَ بنِ ... واندثر محل ما بعدَ لفظ ابن، ورأى ما فيهِ التَّنصيصِ على شرفِ يعقوبَ رسمَهُ كَذلِكَ تبرُّكاً ورجاءَ أنْ يكونَ يعقوبُ من آلِ البيتِ فيندرِجُ هو فيهِ ولكُلِّ وجهٌ والأوَّلُ أحوطُ، وبالجُملةِ فنسبُهُما أعني الشَّيخينِ سَيّدي مُحمَّد وسيّدِي علي على كُلٍّ من القولَيْنِ عربيٌّ.

وأخبرَنا صديقُنا ومفيدُنا السَّيّدُ العالِمُ أبو عبد اللهِ سَيّدي المهدي بنُ أحمدَ بنُ عليٍّ بنُ الشَّيخِ أبي المحاسنِ سَيّدي يوسفَ الفاسي حفظَهُ اللهُ[1] أنَّ سَيّدَنا أحمدَ ﷺ قالَ لهُ يوماً وهو في حالةِ فيضٍ قيل لي يَعني غيباً ما نسبُك؟ فقلتُ عربي.

---

[1] . أبو عيسى مُحمَّد المهدي بن أحمد بن علي بن الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي، العالِمُ النحريرُ الفقيهُ العُمدةُ الشهير المحدث البركة، قرأ على والده وعمه عبد القادر الفاسي وابن عمهما مُحمَّد بن يوسف الفاسي وغيرهم، وأخذ عن

ومَعَن الذي كانَ يُدعى بِهِ والدُهُ وسلفُهُ من قَبلُ الظَّاهرُ أنَّهُ اسمُ أحدِ آبائِهِم، والنَّاسُ ينطقونَ بِهِ بفتحِ الميمِ والعين معاً، فيُحتمَلُ أنْ يكونَ بعدَ العينِ ألفٌ والميمُ الأوَّلُ مضمومٌ على وزنِ اسمِ المفعولِ" مُعَان مِنْ أعانَ " إلَّا أنَّهُم صحَّفُوه، ويُحتملُ أنَّ لا ألفَ وأنَّ العينَ كانَتْ مُسكَّنةً في الأصلِ ثُمَّ خُفِّفتْ بالفتحِ فيكونُ جارياً على القاعدةِ المعلومةِ في الثُّلاثِي الذي وسطُه حرفٌ خَليٌّ من جوازِ الفتحِ والسُّكونِ في وَسطِهِ، وهذا هو الظَّاهرُ لِمَا عُهِدَ من التَّسميةِ بِمَعْنٍ بسُكونِ العَيْنِ في المُتقدّمينَ ولسلامتِهِ من ادِّعاءِ التَّغييرِ واللهُ أعلم.

والدُه ﷺ

وأبوه ﷺ هو الشَّيخُ الإمام كهفُ الإسلامِ وملاذُ الأنامِ، وملجأُ الخاصِّ والعامِّ, الوليُّ الشَّهيرُ الصِّدِّيقُ الكبيرُ, العارفُ الكاملُ المُحقِّقُ الواصلُ, المُتَحقِّقُ بالأحديَّةِ وذو الشُّهودِ للذَّاتِ العليَّةِ, المُتمكّنُ الرَّاسخُ الطَّوْدُ الشَّامِخُ, الكاملُ في الحقيقةِ والشَّريعةِ غايةَ الكمالِ, والبالغُ فيهما مبلغَ كُبَراءِ فُحولِ الرِّجالِ, الوارثُ الجامعُ المُربِّي النَّافعُ, الدَّالُّ على اللهِ والجامعُ عَلَيْهِ والدَّاعي بحالِهِ ومقاله إليهِ, حُجَّةُ المُريدينَ ومَحجَّةُ المُسترشدينَ أبو عبد اللهِ سَيّدي مُحمَّد بنُ مُحمَّد بنُ عبدِ اللهِ بن مَعَن.

وُلدَ ﷺ أي سيدي مُحمَّد بنُ عبدِ اللهِ ﷺ تقريباً سنةَ ثمانٍ وسبعين بتقديمِ السِّينِ وتسعمائة بتقديم الفَوقيَّةِ، ونشأ في عفافٍ وأمانةٍ وحفظٍ وصِيانَةٍ وتُقى وديانَةٍ, محفوظاً بحفظِ اللهِ سُبحانَهُ محروساً بالعِنايَةِ, محفوفاً بالرِّعايةِ، كريمُ الأخلاقِ والخِلالِ الطَّيِّبُ النَّفسِ والفِعالِ, كثيرُ الحَياءِ والأدبِ، جميلُ المرافقةِ

الشيخ الخصاصي وصحب الشيخ العارف بالله مُحمَّد بن عبد الله معن، وتهذب به وعنه جماعة منهم الطيب بن مُحمَّد الفاسي وغيرهم، له مؤلفات منها " ممتع الأسماع في الجزولي وما لهُ من الأتباع " و " تحفة أهل الصديقية في الطريقة الجزولية الزروقية " وغيرها كثير. شجرة النور الزكية ج1 ص473.

والطَّلبِ، شديدُ البُرورِ بوالِدَيْهِ, حريصاً على ارضائِهما وتعطُّفُهما عَلَيْهِ, عليُّ الهِمَّةِ نهيضُ العَزْمةِ مُقبِلاً على الجدِّ والإجتهادِ, مائلاً إلى العُزلةِ والإنفرادِ مُتطلِّباً للدِّينِ وسُننِ المُهتدينَ, تاركاً لِمَا لا يعنيهِ، ومُطرِحاً ما لا يُجديهِ, مُشتغلاً بالقِراءةِ مُعتاداً للتِّلاوةِ.

حفظَ القرآنَ العظيمَ في صِغَرِهِ حفظاً جيِّداً، وجوَّدَهُ بروايتَيْ نافعٍ على الشَّيخ العالِمِ الصَّالِحِ الاستاذِ أبي مُحمَّد سَيِّدي الحسنِ بنِ مُحمَّد الدَّراوي دفين خارج بابِ الفُتوحِ وعلى غيرِهِ من أساتذةِ وقتهِ, وأخذَ في طلبِ العِلمِ زماناً، ثُمَّ اشتغلَ بالتَّكسُّبِ، وحُببتْ إليهِ العِبادةُ, وتاقَتْ هِمَّتُهُ للزَّهادةِ, فكانَ يأتي من الطَّاعةِ جُهدَ الاستطاعةِ, ويكثِرُ القيامَ بالنَّافلةِ اللَّيالي المُتطاوَلةِ، وعلَقَ بزيارةِ الشَّيخِ أبي عبدِ اللهِ التَّاوُدي نفَعَنا اللهُ بهِ، فكانَ يواظبُ عليها مُلتمِساً لبركتهِ ومُعتقداً لمشيخَتهِ حتَّى إذا بلغَ الأشُدَّ وبلغَ حدودَ ثلاثينَ سنةً، أرشدَهُ اللهُ تعالى بسابقِ عِنايتِهِ لِمَا أرادَ بِهِ من كرامتهِ، فجمعَهُ بشيخِ طريقةٍ، وأقامَ تحقيقَهُ الشَّيخُ الإمامُ العالِمُ العارفُ الكاملُ الرَّاسخُ أبي المحاسنِ سَيِّدي يوسفَ الفاسي نفَعَنا اللهُ بِهِ وأفاضَ علَيْنا من بركاتهِ.

وسببَ ذلِكَ أنَّهُ كانَ يزورُ معَ والدِه الشَّيخَ القُطْبُ سَيِّدَنا عبدَ السَّلامِ بنَ مشيشٍ نفَعَنا اللهُ بِهِ، فطلبَ مرَّةً عِندَهُ أنْ يجمعَهُ اللهُ بشيخٍ يُوصلُه إليهِ, ويَدلُّهُ عَلَيْهِ, فظفرَ هُنالِكَ بمرامهِ وتعيينِ إمامِهِ, فَبينَما هو بعدَ ذلِكَ مارٌّ بسقيفِ المَخفيَّةِ إذ أحسَّ بِقلبِهِ وعَقلهِ قَدْ ذهبا إليهِ ولم يشعرْ بما هُنالِكَ، وكانَ سَيِّدي يوسفُ بِها فاتَّفقَ أنْ لقيَ بعدَ ذالِكَ رجلاً مِنْ أصحابِهِ فأرشدَهُ إليهِ ودَلَّهُ عَلَيْهِ، فعَلقَ بِهِ قلبُهُ وذهب إليهِ، فعندما وقعتْ عينُهُ على عَيْنِهِ غابَ فيهِ وانجمعَ عَلَيْهِ، كَمَا أخبرَ بذلِكَ عنْ نفسهِ ﷺ فصحبَهُ وأكبَّ على خدمتهِ إكباباً, وانصبَّ عليها انصباباً, وأنفق جميعَ ما ورثَهُ من أبيهِ، وكانَ ورثَ مِنْهُ مالاً عريضاً جِدَّاً

فصرفَهُ في جانبهِ وفي الفُقراءِ والمساكينَ حتَّى لم يبقَ بيدهِ دينارٌ ولا دِرهَمٌ وجعلَ يأكلُ من عملِ يدَيْهِ وما يتناولُهُ من الأسبابِ.

سمعتُ من ابنهِ سَيّدِنا أحمدَ ﷺ ومن غيرِ واحدٍ مِنْ أصحابِهِ أنَّهُ أُعطيَ مِمَّا ورِثَهُ من تركةِ أبيهِ اثني عشرَ مائةَ دينارٍ ذهباً فرَّقَها في القراطيسِ على الفقراءِ المساكينَ قرطاساً قرطاساً كلٌّ على حسبهِ، فشكَتْهُ أُمُّهُ إلى الشَّيخِ سَيّدي يوسفَ فكلَّمَهُ في ذلِكَ فقالَ لهُ

" يا سَيِّدي إنّي نبذتُ الدُّنيا وراءَ ظَهرِي وأعطيتُها بالقَفا واللهِ لا أرجِعُ لها أو قالَ لا ألتفِتُ إليها أبداً ".

فَسُرَّ بذلِكَ الشَّيخ وأعجبَهُ، وكانَ يُلازمُ الشَّيخَ ولا يُفارِقُهُ ويُسرِعُ في قضاءِ حاجاتهِ مُتلذِّذا بملاقاتِهِ ومناجاتِهِ، فتُعجِبُ الشَّيخَ سخرته وتَحفى عَلَيهِ من فِطرَتِهِ.

وكانَ نزلَ بِهِ حالٌ عظيمٌ وجذْبٌ قَوِيٌّ، ورُبَّما جرى مِنْهُ على ظاهرِهِ فيدورُ معَ حيطانِ الزّاويةِ هائماً من غيرِ إسراعٍ ولا إزعاجٍ, وجرى عَلَيْهِ في أوّلِ أمرِهِ ذِكْرُ اسم الجلالةِ مُفرداً وامتنعَ من ذِكْرِ النَّفي والإثباتِ، فأتى الشَّيخَ وأخبرَهُ فقالَ لهُ

" لا تَخَفْ واذكُرْهُ ما شِئْتَ ما دُمتُ لكَ حيّاً ".

ولمَّا وُلِد في الطَّريقِ عِندَ سَيّدي يوسفَ، جاءَ أهلُ اللهِ يُهنِّؤُونَه بِهِ، وكانَ أولاً يفرحُ بالوجدِ ويحزَنُ للفقدِ، فبلغَ ذلِكَ الشَّيخُ فلمَّا جلَسَ بينَ يدَيْهِ قالَ لهُ

" وجدْتُ قلبِي فقدتُ قلبِي لا كانَ قلبِي "

فَما بالَى بعدَها.

وتحقَّقَ بالعبوديَّةِ والرِّضى عنِ اللهِ في جميع الأحوالِ، وكانَ لا يسمعُ شيئاً إلَّا وعاهُ وانتفعَ بِهِ لمَّا جعلَ اللهُ لهُ من النَّجاحِ وأهَّلَهُ إليهِ من الصَّلاحِ.

قالَ ﷺ

" كانَ الشَّيخُ لا يذكُرُ لنا أمراً من الطَّريقِ إلَّا مرَّةً واحدةً فنقومُ بِهِ ولا يحتاجُ إلى إعادتِهِ علَيْنا ".

وقَدْ انتفعَ ﷺ بالشَّيخِ سَيِّدي يوسفَ نفَعَنا اللهُ بِهِ انتفاعاً قويَّاً وشَرِبَ مِنْهُ مشرباً رويَّا وعلى يدَيْهِ كانَتْ لهُ الولادةُ وكثيرٌ من التَّربيةِ والافادةِ وإليهِ ينتسبُ, صحبهُ ﷺ من السَّنةِ التي ماتَ فيها تلميذُه الوليُّ ذو الإغاثةِ سَيِّدي إبراهيمُ بنُ عليٍّ الصَّيَّادُ رحِمَهُ اللهُ إلى أنْ تُوفيَ أعني الشَّيخَ سَيِّدي يوسفَ الفاسي سنة ثلاث عشرة وألف وذلِكَ أربع سنين أو ما يقرَبُ مِنْها.

ثُمَّ صحبَ بعدَهُ وارثَ حالهِ أخاه الشَّيخَ الإمامَ العالِمَ العارفَ الفيَّاضَ أبا مُحمَّد سَيِّدي عبدَ الرَّحمنِ بنَ مُحمَّد الفاسي نفَعَنا اللهُ بِهِ عِلْماً مِنْهُ ﷺ فبصيرتُهُ أنَّهُ هو الوارثُ والخليفةُ فتبعَهُ من فَوْرِهِ, وعوَّلَ عَلَيْهِ في تكميلِ أمرهِ وهو أوَّلُ مَنْ اتَّبعَهُ, واقتفى سبيلَهُ ومهيعَهُ, فسلبَ لهُ الإرادةَ, وألقى إليهِ قيادَهُ وخدمَهُ بنفسهِ ومالهِ في مَقامِهِ وترحالهِ، ولازمَهُ مُقتفِياً لأثرِهِ إلى تمامِ عُمرِهِ، فترَبَّى بِهِ وتهذَّبَ وتكمَّلَ وبلغ بِهِ ما رجاهُ في اللهِ وأمَّلَ.

وكانَ الشَّيخُ سَيِّدي عبدُ الرَّحمنِ ﷺ يُعظِّمُ أمرَهُ، ويُجِّلُ قدرَهُ ويُظهرُ جلالتَهُ وفخرَهُ, يُنوِّهُ بِهِ تنويهاً, ويُنبِّهُ على فضلهِ تنبيها، فقالَ فيهِ

" إنَّهُ مِن أربابِ القلوبِ "

وقالَ فيهِ

" لا يُوجَدُ مثلَهُ بالمَشرِقِ ولا بالمَغرِبِ"

وقالَ

" لا يُوجدُ تحتَ قُرصِ السَّماء مثلَهُ "

وقالَ فيهِ

" ما احتزمَ أحدٌ بحزامِهِ "

وقالَ فيهِ عندما أساءَ بَعضُ النَّاسِ إليهِ

" إنَّهُ كالشَّوكَةِ في الطِّين "

يعني أنَّهُ تُصيبُ سهامُهُ أهلَ الإذايَةِ كَمَا تُصيبُ الشَّوكةُ في الطِّينِ واطئَها وليسَ لهُ بِها دِرايةٌ, وكانَ ينتظرُ بالصَّلاةِ قدومَهُ، فإذا دخلَ على بابِ الزَّاويةِ أُقيمَتْ الصَّلاةُ، ورُبَّما فاوضَهُ في شَيءٍ من أمرِ الطَّريقِ أو نحوَهُ إلى غيرِ ذلِكَ مِمَّا اتَّفقَ لهُ معَهُ مِمَّا هو دالٌّ على عُلُوِّ شأنهِ وجلالةِ مكانهِ، وما هو إلَّا[1] شهادةٌ عظيمةٌ ومَزِيَّةٌ كبيرةٌ.

وكانَ ﷺ لا يُفارقُ الشَّيخَ سَيِّدي عبدَ الرَّحمنِ نفَعَنا اللهُ بِهِ مُدَّةَ صُحبتهِ لهُ في حضَرَ ولا سفرٍ، ويُسارعُ إلى مرضاتهِ في كُلِّ ما نهى وأَمرَ ويسيرُ معَهُ أينَ سارَ, ويدورُ معَهُ حيثُ دارَ, صحبَهُ ﷺ من وفاةِ شيخهِ الأوَّلِ المذكورِ كَمَا ذكرنا إلى أنْ تُوفيَ أعني الشَّيخَ سَيِّدي عبدَ الرَّحمنِ سنةَ سِتٍّ وثلاثينَ وألفٍ، فكانَتْ مُدَّةَ صُحبتهِ إيَّاهُ ثلاثٍ وعشرين سنةً وذلِكَ مُدَّةَ ما بينَ وفاةِ هذين الشَّيخينِ رضي الله عنهما .

ولمَّا تُوفيَ سَيِّدي عبدُ الرَّحمنِ ﷺ مكثَ نحو العامَيْنِ لا يتصدَّى لأحدٍ، والإخوانُ يتردَّدُون إليهِ يستعطفونَهُ وهُو لا يُريدُ أنْ ينتصبَ لهُمْ ويقول لهُمْ

" إنَّ الحقيقةَ ورِثْتُها ولا إذنَ عِندي "

ثُمَّ وقعَ لهُ الإذنُ في جبلِ العِلْمِ عِندَ زيارتهِ للقُطبِ سَيِّدِنا عبدِ السَّلام بن مشيشٍ ﷺ ونفَعَنا بِهِ فتصدَّى للمشيخةِ مأذوناً عنِ اللهِ وعلى بصيرةٍ مِنَ اللهِ وأتاهُ النَّاسُ وقصدُوهُ وكثُرَ المُصاحبونَ لهُ فقالَ لهُمْ مرَّةً أو مراتٍ

" اركَبُوا هذِهِ الرَّقبةَ فقدْ هُدِّدْتُ بالسَّلبِ إنْ لم أخرُجْ لكم "

ولمَّا نزلَ بِهِ حالُ الخِلافَةِ قالَ صادفهُ وهو جُنُبٌ فقالَ

" اللَّهُمَّ اجعلني رحمةً لعبادِكَ".

وكانَ يوماً تكلَّمَ معَ أصحابهِ فقالَ لهُمْ كانَ سَيِّدي عبدُ الرَّحمنِ يقولُ

---

[1] . أضفنا (إلَّا) ليستقيمَ المعنى.

" إذا ماتَ الشَّيخُ ذهَبَ بحالِهِ وبقيَ الوارثُ بلا شَيءٍ ثُمَّ يرجِعُ إليهِ ما ذهَبَ".

وكُنْتُ لا أعرفُ ذلِكَ، وكانَ هو سلَّكَهُ بموتِ سَيِّدي يوسفَ، ثُمَّ سلَكتُهُ وعرَفتُهُ يعني بموتِ سَيِّدي عبدِ الرَّحمنِ، وكانَ أولاً عندما تصدَّى للنَّاسِ يجلسُ بزاويةِ شيخهِ سَيِّدي يوسف ﷺ مكثَ بِها نحوَ ستةِ أشهُرٍ، ثُمَّ بنى زاويتَهُ التي بأعلى المَخفيَّةِ على ضفَّةِ وادي الزَّيتونِ وذلِكَ سنةَ ثمانٍ وثلاثينَ وألفٍ وصارَ أصحابُهُ يقرأونَ أحزابَ الغَداةِ والعَشيِّ بِها على ما كانَ عَلَيْهِ الأمرُ زمنَ كُلٍّ من شيخَيْهِ الأخَوَينِ سَيِّدي يوسفَ وسيِّدِي عبدِ الرَّحمنِ رضي اللهُ عنهما وبقيَ بِها يَدُلُّ على اللهِ وينصحُ عبادَ اللهِ وينصرُ سُنَّةَ رسولِ اللهِ ويَحمِي أمورَ الدِّينِ وقلوبَ المُؤمنينَ بما منحهُ اللهُ من المعارفِ والأسرارِ والبركاتِ والأنوارِ فأحيا اللهُ بِهِ البلادَ والعبادَ, ونفعَ بِهِ الحاضرَ والباد، وانتشرَتْ على يدِهِ أمورُ السُّنَّةِ بالمدينة، واشرقَتْ بها آياتُها المُبينةُ.

وكانَ ﷺ قَويُّ الظَّاهرِ والباطنِ، كاملُ الأنوارِ والمحاسنِ، واسعُ المعرفةِ على المَقامِ، قَوِيُّ الحالِ راسخُ التَّمكينِ، مُتَّصفاً بكمالِ الإرثِ مِنْ رسولِ اللهِ ، وقَدْ أخبرَ بِما يُنبيءُ عنْ وصفِ حالهِ في بَعضِ ما تكلَّمَ بِهِ معَ شيخهِ سَيِّدي عبدِ الرَّحمنِ ﷺ فقالَ لهُ يوماً

" إنَّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ لا يغيبُ عَنِّي ".

فقالَ لهُ سَيِّدي عبد الرَّحمن

" ما الذي تشهدُ روحانيَّتَهُ أو جِسمانِيَّتَهُ " ؟

فقالَ لهُ

" بل روحانيَّتَهُ "

ثُمَّ بعدَ مُدَّةٍ سَأَلَهُ

" هَلْ ذلِكَ باقٍ معَهُ " ؟

فقالَ لهُ

" نَعمْ يا سَيِّدي الصِّفةُ لا تفارقُ الموصوفَ "

وهكذا أخبرَ عنْ نفسهِ الشَّيخُ الإمامُ القُطْبُ سَيِّدي أبو العبَّاسِ المُرسي رضي الله عنه حيثُ قالَ

" لو غابَ عَنِّي رسولُ اللهِ طرفةَ عينٍ ما عدَدْتُ نفسِي مِن المُسلمينَ "

وناهيك بِهِ جلالةً وشأْناً وعِلْماً وعِرفاناً.

وسَأَلَهُ أعني سَيِّدي مُحمَّداً بَعضُ المُوالينَ لهُ وقالَ لهُ

" يا سَيِّدي هَلْ رأيتَ النَّبيِّ ﷺ "

فقالَ لهُ

" نَعمْ رأيتُه ومسحَ بيدِهِ على وجهِي وكَذلَكَ كُلُّ مَنْ رآني أحبَّني "

وأشارَ أيضاً لِمَا أُعطِيَهُ من كمالِ المعرفةِ في قَضِيَّةٍ أُخرى بل صرَّحَ فيها تصريحاً.

أخبرَنا تلميذُهُ العالِمُ البركَةُ سَيِّدي المهدي بنُ أحمدَ الفاسي أدامَ اللهُ حِفْظَهُ غير ما مرَّةً أنَّهُ قرأَ عَلَيْهِ يوماً بَعضَ كَلامِ الشَّيخِ بنِ عبَّادٍ في" **رسائلِهِ الصُّغرى** " فجعلَ يتعجَّبُ مِنْهُ ثُمَّ قالَ

" واحدٌ أعطاهُ اللهُ اللِّسانَ فيعبِّرُ عمَّا أرادَ وآخرَ فيهِ ما ليسَ في أحدٍ ولكنَّهُ لا لسانَ لهُ، وهذهِ حالةُ المُتكلِّمِ معَكُم "

يعني نفسَهُ.

وفي هذا الكلامِ إخبارٌ بمُجاوزتهِ حال الشَّيخِ بنِ عبَّادٍ رضي الله عنه وأعظِمْ بِها شهادةً إذ هي شهادةُ العارفِ لنفسِهِ، وهي أقوى في الدَّلالَةِ على حالهِ الذي لا يعرفُهُ أحدٌ مثلُهُ.

وهذا الشَّيخُ ابنُ عبَّادٍ على جلالةِ مَقامِهِ الذي قالَ فيهِ الشَّيخُ زرُّوقٍ

" وهُو مَنْ هُو أنَّهُ سَيِّدُ العارفينَ بِاللهِ في زمانهِ ".

وقالَ فيهِ الشَّيخُ سَيِّدي عبدُ الرَّحمنِ بنُ مُحمَّد الفاسي ﷺ عندما وقفَ مرَّةً على قبرهِ زائراً لهُ

" أنَّهُ ممَّنْ تُشَدُّ إليهِ الرِّحالُ فكيفَ بِغيرِهِ "

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[1]

وكانَ ﷺ بهيَّ المنظرِ, جميلَ المظهرِ, مُنوَّرَ الشَّيبَةِ عظيمَ الهِيْبَةِ, جليلَ القدرِ شهيرَ الذِّكرِ, مُعظَّماً عِندَ الكافَّةِ, ذا صيتٍ بعيدةٍ وكلمةٍ نافذَةٍ في الأمرِ بالمَعرُوفِ والنَّهي عنِ المُنكرِ, وإظهارِ السُّنَّةِ وإخمادِ البِدعَةِ, يُضرَبُ بِهِ وبدارِهِ المثلُ في اتِّباعِ السُّنَّةِ, وإحياءِ الدِّينِ فهُو جديرٌ أنْ يُلقَّبَ بمُحيِّ الدِّينِ, وكانَ صاحبَ وقتهِ وفريدَ عصرهِ ومِصْرِهِ, تُصرَّفُ مصالحُ المُسلمينَ على يدِهِ ويتصرَّفُ فيها بإذنِ ربِّهِ، ويذعَنُ لهُ أهلُ الوقتِ من الوُلاةِ والقُضاةِ وغيرِهِم، ولَهُ كراماتٌ عديدةٌ طَوَيْنا ذكرَها اختصاراً, وثَنَيْنا عَنْها العِنانَ اقتصاراً، وكانَ يقولُ لأصحابهِ

" إذا عُرِضَتْ لأحدِكُم الحاجـةُ فليجلِسْ أمامي مُضمِراً لها في نفسهِ ولا يحتـاجُ أنْ يذكرَها لي ".

وكم قُضِيَتْ لهُمْ ولغَيْرِهم على يدِهِ من المآرب, وصرفَ اللهُ ببركاتِهِ عنْ قاصدِيهِ من المضايقِ والمَصائِبِ، وكانَ يُوصِي كثيراً بتصفيَةِ اللُّقمةِ وترْكِ الخِلطةِ واجتنابِ مُتفَقِّرةِ الوقتِ لغلَبةِ الهوى علَيْهِمْ وقِلَّةِ وجودِ الصَّادقينَ، وكثيراً ما يقتصِرُ على ذلكَ في وصِيَّةِ مَنْ قَصدَ زيارتَهُ أو استنصبَهُ، وكانَ شديدُ الحرصِ على سَدِّ الذَّريعةِ في كُلِّ شَيءٍ، ولَهُ في الطَّريقِ كَلامٌ نفيسٌ يُوجدُ في مكاتباتِهِ وفيما خفظَهُ عندَ أصحابِهِ وفوائدُ عِرفانيَّةٌ وحكَمٌ صُوفيَّةٌ يطولُ ذكرُها.

وكانَتْ وفاتُهُ إي سيدي مُحمَّد بن عبدالله ﷺ بعدَ ساعةٍ من طلوعِ الشَّمسِ يومَ الأحدِ ثالثَ جُمادي الثَّانيةِ سنةَ اثنينِ وستِّينَ وألفٍ، ودُفِنَ بروضةِ شيخهِ

---

[1] . المائدة 54

خارجَ بابِ الفُتوحِ وبُنِيَت عَلَيْهِ قُبَّةٌ معروفةٌ هُنالِكَ والكلامُ فيهِ ﷺ أوسعُ مِن هذا، ولعلَّنا نتعرَّضُ لهُ في غيرِ هذا الكِتابِ إنْ شاءَ اللهُ تعالى، وقَدْ عرَّفَ بِهِ تلميذُهُ وملازِمُهُ العالِمُ الصَّالِحُ المفيد أبو عبد اللهِ سَيِّدي مُحمَّد المهدي بنُ أحمدَ الفاسِي أبقى اللهُ بركتَهُ فترجَمَ لهُ كتاب " **مُمتعُ الأسْماعِ بمناقِبِ الشَّيخِ الجزُولِي ومَنْ لهُ من الأتْبَاعِ** " ترجمةً حافلَةً تشتمِلُ على نحوِ كُرَّاسَيْنِ ورُبَّما نقلْنا شيئا مِنْها مُختصَراً أو بالمعنى في جملةِ ما ذكَرْنا.

والدتُه رضي الله عنها

وأُمُّهُ ﷺ هي السَّيِّدةُ الفاضلةُ الزَّكيَّةُ الكاملَةُ الطَّيِّبةُ المُطهَّرةُ الخيِّرةُ المُنوَّرةُ ذاتُ البركاتِ الواضحةِ, والأنوارِ اللَّائحةِ والأعمالِ الصَّالِحَةِ، والمتاجِرِ الرَّابحةِ، والأخلاقِ الكريمةِ، والسِّيرةِ المُستقيمةِ أمُّ أحمدَ عائشةُ بنتُ السَّيِّدِ الأثيلِ الوليِّ الجليلِ ذي البركاتِ الغزيرةِ والأنوارِ سَيِّدي شقرون الفخَّارِ رحِمَهُ الرَّحمنُ ووالى عَلَيْهِ المِنَّةُ والرِّضوانُ.

كانَتْ رحِمَها اللهُ من الصَّالحاتِ القانتاتِ القائماتِ الحازماتِ المُطيعاتِ للهِ المُتابعاتِ لسُنَّةِ رسولِ اللهِ معنيَّةً بأمرِ الدِّينِ ماسكةً بحبلِهِ المَتينِ مصروفةَ الوِجهَةِ إليهِ مجموعةَ القلبِ عَلَيْهِ, لا تعرفُ مُنذُ نشأتْ سِواهُ, ولا تلتفتُ لِمَا عداهُ لها من الصَّلاحِ مكانةٌ عليَّةٌ, ومرتبةٌ سنِيَّةٌ, وحظٌّ عظيمٌ من البِرِّ والإحسان والتَّفضُلِ والامتنانِ.

فكانَتْ رحِمَها اللهُ كثيرةَ الإرضاءِ والبُرورِ لوالدِها سَيِّدي شقرون المذكورِ, بالغةً في ذلِكَ الغايةِ وواصلةً فيهِ حدَّ النِّهايةِ، قائمةً بأداءِ حقوقِ بعلِها الشَّيخِ سَيِّدي مُحمَّد ﷺ مطيعةً لأمرِهِ وكلامِهِ, شديدةَ الإعتناءِ بشأنهِ ومرامِهِ, تتحرى مرادَهُ وتهتمُّ بِما أرادَهُ, سالِبةً لهُ الإرادةَ ومُمتثلةً لهُ منقادةً, تُجِلُّ قدرَهُ وتعظِّم أمرَهُ,

وتُراعي فيهِ حقَّ مولاهُ وما خوَّلَهُ وأولاهُ, كثيرةَ الصَّدقةِ مِنْ عملِ يدِها على الفقراءِ والمساكينَ الضُّعفاءِ من أصحابِ بعلِها، المنتسبينَ إلى اللهِ والمجموعينَ بِهِ على اللهِ، تُواسي مِديانَهم وتُعينُ محتاجَهُم بالهِبةِ الكثيرةِ، والمِنحةِ الغزيرةِ من حيثُ لا يشعرونَ بِما صرَفَتْ من ذلِكَ علَيْهِمْ لكونِها تُمكِّنَهُ من يدِ بعلِها الشَّيخِ سَيِّدي مُحمَّد ﷺ ليُوصلَهُ إليهِم, قوَّالةً للحقِّ ناصحةً للخلقِ، تحضُّ على الدِّينِ وسُننِ المُتَّقين، وتحملُ أولادَها وأقاربَها عَلَيْهِ وتُرشدُهم بالتي هي أحسنُ إليهِ, كثيرةَ النُّصحِ لهُمْ والرَّحمةِ بِهِمْ, حافظةً للِسانِها عمَّا لا يعني آمِرَةً بذلِكَ مجتنبةً لكُلِّ ما يُتَّقى هُنالِكَ, كثيرةَ الأذكارِ والصَّلاةِ على النَّبيِّ المُختار مواظبةً عليها آناءِ اللَّيلِ والنَّهارِ.

سمعتُ سَيِّدي المهدِي الفاسي حفظَهُ اللهُ يقولُ، سمعتُ الشَّيخَ سَيِّدي مُحمَّد ابنَ عبدِ الله ﷺ عنه بعدَ موتِ زوجتِه هذِهِ يقولُ

" إنَّها كانَ لا يَفتَرُ لها لسانٌ عنِ الصَّلاةِ على النَّبيِّ ".

وذكَرَ لنا غيرُه من الأصحاب أنَّهُ سَمِعَ الشَّيخَ سَيِّدي مُحمَّد ﷺ يقولُ فيها أيضاً بعدَ موتِها

" أنَّها من التي يُزرنَ، وكانَتْ البركةُ مصحوبةً معَها في أُمورِها وكافَّةِ شؤونِها".

سمعتُ ولدَها سَيِّدَنا أبا العبَّاس ﷺ يقولُ أنَّها كانَتْ لها بُرمةٌ[1] صُغرى تطبُخُ بِها دائماً، ويأكُلُ مِنْها أهلُ الدَّارِ والأضيافِ إنْ أتَوْا لا تزيدُ على مقدارِها ولا تُبدِّلُها بغيرِها، وتتناولُ ذلِكَ بيدِها لا تدعُ من يتناولُهُ معها فيكفيهِم ذلِكَ كائنينَ ما كانُوا.

وقالَ لها مرَّةً زوجُها الشَّيخُ سَيِّدي مُحمَّد

" إنِّي أرى امرأةً تُعينُكِ وتَصنعُ مَعكِ ما تَصنَعيهِ ".

[1] . قِدر من الحجارة

وكانَتْ لا تحتكِرُ شيئا ولا تَدَّخِرُهُ بل تَصرِفُ ما يأتي من فورِهِ على العيالِ والأقاربِ، فلمَّا ماتتْ وتزوَّجَ الشَّيخُ سَيِّدي مُحمَّد ﷺ امرأةً أُخرى لم يبقَ الأمرُ على ما كانَ عَلَيْهِ وظهرَ أثرُ ذلِكَ.

وسببُ تزويجِ الشَّيخِ سَيِّدي مُحمَّد إيّاها كَمَا هو معروف وذكرَها في "**الإلماع**"[1] أيضاً أنَّهُ كانَ لهُ قبلَها زوجةٌ وأولادٌ فماتَتْ تِلكَ الزوجةُ في حياةِ سَيِّدي عبد الرَّحمنِ بنُ مُحمَّد الفاسي ﷺ فمكَثَ عَزَباً لا يذكُرُ لهُ شيئاً لأنَّهُ كانَ سلبَ لهُ الإرادةَ بعدَ وفاةِ أخيه الشَّيخِ أبي المحاسنِ كَمَا تقدَّمَ، ففكَّرَ في شأنهِ الشَّيخُ سَيّدي عبدُ الرَّحمنِ ذاتَ يومٍ، فإذا بالشَّيخِ سَيّدي شقرون الفخَّارِ قادماً فقالَ لهُ، يا سَيّدي شقرون إلَّا تُعطينا ابنتَك لسَيّدي مُحمَّد بنِ عبد اللهِ؟

فقالَ نَعمْ يا سَيّدي

فقالَ الشَّيخُ سَيّدي عبد الرَّحمن، كَمْ الصَّداق؟

فقالَ سَيّدي شقرون، ربعُ دينارٍ فانعقدَ النِّكاحُ بينهُما.

وكانَ الشَّيخُ سَيِّدي عبدُ الرَّحمنِ ﷺ هو المُتولّي لخِطبتِها ثُمَّ بقُربِ ذلِكَ بينَما الشَّيخُ سَيّدي مُحمَّد بنُ عبدِ اللهِ بمنزلِهِ لم يستعدَّ للزِّفافِ ولا تواعدُوا عَلَيْهِ إذا بسيِّدي شقرون يدقُّ البابَ عَلَيْهِ وابنته معَهُ فمكَّنَهُ مِنْها وانصرفَ. وأخبرني أخي الفقيهُ المُشاركُ أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد العربي بنُ الطيّبِ حفظَهُ اللهُ أنَّهُ سَمِعَ سَيِّدَنا أبا العبَّاسِ يقولُ في أثناء هذِهِ الحكايةِ أنَّ سَيِّدي شقرون قالَ للشَّيخِ سَيّدي عبدَ الرَّحمن عِندَ الخِطبةِ المذكورةِ

" يا سَيّدي إنَّ لي ابنتينِ والصُّغرى أحسنُ من الكُبرى وهي التي أُعطِيها إيَّاهُ".

ثُمَّ لمَّا بنى بِها سَيّدي مُحمَّد قالَ لهُ سَيّدي عبدُ الرَّحمنِ

[1]. كتاب (الإلماعُ فِي مَنْ لَم يُذكرْ فِي ممتع الأسماع) للشيخِ أبو عيسى مُحَمَّد المهدي بن أحمد بن علي بن يوسف الفاسي الذي مرت ترجمتهُ في ص9.

" كيفَ وجدْتَ أهلَكَ "؟

فقالَ لهُ، كالمُريدِ معَ الشَّيخِ.

تُوفيَتْ رضي الله عنها في شهرِ رمضانَ سنةَ سبعٍ وخمسين وألفٍ ودُفنَتْ وراءَ بعلِها الشَّيخِ سَيِّدي مُحمَّد ﷺ داخلَ القُبَّةِ.

جَدُّهُ لأبيهِ ﷺ

وجَدُّهُ لأبيهِ ﷺ هو السَّيّد الأصيلُ النَّزيهُ الجليلُ ذو المُروءةِ والصِّيانةِ والحَسَبِ والمكانةِ والدِّيانةِ والأمانةِ أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد بنُ عبدِ اللهِ معنٌ دُعيَ بِهِ كانَ رحِمَهُ اللهُ رجلاً زكِيَّاً خيِّراً مَرضِيَّاً جواداً فاضلاً وفيَّاً كاملاً عليَّ الهِمَّةِ نبيهَ الشأنِ من أماثلِ الأعيانِ, وأفاضلِ الزَّمانِ, يواصلُ الرَّحِمَ والأقاربَ, ويُواسِي الجيرانَ والأجانِبَ, كثيرَ السَّخاءِ لهُ فيهِ أفاعيلُ.

كانَ ابنُهُ الشَّيخُ سَيّدي مُحمَّد ﷺ يصفُهُ بذلِكَ ويَحكي عنهُ حكاياتٍ ومآثرَ، وكانَتْ دارُه ذاتَ عيالٍ فيهِمْ ثمانِ عشرةَ نسمَةً من أقاربهِم وغيرِهم ليسَ فيهِمْ مَنْ تجِبُ نفقتُهُ سوى زوجتِهِ وابنِه الشَّيخِ سَيّدي مُحمَّد وابنتِهِ أختِ سَيّدي مُحمَّد المُتوفاةِ زمنِ أبيها وأُمِّها، فكانَ يُنفِقُ على باقيهِم على سبيلِ الإحسانِ دائماً ويتعاهَدُ جيرانَهُ ويُسهِمُهُم من كُلِّ ما يأتي بِهِ من أجنَّتهِ، فكانَ في السَّخاءِ نظيرِ والدِ الشَّيخِ سَيّدي يوسفَ الفاسي ﷺ.

وكانَ من التُّجارِ أهلِ الأموالِ الذين يتكسَّبُونَ الحلالَ ويؤدُّون زكاةَ أموالِهم ولا ينسُون حقَّ اللهِ فيها وممَّنْ يتحرَّى في بيعهِ وشرائهِ، لهُ حانوتٌ بسوقِ القيساريَّةِ يتَّجِرُ بِها، فكانَ إذا دفعَ السُّلطانُ راتبَ الجيشِ أغلقَ بابَ حانوتهِ وتركَ

البيعَ والشِّراءَ مُدَّةَ ما بقيَ الجيشُ بالسُّوقِ, يشتري من النَّاسِ الحوائجَ والملابسَ فراراً من معاملتِهم وتطهيراً لمالهِ أنْ يختلِطَ بشيءٍ مِمَّا يُدفعُ من مالِهم.

وكانَ يسافرُ للتِّجارةِ في الحريرِ وكثيراً ما يذهَبُ إلى بلدة شفشاون بقصد ذلِكَ, فمرَّ في سفرهِ بوادٍ من أوديةِ طريقِها فوجدَهُ حاملاً مملوءً بماءِ المطرِ فجمعَ متاعَهُ ومتاعَ رجلٍ كانَ معَهُ وأكرى رجلاً ليعبرَ بِهِ سابحاً فكابدَ العابرُ من كثرةِ الماءِ مشقَّةً حتَّى خافُوا عَلَيْهِ الهلاكَ، وغرِقَتْ لهُمْ لفَّافةٌ، فقالَ الرَّجلُ المرافق لهُ، لا تخفْ أنتَ يا سَيِّدي على مَتاعِكَ لأنَّك لا تتركُ أداءَ زكاتهِ أبداً، وإنَّما وقعَ هذا بسببي.

ثُمَّ أنَّهُم أخرجُوها وأنجى اللهُ متاعَهُما معاً, وكانَ مالُهُ المصونُ بالزَّكاةِ صوناً لمالِ غيرهِ الذي لم تُؤَدَّ زكاتُهُ، وكانَ هذا المرافِقُ لهُ معَ ما لديهِ من المالِ يدَّخِرُ ما عِندَهُ ويأكُلُ سائرَ سفرهِ من طعامهِ أعني طعامَ صاحبِ التَّرجمةِ فيتركُهُ على ما هو عَلَيْهِ، وإن كانَ لا يرتَضِي لهُ تِلكَ الحالَ الدنيَّةَ كرماً مِنْهُ وفضلاً وجرياً مِنْهُ على ما اعتدادَهُ من الإنفاقِ على غيرهِ.

وكانَ يعجبُهُ الكريمُ العليُّ الهمَّةُ ويكرهُ ساقطَها الشَّحيحَ النَّفسَ، وممَّا كانَ يجري كثيراً في كلامهِ قولُ النَّاسِ في آدابهم

" إذا كانَ صاحبُك سُوقي بِعْهُ بكَلْبٍ أو بسُلُوقي "

والسُّوقي هو الذي يحانِك البيعَ والشِّراء بالأسواقِ كثيراً حتَّى يصيرَ من خُلُقهِ أنَّهُ يقاشح في كُلِّ شَيءٍ ولا يجودُ بشيءٍ، فهو كنايةٌ عمَّنْ لا فضلَ فيهِ، وقَدْ ذكَرَ هذا الكَلامَ ابنُهُ الشَّيخُ سَيِّدي مُحمَّد للشَّيخِ سَيِّدي عبدِ الرَّحمنِ رضي الله عنهما فأعجبَهُ واستحسنَهُ لِمَا فيهِ من الحِكمَةِ التي هي الحَمْلُ على عُلُوِّ الهِمَّةِ، ثُمَّ كانَ بعدَ ذلِكَ يستعيدُه مِنْهُ المرَّةَ بعدَ المرَّةِ ويقولُ لهُ

كيفَ قالَ والدُك يا سَيِّدي مُحمَّد؟

فيذكُرهُ لهُ، فيضحَكُ مِنْهُ ويعجبُهُ.

تُوفِيَ رحِمَهُ اللهُ في حدودِ عشرةٍ وألفٍ زمنَ صُحبةِ ولدِه للشَّيخِ سَيّدي يوسفَ الفاسي ﷺ ولم يتركْ وارثاً سوى زوجتِه وابنهِ الشَّيخِ سَيّدي مُحمَّد والدِ سَيّدِنا أحمدَ رضي الله عنهما، ودُفنَ بروضةٍ داخلَ بابِ الجيسةِ وكذا زوجتُه الآتي ذكرُها، وكانَ سُكناهُ بحومةِ الحفَّارينَ ناحيةَ بابِ الجيسةِ وفاس القُرويّينَ بالدَّارِ التي بإزاء مسجدِ سَيّدي الزَّيتوني هُنالِكَ عنْ يمينِ المارّ لبابِ الجيسة وبهذه الدَّارِ.

وُلِدَ لجدّه أعني" أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد بنُ عبدِ اللهِ معنٌ "[1] ولدُه الشَّيخُ سَيّدي مُحمَّد ﷺ ثُمَّ انتقلَ أعني سَيّدي مُحمَّداً إلى المَخفيَّةِ مِنْ عَدوةِ فاسِ الأندَلُسِ سنَّةَ اثنتين وعشرين وألفٍ، فاشترى بِها داراً سكنَها مُدَّةً، ثُمَّ انتقلَ إلى دارِهِ المعْلُومةِ هُنالِكَ التي وهبَها ولدُهُ سَيِّدُنا أحمدُ لِولدَيْ شيخهِ سَيّدي قاسمٍ رحِمَهُ اللهُ وهي الآن في عمارتِها.

جَدَّتُهُ لأبيهِ ﷺ

وكانَتْ جدَّتُهُ والدةُ أبيهِ الشَّيخِ سَيّدي مُحمَّد ﷺ خيِّرةً مرضيةً حسيبةً زكيَّةً كريمةَ الأخلاقِ، جميلةَ الإرفاقِ, طيِّبةَ المُعاشرةِ حسنةَ المُجاورَةِ.

كانَتْ دارُهم ذاتَ عيالٍ كَمَا تقدمَ فكانُوا إذا آذوها وأضرُّوا بها حملتْ عنْ أذايتِهِم وصبرَتْ لضَررِهِم لا تُجازي السَّيِّئةَ بالسَّيِّئةِ، فعاذُوا كلُّهُم لمَشُورتِها في الأمور وعرفُوا مرتبتَها وفضلَها علَيْهِمْ، ولم تكُنْ من أهلِ الحاضرةِ بل كانَتْ عربيةً من أهلِ الباديةِ أهداها والدُها، وكانَ من أشياخِ قومِه لوالدِ الشَّيخِ سَيّدي مُحمَّد ﷺ فكانَتْ هي وبعلَها المذكورِ من أهل الدِّيانةِ والأمانة, والحسب والمكانةِ، ومِمَّنْ فازَ بفضلِ اللهِ سُبحانَهُ, وحازَ رحمتَهُ ورضوانَهُ.

وقَدْ أخبرَ ولدُهما الشَّيخُ سَيّدي مُحمَّد ﷺ عندما زارَ مرَّةً القُطْبَ سَيّدي عبدَالسَّلامِ بنَ مشيشٍ نفَعَنا اللهُ بِهِ أنَّهُ رأى سَيّدي عبدَ السَّلامِ ﷺ وأهلُ اللهِ مُجتمعونَ عَلَيْهِ، ورأى معَهُم هناكَ أباهُ وأمَّهُ المذكورينَ قالَ لأصحابهِ " وهُمْ ينظرُونَ إليكُم وأنتُمْ لا تَرْونَهُم " وهذه مِزيةٌ لهُما وبِشارَةٌ لولدِهِما ﷺ وعنهُما، تلَّقيتُ هذا كلَّهُ من أصحابِ الشَّيخِ سيّدي مُحمَّد ﷺ وجُلَّهُ من العالمِ الأجَلّ سَيّدي المهدي[1] الفاسي حفظَهُ اللهُ وهُمْ جميعا عنِ الشَّيخِ سَيّدي مُحمَّد بنِ عبدِ اللهِ رضي الله عنه وعنَّا بِهِ وأعاد علَيْنا من بركاتهِ ونفَعَنا بِهِ.

جَدُّهُ لأُمّهِ ﷺ

وجدُّهُ لأُمّهِ ﷺ هو الشَّيخُ الوليُّ المكينُ العليُّ, ذو النُّورِ اللاَّئحِ والجذبِ الواضحِ, والمحبَّةِ الصَّادقةِ, والهِمَّةِ السَّابقةِ, والتَّوكُّلِ على اللهِ, والرِّضَى عنِ اللهِ, والنَّهجِ القّويمِ والخُلُقِ الكَريمِ, المُعمَّرُ المَبرورُ الغزيرُ البَركةِ والرَّحمةِ والنُّورِ أبو العبَّاسِ أحمدُ المدعو بِشَقرونٍ الفخَّارِ بِهِ عُرِفَ الأندَلُسي الأصلُ الفاسيُّ المنشأُ والفصلُ.

كانَ ﷺ من جُلَّةِ أصحابِ الشَّيخِ أبي المحاسنِ الفاسي ومشاهيرِهم وذوي الأحوالِ مِنهُمْ, ومِمَّنْ فُتحَ لهُ على يدَيْهِ ثُمَّ استخلفَ بعدَهُ أخاهُ الشَّيخَ أبا مُحمَّد عبدَ الرَّحمنِ ﷺ وسلبَ لهُ الإرادةَ ولازمَهُ.

قالَ لهُ الشَّيخُ أبو المحاسنِ يوماً يا ولدي أتَصبِرُ للهِ؟

فقالَ نَعمْ يا سَيّدي.

قالَ أتَصبرُ في اللهِ؟

[1] . سبقت ترجمته في ص10.

فقالَ نَعمْ.

فقالَ أتَصبِرُ عنِ اللهِ.

فقالَ لا وصاحَ صيحةً.

فقالَ لهُ هُنا صَاحَ قبلَكَ فلانٌ وفلانٌ وسمَّى بَعضَ الأكابرِ، ورُبَّما كانَ يَظهَرُ عَلَيْهِ الوجدُ ويلوحُ عَلَيْهِ أثرُ الفيضانِ، وغلبَ عَلَيْهِ الوجدُ يوماً وهو بمولاي إدريس نفَعَنا اللهُ بِهِ فصعدَ الدَّرجَ التي ببابِ الودح وعُكَّازَهُ بيدِه، ثُمَّ توجَّهَ للزَّائرينَ المُجتمعينَ خارجَ البابِ وقالَ " أقُولُ لكُمْ ".

فقالو لهُ تكلَّمْ يا سَيِّدي.

فقال

" ما رَأيْنا قَطُّ مَنْ كانَ صادِقاً معَ اللهِ وخَيَّبَهُ اللهُ، خابَ مَنْ أمَّلَ غيرَ اللهِ ".

قالَ الشَّيخُ سَيِّدي مُحمَّد بن عبدِ اللهِ ﷺ لمَّا حُكيَ عِندَهُ هذا الكَلامُ

" إنَّما قالَ ذلِكَ لأنَّهُ كانَ هُنالِكَ مَنْ هُو يَحتاجُ إليهِ ".

وجاء يوماً أعني سيدي شقرون دارَ الشَّيخِ سَيِّدي مُحمَّد بنِ عبدِ اللهِ لزيارةِ ابنتِهِ، فلمَّا خرَجَ مِن عندِها رأى يهوديَّاً مارَّاً بالطريقِ فاعتلاهُ حالٌ فوقفَ واستَنَدَ إلى حائطٍ واستعاذَ بِاللهِ وغطَّى وجهَهُ ثُمَّ جعلَ يقولُ

" حَسْبيَ اللهُ "

يُكرِّرُها ويجهَرُ بِها حتَّى كادَ يُغشى عَلَيْهِ، ثُمَّ سُرِّيَ عنهُ ووردَ عليهِ واردٌ آخرَ فجعلَ يقولُ

" الحمْدُ للهِ "

ويُكرِّرُها مادَّاً بِها صوتَهُ وظهرَ عَلَيْهِ أثرُ الوجدِ والطَّربِ والفَرحِ بِاللهِ عزَّ وجلَّ، وكانَ ذا رُتبةٍ عُليا في الرِّضى والتَّوكُّلِ والزُّهدِ في الدُّنيا, ولَهُ في ذلِك حكاياتٌ ومآثرُ وبركاتٌ.

وكانَ ﷺ أوّلَ أمرهِ لَقِيَ الشَّيخَ الإمامَ العارفَ الكاملَ سَيِّدي عبدَ اللهِ بنَ حسينٍ الشَّريفِ، وفدَ عَليهِ هو ووالدُهُ بتامصلوت وزارَهُ بِها، ولَمَّا جلَسَ بينَ يدَيْهِ، نظرَ إليهِ الشَّيخُ فدعا ببطِّيخٍ، وكانَ سَيِّدي شقرون لا يأكُلُه ولا يقْدِرُ أنْ يَشُمَّ رائحتَهُ ويكرَهَهُ كراهةً طبعِيَّةً لا يستطيعُ الانفكاكَ عَنْها، فتحيَّرَ إذ ذاكَ في أمرهِ حيرةً عظيمةً مخافةَ أنْ يَحملَهُ على أكْلِهِ فلا يُمكِنُهُ مُخالفتَهُ، فعندما وُضِعَ البَطِّيخُ بينَ يدَيْهِ أمرَهُ بالأكلِ، فانفجرَ مِن أنفِهِ دُفعةً واحدةً دمٌ قَوِيٌّ.

فقالَ الشَّيخُ

" ذلِكَ شيطانُهُ انفقَسَ يعني انفطَرَ قلبُه وهلَكَ "

ثُمَّ أكَلَ مِنْهُ امتثالاً لأمرِ الشَّيخِ، فمِنْ يومئذٍ أطلقَ عَلَيْهِ أكلَهُ ولم تبقَ معَهُ تِلكَ النَّفرةُ الطَّبعِيَّةِ البتَّة. تُوفيَ شقرون الفخّار رحِمَهُ في حدودِ سنةِ ثمانٍ وعشرين وألفٍ ولم يكنْ لهُ عقِبٌ إلّا من البناتِ، وقبرُه عِندَ رأسِ قبرِ الشَّيخ سَيِّدي مُحمَّد بن عبدِ اللهِ خارجَ القُبَّةِ، وكثيراً ما نسمعُ سَيِّدَنا أحمدَ ﷺ يذكرُهُ بِما يقتضي الثَّناءَ عَلَيْهِ في خُصوصيَّتِهِ ويحكي عنهُ في الطَّريقِ حكاياتٍ وآداباً حسنةً، وقَدْ أخبرَ يوماً عمَّا هو حالُه أو ناشئٌ عنْ حالهِ.

سمعتُ سَيِّدي المهدي بنَ أحمدَ الفاسي حِفظَهُ اللهُ يقولُ

غير ما مرَّةً، خرجتُ يوماً معَ سَيِّدي أحمدَ ﷺ لزيارةِ سَيِّدي يوسفَ الفاسي فمرَرْنا بقبرِ سَيِّدي شقرون الفخَّارِ فنظرَ إليهِ سَيِّدي أحمدُ بنُ عبدِ اللهِ فاستعظمَ أمرَهُ، وقالَ

" سُبحانَ اللهِ ما أحنَّ هذا الرَّجُل "

يشيرُ بذلِكَ ﷺ إلى وصفِ حالِهِ وما هو الغالبُ عَلَيْهِ مُخبراً عنْ كشفهِ وبصيرتِهِ كَمَا أخبرَ عنْ حالِهِ كثيرٌ من الأولياءِ الأمواتِ كَمَا سيأتي ﷺ أجمعين.

إخوانُهُ ﷺ

وكانَ لسيّدِنا أحمدَ من الإخوانِ والأخواتِ عِدَّةٌ، فمِن البنينَ أخوانِ اثنانِ

أحدُهُما. السَّيِّد أبو زيدٍ عبُد الرَّحمنِ تزيَّدَ قبلَهُ وتُوفيَ صغيراً في حياةِ والدِهِ وهو شقيقُهُ.

وثانيهُما. السَّيِّدُ أبو عبدِ اللهِ سَيّدي مُحمَّد المدعو مُحمَّد الصَّغيرُ بو زرامير تمييزاً لهُ عنْ أبيهِ لكونهِ تُسمِّيهِ السَّيِّدةُ رُقيَّةُ وهو أخو سَيِّدِنا أحمدَ لأبيهِ وأسنُّ مِنْهُ بكثيرٍ.

كانَ رحِمَهُ اللهُ خيّراً ديّناً ناسِكاً سخيَّاً على سُننِ سلفِهِ حافظاً للقرآنِ العزيزِ مُكثِراً لتِّلاوَتِهِ، شديدَ البُرورِ بوالدِه، كثيرَ الطَّاعةِ لهُ يقومُ بهِ وما يحتاجُ إليهِ وخُصوصاً في سفَرهِ وزياراتِه.

تُوفيَ رحِمَهُ اللهُ في حياةِ والدِهِ سنةَ ثلاثٍ وخمسينَ وألفٍ وخلَّف ثلاثةَ ذُكورٍ.

أوَّلُهُم. وهو أكبرُهم السَّيِّدُ أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد المدعو مُحمَّد الصَّغيرُ مُوافقةً لاسمِ أبيهِ، كانَ رحِمَهُ اللهُ خيّراً ناسكاً حافظاً للقرآنِ تالياً لهُ آناءَ ليلهِ ونهارِهِ, يختمُهُ كثيراً في اليومِ الواحدِ ما بينَ طرَفَيْ النَّهارِ واللَّيلِ مُحبٌّ لآلِ البيتِ مُعظِّماً لهُمْ ذا دِيانةٍ مُتينَةٍ, وصِيانةٍ مكينةٍ.

تُوفيَ رحِمَهُ اللهُ سنةَ ثلاثٍ وثمانينَ وألفٍ وخلَّفَ أربعةً من الأولادِ

السَّيِّدُ مُحمَّد ديِّنٌ خيِّرٌ خَمولٌ مُتواضِعٌ.

والسَّيِّدُ أحمدٌ، والسَّيِّدُ العربي، والسَّيِّدُ عبدُ اللهِ وهُمْ على هذا التَّرتيب سِنَّاً وفي قيدِ الحياةِ ولبعضِهِم أولادٌ صِغارٌ.

وثانيهم. وهو أوسطُهُم السَّيِّدُ الخَيِّرُ أبو العبَّاسِ أحمدُ، تُوفيَ وخلَّفَ السَّيِّدَ مُحمَّداً ثُمَّ تُوفيَ السَّيِّدُ مُحمَّد هذا وتركَ السَّيِّدَ أحمدَ، هو الآن في قيدِ الحياةِ حفظَهُ اللهُ.

وثالثُهم. وهو أصغرُهم السَّيِّد أبو الحسنِ علي كانَ رحِمَهُ اللهُ كريمَ النَّفسِ أبِيَّها فاضلاً جواداً مِسخاءً كثيرَ العطايا والإحسانِ تُوفِيَ سنةَ خمسٍ وسبعينَ وألفٍ، وخلَّفَ السَّيِّدَ أبا مُحمَّد عبدَ السَّلامِ لم يتركْ ذَكراً سِواهُ، فاضلٌ سخيٌّ على سُنَنِ سَلفِهِ في السَّخاءِ والفُتُوَّةِ سلسلةً سلسلةً سخاءً مِنْهُ لخامسِ الآباءِ، قَوِيُّ الإدراكِ ذكيٌّ جِداً مُحِبٌّ لعمِّهِ سَيِّدِنا أحمدَ ومُوالٍ لهُ، هُو الآنَ في قيدِ الحياةِ حفظَهُ اللهُ، وكلُّهُم حفظَهُم اللهُ قاطنونَ بالمَخفيَّةِ موطنَ زاويتِهِم ومُحبُّونَ لعمِّهِم سَيِّدِنا أحمدَ ﷺ ومُعظِّمونَ لهُ، وواقفونَ عِندَ أمرِهِ ونَهيِهِ، وكفى بذلِكَ شرفاً لهُمْ وفضلاً أعادَ اللهُ علَيْنا وعلَيْهِمْ من بركاتهِ آمين.

أَخَواتُهُ ﷺ

ومن البناتِ سِتٌّ

مِنهُنَّ، السَّيِّدةُ الوليَّةُ, الكاملةُ العليَّةُ, الجليلةُ القدرِ, العظيمةُ الخَطرِ, ذاتُ الحالِ القويّ، والمددِ الرَّويّ، والنُّورِ السَّني, والسَّيرِ السُّنّي، والهدي المُبينِ, والحزمِ المتينِ, والبصيرةِ الصَّحيحةِ، والمُكاشفاتِ الصَّريحةِ, والمقامِ المَكينِ, والمعرفةِ والتَّمكينِ, والهيبةِ والوقارِ, والإجلالِ والإكبارِ, الزَّاهِدةُ الورِعةُ النَّاصحةُ المُتَّبعةُ, السَّيِّدةُ المُباركةُ الصَّفيَّةُ, أمُّ البنينَ رُقيَّةُ وهيَ شقيقَةُ سَيّدِنا أحمدَ وأسنُّ مِنْهُ.

ومِمَّنْ فُتِحَ لهُ على يدَيْهِ وعوَّلَ في أخذَ الطَّريق عَلَيْهِ, وكانَتْ مُقاسمتَهُ في خدمةِ شيخهِ سَيّدي قاسمٍ رحِمَهُ اللهُ فيما يرجِعُ إلى أمورِ الدَّارِ, مُساعِدةً لهُ على ذلِكَ آناءَ اللَّيلِ والنَّهارِ وكانَتْ رحِمَها اللهُ من السَّابقينَ, وكُمَّلَ الصَّادقينَ، مُنقطعِةً عنْ الدُّنيا كُلّ الانقطاع، ومُتابعةً للطَّريقةِ المُحمَّديَّة كُلَّ الاتّباعِ، آيةً من آياتِ اللهِ في رفعِ الهِمَّةِ والزُّهد والحزمِ في الطَّريقِ والجِدّ، قوِيَّةَ اليقينِ ذاتَ رسُوخٍ فيهِ وتمكينِ، مُنيرةَ الإشراقِ والأنوارِ، غزيرةَ الأذواقِ والأسرارِ، معمورةَ القلبِ باللهِ فارغةً عنْ الشُّغلِ بِسواهُ، في غايةٍ من الإخمالِ والإهمالِ والتَّقشُّفِ والإقلالِ، مُستمرةً معَ ما هُنالِكَ، راضيةً عنِ اللهِ في كُلّ ذالِكَ، لا تُبالي بِقلَّةٍ ولا بِمسكَنةٍ وعَيْلةٍ، ولاتكترثُ بلبسِ الهيّنِ ولا الخَشنِ من جُبَّةٍ أو جلبابٍ، وكانَتْ معَ ذالِكَ لا تقبلُ من أحدٍ شيئا وإذا أعطاها أخوها سَيّدُنا أحمدُ شيئاً مُواساةً لها ومُعاونةً لاتأخذُهُ إلَّا بعدَ التي واللَّتيَّا, وتلاطفُهُ في ردِّهِ وتقولُ

"اعطِه مَنْ هو أحوجُ لهُ منّي فإنَّهُ يكفيني ما اتسبَّبُ فيهِ أنا وأولادي "

فكانَ يقولُ

" إنَّها لَفارغةُ القَلْبِ من الدُّنيا وإنَّها لفي غايةِ الاحتياج وتُؤْثِرُ معَ ذالِكَ غيرَها "

وكانَتْ حازمةً في أمورِ الدِّينِ، ماسكةً مِنْهُ بحبلهِ المتينِ قائمةً بواجبهِ وبِسُنَنِهِ ورغائبهِ، لا تُصلِّي إلَّا في الجماعةِ في صقلبيَّةٍ فوقَ سقَّايةِ الزَّاويةِ مُتَّصِلةٍ بالدَّارِ تُصلِّي بِها سِماعاً لتكبيرِ الإمامِ من وراءِ الجدارِ، وتلازمُ بِها أحزابَ العَشيِّ والغداةِ وما معَها من الأذكارِ لا يُشغِلُها في ذالِكَ الوقتِ شَيءٌ ولا وطرٌ من الأوطار، آخذَةً بالأكملِ والأحوطِ والأفضلِ عنْ سُننِ أخيها في الوَرعِ والاحتياطِ والتَّقيُّدِ بالسُنَّةِ والإرتباطِ، واقفةً معَ السُّنَّةِ في كُلِّ شَيءٍ، ناصحةً لأقاربِها وذوي رحمِها زاجرةً لنسائِهم عمَّا لا يَعنِي، حاملةً لهُمْ الجدَّ والاجتهادَ في الدِّينِ يهتدِي النِّساءُ بكلامِها ويتأثرْنَ بِهِ مهابةً، مُعظَّمَةً جليلةً إذا حضرتْ معَ النِّساء مَجلِساً لا يَقدرْنَ أنْ يَخُضنَ في لغوٍ من الكلامِ وتَصدُمهُنَّ هيبتُها.

وكانَ مَحلُّ سُكناها بدارِ أخيها سَيِّدِنا أحمدَ، ودارُ أولادِ أخيها الآخرَ ودارُ الشَّيخِ سَيِّدي قاسمٍ رحِمَهُ اللهُ كلُّها مُفتَّحةَ الأبوابِ بعضُها إلى بَعضٍ، فكانَ سائرُ نسائِهم يَهبْنَها أشدَّ مهابةٍ وَيخفْنَها أشدَّ مخافةٍ، يتنزَّلُ حضورَها إذا غابَ سَيِّدُنا أحمدُ ﷺ في سفرٍ منزلةَ حُضورِه، حريصةً على إصلاح الدِّين وَصلاح أهلهِ، كثيرةَ الحنانِ والشَّفقةِ على عبادِ اللهِ إذا وقعَ لأحدٍ من أصحاب أخيها المنتسبينَ إليهِ بشيءٍ كانَتْ هي المُصلحةُ لشأنهِ معَهُ غيباً وفيما بينَهُ وبينَها تعرفُ ذالِكَ ببصيرَتِها من غيرِ إخبارِ مُخبِرٍ.

وقَدْ يُخبرُها بذالك أخُوها فتعتني بالأمرِ قلباً وقالباً وتُعطِّفُهُ حتَّى يتعطَّفَها قلبُهُ ببركتِها ومالَها من العنايةِ عِندَ اللهِ يَظهرُ أثرَ حالِها بالدَّار ويحسُّ بِهِ أهلُ الزّاويةِ ذوو الأحوال مِنهُمْ، وكانَتْ تَعترِيها أحوالٌ لا يُخرجُها عنْ ظاهرِ حسِّها.

وكانَ أخوها سَيِّدنا أحمد ﷺ يُحبُّها كثيراً ويعظِّمُها ويذكرُ فضلَها ولقد أثنى عليها بعدَ وفاتِها ثناءً جميلاً وقالَ

"كُنْتُ أتوسَّلُ بِها إلى اللهِ وكانَتْ بَيْنِي وبينَها أُخوَّةٌ في اللهِ"

يعني حيثُ كانَتْ مُستندةً إليهِ ومَدَدَها على يدَيْهِ، وأثنى عليهِا بالرِّضى والاستسلام وَالشُّكرِ وتحت مجاري الأحكامِ، وقالَ فيها كانَتْ تُخبرُني بأمورٍ لايَجدُها المنتصبُون للمشيخةِ، وكانَ يحكي عَنْها في حياتِها حكاياتٍ من المكاشفاتِ يسندُها تارةً إلى مُبهَمٍ ستراً عليهِا وتارةً إليها تصريحاً إذا لم يحضُرْهُ إلَّا خاصَّةُ الأصحاب.

فحكى مرَّةً عَنْها

" **أنَّها رأتْ يوماً قطعةً كبيرةً من نورٍ قَدرَ جَرَّةِ الصُّوف نزلتْ من السَّماء بالزّاوية على النَّاس وهُمْ يقرأون الحزبَ، حزبَ الغَداةِ، فعندما وقعَ ذالِكَ ارتفَعتْ أصواتُهم بِعِزَّةٍ وحَمُوا حمايةً عظيمةً وتحرَّكَ مَنْ تحرَّكَ مِنهُمْ وتواجدَ مَنْ تَواجدَ** ".

وحكى أيضاً عَنْها أنَّها قالتْ لهُ

" إنِّي أرى في الصَّلاةِ نوراً ينتَشِرُ في محلِّ سجُودي كُلَّما سجدْتُ وأخافُ أنْ يكونَ الشَّيطانُ يَلعبُ بي ".

قالَ فقلتُ لها

" **نَعمْ يُخافُ من ذالِكَ** "

ثُمَّ قالَ للحاضرينَ

" **هكذا شأنُ الصَّادقينَ يخافُونَ وإنْ كانوا مُحقِّينَ** ".

وذكَرَ عَنْها أنَّها أخبرتْه بأمورٍ تقعُ فيما يُسْتقبلُ بالنِّسبةِ لزمانِها مِنْها إخبارُها بالشَّيخِ أبي العبَّاسِ سَيِّدي أحمدَ اليمني الآتي ذكرَهُ نفَعَنا اللهُ بِهِ أخبَرَتْهُ بِهِ قَبلَ إتيانهِ بأثني عشر عاماً وذكرتْ لهُ أنَّها كانَتْ تراهُ بالزّاويةِ ووصفتْ لهُ أنَّهُ أتَى من بلادِهِ ووقعتِ المعرفةُ بينَهُ وبينَ سَيِّدِنا أحمدَ ﷺ، وبعد وفاتِها بثلاثِ سنينَ تزوَّجَ وسكَنَ بالمَخفيَّةِ، وكانَ بالزّاويةِ كَمَا قالتْ رضي الله عنها يُصلِّي بِها ويجلسُ لِسَماعِ العلمِ بصقلُبيَّتِها هو وسيِّدنا أحمد رضي الله عنهما.

وكانَتْ هذِهِ السَّيِّدةُ رحِمَها اللهُ عِندَ الرَّجلِ الصَّالِحِ أبي الحسنِ سَيِّدي عليٍّ بنِ مُحمَّد المقناد عربة الأندَلُسي المُربِّي من جُلَّةِ أصحاب والدِها وخاصَّتِهم، ولها مِنْهُ أولادٌ وكانَ خيِّراً صَدُوقاً صادقَ اللَّهجةِ حسنَ الأخلاقِ ذا دينٍ متينٍ ونهجٍ قَويمٍ، أمرُهُ كُلُّهُ جِدٌّ، وكانَ مَرضيَّاً عِندَ شيخِهِ الشَّيخ سَيِّدي مُحمَّد ﷺ جداً ساكناً عِندَهُ بدارِهِ يُنفق عَلَيْهِ في جُملَةِ عيالِهِ إلى أنْ ماتَ سنة أربع وستِّينَ وألف، فلم يتَّفِقْ لهذه السَّيِّدةِ الخروجَ منْ دارِ أبيها ولا انتقالَ عَنْها حتَّى ليلةَ الزَّفاف وما خرجتْ قَطُّ كَمَا يخرجُ النِّساءُ مُدَّةَ حياتِها إلَّا مرَّتَيْنِ أو ثلاث بعدَ كِبَرِها خرجتْ لبعضِ الدُّورِ القريبةِ لأمرٍ مُهمٍّ اقتضى ذالِكَ.

وقَدْ إعتراها الحالُ يوماً فجعلتِ النِّقابَ على وجهِها وخرجَتْ مغلوباً عليها غلبةً لم تُخرجْها عنْ دائرةِ حِسِّها إلى بَعضِ ديارِ أصحابِ أبيها القريبةِ الجِوارِ فدخلتْ على النِّساء بها وجعلتْ تقولُ لربَّةِ الدَّار

" أُخرجِي إلى متى أنتَ هنا أُخرجِي مِن هُنا ".

فلم تَنشَبْ تِلكَ المرأةُ المُخاطَبة أنْ تُوفيتْ بعدَ ذالِكَ بقريبٍ، فكانَ ذالِكَ الخُروجُ الطاريءُ لتُنفِذَ ما نزلَ من قَدرِ اللهِ الجاري، وكرامةً صادرةً وآيةً ظاهرةً، فسُبحانَ مَنْ أكرمَ أولياءَهُ بمثل ذالِكَ وأهلَّهُم لِمَا هُنالِكَ. وكانَتْ رضي الله عنها في المرضِ الذي تُوفيَّتْ فيهِ مسرورةً بلقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ جميلةَ الرَّجاءِ فيهِ وقَدْ جلَسَ قَبلَ موتِها بأيَّامٍ بنُوها يذكرون كَلامَ الشُّشتُري أو غيرِهِ وسيِّدُنا أبو العبَّاسِ حاضرٌ هُنالِكَ، وكانَتْ لا تستطيعُ التَّحرُّكَ لشِدَّةِ ما بِها من المرضِ فتواجدَتْ بمرَّةٍ واضطربتْ بفراشِها وتهلَّلَ وجهُها وقالتْ لأخيها سَيِّدِنا أحمدَ

" يا أخِي ما بقِيَ ألمٌ وما بقيَ إلَّا اللهُ "

ولما قربتْ وفاتُها جعلتْ تسألُ عنْ وقتِ الظُّهرِ فأُخبرْتْ بدخولِهِ فَصلَّتْهُ وماتتْ وكانَتْ وفاتُها بُعيدَ زوالِ يومِ السَّبتِ حادي عشرَ ذي القِعدةِ سنةَ سبعٍ

بتقديم السِّينِ وثمانينَ وألفٍ، ودُفنَتْ بقُبَّةِ أبيها عِندَ رِجلَي أُمِّها ولها من العُمرِ ستٌّ وخمسون سنةً أو أقلَّ مِنْهُ بأشهُرٍ.

وأخبرنيَ السَّيِّدُ الصَّالِحُ الحاجُّ الأبرُّ الخيِّرُ الأنورُ ذو الحالِ سَيِّدي أحمدُ بنُ قاسمٍ بتير دُعيَ بِهِ الأندَلُسي وهو من جُملةِ أصحابِ سَيِّدنا أحمدَ أنَّهُ لمَّا كانَ واقفاً بإزاءِ قبرِها عِندَ دفنها شَمَّ رائحةً طيبةً خرجَتْ من قبرِها لا تُشابهُهَا روائحُ الطِّيب ولا تقاربُها، وقَدْ كُنْتُ بعدَ وفاتها بِأيَّامٍ قلائلَ قلتُ قصيدةً من عَروضِ الكاملِ مُشتملةً على ثمانٍ وخمسين بيتاً مُتضمِّنةً رثاءَها وذِكْرَ المُصابِ بِها ووصفَ بَعضِ حالتِها وسيرتِها رضي الله عنها ورمزْتُ فيها لتاريخِ وفاتِها بكلمةِ " أفشُو" من صدَرِ المِصراعِ الثَّاني من البيت الثَّالث مِنْها وهي

خطبٌ ألمَّ فَهاجَ لي أشجاني	وأفاضَ دُرَّ الدَّمعِ من أجفاني
و أفادَ واردُهُ الفُؤادَ كئابةً	و أثارَ مِنْهُ بلابلَ الأحزانِ
فإذا بِهِ النَّاعونَ جاءو عندما	أفشُو حديثاً حائلَ الحَدَثانِ
راعُوا القلوبَ و أوقَدُوا مِن حرِّها	بينَ الضُّلوعِ لوامجَ النِّيرانِ
قَدْ حملُوا ما لم تُطِقْ مِنَّا القُوى	وترَحَّلُوا بالصَّبرِ والسِّلوانِ
فلتندُبِ الأحشاءَ آسفةً على	ما قَدْ عرى أسفاً الكئيبَ العاني
ولتُسكبِ العينانِ كُلَّ مدامعٍ	ولمثلِ ذا فلتُسكبِ العينانِ
ولَهُ يُباحُ الدَّمعُ شرعاً أنَّهُ	في الدِّين أدهى الرزءَ للأنسانِ
رجفتْ بنا هذي المنون وأفجعَتْ	إنَّ المنونَ كثيرةُ الرَّجفانِ
هجمتْ على كنزِ الهدايةِ والتُّقى	وترحلَّتِ بفريدةِ الأعيانِ
وَ وحيدةُ الدُّرِ الأنيقِ نظامُهُ	ويتيمةُ الدَّهرِ العديمةِ ثانِ
الدُّرةُ البيضاءُ المُضيءُ سناؤُها	بلوامعِ الأسرارِ والعِرفانِ
والدَّوحةُ العُليا المُمكَّنُ أهلُها	بقواعدِ التَّمكينِ والإيقانِ

ذاتُ المواهبِ والمناقبِ والسَّنا ... ذاتُ البهاءِ الباهرِ الرَّباني
أودى بِها رَيْبُ المَنونِ وغادرَتْ ... تِلكَ الرَّبوعَ كئيبةَ الأوطانِ
أوحشَتْ دارُ المُكرماتِ وطالما ... أَلفيتِ فيها عمدةَ الأركانِ
عُمِّرتْ بِكم وتَلألأتْ أنوارُها ... والسِّرُّ مِنْهُ أصالة العُمرانِ
وَ تضوَّعتْ بِشذاكم أرجاؤُها ... إذ كانَ سِرُّكِ دائمُ السَّريانِ
من صونِ باطنِها إلى بطنِ الثَّرى ... قَدْ رُحتِ في رَوْحٍ وفي وريحانِ
ما أبصرَتْ عيناكِ يوماً دونَها ... كلَّا ولا شنَّفتْ لهُ الأذنانِ
بشراكِ يا أُمَّ البنين لذي اللِّقا ... بكرامةِ الإقبالِ والرِّضوانِ
من عالَم الدُّنيا انتهيتِ لعالَمٍ ... فيهِ نعيمُ العالم الرَّوحاني
في برزخِ الأرواحِ حيثُ مَقرّها ... والعارفونَ لرَبِّهِمْ بمكانِ
حيثُ المُحبّ معَ الحبيبِ وِصالُهُ ... متأبِدٌّ لا ينقضي لزمانِ
حيثُ الدُّنوّ ولا رقيبٌ ولا سِوى ... بهما يَخافُ عواقبَ العُدوانِ
في أينَ لا أينَ لا ولا كيفَ بِهِ ... وشوائبُ الأكوانِ في فقدانِ
قَدْ كُنْتُ في الباقي أشدّ مُولَّهٍ ... حُبَّاً وأزهد من يُرى في الفاني
قَدْ كُنْتِ أرفعَ هِمَّةٍ ومكانةٍ ... عنْ كُلّ ما للخلقِ كانَ يُداني
قَدْ كُنْتِ عاكفةً بأنفذَ عازمةٍ ... حتَّى المماتِ على رضى الرَّحمانِ
مأخوذةً للهِ عنْ كُلّ السِّوى ... مشغوفةً بالحُبِّ والهيَمانِ
مجموعةَ الأهواءِ فيهِ منيبةً ... أبداً لهُ في السِّرّ والإعلانِ
أعرضتِ عنْ عَرضِ الدَّنيَّةِ رغبةً ... في ذي البقاءِ الواحدِ المنَّانِ
شمَّرتِ مُدَّةَ ماحييتِ إلى السُّرى ... فِعلَ المُجدِّ الحازمِ اليقظانِ
والمرءُ مبعوثٌ على ما عاشَهُ ... وجزاؤهُ معَ وصفهِ سِيَّانِ
يا أختَ أحمدِنا وبنتَ مُحمَّد ... العارفين اللّهَ عرفَ عِيانِ
الواصلين الكاملين الأمكَنين ... المطمئنِّينَ الجليلي شانِ

كملَ الرِّجالُ وما تكملُ نِسوةٌ إلَّا قليلاً نادرَ الإتيانِ
ولقد تَجمَّعَ فيكِ مُفترقُ العُلا وَتكملتِ وصفاً بلا نُقصانِ
والسَّيرُ سيرٌ لا يُجارى شأوُهُ و السِّرُّ سِرٌّ واضحُ البُرهانِ
أوتيتِ كشفاً بالحقائِقِ جهرةً وأُريتِ مِنْهُ عجائبَ الأكوانِ
لكِ في الغيوبِ بصيرةٌ مأثورةٌ وفِراسةٌ بالنَّاظرِ النُّوراني
لكِ في الدِّيانة كانَ حزمٌ كاملٌ يهتزُّ مِنْهُ وغيرةُ الشُّجعانِ
لكِ في المَهابةِ والجلالةِ سطوةٌ مِنْها يَهدُّ شوامخَ العُقبانِ
لكِ في الهِدايةِ كانَ بينَ أولي الهُدى نورٌ مُبينٌ ساطعُ اللَّمعانِ
مَنْ للقلوبِ لدى النَّوائب مَفزَعٌ إنَّ ما عداها غائضٌ ظمآنِ
مَنْ للضَّعيفِ إذا أصابَهُ هائلٌ بنظيرِ برٍّ منكم وحنانِ
مَنْ منقذُ الجاني لدى هفواتهِ مَنْ مُرشدُ اللَّهفانِ والحيرانِ
مَنْ مُشتكى أحزان مَنْ في دَيرِكم أو مَنْ يقاسمُ ما الفؤادُ يُعاني
مَنْ مُنتهى أمالِهِ وشؤونِهِ وبِمَنْ تلوذُ الدَّهرُ كُلّ أماني
كَمْ فُرّجتْ كُرَبٌ بِعزّ جنابِكم وأُغيثَ ملهوفٌ بغيرِ تواني
ولكم عُهدتُ لدى الشدائِدِ عُدَّةٌ بكَ تَنجلي نُوَبُ الكئيبِ العاني
لو كانَ يَعلَمُ ما لديكَ مجمعٌ ضَربتْ إليكَ سوابقُ الأظعانِ
يا آلَ عبدِ اللهِ يا أهلَ التُّقى و مطالعَ العرفانِ والإيقانِ
أحسنتُم والمرءُ مجبولٌ على حُبِّ الذي حباهُ بالإحسانِ
إحسانُكم أسرارُكم لمَّا تزلْ تُحيي بواطنَ أهلَ هذا الشَّانِ
لا زلتُم في اللهِ عمدةً وأصلاً ومناهلاً للوارِدِ الظمآنِ
وعليكِ يا أُمَّ البنينَ تحيةٌ تَغشى ضريحَكِ ما أتى الملوانِ
تهدي عبيق المِسكِ فاقَ نَسيمَـــه عرفَ الورودِ ونَسمةُ الرَّيـــــحانِ

وقَدْ رثاها بَعضُ الأدباءِ من أصحاب أخيها بقصيدةٍ طويلةٍ تائيةٍ من عروض الكامل مطلعُها

ناحَتْ وحُقَّ لها النِّياحَةُ مُقلَتِي ولفقدِهِم شرعاً دُمُوعي حلَّتِ

وهي قصيدةٌ حَسنَةٌ أنشأها بعدَ هذِهِ، وفي قوله شرعاً وقَوْلي في القصيدة قَبلُ

ولَهُ يُباحُ الدَّمعُ شـــرعاً إنَّهُ في الدِّينِ أدهى الرّزءِ للإنسانِ

إشارَةً إلى مشروعيةِ ما قيلَ وجوازِ سلوكِ ذالِكَ السَّبيلِ كَمَا سلكَهُ غيرَ واحدٍ من الأئمَّةِ المَهديينَ والأعلامِ المَرضيّينَ، ولا شَكَّ أنَّ البُكاءَ على أهلِ اللهِ النَّاصحينَ لعبادِ الله، المُحيِّينَ لدينِ الله بكاءً على الدِّين وطَريقهِ المُبينِ فلا فُقدَتْ تِلكَ العباراتُ، ولا زالتْ تِلكَ الحسراتُ، فلو كانَ لنا من ذلِكَ التَّحيبِ بَعضُ حَظٍّ ونصيبٍ لكُنَّا من الفائزين االظَّافرينَ بالمَرامِ الحائزينَ، تدارَكَنا اللهُ بعنايتهِ ورزقَنا محبَّةَ أهلِ ولايتِهِ آمين.

ومِنهُنَّ أعني أخواتِ سَيِّدِنا أحمدَ ﷺ السَّيِّدةُ الفاضلةُ الجليلةُ الكاملةُ المُباركةُ العليَّةُ الصَّالِحَةُ الوليَّةُ المجذوبةُ القويَّةُ المعمَّرةُ ذاتُ الجذبِ القائمِ والقلبِ الهائمِ والوجدِ الدَّائمِ والوَلهِ المُلازمِ، والحالةِ السَّميَّةِ، والأنوارِ السَّنيَّةِ والسِّيرةِ السَّريَّةِ والنَّسمةِ المَرضيَّةِ والزُّهدِ التَّامّ والإحسانِ العامّ أمُّ عبدِ اللهِ عائشةُ سَمِيَّةُ أُمّها وشقيقةُ أخيها أيضاً سَيِّدِنا أحمدَ ﷺ كانَتْ رحِمَها اللهُ من أهلِ الهِيامِ والجَذْبةِ والحالِ القويّ في المحبَّةِ والنُّورِ الغزيرِ والزُّهدِ الكبيرِ.

فُتِحَ لها على يدِ أخيها سَيِّدِنا أحمدَ ﷺ سنةَ ستٍّ وستينَ وألفٍ وهي أوَّلُ مَنْ فُتِحَ لها على يدِهِ وبعدَ فتحِها بشهرينِ أو ثلاثةٍ فُتِحَ لأُختِها السَّابقِ ذكرها نزلَ بِها أعني صاحبةَ التَّرجمةِ من قِبلِهِ جذبٌ عظيمٌ ووارِدٌ جسيمٌ وحالٌ قَوِيٌّ أخذَها عنْ نفسِها وأقطعَها عنْ حِسّها وغيَّبَها عن بناتِ جنسِها وهيَّمَها في بُغيتِها

وأُنسِها، فلم يبقَ لها في الدُّنيا مرادٌ ولا وقوفٌ معَ مألوفٍ ومُعتادٍ، وتعطَّلَ فيها عِندَ ذالِكَ مايكونُ من النِّساءِ معَ أزواجهِنَّ.

قالتْ رحِمَها اللهُ لبعلِها في أنْ يتزوَّجَ وخيَّرتْهُ بينَ ذالِكَ أو أنْ يصبرَ على حالِها وطلبتْ مِنْهُ المعذرةَ وخرجتْ من مالِها كُلِّهِ وانفقتْهُ في سبيلِ اللهِ فرَّقتْهُ في اقاربِها وذوي رحمِها ولم تُبقِ مِنْهُ قليلاً ولا كثيراً، وكانَتْ تبعثُ مِنْهُ لأخيها سَيِّدِنا أحمدَ رضي الله عنها، فإذا أرادَ ردَّهُ عليها على عادتهِ، أرسلتْهُ إليهِ أنْ فَرِّقْهُ في المساكينَ أو ارمهِ في الوادي فإنَّهُ لا يرجِعُ إلى ذمَّتي أبداً، فيُفرِّقَهُ أو يفعلَ بِهِ مابدا لهُ.

وقَدْ أتَى بعلُها يوماً إلى الشَّيخِ سَيِّدي قاسمٍ الخصاصي ﷺ فأخبره بِما فعلت من تفريقِ مالِها كُلِّهِ للهِ، فقالَ لهُ سَيِّدي قاسمٌ

" أيَّ شَيءٍ أصنعُ لَها، إنَّها كمَنْ اشتعَلَتْ فيهِ النَّارُ وعَلقَتْ بثِيابهِ فجعَلَ يُلقيها عنهُ من غيرِ اختيارٍ ".

يُريدُ أنَّ نارَ المَحبَّةِ تحرِقُ ما علَقَ بالقلبِ من الدُّنيا كَمَا تَحرِقُ النَّارُ الحِسيَّةَ ما تعلَّقَ بالبدنِ منَ الثِّيابِ إذا مسَّتْهُ فلا يجدُ صاحبُها بُدَّاً من نبذِ ما بيدِهِ وتَبديدِهِ وذالك من غيرِ اختيارٍ مِنْهُ.

وكانَتْ رحِمَها اللهُ تميلُ إلى العُزلةِ والإنفرادِ عنْ الخلقِ لا تأنسُ بِهِمْ ولا تَركَنُ إليهِم ولا تعرف ما النِّساءُ عَلَيْهِ ولا ما هُنَّ فيهِ.

سمعتُ سَيِّدَنا أحمدَ ﷺ يوماً يقولُ في شأنِها وقَدْ ذكرَها في سياقِ ثناءٍ عليها أنَّها كانَتْ إذا جلستْ معَ النِّساءِ لا تشاركُهُنَّ فيما يَخُضْنَ فيهِ ويُلقي اللهُ عليها النُّعاسَ حتَّى لا تَدري ما تحدَّثْنَ بِهِ.

وكانَتْ مُحبَّةً لأخيها سَيِّدِنا أحمدَ ﷺ غايةَ المحبَّةِ، شديدةَ الوَلَهِ والهيَمانِ بِهِ مُنذُ نزلَ بِها ما نزلَ من قِبَلِهِ لا تقدرُ أنْ تحبِسَ نفسَها عنْ رُؤيتهِ وزيارتِهِ، فإذا قويَ عليها الحالُ لم تستطعِ الصَّبرَ عنهُ حتَّى تذهبَ إليهِ معَ أنَّها كانَتْ لاتخرجُ

على عادتهِم، وكانَ بعلُها أولاً يَضيقُ ذرعاً مِمَّا يرى من ولهِهَا وزُهدِها فيهِ وفي زينةِ الدُّنيا فإذا بِهِ يوماً فاجَأهُ حالٌ صُعِقَ مِنْهُ وخرَّ مِنْهُ مغشِيَّاً عَلَيْهِ، فحُمِلَ كذالك بإذنِ سَيِّدِنا أحمدَ حتَّى أُدخلَ عليها الدَّارَ دارَ أخيها، وكانَتْ إذ ذاك بِها فحمدِت اللهَ كثيراً إذ شاركَها فيما هي فيهِ واستراحتْ مِمَّا كانَتْ تجدُهُ مِنْهُ.

تُوفيَتْ رضي الله عنها بوجعِ النِّفاسِ ولم تلدْ حينَئِذٍ، وكانَتْ وفاتُها وقتَ صلاةِ الجمعة سابعَ رجبَ عامَ سبعينَ بتقديم السِّينِ وألفٍ، ودُفنتْ من ذلِكَ اليومِ بقُبَّةِ أبيها وراءَ قبرِ أُمِّها، وكانَ مَولدُها في حدودِ سنةِ سبعٍ وثلاثينَ، وكانَتْ عِندَ الرَّجلِ الصَّالِحِ الخيِّرِ المكينِ ذي الحال الصَّحيحِ والهديّ الواضحِ والدِّين المتين أبي عبد اللهِ سَيِّدي مُحمَّد بن الرَّجلِ الصَّالِحِ أبي عبد اللهِ سَيِّدي مُحمَّد عاصمٍ دُعيَ بِهِ الأندَلُسي من أصحاب أبيها الشَّيخِ سَيِّدي مُحمَّد بنِ عبدِ اللهِ ﷺ.

صحبَهُ أوَّلاً ثُمَّ صحبَ بعدَهُ خليفتَهُ الشَّيخَ سَيِّدي قاسماً الخَصاصي ﷺ ثُمَّ بعدَهُ خليفته سَيِّدنا أبا العبَّاس ﷺ إلى أنْ ماتَ في حِجرهِ وهو راضٍ عنهُ، ورُبَّما كانَ يُثني عَلَيْهِ أيَّام حياتهِ بظهرِ الغيب مِنْهُ، ويصفُهُ بالصَّلاحِ والدِّينِ، وكانَ رحِمَهُ اللهُ مُقبلاً على شأنِه تاركاً لِمَا لا يَعنيهِ واقفاً على حدودِ اللهِ مُتابعاً للسُنَّةِ، قَوِيَّ الحالِ كثيرَ الذِّكرِ، يغلبُه الوجدُ أحياناً فيتحرَّكُ ويَهيمُ ويَصيحُ صيحاتٍ.

تُوفيَ رحِمَهُ اللهُ سنةَ تسعينَ بتقديم الفَوقيَّةِ وألف ودُفنَ بالجنانِ الذي اتَّخذَهُ سَيِّدُنا أبو العبَّاسِ مَدْفناً لأصحابِهِ زمنَ الوباءِ الواقعِ في هذِهِ الأعوامِ وهو بأعلى موضعِ روضةِ الشَّيخِ سَيِّدي يوسفَ الفاسي وسيِّدِي مُحمَّد بنِ عبدِ اللهِ رضي الله عنهما.

ومِنهُنَّ أيْ أخواتِ سَيِّدي أحمد ﷺ السَّيِّدةُ الفاضلةُ المُسنَّةُ أمُّ مُحمَّد صفيَّةُ وهي شقيقةُ سَيِّدِنا أحمدَ أيضاً، كانَتْ رحِمَها اللهُ على عادتِهم من التزامِ الدَّارِ وعدمِ العوائدِ المألوفَةِ عِندَ النَّاسِ في أعراسِهم وفِعالِهم على سُننٍ من الحزمِ في الصَّونِ والعفافِ والمُروءةِ.

وممَّا اتَّفقَ لها يوماً أنْ مرَّتْ بموضعٍ من دارِها فرفعَتْ رأسَها فأبصرتْ رجُلاً أجنبياً ينظرُ إليها فدعتْ عَلَيْهِ بالعَمى فعَمِيَ والعياذُ باللهِ العماءَ الأكحلَ بعدَ أيَّامٍ قلائلَ نسألُ اللهَ العافيةَ بمَنِّهِ.

تُوفيَتْ رحِمَها اللهُ في هذِهِ السَّنةِ سنةَ أثنينِ وتسعينَ وألفٍ، ودُفنتْ عِندَ رِجلِ أبيها داخلَ القُبَّةِ، وهي آخرُ بناتهِ موتاً، وكانتْ عِندَ السَّيِّدِ الخيِّرِ المُسنِّ أبي عبد اللهِ مُحمَّد بن عبد الرَّفيع الأندَلُسي من أصحابِ والدِها هو الآن في قيدِ الحياةِ لها مِنْهُ أولادٌ, وباقي الأخواتِ غيرُ شقائقَ.

وهُنَّ السَّيِّدةُ آمنةُ وكانَتْ عِندَ المُكرَّمِ مُحمَّد السَّراج الأندَلُسي.

والسَّيِّدةُ فاطمةُ وكانَتْ عِندَ السَّيِّدِ مُحمَّد حسنٍ دُعيَ بِهِ الأندَلُسي من فُضلاء أصحاب أبيها.

والسَّيِّدةُ عائشةُ وكانَتْ عِندَ المُكرَّمِ مُحمَّد مَخلوفٍ الأندَلُسي.

وهنَّ على هذا التَّرتيب سِنَّاً ولهُنَ عقِبٌ ولكُلِّهِنَّ حظٌّ من الخيرِ والصَّلاحِ، وكُلُّهُنَّ مدفونونَ بروضةِ سَيِّدي يوسفَ الفاسي معَ والدِهم وكذا سائرُ أولادِ سَيِّدي مُحمَّد وأحفادِه رحِمَهُمْ الله.

وكُلُّ هذِهِ العشيرةِ الكريمةِ والسُّلالةِ المُباركةِ من أولادِ الشَّيخ سَيِّدي مُحمَّد بن عبد اللهِ وأحفادِه أهلُ دينٍ وخيرٍ، لايشتغلونَ بهذِهِ الأمورِ المُعتاداتِ ولا بتَكلُّفٍ ومُباهاةٍ.

نساؤُهم لايخرُجْنَ إلَّا فيما لا بُدَّ مِنْهُ من شهودِ موتِ مَحرَمٍ من محارمِهنَّ وعيادتِه من مرضهِ أو صلةِ رَحِمٍ من أولي أرحامِهِنَّ لايعرِفْنَ غيرَ ذالِكَ.

بناتُهم لايزوجُوهُنَّ إلَّا المساكينَ السَّائرينَ بنَحوِ سَيْرِهم، يميلون إلى الخُمولِ ما أمكنَ لا يلبسون ثيابَ الرَّفاهيَّةِ ولا يتخيَّرون من الصَّنائعِ ما كانَ رفيعاً عِندَ النَّاسِ مـن غـيرِ كُلْفَةٍ علَيْهِمْ فـي ذالِكَ إذا رأيتَـهم تذكـرتَ قولَـهُ تعالـى

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1].

يحبُّون آلَ البيتِ ويعظِّمونَهُم ويوقِّرونَهم أتمَّ وقارٍ، كبيرُهم وصغيرُهم نساؤُهم ورجالُهم جُبِلُوا على ذلِكَ والحمدُ للهِ ودرجُوا عَلَيْهِ، قَدْ اختُصُّوا بأمرين، التَّواضعُ وعدم الطَّمعِ لا يترفَّهُون ولا يترفَّعُون ولا يتشوَّفون لِمَا في أيدي النَّاسِ كَمَا هي اليومَ عامَّةُ أبناءِ الفُقراءِ المتشبِّهينَ بأبناءِ الأُمراءِ، قَدْ حفظَهُم اللهُ ببركـةِ جَدِّهِـم من ذالِكَ.

أخبرَني فيهِ بَعضُ اصحابِنا أنَّهُ سَمِعَ الشَّيخَ سَيِّدي قاسـماً ﷺ يقولُ " كانَ الشَّيخُ سَيِّدي مُحمَّد بنِ عبد اللهِ يحفَظُ حدودَ الله فحفظَهُ اللهُ في ذُريَّتِـهِ إلى يومِ القيامةِ "



1 . القصص (83)

أولادُهُ ﷺ

ولسيّدِنا أحمدَ ﷺ من الأولادِ الذُّكورِ في هذا الوقتِ سنةَ اثنينِ وتسعينَ وألفٍ ثلاثةٌ أدامَ اللهُ حفظَهُم وبارَكَ فيهِمْ.

أوَّلُهُم. وهو أكبرُهم الشَّابُّ الزَّكيُّ النَّجيبُ الذكيُّ الخيّرُ الأرضى الأبرُّ الأحظى ذو الهِمَمِ العاليةِ والشِّيمِ المرضيَّةِ والأوصافِ السَّريَّةِ والآدابِ السَّنيَّةِ أبو عبدِ اللهِ سَيِّدي مُحمَّد سَمِيُّ جدِّهِ، وُلِدَ حفظَهُ اللهُ في أواخِرِ ربيعِ الثَّاني سنةَ ثمانٍ وسبعينَ بتقديمِ السِّينِ وألفٍ، وبلغَ الحُلُمَ في أواخِرِ سنة احدى وتسعينَ وهو ابنُ ثلاثَ عشرةَ سنةً ونحوَ ثمانيةِ أشهرٍ، وعقدَ لهُ والدُهُ النِّكاحَ فيها قَبلَ سنةِ تسعينَ بتقديم الفَوقيَّةِ، ثُمَّ صنعَ لهُ العُرسَ، وبنى لهُ في شعبانَ من هذهِ السَّنَةِ.

نشأَ حفظهُ اللهُ أحسنَ نشأةٍ ورُبِّيَ على أكملِ تربيةٍ مُقتصِراً على الدَّارِ والزّاويةِ لا يعرفُ سواهُما، يُؤدِّبهُ والدُهُ أحسنَ تأديبٍ ويعتني بشأنهِ أتمَّ اعتناءٍ ويتعاهدَهُ لا يغفُلُ عنهُ على ما هو عَلَيْهِ حفظَهُ اللهُ من المروءةِ والأدبِ وعُلُوِّ الهِمَّة، يقرأ القرآن لا حرفةَ لهُ سِواهُ، بارَكَ اللهُ لهُ ووفَّقَهُ وجعلَهُ من أهلِ المعرفةِ بِهِ.

وقَدْ أخبرَ عنْ شأنهِ وما سيؤولُ إليهِ من الصَّلاحِ ببصيرتِهِ الرَّبانِيَّةِ وفراستِهِ النُّورانيّةِ الشَّيخُ الفقيهُ العارفُ الكاملُ أبو العبَّاسِ سَيِّدي أحمدُ بنُ مُحمَّد اليَمنِي ﷺ فقالَ فيهِ أوَّلَ مارآه وهو ابنُ نحوِ سبعِ سنينَ

" أنَّهُ سيكُونُ رجُلاً صالِحاً "

يعني من أهلِ الخُصوصيَّةِ، وتكرَّرَ مِنْهُ الإخبارُ بذالك بعدَ غيرَ ما مرَّةً في قضايا مُتعددةٍ وقالَ فيـهِ والدُه أيضاً

" إنَّ فيهِ الخيرَ "

ورُبَّمـــا يقولُ فيهِ

" إنَّهُ مسكينٌ "

والمسكنةُ عِندَهُم كِنايةٌ عنْ الصَّلاحِ، وقَدْ صرَّحَ فيهِ هو وسيِّدِي أحمدُ اليَمني بِما هو أعظمُ من هذا وأخصُّ طوينا ذكرَهُ لغرضٍ.

وثانيهم. وهو أوسطُهُم الشَّابُّ النَّجيبُ العاقلُ الأديبُ الخيِّرُ الزَّكي الأنجدُ الأبرُّ أبو عبدِ اللهِ سَيِّدي مُحمَّد المدعُو العربِي، وُلِدَ حفظَهُ اللهُ ضحوةَ يومِ الأربعاءِ تاسعَ ذي القعدة سنةَ تسعٍ بتقديم الفَوقيَّةِ وسبعينَ بتقديمِ السِّينِ وألفٍ، وهو شقيقُ سَيّدي مُحمَّدٍ المذكورِ يُضاهيهِ في حُسنِ تربيتِهِ وأدبِهِ ويُحاكيهِ في أوصافِهِ ورُتبهِ قالَ فيهِ أيضاً الشَّيخُ أبو العبَّاسِ اليمني المذكورُ

" إنَّ فيهِ الخيرَ وسيكونُ من الصَّالحِينَ "

وهما معاً إلى الآن مُلازمانِ للمكتبِ بزاويةِ أبيهما آخِذَانِ في تعلُّمِ مباديءِ النَّحوِ ويحضُرانِ ما يُقرأ بالزَّاويةِ بينَ المغربِ والعشاءِ من علمِ التَّوحيدِ والفقهِ وغيرِهما من العُلُومِ علَّمَهُما اللهُ العلمَ النَّافعَ آمين.

وثالثُهم. وهو الأصغرُ الصَّبيُّ سَيِّدي عبدُ الرَّحمنِ أخوهُما لأبيهِما، وُلِدَ أصلحَهُ اللهُ ضحوةَ يومِ السَّبتِ خامسِ جُمادى الأولى سنةَ تِسعٍ بتقديمِ المُثنَّاةِ وثمانينَ وألفٍ ولمَّا تزايدَ أعلم بِهِ بَعضُ الأصحاب سَيِّدي أحمد اليمني نفَعَنا اللهُ بِهِ فقالَ رضي الله عنه

" قَدْ رفَعَ اللهُ الوَباءَ عنْ دارِ سَيِّدي أحمدَ ببرَكَةِ هذا المولُودِ ".

وفي ذلِكَ اليومِ وقبلَ ولادتهِ كانَتْ صَبيَّةٌ تُوفيتْ لسيِّدِنا أحمدَ رضي الله عنه بالوباءِ، وقبلَ ذالِكَ بقريبٍ ماتَ لهُ شخصان آخرانِ، فمِنْ يومئذٍ ذهَبَ الوباءُ فما دخلَ دارَهُ بعدَ ذالِكَ ببركةِ هذا المولودِ كَمَا أخبرَ بِهِ سَيِّدي أحمدُ اليَمنِي رضي الله عنه.

" ووُلِدَ لسَيِّدِنا أحمدَ رضي الله عنه ولدٌ رابعٌ عشِّيَّةَ يومَ الخميسِ من شهرِ ربيعِ الأوَّلِ سنةَ أربعٍ وتسعينَ وألفٍ وهو شقيقُ سَيِّدي عبدِ الرَّحمنِ أصلَحَهُما اللهُ ".

بَناتُهُ ﷺ

ومن البناتِ أربعٌ، ثنتانِ صغيرتانِ، وهُما السَّيّدةُ آمِنةُ والسَّيّدةُ رُقيَّةُ، والأُخرَيانِ كبيرتانِ وهما السَّيّدةُ فاطمةُ ولها دعوةٌ مُجابةٌ والسَّيّدةُ عائشةُ، خَيّرتانِ من أهلِ الدِّينِ والِحفظِ المَكينِ لا تَخرجانِ منْ دارِهما أبداً ولا تعرفانِ شيئاً من العوائدِ أصلاً على عادتِهم وهما الآن مُتزوّجتانِ.

احداهُما وهي السَّيّدةُ فاطمةُ عِندَ حفيدِ الشَّيخِ سَيّدي قاسمِ الخَصاصِي رحِمَهُ اللهُ وهو السَّيّدُ الحييُّ الزَّكيُّ الخيّرُ الفاضلُ المَرضيُّ أبو عبدِ اللهِ سَيّدي مُحمَّد بنُ أحمدَ بن سَيّدي قاسمِ المذكور.

والأُخرى عِندَ بَعضِ أحفادِ بَعضِ أخواتِ سَيّدِنا أحمدَ ﷺ، وهُما من عُلُوّ الهِمَّةِ وكرمِ النَّفسِ بمكانٍ قَلَّ عزيزُ مثلِهما في حُسنِ السّيرةِ والأدبِ من نساءِ الزَّمان.

وبالجُملةِ فكانَ أولادُ سَيّدِنا أحمدَ ﷺ ناشئينَ على أحسنِ حالٍ وأكرَمِ فِعالٍ وأطيبِ خليقةٍ, وأمثلِ طريقةٍ، ذاهبٌ على مقتضى تربيَتِهِ رضي الله عنه من الخروجِ عنِ العوائدِ والمألوفاتِ، والزَّوائدِ والتَّكلُفاتِ والكرمِ والمُفاضلاتِ وحُسنِ الأدبِ والمُعاملَةِ وحفظِ الدّين والتَّمسُكِ بحبلِهِ المَتينِ والتَّواضعِ في أنفسِهم ورفعِ الهِمَّةِ عنْ أبناءِ جِنسِهِمْ، قَدْ أخذُوا بأشياءَ من سِيرةِ والدِهم وتخلقُّوا بها ودَرجُوا على سَنَنِها ولَحِقُوا بها

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾[1] .

واللهُ تَعالى يُجازي العبادَ في أبنائِهم على قدرِ أعمالِهم ونيَّاتِهم زادَهُم اللهُ من فضلهِ وكانَ لهُمْ بمِنّهِ وطَوْلهِ.

[1] . الطور 21

البابُ الثَّاني في نشأتِهِ وبدايتِهِ وأخذِهِ طريقَ هِدايتِه

ولادتُه ﷺ

وُلِدَ ﷺ تقريباً أواخِرَ سنة " 1042" هجرية وتُوفِي ﷺ يومَ الإثنينِ ثالث جمادي الآخِرِ عام "1120 " هجرية فيكونُ عمرهُ على هذا ثمانٍ وسبعينَ سنَةً حسْبَما يُؤخذُ من تاريخِ تزويجهِ الآتي وتاريخِ سِنِّهِ آنذاك وهُو آخِرُ مَنْ وُلِدَ من الأبناءِ لأمِّهِ وأبيهِ الآخذُ كُلَّ ما لهُمْ من الفَخارِ والتَّنزيهِ وخاتمةُ مجدِهِم وواسطةُ عِقدِهم الذي شَرُفَ بِهِ طالعُهُم السَّعيدُ، واستمَرَّ بِهِ مددُهُم المديدُ، ختمَ اللهُ بِهِ من نظامِهم سلكاً، وجعلَ خِتامَهُم مِسكاً.

وصِفةُ ذاتهِ الكريمةِ وصورةُ شكلِهِ الفخيمةِ ليتميَّزَ بوجودِهِ العَيانِي كَمَا تميَّزَ بوصفِهِ العِرفانِي، وسرِّهِ الرَّبَّانِي أنَّهُ حفظَهُ اللهُ وكلأهُ، أبيضُ مشرَّبٌ بحُمرةٍ بادنٌ مُتماسِكُ اللَّحمِ، أكحلُ العينينِ والشَّعرُ ليسَ بالشَّديدِ سَّوادِهما، حسنُ الأنفِ كثُّ اللِّحيَةِ عَريضُها معتدلةُ الطُّولِ غالبُها الشَّيْبُ ولم يُخضِّبْها، ضخمُ الرَّأسِ مُدوَّرُ الوجهِ جميلُهُ، عريضُ ما بينَ المِنكبَيْنِ، معتدلُ القامةِ جليلُ الذَّاتِ، حَسنُ القَدِّ إلى الطُّولِ أميلُ، مستوي الصَّدرِ والبَطنِ، سادِلُ الأطرافِ ناتيءُ الكَعبينِ قليلاً مُدوَّرهُما، أملسُ القَدمينِ والعَقِبَيْنِ من دونِ تَشقيقٍ، ذريعُ المَشيَةِ واسعُ الخُطوةِ يُمْشي تَكَفُّأً، لا يقاومُهُ أحدٌ في مشيتِهِ، فتجِدُنا إذا كُنَّا معَهُ في سفرٍ وصاحبناهُ في الطَّريقِ نُجهِدُ أنفسَنا غايةَ الجُهدِ وهو على مشيتهِ الطَّبيعيَّةِ غيرَ مُكترِثٍ إذا مشى لا يلتفتُ وراءَهُ، يتبعُهُ أصحابُهُ إلى المواضعِ البعيدةِ فما يلتفِتُ حتَّى يصلَ المكانَ الذي قصدَهُ، وإذا التفتَ التفتَ جميعاً ذو صوتٍ جَهْوَرِي وسمتٍ بهيٍّ وقدرٍ عليٍّ، حُلوُ المنظَرِ فصيحُ اللِّسان غايةَ التَّمكُّنِ من التَّعبيرِ عنْ مُرادِهِ ما

رأيتُ أفصحَ مِنْهُ، أجملُ النَّاسِ منظراً وأحسنُهُم مُجالسةً، ذو مَهابةٍ وعظَمَةٍ وَوَقارٍ وحَياءٍ وجلالةٍ وإكبارٍ.

نشأتُه ﷺ

نشأَ ﷺ نشأةً صالحةً بينَ أبوَيْهِ الصَّالحَيْنِ المُتقدمَيْنِ يُؤدِّبانِه ويُهذِّبانِه ويُلقِّنانِه ويُربِّيانِه تربيةَ أمثالِهما من أهل البصائرِ، فربا في عفافٍ وصِيانةٍ وتقى وديانةٍ، أبيُّ النَّفسِ عليُّ الهِمَّة، زكيُّ الأخلاقِ محروساً بالعِنايَةِ محفوفاً بالرِّعاية لا يخالطُ الصِّبيانَ ولا يعرفُ ما هُمْ عَلَيْهِ، ولا يتركُ والدُهُ مَنْ يخالِطُهُ أو يَعرِفُهُ أو يتعرَّفُ إليهِ أو يشتغلُ بتعظيمهِ، وكذالك كانَتْ عادةُ والدهِ ﷺ في سائرِ أولادهِ.

أخبرَنا عنهُ غيرُ واحدٍ مِنْ أصحابِهِ أنَّهُ كانَ يقولُ

"كُلُّ مَـنْ يشتغِلُ بتعظيمِ أوْلادِي لا يَربَحُ "

ويقولُ

"ما أفسَدَ كثيراً من أولادِ الفُقراءِ إلَّا ذلِكَ ".

فكانَ يسدُّ الذريعةَ في ذالِكَ مخافةَ فسادِ طبعِهم وتخلُّقِهم بشيءٍ من الكِبَرِ وخصوصاً في سَيِّدِنا أحمدَ ﷺ فربَّما كانَ يجدُهُ في الزَّاويةِ في ملأ مِنْ أصحابِهِ أهل الدِّيانةِ فيزجُرُهُ ويُقيمه مِنْ مَكانِهِ وكثيراً ما كانَ يُوبِّخُهُ ويُغلظُ عَلَيْهِ القولَ دون أنْ يفعلَ كبيرَ شَيءٍ، ورُبَّما يقولُ إذا كُلِّمَ في ذالِكَ

" أَرَدْتُ ردْعَ نَفسِهِ لِتَرْتاضَ وتنقادَ ".

فكانَ حفظَهُ اللهُ لا يعرفُ ما النَّاس فيهِ من العوائد ولا ما نشأَ عَلَيْهِ أولادُهُم من الزَّوائِد، وكانَ منذُ صِباهُ ماضي العزمِ شديدَ الحزمِ فيما يَتعاطاهُ من أُمُورِهِ كُلِّها لا يُريدُ أمراً إلَّا برأهُ، ولا يبتديءُ شيئاً إلَّا أتمَّهُ، وإذا تعلَّقَتْ هِمَّتُهُ بشيءٍ من

الأشياءِ كائناً ما كانَ لم يهنأْ لهُ عَيْشٌ ولم يَقَرَّ لهُ قرارٌ حتَّى يَصِلَهُ ويُجاوزَهُ وسمعتُهُ يوماً يقولُ

" مِنْ طَبعِي إذا ابتدأتُ في شَيْءٍ لا أرجِعُ عنهُ وما ابتدأتُ أمراً قَطُّ إلَّا أتمَمْتُهُ ".

تجنحُ هِمَّتُه إلى مَعَالي الأمورِ ولا يرضى بالأدونِ مِنْها، وإذا نَهاهُ أحدٌ عنْ مسألةٍ لم يعدْ إليها بحالٍ ولا عرَجتْ نفسُهُ عليها بوجهٍ من الوُجوهِ، فكانَ كَمَا قيلَ

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكن   اليه بوجه آخر الدهر تُقبلُ

وإذا علَّمَهُ أحدٌ شيئاً من الدِّينِ وأفادَهُ إيَّاهُ لا ينساهُ ولا ينسى لهُ ما صنعَ معَهُ فتجدُهُ كثيراً يذكُرُ بخيرٍ مَنْ نبَّهَهُ في صِغرِهِ على شَيءٍ من ذلكَ ويترحَّمُ عَلَيْهِ، وكانَ إذا عُيِّرَ بشيءٍ لم يُؤاخِذْ في السَّببِ الذي يؤولُ إليهِ ولا إلى ما يتعلَّقُ بِهِ ولم يكُنْ مُنذُ نشأَ يأخذُ من يدِ أحدٍ شيئاً ولا يأكلُ طعامَ أحدٍ، فإذا فاجَأهُ طعامُ أحدٍ من المعارفِ وعرضَ عَلَيْهِ الأكلَ اعتذرَ لهُ وتنصَّلَ مِنْهُ حتَّى صارَ لهُ العفافُ وعُلُوُّ الهِمَّةِ خُلُقاً.

وهذه عادةٌ اليومَ في صِبيانهِ يُرَبِّيهِم على ذلكَ كَمَا ربَّاهُ عَلَيْهِ والدُه رضي الله عنه وقَدْ قالَ

" مراراً ربَّانا الوالدُ رحِمَهُ اللهُ على فعلِ أشياءَ نعني حميدةً وليسَ علَيْنا اليومَ فيها كُلْفَةٌ ولا مَشقَّةٌ ".

لهُ هِمَّةٌ سابقةٌ وعَزْمَةٌ لاحقةٌ تأبى نفسُهُ أنْ يصرفَهُ مُدرَكٌ من المدارِكِ أو يضِلَّ عنهُ مسلكٌ من المسالكِ، لا يقاومُهُ أحدٌ في الإقدامِ على معالي الأمورِ من أترابِهِ، ولا يسابقُهُ فيها أحدٌ من أضرابِهِ، ذو شجاعةٍ طبعيَّةٍ ونجدةٍ قوِيَّةٍ، ولم يُجاوِزْ قَطُّ قَرْنٌ من أقرانِهِ حدَّهُ، ولا في شجاعةٍ أو نجدةٍ حسْبَما تشهدُ لذلكَ وقائعُ كثيرةٌ يطولُ إيرادُ النَّزرِ اليَسيرِ مِنْها، إذ ما زالتِ الأفاعيلُ تصدُرُ عنهُ في ذالِكَ مُنذُ شبابِهِ وفي حضرِهِ وسفرِهِ عِندَ ما كانَ يخرجُ لجِنانهِ بلَمَطَةَ أو غيرِهِ أزمنةَ

السُّرورِ أو يسافرُ فيها لزيارةٍ أو غيرِها، وما وقعَ قَطُّ لمَنْ معَهُ خوفٌ إلَّا كانَ هو الذي يستبريءُ لهُمْ الخيرَ وأوَّلُ مَنْ يتقَدَّمُ.

خُلقُه ﷺ

ومِنْ خلُقِهِ الذي رُبِّيَ عَلَيْهِ السَّخاءُ العظيمُ والإنفاقُ الكبيرُ والقيامُ بشؤونِ أقارِبهِ وذويهِ والمُواساةُ لمعارفهِ ومَواليهِ، والإحسانُ لمَنْ عرفَ من المساكينِ ومَنْ لم يَعرفْ، لا مقرَّ للدِّرهمِ لديهِ قرارٌ، ولا يمكثُ عِندَهُ على الدَّوامِ والاستمرارِ.

لا يألَفُ الدِّرهمُ المضروبُ صُرَّتَهُ   لكنْ يَمرُّ عليْها وهُو مُطلِقٌ

وسيأتي الكلامُ عنْ سخائهِ وما لهُ فيهِ من الأفاعيلِ في بابهِ إنْ شاءَ اللّهُ.

ولَهُ ﷺ مُنذُ شبَّ عقلٌ تامٌّ وذكاءٌ قَوِيٌّ وفَهمٌ نافذٌ وفِطنَةٌ سريعةٌ لا يفوتُهُ إدراكُ معنى من المعاني، ولا يسبقُهُ أحدٌ إلى فهمٍ من الفُهوم، ولا يُخدعُ في شَيءٍ من الأشياء مُنذُ كانَ، ولايعوزُه أمرٌ من الأمورِ حتَّى أنَّهُ ليُدركُ الحِرَفَ والصِّناعاتِ إذا توجَّهَ إليها دون تعلُّمٍ، وقَدْ صنعَ بيدهِ أشياءَ لا يصنعُها إلَّا أهلُ حرفتِها القائمونَ بِها، فأصلحَ بيدهِ في دارهِ مصانعَ ترجِعُ إلى البناءِ والنِّجارةِ وغيرِهما.

وبنى بدارِ شيخهِ معَ البنَّائينَ حينَ كانَتْ تُبنى، والتمسَ مرَّةً مَنْ يصنعُ لهُ شيئاً من آلاتِ المِعصَرةِ فلم يجدْهُ لقلَّةِ مَنْ يصنعُهُ في هذِهِ الأزمنةَ وصعوبةَ صُنعهِ فنظرَ إلى ماصنعَهُ المُتقدِّمونَ من ذالِكَ في السِّنينَ السَّالفةِ وصنعَ مثلَهُ وعلى شكلهِ بل أتقنَ مِنْهُ وأحسنَ كُلَّ ذالِكَ مِمَّا لم يتقدمْهُ مُخالطةَ أهلهِ ولا معرفةَ لهُ بِهِ قَبلَ فِعلهِ إنَّما هو قُوَّة الفِطنةِ والذَّكاءِ، ولقد جالسناه وسمعنا من مخاطباتهِ العادية ومحاوراته الجارية ورأينا من فهمهِ الثَّاقب وفكره الصَّائب ما يشهد أنَّ لهُ في أصل فطرتهِ فضلُ إدراك ومزيدُ فِطنةٍ وكمال، عقلٌ نجيب لا يُجارى في

شَيءٍ من ذالِكَ ولا يُبارى، ولقد يتكلَّمُ معنا في شَيءٍ من الاصطلاحات العلمية التي لا تُدركُ إلَّا بالتَّعلُّمِ والملازمة، فيسألُنا أحياناً عنْ مسائل نحويَّةٍ فنذكرُها لهُ فيفهمُها لأول وهلةٍ، وكثيراً ما يغوصُ على مسائل بيانيةٍ في آياتِ قرآنيَّةٍ، ويقولُ لأيِّ شَيءٍ قدمَ هذا على هذا وهل هو إلَّا كذا وكذا؟ وإذا هو كذالك فنعجبُ من فطنتهِ لذالك وإصابتِهِ الصَّوابَ فيهِ، وما تقدمَ لهُ شَيءٍ من تعلُّمِ هذِهِ الأدواتِ العلميَّةِ قَطُّ.

وسأَلَنا مرَّةً عنْ " يا " من حروفِ النِّداءِ

" **هَلْ تكُونُ عِندَ النَّحويِينَ لنِداءِ البَعيدِ** " ؟

فقُلْنا لهُ نَعمْ يا سَيِّدي.

فقالَ

" **ولذالكَ حُذفتْ عِندَ نِداءِ الرَّبِّ تَعَالى في مواضِعَ منَ القرآنِ لأنَّ الرَّبَّ سُبحانَهُ وتَعالَى ليسَ ببعِيدٍ** "

فأعجبَنا حُسنَ قولِهِ ورأينا أنْ لو زِيدَ على قولِ النَّحويّينَ

" القريبُ يُنادَى بالهمزَةِ "

أنَّهُ يُحذفُ معَ القريبِ حرفُ النِّداءِ لكانَ من أحسنِ المزيدِ على أنَّهُم قالوا

" إنَّ البعيدَ لا يُعرَّى من الحرفِ".

فمُقتضاهُ أنَّ الحرفَ خاصٌّ بالقريبِ كَمَا قالَ سَيِّدُنا أحمدَ وهُو مِن الوِفاقِ العجيبِ وكمالِ عقلهِ ﷺ وفهمِهِ وقُوَّةِ إدراكهِ وميْزِهِ مِمَّا يبهرُ العقولَ ويُخرِجُ عنْ حدِّ المَقولِ، وشرْحُ مايُؤذِنُ بذالك يطولُ، وإذا أرادَ اللهُ تأهيلَ عبدٍ وتهيئتهِ لِمَا خُلقَ لأجلهِ من إرادة خصوصيتهِ وفضلهِ، أكملَ خلقَهُ وسجاياهُ ثُمَّ أظهرَ مفاخِرَهُ ومزاياهُ، فيكمُلُ لهُ عقلُ التَّمييزِ ليتهيَّأَ بِهِ إلى عقلِ التَّخصيصِ والأوليَّاتُ إشارةٌ للآخريَّاتِ، والبداياتُ عنوانُ النِّهاياتِ.

ولمَّا بلغَ الحُلمَ ﷺ زوَّجَهُ والدُه الشَّيخُ سَيِّدي مُحمَّد رحِمَهُ اللهُ من غيرِ تراخٍ في ذالِكَ اعتناءً بشأنهِ وحفظاً لهُ وصَوْناً على عادة ما كانَ يفعلُهُ في سائر أولادِه جرياً على مقتضى السُّنَّة من المُبادرة في ذالِكَ، فزوَّجَهُ وهو ابنُ ثلاثَ عشرةَ سنةً كَمَا هو أخبرَ عنْ نفسهِ غيرَ ما مرَّةٍ.

وكَما أخبرَ هو بِهِ والدَهُ الشَّيخُ سَيِّدي مُحمَّد مراراً مُتعدِّدةً حسْبَما حدَّثَ بذالك مَنْ سمعَهُ مِنْهُ، وذكرَ بَعضُ أقاربِهِ من أهل الثَّبتِ والثِّقةِ أنَّهُ هو المعلومُ عِندَهُم من غيرِ شَكٍّ فيهِ، وعَلَيْهِ فلا ينبغي ما ذُكِرَ من التَّرديدِ بينَ كونِهِ حينَئِذٍ ابنُ ثلاثَ عشرةَ أو أربعَ عشرةَ سنةً، وكانَ تزويجُهُ في ذي القعدة سنةَ خمسٍ وخمسين وألف، وبقيَ في حِجرِ والدِهِ رحِمَهُ اللهُ إلى أنْ تُوفيَ وتركَهُ ابنَ عشرين سنةً، وقَدْ نالَ مِنْهُ بركةً وحظّاً وافراً من الإصلاح والدِّينِ وفوائدَ في الطَّريقِ وجُمَلاً من الآداب كَمَا أخبرَ هو بمعنى ذالِكَ عنْ نفسه.

الإخبارُ عن خُصوصيتِه ﷺ

وقَدْ أخبرَ والدُهُ ﷺ بخصوصيَّتِهِ ومايؤول إليهِ أمرُهُ فكانَ يقولُ فيهِ زمن صِباهُ إذا رآه فعلَ شيئاً مِمَّا يفعلُهُ الصِّبيانُ

" إنِّي لأرى الخيرَ، وأيُّ وقتٍ يكونُ ذالِكَ "

كأنَّهُ يستبطئُ وقوعَهُ

وقالَ فيهِ أيضاً

" رأيتُهُ يَتبَعُ الخَصاصِي "

يعني شيخَهُ سَيِّدي قاسماً رحِمَهُ اللهُ وقالَ لهُ يوماً وأمامَهُ دراهمَ كثيرةً يُفرِّقُها على الفقراءِ والمساكينَ يُرسِل بِها معَهُ إليهِم

" ستعرفُ أنتَ أكثرَ مِن هذا إنْ شاءَ اللهُ تعالى على يدِكَ "

يُريدُ أنَّهُ سيبلُغُ مرتبتَهُ وتُسنَدُ إليهِ الأمورُ كَمَا أُسندتْ إليهِ، وناداه يوماً وقالَ لهُ

" إذا ظَفرْتَ بِشَيخٍ من أهلِ هذا الطَّريقِ فشُدَّ يدَكَ عَلَيْهِ ولا تُفرِّطْ فيهِ "

يعني أنَّهُ يظفَرُ بِهِ ويلازِمُهُ ودعا لهُ مرَّةً بقولِه

" اللهُ يفتحُ لكَ في مُؤمنٍ يفتَحُ بصيرتَكَ "

وقالَ لهُ مرَّةً أُخرى

" سيخالطُكَ الشُّرفاءُ ويعرفونَكَ "

يعني مخالطةً دينيَّةً.

فكانَ كُلُّ ذلِكَ على وِفقِ ما أخبرَ والحمدُ للهِ، واللهِ مُنجزٌ وعدَهُ وبالغُ أمرِهِ، فظهرَ عَلَيْهِ من الخيرِ مالا مزيدَ عَلَيْهِ، وأخذَ الطَّريقةَ واتَّبعَ فيها شيخَهُ سَيِّدي قاسماً الخَصاصي خليفةَ أبيهِ رضي اللهُ عنهما.

وفيهِ أيضاً تبيَّنتْ إجابَةُ دعائهِ، وكانَ هو المُرادُ بالمؤمنِ إذ أرادَ بِهِ الكاملُ الإيمانِ وذالك هو العارفُ بِاللهِ، وشدَّ يدَهُ عَلَيْهِ إذ عرفَهُ كَمَا أوصاهُ، وأكبَّ على

مُلازمتِهِ وخدمتِهِ إلى أنْ ماتَ، وخالطَهُ في هذِهِ السِّنينَ جماعةٌ من الشُّرفاءِ من فاس ومِكناسةَ وسجلماسةَ وجبلِ العلمِ وغيرِهِم المُخالطةَ الدينيَّةَ، وفرَّقَ من الدَّراهِمِ لهُ وعلى يدَيْهِ مالا يُحصى، فظهرَ كُلُّ ذالِكَ للعَيانِ، وبرزَ وَوقعَ جميعُهُ ونجزَ.

وأشارَ إلى نحوٍ من ذلِكَ أيضاً السَّيِّدُ الوليُّ الشَّهيرُ البَهلولُ الكثيرُ الكشفِ والكراماتِ الظَّاهرةِ البراهينِ والآياتِ سَيِّدي أحمدُ بنُ عمرَ الشَّريفِ دَفينٌ داخلَ بابِ الجيسةِ المُتوفَى سنةَ ستٍّ وستينَ وألفٍ.

لقِيَ رحِمَهُ اللهُ يوماً في الطَّريقِ سَيِّدَنا أحمدَ حفظَهُ اللهُ وذالك زمنَ صِباهُ فوضعَ يدَهُ على عينيهِ وجعلَ يفتحُهُما هذِهِ بعدَ هذِهِ، ويُوسِّعُ فتحَهُما توسيعاً كثيراً يُشيرُ بذالك رحِمَهُ اللهُ ونفَعَنا بِهِ إلى ما يكونُ لهُ من فسيحِ البصيرةِ ووِسْعِها. وأرسلَ إليهِ مرَّةً زمنَ صِباهُ أيضاً بمصباحِ زُجاجٍ نظيفٍ مَجعُول فيهِ الماءُ والفتيلةُ والرَّصاصُ الذي تكونُ فيهِ الفتيلةُ والسِّلسلةُ التي يُعلَّقُ بِها، وقالَ للمُرسَلِ معَهُ اعطِهِ سَيِّدي أحمدَ بنَ عبدِ اللهِ، يُشيرُ بذالك إلى تهيئتِهِ لِمَا هيَّأَهُ اللهُ إليهِ من الأنوار والأسرار وإلى أنَّهُ سيكونُ مصباحاً يُضيءُ على الخَليقَةِ ويقتَبِسُونَ من أنوارِهِ وقَدْ كانَ الأمرُ في ذالِكَ كُلُّهُ كَمَا أشارَ إليهِ. ولم يكنْ والدُهُ ﷺ عَلَّمَهُ صناعةً ولا حِرفةً يتسبَّبُ بِها من سائرِ أولادِه، وإنَّما علَّمَهُ قراءةَ القرآنِ فقط علْماً مِنْهُ ﷺ ما ببصيرتِهِ إلى ما سيؤولُ إليهِ أمرهُ.

وقَدْ سمعتُ مِنْهُ ﷺ أنَّ والدَهُ قَدْ أشارَ إلى ما يكونُ لهُ من خدمةِ الأحِبَّةِ، فلمَّا كَبُرَ، وذالِكَ كانَ بعدَ وفاةِ أبيهِ اشتغلَ بالفِلاحةِ وخدمةِ نخلهِ وأجنَّتِهِ، فكانَ ذالِكَ سببَهُ وحِرفتَهُ، وجعلَ اللهُ لهُ فيهِ البركةَ العظيمةَ فهو يستفيدُ مِنْهُ الخراجَ الكثيرَ يصرِفُهُ دائماً في سبيلِ اللهِ كَمَا سيأتي، وقَدْ أشارَ أيضاً إلى مايكونُ لهُ من هذِهِ الاستفادةِ سَيِّدي أحمدُ بنُ عمرٍ المذكورُ رحِمَهُ اللهُ.

أتَى يوماً الزَّاويةَ وجعلَ يسألُ عنهُ وفي يدِه جِرابٌ ويقولُ

" أُعطُوا هذا الجِرابَ سَيّدي أحمدَ بنَ عبدِ اللهِ يجعلُ فيهِ الدَّراهِمَ ".

فبلغَ ذالِكَ الشَّيخَ سَيّدي مُحمَّداً رحِمَهُ اللهُ فقالَ لولدِه سَيّدي أحمدَ قُلْ لهُ

" أُنا غَنيٌّ لاحاجةَ لي بذالِكَ "

كأنَّهُ كانَ يُشير إلى أنَّ ما اعَدَّ اللهُ لهُ من الخُصوصيَّةِ مِمَّا هو أحقُّ أنْ يُخبرَ بِهِ أحسنَ من ذالِكَ وأفضلَ.

سمعتُ سَيّدَنا أحمدَ ﷺ يذكُرُ هذِهِ الحِكايةَ ثُمَّ قالَ

" إنَّ ذالِكَ هُو ما يُدخِلُ سيّدي الأرَقَ ".

بدايتُه ﷺ في الطَّريق

وأمَّا بدايتُهُ ﷺ في الطَّريقِ وكيفيَّةِ أخذِهِ إيَّاها على التَّحقيقِ فإنَّهُ لمَّا تُوفيَ والدهُ رحِمَهُ اللهُ بقيَ على حالهِ لا ينضافُ إلى أحدٍ ولا ينتسِبُ إليهِ فأُوُلِعَ بالخروجِ إلى الخَلاءِ خارجَ المدينةِ واصطيادِ ما يجدُهُ من الطَّيرِ والوحشِ بالرِّمايةِ بالمدفعِ لا يستعملُ في ذالِكَ غيرَهُ، وكانَ مُحكِماً للرَّمي، مُصيباً إذا رمى على شَيءٍ لا يُخطِئهُ، عُرِفَ ذالِكَ من شأنهِ واستُقرِيءَ من فِعلهِ، ويخرجُ لذالك راجلاً أو راكباً على مايجدُهُ من بغلٍ أو حمارٍ، وما ركبَ فرساً مُسرَجاً مُنذُ وُلِدَ لأنَّهُ لم يُربَّ على تِلكَ الحالِ ولا كانَ يجنَحُ إلى مثلهِ بل تتوقُ هِمَّتُهُ إلى ما رُبِّيَ عَلَيْهِ من الدِّينِ وما كانَ عَلَيْهِ والدُه.

وسمعتُهُ يوماً يقولُ مررتُ يوماً بعدَ وفاةِ والدي رحِمَهُ اللهُ وقُربِها، ببعضِ طُرقِ المدينةِ وسمعتُ امرأةً فوقَ سطحٍ تقولُ

" ماتَ سَيِّدي مُحمَّد بنُ عبدِ اللهِ، ويا تَرى هَلْ تركَ رجُلاً " ؟

تعني أحداً يسيرُ بسيرتِهِ.

قالَ

" فوقَعَ ذالِكَ منِّي كُلَّ مَوضِعٍ، وأثَّرَ ذالِكَ في قَلبِي تأثيراً عَظِيماً "

ثُمَّ أنَّهُ دخلَ يوماً الزّاويةَ فجلسَ معَ السَّيِّدِ العالِمِ الصُّوفي أبي عبدِ اللهِ مُحمَّد المَهدي بنِ أحمدَ الفاسي أدامَ اللهُ حفظَهُ فدلَّهُ وحضَّهُ على معرفةِ وارثِ حالِ أبيهِ مِنْ أصحابِهِ إذ لم يكنْ يَعرِفُ وارثَهُ بعدُ وهو الشَّيخُ الواصلُ العارفُ المُحقِّقُ المستغرِقُ أبو الفضلِ سَيِّدي قاسمٌ بنُ الحاجِّ قاسمٍ الخَصاصي ﷺ فعرَّفَهُ اللهُ إذ ذاكَ خصوصيَّتَهُ ووقعَ في قلبهِ موقعاً.

وكانَ سَيِّدي المهدي المذكورُ هو السَّببُ لهُ والحاملُ على ذالِكَ، وقَدْ قالَ سَيِّدُنا أحمدُ ﷺ غيرَ ما مرَّةٍ

" إنَّ لسَيِّدي المَهدي عليَّ يداً لا أنساها لهُ أبداً هي أنَّهُ كانَ السَّببُ لي في معرفةِ سَيِّدي قاسمٍ رحِمَهُ اللهُ ".

مع أنَّهُ قدْ كانَ سَيِّدُنا أحمدُ ﷺ يَعرِفُ لسَيِّدي قاسمٍ رحِمَهُ اللهُ الفضلَ التَّامَّ في الدِّينِ والصَّلاحِ والتَّقدُّمِ فيهما ويعتقدُ مَزِيَّتَهُ زمنَ أبيهِ سَيِّدي مُحمَّد رحِمَهُ اللهُ ويعظِّمَهُ غايةَ التَّعظيمِ.

سمعتُهُ مرَّةً يقولُ

" كانَ الشَّيخُ سَيِّدي قاسمٌ زمنَ الوالدِ رحِمَهُ اللهُ عظيمَ القدرِ عندَنا جليلَ الشَّأنِ حتَّى أنَّهُ في ذالِكَ الوقتِ غاضبَتْهُ زوجتُهُ يوماً فجاءَ يبيتُ بالزَّاويةِ فأخرجتُ لهُ الفراشَ والطَّعامَ، وكانَ لا يأكُلُ طعامَ أحدٍ البتَّةَ ولو طعامَ والدي، فلمَّا أخذَ الطَّعامَ من يدِي وقَبِلَهُ فرحتُ بذالك غايةَ الفَرحِ وسُرِرتُ بِهِ أعظمَ السُّرورِ ".

فهذه معرفةٌ سابقةٌ، والذي تجدَّدَ لهُ بعدَها إنَّما هو معرفةُ أنَّهُ الوارثُ لأبيهِ والخليفةُ من بعدَهُ، ولمَّا أُلهِمَ سَيِّدُنا أحمدُ ﷺ ما أُلهمَ من معرفةِ سيِّدي قاسمٍ وَوقَر في صدرِهِ مِنهُ ما وقرَ، وظهرَ لهُ مِنهُ ماظهرَ معَ ما أهلَّهُ اللهُ إليهِ بسابقِ عِنايتِه وفيضِ كرامتِه نقضَ يدَيْهِ مِمَّا لديهِ، وعَلقَتْ هِمَّتُه العليَّةُ بالتَّعلُّقِ باللهِ والوجهةِ إليهِ والوقوفِ ببابهِ والعكوفِ عَلَيْهِ، فَجرَّدَ نفسَهُ من العلائقِ تجريداً وقَطَعَها عنْ العوائقِ تفريداً، ولبسَ من جديدِ التَّوبةِ جِلباباً، وشمَّرَ عنْ ساعدِ الجدِّ أثواباً، ففتحَ اللهُ عَلَيْهِ للمَسيرِ أبواباً، وأزالَ عنهُ مانعاً وحِجاباً، فأكبَّ على سَيِّدي قاسمٍ رحِمَهُ اللهُ إكباباً، وصَبا إليهِ انصباباً، وانحاشَ بكُلِّيتِهِ إليهِ، وأقبلَ بِقلبِهِ وقالَبِه عَلَيْهِ، ونبذَ كُلَّ أمر دونَهُ من خَلْفٍ، وذالك في شوَّالٍ أو نحوهِ من سنةِ أربعٍ وستِّينَ وألفٍ، ثُمَّ أنَّهُ كَمَا ذكَرَ في " **الإلماع** " في أواسط ذي الحِجة من السُّنَّة المذكورة.

ذهَبَ إلى زِيارة قُطبِ الأقطابِ أبي مُحمَّد سَيِّدي عبدِ السَّلام بن مشيشٍ الحَسني ﷺ فَتجرَّدتْ لهُ بِه إرادة، وصَحِبتهُ مِنْهُ أيَّما إفادة.

كانَ بعدَ أنْ رجعَ يرى في معناهُ أنَّهُ يمدُّ يدَيهِ إلى سَيّدي قاسمٍ سائلاً مِنْهُ طالباً ومُتملّقاً إليهِ راغباً حسبَما أخبرَ هو عنْ نفسهِ بذالك وأنبأَ عمَّا هُنالِكَ، فأراهُ ابنُ مشيشٍ بذلك أنَّهُ إمامُ وِجهتِه ومحرابُ قبلتِه وشيخُ طريقهِ وقدوةُ تحقيقِهِ وفقَ ما كانَ ألهمَهُ وعلَّمَهُ، فانجمعَ في حالهِ وجدَّ في سَيْرِه وترحالِه وسلبَ لهُ الإرادةَ وألقى إليهِ قِيادَهُ، ومحى في مُرادِهِ مُرادَهُ، ولزمَهُ كُلَّ الإلزامِ، وجمعَ فيهِ كُلَّ بُغيةٍ ومرامٍ، وأقبلَ على الذِّكرِ وأعمالِ الفِكرِ وآوى إلى الخلواتِ والعِبادةِ والقُرباتِ فلاحتْ مباديءُ فتحهِ، وظهرَ عَلَيْهِ الحالُ بل أحوالٌ مُتواليَّةٌ وذالك بعدَ نحوِ سبعةِ أشهرٍ من بدءِ صُحبتهِ لهُ أو ثمانيةٍ في أواسطِ سنةِ خمسٍ وستّينَ وفيها كانَ كمالُ فتحهِ المُبينِ، وصارتْ تصدرُ مِنْهُ عِندَ ذلِكَ صيحاتٌ ونطقَ بمكاشفاتٍ ومغيَّباتٍ، وتظهرُ عَلَيْهِ خوارقٌ وكراماتٌ، ويُكاشَفُ بالبواطنِ والضَّمائرِ، ويرى صورَ الخلقِ على حسبِ السَّرائرِ.

أخبرنيَ السَّيّدُ العالِمُ الأجلُّ سَيّدي المهدي بن أحمد الفاسي أدامَ الله حفظَهُ أنَّهُ كانَ يوماً جالساً معَهُ في حزبِ الغداةِ وذالكَ أوانَ بدايتهِ فقالَ لهُ وقد نظرَ إلى النَّاسِ الجالسينَ هُنالِكَ

" لا إلهَ إلَّا اللهُ كُلُّ واحدٍ على صُورتهِ الباطنيَّةِ "

وكثُرَ مِنْهُ الكشفُ وحميَ وتتابعَ، فقلَّما يلقى أحداً من الأقاربِ أو الأجانب إلَّا وقعتْ لهُ معَهُ غريبةٌ من الغرائبِ، كَمَا أخبرَنا بِهِ غيرُ واحدٍ من الفُضلاءِ ممَّن كانَ يومئذٍ يليهِ من معارفهِ وذويه، ويصدُر مِنْهُ إذ ذاك في الإخبار بِما سيأتي وبما قيل لهُ غيباً كَلامٌ موزونٌ على طريقةِ أهل الملحُونِ وقلبُهُ معَ ذالِكَ مولَّهٌ في مولاهُ مَهيمٌ في حُبِّهِ وهواهُ، غيرَ مُلتفِتٍ لِما سِواهُ مِمَّا يُكاشَفُ بِهِ ويراهُ قد مُزِجَ بتوحيدهِ وصُبِغَ بتفريدِهِ حتَّى كانَ إذا ذكرَ ربَّهُ يسمعُهُ هو من قلبِهِ، والتفتَ يوماً لسيّدي المهدي الفاسي وهو بإزائهِ جالساً بالزَّاويةِ فقالَ لهُ

" اسمعْ يا أخِي الحضرةُ في قلبي، أما سمعتَ الحضرةَ في قلبي "

ثُمَّ لم يزلْ حالُهُ يَقوَى ويزدادُ حتَّى خرَجَ عن كُلِّ مألوفٍ ومُعتادٍ ومُستحسَنٍ ومُرادٍ، ولم تبقَ لهُ شهوةٌ في مأكلٍ ولا مَشربٍ ولا مَلبسٍ ولا منكَحٍ ولا غيرِ ذلِكَ وخَيَّرَ زوجتَهُ حينئذٍ بينَ الصَّبرِ على ما هُو عَلَيهِ أو الفراقِ فاختارتْ رحِمَها اللهُ البقاءَ معَهُ على سلوكِ تِلكَ المسالكِ، ولم تَبقَ لغيرِ محبُوبهِ بقيَّةٌ ولا فيما سِواهُ أُمنيةٌ، واستوحشَ عنْ الخلقِ وانقطعَ عنهُم إلى الملكِ الحقِّ، وتوجَّهَ تلقاءَهُ ونبذَ السِّوا وراءَهُ.

فلم يزلْ يرتقي بهمَّتِهِ مولاهُ، فيجذبُهُ لحضرتِهِ، ويحفُّهُ بعنايتِهِ وفضلِهِ وكرامتِهِ إلى أنْ بلغَ المراتِبَ السَّاميةَ والمقاماتِ العاليةَ، ووصلَ المُنْيَةَ والمُنتَهى

﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾[1]

قالَ في " **الإلماع** " بعدَ أن ذكَرَ بَعضَ معنى ما تقدَّمَ

" فبينَما هو يعني سَيِّدُنا أحمد في ابتداءِ ذِكرِ الجلالةِ آخرَ أحزابِ الغَداةِ وهو معَ الأصحابِ مُلازمين لذلكَ بالزَّاويَةِ يومَ الإثنينِ تاسعَ عشرَ شعبانَ سنةَ ستٍّ وستِّينَ وألفٍ في شهرِ مايو من شهورِ العَجمِ، إذ نزلَ بِهِ واردٌ عظيمٌ اقتطعَهُ عنْ حِسِّهِ وغابَ بِهِ عن شاهِدِهِ، وسرَى ذلِكَ مِنهُ وطارَ شررُهُ إلى غيرِهِ، فتحرَّكَ معَهُ جماعةٌ نحو السِّتَّةِ أو سبعةٍ وظهرَ علَيْهِمْ الحالُ، أمَّا أحدُهم وهو أوَّلُهُم فضمَّهُ سَيِّدي أحمدُ فعضَّهُ من كتفِهِ فما أطلقَهُ إلَّا في غيرِ حِسِّهِ، وبَقوا في ذِكْرِ الجلالةِ إلى الزَّوالِ أو قبلِهِ بيسيرٍ ثُمَّ قالَ وبقيَ يومَهُ يتحرَّكُ ويصيح ويمشي ويجيءُ ويحترقُ فؤادُه إحتراقاً عظيماً لايُوصَفُ قدرهُ يفزع تارةً إذا وقعَ لهُ شعور إلى شربِ الماء ويستغيث الحاضرين يأتونه بِهِ وبقيَ مُصطلِماً غائباً لا شعورَ لهُ بشيءٍ من عالَم الحِسّ يتكلَّمُ على نعتِ البهاليلِ وسُنَنِهِم نحو الخمسةِ أيَّام إلَّا أنَّ أوقاتُهُ محفوظةٌ عَلَيْهِ "[2]

---

[1] . النجم 42

[2] . الإلماع ص " 44 "

ثُمَّ قالَ

" ثمَّ يومَ الأربعاءِ وهو الحادي والعشرينَ من شعبانَ المذكور وخرجَ، وكانَ مثل ما كانَ يومَ الإثنينِ أيضاً وبقوا في ذِكْرِ الجلالةِ إلى الضُّحى الأعلى وفتحَ لجماعةٍ آخرينَ مثل أولائكَ في العددِ أو أكثرَ، وتقَوَّى حالُ أولئِكَ السَّابقينَ، ثُمَّ عِندَ العصرِ خرَجَ لناحيةِ السُّوقِ فمَكَّنَ رجلين من المنتسبينَ لأبيهِ فتبعاهُ وقَدْ غلبَ علَيْهِمْا الحالُ، وكُلُّ أولئكَ السَّابقينَ من المنتسبينَ لأبيهِ، وفي ضحوةِ ذالِكَ اليومِ سمعتُهُ يقولُ

" **إِنِّي قَدْ شَرِبْتُ البَحرَ وإِذا ردَدْتُهُ** " يعني قيَّئتُهُ أو قالَ كلمةً غيرَ هذِهِ بمعناها " **فهَلْ هُنَا مَنْ يَشرَبُهُ** "؟

فقيل لهُ " لا أحد ".

ثُمَّ بقيَ ذالِكَ مُتتابعاً مُترادفاً والأحوالُ تظهرُ على المُوالينَ لهُ والقارئينَ معَهُ الحزبَ وعددُهُم في ازديادٍ معَ الأيَّامِ والشُّهورِ والسِّنين "[1] انتهى الغرضُ مِنْهُ.

وكانَ الشَّيخُ سَيِّدي قاسمٌ رحِمَهُ اللهُ في أثناءِ ذالِكَ كُلِّهِ وعلى مرِّ اللَّيالي والأيَّامِ مُتوجِهاً إليهِ بكُلِّيتِهِ ومُهتمَّاً بِهِ غايةَ الاهتمامِ، قَدْ حدبَ عَلَيْهِ وصرفَ عِنانَ العنايةِ إليهِ، يُربِّيهِ ويُرقِّيهِ ويُقربُهُ ويُدنيهِ، ولا يغفلُ عنهُ باطِناً مخافةَ أنْ يَفترَ ولا ظاهراً مخافةَ أنْ يُقصِّرَ.

سمعتُهُ يوماً يقولُ

" **وقعَ لي مرَّةً بَعضُ فترةٍ يعني في حالهِ فنظرتُ يوماً إلى سيفٍ عندي مُفتقِرٍ للإصلاحِ فأعطيتُهُ رجلاً يُصلِحُهُ فمرَّ بِهِ على سَيِّدي قاسمٍ فسألَهُ لمَنْ هذا السَّيفُ** "؟

فقالَ لفلانٍ، فقالَ لهُ أهُو مُتفرِّغٌ إلى هذا ومِثلِهِ؟

قالَ

" **فنزلَ بي ما نزلَ من مثلِ ما كانَ يعهدُنِي يعني مِنَ الأحوالِ** ".

---

1 . الإلماع ص (46)

وأخبرني بَعضُ الفضلاءِ من المُوالينَ لسيّدِنا أحمد ﷺ أنَّهُ قالَ لهُ كُنْتُ يوماً جالساً معَ سَيّدي قاسمٍ فقالَ

" اللّه "

مشيراً إليَّ فلم أجدْ ماكان عِندي وفقدتُهُ في الحينِ، فمكثتُ كَذلِكَ أيَّاماً ساكناً مُذعِناً وإذا بخيرِ اللهِ قَدْ جاءَ أظنُّهُ قالَ أكثرَ مِمَّا كانَ، قالَ فجعلَ سَيّدي قاسم إذ ذاك يقولُ لي

" أنتَ سَيّدي أنتَ سَيّدي "

يشيرُ واللهِ أعلمُ إلى مزيَّتِهِ عِندَ اللهِ وتعظيمِهِ من حيثُ ذلِكَ ويُريدُ بِما فَعلَ بِهِ إنّ ذلكَ على يدِهِ ومَددٍ من مددِهِ.

وسمعتُهُ يوماً يقولُ

" قلتُ مرَّةً لسَيّدي قاسمٍ يا سَيّدي رأيتُ البارحةَ شيئاً شِبهَ الهِرِّ في يدي وأنا أخنقُهُ بيدي فيمُوتُ ثُمَّ يمكُثُ ساعةً فيعيشُ ثُمَّ أخنقُهُ أيضاً فيموتُ ثُمَّ يعيشُ إلى أنْ خنقتُهُ المرَّةَ الأخيرةَ فرميتُ بِهِ فلم يعُدْ بعدَ ذلِكَ فلا أراهُ إلَّا النَّفسَ ".

فقالَ لي سَيّدي قاسم أحببتُ أنْ يكونَ غيرُك هو الذي فعل ذلِكَ لا أنتَ.

قالَ لهُ ذلِكَ مقالاً ومكَّنَهُ مِنْهُ حالاً يُشيرُ بذلِكَ واللهُ أعلمُ إلَّا أنَّ موتَ نفسِهِ ومَحوِهِ عَنْها ينبغي أن يكونَ شهودُه مِنَ اللهِ من غيرِ التفاتٍ إلى شهودِ سببٍ من مُجاهرةٍ أو غيرِها.

وسمعتُهُ مرَّةً يقول

" نَزَلَ فيَّ أمرٌ همَّني فخطرَ ببالِي أنْ أُسافِرَ إلى بَعضِ الجِبالِ أمكُثُ هُنالِكَ أيَّاماً لأنظُرَ ما أفعلُ "

فلمَّا جئْتُ سَيّدي قاسماً قالَ أوَّل ما أشرفـتُ عَلَيْهِ

﴿ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾[1].

فأيقظَهُ بِما عَلَيْهِ تلاهُ, ورجعَ عمَّا أضمرَهُ ونَواهُ.

وقالَ مرَّةً

" وجدَني يوماً سَيِّدي قاسمٌ دَهِشاً مُتحيِّراً وقَدْ نزلَ بي حالٌ عظيمٌ ".

فقالَ لي ما عندَكَ؟

" فلم أُطقِ التَّعبيرَ عنْ ذلِكَ ثُمَّ قلتُ لهُ دُهشْتُ وتحيَّرْتُ بينَ جلالِ اللهِ وجمالِهِ ".

فقالَ لي

" كَذلِكَ هو القائِمُ لا تَجدُهُ إلَّا مُتحيِّراً "

يعني بالقائِمِ الثَّائرِ على الخليفةِ المنازعِ لهُ في خلافتِهِ، يُشيرُ بذلِكَ إلى أنَّ الشأنَ هو الغيبَةُ عنْ النَّفسِ وعدمِ الشُّعورِ بِها إذ الدَّهشُ والتَّحيُّرُ من وصفِهِما وبقيَّةٍ من بقاياها فَرقَّاهُ ﷺ عنْ ذلِكَ إلى ما هو المطلوبُ.

قالَ سَيِّدي أحمدُ

" وكُنْتُ أظنُّ إذ ذاك أنِّي احتويْتُ على المطلوبِ "

إلى غيرِ ذلِكَ مِمَّا وقعَ لهُ معَهُ في هذا المَعنى من المُنازلاتِ والتَّرقياتِ، فكانَ ﷺ لا يزالُ يُرقِّيهِ بحالِهِ ومَقالِهِ إلى بلوغِهِ وكمالِهِ، وكانَ يسيرُ بِهِ سيْرَ المَجاذيبِ ميلاً إلى حالِهِ، وقالَ يوماً

" واللهِ لا أرجِعُ عنهُ حتَّى أترِكَهُ كَمَا تركَني أبوهُ "

يعني الشَّيخُ سَيِّدي مُحمَّد حيثُ تركَهُ تامَّ النُّورِ كاملَ الحالِ حتَّى كانَ الوارثُ لهُ، ولمَّا رأى عِظمَ ما نزلَ بِهِ أرادَ أنْ يرُدَّهُ إلى التَّماسُكِ والتَّمكُّنِ، فأمرَهُ بمجالسةِ الأصحابِ والتَّكلُّمِ معَهُم ليُفيقَ بَعضَ الإفاقَةِ، وأمرَهُ مرَّةً بزيارةِ أبيهِ الشَّيخِ سَيِّدي مُحمَّد، ومرَّةً بزيارةِ الشَّيخِ أبي عبدِ اللهِ التَّاوُدي فزارَهُما.

---

[1] . هود (43)

وحكى لبعضِ الأصحابِ عنْ نفسهِ أنَّهُ لمَّا كانَ ذاهباً لزيارةِ الشَّيخِ التَّاوُدي المذكورِ أحسَّ بسيِّدي مَسعُودٍ الشَّراطِ عندما مرَّ على ضريحِهِ أنَّهُ يجذبُهُ إليهِ جذباً قويَّاً لِيردَّهُ إليهِ، وكانَ يقطعُ عنهُ السِّماعَ أحياناً حِرصاً على سكونهِ، ورُبَّما يستأذنُهُ في ذلِكَ إذا غلبَ عَلَيْهِ الحالُ فيمنعُهُ مِنْهُ، فلم يزلْ بِهِ حتَّى سكَنَ ورُدَّ للوجودِ، وكانَ في أثناءِ ذلِكَ إذا صدَرَ مِنْهُ أمرٌ خارقٌ للعادةِ أو ظهرتْ عَلَيْهِ كرامـةٌ زجرَهُ زجـراً غليظاً، ونَهـاهُ عـنْ ذلِكَ نهياً شديـداً، ورُبَّمـا قالَ لـــهُ " أتخرُجُ هكذا " ؟

خوفاً عَلَيْهِ أن يقفَ معَ ذلِكَ إلى أنْ تمكَّنَ وكمُلَ فصارتْ تصدُرُ مِنْهُ بمحضِها خوارقَ وتصريفاتٍ فلا ينهاهُ عنْ شَيءٍ من ذلِكَ بل رُبَّما يأمرُهُ بِما فيهِ إظهارُ حالِهِ وظهورُ تصريفِهِ ويُقدِّمُهُ لهُ، وكانَ بَعضُ الفُضلاءِ من أصحابِهِ وذوو الأحوالِ مِنهُمْ قَدْ ماتَ لهُ ابنٌ شابٌّ نجيبٌ عزيزٌ عَلَيْهِ ليسَ لهُ يومئذٍ ولدٌ سِواهُ، فخافَ عَلَيْهِ سَيِّدي قاسمٌ أن تأخذَ مُصيبتُهُ من قلبِهِ أو تذهبَ ببعضِ عقلِهِ ولُبِّهِ لِمَا يعلَمُ من شِدَّةِ مَحبَّتِهِ إيَّاهُ وإنَّهُ لا يمكُنهُ الصَّبرَ عنهُ عادةً، فجعلَ يقولُ للحاضرينَ، أما هنا أحدٌ يذهَبُ إليهِ؟ أما هُنا مَنْ يأخُذُ بيدِهِ؟

فسكتُوا فوجَّهَ الخِطابَ لسَيِّدي أحمدَ، وقالَ لهُ قُمْ يا سَيِّدي أحمدُ وسِرْ إليهِ فذهبَ إليهِ عالماً بِما أرسلَهُ لأجلِهِ من الأخذِ بيدِهِ، وكانَ الرَّجلُ في كَرْبٍ عظيمٍ وغَمٍّ شديدٍ، فلمَّا أشرقَ عَلَيْهِ ونظرَ إليهِ تحوَّلَ حالُهُ في الحينِ وصارَ بعدَ حُزنِهِ من الفرحينَ، وظهرَ عَلَيْهِ أثرُ الرِّضى والارتياحِ والسُّرورِ والانشراحِ كأنْ لم تكُنْ مُصيبتُهُ لديهِ ولا ماتَ لهُ عزيزٌ عَلَيْهِ وجعلَ يقولُ لسيِّدنا أحمد الحمدُ للهِ لا بأسَ ولا ما يُشوِّشُ البالَ، اللهُ أعطاهُ اللهُ قبضَهُ إليهِ فلَهُ الحمدُ على كُلِّ حالٍ.

وظهرَ بذلِكَ ما صدَرَ عنْ سَيِّدِنا أحمد ﷺ من فِعلِهِ بالرَّجُلِ وتَصريفِهِ فيهِ باطناً، وتبيَّنَتْ بذلِكَ مزيَّةَ إسنادِ الأمرِ إليهِ، وقَدْ كانَ ﷺ يتصرَّفُ معَ وجودِ شيخِهِ وفي حياتِهِ بمحضرِهِ وغيرِ محضرِهِ في القلوبِ وغيرِها صدَرَ مِنْهُ في ذاك

وقائعُ وأمورٌ بدائعُ، وكانَ ذوو الأحوالِ من الأصحابِ يَحسُّونَ بِما يأتيهِم من قِبَلِهِ مَنْ فُتِحَ على يدِهِ أو مزيدَ مَددٍ أو نحوهِ ويجدونَ ذلِكَ مِنْهُ حسْبَما أخبرَنا بذلِكَ جماعةٌ مِنهُمْ وجاءَ الزّاويةَ ولازمَها أكثرُهُم بل كلُّهُم على يدِهِ واندفعَ بِهِ بعضُهُمْ عَنْها.

وممّا وقعَ في ذلِكَ أنَّ بَعضَ أهلِ الوقتِ كانَ يُنكِرُ على شيخهِ أشياءَ بلَغتْهُم عنهُ عنْ غيرِ وجهِها فجمعَهُم بَعضُ النَّاسِ للمُراجعةِ بزاويةِ سَيّدي يوسفَ الفاسي نفَعَنا اللّهُ بهِ، وصنعَ لهُمْ طعاماً أعدَّهُ لهُمْ، فلمَّا اطمأنَّ المجلسُ هُنالِكَ بسيِّدي قاسمٍ وسيِّدِي أحمد ومن معَهُما من الأصحابِ وبأولئكَ الآخرينَ، أقبلَ صاحبُهم على سَيِّدي قاسمٍ يُعدِّدُ عَلَيْهِ أشياءَ يزعُمُ أنَّها من حقوقهِ عَلَيْهِ، فتلوَّنَ وجهُ سَيّدي أحمدَ إذ ذاك وأخذَتْهُ الغَيْرةُ واعتراهُ من الحالِ ما اعتراهُ فنهضَ قائماً وجمعَ أصابعَ يدِهِ إلى كفِّهِ كالقابضِ على شَيءٍ وأشارَ بِها وقالَ لهُ، أتسكُتُ أو أضرِبُ فسكتَ من فورِهِ وطلبَ الفاتِحةَ من سَيّدي قاسمٍ للدُّعاءَ لهُ.

وقامَ سَيِّدي قاسمٌ من مكانهِ مُنصرِفاً وتَبِعَهُ سيِّدي أحمدُ وتبعَهُما سَيّدي المَهدي الفاسي وكانَ حاضراً ومكثَ الباقون لأكلِ الطَّعامِ، فَبينَما سَيِّدي المهدي المذكور في دارهِ إثرَ ما وصلَ إليها إذ جاءَهُ سَيِّدي أحمدُ ودَقَّ عَلَيْهِ البابَ، فلمَّا فتحَ لهُ قالَ لهُ

" أكلتَ من ذلِكَ الطَّعامِ " ؟

فقالَ لهُ

" لا يا سَيّدي ذهبتُ إثرَكما ".

فقالَ **" الحمدُ للّهِ "**

ثُمَّ إنَّ كُلَّ مَنْ أكلَ من ذلِكَ الطَّعامِ انقطعَ عنِ الزّاويةِ والعياذُ باللهِ ولم يجدْ إليها سبيلاً، وظهرَ أثرَ ما كانَ هدَّدَ بِهِ سَيّدُنا أحمدُ ﵁

﴿ وَكَانَ أمرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾[1]

ورجلٌ آخرَ مِمَّنْ كانَ في عددِ أصحابهم ومِمَّنْ تقدَّمَ لهُ صحبةٌ معَ أبيهِ سَيِّدي مُحمَّد رحِمَهُ اللهُ كانَ في قلبهِ مرضٌ بحيثُ يصدرُ مِنْهُ على الأصحابِ اعتراضٌ فخرجَ عَلَيْهِ يوماً سَيِّدي أحمدُ من خوخةِ الدَّارِ النَّافذَةِ للزّاويةِ وهو بِها، فوقفَ على سطحِ المُباحِ بإزاءِ التُّوتةِ هُنالِكَ وقَدْ اعتراهُ حالٌ فرمى بِمَخفيَّةٍ[2]خاليةٍ من الطَّعامِ كانَتْ بيدِهِ إلى الصَّحنِ فانكسرَتْ وفَزِعَ الرَّجلُ لذلكَ فرَقاً وحنقَ من أجلهِ حنقاً وذهبَ شاكياً إلى سَيّدي قاسمٍ رحِمَهُ اللهُ وقالَ لهُ، احتسبتُ عندما رمى بِها أنَّها انكسرَتْ على رأسي، فانقطعَ الرَّجلُ عن الزَّاويةِ ولم يقدرْ أنْ يصلَ إليها بعدَ ذلِكَ بقُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

وممَّا وقعَ لهُ من التَّصريفِ في شأنِ الأُمراءِ في زمنِ شيخهِ أيضاً أنَّهُ لما قَدِمَ الرَّئيسُ المُجاهِدُ أبو العبَّاسِ الخضرُ بنُ علي غيلان أميرُ أصيلا والقصرِ وتطوان وما والاهُنَّ من جبالٍ وأعرابٍ في جيشٍ لهُ على فاس طامعاً في تملُّكِها سنةَ احدى وسبعين بتقديمِ السِّينِ وألفٍ، وأصبحَ نازلاً بإزائها أنهى بعضُهُم خبرَهُ إلى سَيِّدي أحمدَ وقالَ لهُ أنَّهُ نازلٌ بموضعِ كذا على مسيرِ نحوِ ساعةٍ من فاسٍ فقبضَ أصابعَهُ مجموعةً إلى كفِّهِ وضَمَّ ذراعَهُ إلى عَضُدِه ودفعَ في الهوى بيدهِ فرحلَ الرَّئيسُ المذكورُ من منزلِهِ راجعاً عَوْدَهُ على بَدْئِهِ يومَهُ ذلِكَ.

وكذلكَ لمَّا قدِمَ السُّلطانُ مولاي الرَّشيدُ بنُ الشَّريفِ الحسَني رحِمَهُ اللهُ على فاسٍ مُحاصِراً لها حصارَهُ الأوَّلَ وذلِكَ في المُحرَّمِ سنةَ ستٍّ وسبعين وألفٍ صَاحَ وهو جالِسٌ أمامَ شيخِه أنَّهُ إذا جاءَ يُضرَبُ، وضربَ بيدِهِ إلى الأرضِ مجموعةً فضُرِبَ كَمَا قالَ برصاصةٍ أزاءَ إذنهِ وحَجَرٍ في صدرهِ عِندَ روضةِ سَيِّدي الحسنِ الدَّزاوي خارجَ بابِ الفُتوحِ وولَّى عنْ فاسٍ مُنكسرَ الشَّوكَةِ.

---

[1] . النساء 47

[2] . صحن الطعام

ولمَّا قَدِمَ ثانياً وذلِكَ في ذي القِعدةِ من سنةِ ستٍّ وسبعينَ أيضاً، قالَ وشيخُهُ حاضرٌ

" إِنِّي لا أَلْقاهُ وإِنَّ رِجْلَيَّ هذهِ المرَّةَ فاشِلتانِ ".

يُرِيدُ أنَّهُ يَغلِبُ، فكانَ لهُ الظَّفرُ والغلبةُ، ودخلَ فاساً الجديدَ مُتسوِّراً عليها ليلاً فَما شعرَ أهلُها إلَّا وهو معَ جيشِهِ، واستولى على مُلْكِ فاسٍ ثُمَّ على مُلْكِ المغربِ بعدَها إلى غيرِ ذلِكَ مِمَّا صدَرَ عنهُ زمنَ شيخِه مِمَّا هو أكثرُ من أنْ يُستوفَى وقَدْ كانَ شيخُه سَيّدي قاسمٌ ﷺ يُنوِّهُ بقَدرِهِ وعظيمِ أمرِهِ ويُشيرُ لمزيَّتِهِ وشفُوقِ منزلتهِ، ويقولُ مُشيراً إليهِ

" أنَّ الذي بهذهِ الزَّاويةِ لا يوجَدُ في أرضٍ "

وقالَ مرَّةً

" واللهِ لولا سَيّدي أحمدٌ لم يجِدْني أحدٌ "

فصرَّحَ بأنَّ تَصدّيهِ للنَّفعِ والتَّربيةِ إنَّما كانَ لهُ وبِسببِهِ، والسَّعيدُ مَنْ سُعِدَ ثُمَّ سُعِدَ بِهِ غيرُه، وجعلَ مرَّةً يقولُ فيهِ لبعضِ مَنْ حضَرَ مُظهِراً لشأنِهِ

" كيفَ رأيتَ سَيّدي أحمدَ أتراهُ كيفَ هو " ؟

فيقولُ

" يا سَيّدي تباركَ اللهُ ما أحسنَهُ فيضحَكُ سَيّدي قاسمٌ كثيراً فرحاً بذلِكَ وسروراً ويقول في بَعضِ الأحيانِ لأصحابه مُشيراً إليهِ

" كيفَ هِيَ ولادةُ البازي " ؟

فيقولونَ لهُ

" يا سَيّدي الطُّيورُ كُلُّها تَلِدُ كثيراً من الأفراخِ وتُخفِيها عنِ الأعيُنِ إلَّا البازي فإنَّهُ لا يَلِدُ إلَّا واحداً ويجعلُهُ على الطَّريق بارزاً لا يخشَى عَلَيْهِ الطُّيورَ ولا غيرَها"

فيعجبُهُ ذلِكَ، ورُبَّما يقولُ لبعضِ أصحابِهِ خالَطَهُ، وكانَ يُشيرُ إلى أنَّهُ الوارثُ.

وقالَ مرَّةً وهو في حالِ مَرَضٍ

" قولُوا لسَيِّدي أحمدَ بنِ عبدِ اللهِ يأخُذُ متاعَهُ عَنِّي ".

ثُمَّ ناداهُ وجعلَ يقولُ لهُ ذلِكَ مشافهةً، ورُبَّما أوصاهُ ببعضِ النَّاسِ يأخذُ بأيديهِم بعدَهُ ويُربِّيهِم وسيِّدُنا أحمدُ ﷺ معَ هذا كُلِّهِ ومع ما كانَ يَسرِي مِنْهُ ويَمُدُّ بِهِ غيرَهُ من الأنوارِ في أدبٍ عظيمٍ معَهُ وفي غايةٍ من التَّنصُّلِ والتَّبرُّءِ من الدَّعوى وطلبِ الخَفاءِ.

وقَدْ جاءَهُ يوماً فقالَ لهُ

" يا سَيِّدي طلبتُ عليكَ أنْ أَسْقُطَ من عينِ الخلقِ ".

فكانَ ﷺ لا يُريدُ نسبةَ شَيءٍ إليهِ ولا يقدِرُ واحدٌ أنْ يُواجِهَهُ بشيءٍ من ذلِكَ بل أمَرَهُ في ذلِكَ وفي المُبالغةِ فوقَ ما يخطرُ بالبالِ.

وممَّا اتَّفقَ معَهُ في ذلِكَ لرجلٍ مِمَّنْ كانَ يلازمُ الزّاويةَ مُنذُ بُنيَت وظهرَ عَليهِ أثرُ الحالِ واستمَرَّ كَمَا اخبرَني هو بذلِكَ من سَيِّدِنا أحمدَ وانتفعَ بِهِ أنَّهُ أي الرَّجلَ المذكورَ دخلَ يوماً على سَيِّدي قاسمٍ رحِمَهُ اللهُ بدارِهِ فوجدَ سَيِّدَنا أحمدَ ﷺ جالساً معَهُ فقالَ لهُ

" يا سَيِّدي ادعُ لي بعدَ أن قالَها لسَيِّدي قاسمٍ "

وخرجَ يتبعُهُ سَيِّدُنا أحمدُ ﷺ ولحِقَ بِهِ خارجَ الدَّارِ فجعلَ يتبَرَّأ مِنهُ ويقول لهُ

" فارِقْني أتقولُ لي ادعُ لي وأمامَكَ سيِّدي قاسمٍ " ؟

فنقصَ حالُ الرَّجلِ من يومئذٍ ولم يجد ما كانَ يعهَدُ وانقطَعَ عن الزَّاويةِ معَ قربِهِ مِنها وتعلُّقِ قلبهِ بِها، فكُلَّما أرادَ أن يأتيَها لم يقدر، ويخبرُ أنَّهُ كُلَّما سلكَ مَسلَكاً بدا لهُ سَيِّدُنا أحمدُ فحينَ يراهُ تنقبِضُ عروقُهُ ويتشبَّثُ بعضُهما ببَعضٍ

حتَّى لا يستطيعَ حركةً ويُقاسِي من ذلِكَ شِدَّةً حتَّى شغلَهُ ذلِكَ عن كُلِّ شَيءٍ ولم يبقَ لهُ هَمٌّ سِواهُ وطالَما تشكَّى وتشفَّعَ بِكُلّ مَن أمكنَهُ وبما أمكنَهُ.

وقَدْ أتاني أُنا وأخِي مرَّةً طالباً مِنَّا أن نشفعَ لهُ وقَصَّ علَينا خبرَهُ كَمَا ذكرتُهُ فلم نستطِع وهيهاتَ الشَّفاعةَ مِن مِثلي في ذلِكَ، وما زالَ يلتمِسُ الواسطةَ في الرَّغبةِ لهُ فلم يَقدر لهُ أحد بشيءٍ إلى الآن لكونِ الأمرُ باطنياً ونازلاً سماويَّاً والأمرُ للهِ وحدَهُ لا مُعقِّبَ لحُكمِهِ ولا رادَّ لقضائِهِ.

ورجلٌ آخر من الأصحابِ مِمَّنْ لهُ فيهِ محبَّةٌ كانَ زمنَ سَيِّدي قاسمٍ رحِمَهُ اللهُ يقرأ يوماً معَ النَّاسِ الحزبَ الكبيرَ بالزَّاويةِ فاعتراهُ نشاطٌ وطَرَبٌ، فلمَّا وصلَ إلى قولِ الشَّاذليّ فيهِ

" فأخو الصَّلاحِ مَنْ أصلحْتَهُ "

صَاحَ بأعلى صوتِهِ

" هو سَيِّدي أحمدُ بنُ عبدِ اللهِ "

ولم يكنْ إذ ذاك حاضراً فبلغَهُ قولُهُ على شكٍّ فيهِ من المُبلِّغِ

" **هَلْ قالَ الرَّجلُ سَيِّدي أحمدُ أو سَيِّدي مُحمَّد** " ؟

فناداه وسَأَلَهُ أيُّهما كانَ ذكَرَ فصدقَهُ الحديثَ وقالَ لهُ

" **قلتُ سَيِّدي أحمد** "

فلمَّا تبيَّنَ لهُ أنَّهُ إنَّما ذكَرَ إيَّاهُ تلوَّنَ وجهُهُ وغضبَ غضباً شديداً وقالَ لهُ مُتبرِئاً مِنْهُ أيضاً

" **فارِقْنِي** " مرَّتَيْنِ أو ثلاثاً

فقُطِعَ الرَّجلُ من يومئذٍ عنْ الزَّاويةِ ولم يقدِرْ بعدُ أن يصلَها، ومُنِعَ في باطنهِ مِنْها معَ بقائهِ على محبَّةِ أهلِها واستمرارِهِ على مودَّتِهِم حسْبَما شُوهِدَ من حالهِ، وأخبرَنا هو بِهِ عنْ نفسهِ أيضاً.

مكثَ كَذلِكَ نحوَ اثني عشرَ عاماً، ثُمَّ بعدَ وفاةِ سَيِّدي قاسمٍ رحِمَهُ اللهُ ألهمَهُ اللهُ أنْ يتعلَّقَ بالشَّيخِ العارفِ سَيِّدي أحمدَ اليَمنِي ليشفعَ لهُ عِندَ سَيِّدِنا أحمدَ ﷺ فأتاهُ وهو يومئذٍ بجامعِ الأبَّارينَ وأكبَّ على رِجلَيْهِ يُقبِّلُهُما ويطلبُ مِنْهُ ذلِكَ فأشفقَ مِنْهُ وقالَ لهُ

" إنَّ الرُّجوعَ إلى اللهِ فريضةٌ "

وأجابَهُ لِمَا أحبَّ من الشَّفاعةِ فذهبَ لوقتِهِ إلى سَيِّدنا أحمدَ ﷺ وكلَّمَهُ في شأنهِ، فمِنْ يومئذٍ أطلقَ اللهُ سراحَهُ إلى الإتيانِ للزَّاويةِ وعادَ يلازمُها، كانَ اللهُ لنا ولَهُ.

أدبُه ﷺ مع شَيخِه

ومِن عظيمِ أدبهِ ﷺ معَ الشَّيخِ سَيِّدي قاسمٍ رحِمَهُ اللهُ أنَّهُ لِمَا اعتراهُ من الأحوالِ ما اعتراهُ ونزلَ بهِ ما اقتطعَهُ عن نفسِهِ وهَواهُ ظهرَ عَلَيْهِ أثرُ الفيضانِ، وجرى مِنهُ على المَنطِقِ واللِّسانِ ما اشرقَ بِهِ باطنُهُ من التَّوحيدِ والعِرفانِ.

فكانَ يفتتِنُ بِهِ مَن رآه وشاهدَ طلعتَهُ البهِيَّةَ وسناهُ ويأخذُ بمجامعِ قلبِهِ وعَقلهِ ولُبِّهِ فلا يجدُ بُدّاً عِندَ خطابِهِ من التأدُّبِ إلى عليِّ جنابِهِ، فلمَّا أحسَّ بفعلِهِ ذلِكَ من أهلِ الزَّاويةِ الكائنِينَ هُنالِكَ نَهى وزجرَ وشرَّدَ ونفَّرَ وغضِبَ غضباً شديداً وتولَّى عنهُم شريداً وقالَ

" لا يظهرُ معَ وجودِ أبيهِ إلَّا الحَرامي "

يعني الذي لا نسبَ لهُ واقتصرَ على دارِهِ فراراً مِنهُم، فلمَّا لم ينتهُوا بعدُ عن ذلِكَ عزمَ على أن يرتحلَ ولا يُقيمَ بفاسٍ، فبلغَ ذلِكَ سَيِّدي قاسمٌ فردَّهُ ومنعَهُ، فحلفَ بِاللهِ سَيِّدي أحمدُ لا يُقيمُ إلَّا على شرطِ أن لا يقربَهُ أحدٌ مِنهُمْ بتأدُّبٍ ولا بِغيرِهِ ولا يُكلِّمَهُ أحدُهُم وحدَهُ أيْ مُنفرداً عن مجلسِ سيِّدي قاسمٍ.

وقَد وقفتُ على مُراسلةٍ لهُ في ذلِكَ بخطِّهِ معَ سَيِّدي المهدي بن أحمدَ الفاسي قالَ فيها ما نصُّهُ

"وأمَّا ما ذكَرتَ من إخوانِنا فلو كانُوا لا يسمعُونَ قَوْلي ولا يتأدَّبُون معي فاللهُ يعلمُ أنِّي لا أُفارِقُهُم ولَأَبْسُطَ خدِّي لهُمْ، وأعلَمْ أنِّي لا أَستَوْفي لهُمْ حقَّهُم أبداً ولكنْ رأيتُهم يغشُّونَني ويَغشُّونَ أنفسَهُم وهُمْ لا يشعُرونَ، فالمُصلِّي إنْ التفتَ في صلاتهِ فصلاتُهُ وصلاةُ مَنْ ائتَمَّ بِهِ باطلةٌ، فما بالُك بِمَنْ لم يستقبلِ القِبلَةَ وأقامَهُ هَواهُ ويُعرَفُ ذلِكَ عِندَ عرضِ الوجهِ على سُنَّةِ المُصطَفى ".

ثُمَّ قالَ

" والسَّلامُ يُخرِجُ من الهُجرانِ، ومَنْ والاني مِنهُمْ نُسلِّمُ عَلَيْهِ ومَنْ مَرِضَ مِنهُمْ عُدْتُهُ وحضرتُ لهُ الوفاةَ إنْ ماتَ ولا نغُصّنا إلَّا القيلَ والقالَ " انتهى.

وكانَ في أثناءِ قَطعِ كَلامِه عنهُم يُسلِّمُ على أحدِهم إذا لقيَهُ في الطَّريقِ كَمَا قالَ ويُواسيهِم ويُعاملُهُم مُراسلةً لا يغفُلُ عنْ قضاءِ حوائجِهم والقيامِ بحقُوقِهم ومُواصلَتِهم، وإنَّما قطعَ عنهُم الكلامَ معَهُ مُنفرداً ومُشافهةً فقط سدَّاً للذَّريعةِ في ذلِكَ المحذورِ الذي هو تعظيمهم إيَّاهُ وأدبهم معَهُ، فبقِيَ على ذلِكَ إلى وفاةِ سَيِّدي قاسمٍ رحِمَهُ اللهُ وأمَدُ ذلِكَ سِتُّ سنينَ ثُمَّ استدعاهُ الأصحابُ بعدَ وفاةِ سَيِّدي قاسمٍ رحِمَهُ اللهُ لرُجوعِهِ لمُكالمتِهم واستعطفُوه كُلَّ الاستعطافِ وتلطَّفُوا لهُ بِكُلِّ الألطافِ بعدَ أن كابدُوا ما كابدُوهُ من هَجرِهِ وردعهِ لهُم عنهُ وزجرِهِ، وضاقَ علَيهِم المُتَّسعُ بذلِكَ الحاجِرِ حتَّى بلغتِ القُلوبُ مِنهُم الحناجِرَ، إذ كانَ لهُم بِهِ أشدَّ علاقةٍ وارتباطٍ وأيَّ محبَّةٍ واغتباطٍ، حيثُ كانَ لهُم ما كانَ على يدِهِ وسَرى لهُم ما سَرى من مَددِهِ.

ومِمَّن كانَ استعطفَهُ في ذلِكَ السَّيِّدُ العالِمُ الأجلُّ سَيِّدي المهدي بنُ أحمدَ الفاسي حفظَهُ اللهُ فرأيتُ كَلاماً معَهُ في مُراسلةٍ لهُ بِخطِّهِ قالَ في آخرِها بعدَ أنْ ذكَرَ لهُ زوالَ المانِعِ من مُجالستِهم

" فارحمُوا يرحمُكُم اللهُ وتداركُوا خلقَ اللهِ يأجرُكم اللهُ واسعُوا في هدايتِهم تَسلكُوا سبيلَ رسولِ اللهِ ﷺ ، وجُودُوا وتعطَّفُوا واجبرُوا القلوبَ يجبرُ قلبَكُم اللهُ، وتحقَّقُوا بالإرثِ مِنْ رسولِ اللهِ "

﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾[1]

فبادَرَ رضي الله عنه لكلامِهم وشفاءِ مرامِهم وأشفقَ مِنهُم وعطفَ عليهِم.

خدمتُه رضي الله عنه لِشيخِه

وكانَ رضي الله عنه يخدمُ الشَّيخَ سَيِّدي قاسماً خدمةً عظيمةً لا يُطاقُ أمرُها ولا يُوصفُ قدرُها ولا يقومُ بها إلَّا فُحولُ الرِّجالِ أمثالِهِ المُؤيَّدينَ بتأييدِ اللهِ سُبحانَهُ فكانَ يخدُمهُ بنفسهِ ومالِهِ، ويقومُ بدارِهِ وعيالِه، ويُقيمُهُم من كُلِّ ما يحتاجُونَ إليهِ من جليلِ الأشياءِ وحقيرِها وقليلِها وكثيرِها مِن عَولَةٍ وكِسوَةٍ وانفاقاتٍ وارفاقاتٍ وضروريات وتَكميليَّاتٍ حتَّى الأدويةِ والأشربَةِ التي كانَ سَيِّدي قاسمٌ رحِمَهُ اللهُ يحتاجُ إليها للأمراضِ التي تعرِضُ لهُ ويتخيَّرُ لهُمْ من ذلكَ كُلِّهِ أحسنَ الأشياءِ وأطيبَها حتَّى كانَ ذوو الأموالِ من الجيرانِ يغبِطُونَهُم مِمَّا يَرَوْنَ عِندَهُم من جيِّدِ الأطعمةِ والأواني الحسنَةِ ونحوِها ويَعجبُونَ من ذلِكَ ويتنبَّهُ لأمورِهم ولا يغفلُ عنْ شأنٍ من شؤونِهم لا أهمَّ عِندَهُ من ذلِكَ ولا آكَدَ عَلَيْهِ مِنْهُ ويُوصي على كثرةِ تيقُّظِهِ لذلك وشِدَّةِ اعتنائهِ بِهِ مَن يُنبِّهُهُ لِمَا يعرِضُ لهُمْ من الحاجاتِ والأُمورِ المُهمَّاتِ وغيرِ المُهمَّاتِ، ولا يُريدُ أن يصلَ أمرٌ من ذلِكَ إلى الشَّيخِ ولا أن يُشغِلُوهُ بشيءٍ، ويحتاطُ لذلكَ ما أمكنَ، ويقومُ بِتِلكَ المُؤَنِ كُلِّها في كُلِّ وقتٍ من الأوقاتِ في الغَلاءِ والرَّخاءِ والحَضرِ والسَّفرِ.

---

[1] . البقرة "197".

ولقد كانَ وقتَ المسغَبةِ والغَلاءِ الشَّديدِ من أعوامِ خمسِ أُواقِ الكائنةِ ما بينَ ابتداءِ سنةِ سبعينَ وانتهاءً سنةَ ستٍّ وسبعينَ بتقديمِ السِّينِ وألفٍ، وكُلُّ النَّاسِ إذ ذاك أحوجُ شَيءٍ إلى ما يقوتُ عيالَهُم إنْ وجدُوهُ، وهُو على حالهِ من القيامِ بأمرِ الشَّيخِ والتَّوسِعَةِ على عيالِهِ وأقاربهِ، وإذا غشيَهُ إذ ذاك أضيافٌ من الأقاربِ والأجانبِ كانَ هو القائمُ بمؤونتِهِم قلُّوا أو كثُروا، ورُبَّما ترِدُ عَلَيهِ الجماعةُ من النَّاس بقصدِ زيارةٍ أو غيرِها عِندَ انتهاءِ النَّهارِ أو قُربِ انتهائهِ ويُريدُ أن يُضيِّفَهُم فيقولُ لسَيِّدي أحمدَ

" أنَّهُم يبيتونَ عندَنا اللَّيلةَ "

فيقول لهُ نَعمْ يا سَيِّدي.

ويُهيِّئُ لهُمْ ما يحتاجونَ إليهِ على أحسنِ ما يكونُ ويُشبعُهم إطعاماً ويُوسعُهم إكراماً، يُحضِّرُ ذلِكَ كُلَّهُ سريعاً ولو لم يكنْ لهُ عِندَهُ شَيءٌ مِنْهُ حاضراً على ما هو عَلَيْهِ حالُ الوقتِ مِمَّا وصفْنا، وكذا أصحابُهُ يأمرُه بِتبييتِهِم في ذلِكَ الوقتِ مراراً فيُسارِعُ إلى ذلِكَ ويفعلُهُ كَمَا وصفْنا ويقول معَ ذلِكَ

" أكثرَ اللهُ خيرَ سَيِّدي قاسمٍ وما علَيْنا إلَّا خيرُهُ وما نحنُ إلَّا تحتَ كَنفِهِ وظِلِّهِ".

ويرى الفضلَ لهُ ومِن عِندِهِ، ورُبَّما يقولُ في شأنِ ما يأمرُه بِهِ من ذلِكَ سَيِّدي قاسمٌ رحِمَهُ اللهُ إذا ذُكِرَ عِندَهُ أو تكلَّمَ عَلَيْهِ

" إنِّي أريدُ أنْ ترتاضَ نفسُه وتألفَ لِحمْلِ الأثقالِ"

يشيرُ بذلِكَ رحِمَهُ اللهُ إلى ما سيؤولُ إليهِ أمرُهُ من القيامِ بوظائفِ الخلقِ وكَنَفِهِم على ما هو عَلَيْهِ اليومَ.

وأسكنَهُ الدَّارَ العَرصةَ المُجاوِرَةَ للزّاويةِ المُتخلِّفةِ لهُ عنْ أبيهِ سنةَ ثلاثٍ وسبعينَ بتقديمِ السِّينِ ووهبَها لولدَيهِ أعني ولَدَي سَيِّدي قاسمٍ وهُما السَّيِّدُ الأرضى الخَيِّرُ أبو العبَّاس سيِّدي أحمدُ وهو أكبرُهُما، والسَّيِّدُ الدِّين الأحظَى أبو الحسنِ سَيِّدي علي حفظَهُما اللهُ.

ولم يُخلِّف الشَّيخُ سَيِّدي قاسمٌ رحِمَهُ اللهُ ولداً ذكراً غيرَهُما، فملَكَاها مُلكاً تامَّاً بإشهادٍ وحِيازةٍ، وهما الآن قاطنانِ بِها، ولم يكن سَيِّدي أحمدُ ﷺ يومئذٍ يملِكُ داراً سِواها بل اكترى لنفسِهِ داراً للسُّكنى وبقيَ قاطناً بِها على سبيلِ الكِراءِ إلى هذا العهدِ سنةِ اثنينِ وتسعينَ بتقديم الفَوقيَّةِ وألفٍ فاشتراها من أربابِها وهي دارٌ كُبرى بأقصى حَومَةِ المَخفيَّةِ بالموضعِ الذي يُقال لهُ هُنالِكَ " بور جوح " تتَّصِلُ من ناحيةِ ظهرِها بدارِهِ الموهوبةِ المذكورةِ وبعرصتِهِ الكائنةِ هُنالِكَ على ضِفَّةِ وادي الزَّيتونِ، واشترى بياضاً واسعاً من أجِنَّةِ لُمطَةَ وغرسَهُ بيدِه عنباً وتيناً حتَّى أكملَهُ وأتمَّ عملَهُ فوهبَهُ أيضاً لسَيِّدي قاسمٍ وأكبَّ على رجليهِ يُقبِّلُهُما حتَّى قبلَهُ مِنهُ، وكانَ لا يقبَلُ إلَّا منهُ كَمَا أنَّهُ لم يكُن مُتصدِّياً إلَّا لهُ حسبَما تقدَّمَ التَّصريحُ عنهُ بذلِكَ وغيرَهُ إنَّما كانَ بحسبِ التَّتَبعِ لهُ، ثُمَّ جعلَ يخدِمُ ذلِكَ الجِنانَ معَ مَن يحضُرُ معَهُ من الأصحابِ كُلَّ سنةٍ ويقومُ بوظيفتِهِ لا يُحوجُ أولادَ سَيِّدي قاسمٍ إلى فِعلِ ذلِكَ ولم يزل يخدُمُ شيخَهُ ﷺ في سائرِ أمورِهِ وكافَّةِ شُؤونِهِ ويُباشِرُها بيدِهِ ويُعايِنُها بروحِهِ وجسدِهِ في حَضرِهِ وتِرحالِهِ وسائرِ أحوالِهِ، فكانَ يكونُ معَهُ في سفرِ الزِّيارةِ فيُركِبُهُ على الدَّابَّةِ لكونِهِ لا يستطيعُ النُّهوضَ لِكِبَرِهِ، ورُبَّما يُحني لهُ ظهرَهُ ليصعدَ مِنْ عَلَيهِ إلى ظهرِها ويُمسكُهُ عليها ذاهباً معَهُ في الطَّريقِ على رِجلَيهِ ويُنزِلُهُ مِنها متى أرادَ النُّزولَ، ويَطبُخُ لهُ الطَّعامَ بيدِهِ ويُناولُهُ إيَّاهُ ويهيئُ لهُ الماءَ لوُضوئِهِ وكُرسيَّاً يتوضأ جالساً عَلَيهِ وغيرَ ذلِكَ وزوَّجَهُ ثلاثَ مرَّاتٍ وبذلَ الصِّداقَ والجِهازَ من عِندِهِ، وزوَّجَ ولدَيهِ المُتقدمَينِ أيضاً وأصدقَهُما وزوَّجَ ابنةً لهُ وجهَّزَها إلى غير ذلِكَ مِمَّا هو شهيرٌ ومُسطَّرٌ في " الإلماع " بل هو أكثرُ مِمَّا سطَّرَهُ ومِمَّا ذكرْتُهُ.

وبالجُملةِ فخِدْمتُهُ للشَّيخِ سَيِّدي قاسمٍ ﷺ وأدبُهُ معَهُ وانقيادُهُ لهُ شَيءٌ عظيمٌ وأمرٌ جَسيمٌ نادرُ الوُرودِ غريبُ الوُجودِ ما قرعَ الأسماعَ في هذِهِ الأعصارِ مثلُهُ،

ولا رُئِيَ لتابعٍ معَ متبوعٍ نظيرُهُ وشكلُهُ، ولو تَتبَّعنا آحادَ القضايا في هذا المرامِ لاتَّسعَ الخرقُ وضاقَ المقامُ.

وكانَ ﷺ أوَّلَ أمرِهِ إذا جلَسَ معَهُ ظهرَ عَلَيهِ أثرُ الغَيْبةِ والاضمحلالِ وعَلاهُ الإحمرارُ وصارَ عَلَيهِ في استرسالٍ، ثُمَّ انتقلَ عنْ تِلكَ الحالِ، فصارَ بعدَ وُصولهِ وكمالِهِ يُجالِسُهُ في تعظيمٍ وإجلالٍ، وكانَ لا يسمعُ مِنْهُ شيئاً إلَّا وعاهُ ولا يذكُرُ لهُ أمراً من الطَّريقِ إلَّا حَواهُ، وتمكَّنَ مِنْهُ حالاً وسرى إليهِ انتقالاً ولا يأمرُهُ بأمرٍ إلَّا ابتدرَهُ وقضاهُ ولا يُشيرُ عَلَيْهِ بشيءٍ كائناً ما كانَ إلَّا أبرمَهُ وأمضاهُ، لا توانِيَ عِندَهُ ولا قصورَ ولا سآمةَ ولا فُتورَ، وما عادَ لشيءٍ فَهِمَ مِنْهُ النَّهيَ عنهُ قَطُّ ولا تردَّدَ في شَيءٍ فَهِمَ عنهُ فِعْلَهُ البتَّةَ.

وقَدْ كانَ أوَّلَ ما صحبَهُ يصطادُ خارجَ المدينةِ بالمِدفعِ كَمَا تقدمَ، فلمَّا جلَسَ يوماً بينَ يدَيْهِ أو كانَ ذاهباً معَهُ في الطَّريقِ قالَ لهُ

" لا يَكُونُ المُؤمِنُ مُؤمناً حتَّى يأمَنَ مِنْهُ كُلُّ شَيءٍ حتَّى الطيرُ في الهَواءِ " فما رُئِيَ صائداً بعدها أبداً.

وأمرَهُ أنْ يعملَ مِعصرَةً ويَخدُمَ فيها بِنفسِهِ، فأبتدرَ أمرَهُ وشرعَ لوقتِهِ في بِنائِها وتيسَّرَ آلاتُها حتَّى تيسَّرَتْ وكَمُلَ عملُها فتجرَّدَ لخدمتِها ولَبِسَ جلابيَّةَ صُوفٍ، وجعلَ يخدُمُ فيها بنفسِهِ يعصِرُ الزَّيتونَ على مرِّ الأيَّامِ، مكثَ على ذلِكَ مُدَّةَ حياتِهِ أيْ حياةِ شيخِهِ معَ أنَّها حِرفةٌ لا يَرتضِيها أهلُ هذِهِ البلدةِ ولا يتعاطُونَها أبداً إنَّما يتولَّى القيامَ بِها الغرباءُ الذين لا بالَ لهُمْ، وقَدْ كُلِّمَ في ذلِكَ فما بالى حيثُ كانَ فيهِ رضا شيخِهِ، وكانَ شديدَ المُتابعةِ لهُ جِداً دائمَ المُوافقةِ لهُ إرادةً وقَصداً، فكانَ لا يُريدُ سَيِّدي قاسمٌ رحِمَهُ اللهُ شيئاً إلَّا فَهِمَهُ عنهُ قَبلَ أنْ يُصرِّحَ بِهِ ولا وردَ عَلَيْهِ شَيءٌ إلَّا وقَرَ في صدرِهِ، قَدْ اتَّحدَتْ حقيقتُهما وتواطأتْ سريرتُهُما كَمَا هو شأنُ الوارثِ معَ مَوروثِهِ، وقلَّما يحتاجُ إلى التَّصريحِ لهُ بشيءٍ وقَدْ قالَ يوماً

" إنَّ سَيِّدي قاسِماً كانَ إذا نظرَ إليَّ عرفتُ ما يُرِيدُ فقَضيتُهُ ولا يَحتاجُ إلى الكَلام ".

فكانَ لا يزالُ مُسارِعاً لِرضاهُ مُتحريَّاً لمُناهُ يدورُ معَ مُرادِهِ حيثُ دارَ كالطِّفلِ معَ الإنسانِ يَراهُ تُرجُماناً للقَدَرِ في كُلِّ ما نَهى وأمرَ، ومُظهِراً لأمرِ اللهِ فيما وقعَ مِنْهُ وصدرَ، وبِذلِكَ أشارَ يوماً إلى نفسهِ فقالَ مُتكُلّما معَ بَعضُ الأصحابِ

" إذا كانَ المُرِيدُ يَرى شيخَهُ مُظهراً لأمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ وقَدرِهِ كانَ لهُ وارثاً، وإذا كانَ يَراهُ في محلِّ النِّيابةِ عنْ رسولِ اللهِ كانَ لهُ صاحِباً فقط ".

وقَدْ أشارَ إلى ذلِكَ أيضاً في قَضِيَّةٍ اتَّفقَتْ لهُ يوماً معَهُ وذلِكَ أنَّهُ كانَ ذاهباً معَهُ في الطَّريقِ خارجَ المدينةِ يَتبعُهُ من وراءٍ، فجعَلَ يضَعُ قدمَهُ حيثُ يضعُهُ سَيِّدي قاسمٌ ويرفعُهُ حيثُ يرفعُهُ يفعلُ ذلِكَ مُدَّةَ سَيْرِهِ وراءَهُ كأنَّهُ اقتضاهُ مِنْهُ باعثُ حالٍ ثُمَّ حَكى ذلِكَ بعدَ مـوتِ سَيِّدي قاسمٍ مُسنَداً إلى مُبهَمٍ سِتراً على نفسـهِ فقالَ

"كانَ بَعضُ النَّاسِ يوماً يَتبَعُ شيخَهُ يَضعُ رِجلَهُ في الموضعِ الذي يضَعُهُ فيهِ لا يَنحَرِفُ عنهُ شيئاً اقتضى ذلِكَ مِنهُ باعثُ حالٍ، فآلَ أمرُهُ إلى أنْ صارَ مثلَهُ في حالهِ وقائماً مَقامِهِ في جميعِ أحوالِهِ".

فكانَ ﷺ معَ شيخِهِ على وَصْفِنا إلى أنْ أقامَهُ اللهُ مَقامَهُ، ونشرَ عَلَيْهِ من الإذنِ أعلامَهُ، وكثيراً ما نَراهُ يُشيرُ إلى عُلُوِّ طريقِهِ إذا ذكرَهُ ويَصِفُهُ بصفةِ الأكابرِ، ويستعظِمُ أحياناً مِنَّتَهُ عَلَيْهِ وما كانَ مِنْهُ إليهِ، وكانَ إذا جلَسَ أمامَهُ حسْبَما أخبرَنا بِهِ غيرَ واحدٍ من الأصحابِ كثيراً ما ينظُرُ إليهِ مُستعظِماً لهُ ثُمَّ يقولُ ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [1]

وسمعتُهُ يوماً يقول

" إنَّ سَيِّدي قاسِماً هو الَّذي عرَّفَني لا إلهَ إلَّا اللهُ "

وقالَ لي يوماً

[1] . طه (110)

" إنهُم يلُومونَنِي في صُحبَتِهِ وأنا على يدَيْهِ أسلَمْتُ "

وقَدْ مدحَهُ بقصيدةٍ عَينِيَّةٍ من عَروضِ الكامِلِ رائقةَ العِبارةِ فائقةَ الإشارةُ مُشيرةً إلى ما نالَ مِنْهُ من الأمدادِ الرَّبانِيَّةِ والأحوال العِرفانيَّةِ وهي

ليلى حَدوْتُ بِها ولم أرَ حُسنَهـا	فأبانَها فَجرُ الجَمالِ السَّاطِـعُ
ظهَرتْ فكيفَ لنا بنَيْلِ وِصالِهـا	وبِفضلٍ أنْ جادَتْ فما لهُ مانِعُ
وكأنَّها شَمْسُكَ ولستَ مِثلَها	حسنٌ لها أبْهى ومعنى ناصعُ
سجدَتْ لها الأرواحُ خُضَّعاً نالَها	لمَّا دهاها بَرقٌ حَسَنٌ لامِعُ
إنْ قالَ قائلٌ ما أسمُها يوماً فقُلْ	ما عنهُ يُكنَّى فهُو معنى واسعُ
فتشابَهَتْ وتشاكَلَتْ فـي حُسنِها	وتقاصرَتْ لسِرٍّ لِمَا هو واقـعُ
قَدْ كمُلَتْ أوصافُ حُسنٍ حُزتُهـا	مُلْكاً غدوتُ بِها وكُلِّي تابِعُ
سجدَتْ لكَ الأرواحُ حينَ جَلوتَها	سارَتْ إلى ذاكَ الجمالِ تُسارِعُ
صعقَتْ وخرَّتْ من جلالٍ شاهدَتْ	وغدَتْ لشِدَّةِ حَملِهِ تَتَواضَـعُ
مددُكَ لَها أنتُم وسِرُّ حياتِها	طابَتْ بِكم أخلاقُها ومَسامِـعُ
فالكُلُّ هامُوا من حروفٍ قَدْ نَأوْا	عَنْها وأنتَ لَها بحرفٍ جامِـعُ
قُلْ للَّذينَ أرادُوا سِترَها	لهُمْ تُحَدُّ سيوفُنا ومقامِـعُ
أحيَيْتَ سُنَّةَ أحمدَ وأنبتَّهـــا	ولها دعوتَ وأنتَ هادٍ تابِـعُ
وأمدَّكَ المَوْلى بنورِ بَقائِها	فحَيِيَتْ بِكم أرضٌ لنا ومرابِـــعُ
وحدَوْتَ بالأرواحِ منَّا عَلَّها	تحدُوا بسِرٍّ منكُم وتَتابِـــعُ
وبِها سَريْتَ إلى الحِمى ومدَدْتَهـا	من فيضِ سِرِّكم وأنتَ الجامِـعُ
فلاقَتْ سِرَّ حياتِها بُشرى لها	تَحْدُوا بِما مِنْهُ تَحِنُّ مَسامِعُ
ما إنْ لطَامِي بحرِكُم مِنْ مُنتَهى	أو ساحِلٌ يَسعى إليهِ مُسـارِعُ
قَدْ حمَتْ حولَهُ ما نزلَتْ بأرضهِ	ولفضلِكُم أرجُو وإنِّي طامِـــعُ

كلَّا وما طمَعِي عطاءٌ منكم لكنْ حُبِّي منكَ حُسنُك جامِــعُ

رضِيَ الإلهُ عليكَ ما هبَّ الصَّبا وسَرى على الآفاقِ نجمٌ طالِــعُ

هذا آخِرُها وهيَ مُشتمِلةٌ على أحدٍ وعشرين بيتاً عدداً قلَّ ما يُسمَّى عِندَ العَروضِيينَ قصيدةً في مُنتهى الأقوالِ، وقَدْ كُنْتُ لمَّا اطَّلعتُ عليها قَبلَ هذا الوقتِ أصلحتُ فيها بَعضُ الألفاظِ حيثُ وجدْتُ في بَعضِ أبياتِها كَسراً لأنَّ ناظمَها ﷺ لم يكنْ مِمَّنْ يعلَمُ صِناعةَ العَروضِ كَمَا هي وإنَّما أخرجَها مِنْهُ واردُ الحالِ والمَددِ الإلهي، وكانَ أنشأها في حدودِ سنةِ ستٍّ وستِّينَ وألفٍ بعدَ ابتداءِ صُحبتِهِ لهُ بنحوِ سنتين، وكانَ ابتداؤها أعني الصُّحبةَ كَمَا تقدَّمَ أواخرَ سنةِ أربعٍ وستِّينَ وفَتْحُهُ أواسطَ سنةِ خمسٍ وستِّينَ وبَقيَ مُلازماً لهُ يخدُمهُ إلى أنْ تُوفِيَ سنةَ ثلاثٍ وثمانينَ، فكانت مُدَّةُ صُحبتِهِ لهُ تسعَ عشرةَ سنةً كاملةً ولم يكنْ أخذُهُ إلَّا عنهُ ولا انتسابُهُ إلَّا إليهِ وعَلَيْهِ عوَّلَ وإيَّاهُ اعتمدَ وبِهِ تخرَّجَ وتكمَّلَ، وكفى شيخُهُ ﷺ شرفاً أنْ تخرَّجَ بِهِ هذا السَّيِّدُ الخطيرُ العارفُ الكبيرُ العلمُ الشَّهيرُ الذي فاقَ المَشايخَ سِيرةً وحالاً ووافَى الأكابرَ مقاماً وكمالاً وتكاملَتْ بداياتُهُ ونِهاياتُهُ، وتَسامَتْ مآثرُهُ وآياتُهُ، رزقَنا اللهُ بركَتَهُ ومَنَّ علَيْنا بمحبَّتِهِ ونفَعَنا بمعرفتِهِ آمين.

البابُ الثَّالثُ في مواجيدِهِ وأحْوالِهِ ومَقامِهِ المُتَّصِفِ بِهِ وكَمالِهِ

سَيِّدُنا أبو العبَّاسِ ﷺ صاحبُ أحوالٍ ساميةٍ، ومَقاماتٍ عاليَةٍ ومواهبَ رحمانيَّةٍ ومواجيدَ ربَّانيَّةٍ، وذو مَحوٍ وفناءٍ وصَحوٍ وبقاءٍ وغيبةٍ في مولاهُ وشهوداً لِمَا بِهِ توَلّاهُ، ممَّنْ أُغرِقَ في بحرِ الحقيقةِ وأُوتيَ الجذبَ حقيقةً، وممَّن أُعطِيَ القُوَّةَ والتَّمكينَ والرُّسوخَ في المعرفةَ واليقينِ كَمَا تُتلَى عليكَ آياتُهُ وتُجلَى لكَ بيِّناتُهُ، شربَ من تِلكَ الخمرةِ الأزليَّةِ صفواً، وورَدَ مِن منهلِها الأروى، وسُقِيَ مِنْها كُؤُوساً رَويَّةً، وأمداداً قَويَّةً وسلكَ من السُّنَّةِ نهجاً قويماً وصراطاً مستقيماً وركبَ سفينتَها وأجراها التي بِاللهِ مَجراها ومُرساها، فقَوِيَتْ أنوارُهُ وفاضَتْ أسرارُهُ وتوالَتْ منازلاتُهُ وتوارَدَتْ وارداتُهُ، ومُدَّ مِنْها على الاستمرارِ بمدَدٍ جَسيمٍ

﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾[1]

وليسَ يُمكِنُ مِثلِي التَّعريف بمثلِ هذا المقامِ ولا الكشفِ عنْ حقيقةِ الأمرِ فيهِ من حالٍ أو مقامٍ، وإنَّما أذكرُ من تِلكَ المواهبِ والتَّجليَّاتِ قضايا مُنبئةً عَنْها وجُزئيَّاتٍ ولوامِعَ وأثاراً ووقائعَ وأخباراً، إذ الحالُ واردٌ إلهِي، ووجدانُ قلبٍ لا يَصفُهُ إلَّا واجدُهُ.

لا يعرفُ الشَّوقَ إلَّا مَنْ يُكابدُهُ ولا الصَّبابةَ إلَّا مَنْ يُعانِيها

وقَدْ فَسَّرَ الحالَ الأُستاذُ أبو القاسمِ القُشَيْري ﷺ بأنَّهُ

" معنىً يرِدُ على القلبِ مِنْ غيرِ تأمُّلٍ ولا اجتِلابٍ ولا اكتِسابٍ مِنْ طَرَبٍ أو بَسْطٍ أو غيرِهِما ".

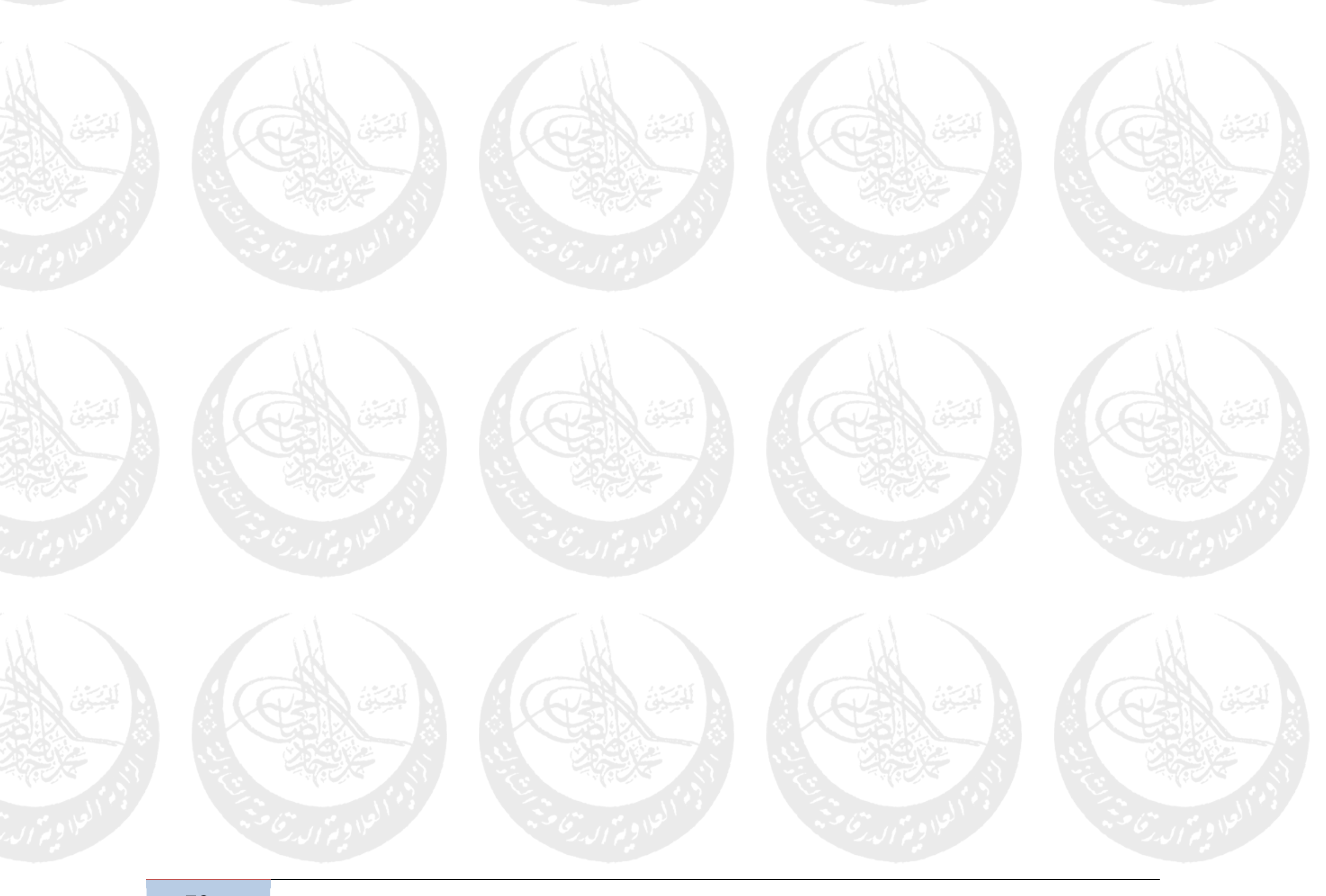
وذكَرَ أنَّهُ

[1] . الحديد (21)

" يأتِي مِنْ عَيْنِ الجُودِ، والمَقامُ يَحصَلُ بِبذْلِ المَجهُودِ وإنَّ صاحِبَ المَقامِ مُمَكَّنٌ وصاحِبَ الحالِ مُوَقَّى ".

وحُكِيَ عنِ المَشايخِ " أنَّ الأحوال كالبُروقِ فإنْ بَقِيَتْ فحديثُ نفسٍ ".

وعَنْ آخرينَ مِنهُمْ أنَّها تَدومُ وتَبَقى، وإذا لم تَدُمْ فهو لوائحٌ وبوادٍ, والمرادُ بالأحوالِ في التَّرجمَةِ ما هو بالمعنى الذي ذكرَهُ القُشَيْرِي رحِمَهُ اللهُ مِنْ ذِكرِ وَجدِهِ المُتكاثِرِ وفَيضانِهِ المُتظافِرِ الواقعِ أحياناً بعدَ أحيانٍ حسْبَما رأيناهُ مُشاهِداً لا الحال اللّازمَةِ التي هي بمعنى المَقامِ، والمرادُ بمقامِهِ المُتَّصِفِ بهِ ما تكَيَّفَ بِهِ من العِرفانِ حسْبَما علِمْناهُ من كلامهِ وإشاراتِهِ وتقريراتِهِ وإخبارِهِ عَنْ نفسهِ أيضاً لأحدِ المَقاماتِ التّسعِ التي هي مقاماتُ اليقينِ كَمَا سَيرِدُ عليكَ بيانُهُ إنْ شاءَ اللهُ.



مواجيدُه ﷺ وأحوالُهُ

فأمَّا مَواجِيدُهُ وأحوالُهُ ﷺ فقد كانَ أوَّلَ أمرِهِ لمَّا نزلَ بِهِ ما نزلَ وبادَهَهُ ما بادَهَهُ مُصطَلِماً غائباً لا تُفارِقُهُ غمرةُ الحالِ واستولَت عَلَيهِ الغيبةُ حتَّى لم يشعر بشيءٍ من عالَمِ حِسِّهِ زماناً كانَ في مُدَّةٍ مِنهُ على صِفةِ البَهاليلِ إلَّا أنَّ صلاتَهُ محفوظةٌ عَلَيْهِ بحفظِ اللهِ سُبحانَهُ وتَعالى، متَّى دخلَ الوقتُ صلَّاها، وما أخلَّ بحقٍ من حقوقِ الشَّريعةِ ولا بأدبٍ من آدابِها، ثُمَّ أفاقَ بَعضَ الإفاقةِ فصارَ حاضراً غائباً تَتَوارَدُ عَلَيهِ الأحوال أو تصدرُ مِنهُ صيحاتٌ عظيمةٌ تملأُ قلوبَ السَّامعينَ هيبةً ويسقُطُ على الأرضِ أحياناً بالزَّاويةِ يتقلَّبُ ويضطرِمُ اضطراماً عظيماً ويُمزِّقُ ثيابَهُ، لا يُحصى كَم وقعَ لهُ جميعُ ذلِكَ، ورُبَّما يغمُرُهُ الحالُ ذاهباً في الطَّريقِ فلا يَدري أينَ يَقصدُ ولا ما كانَ يُريدُ وقَدْ يَضِلُّ عَن منزلِهِ ويُريدُ دخولَ بَعضِ دورِ الجيرانِ فيُرشِدُهُ النَّاسُ إلى دارِهِ.

ودخلَ يوماً والحالُ غالبٌ عَلَيهِ دارَ شيخِهِ سَيِّدي قاسمٍ رحِمَهُ اللهُ من غيرِ استئذانٍ حتَّى أشرفَ عَلَيهِ ثُمَّ رجعَ فأرسلَ سَيِّدي قاسمٌ ولدَهُ إذ ذاك في أثرِهِ وقالَ لهُ

" اتَّبِعْهُ حتَّى ترى أينَ يذهَبُ "

خوفاً عَلَيْهِ أنْ يدخلَ دارَ أحدٍ.

ونزلَ بِهِ الحالُ مرَّةً وهو بحانوتِ الحجَّامِ يحلِقُ لهُ شعرَ رأسِهِ فتركَ الحجَّامَ وذهبَ قبلَ تمامِ الحلقِ مغموراً عَلَيهِ.

وحضرَ مرَّةً السِّماع بالزّاويةِ وشيخُهُ سَيِّدي قاسمٌ رحِمَهُ اللهُ حاضراً فلمَّا سمعَهُم يقولون

شَمِّرْ يا بخيلَ الذُّيولِ   أهلُ العزمِ قَدْ شَمَّرُوا

أزعجَهُ الحالُ قِياماً وتواجدَ وهامَ هِياماً وظهرَ عَلَيْهِ من أثرِ النُّهوضِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ وتشميرِ الذَّيلِ أمرٌ عظيمٌ وحالٌ قَوِيٌّ لا يُوصَفُ.

وحضرَ السِّماع مرَّةً أُخرى بالزّاويةِ أيضاً فسمعَهُم يقولونَ

عشِقتُ سُلطانَ المِلاحِ وأنا بِهِ صِرتُ مليح

فغلبَهُ الوجدُ وازعجَهُ الحالُ فقامَ وخلعَ العِذارا في حُبِّ مَنْ عَلَيْهِ المدارُ، ومزَّقَ برنوساً لهُ جيِّداً عمارتهُ حريرٌ فما لبسَهُ بعدَ ذلِكَ ولا اصطنعَ مثلَهُ أبداً.

وزارَ مرَّةً القُطبَ سَيِّدَنا عبدَ السَّلامِ بنِ مشيشٍ ﷺ فلمَّا أشرفَ على جامعِ القشر فاجَأهُ ما فاجَأهُ فخرَّ صعِقاً إلى الأرضِ يتقلَّبُ مُنحدِراً من أعلى الجبلِ إلى أسفلهِ.

ومرَّةً أُخرى ذهَبَ أيضاً لزيارةِ سَيِّدِي عبدِ السَّلامِ صحبةَ شيخِهِ سَيّدي قاسمٍ رحِمَهُ اللهُ، فلمَّا وصلُوا جبلَ العِلمِ قُربَ عينِ الشَّاذليّ، قالَ سَيِّدي قاسمٌ

" سَيِّدي عبدُ السَّلامِ هذا "

واعترى سَيِّدُنا أحمدُ ما اعتراهُ، ثُمَّ أخبرَ سَيِّدُنا أحمدُ بعدَ ذلِكَ الوقتِ أنَّهُ رأى ذلِكَ سَيِّدي عبدَ السَّلامِ نفعَنا اللهُ بِهِ آتياً بينَ السَّماءِ والأرضِ طائراً في الهواءِ ووَصفَ صورتَهُ وأنَّهُ أبيضُ طويلٌ.

قالَ فثبتَ سَيِّدي قاسمٌ ولم أُطِق أنا الثَّباتَ يعني حيثُ تواجدَ وتحرَّكَ، وقَدْ تكلَّمَ حينَ يَعتريهِ الحالُ بحروفٍ مُقطَّعةٍ ينطِقُ بها حرفاً مُنفرداً بعدَ حرفٍ لا يفقهُ الحاضرونَ مرادَها، ولا يعرفُ ذوو الألسُنِ مَفادَها، وقَدْ سألتُ عَنها بَعضَ أهلِ الحالِ من أصحابِنا مِمَّن تكلَّمَ بِها عِندَ غلبةِ الحالِ عَلَيهِ فقالَ لي

" ذاك سِرٌّ من أسرارِ لا إلهَ إلَّا اللهُ بينَ العبدِ ومولاهُ، فإنَّ لا إلهَ إلَّا اللهُ يضمحِلُّ بِها الوجودُ فلا يبقى إلَّا اللهُ تعالى "

ويعني بالوجودِ المُضمحِلِّ وجودَ نفسهِ وذلِكَ بغيبتِهِ عنهُ في سائر الكائناتِ وينطِقُ أحياناً عِندَ ظهورِ الحالِ عَلَيْهِ بمُكاشفاتٍ ومَغيباتٍ من أخبارِ الزّمانِ وما يقعُ فيهِ من الحَدَثانِ والوقائعِ العِظامِ والنَّوازلِ الجِسامِ إلى غيرِ ذلِكَ من حكاياتِهِ ووقائعِهِ وآياتِهِ.

ثُمَّ تماسكَ بعدَ ذلِكَ وسكَنَ وبطَنَ حالُهُ وكَمَنَ، وعادَتِ الأحوالُ لا تُؤثِّرُ في ظاهرِهِ كَمَا كانَتْ وانقطعَت صعقاتُهُ وتقلباتُهُ واضطراباتُهُ إلَّا ما يقعُ من فيضِهِ أحياناً فيَهيمُ هَيَماناً أو يصيحُ

" الله أو يا رسولَ اللهِ "

فتضطرِمُ نارُ مَن يحضُرُه من دونِ أن يرميَ بنفسِهِ أو يخرجَ عَن شاكلةِ حِسِّهِ، وصارَ دائماً ساكناً مُتحرّكاً ومُضطرِباً مُتماسِكاً وصاحِياً شارباً حاضراً غائباً لا يُلهيهِ صحوُهُ عَنْ سُكرِهِ ولا يمنعُهُ سكرُهُ من صحوِهِ، افادَهُ سكرُهُ صحوَهُ وزادَهُ كَمالاً وقُوَّةً، فحَظِيَ من التَّمكينِ بالمنزِلِ المَكينِ، فكانَ كَمَا قالَ الشَّيخُ سيفُ الدِّينِ أبو زكريَّا يحيى بنُ نصرٍ ابنُ عبدِ الرَّزاقِ بنُ سَيِّدِنا عبدِ القادرِ الجيلاني نفَعَنا اللهُ بهِ مُبيّناً للتَّمكُّنِ وقَدْ سُئلَ عنهُ

يُسقى ويَشربُ لا تُلهيهِ سكرتُهُ　　عَنِ النَّديمِ ولا يلهُو عَنِ الكـــــاسِ
أطاعَهُ سكرُهُ حتَّى تحكَّـــــــمَ　　حالُ الصَّحاةِ وذا من أعجبِ النَّاسِ

وغلبةُ الحالِ عَلَيهِ ﷺ إنَّما كانَ لقُوَّةِ ما نزلَ بِهِ بدليلِ ما كانَ ينطِقُ بِهِ إذ ذاكَ من المعارفِ التي حدَّثَنا بِها مَن سَمِعَها، وبدليلِ ما كانَ يقعُ مِنهُ للأصحابِ من الإمداداتِ والتَّصرُّفاتِ في أحوالِهِم فيجدُون ذلِكَ مِنهُ حسبَما أخبرُونا بذلِكَ أيضاً، وليسَ النَّاسُ في غلبةِ الحالِ سواء.

أخبرَني الفقيهُ العالِمُ الأجلُّ سَيِّدي المهدي بنُ أحمدَ الفاسي كانَ اللهُ له، أنَّهُ كانَ يرى من الأصحابِ مَنْ يغلِبُهُ الحالُ فيُفكِّرُ في نفسهِ أذلكَ لقُوَّةِ الوارد أم لضَعفِ الشَّخصِ؟

فقالَ لهُ مرَّةً سَيِّدُنا أحمدُ ﷺ

" النَّاسُ في غَمرةِ الحالِ مُختلفُونَ، فواحِدٌ يغلبُهُ لأجلِ ضَعْفهِ وواحدٌ لقُوَّةِ الوارِدِ، ويظهرُ الفرقُ في كَلَامِ كُلِّ واحدٍ منهُما وإشاراتِهِ ".

قالَ سَيِّدي المهدي المذكورُ فعلمتُ الفرقَ مِن يومئذٍ.

وأخبرَني أخي أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد العربي حفظَهُ اللهُ أنَّهُ سَمِعَ مرَّةً سَيِّدَنا أحمدَ يقولُ

" القُوَّةُ بينَ مَنْ يغلبُهُ الحالُ لضَعفهِ وبينَ من يغلبُهُ لقُوَّةِ الوارِدِ عَلَيْهِ أنَّ الذي يغلبُهُ لضَعفهِ علامتُهُ أنَّهُ لا يُمِدُّ غيرَهُ وقُصارُهُ على نفسهِ, والذي يغلبُهُ الحالُ لقُوَّتِهِ علامتُهُ أنَّهُ يُمِدُّ غيرَهُ، وأقوى من ذلِكَ أنَّهُ يسلبُهُ ما أعطاهُ وذلِكَ هو الكاملُ يُعطي ويَستَرِدُّ وكُلُّ شيءٍ بقضاءٍ وقدرٍ" انتهى.

وغلبةُ الحالِ لقُوَّتهِ كانَ يقعُ لكثيرٍ من الأكابرِ والأقطابِ كالشَّيخِ زَرُّوقٍ من المُتأخِّرينَ كانَ إذا قَوِيَ عَلَيْهِ الحالُ يأتي بابَ جامعِ القُرويّينَ فيُمسِكُ حلقتَهُ بيدِهِ ويدقُّ البابَ بِها ويقول

﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾[1]

وكالشَّيخِ الغزوانِي كانَ إذا كَثُرَ عَلَيهِ الحالُ تقعُ لهُ صيحاتٌ، وكالشَّيخِ المجذوبِ وكغيرِهِم من المُتقدمينَ الأقوياءِ كالنُّورِي والشِّبلِي وأضرابهم ﷺ ونفعَنا بِهِم أجمعينَ .

وما زالَ سَيِّدُنا أحمدُ ﷺ بعدَ تماسكِهِ قويَّ الحالِ فائضَ النُّورِ يقعُ لهُ في كثيرٍ من الأحيانِ فيضٌ يُؤثِّرُ فيمَنْ يحضُرُهُ من الأصحابِ ويتحرَّكُون بِهِ

---

[1] . النجم (10)

ويتواجدُونَ بسببهِ، ورُبَّما فتحَ بِهِ على مَنْ لم يكُنْ تقدَّمَ لهُ شَيءٌ قَبلَ ذلِكَ، وقَدْ شاهَدْنا في أوقاتِ فيضِهِ غيرَ ما مرَّةٍ.

وكانَ الشَّيخُ الفقيهُ العارفُ بِاللهِ أبو العبَّاسِ أحمدُ اليَمنِي ﷺ إذا حُكيَ لهُ بشيءٍ من ذلِكَ حيثُ كانَ بجامِعِ القبَّارين يستحسِنَهُ ويقولُ

" الرَّجلُ إنْ لم يكنْ صاحِبَ فيضٍ لم ينتفِعْ معَهُ أصحابُهُ "

وكثيراً ما يُسمّيهِ المجذوبُ ويقولُ إذا سأَلَ عنهُ في بَعضِ الأحيانِ بَعضَ خاصَّتهِ كيفَ هو سَيّدي أحمدُ المجذوبُ؟

ويقول فيهِ أنَّهُ أبو يزيدٍ البسطامي.

وقَدْ فَسَّرَ الشَّيخُ الإمامُ العارفُ الكبيرُ أبو المحاسن سَيِّدي يوسفُ الفاسي ﷺ المجذوبُ بأنَّهُ الغائبُ في شهودِ الذَّاتِ حسْبَما ذكرَهُ في " **المرآة** "[1] عنهُ. وجَذبُهُ ﷺ أمرٌ واضحٌ وحالٌ لائحٌ لا يزالُ تظهرُ عَلَيْهِ الغَيْبَةُ في حالِ ظهورِ صَحوِهِ فضلاً عَنْ حالِ ظُهورِ سُكرِهِ، ولقد جالسناهُ غيرَ ما مرَّةٍ فيسألُ عَنْ أحدِنا من هو؟ كأنَّهُ لم يَعرفْهُ قبلَ ذلِكَ، وقعَ ذلِكَ معَهُ ولغيرِ واحدٍ مِمَّنْ لهُ بِهِ أتمَّ معرفةٍ.

وقَدْ جئتُهُ مرَّةً استشيرَهُ في أمرٍ فوجدتُهُ بالزّاويةِ وحدَهُ مُستنِداً على شقّهِ الأيمنِ فجلستُ إليهِ وعَلَيْهِ أثرُ الحالِ فجعلَ يذكُرُ لي من هذِهِ الألحان كلاماً فأخبرتُهُ بأمري فسايَرني فيهِ بكلمةٍ أو كلمتَيْنِ ولم يُشرْ عليَّ بشيءٍ ثُمَّ عادَ لكلامِهِ الأوَّلُ وقالَ لي

"طَريقُنا حلَّاجيَّةٌ "

فعلمتُ ما هو فيهِ وأعرضتُ عمَّا أُريدُ مخافةَ أنْ أُشوّشَ عَلَيْهِ وكُنْتُ ساعتئذٍ لم أفهمْ معنى قولِهِ " **طَريقُنا حلَّاجيَّةٌ** " ثُمَّ علمتُ أنَّهُ يُريدُ الفناءَ في التَّوحيدِ

---

[1] . مراة المحاسن في اخبار الشيخ البو المحاسن للإمام أبي حامد مُحَمَّد العربي بن يوسف الفاسي الفهري (988– 1052)

والغَيْبَةَ عَنْ الأكوانِ والتَّجريدَ والاستغراقَ في بحرِ الوحدةِ وشُهودَ ذاتِ اللهِ وحدِهِ وهو الجذبُ الكبيرُ.

وسمعتُهُ مرَّةً يقولُ

" هذا الرَّجلُ الذي أدركْناهُ "

يعني شيخُهُ سَيِّدي قاسم رحِمَهُ اللهُ " طَريقُهُ الفَناءُ في التَّوحيدِ "

ولا شكَّ أنَّ طريقتَهُم مجذوبيَّةٌ وشيخُها هو المجذوبُ الذي ما مثلُهُ مجذوبٌ، وكذلكَ أيضاً تظهرُ عَلَيْهِ ﷺ من آثارِ جذبِهِ وقُوَّةِ حالهِ أُموراً أُخَرَ كعِظَمِ جُثَّتِهِ وامتلاءِ بَدنِهِ وتهلُّلِ وجهِهِ غايةً، وثقُلَ الأمرُ عَلَيْهِ حتَّى لا يستطيعُ الحركةَ، فرُبَّما يكونُ مارَّاً في الطَّريقِ فيجلسُ مُستريحاً أو يقفُ كَذلِكَ مُستنِداً أو غيرَ مُستندٍ، ويظهرُ عَلَيْهِ أثرُ التَّعبِ وما بِهِ تعبٌ ظاهرٌ ورُبَّما يكونُ راكباً فيثقُلُ على الدَّابةِ فلا تستطيعُ المشيَ بِهِ.

وقَدْ خرَجَ يوماً إلى وادي النَّجا لبعضِ مآربه فركِبَ فرساً لهُ أُنثى جيِّدةً عليها إكافٌ لا شَيءَ عليها معَهُ محمولاً فثقُلَ مشيُها جدَّاً وتَصببَت عرقاً وتدحرجَت في سيرِها حتَّى كادَتْ تقفُ, كانَ عليها ما لا تُطيقُهُ عادةً، فجعلَ يزجرُها لتُسرعَ فلم تقدِرْ وهو عليها يتهلَّلُ وجهُهُ ويستنيرُ سروراً ويتكلَّمُ معَ الذَّاهبينَ معَهُ بكلامٍ يَسحَرُ الألبابَ، ثُمَّ لمَّا رأى إنَّها لا تنهَضُ بِهِ نزلَ عَنْها وذلِكَ بوادي فاسٍ عِندَ قنطرَةِ غديرِ الحِمصِ، وأمرَ بَعضَ مَنْ كانَ معَهُ من الأعرابِ أنْ يركبَها فركِبَها فذهبَتْ بِهِ تُسرعُ كأنَّما نشِطَت من عقالٍ، ولمَّا نزلَ عَنها ذكَرَ قَضِيَّةَ سَيِّدي عبدِ الرَّحمنِ المجذوبِ ﷺ أنَّهُ بَركَتْ بِهِ فرسُهُ يوماً لمَّا قوِيَ عَلَيْهِ الحالُ فقالَ لها مخاطباً لها

" أيُّ شَيءٍ بكِ مُسمَّرَةَ الأربعِ، تعلِفُ كُلَّ يومٍ أربعاً ".

ونذكُرُ هنا ما كانَ يقعُ للنَّبيِّ ﷺ عندَ نُزولِ الوحي وتلَقِّي الأمرِ الإلهي مِن أنَّهُ كانَ يُعالِجُ مِنْهُ شِدَّةً وتأخذُهُ البُرحاءُ[1] فينفصِلُ عنهُ الملَكُ وإنَّ جبينَهُ ليتفصَّدُ عرقاً ويثقُلُ حِسَّاً لِمَا يُلقى عَلَيْهِ من القولِ الثَّقيلِ أيْ العظيمِ الذي ينقلُ لهُ حامِلُهُ، وإنَّهُ نزلَ عَلَيْهِ الوحيُ يوماً جالساً فخذَهُ على فَخذِ زيدِ بنِ ثابتٍ رضي الله عنه فثُقلَتْ جِدَّاً حتَّى كادَتْ تَرضُّ فخذَ زيدٍ أي تكسِرُها[2] وهؤلاء مظاهِرُ آياتِهِ والواردونَ مِن أمدادِهِ وورادتِهِ مِنْهُ يَستمدُّونَ، ومِنْ بحرِهِ يغترفُونَ ومن المعلومِ المعروفِ عندَنا عِظَمَ جُثَّتِهِ رضي الله عنه عِندَ فيضانهِ يشاهِدُ ذلِكَ كُلُّ مَنْ يحضرُ شيئاً من وقائعِهِ وأحوالِهِ، فلا تجِدُ أحداً من المُوالينَ لهُ إلَّا مُخبراً بذلِكَ مُتعجِّباً مِنْهُ، وقَدْ رأيتُهُ أُنا مرَّةً في بَعضِ فيضانهِ فشاهدْتُ من عِظَمِ جُثَّتِهِ وتَهلُّلِ وجهِهِ ما يُبهِرُ العقولَ ويقصُرُ عنهُ المقولُ رضي الله عنه وعنا بِهِ ورزقَنا رضاهُ ونفَعَنا بِهِ.

وأخبرَني غيرُ واحدٍ من فُضلاءِ أصحابِنا الفُقهاءِ وغيرِهم أنَّهُ يُشمُّ مِنْهُ أحياناً وخصوصاً عِندَ فيضهِ رائحةً طيِّبةً تفوقُ المِسكَ والعنبرَ وغيرَهُما بل لا يشبهُها طيبُ الدُّنيا كانَّها رائحةً باطِنةً وما منَحَهُ اللهُ سُبحانَهُ كَمَا أشارَ إليهِ ابنُ الفارضِ رضي الله عنه بقولهِ

كأنَّما القلبُ مِنْهُ عنبرٌ عَبِقٌ يزدادُ في حُبِّكُم طِيباً إذا اشتعَلا

ومن شأنهِ رضي الله عنه إذا قَويَ حالُهُ أنَّهُ يزدادُ بهاؤُه وجمالُهُ ويتهلَّلُ وجهُهُ ويلوحُ سناهُ ويبدُو عَلَيهِ أثرُ باطنِهِ ومعناهُ فتَرى عَلَيهِ حُسناً بارعاً ونوراً لامعاً ويبهرُكَ جمالُهُ وجلالُهُ وبهاؤهُ وكَمالُهُ فيأخذُ بِلُبِّكَ ومجامِعِ قلبِكَ فيملُكُكَ هواهُ ولا تلتفتُ لِسواهُ حسنا لدنيا وسراً الاهياً ولقد أحسن ابن عمنا الفقيه النبيه الأديب البليغ أبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ عبد القادرِ الحَسَنِي حيثُ يقولُ فيهِ

---

[1] . البُرَحاءُ، الشدَّةُ والوشقَّة ويُقالُ للمحموم الشَّديدِ الحُمَّى أصابتهُ البُرَحاء. معجم لسان العرب (برح).

2 . رواهُ البخاري.

انظُرْ تَرَى شمسَ المعارِفِ أشرقَتْ بجبينِهِ الباهي العليِّ الأشرَفِ
كُلُّ المشايِخِ أُلبِسُوا حُلَلَ البَهـا لكنْ سَماهُم بالجمالِ اليُوسفي

ورَّى باليُوسفي لطريقتِهِ المُتمثِّلةِ بالشَّيخ أبي المحاسنِ يُوسفَ بنِ مُحمَّد الفاسي ﷺ وقالَ فيهِ الفقيهُ الأديبُ أبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ عبدِ الحيِّ الحلبِي الشَّافعِي في قصيدةٍ لهُ

انظُر لروضِ الحُسنِ فيهِ تفتَّقتْ بجمالهِ وبهائهِ أزهــارُهُ
مَنْ يستطيعُ يرى لذاكَ حقيقةً حارتْ لذي لُبابةٍ أبصـارُهُ

وقلتُ أنا فيهِ في صدَرِ قصيدةٍ لي ستأتِي هي سابقةٌ على قصيدةِ الحلَبيِّ المذكورِ

انظُرْ لمطلَعِ حُسنِهِ وجمالِهِ قَدْ اشرقَتْ بجبينِهِ أنـوارُهُ
سِرُّ المعارفِ قَدْ حواهُ ضميرُهُ فبدَت بغُرَّةِ وجههِ آثــارُهُ
هو بَحرُها الطَّامي ألمْ ترَ أنَّـهُ تَهمِي بفيضٍ دائماً أسرارُهُ

وكثيراً ما يلوحُ عَلَيهِ ذلِكَ عِندَ حضورِ السِّماع والجُلوسِ إليهِ والاستماعِ فيبرُزُ مِنهُ ما كمَنَ ويظهرُ أثرُ ما بطَنَ، وعادَتُهُ ﷺ في السِّماعِ أنَّهُ لا يستعملُهُ ولا يأمرُ بِهِ إلَّا إذا اقتضاهُ باعثٌ حالي ولا يُريدُ الإكثارَ مِنهُ ولا القصدَ إلى استعمالهِ اختياراً، ويَنهى أصحابَهُ عَن الشُّغلِ بِهِ إلَّا في أيَّامِ المَولِدِ النَّبَوي فلا يَنهى عنهُ، وإذا اتَّفقَ لهُم في بَعض الأحيانِ فلا يتركُهُم يُصقِّقُونَ وينهاهُم عَن ذلِكَ أشدَّ النَّهي ويَنهى عِندَ كلامهِ معَ الأصحاب عَن الالتفاتِ فيهِ والاضطرابِ والأكلِ والشُّربِ وغيرِهِما من المُشوَّشاتِ وكثيراً ما يقولُ

" إنَّ المُشتغِلَ بالسِّماعِ ينبغي أنْ يكونَ كالمُصلِّي "

يُشيرُ إلى حضورِ القلبِ فيهِ معَ اللهِ.

وحضرَ ليلةَ السِّماعَ بدارِ شيخهِ سَيّدي قاسمٍ رحِمَهُ اللهُ معَ الأصحابِ فَبينَما هُمْ فيهِ في حمايةٍ إذ سقطَتْ دارٌ مُلاصقَةٌ للبيتِ الذي هُمْ فيهِ سمعُوا لها وجبةً عظيمةً ورَجَّةً، ففزِعَ بَعضُ مَنْ معَهُم مُلتفِتاً بمِرَّةٍ فزجَرَهُ وقالَ

" **شأنُكُم يا أنتُم عَلَيْهِ** "

فاستمرُّوا على حالِهم مُطمئنِّينَ لم يقُمْ مِنهُمْ قائمٌ ولا هربَ مِنهُمْ هاربٌ.

وحضرَ يوماً السِّماع معَهُم بالزّاويَةِ فأُحضِرَ الطَّعامُ فَمدَّ بعضُهُمْ يدَهُ إليهِ فضربَهُ عليها زاجراً لهُ فكَفَّ عَنِ الأكلِ وأقبلَ على السِّماعِ.

وكُنتُ يوماً معَهُم بِصقلبيَّةِ الزَّاويةِ في سِماعٍ قَد طابَ فيهِ وقتُهُم وانجمعَ حالُهُم فجيءَ بآنيةِ ماءٍ للشُّربِ فمدَّ بعضُهُم يدَهُ بِها أكثر وهو حاضرٌ عَلَيهِ أثرَ الحالِ فما التفَتَ لأخذِها إلَّا وقَدْ تناولَها من يدِ الرَّجلِ سريعاً ورمى بِها بِمِرَّةٍ فخجِلتُ حياءً مِنهُ، يحملُ الأصحابَ بذلِكَ كُلِّهِ على ما هو المطلوبُ فيهِ من حضورِ القلبِ وجَمعهِ ويُريهِم أنَّهُ جِدٌّ مُوصِلٌ إلى جِدٍّ ومُثيرٌ لمَحبَّةِ اللهِ والشُّوقِ إليهِ ويقطعُهُ عنهُم أحياناً مخافةَ الوقوفِ معَهُ والإكتفاءِ بِهِ عَنْ ذِكرِ اللهِ ومخافةَ أنْ يحضرَهُ مَنْ ليسَ فيهِ أهليَّةٌ لِمَا يستعملُ لهُ يُصرِّحُ بذلِكَ تصريحاً ويقول

" **لا يحِلُّ السِّماعَ إلَّا لمَنْ يُحرِّكهُ لذكرِ اللهِ ومحبَّتِهِ وأمَّا مَنْ عداهُ فلا** "

وإذا استعملَهُ الأصحابُ لم يقدِرْ أحدٌ مِنهُمْ أنْ يتواجدَ اختياراً أو استعمالاً، وإذا صدَرَ من جاهلٍ طارئٍ هُنالِكَ شَيءٍ من ذلِكَ بمحضَرِهِ أو غيبَتِهِ لم يترُكْهُ ونَهاهُ مُنفرداً معَهُ، ومَنْ لم ينتهِ انقطعَ والعياذُ بِاللهِ عَنِ الزَّاويةِ كَمَا شاهدناهُ وقعَ لغيرِ واحدٍ.

وقَدْ حضرتُ يوماً سِماعاً بالزَّاويةِ وسيِّدُنا أحمدُ ﷺ حاضرٌ فقامَ رجلٌ من المُجاورينَ للزَّاويةِ الملازمينَ لها وجعلَ يَهيمُ فنظرَ إليهِ سَيِّدُنا أحمدُ شزراً وقالَ لهُ اجلِس وشتمَهُ، فلم يجلِس فبقيَ بها في ذلِكَ، اعتراهُ والعياذُ بِاللهِ في إيمانِهِ وسواسٌ فكانَ يُبايعُ مَن يَرى من الأصحابِ مُتضرِّعاً إليهِم ويترامى على النَّاسِ

ثُمَّ اختلَّ عقلُهُ وفسدَ مِزاجُهُ ولم يَدرِ ما دواؤُهُ وعلاجُهُ وجُعلَ في السِّلسلَةِ مُقيَّداً وبقيَ كَذلِكَ أمداً ثُمَّ أرسلَ على بقاءِ شَيءٍ من اختلالِهِ فكانَ لا يأوي إلى الزَّاويةِ بعدَ ارسالهِ وما زالَ يستشفعُ لسيّدِنا أحمدَ بمَنْ يحضُرُهُ من الشَّرفاءِ وأماثلِ الفُضلاءِ ويَهوي إلى الأرضِ مُقبّلاً رِجلَيْهِ ويتضرَّعُ ويتملَّقُ لديهِ عسى أن ينجبِرَ حالُهُ ويُحسِنَ مآلَهُ، فما ساعدَهُ القَدرُ ولا قضى لهُ وطرٌ والأمرُ للهِ وحدَهُ.

وأصحابُهُ ﷺ يعرفونَ ذلِكَ كلَّهُ ولا يتساهلُونَ في شَيءٍ من تحرُّكٍ ولا هيَمانٍ ولا يفعلونَهُ إلَّا أنْ يقعَ غلبةً، ويتأدَّبونَ بِتِلكَ الآدابِ كُلِّها لا يصدرُ مِنهُمْ خلافَها.

مجلسُهُم فيهِ مجلسُ طُمأنينةٍ ووقارٍ وأكثرَ ما يَستعملونَهُ من الكلامِ فيهِ ما فيهِ وصفُ محبَّةٍ ومحبوبٍ ووصالٍ ونحوَ ذلِكَ ويتنكَّبُونَ ما فيهِ ذِكرُ البَيْنِ والنَّوى وشبهِهما لِمَا يعلمونَ من أمرهِ في ذلِكَ وما يُعجبُهُ مِنْهُ وتذهبُ إليهِ حالُهُ والذي يعجبُهُ من ذلِكَ ما دلَّ على محبوبيَّةٍ وفَناءٍ في المحبوبِ وشهودِ الحُبِّ والإحسانِ مِنْهُ وتِلكَ النَّظرةُ الأزليَّةُ والعِنايَةُ السَّابِقةُ الرَّبانيَّةُ كَكثيرٍ من هذِهِ الألحان الشُشتريَّةِ وما شاكلَها.

وكذلكَ ما دلَّ على أوصافِ النَّبيِّ ﷺ المعنويَّةِ ونُعوتِهِ الكاملةِ فيقعَ لهُ الوجدُ والهيَمانُ والشُّكرُ والفيضانُ عِندَ سماعِ ما تضمَّنَ ذلِكَ من الألحان على اختلافِ مدلولِها، وما تُشيرُ إليهِ ذلِكَ بأنَّ غيبَتَهُ ﷺ تارةً تقعُ في التَّوحيدِ وتارةً في النَّبيِّ ﷺ كَمَا يفهم من هذا ومما يُنطَقُ بِهِ عندَها في بَعضِ الأحيانِ، وتجِدُهُ إذا ذَكرَ الأصحابُ معنىً من المعاني المُشتمِلَةِ عليها هذِهِ الأوزانِ، وحضرَ لهُ القلبُ وطابَ بِهِ الوقتُ لا يُريدُ انتقالَهُم عنهُ إلى معنى مُغايرٍ لهُ البَتَّةَ، وكثيراً ما ينهاهُم عَنْ ذلِكَ خارجَ السِّماعِ ويُحذِّرُهُم مِنْهُ ويقولُ

" إنَّ صاحبَ السِّماعِ إذا ذكَر معنى حرَّكَ بِهِ قلبَ مُؤمنٍ ثُمَّ انتقلَ عنهُ يخافُ على نفسهِ أن يَهلكَ على يدِ ذلِكَ المُؤمنِ هلاكاً لا يَنجبِرُ بعدَهُ "

وليسَ يحضُرُ هذا السِّماعَ معَ الأصحابِ كُلَّما وقعَ لهُمْ، أو أنَّهُ لا يكونُ إلَّا بِمحضرِهِ بل تارةً يَحضرُهُم وتارةً لا يكونُ معَهُم وتارةً يفتتِحُهُ بِهِمْ وتارةً يبتدئونَهُ لأنفسِهِم، وإذا حضَرَهُمْ أو افتتَحَهُ بِهِمْ طابتْ نفوسُهُم وزالَ بؤسُهُم وتُمِّمَتْ أفراحُهُم ودارَ علَيْهِمْ من خمرةِ راحِهِم وتقعُ لهُمْ المشاهِدُ العظيمةُ والآياتُ الجسيمةُ ولنذكُرَ بَعضَ ما شهِدْناهُ من ذلِكَ وحضرناهُ وسمعناهُ وأبصرناهُ.

مَشاهِدُهُ وحَالُهُ ﷺ

فمِنْ مشاهدِهِ ﷺ ما وقعَ لهُ في بَعضِ زياراتِهِ لمولانا عبدِ السَّلامِ بنِ مشيشٍ وكالشَّيخِ الغزوانِي وكالشَّيخِ الغزوانِي وكُنْتُ قَدْ حضرتُ معَهُ وقيَّدْتُ ذلِكَ حينَئِذٍ ونصُّ ما قيَّدْتُهُ

" الحمدُ للهِ حَضرْتُ معَ سَيِّدِنا وسَندِنا ووسيلتِنا إلى ربِّنا العارفِ الهُمامِ أبي العبَّاسِ سَيِّدي أحمدَ بنِ الوليِّ العارفِ بِاللهِ سَيِّدي مُحمَّد بنِ عبدِ اللهِ معنِ رضي الله عنهما زيارةَ القُطْبِ العظيمِ سَيِّدي عبدِ السَّلامِ بنِ مشيشٍ نفَعَنا اللهُ بِهِ في جمادي الثَّانية سنةَ خمسٍ وثمانين وألفٍ، وهي أوَّل زيارةٍ لسَيِّدي عبدِ السَّلامِ زرتُها معَهُ أُنا وأخي وكُنَّا فيها نحوَ مائتي رجلٍ وصلْنا إليهِ عشيَّةَ يومِ الخميسِ وزُرْنا ضريحَهُ بعدَ صلاةِ المغربِ، ثُمَّ أقمنا من الغدِ يومِ الجُمُعةِ واشتغلَ أصحابُنا ضُحى ذلِكَ اليومِ وفي آخرِهِ بالسِّماعِ فلم يلتئِمْ حالُهُم ولم تَطِبْ أوقاتُهُم فكانُوا كُلَّما ابتدَؤوا كلاماً مِنْهُ أنقطعَ بِهِم ولم تَحضُر لهُ قلوبُهُم، وكانَ سَيِّدُنا أحمدَ إذ ذاك غائباً عنهُم قَدْ ذهَبَ إلى مدشَرِ الشُّرفاءِ أولادِ سَيِّدي يوسفَ بنِ حليمةَ من أحفادِ سَيِّدي عبدِ السَّلامِ يُعطيهِم ما جمعَ لهُمْ وما أتَى هو بِهِ مِنَ الدَّراهِمَ وغيرَها لزيارةِ الشَّيخِ على سُنَنِ ما كانَ يفعلُهُ والدُهُ الشَّيخُ سَيِّدي مُحمَّد

ﷺ من دفعِها لهُمْ فلم يرجِعْ لأصحابِهِ إلَّا وقَدْ حضَرَ وقتُ صلاةِ المغربِ فصلَّاها معَهُم بجامعِ القِشرِ وقرأ الحزبَ بِها فلمَّا وقعَ غداً قالَ لهُم سَيِّدي أحمد مُخاطِباً لهُم

" عَييتُم تَنفخُونَ النَّارَ لكنَّ الأعوادَ خُضرٌ "

يعني ما كانُوا عَلَيْهِ من السِّماعِ والدَّندنَةِ في حالِ غيبَتِهِ عنهُم فما تَمَّ مِن مقالتِهِ تِلكَ إلَّا وقَدْ ابتدرَ واحدٌ من الأصحابِ وافتتحَ الذِّكرَ وتبِعَهُ الآخرونُ فارتجَّ المجلسُ رجَّةً واحدةً واشتعلَتْ نارُهُم وتحرَّكَتْ جماعةٌ وافرةٌ مِنهُمْ بل لم يبقَ إلَّا اليسيرَ مِنهُمْ، ثُمَّ لَمَّا أذَّنَ العشاء وصلُّوها عادُوا إلى ما كانُوا عَلَيْهِ من الدَّندَنَةِ وباتُوا ليلَتَهُم قياماً مُتواجدِينَ طَرباً وهُياماً يذكرونَ الأنظامَ والأوزانَ الملحونةَ المُشتملَةَ على ذكْرِ المَحبَّةِ والحبيب ووصْفِ النَّبيِّ ﷺ ويُكرِّرونَ قولَ مَن قالَ

" يا غزالُ كانَ ريت سلطان الغَربِ "

يريدونَ بذلِكَ النَّبيَّ ﷺ وكانَت ليلةً عظيمةً ذاتَ أنوارٍ لائحةٍ وآياتٍ واضحةٍ ونفَحاتٍ عاطرةٍ وبَركاتٍ ظاهِرةٍ لم يُعهدْ مثلُها في ذلِكَ المَقامِ، واجتمعَ فيهِ خلقٌ كثيرٌ من أصحابهِ ومِنَ الزُّوَّارِ الواردينَ من الأقطارِ إلى هُنالِكَ ودخلُوا حضرتَهُ جميعاً وكانَ جالساً عِندَ المِحرابِ يستمعُ لهُمْ فنهَضَ بِهِ الحالُ قائماً وجعلَ يقولُ مُشيراً أمامَهُ بيدِهِ اليُمنى

" هذا رسُولُ اللهِ هذا رسُولُ اللهِ أنتَ رسُولُ اللهِ "

يذهَبُ ناحيةَ طرفِ المَسجِدِ ويُكرِّرُها وطائفةٌ من النَّاسِ وراءَهُ يدعُونَ ويتضرَّعُونَ، وكُنْتُ أُنا فيهِمْ والآخرونَ على حالِ حضرتِهِم يَهيمُونَ ويَصيحُونَ لا يدرُون ما وراءَ ذلِكَ لغيبتِهِم عنهُ ثُمَّ جلَسَ فلمَّا ذكَرَ قولَ القائلِ

يا أنا فخاري من طين   من وضع ذا السّر فيّا

نهضَ قائماً قَد أزعجَهُ الحالُ فدخلَ وسطَهُم يُشيرُ إليهِم أن أكثِرُوا مِنهُ وهُم يُردّدونَهُ ويُكرِّرونَهُ وجعلُوا يزدحمُونَ عَلَيْهِ ازدحاماً عظيماً فَمِنْ مُكّبٍ على رجلَيْهِ ومِنْ مُقبّلٍ يدَيْهِ ومِنْ هائمٍ يدُورُ عَلَيْهِ ولا يشعرُ بِما لَدَيْهِ وجَعلُوا يقولُونَ بلسانٍ واحدٍ

" الله الله "

حتَّى فَهِمَ بَعضُ الحاضرينَ عنهُ واستخلَصَ هو نفسُهُ مِنهُم وقالَ كلمةً يُهدِّدُهُم بِها لم أحفظها، ثُمَّ خرجَ مِن بينَهُم فأُسكِتُوا إسكاتَةً بمرَّةٍ وصدمَت جميعَ الحاضِرينَ هيبَةً عظيمةً فهدؤُوا وسكنُوا حتَّى كأنَ لم يكُن هُنالِكَ أحدٌ وجلسُوا واضطجَعَ هو على شَقِّهِ الأيمنِ برُكنِ الجامعِ الكائنِ عَن أيمَنِ المِحرابِ للمُستقبِلِ فسمعتُهُ يقولُ حينَئِذٍ وهو في غمرةِ تِلكَ الحالِ

" لم تصبِرُوا للكَيِّ "

ويُنشِدُ قولَ القائلِ في الملحونِ

كُويتُ كَم مِن كَي عَمداً عليَّ   حارَ المُداوي فِيَّ يا بُنيَّ

وسمعتُهُ يقولُ

" واللهِ لا أوقِدُ لكُمْ إلَّا الفَكيرةَ "

وسمعتُهُ يقولُ أيضاً

" إذا سمعتُ أحمدَ يعني نفسَهُ يقولُ يا رسُولَ اللهِ قُلْها واهرُبْ قَبلَ أنْ تشتعِلَ فيكَ النَّارُ "

وقالَ أيضاً

" واللهِ إنَّ مَنْ قَبضْتُ عَلَيْهِ بيدَيَّ هاتينِ وجمعَ أصابِعهُا إلى كَفِّهِ لم يَفْلتْ من يَدَيَّ "

وقالَ

" واللهِ إنَّ الذي يرفعُ رأسَهُ يعني لم ينْقد أو لم يُذعِنْ أو نحوَهُ لأكْسِرَ نبلَهُ "

وسمعتُهُ يقولُ أيضاً

" نَحنُ في ضِيافَةِ مولاي عبدِ السَّلامِ ما في بابِ الكرائِمِ إلَّا النَّعائِمُ "

وكانَ يتكلَّمَ أيضاً في تِلكَ الساعةِ بِلُغَةٍ لا نفهمُها بل يعرفُها ذوو الألسنِ ويُجاوِبُهُ بَعضُ الأصحابِ مِمَّن كانَ في غيرِ حِسّهِ ذلِكَ الوقتِ وهو صِهرُهُ السَّيّدُ الصَّالِحُ المَرضِيُّ ذو الحالِ أبو عبدِ اللهِ سَيِّدي مُحمَّد بنُ مُحمَّد بنُ عاصمٍ.

وكانَ رجلٌ من أصحابِهِ يُدعى السَّيّدُ عبدُ الرَّحمنِ المالقي مِمَّنْ لهُ حالٌ قويٌّ بحيثُ إذا غلبَ عَلَيْهِ الحالُ ضربَ بالذي بيدِهِ مِن حَجَرٍ وآنيَةٍ أو غيرِهما مِمَّا حُبسَ في خِبائِهِ تِلكَ اللَّيلةَ لم يخرُجْ مِنْها ولم يحضُرْ الحضرةَ فسمعْتُ سَيّدي أحمدَ يُنادي في ظلمةِ اللَّيلِ باسمِهِ ويقولُ

" أينَ هو المالقي أينَ هو المالقي "

كالمُنكِّلِ لهُ يشيرُ إلى أنَّهُ صنعَ بِهِ ما صنَعَ مِن حبسِهِ عَن الحضرةِ.

وكانَ أيضاً رجلٌ مِن أصحابِهِ وهو السَّيِّدُ الصَّالِحُ ذو الحالِ الواضِحِ أبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ قاسمٍ بتير الأندَلُسي مريضاً بوجعٍ في رجلِهِ لا يقدرُ على المشيِّ بِهِ ولا يركبُ على الدَّابةِ إلَّا بمَشقَّةٍ، فتحرَّكَ تِلكَ اللَّيلةَ وجعلَ يرفعُ في المسجِدِ ويَجري جرياً عظيماً كأنْ لم يكُنْ برجلِهِ وجعٌ فَسمِعَهُ سَيّدي أحمدَ بعدَ ما هدأَ النَّاسُ وسكنُوا فقالَ لهُ

" ألا تسكُنَ الآنَ يجيئُكَ البردُ "

وهو بعيدٌ مِنْهُ لم يسمعْ مقالتَهُ فمكثَ الرَّجلُ يسيراً ثُمَّ قالَ

" البرد البرد غَطُّونِي غَطُّونِي "

فَعجِبْنا من أمرِهِ أولاً وآخِراً.

وممَّا اتَّفقَ لي معَ هذا الرَّجلِ في هذِهِ اللَّيلِةِ أنّي كُنتُ جالساً معَ القومِ بعدَما سكنُوا ثُمَّ غلبَنِي بردُ اللَّيلِ فقُمتُ لأخرجَ من المسجدِ وأنامَ فجاءَ يطلُبُني مَن ورائِي وهو على حالِهِ تِلكَ وفي ظُلمةِ اللَّيلِ وهو يقولُ

" مَن هذا مَن هذا إلى أينَ تخرُجُ ورائحةُ النَّبيِّ ﷺ فيكَ حتَّى أدركَنِي وجَذبَنِي مِن ورائي وكشفَ عَن وجهي حتَّى عرفَنِي فقالَ لي لا تَخافَوْنَ يا سَيِّدي، وأنا أقولُ ثُمَّ قعدْتُ حيثُ وجدَني وانصرفَ عَنِّي، وكُلُّ أمرِ تِلكَ اللَّيلةِ شَيءٍ عظيمٌ وأمرٌ جَسيمٌ جَعلَنا اللهُ مِمَّن شَملَتْهُ نفحاتُها وعمَّتْهُ بركاتُها آمين ".

ومِنْ مَشاهدِهِ أيضاً ما وقعَ في الزّاويةِ بعدَ هذِهِ بأشهُرٍ وحَضرتُهُ وشاهدتُهُ وحَضرَهُ أخي الفَقيهُ أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد العربي حفظَهُ اللهُ وقيَّدَهُ أورِدُهُ بلفظِهِ اكتفاءً بِهِ ونَصُّ ما قيَّدَهُ

" الحمدُ للهِ كُنَّا جُلوساً بالزَّاويةِ يومَ الخميسِ في ذي القِعدَةِ سنةَ خمسٍ وثمانين وألفٍ بموضِعِ الحِزبِ فاشتغَلَ أصحابُنا بالسِّماعِ وسيِّدُنا أبو العبَّاسِ ﷺ جالسٌ تحتَ الصَّقلبيَّةِ مُسنِداً ظهرَهُ إلى حائطِ المخزَنِ الذي هناكَ وهو يفتِلُ العَسفَ ورجلٌ من أصحابِنا جالسٌ أمامَهُ فيسمعُهُم يقولون

" ديرْ العُقارَ يا خمَّارُ "

إلى آخرِهِ فاعتراهُ حـــالٌ وسَطوةٌ وقـالَ للرَّجُـلِ

" قُمْ واجلِسْ معَ النَّاسِ "

فقامَ فجلسَ معَهُم، ثُمَّ جاءَ سَيِّدُنا أبو العبَّاسِ وجلسَ بإزائِنا فاشتعلَ القومُ وحمِيَ ذلِكَ فيهِمْ وتتابَعَ وبقَوا يومَهُم كَذلِكَ يعترِيهِم الوجدُ والطَّربُ ثُمَّ افترقُوا وباتُوا تِلكَ اللَّيلةَ في سرورٍ وازدهاءٍ وحُبورٍ ثُمَّ من الغدِ صلَّوا الصُّبحَ واجتمَعُوا للحزبِ على عادتِهِم، فجاءَ سَيِّدُنا أحمدُ وجلَسَ معَهُم وغطَّى وجهَهُ ورأسَهُ بكِسائِهِ وبقِيَ كَذلِكَ، فلمَّا وصلُوا إلى ذكرِ الجلالةِ حَمِيَ حالُهم وتتابَعَ وطالَتْ الجلالَةُ كثيراً ثُمَّ كشفَ الثَّوبَ عَنْ وجهٍ مثلَ البدرِ وتلألأَ نوراً وسروراً بل لا يُعبِّرُ عَنْ وصفهِ وتبسَّمَ ضاحِكاً وقَدْ عظُمَت جُثَّتُهُ، وكانَ إذا اعتراهُ حالُ فَيضٍ وتحرَّكَ عظُمَتْ جُثَّتَهُ جداً ثُمَّ قالَ من دونِ أنْ يَرفعَ بِها صوتَهُ

" المجذوبَ هذا "

ثُمَّ أملى على النَّاسِ قولهِ

على اللهِ نَفنِي عُمرِي والخاتِمُ رسولُ اللهِ

فتلقَّفَها مِنْهُ الحاضرونَ وجعلُوا يقولونَها مكانَ الجَلالةِ لساناً واحداً يردّدُونَها ثُمَّ نهضَ قائماً وقَدْ ظهرَ عَلَيْهِ من سِرِّ الجَمالِ ما لا تُطيقُهُ العقولُ ولا يَصِفُهُ المقولُ، فلمَّا رآهُ مَنْ رآهُ صَاحَ ثُمَّ آخرَ ثُمَّ آخرَ فكُلُّ مَنْ رآهُ يَخرُجُ عَنْ حِسّهِ وعَظُمَ الحالُ فمِنْ باكٍ مُلتاعٍ ومِنْ سائلٍ داعٍ ومِنْ مُبتهلٍ خاشعٍ ومُتملّقٍ ضارعٍ ولهُم زَجَلٌ وأصواتٌ، فقائِلٌ يقولُ

" الله " وآخَرُ " هُو " وآخَرُ " الحيّ "

ومِنهُم مَن يذهَبُ ويَجِيءُ هائماً مُولَّهاً، ومِنهُم من سقطَ إلى الأرضِ، ومِنهُم مَن غُشِيَ عَلَيْهِ ومِنهُم مَن مزَّقَ ثيابَهُ، ومُكِّنَ في ذلِكَ المحفَلِ نحوَ العشرةِ رجالٍ فتحرَّكُوا وظهرَ علَيْهِم الحالُ ولم يكونُوا تحرَّكُوا قَبلَ ذلِكَ، ثُمَّ جعلَ يذهَبُ ويَجيئُ بالزّاويةِ قَدْ سقطتْ عنهُ كساؤهُ فسمعتُهُ يقولُ

" أنا مَسبِيٌّ الرّجالِ أنا مَسبِيٌّ الرّجالِ يعني وفارسُ المَجالِ "

ثُمَّ جعلَ يقولُ

" مُحمَّد يتهجَّاها وينطِقُ بِها حَرْفاً حَرْفاً "

فكُلُّ مَنْ يسمعُهُ ناطقاً بِها يزيدُ توَلُّهاً وصَبابَةً، وبقِيَ كَذلِكَ ساعةً طويلةً والنَّاسُ على حالِهم فجعلَ يقولُ

" أَعطُوني لِمَنْ أضرِب إعطُوني مَنْ أضرِبُ "

ويُكرّرُها ثُمَّ صَعدَ الدَّرجَ ودخلَ الدَّارَ مرَّةً أو مرَّتَيْنِ وهو على حالِهِ تِلكَ فكانَتْ أُختُهُ السَّيِّدةُ الصَّالِحَةُ ذاتُ البركاتِ الواضحَةِ والأنوارِ اللّائِحةِ سيّدَتُنا رُقيَّةُ رضي الله عنها كُلَّما دخلَ الدَّارَ وهو كَذلِكَ لاذتْ بِهِ وجعلَتْ تدُورُ معَهُ

حيثُ دارَ وتُقبِّلُ يدَيْهِ وتتمرَّغُ على قدميهِ، وكانَ اعتراها حينَئِذٍ حالٌ عظيمٌ حسْبَما أخبرُونا بذلِكَ عَنْها فإذا رجعَ إلى الزّاويةِ أحدقَ بِهِ أصحابُهُ من كُلِّ جانبٍ.

وأخبرَنِي بَعضُ أصحابِنا أنَّ رجُلاً من أهلِ مراكشَ كانَ خارجَ الزّاويةِ فسمِعَ ذلِكَ ودخلَ ينظُرُ ووقفَ معَ التُّوتةِ التي ببابِ الزّاويَةِ فقالَ لهُ بعضُهُمْ

" يا هذا ادخُلْ وقِفْ معَ النَّاسِ "

فقالَ لهُ

" يا سَيِّدُ إنِّي أكلتُ ثوماً فما يُمكنُنِي أنْ أدخُلَ المسجِدَ "

فلمَّا التفتَ سَيِّدُنا أحمدُ لناحيتِهِ وبصرَ بِهِ خرَجَ عَنْ حِسِّهِ وذهَبَ مُولَّهاً هائِماً على وجهِهِ لا يعلمُ أينَ يسيرُ فبَقِيَ كَذلِكَ نحوَ جُمُعةٍ وهو يذهَبُ ويَجيءُ بالأسواقِ ثُمَّ بعدَ مُضيِّ الجُمعةِ، بينَما نَحنُ جلوسٌ بِصقلبِيَّةِ الزّاويةِ إذا بِهِ أتَى في غيرِ حِسِّهِ، فجعلَ يَصيحُ وهُو بِصحنِ الزّاويةِ

" أينَ أحمدُ بنُ عبدِ اللهِ الخَمَّارِ "

ويُكرِّرُها فسألنا عَن حالهِ فذكرُوا لنا قضِيَّتَهُ التي ذكَرْنا " انتهى.

ومَشاهِدُهُ ﷺ في هذا المعنى كثيرةٌ ووقائعُهُ فيهِ عظيمةٌ يخرجُ بنا تَتبُعُها عَن حدِّ الاقتصادِ, وأكثرُ ما تقعُ بحَسبِ ما نُشاهدُهُ إذا حضَرَ وعَلَيْهِ أثرُ قُوَّةِ حالٍ زائدٍ على ما يُعتادُ مِنهُ فيَسرِي ذلِكَ مِنهُ للأصحابِ فيشرَعُونَ في السِّماعِ بِمحضِرِهِ فيُثيرونَ وجدَهُ ويَؤولُ الحالُ إلى أمرٍ عظيمٍ، وقَدْ يَبتدِئُهُم هو بِهِ ويُلقِّنَهُم كلمةً من هذِهِ الألحانِ بصيغَتِها المعروفةِ، وقَدْ يُرسِلُ بِها إليهِم فيَهيمُونَ صَبابَةً ويتولَّهُونَ وَجْداً وتشتَعِلُ نارُهم ويثُورُ أقرانُهُم، وقَدْ يفعلُ ذلِكَ بمُجرَّدِ نظرَةٍ إليهِم.

وقالَ لهُ رجلٌ من الفُقراءِ الأجانبِ عشيَّةَ يومِ عاشُوراء وهو بِصقلبِيَّةِ الزّاويةِ، يا سَيِّدي إعطِنِي الزكاةَ، يُريدُ المدَدَ فقالَ لهُ

" لو أنَّ عِندِي شيئاً لأعطَيْتُهُ هؤلاءِ "

يعني الأصحابَ وكانُوا مُشتغلِينَ بالسِّماعِ عَشيَّتئِذٍ ولم يُطِبْ وقتُهُم، ثُمَّ أرسلَ إليهِم رجلاً من أصحابِهِ وهو السَّيّدُ الخيِّرُ المَرضِيُّ سَيّدي مُحمَّد الحاجُّ مُحمَّد الدِّويج وقالَ لهُ امضِ إليهِم وقُلْ لهُمْ يقولون

الجديدُ لا بُدَّ يَتبالَى إلَّا غرامَكَ يا زينَ الحالِ

فهبطَ بِها مُسرِعاً عَلَيْهِ أثرُ الحالِ وألقاهُ إليهِم فابتدرُوها مِنْهُ وضَجُّوا ضَجَّةً واحدةً ونقلهم السُّرورُ والفرح وهاموا وطربوا وطاب وقتهم وحضرتهم نفحات وبقوا كَذلِكَ إلى اللَّيلِ.

وكانَ يوماً بعدَ صلاةِ العصرِ بِصقلبِيَّةِ الزّاويةِ معَ بَعضِ الأصحابِ والبعض مِنهُمْ مُشتغِلٌ بالسِّماعِ أسفلَها فلم يلتئِمْ حالُهُم وفتَرُوا فقالَ

" لو أنَّ مَنْ يُطلِقُ لهُمْ رشَّاشَةَ نارٍ لقامَتْ قِيامَتُهُم "

ثُمَّ قامَ فأخذَ بَعضَ الأوانِي كانَتْ هُنالِكَ ليُدخِلَها الدَّارَ فلمَّا مرَّ بالمَجازِ الذي بينَ الصِّقلابيَّتَيْنِ هُنالِكَ فسَمِعَهُم يقولونَ

" اذكُرُوا لي مَنْ هُوَ قَلبِي "

فصَاحَ بعضُهُم

" أُطلِقَتِ النَّارُ "

وطَرِبُوا مرَّةً وحَمِيَ حالُهُم وهامُوا وتواجدُوا وصدَرَت مِنهُمْ صيحاتٌ فجعلَ يقولُ

" خَلِّهِمْ "

ويُكرِّرُها وظهرَ عَلَيْهِ حالُ فيضٍ، فلمَّا رأى مِنْهُ ذلِكَ حفيدُ أخيهِ وهُو سَيّدي عبدُ السَّلامِ بنُ عليٍّ حفِظَهُ اللهُ أخذَ الأواني مِن يدِهِ وأدخلَهُما الدَّارَ وبقِيَ الأصحابُ كَذلِكَ وهو ينظُرُ إليهِم إلى أنْ حضَرَ وقتُ المغربِ فصَلُّوها وقرؤُوا الحزبَ ثُمَّ عادُوا لِمَا كانُوا عَلَيْهِ إلى أنْ صلُّوا العِشاءَ وانصرَفُوا.

وكثيراً ما يُصادِفُهُم وقتَ صَلاةِ العِشاءِ وهُمْ في السِّماعِ قَدْ طابَ وقتُهُم فيُصلُّونَها ثُمَّ يَبيتُون بالزّاويةِ لا يقدِرُ أحدٌ مِنهُمْ أنْ ينصَرِفَ ولا أنْ يكتَحِلَ بنومٍ، وقَدْ يحضُرُهُم معَ ذلِكَ سَيّدِنا أحمدَ فيعظُمُ الأمرُ، فرُبَّما تقَدَّمَ إليهِم العَشاءُ فتَبقَى على حالِها لا يستطيعونَ أكلَها شُغلاً عَنْها بما هُمْ فيهِ، ورُبَّما كانَ رمضانُ فيَغيبُونَ فيما هُمْ فيهِ عَنِ الأكلِ إلى وقتِ السَّحَرِ وليس ذلِكَ عَنْ قصدٍ مِنهُمْ، وقَدْ أحضرَ الطَّعامَ يوماً لأصحابِهِ بعدَ أنْ كانُوا في سِماعٍ وحِمايَةٍ، فأكلُوا وشَرِبُوا فقالَ لهُ بَعضُ الفقراءِ مِمَّنْ ينتسِبُ لغيرِ طريقةٍ

" كانَ سَيّدي عبدُ اللهِ بنُ حَسُّونٍ إذا حضَرَ أصحابُهُ السِّماعَ منعَهُم شُربَ الماءِ ليلاً يُطفِئُ حِمايتَهُم "

فقالَ ذلِكَ من الضَّعفِ، وأمَّا القويُّ فيأكلُ ويشرَبُ ولا يضُرُّهُ إلى غيرِ ذلِكَ من حكاياتِهِ فيهِ وآياتِهِ، وقَدْ حضَرْتُ مِنْها والمِنَّةُ للهِ ما لا أَكادُ أُحصِيهِ بما يَقَعُ غالِبُهُ بالزّاويةِ، وتارَةً بجِنانِهِ بلُمطَةَ في الأيَّامِ الكثيرةِ واللَّيالي ذواتِ العددِ وخصوصاً في المَوْلِدِ النَّبَوي على المَوْلودِ فيهِ أفضلُ الصَّلاة والسَّلامِ فإنَّهُ ﷺ يزدادُ فيهِ فرحاً وحُبوراً ونَعيماً وسُروراً، ويظهرُ عَلَيْهِ أثرُ ذلِكَ من قُوَّةِ الحالِ وازديادِهِ وكَثْرَةِ فيضانِهِ وإمدادِهِ ويقولُ

" كُلُّ مَنْ فيهِ قِسْطٌ مِنَ الايمان يجبُ عَلَيْهِ الفرحُ بدخُولِ الشَّهرِ العظيمِ والمَوْلِدِ الكريمِ"

ويذكُرُ قَضِيَّةَ القُطْبُ سَيّدي عبدِ اللهِ الغَزْوانِي أنَّهُ كانَ زَغرَدَ عِندَ استهلالِ الرَّبيعِ النَّبَوي ويَستَحسنُها وهي قَضِيَّةٌ معلومةٌ حَكاها الشَّيخُ القصَّارُ عَنْ شيخهِ سَيّدي رضوانَ عَنْ شيخهِ الغزوانِي المذكور أنَّهُ رآهُ فعلَ ذلِكَ ويقولُ أحياناً يَهِشُّ بدخولِ هذا الشَّهرِ كُلُّ مَنْ فيهِ رائحةُ الإيمانِ، ويتركُ أصحابَهُ يُكثرونَ السِّماعَ فيهِ ويستعملُون فيهِ أمداحَ النَّبيِّ ﷺ ويقرأونَ قصائدَهُ الشَّريفةَ يتولَّى ذلِكَ غالباً مَنْ حضَرَ مِنْ فُقهاءِ أصحابِهِ ويرُدُّ عَلَيْهِ الآخرونَ هذا ولا خُصوصِيَّةَ للسِّماعِ

فيما يقعُ مِنْ هذِهِ المشاهدِ العظيمَةِ والبرَكاتِ الجَسيمةِ بل كَذلِكَ في حالِ قراءةِ حزبِ الغَداةِ وذِكْرِ الجلالَةِ يطُولُ بِهِمْ المَدى في ذلِكَ أحياناً ويتواجَدُونَ ويصيحُونَ وتقعُ لهُمْ الوقائعُ العظيمةُ، وإذا قُطِعَ النَّاسُ من ذكرِ الجلالةِ بقِيَ مَنْ وقعَ لهُ ذلِكَ يتحرَّكُ ويضطرِبُ، ورُبَّما يرمِي بعضُهُمْ بنفسِهِ من أعلى درجةِ الصَّحنِ إليهِ على وجهِهِ أو على جنبِهِ، وبعضُهُمْ من الحائطِ الذي يَلِي السَّقايةَ إلى شعبتها على أُمِّ رأسِهِ وما رأيْنَا واحداً مِنهُمْ أُدميَ ولا كُسِرَ ولا وهنَ مِنْهُ عظْمٌ ولا استفاقَ من سُكرِهِ يفعلُهُ ذلِكَ ويصدُرُ من بعضُهُمْ كَلامٌ بحروفٍ مُقطَّعةٍ، ورُبَّما يتكلَّمُونَ بِها فيما بينَهُمْ ويُجيبُ بعضُهُمْ بَعْضاً حينَئِذٍ كُلُّ ذلِكَ مِمَّا يُخرِجُهُ واردُ الحالِ مِنهُمْ ولا معرفةَ لهُمْ بشيءٍ مِنْهُ قَبلَ هُجومِ الحالِ ولا بعدَهُ وتقدمَتِ الإشارةُ إلى تفسيرِ مَدلولِ ما ينطِقُونَ بِهِ مِنْها عِندَ استيلاءِ سُلطانِ الحالِ علَيْهِمْ وقَدْ كانَ أهلُ الأحوالِ من أصحابِ الشَّيخِ سَيّدي أحمدَ الشَّاوي نفَعَنا اللهُ بِهِ يتَكلَّمُونَ بتِلكَ اللُّغةِ أيضاً عِندَ غلبةِ الحالِ علَيْهِمْ ويهدد بعضُهُمْ بَعْضاً بِما يكونُ في يدِهِ كَمَا أخبرَنا بِهِ مَنْ حضَرَهُمْ وشاهدَ ذلِكَ مِنهُمْ، فكأنَّما ورَدُوا معَ هؤلاءِ الأصحابِ مَشرباً واحداً أو اتَّفقُوا معَهُم في شَيءٍ من ذلِكَ، وكثيراً ما يقع هذا ونحوهِ في الحزبِ إذا حضَرَ سَيّدي أحمدُ ﷺ.

وقَدْ دخلتُ يوماً الزّاويةَ لأُصلّي الصُّبحَ فوافَقْتُهُ داخلاً في بابِها وعَلَيهِ من سَطوَةِ الحالِ وبهجَةِ الجَمالِ ما لا يُكيَّفُ و صلى معَ النَّاسِ وجلسَ لقراءةِ الحزبِ معَهُم على حالهِ ذلِكَ، فلمَّا وصلُوا في المُسَبَّعاتِ إلى الصَّلاةِ على النَّبيِّ ﷺ أشارَ إليهِم أنْ أكثِرُوا، وقالَ لهُمْ ذلِكَ فجعلُوا يُكررُونَها وقَدْ ارتَجَّ بِهِمْ المَجلِسُ رَجَّةً واحدَةً، وارتفعَتْ أصواتُهم كأنَّهُمْ ناطقٌ واحِدٌ وأطالُوا ترديدَها ثُمَّ مرُّوا على قراءةِ الحزبِ الكبيرِ وذِكْرِ الجلالةِ في حِمايَةٍ عظيمَةٍ وتواجَدَ مَنْ تواجَدَ مِنهُمْ، فسمعتُ سَيّدَنا أحمدَ بعدَ الفراغِ مِن الجلالَةِ في ذلِكَ اليومِ يقولُ وهُوَ في حالهِ ذلِكَ

" حَلَفْتُ فأتت مِنِّي يمينٍ مَنْ خَطبَنِي لأُزوِجَنَّهُ "

يُريدُ مَنْ طلبَ مِنْهُ المدَدَ الرَّبَّانِي مَكنَّهُ مِنْهُ أو مَنْ أرادَ صُحبتَهُ نالَها أو نحوَ ذلِكَ، ثُمَّ انصرَفَ من مَقامِهِ ذلِكَ.

ودخلَ يوماً الزّاويةَ عَلَيْهِ أثرُ الحالِ والغَيبةِ يرفَعُ رِجلَهُ ويَضعُها بتكلُّفٍ كحاملِ ثُقلٍ عظيمٍ، وأتَى وكأنَّهُ يفتِّشُ أحدٍ، ثُمَّ قالَ لبعضِ الحاضرينَ مُتعجِّباً

" هذا الذي تَكُونُ في يدِهِ لُقمَةٌ يدُورُ بِها على مَنْ يَجْعَلُها في فِيهِ فلَمْ يَجِدْ "

يُريدُ بذلِكَ المدَدَ الحالي ثُمَّ ذهَبَ مثلَ ما أتَى.

وقالَ غيرَ مرَّةٍ

" كُنْتُ يوماً بجامعِ الأَنْدَلُسِ وقتَ صلاةِ الجُمُعةِ وكانَتْ فِيَّ لا إلهَ إلَّا اللهُ فجعلْتُ أُفتِّشُ بعيني مَنْ أجعلُها فيهِ فَمَا رأيْتُ فيهِ قابِلِيَّةً "

يُريدُ كانَ فيهِ فَيْضٌ تَوْحِيديٌّ زائِدٌ على ما يعتادُ ففتَّشَ مَنْ يبُثُّ فيهِ شيئاً مِنْهُ فلم يجِدْ مُتوجِّهاً.

ومِنْ عادَتِهِ ﷺ أنَّهُ إذا وقعَ لهُ فَيْضٌ وصدَرَ مِنْهُ ما صدَرَ غابَ عَنِ الزّاويةِ أيَّاماً وصارَ يخرُجُ للصَّلاةِ من خوخةِ دارِهِ فيُصلِّي بِصقلُبيَّتِها ولا ينزلُ إلى أسفل أو يغيبُ ببعضِ أجِنَّتِهِ إن كانَ وقتَ خدمةٍ أيَّاماً ويترُكُ الأصحابَ هائمِين مُولَّهِينَ مُستشْرِفِينَ لهُ مُتعطِّشِينَ لرُؤيتِهِ رَزقَنا اللهُ بركتَهُ ومنَحَنا مَحبَّتِهِ آمين.

مَقامُهُ وتَحقُّقهُ بالمَعرفة ﷺ

وأمَّا مَقامِهِ المُتَّصِفُ ﷺ بذلِكَ التَّحقُق بالمعرفةِ والتَّمكُّنِ في اليقينِ وكمالِ التَّوحيدِ والتَّفريدِ والتَّجريدِ وشُهودِ الحُبِّ مِنَ اللهِ، وإنَّ العبدَ محبوبٌ ومَجذُوبٌ لحضرةِ ربّهِ ومَطلُوبٌ دأبُهُ الرُّكُونَ إلى مولاهُ والإنفرادِ بهِ عَنْ كُلِّ ما سِواهُ وحُبِّ أمرِهِ وبُغضِ ما عَنْهُ نهاه والوقوفِ دائماً ببابِهِ والعُكوفِ أبداً على جنابِهِ لا يَقرُّ لهُ مع غيرِهِ قرارٌ ولا لهُ على ما سِواهُ مَدارُ، لا لهجَ لهُ إلّا بِاللهِ في حركاتِهِ وسكناتِهِ ويقظَتِهِ وسِناتِهِ وسائرِ تقلُّباتِهِ إذا ذهَبَ أو قامَ أو قعدَ أو انتبَهَ من نومٍ ذكَرَ اللهَ ذِكراً يُعرَفُ أنَّهُ عَنْ قلبٍ مَعمُورٍ مُمتلِيءٍ بحِكْمَةِ الإيمانِ والنُّورِ يُهتَزُّ لهُ السَّامِعُ وتطمئنُّ لهُ القلوبُ والمَسامِعُ لا يستغرِقُهُ النَّومُ بل يتقلَّبُ فيهِ وكُلَّما تقلَّبَ خرَجَ مِنْهُ ذِكْرُ الجلالَةَ بديهةً ولأوَّلِ وهلةٍ معَ تَصعُّدِ نَفَسٍ وإنَّهُ رُبَّما خرَجَ مِنْهُ عِندَ النُّطقِ بِها مُتقلّباً في مَضجَعِهِ وهو في ظلمةِ اللَّيلِ نورٌ أبصرَهُ مَنْ لم يُعهَدْ لهُ كشفٌ ولا غيرُهُ قَدْ امترجَتْ حقيقتُهُ بالتَّولُّهِ بربِّهِ واللَّهجِ بهِ وحُبِّهِ واطمأنَّ بِهِ إيقاناً ومعرفةً وإيماناً لا معوَّلَ لهُ إلَّا عَلَيْهِ، ولا استنادَ إلَّا إليهِ لا يُبالي بإقبالٍ من الخَلقِ ولا بإدبارٍ ولا بمودَّةٍ مِنهُمْ ولا بإضرارٍ ساكنٌ تحتَ مجاري الأقدارِ دائمُ اللُّجوءِ إلى اللهِ والإضطرارِ وقَدْ أُعطِيَ التَّأييدَ في كُلِّ ما يُصرِّفُهُ اللهُ ويُريدُ, لا تجدُهُ إلَّا راضِياً بمُرادِ اللهِ وقضائِهِ فرِحاً لإبرامِهِ واقضائه مُتحدِّثاً بأنعُمِ اللهِ وآلائِهِ، لا يُحبُّ التَّدبيرِ معَ اللهِ والإختيارِ ويقول

" لا أَحسَنَ مِنْ فِعلِ الفاعِلِ المُختارِ ليسَ لهُ أبداً مرادٌ إلَّا ما قضاهُ اللهُ وأرادَ "

فَلا تَراهُ إلَّا مُحبَّاً لمَّا كانَ عَلَيْهِ الوقتُ والزَّمانُ مِن شِدَّةٍ ورَخاءٍ وخَوْفٍ وأمانٍ وحامِلاً للنَّاسِ على الرّضى بِهِ والاستسلامِ لمُصابِهِ، وإذا تحوَّلَ حالُ الوقتِ تحوَّلَ مُرادُهُ عنهُ لا يَقِفُ معَ شَيءٍ مِنْهُ وكثيراً ما يُقرِّرُ هذا المعنى ويدُلُّ عَلَيْهِ ويُرشِدُ بحالِهِ ومقالِهِ إليهِ، ويذكُرُ في ذلِكَ قولِ القائِلِ على سبيلِ التَّمثيلِ

أنا مَعِي بدرُ الكمال حيثُ يميلُ قَلبِي يَمِيل

ذلِكَ بأنَّهُ ﷺ قَد مَحى السِّوى فلا يُشاهِدُ معَ اللهِ غيراً، ولا يرى للسِّوى نفعاً ولا ضراً بل يشاهِدُ الفعلَ مِنَ اللهِ وإنَّهُ هو المُتصِّرفُ والدَّالُ بفعلِهِ عَلَيْهِ والمُتعرِّفُ، وإنَّ أفعالَهُ كُلَّها مصحوبةٌ بالحِكمةِ محفوفةٌ بالرَّحمةِ، ويرى الخلقَ كالأواني المُسخَّرةِ في يدِ غيرِها، ويعدُّ شُهودَ الإنسانِ نفسَهُ إثنينيَّةً ويتمثَّلُ في ذلِكَ بقولِ القائلِ

إذا قلتُ ما أذنبْتُ قالتْ مُجيبَةً وجودُكَ ذَنبٌ لا يُقاسُ بِهِ ذَنْبُ

ومِنْ كَلامِهِ في هذا المعنى مِمَّا قالَهُ هُوَ وقَيَّدَهُ بخطِّهِ قولُهُ

" يا مُوقِناً و يا مُتَوَجِّهاً أثْبَتَّ وجوداً ما أعظمَ ذنبهُ، وحُزْتَ وُجوداً ما أعظمَ ذنبهُ، وحُزتَ وجودَ أنَّكَ وهُو فأذكُرْ يومَ ألَسْتُ تُشاهِدُ فضلَهُ "

ولقد سمعتُهُ يذكُرُ من كَلامِ الشُّشتُرِي قوله

ليسَ يُدرِكُ وِصالِـي كُلُّ مَنْ فيهِ بَقِيّا
إنَّما نُفشِي سِرّي للَّذي اختَصَّ بِيَّا

وهُوَ يُرِدِّدَهُ ويَستَحسِنَهُ غايةً ويقولُ

"كادَ هذا الكَلامُ أنْ يكُونَ وحْياً "

يُشيرُ آنذاكَ الى حالِهِ وأنَّهُ هُوَ التَّوحِيدُ المطلُوبُ.

وقالَ يوماً وهو يقرأُ حِزبَ العَشِيِّ معَ الأصحابِ

" إنَّ حَرْفَ ي من الحُرُوفِ الهاء أيْ هُوَ يُرِيدُ الهُوِيَّةَ يعني الغَيْبَةَ في التَّوحيدِ والفَناءِ فيهِ ".

وقالَ مرَّةً أُخرى

" رأيتُ في المَنامِ فُلاناً وسَمَّى رجُلاً مِنْ أهلِ الأحْوالِ مِنْ أصحابِ أبيهِ كانَ تُوُفِيَ وبينَ يدَيْهِ حُروفُ الهِجاءِ مُقطَّعَةً موضُوعةً على الأرضِ والنَّاسِ يقترِعُونَ ليَأخُذَ كُلُّ واحِدٍ ما

وقَعَتْ عَلَيْهِ قُرعَتُهُ قالَ فمَدَدْتُ يَدِي إلى حرفِ الهاءِ وأخَذْتُهُ وقُلتُ هذا حَظِّي مِن هذِهِ الحروفِ، قالَ فنظرَ إليَّ شزَراً وحَرَّكَ رأسَهُ تَعباً مِنْ فِعلِي ".

وتقَدَّمَ قولُهُ

" طَرِيقتُنا حَلاجِيَّةٌ "

وقولُهُ في شَيْخِهِ

" طَرِيقُهُ الفَناءُ فِي التَّوحِيدِ ".

وعلى هذا المعنى مَدارُ حالتِهِ ﷺ فلا ترى أفعالَهُ وأقوالَهُ وتَصريحاتُهُ وتلويحاتُهُ وكَمالُهُ وحُسنَ صُنعِهِ وإحسانُهُ، ذلِكَ دَيْدَنُهُ وشِعارُهُ ووطنُهُ وقرارُهُ فطَوى في ذلِكَ مقاماتِ اليَقينِ كُلّها من التُّوبَةِ والزُّهدِ والصَّبرِ والشُّكرِ والخَوْفِ والرَّجاءِ والتَّوكُّلِ والمَحبَّةِ والرِّضى، وحَوى بِهِ صفاتِ العارفينَ بأسرِها من محبَّةِ اللهِ والجمعِ عَلَيْهِ والإستنادِ في كُلِّ شَيءٍ إليهِ والاستسلامِ للأقْدارِ وتركِ التَّأييدِ والإختيارِ وغيرِ ذلِكَ من صفاتِهم وسِماتِهم، مِمَّا أشَرْنا إليهِ آنِفاً فلا تحصُرُهُ في حالِ تُضيفُهُ إليهِ أو تُقيِّدُهُ بمقامٍ تقتصِرُ بِهِ عَلَيْهِ.

وقَدْ أخبرَنِي ﷺ بِمعنى ذلِكَ عَنْ نفسِهِ كَمَا أخبرَني بِهِ أخي الفَقيهُ أبو عبدُ اللهِ مُحمَّد العرَبِي حفظَهُ اللهُ قالَ لي كُنْتُ أنَا وسيِّدِي مُحمَّد الدَّريجُ جالسِينَ يوماً معَ سَيِّدِنا أحمدَ ﷺ بِصقلبيَّةِ الزّاويةِ وكُنَّا نَقرأُ إذ ذاكَ عنوانَ السِّرّ المصُونِ لأبي عبدِ اللهِ الزَّواوي الشَّهيرِ بالفَراوصِيني من أهلِ الطَّريقِ وهُو يسمَعُ، فلمَّا جرى فيهِ وصفُ حالِ المُؤلِّفِ أو ذكرَ قَدَرَ اللهِ ومُـرادَهُ قالَ لنـا

" إنِّي أقولُ لكُمَا حالَتِي ولا أُخفيها عنكُمَا إذا لا تجِدُنِي مُقيماً على شَيءٍ ولا واقِفاً معَ أمرٍ بل بِحُكمِ الوقتِ وبحَسَبِ ما يأتِي بِهِ اللهُ مِنْ عِندِهِ " انتهى.

وهذا بعينِهِ هو حالُ العارِفينَ باللهِ عزَّ وجَلَّ، وسُئِلَ الجُنيدُ عَنِ العارِفِ قالَ

" لونُ الماءِ لونُ إنائِهِ "

قالَ القُشَيْرِي في رسالتِهِ بعدَ أنْ ذكرَهُ عنهُ

" يعنِي أنَّهُ بِحُكْمِ وقتِهِ "

وقالَ فيها أيضاً قالَ أبو يزيدُ

" للخَلْقِ أحْوالٌ ولا حالٌ للعارِفِ لأنَّهُ مُحِيَتْ رُسومُهُ وفَنِيَتْ هَوِيَّتُهُ بِهوِيَّةِ غيرِهِ وعُفِيَتْ آثارُهُ بآثارِ غيرِهِ " انتهى.

وقالَ الشَّيخُ زَرُّوق في قواعـدِهِ بعدَ أنْ ذكَرَ وصفَ العابـدِ والزَّاهـدِ وغيرِهِـما

" فإنْ أرسَلَ نفسَهُ معَ مُرادِ الحَقّ فهُوَ العارِفُ " انتهى.

وقَدْ مثَّلَ أهلُ الطَّريقِ العارفَ بحافظِ القرآنِ كُلِّهِ، وذا الحالِ بحافِظِ سُورةٍ مِنْهُ أو سُوَرٌ، فإذا قُلتَ عارفٌ فقد نسبتَ إليهِ المقاماتِ كُلّها وأغنى عَنْ أنْ تَصِفَهُ بشيءٍ من المقاماتِ مِنَ الزُّهدِ والتَّوكُّلِ والتَّفويضِ وغيرِها لأنَّها مُنطوِيَةٌ فيهِ ومِنَ انجمعِ على مولاهُ ومَلَكَهُ حبُّهُ وهَواهُ حتَّى فَنِيَ فيهِ عَنْ سِواهُ لابُدَّ أنْ يكونَ شاكِراً لنعمائِهِ صابراً لِلأْوائِهِ، راضياً بقَضائِهِ مُفوّضاً إليهِ مُتوكِّلاً عَلَيْهِ مُنقطِعاً عَنْ غيرِهِ، زاهداً فيهِ جامعاً للمَقاماتِ كُلّها بل مُترقّياً عَنْ ذلِكَ كُلِّهِ لا يُشاهدُهُ ولا يَراهُ بعدَ أنْ جَمعَهُ وحَواهُ، فأهلُ العِرفانِ هُمْ الغائبُون في اللهِ عَنْ كُلّ فانٍ، المُشاهدُونَ لجلالِ اللهِ وجَمالِهِ، العالِمُونَ بأوصافِهِ وأسمائِهِ إذْ حقيقةُ المعرفَةِ كَمَا قالَهُ الشَّيخُ زرُّوقُ في بَعضِ شروحِهِ على الحِكَمِ

" سرَيانُ العِلْمِ بجَلالِ الحَقّ سُبحانَهُ أو جمالِهِ أو هُما في كُليَّةِ العبدِ حتَّى لا يبقَى لهُ من نفسِهِ بَقيَّةً فيشهَدُ كُلَّ شَيءٍ مِنْهُ وبِهِ ولَهُ فلا يبقَى لوجُودِ شَيءٍ نِسبةً عِندَهُ دُونَهُ "

ولسَيّدِنا أبي العبَّاسِ وكالشَّيخِ الغزوانِي من هذا ما لا خفاءَ فيهِ على كُلِّ مَنْ يلُوذُ بجَنابِهِ أو يُمارِسُ شيئاً من أحوالِهِ وإشاراتِهِ وكَلامِهِ

ويكفيكَ من أمرِهِ ما وصفناهُ بل هو ﷺ من ذوي الخِلافَةِ المُهيَّئينَ لدلالَةِ الخَلقِ على اللهِ وجَمْعِهم عَلَيْهِ وإيصالِهم إليهِ ومِنْ أربابِ القُلُوبِ وسلاطينَ الأرواحِ، يُطاع أمره ويُجل قدره وينفع كلامه وينفُذ سهامه ويحي القلوب ويُبرئ

من العيوب يغني بنظرة ويوصل إلى الحضرة إذا توجه أغنى وأقنى وبلغ المنى يتصرف في أحوال القلوب بأذن علّام الغيوب حسْبَما يجده من انضاف إليهِ وجُمع عَلَيْهِ وتظهرُ نتائجُهُ وآثارُهُ ومناهجه.

كَمالُهُ ﷺ

وأمَّا كمالُهُ ﷺ فهُو تمامُ معرفتِهِ باللهِ تَعالى حسبَما قرَّرنا دليلَهُ وقُوَّةَ باطنِهِ وظاهرِهِ جذباً وسلُوكاً وجمعَهُ بينَهُما على أتمّ وصفٍ وأكملِ وجهٍ, ودليلُ قُوَّتهِ باطناً ما تقدَّمَ من أحوالهِ، ودليلُها ظاهراً ما يأتي في البابِ بعد هذا من سيرتهِ وأفعالهِ, ولا أكملَ منهُ والحمدُ للهِ في ذلكَ كُلِّهِ كما يوقف على كُلٍّ بمحلِّهِ.

كَمالُ بَصيرتُهُ ﷺ

ومِن كمالِهِ ﷺ كمالُ بصيرتِهِ الرَّبانيَّةِ وفراستِهِ النُّورانيَّةِ التي ظهرَ مُقتضاها في معرفةِ أحوالِ الأصحابِ وفي كُلِّ شيءٍ من إظهارِ مُضمراتٍ وإخبارٍ بمغيباتٍ وعِلمٍ بعواقبِ الحاجاتِ وما يترتَّبُ عليها من المصالحِ والآفاتِ وغيرِ ذلك من الأمورِ الواقعاتِ، فيعرفُ أحوالَ قُلوبِ الأصحابِ وتحوُّلَ حالِهم وإبدالَ أغراضِهم وانتقالَ أعراضِهِم وحالةَ إقبالِهم وإعراضِهم وسائرَ عللِهم وأمراضِهِم، فتجدُهُ يقولُ فلانٌ يقعُ لهُ كذا ووقعَ لهُ كذا ممَّا هُو أمرٌ قلبي, ويخبرُ بإقبالِ قلبِهِ على أحدٍ وإدبارِهِ عن آخرَ.

وما أخبرَ عن أحدٍ أنَّهُ يخاف عليهِ إلَّا لزِمَ الزَّاويةَ وظهرَ عليهِ أثرُ النَّجاحِ, وما أخبرَ بسِوى ذلك إلَّا كان الأمرُ بالعكسِ، ويعرفُ ما هُمْ عليهِ ظاهراً من

فعلٍ حسنٍ أو قبيحٍ وما زادَ وما نقصَ، ويتبيَّنُ لهُ ذلك في وجوهِهم ويرى أثرَهُ على ظاهِرهم حسْبَما يخرجُ عن ذلك في بعضِ الأحيانِ، واتَّفقَتْ لغيرِ واحدٍ معهُ في ذلك غير ما قضيَّةٍ.

وقالَ يوماً لبعضِ الأصحابِ

"كلُّ مَنْ يدخُلُ على بابِ الزَّاويةِ أعرِفُ فِعلَهُ ولا يخفى عليَّ ما يعمَلهُ "

وكثيراً ما يجالسه الإنسان فيتكلم له على ما في باطنهِ، وما شغلَ قلبَهُ من الهوى والأمورِ الدُّنيويَّةِ، ويُعيِّنُ النَّوعَ الذي شغلَهُ منها في كلامهِ، ويتكلَّمُ بما صنعَهُ الإنسانُ من فعلٍ قبيحٍ سلفَ لهُ قبلَ مجالستهِ لهُ قريباً كلُّ ذلك على سبيلِ الإجمالِ وضرْبِ الأمثالِ والأفهامِ لصاحبِهِ من غيرِ تعيينٍ لهُ بتسميةٍ أو إشارةٍ حسيَّةٍ.

كانَ يقولُ

" ما بالُ الإنسانِ يفعلُ كذا، وحقُّ مَنْ يفعلُه أنْ يكونَ لهُ كذا ستراً على فاعلِهِ كما اقتضتْهُ حكمةُ الرَّحمةِ وجاءَتْ بِهِ الشَّريعةُ والسُّنَّةُ، إذ البصيرةُ كما قالَ الشَّيخُ سيِّدي يوسفُ الفاسي كالبصرِ يجبُ غضُّها

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِن أَبْصَارِهِمْ ﴾[1]

وإلَّا فهُو مرآةٌ جليَّةٌ ومُبصِرٌ لحُسنِ أمرِهِ وخسيسهِ "

لا يخفى على بصيرتِهِ ذلك, ولا يُشير عنها شيءٌ ممَّا هناك, حتَّى إنا إذا جالسناهُ كُلُّنا يخافُ على نفسهِ الفضيحةَ، ويطلبُ من اللهِ في نفسهِ السَّلامةَ منها لِما تكرَّرَ علينا من أمرِهِ.

واذا جاءَهُ أحدٌ يستشيرُهُ وخُصوصاً في أمرٍ دينيٍّ أو دُنيويٍّ ضروري كأمرِ المعاشِ مثلاً يُبيِّنُ لهُ مرابحَهُ وأرشدَهُ مصالحَهُ وندبَهُ لِما فيهِ نجاحُ حالهِ وفلاحُ مئالهِ، فينجحُ مطلوبُهُ ويجهلُ مرغوبَهُ ويتبيَّنُ لهُ حسنَ العافيةِ وما كانَ راجيهِ

[1] . النور 30

ومراقبهُ، فتقعُ بصيرتهُ على الأمورِ كما هي لأنَّها ناشئةٌ عمَّا كمُلَ فيهِ من النُّورِ الإلهي.

ومنَ المعلومِ منهُ في الاستشارةِ أنَّ المُعتبرَ عندَهُ الذي عليهِ المُعوَّلُ هو ما نطقَ بهِ من الكلامِ الأوَّلِ، وبذلك أيضاً صرَّحَ غيرَ ما مرَّةٍ إذ عِلمُ هؤلاء القومِ رضيَ اللهُ عنهم ليس عن رؤيةٍ ولا فكرةٍ وإنَّما هو العلمُ اللَّدُني والفتحُ الرَّباني، فما حصلَ أوَّلاً فهو ذاك، ولا يحصلُ إلَّا عينُ الحكمةِ والصَّوابِ، فإنْ التقطَهُ المستشيرُ عثر على حكمةِ الاستشارةِ انقلبَ بغنيمةٍ وتجارةٍ، وإنْ لم يأخذْ بهِ وراجعَهُ في الكلامِ فإنَّهُ يُجاريهِ فيهِ حتَّى ينصرفَ، فإنْ عملَ بمقتضى الكلامِ الآخرِ كانَ بمعزلٍ عن إصابةِ الصَّوابِ ومُضيّعاً للفائدةِ المقصودةِ في الخطابِ ولم ينجحْ عملُهُ ولا حصلَ أملُهُ، وقد لا يتيسَّرُ لهُ ذلك العملُ أصلاً فيرجِعُ لمُقتضى الإشارةِ في الكلامِ الأوَّلِ ويعلَمُ أنَّ حكمةَ اللهِ فيهِ، ويتبيَّنَ لهُ الأمرُ تبياناً ويقفُ عليهِ عياناً.

وممَّا هو دالٌّ على تمامِ بصيرتِهِ وقُوَّةِ نورِهِ وكمالِ معرفتِهِ إخبارِهِ عن أحوالِ الأولياءِ الماضين من الأكابرِ وغيرِهِم، فقد أخبرَ ﷺ عن حالِ غيرِ واحدٍ منهم ووصفَهُم بما يُشيرُ إلى مقاماتِهم ورُتبِهم عندَ زيارتِهِ لهم ووقوفِهِ على ضريحِهم وأحياناً عند ذكرِهِم، فمِن ذلك إخبارُهُ عن خُصوصيَّةِ مولانا إدريسَ الأصغر وعظيمِ هيبتِهِ وجلالتِهِ وأنَّهُ متى مرَّ بروضةِ ضريحِهِ بالجنبِ الذي يليهِ كأنَّهُ ساقطٌ منهُ، وإذا رجعَ أحسَّ بالجنبِ الآخَرِ الذي يليهِ كذلك، وما مرَّ بهِ إلَّا زارَهُ وتضرَّعَ لهُ .

ومن ذلك إخبارُهُ عن أمورِ الشَّيخِ القطبِ سيّدي عبدِ السَّلام بنِ مشيشٍ الحَسني ﷺ وما اتَّفقَ لهُ من الوقائعِ في زياراتِهِ وشاهدَ من بركاتِهِ وآياتِهِ ووصفِهِ لهُ بأنَّهُ يحصلُ منهُ المددُ للوافدينَ عليهِ واستعظامِهِ لمقامهِ جداً بحيثُ لا يقدِّمُ عليهِ في الفضلِ أحداً من مشايخِ المغربِ.

ووفدَ عليهِ مرَّةً في جماعةٍ من الأصحابِ، فلمَّا وصلوا ضريحَهُ نهاراً وزاروا قالَ لهم وكانَ من عادتِهِ المقامُ عندَهُ

" لا نقيمُ هُنا فإنَّ الشَّيخَ في حضرةِ الحقِّ فلا تُشوشوهُ "

فصاروا من فورِهِم وصدمتْهُم هيبةٌ عظيمةٌ حتَّى لا يستطيعَ أحدٌ منهُم أنْ ينطقَ بكلمةٍ وبقَوا سائرينَ كذلك نحو نصفِ اللَّيلِ.

ووقعتْ لهُ معهُ وقائعُ أخرى أخبرَ بها عن نفسهِ يطولُ ذكرُها، ومن ذلك أنَّهُ كانَ يوماً بمنزلِ حاجبِ من بلادِ لمطةَ فذهبَ وزارَ وليَّاً هنالِك قبرُهُ تحتَ شجرةٍ تسمَّى عندَ النَّاس " البطمة " على ربوةٍ مُشرفةٍ على غابةِ القرويينَ، فلمَّا رجعَ من عندِهِ قالَ لبعضِ الأصحابِ كانَ معهُ

" إنَّ هذا الرَّجلَ جذبني لزيارتِهِ "

ثُمَّ قالَ

" سبحانَ الله حالتُهُ تشبهُ حالةَ سيِّدي عبدِ السَّلامِ نفعنا اللهُ بهِ "

والسَّيِّدُ المذكورُ اسمُهُ سيِّدي عبدُ اللهِ كما قالَهُ بعضُ المُسنِّينَ من اللمطيينَ مِمَّن كانَ قاطناً بذلك المنزلِ.

وذهبَ مرَّةً بضريحِ الشَّيخِ أبي عبدِ اللهِ مُحمَّد بنِ عبدِ اللهِ أمغار دفينٌ خارجَ بابِ الفتوحِ من أصحابِ سيِّدي أحمدَ يوسفَ المِلياني فقال

" إنَّهُ رجلٌ قويٌّ "

وسألَ عن إسمهِ إذ لم يكن يعرفُهُ.

وذهبنا معهُ سنةَ سبعٍ بتقديمِ السِّينِ وثمانينَ لزيارةِ الشَّيخِ أبي يعزى نفعنا اللهُ بهِ وهي أوَّلُ زياراتهِ لهُ فلمَّا أشرفَ على مدشرِهِ[1] من الموضعِ الذي يُشرفُ منهُ عليهِ هنالك وقفَ ينظرُ ملياً واستعظمَ أمرَ الشَّيخِ ثُمَّ قالَ

" سبحانَ اللهِ ما أقواك يا رجلُ إنَّ الرَّكائبَ لا تُشدُّ لأحدٍ بالهيناتِ "

[1] . المدشر/ ضاحية أو ربض خارج المدينة. معجم المعاني.

يعني لا تُشدُّ بسببِ الأمورِ اليسيرةِ إنَّما تُشدُّ لأمرٍ عظيمٍ، ومن شأنِ هذا الشَّيخُ أنَّ النَّاسَ يقصدونَهُ للزِّيارةِ من كلِّ ناحيةٍ ويشدُّونَ إليهِ الرَّكائبَ من أقصى البلادِ في كُلِّ سنةٍ كما هو شأنُ سيِّدي عبدِ السَّلامِ بنِ مشيشٍ وسيِّدي أبي سِلهامٍ وسيِّدي أبي العبَّاسِ السَّبتي بمراكشَ وغيرِهِم من المزاراتِ الشَّهيرةِ بالمغربِ، ولا أشهرَ من هؤلاءِ الأربعِ ﷺ ونفعنا بهم.

وأثنى على سيِّدي أبي علي دفينُ أرضِ مزدعةَ قربَ " صفروا "[1] وزارَهُ مراراً وقالَ

" انتفعتُ بهِ في مسألَةٍ دينيَّةٍ أطلقتْ عليَّ "

وقالَ في سيِّدي أبي شِتاءٍ نفعنا اللهُ بـهِ

" ما رأيتُ في البهاليلِ بالمغربِ أقوى منهُ "

وأخبرَ عنهُ غيرَ ما مرَّةٍ أنَّهُ لا يحبُّ مَنْ يجاوزهُ دونَ زيارةٍ لهُ إذا كانَ مارَّاً من طريقهِ.

ووقعتْ لهُ معهُ عندَ مرورِهِ على طريقهِ زائراً لسيِّدي عبدِ السَّلامِ نفعنا اللّهُ بهِ حكاياتٌ وآياتٌ مُضمَّنها تعذُّرُ المسيرِ عليهِم حتَّى يرجعوا لمدشرِهِ ويحتاجونَ إليهِ فكانَ بعد ذلك لا يمرُّ بهِ إلَّا زارَهُ.

وأخبرَ عن سيِّدي يوسفَ التَّليدي دفين بني تليدٍ

" أنَّهُ قويٌّ، وقد زارَهُ غيرَ ما مرَّةٍ ووقعَ لهُ من العجائبِ ما وقعَ ".

وقالَ في سيِّدي عبدِ اللهِ الخيَّاطِ دفين الدَّوحِ من فاسٍ على ضفَّةِ الوادي هنالك

" أنَّهُ رجلٌ جماليٌّ، واستعظمَ أمرَهُ في ذلك جدَّاً وقالَ سبحان اللهِ ما أكثَرَ جمالَكَ يا رجل ".

وأخبرَ عن الشَّيخِ سيِّدي عبدِ الرَّحمنِ بنِ مُحمَّد الفاسي شيخُ شيخهِ

---

[1] . مدينة بالمغرب شمال فاس تبعدعنها واحدٌ وعشرون كيلو متر على جبال الأطلس.

" **أنَّهُ قويٌّ وأنَّهُ رجلٌ جمالي، وقالَ إنِّي إذا جلستُ أمامَهُ لا أحبُّ أنْ أقومَ مِن عندِهِ**".

وسألَهُ يوماً بعضُ النَّاسُ عن حالِ أخيه وشيخهِ سيِّدي يوسفَ الفاسي نفعنا اللهُ بهِ فقالَ لهُ

" **إنَّ سيِّدي يوسف عندَهُ ذاكَ الشَّيءُ الكبيرُ** "

وأخبرَ عن والدِهِ هو بأنَّهُ إذا زارَهُ يغيبُ عن حسِّهِ ثُمَّ يرجعُ بالقربِ، وتقدَّمَ ما قالَهُ في جدِّهِ لأُمِّهِ سيِّدي شقرون الفخَّارِ.

وقالَ في الشَّيخِ سيِّدي أحمدَ الشَّاوي دفين الجوفِ من فاسٍ أنَّهُ

" **وليُّ اللهِ حقَّاً** ".

وأخبرَ عن سيِّدي عبدِ المالكِ الغمري بالمعجمة دفين بلادِ غمرةَ أنَّهُ

" **من أهلِ الخشيةِ الكثيرةِ والخُشوعِ** "

وقد زارَهُ بعدَ ذلك في سنةِ خمسةٍ وتسعينَ واستعظمَ أمرَهُ في ذلك وقالَ فيه

" **إنَّ معهُ الكشفَ** "

وقالَ في سيِّدي سعيدِ الرَّاعي دفين بلادِ الحيَّانيَّةِ عندما ذكرَهُ ولم يكنْ زارَهُ أنَّهُ

"**كنزٌ من كنوزِ اللهِ في الأرضِ** "

وشهدَ لسيِّدي عبدِ الرَّحمنِ الشَّريفِ اللجائي دفين الجايةِ بالخصوصيَّةِ وأثنى عليهِ مراراً وأحبَّ أن يزورَهُ ولم يتَّفقْ لهُ زيارتهُ إلى غيرِ واحدٍ ممَّنْ عدى هؤلاءِ ممَّنْ يعلمُ حالَهُ ببصيرتِهِ وما منحَهُ اللهُ من الأذواقِ الخاصَّةِ والتَّميُّزِ الخاصِّ ممَّا لا يعلمُ كيفيَّتَهُ على الحقيقةِ إلَّا مَنْ سلكَهُ.

وذكرَ للشِّيخِ سيِّدي عبدِ الرَّحمنِ بنِ مُحمَّد الفاسي ﷺ أحدُ مشاهيرِ الصَّالحينَ الأمواتِ وهو ابنُ العربي المعافري بالخصوصيَّةِ فنفاها عنهُ وقالَ

" نحنُ أعطانا اللهُ إدراكَ الشَّمِّ نشُمُّ بهِ روائحَهُم "

فذكرَ ذلك يوماً عندَ سيِّدِنا أحمدَ ﷺ فقالَ

" إنَّما قالَ هذا تقريباً على المخاطبِ وعلى قدرِ فهمهِ وإلَّا فهو يعرفُهم بشيءٍ آخَرَ"

مَعرفتُهُ ﷺ لإسم الله الأعظم

ومن كمالِهِ ﷺ وعرفانِهِ الأتمِّ معرفتِهِ لإسمِ اللهِ العظيمِ الأعظمِ حسبَما أخبرَ بذلِكَ عن نفسهِ، وقضيَّةُ معرفتِهِ إيَّاهُ أنَّهُ كانَ يوماً جالساً مع الشَّيخِ الفقيهِ العارفِ الكاملِ أبي العبَّاس سيّدي أحمدَ بنِ مُحمَّد اليمني رضيَ اللهُ عنهُما فقال لهُ الشَّيخُ أبو العبَّاسِ اليمني

" أقولُ لكَ اسمَ اللهِ الأعظمِ ".

فقال لهُ احتقاراً لنفسهِ

" لا إنِّي لا أستحقُّ ذلكَ ".

فمكثَ بعدَها مدَّةً ثُمَّ قالَ لهُ مثلَ ذلكَ فقالَ لهُ أيضاً لا.

فسكتَ ولم يخبرْهُ بهِ فقال لهُ سيِّدُنا أحمدُ إثرَ ذلكَ وقد علاهُ حالٌ

" هو كذا وكذا "

فتعجَّبَ سيِّدي أحمدُ اليمني وقالَ لهُ

" هو ذاك، من أينَ عرفتَهُ "؟

وأخبرَ بعدَ ذلكَ سيِّدُنا أحمدُ أنَّهُ عندما نطقَ بلا مُجيباً لسيّدي أحمدَ اليمني أشرقَ فيهِ الإسمُ الأعظمُ ومُدَّ بحالِ معرفتِهِ وسيأتي كلامُهُ ﷺ فيهِ في بابِ الكلامِ.

خِلافتُهُ ﷺ وتَصريفُهُ

ومِن كمالِهِ ﷺ وكمالِ منصبِهِ الشَّريفِ ما أوتيهِ من مقامِ الخلافةِ وخطَّةِ التَّصريفِ ووليّهِ من النِّيابةِ والتَّحكيمِ والأمرِ النَّافذِ العميمِ من جلبٍ ودفعٍ, وضرّ ونفعٍ, ونقضٍ وتوفيةٍ, وعزلٍ وتوليةٍ، فهو يجلبُ بقوَّتهِ ويدفعُ ويضعُ بهمتِّهِ ويرفعُ ويرقّي بأذنِ اللهِ ويُنزّلُ ويولّي بأمرِهِ سبحانَهُ، ويعزلُ على حسبِ ما صرَّفهُ فيهِ مولاهُ ومكَّنهُ منهُ وأولاهُ, فحكمُهُ نافذٌ عن اللهِ وأمرُهُ بأمرِ اللهِ من غيرِ حولٍ منهُ ولا اختيارٍ وإنَّما بقدرةِ العزيزِ الجبارِ, ومن المعلومِ من أمرهِ أنَّهُ إذا ذَكرَ أحداً إلَّا يأتي الزَّاويةَ وأكثرَ السُّؤالَ عنهُ أتاها ولازمَها لا محالةَ كما وقعَ ذلك لنا ولغيرِنا.

أخبرَنا غيرَ واحدٍ من الأصحابِ أنَّ سيِّدَنا أحمدَ كانَ قبل أن نلازمَ زاويتَهُ يذكّرُنا ويتكَلَّمُ على شأنِنا ويسألُ عنَّا أحياناً، وربَّما قالَ

" إنِّي أُريدُ أنْ ألْقى أولئكَ الشُّرفاءَ وأقولُ لهُم يتزوَّجونَ "

وكانَ لنا إذ ذاكَ عزبةٌ وما كُنَّا قط نعرفُهُ ولا يخطرُ ببالِنا المجيءُ إليهِ.

ثُمَّ إنَّ اللهُ تَعالى ألقى في قلوبِنا أنْ نستشيرَهُ في أمرِ التَّزويجِ وجعلَ اللهُ لنا في ذلكَ سببَ لقائِهِ فجعلَنا نتردَّدُ إليهِ في ذلكَ الأمرِ، وكلَّما أتيناهُ رأينا من آياتهِ عجباً وسمعنا من كلامهِ ومعارفهِ ما يسحرُ الألبابَ ويملأُ القلوبَ طرباً، فكانت لنا في الظَّاهرِ معارفُهُ سبباً لمعرفتهِ واستشارَتُنا إيَّاهُ سبباً للُقياهُ وفي الباطنِ نظرتُهُ السَّابقةُ وهمَّتُهُ المدركةُ اللَّاحقةُ والحمدُ للهِ على نعمتهِ بسابقِ منَّتهِ.

وسألني يوماً عن بعضِ الشُّرفاءِ الطَّاهرينَ وعمَّا هو مشتغلٌ بهِ سؤالاً أكيداً وما كانَ قطُّ رآهُ، فعلمتُ أنَّهُ يأتي لا محالةَ فلم تمضِ إلَّا أيامٌ قلائلَ وإذا بالشَّريفِ قد أتى الزَّاويةَ سائلاً عن سيِّدِنا أحمدَ في لوعةٍ وشوقٍ عظيمٍ، فعندما رآه أكبَّ على رجليهِ يقبِّلهُما وهو يبكي، ففرَّ سيِّدُنا أحمدُ من فعلهِ ذلكَ بمرَّةٍ إذ

هو مُعظِّمٌ للشُّرفاءِ جداً، وجعلَ يلومُهُ على ذلكَ ثُمَّ لاطَفَهُ وحنَّ عليهِ وتكلَّمَ معهُ حتَّى هدأ وشفا مرامَهُ وبلَّ أواهَهُ[1] وانصرفَ.

فلم يَزل بعد ذلكَ يتردَّدُ لزيارتهِ ويبيتُ بالزَّاويةِ بقصدِ ذلكَ ويطيرُ شغفاً عندَ سماعِ ذكرهِ، وقالَ فيهِ قصيدتَيْنِ يمدحُهُ بهِما ولم يكن ممَّن يعرفُ الشِّعرَ قبل ذلكَ، ولقد أخبرني هذا الشَّريفُ وكانَ فقيهاً ثقةً مرضياً، أنَّهُ شمَّ من سيِّدِنا أحمدَ رائحةً تفوقُ روائحَ الطِّيبِ لا توصفُ ولا تمثَّلُ، وما زالَ في صحبتهِ واللَّهجِ بهِ إلى أن تُوفيَ عامَ أوَّلَ سنةِ إحدى وتسعينَ، وكَمْ واحدٍ وقعَ لهُ ذلكَ في أوَّلِ مجيئهِ مثلُ ذلكَ وكَمْ وقعَ عكسُهُ نسألُ اللهَ السَّلامةَ.

وكثرَ النَّاسُ مرَّةً في الزَّاويةِ حتَّى كادَ يُصلِّي بعضُهم على بعضٍ، فأتى سيِّدَنا أحمدَ رجلانِ وأحدُهُما ذو مالٍ فأعلماهُ بذلك وقالا لهُ

" يا سيِّدي أردنا أنْ نصنعَ بالزَّاويةِ سريراً من الخشبِ مرتفعاً يتَّسعُ النَّاس فيهِ"

فقال لهما سيِّدُنا أحمدُ

" ألا تسكُتانِ وتذهبانِ، يزأرُ السَّبعُ وتريانِ هل يبقى أحدٌ "؟

فانصرفَ الرُّجلانِ فزعَيْنِ من مقالتهِ تلكَ، فما مضتْ أيَّامٌ حتَّى قلَّ النَّاسُ بالزَّاويةِ وذهبوا ولم يبقَ بها إلَّا أهلُها وظهَرَ مقتضى قولهِ وأثرَ فعلهِ إلى غيرِ ذلكَ من القضايا.

ومن العادةِ الجاريةِ بالزَّاويةِ أنَّ النَّاسَ يكثرون بها حتَّى تمتليءَ امتلاءً كثيراً فلا يوجدُ موضعٌ فارغٌ للصَّلاةِ ثُمَّ ينقصون شيئاً فشيئاً حتَّى لا يبقى بها إلَّا أهلُها الملازمون لها، فكُنَّا نتعجب من ذلكَ فسألَ يوماً بعضُ حذَّاقِ أصحابِنا سيِّدَنا أحمدَ ﷺ عن سببِ ذلكَ قائلاً لهُ مشيراً إلى ذلكَ يا سيِّدي هل يجمعُ المخصوصُ يعني بهمَّتهِ أصحابَهُ وغيرَهُم؟

---

[1]. آه يؤوهُ/ اسم فعل بمعنى شكا وتوجع. معجم المعاني

فقال لهُ

" نعم يكونُ ذلكَ لأنَّهُ إذا كانَ في حالِ فيضان وزيادةٍ وسكرٍ يلتمسُ من يمدُّ من الأصحابِ وغيرِهِم ليستريحَ، ثُمَّ إذا أفاقَ بعد ذلكَ واعتدلَ الحالُ، أمسكَ أصحابُهُ وأرسلَ الباقينَ "

يعني يُمسكُ مددَهُ عن غيرِ أصحابهِ فيذهبونَ عنهُ ويتفرَّقونَ وقد صرَّحَ بهذا لبعضِ النَّاسِ فقال

"كلُّ مَنْ أحبُّ أنْ يأتيَ الزَّاويةَ أتاها ومَنْ لا أحبُّ أنْ يأتيَ لم يأتِ أصلاً ".

وممَّا استمرَّ من تصريفهِ وانتشرَ وبرزَ للعيانِ وظهرَ حتَّى علمَ بهِ الحاضرونَ والبادونَ[1] والأقربونَ والأبعدونَ تصريفَهُ في أمراءِ الزَّمان وولاةِ الأوانِ, وليَ على يدهِ غيباً بأذنِ اللهِ تَعالى غيرُ واحدٍ منهم كسُلطانِ الوقتِ مولاي إسماعيلَ بنِ الشَّريفِ الحسني أيدَّهُ اللهُ وغيرُ واحدٍ من قوَّادهِ حسبَما تشهدُ لذلكَ قضايا واقعةٌ لهُ فيهِ ويشيرُ إليهِ كلامُهُ في بعضِ الأحيانِ أيضاً.

وقد صرَّحَ زمنَ محاصرةِ السُّلطان مولاي إسماعيلَ سدَّدهُ اللهُ لأهلِ فاسٍ حيثُ ثارُوا عليهِ بأنَّهُ أعطى المفتاحَ مفتاحَ فاسٍ فوجدَ أسنانَهُ مُعوجَّةً فقوَّموها وفتحَ البابَ للسُّلطانِ ثُمَّ قالَ

" **مَنْ قالَ أنَّهُ رجلٌ فليسدَّها** "

يعني بيدهِ أمرٌ من التَّصريفِ صرَّحَ بذلك قبلَ زمنِ وقوعِ الصُّلح بينَ أهلِ فاسٍ والسُّلطانِ المذكورِ وقالَ لصاحبِنا أي الرَّبيعُ الكاتبُ سليمانُ بعد مُضيِّ زمنِ الصُّلحِ عندما أرادَ السُّلطانُ إضرارَ عامَّةِ فاسٍ قلْ لهُ

" أما كنتَ تضرَّعُ إلى اللهِ وأنت في خبائِك وحدَك تبكي وتعاهدُ اللهَ إنْ ردَّ عليكَ ملككَ أنْ لا تضرَّ أحداً؟ ولم يوافِقْ أحدٌ يعني من أهلِ اللهِ عليهِ حتَّى جاءَ الرَّجل يريدُ نفسَهُ وقالَ لهُم أنا أضمنُهُ يعني في شأنِ أهلِ فاسٍ ".

---

[1] . الحاضرون هنا أهل الحضر، والبادون أهلُ البادية وهم البدو.

ثُمَّ قالَ للكاتبِ المذكورِ

" وإلى الآنَ إذا دارَ ندورُ "

وكانَ بعضُ البهاليلِ بجامعِ الأبَّارينَ يقولُ

" لم يبقَ مع هذا السُّلطانِ أحدٌ إلَّا ابنَ عبَّادٍ فإنَّ يدَهُ عليهِ ".

فكانَ سيِّدُنا أحمدَ إذا ذُكرَ ذلكَ يضحكُ منهُ ويقولُ

" أنَّهُ خُلطَ عليهِ "

ويشيرُ إلى أنَّ المرادَ بذلكَ ابنُ عبدِ اللهِ يريدُ نفسَهُ كما بيَّنهُ مرَّةً لبعضِ أصحابِنا إذ سألَهُ عن ذلكَ وأنا حاضرٌ، وقد شاعَ وذاعَ وملأَ الأفواهَ والأسماعَ واشتهرَ على ألسنةِ القومِ ممَّن يُنسبُ للكشفِ وغيرِهم حتَّى العوامِ أنَّ سيِّدي أحمدَ بنَ عبدِ اللهِ هو الذي يدُهُ على هذا السُّلطانِ بحيثُ لا يقدرُ أنْ يخلُصَ إليهِ أحدٌ من أهلِ الزَّمانِ حتَّى تجدَ بعضَ أهلِ الرئاسةِ والحسدِ يتمنَّى زوالَ يدهِ عنهُ ليفسدَ ملكُهُ فيمَنْ فسدَ وما كانَ سيِّدُنا أحمدُ يتجاوزُ أمرَ اللهِ فيهِ أو يحيدُ عنهُ ثمناً فيهِ لأجلِ ما لهُم من المُنا فيهِ

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾[1]

ولقيَهُ ﷺ يوماً بعضُ ولاةِ أمرِ الرُّماةِ من السُّلطانِ مولاي الرَّشيدِ رحمهُ اللهُ في الطَّريقِ خارجَ المدينةِ راكباً فنزلَ عن فرسهِ وحلفَ لسيِّدِنا أحمدَ ليركبَنْ عليهِ، فلم يفعلْ لكونهِ لا يركبُهُ، ثُمَّ أخذَ هو بركابِ الفرسِ وعزمَ على ذلكَ الفارسِ ليركبَ فطاوعَهُ وركبَ فرسَهُ، فكانَ من أمرِهِ أنْ خرجَ قريباً مع محلَّةِ السُّلطانِ قائداً على الجيشِ والياً عليهِ حظيَّاً عندَ السُّلطانِ، ثُمَّ وُلِّيَ بعد ذلكَ الحكومةَ على مدينةٍ عظيمةٍ خليفةً عليها يُجبى إليهِ ما فيها وما حولَها من الجباياتِ والأموالِ، فكانَ يرى في نفسهِ ويفهمُ أنَّ في ركوبِ الفرسِ الذي تقدَّمَ لهُ على يدِ سيِّدِنا أحمدَ ﷺ إشارةً إلى ذلكَ وأنَّهُ بسببهِ ولِيَ ما وليَهُ، إلى غيرِ ذلكَ ممَّا هو

---

1 . القصص (68).

واقعٌ من الحكاياتِ والوقائعِ, وكذلك عُزلَ غيرَ واحدٍ من أهلِ الإمارةِ على يدهِ غيباً كالحاكمِ التِّلمساني وغيرِهِ، وسيأتي في بابِ الكراماتِ إنْ شاءَ اللهُ شيءٌ من هذا.

وقد وصفهُ صاحبُنا ومفيدُنا الفقيهُ العالمُ المباركُ الصُّوفي أبو عبدِ اللهِ سيِّدي مُحمَّد المهدي بنُ أحمدَ الفاسي أدامَ اللهُ حفظَهُ بالخلافةِ التَّصريفيَّةِ وكونه مَظهرَ الأمرِ الإلهي وغير ذلكَ ممَّا يشيرُ إلى وصفِ حالهِ ومقامهِ في قصيدةٍ لهُ رائيةٍ من عروضِ الطَّويلِ أحببتُ إيرادَها لإختصارِها وحسنِها، وكانَ سببُ نظمهِ لها ما قيل في مدحِ سيِّدِنا أحمدَ ﷺ من القصائدِ قبلَها كما يشيرُ إليهِ مطلعُها وهي

لقد مدَّتِ المدَّاحُ أعناقَها إلى ... مديحِ إمامٍ فائضِ النُّورِ والسرِ
فقالَ لسانُ الحالِ كيفَ بدا وقــد ... غدا قلبُهُ مرسى بهِ مظهرُ الأمرِ
ولم يبقَ فيهِ غيرُ ذكرِ إلههِ ... وصارَ لهُ بيّناً تقدَّسَ عن غيـرِ
وأفنى في التَّوحيدِ ذاتاً وغابَ في ... بحارٍ من التَّحقيقِ في لجِّها يسري
ومدَّ بسرٍّ من بقاءٍ وألقيتَ ... عليهِ حُلا التَّقريبِ والوصلِ والبِـــرِّ
وقيلَ لهُ أنت الخليفةُ فارعَينَ ... وأمرُكَ أمرٌ ما حكمتَ فهو يجـري
وعمَّتهُ أنوارُ النُّبوَّةِ فأغتـرا ... بها وارثاً كُلَّ الكمالِ بلا حصـرِ
وزكتهُ أخلاقاً وفاضَ سابغـاً ... من السِّرِّ والعرفانِ والفضلِ بالخيرِ
وأبدتْ عليهِ مُسحةً من جمالِهـــا ... وكانَ لديها طيِّبَ الذِّكرِ والنَّشرِ
وصارَ مُهاباً في الصَّدرِ معظَّماً ... يزجُّ الذي يغشاهُ في الجدِّ والذِّكــرِ
وتفصيلُ أوصافٍ لهُ متعـذِّرٌ ... فكيفَ يُطاقُ مدحُهُ فاقبلَنْ عـذري
وهذا كلامٌ من طفيليٍّ ملفـــقٌ ... يُجاري جياداً بالبُطنِ من الحُمـــرِ
عليهِ رضى الرَّحمنِ ماحنَّ عاشقٌ ... لرؤيا سناهُ في محاسنهِ الغُـــرِّ
ومعشرهُ والصَّحبُ طرّاً بأسرهِم ... شبابٌ وشيخٌ في حياةٍ وفي قبـــرِ

ووصفُ مقامهِ ﷺ وكمالهِ وكذا وصفُ مواجدهِ وأحوالهِ لا يعلمهُ على الحقيقةِ إلَّا العليمُ الخبيرُ أو مَنْ أطلعَهُ اللّهُ عليهِ من أهلِ البصيرةِ والتَّبصيرِ، ثُمَّ هو لا يمكنُ التَّعبيرُ عنه على ما هو عليهِ وإنَّما يعبَّرُ عنهُ بنتائجهِ التي تُنبيءُ عنه وتشيرُ إليهِ، وقد ذكرنا من ذلكَ قضايا وجزيئاتٍ هي في الدَّلالةِ على ذلكَ كُلّهِ جليَّاتٍ.

وقد صرَّحَ مُوآخيهِ في اللهِ ومُعاشرهُ على اللهِ الشَّيخُ الفقيهُ العارفُ الرَّاسخُ ذو البصيرةِ المُنيرةِ والمعارفِ العزيزةِ أبو العبَّاسِ سيّدي أحمدُ اليمني رزقَنا اللّهُ بركاتِه بأنَّهُ أعظمُ من شيخهِ ووالدهِ قد فاقهُما وزادَ عَليهِما وناهيك بهِ من مثلِ هذا العارفِ شهادةً، وبهذا الوصفِ العظيمِ والقدرِ الجسيمِ كرامةً وسعادةً إذ شيخهُ وهو سيّدي قاسمٌ رحمَهُ اللّهُ من أهلِ الشُّهودِ الدَّائمِ والإستغراقِ السَّامي في المعارفِ والأذواقِ كما سيأتي التَّعريفُ بهِ في بابهِ المُبينِ عن عليِّ نصابهِ، ووالدُه وهو سيّدي مُحمَّد رحمَهُ اللّهُ تقدَّمَ عندَ التَّعريفِ بهِ ما شهدَ لهُ بهِ أهلُ البصيرةِ من أنَّهُ لا يجدُ أحداً في زمانهِ نظيرَهُ، وما أخبرَ هو عن نفسهِ عندَ مجالستهِ من مقاومتِه ابنُ عبَّادٍ في المعارفِ ومجاوزتِه، وإذا كانَ سيِّدُنا أحمدُ ﷺ يزيدُ عليهِما بعد أنْ ورثَ ما ورثَ لديهِما، فهذا هو البحرُ الخضِمُ الواسعُ الأعظمُ الذي ليس لهُ ساحلٌ وتقصُرُ الخُطى عنه بمراحلَ، والمقامُ الذي لا يترجَمُ عنهُ ولا يستوفي أدنى وصفٍ منهُ

﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾[1]

وأفضلُ المُنعمينَ والرَّازقينَ، فاملأ السَّمعَ من محاسنهِ واخبارِه وأمتعِ القلبَ من أسرارِهِ وأنوارِه وإنْ لم تستوفِ شيئاً منها بمزيدِ القولِ وإكثارِهِ ولا بلغتَ تُسعَ مددِه ومعاشرِهِ واللّهُ تعالى يرزقُنا بركتَهُ وينيلُنا محبَّتهِ ويجعلُنا في الدَّارينِ من حزبِهِ ورفيقهِ ومن الشَّاربينَ من منهلِ عرفانِه وتحقيقهِ، فإنَّ لم نكنْ أهلاً لذلكَ

[1] . المؤمنون (14)

وكُنَّا أبعدَ النَّاسِ عن تلك المسالكِ، فالرَّحيمُ الودودُ أهلٌ لأنْ يرحمَ ويجودَ فهو الذي يفتحُ للمرتجي باباً مرتجا، ويرحمُ ذوي الفاقاتِ بتوالي الإرفاقاتِ، ويُعطي بغيرِ حسابٍ ولا سببٍ من العبدِ ولا اكتسابٍ، ويجيبُ مَنْ دعاهُ وإنْ صرفَتْهُ عن الطَّاعةِ نفسهُ وهواهُ لا إله إلَّا هو ولا راحمَ سواهُ.

البابُ الرَّابعُ في سيرَتهِ السَّنيَّةِ وجُمَلٍ مِن أخلاقهِ المُحمَّديَّةِ

قد أكملَ اللهُ الشَّريعةَ لسيِّدِنا أبي العبَّاسِ أحمدَ ﷺ كما أكملَ اللهُ فيهِ الحقيقةَ وسلكَ بهِ بينَ صراطِهِما المستقيمِ أحسنَ طريقةٍ، فشربَ منهُما لبناً خالصاً سائغاً، وورثَ منهُما مقاماً كاملاً بالغاً وتمكَّنَ من الحالينِ، ورقى درجةَ كُلٍّ من الكمالينِ جارياً على مقتضى الأمرينِ وسائراً على منهاجِهما الأعدلينِ، متكافيءَ الطَّرفينِ ومعتدلَ الوصفينِ، جبلاً بين سهلينِ وبرزخاً بين بحرينِ، لا يذهبُ بحرهُ ببرِّهِ ولا يبعدُهُ بَرُّهِ عن بحرهِ تقويةً من اللهِ لهُ وتمكيناً وتأييداً لهُ وتحصيناً، وقد مكَّنهُ اللّهُ من الإتِّباعِ غايةَ التَّمكينِ وأنزلَهُ منهُ بالمنزلِ المكينِ، فهو في موافقةِ الشَّريعةِ ومُتابعةِ السُّنَّةِ آيةٌ قد وصلَ في التَّحافظِ[1] عليهما الغايةَ، وقَّافٌ على حدودِ اللهِ، حافظٌ لمعهودِ اللهِ واقفٌ على أوامرِهِ ونواهيهِ، لا أحدَ في ذلكَ يقاربهُ أو يضاهيهِ، قد حكَّمَ السُّنَّةَ في نفسهِ وعيالهِ، وجعلَها شعارَهُ[2] في جميعِ أفعالهِ وأحوالهِ، واتقنَ رعايةَ رعيَّتِهِ في دارهِ على ما كانتا عليهِ زمنَ أبيه من حفظِ أمرِ الدِّينِ وشعارهِ، فازدادتْ كمالاً على كمالٍ وجمالاً على جمالٍ, حتَّى طارتْ بها كلَّ مطارٍ الأمثال وأعوزَ سيرَها الرِّجالُ، وتخلَّقَ بالأخلاقِ الشَّرعيَّةِ وجميعِ آدابِها

1 . هكذا في المخطوطةِ والصواب في (المحافظة) عليهما.

2 . الشِّعارُ، العلامةُ في الحربِ وغيرِها، وشعائر الحج مناسكُهُ وعلاماتهُ وأعمالهُ، وكلُّ ما جُعلَ علماً لطاعة الله.

المرعيَّةِ، فكانَ خُلقهُ القرآنُ وكلُّ ما أمرَ بهِ الرَّحمنُ، يرضى برضاهُ ويسخطُ بسخطهِ في كُلِّ أمورهِ، ويأمرُ بأمرهِ ويحذرُ بتحذيرهِ، فحسنتْ لديهِ السِّيرُ والشَّمائلُ، وعذُبتْ فيهِ الشِّيمُ والفضائلُ، وطابقَ ظاهرُ سيرتهِ وفعالهِ باطنَ خُلقهِ وخلالهِ، وتحقَّقَ بالإرثِ من رسولِ اللهِ والتحقَ بالسَّابقينَ من أهلِ حزبِ اللهِ.

سيرتُه ﷺ

فأمَّا سيرتهُ فتجدهُ ﷺ شديدَ الحزمِ في الدِّينِ عليَّ الهمَّةِ فيهِ، شديدَ الحرصِ على تحصيلِ مهمَّاتهِ بعد القيامِ بواجباتهِ، واقفاً على الحدودِ والأحكامِ غايةً، حاثَّاً للوقوفِ عليها, يقولُ كثيراً أفضلَ الأذكارِ ذكرَ اللهِ عندَ أمرهِ ونهيهِ، حافظاً لحقوقِ اللهِ مراعياً لها شديدَ التَّحرُّزِ والورع في الدِّين، كثيرَ التَّحفُّظِ فيهِ والتَّحري للأحوطِ, ما رأيتُ أشدَّ حزماً ولا أعظمَ ردعاً منهُ، كلُّهُ حزمٌ وعزمٌ، لا يحبُّ التأويلاتِ ولا يميلُ إلى ارتكابِ الرُّخصِ، يعرفُ الأحاديثَ والسِّيرةَ النَّبويَّةَ، بصيراً بما زادَ عليها وما نقصَ, يعانقُ الكمالاتِ ويسابقُ الغاياتِ ويسارعُ إلى الخيراتِ، يستمعُ القولَ فيتَّبعُ أحسنَــهُ ويبادرُ للعمل بهِ، وقلتُ لهُ مرَّةً أو مرَّاتٍ

" يا سيِّدي مالَنا نحن نسمعُ العلمَ ونعرفهُ ثُمَّ لا نعملُ بهِ ".

فقال لي

" إنَّكُم لا تسمعونَ العلمَ بنيَّةِ العملِ والأتِّباعِ بل بقصدِ التَّعليمِ للنَّاسِ وحفظِ ما تقولونَ لهم فتحُرمونَ العملَ بهِ ويكونُ ذلكَ حظُّكُم ".

يُغري بفعلِ المأموراتِ ويحذِّرُ من الوقوعِ في المنهيَّاتِ ويقولُ

" إنَّ الصحابةَ الكرامَ كانوا يبتدرون الأمرَ والنَّهي عندَ سماعِها لأوَّلِ وهلةٍ وانظرْ سيِّدَنا عمرَ ﷺ لمَّا نزلَ قولهُ تعالى

﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُون ﴾[1]

قالَ

" انتهينا يا ربَّنا ولم يقلْ سنتهي "

ويعظِّمُ أمرَ الشَّرعِ العزيزِ ويُجلُّ أمرَ النَّبي ﷺ أن يُخالفَ، وكثيراً ما يستشهدُ بقولِ اللهِ تعالى

﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2].

ويحثُّ أن يفعلَ ما فعلَهُ النَّبي ﷺ وإنْ لم يكنْ فعلُهُ على سبيلِ الأمرِ لنا ويقولُ

" ينبغي للإنسانِ إذا سمعَ شيئاً من هذهِ الآدابَ النَّبويَّةَ والمباحاتِ التي فعلَها النَّبي حتَّى ركوبَ الحمارِ مثلاً أن يفعلَها بقصدِ الموافقةِ ولو مرَّةً واحدةً "

ويحافظُ على السُّنَّةِ في محاولاتِهِ ومناولاتِهِ كُلّها، ويُحبُّ موافقتَهُما في كُلِّ شيءٍ ولا يحبُّ الخروجَ عنها في شيءٍ من الأشياءِ ولو دعتْ إليهِ الضَّرورةُ وكانَ لا بأسَ بهِ، ويقولُ

" الخيرُ كلُّهُ في اتِّباعِ السُّنَّة، والشَّرُّ كلُّهُ في مخالفتِها "

ويحضُّ على العملِ بالعلمِ كثيراً وخصوصاً لمَن يشتغلُ بهِ، ويذكرُ في ذلكَ مواعظَ حسنةً ويمثِّلُ مَنْ يقرأ العلمَ ولا يعملُ بهِ بالذي يتوضَّأُ طولَ يومهِ ولا يُصلِّي صلاةً واحدةً.

ولا يقبلُ وارداً أو حالاً لم تظهر نتيجتهُ من اتِّباعِ السُّنَّةِ والوقوفِ على الحدودِ والزُّهدِ في الدُّنيا، ولا يرتضيهِ متى بقيتْ معهُ بقيَّةً من حبِّ الدُّنيا، ويقولُ

---

1 . سورة المائدة (91) وتمامُها (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ).

2 . النور (63).

أنَّهُ تخليطٌ ويمثِّلُ صاحبَ الحالِ بأرضٍ جرُزٍ أصابَها مطرٌ فاخضرَّتْ وأنبعَ نباتَها, وكثيراً ما نكونُ معهُ خارجَ المدينةِ فيشيرُ إلى بقعةٍ خضراءَ ويقولُ

" لأيِّ شيءٍ اخضرَّتْ هذه ".

فنقولُ لهُ لأجلِ الماءِ الذي بها أو لمطرٍ أصابَها.

فيقولُ

" كذلكَ الإنسانُ "

ويمثلهُ ايضاً بالشَّجرةِ التي كانتْ عاريةً من الأوراقِ ثُمَّ أورقتْ، ويقولُ

" سببُ سقوطِ ورقِها الكائنةِ بها ونباتِ أخرى بعد ذلكَ سريانُ الماءِ الجديدِ بها فهو يُسقِطُ اليابسَ ويُنبِتُ الأخضرَ "

يريدُ الإنسانَ فيما يردُ عليهِ كالأرضِ وكالشَّجرةِ إذا أصابَ قلبَهُ مطرُ وارداتِ الأحوالِ بدا أثرُهُ على ظاهرِهِ من تسخيرِ جوارحهِ في طاعةِ اللهِ، كما يظهرُ أثرُ مطرِ السَّماءِ الذي هو النَّباتُ على وجهِ الأرضِ.

واذا سرى بباطنهِ مددٌ ربانيٌّ أقلعَ عمَّا كانَ عليهِ وتساقطت عنهُ المعاصي وتَخلفُها الطَّاعاتُ كما تسقطُ أوراقُ الشَّجرةِ التي كانت بسببِ جريانِ الماءِ الجديدِ وتَخلفُها أوراقٌ أخرُ.

ويقولُ

" فائدةُ الواردِ السَّيرُ في منهاجِ السُّنَّةِ "

ويمثِّلُ السُّنَّةَ بالسَّفينةِ والوارداتِ بالرِّياحِ الجاريةِ بها، ويذكرُ في ذلكَ على طريقِ الإشارةِ قولهُ تعالى

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾[1].

وقالَ لي أخي الفقيهُ أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد العربي حفظهُ اللهُ قالَ لي سيِّدُنا أحمدُ

---

[1] . هود (41).

" هذه الأحوالُ ليستْ مقصودُها لذاتِها بل أسبابٌ للاتِّباعِ وبواعثٍ على العملِ وفائدةُ ورودِها على الإنسانِ تهيئتُهُ للتَّربيةِ والتَّهذيبِ ".

ومثَّلَ لهُ ذلكَ بالحديدِ الباردِ الذي لا تعملُ فيهِ المطرقةُ شيئاً فإذا أُحمِيَ بالنَّارِ عملتْ فيهِ وصلحَ الكلُّ ما يريدهُ صانعهُ وصدقَ ﷺ ونفعَنا بهِ، فعلى قدرِ السَّفينةِ جريانُها وعلى قدرِ حمايةِ الحديدِ إحكامُ الصَّنعةِ فيهِ واتقانُها.

وقد رُزقَ هو ﷺ من القوَّةِ في اتِّباعهِ وأفعالهِ ما يكافئ غزارةَ نورهِ وعظيمِ حالهِ، فما أكثرَ حفظهِ للدِّينِ وما أشدَّ حبِّهُ إيَّاهُ واتقانهُ لهُ وسؤالِهُ عنهُ حتَّى إنَّ أحدَنا إذا أفادَهُ علماً لم يكنْ عندَهُ ليَودُّ أن لا يتقرَّبَ إليهِ بشيءٍ سوى ذلكَ لأنَّهُ لا يزالُ يعرفُ لهُ ذلكَ ويُذكرُ بسببهِ ولا ينساهُ لهُ ابداً.

يحبُّ عبادةَ ربِّهِ ويُعظِّمُ أوامرَهُ ويعبدُهُ عبادةَ العارفينَ بكمالهِ الخاضعينَ لجلالهِ ويطيعهُ طاعةَ الفرحينَ بهِ المُتولِّهينَ بحبِّهِ، عاملاً على تركِ الحظوةِ واللُّحوضِ دالاً غيرَهُ على ذلكَ بحالهِ ومقالهِ ابداً، يؤدِّي الفرائضَ والسُّننَ ويجيءُ بها على أحسنِ سنَنٍ لا يغفلُ ولا يتوانى، فيحافظُ على إقامةِ الصَّلاةِ لوقتِها وأدائِها في الجماعةِ أبداً، يتقنُها ركوعاً وسجوداً على أكملِ وجهٍ وأتمِّ وصفٍ في سكينةٍ وطمأنينةٍ وأدبٍ مع اللهِ عزَّ وجلَّ صلاةَ الخاشعينَ العارفينَ أمثالهِ، لا تسأل عن كثرةِ خشوعٍ وخضوعٍ وحُسنِ سمتٍ وسِمةٍ لا يستطيعُ مَنْ يعرفُ حالَهُ أنْ يلاصقَهُ في الحقِّ مخافةَ التَّشويشِ عليهِ بقلبهِ وقد قالَ غير ما مرَّةٍ

" إذا صلَّى أزائي مَنْ يجولُ بقلبهِ في الخواطرِ الدُنيويَّةِ فإنَّهُ يشوِّشُ عليَّ، ولو أنَّهُ عرفَ ما يصلحُ بهِ لحادَ عنِّي "

فصرنا نتحامى من الصَّلاةِ بجنبهِ لأجلِ ذلكَ إذ لا يخلو أمثالُنا من هذه الخواطرِ.

ويواظبُ على كثيرٍ من النَّوافلِ الواردِ بها الحديثُ كرواتبِ الظُّهرِ والعصرِ قبلَها وما بين العشاءينِ، وصلاةِ الضُّحى ثماني ركعاتٍ، وصلاةِ اللَّيلِ اثنتي

عشرةَ ركعةً بعدَها الوترُ، وما يسَّرَ اللّهُ من زيادةٍ بعد ذلكَ، وقد زادَ في هذه السنن كثيراً من النَّوافلِ حسبَما رأيناهُ في حضرِهِ وسفرِهِ.

وقد سافرتُ معهُ ومع سيِّدي أحمدَ اليمني صُحبتَهُما هذا العامَ لزيارةِ سيِّدِنا عبدِ السَّلامِ بنِ مشيشٍ نفعَنا اللّهُ بهِ في رفقةٍ قليلةٍ دونَ خباءٍ ولا قيطون، وكانَ الوقتُ وقتَ حرٍّ شديدٍ فرأينا من صلاتِهما أوَّلَ اللَّيلِ وآخرِهِ بعد نومِ النَّاسِ وقبل قيامِهم وأحياناً من النَّهارِ ما لا يُقدرُ عليهِ لا سيَّما في السَّفرِ والحرِّ إلَّا مَن أيَّدَهُ اللّهُ مثلهُما، فلا تشاءُ أنْ تراهُما من ليلٍ أو نهارٍ مُصلِّيينَ إلَّا رأيتَهُما ولا بدَّ عندهُما من صلاةِ الضُّحى ولو ذهبتِ الرِّفقةُ عنهُما، ولا يكونانِ إلَّا على وضوءٍ أبداً رضي اللّهُ عنهُما ونفعَنا بهِما.

وكنتُ يوماً مع سيِّدِنا أحمدَ ﷺ بجنانهِ بلمطةَ فصلَّينا الظُّهرَ وقمتُ أتنفَّلُ بعدهُما، وقامَ هو لذلك فجئتُ بركعتينِ وجلستُ فلمَّا سلَّمَ من ركعتيهِ قالَ لي

" زدْ ستندمُ وتقولُ لأيِّ شيءٍ كنتُ لا أزيدُ "

يعني بعد الموتِ حيثُ لا يمكنُ العملُ ولا زيادتُهُ، وكثيراً ما يحضُّ على صلاةِ اللَّيلِ ويحثُّ عليها ويُرغِّبُ فيها أتمَّ ترغيبٍ ويُنشِّطُ لها النُّفوسَ لأنَّ ذلكَ يكثرُ فيهِ تنزُّلُ الرَّحماتِ وعواطرِ النَّفحاتِ، وإنَّ مَنْ أيقظَهُ اللّهُ فيهِ فقد استدعاهُ لرحمتهِ ويقولُ

" إنَّ الإنسانَ إذا كانَ نائماً ليلاً ثُمَّ انتبهَ فليعلمْ أنَّ تلك هديةٌ جاءتْهُ من عندِ اللّهِ فليقُم وليصلِّ ما شاءَ اللّهُ وإنْ فرغَ من صلاتهِ فلا يرجعُ إلى فِراشهِ الذي قامَ عنهُ لأنَّهُ شيءٌ خرجَ عنهُ للّهِ، والإنسانُ إذا خرجَ عن شيءٍ للّهِ فلا يعدْ إليهِ بل يجلسُ بموضعِ صلاتهِ أو غيرِهِ فإنْ غلبَهُ النَّومُ قامَ، وأمَّا إنْ انتبهَ ورجعَ إلى نومهِ ولم يقمْ فإنَّهُ يكونُ رادًّا على اللّهِ هديتَهُ ولا أراهُ إلَّا صدق عليهِ قولُه تعالى

﴿ وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾[1]

---

[1]. التوبة (46)

نسألُ اللهُ العافيةَ بمنّهِ.

ويُؤتي الزَّكاةَ على أكملِ وجهٍ ويخرجُها على حقيقتِها كما أمرَ اللهُ سبحانَهُ ويكثرُ السؤالَ عن مسائلِها وصورِها وعمَّا يُضاف من الحُبوبِ بعضُهُ إلى بعضٍ وما لا يضافُ ممَّا هو جنسٌ أو أجناسٌ فتجدهُ غارقاً بما يحتاجهُ من ذلكَ حافظاً لهُ بصيراً بعللهِ ويصرفُها على الفقراءِ والمساكينِ من أهلِ الدِّيانةِ الأضعفَ فالأضعفَ يرسلُها إليهِم بحيثُ لا يعلمون من حيثُ أتتْ على عادتهِ في سائرِ الصَّدقاتِ من واجبةٍ وتطوُّعٍ، وما لزمتهُ زكاةُ ورقٍ أو ذهبٍ قطُّ كما سيأتي في البابِ الذي بعد هذا، وإنَّما تلزمُهُ في الزَّرعِ والزَّيتِ والعنبِ خاصةً.

ويصومُ زيادةً على الفريضةِ الأيامِ الفاضلةِ التي وردَ في الحديثِ للتَّرغيبُ في صيامِها كيومِ عرفةَ وعاشوراءَ ونحوهِما، ولا نعلمُهُ يكثرُ من الصِّيامِ سائرَ العامِ إلَّا أنْ يقعَ لهُ ذلكَ ولا نطلَّعَ عليهِ ولا شكَّ أنَّهُ يتعذَّرُ الاطّلاعَ على كُلِّ ذلكَ من قبلنا ويأمرُ مَنْ كانَ عزباً بالصِّيامِ عملاً بقولهِ ﷺ

" ومَنْ لم يستطِعْ فعليهِ بالصَّومِ " [1]

وقد أمرني لمَّا كنتُ عزباً بذلك، ولم يتَّفق لهُ لهذا العهدِ حجٌّ، وكثيراً ما يذكرهُ ويلهجُ بهِ ويؤملهُ ويرجوهُ من اللهِ عزَّ وجلَّ ويقولُ

" لولا خشيتهُ لحقوقِ هؤلاءِ الضُّعفاءِ من الأتباعِ ومخافةَ المشقَّةِ الفادحةِ عَلَيْهِم والضَّياعِ لكونِهم ليسوا ممَّنْ استطاعَ لتجشَّمتُ لقاءَهُ على أيِّ وجهٍ كانَ ولو دون استطاعةٍ"

وسمعتهُ يقولُ ما معناهُ

" مَنْ لم يكنْ مستطيعاً فليكنْ متمنِّياً لهُ وراغباً فيهِ بقلبهِ حتَّى يموتَ على ذلكَ "

---

[1] . تمام الحديث (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنَّهُ أغضُّ للبصرِ وأحصنُ للفرجِ، ومن لم يستطع فعليهِ بالصِّيامِ فإنَّ لهُ وجاء) رواهُ الشيخانِ.

ويظهرُ عليهِ السُّرورُ كثيراً يومَ عرفةَ ويتهلَّلُ وجهُهُ، فإذا جالسناهُ ذلكَ اليومَ كانَ ذلكَ المجلسُ من أحسنِ مجالسِ الأيَّامِ أكثرَ ما يجري فيهِ ذكرُ الحجِّ ومواطنهِ مَنَّ اللهُ علينا بالوصولِ إليها آمين.

ويحرِّضُ على الجهادِ في سبيلِ اللهِ وقد جاهدَ في سبيلِ اللهِ صحبةَ أبيه الشَّيخِ سيِّدي مُحمَّد رحمَهُ اللهُ وفي زمنهِ مع الأميرِ أبي عبدِ اللهِ مُحمَّد الحاج الدِّلائي عندَ ذهابهِ لبعضِ حصونِ الكفرةِ يحاصرهُ وهو المعمورة، فأبلى بلاءً حسناً وكانَ ذا إقدامٍ ونجدةٍ.

وضعفَ يوماً والدهُ الشَّيخُ سيِّدي مُحمَّد رحمَهُ اللهُ عن الصُّعودِ في عقبةٍ هنالك لكبرهِ فحملَهُ على ظهرهِ حتَّى قطعَ بهِ المواضعَ المخوفةَ التي تقابلُ رقابةَ الكفرةِ من أسوارهِم ثُمَّ لم يتَّفقْ لهُ بعد ذلكَ مشهدٌ لعدمِ توجُّهِ المسلمين لذلك شغلاً بما هُم فيهِ من الفتنِ في كُلِّ وقتٍ، وما زالَ يحبُّ الجهادَ ويحرِّضُ عليهِ دائماً ويحبُّ لسلطانِ الوقتِ الإشتغالَ بهِ ويتمنَّاهُ لهُ ويحضُّ مَنْ أتاه من بطانتهِ على تنبيههِ على ذلكَ ويقولُ

" لو أنَّ النَّاسَ اشتغلوا بهِ لأتلَفتْ قلوبُهم وانقطعتْ حروبُهم وزالَ بأسُهم بينهم ".

فما زالَ محرِّضاً على ذلكَ مَن أتاهُ من حاشيةِ السُّلطانِ وخصوصاً صاحبُنا الكاتبُ سليمانُ عندما يراهُ ويجالسهُ، فكانَ الكاتبُ المذكورُ حسبَما حدثَّنا هو بهِ إذا انفصلَ عنهُ يتحدَّثُ بذلك مع قائدِ القصرِ الكبيرِ وبلادِ الهبطِ وهو عمرُ بنُ حد البطوئي عندما يلقاهُ، فألقى اللهُ في قلبهِ حرصاً على الجهادِ أكيداً وولوعاً شديداً فجلسَ يشنُّ الغاراتِ فيما والاهُ من بلادِ الكفرةِ ويقتلُ ويسبي ويصيبُ منهم بعضَ الغنائمِ والأموالِ برَّاً وبحراً وصحبَهُ في ذلكَ يُمنٌ ونجاحٌ.

وكانَ قبل ذلكَ شديدُ الشَّكيمةِ على الرَّعيةِ متساهلاً لأموالِهم متسلِّطاً على فقراءِ الوقتِ وأبناءِ الصَّالحينَ يمتحنُهم ويأخذُ الأموالَ منهم ولا يحترمُهم وفعلَ معهم مالم يفعلْهُ أحدٌ من الأمراءِ قبلَهُ حتَّى كانَ يُقالُ فيهِ حجَّاجُ زمانهِ، وما

أذعنَ إلَّا لسيّدِنا أحمدَ ﷺ وكانَ لهُ إليهِ انقيادٌ في شأنِ الجهادِ وما رآهُ قطُّ وما عرفَهُ إلَّا سماعاً.

وقالَ مرَّةً لصاحبِنا الكاتبِ أبي الرَّبيعِ سليمانَ

" إنَّ الاشتغالَ بالجهادِ لم يكن لي ببالٍ وما كانَ السببُ لي فيهِ إلَّا سيِّدي أحمدَ بنِ عبدِ اللهِ وما بلغني عنهُ فيهِ " وقالَ أيضاً

" ولو أمرني فيهِ بما أمرني لفعلتهُ ولو صرفتُ مالي كلَّهُ ".

فآلَ أمرهُ والحمدُ للهِ إلى خيرٍ وكانتْ عاقبةُ أمرِهِ ربحاً وعادَ بأسهُ على الكافرين أعداءِ اللهِ ورسولهِ ببركةِ سيّدنا أحمدَ ﷺ وكانَ لا يشرعُ في أمرٍ مهمٍّ منها إلَّا بعد مشاورتهِ لهُ فيهِ.

ولمَّا أراد أنْ يذهبَ إلى قصبةِ طنجةَ ليأخذَها حيث أذِن لهُ السُّلطان مولاي إسماعيل في ذلكَ وتوعَّدَهُ بالقتلِ إن لم يأخذْها كتب إليهِ يتعلَّقُ بهِ ويطلبُ الدُّعاءَ منهُ عسى أن يظفرَ بمرادهِ فأجابَهُ بقولهِ تَعالى

﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1]

وحضَّهُ على الجهادِ والشُّغلِ بهِ ورجاهُ بخيرٍ فحاصرَها أزيدَ من ثلاثةِ أشهرٍ وأخذَها والحمدُ للهِ عنوةً.

وكانَ سيِّدُنا أحمدُ في أثناءِ تلك المدَّةِ لا يزالُ يسألُ عن تلك القضيَّةِ وشأنِها كثيراً، وأخبرَ أنَّها تؤخذُ لمَّا رأى بعضَ أقاربِه حرصَهُ على ذلكَ استأذنَهُ في الذِّهابِ إلى هنالك ليحضرَ الجهادَ مع المسلمين، فأذنَ لهُ وأرسلَهُ وأعانَهُ وبعد ذلكَ لمَّا ذهبَ بعضُ الجيشِ إلى حصارِ طنجةَ، جاءَ رجلانِ يخبرانِهِ بذهابِهما مع الجيشِ ويودِّعانهِ فأعطاهُما دراهمَ إعانةً لهُما على ذلكَ وودَّعهُما ودعا لهُما ولمَّا أرادَ قائدُ القصرِ المذكورِ الذِّهابَ أيضاً لحصارِ بعضِ حصونِ الكفرةِ أوائلَ هذه السَّنةِ كتبَ إليهِ أيضاً وهو يستغيثُهُ ويستندُ إليه إذ كانَ عرفَ إغاثتَهُ من

[1] . محمَّد (7)

قَبْلُ فكتب إليه سيِّدُنا أحمدُ يغريهِ على الجهادِ ويوصيهِ بالمسلمين خيراً، وكان السُّلطانُ إذ ذاك منعَهُ من الذِّهابِ ولم يردْ إرسالَهُ، ففي الوقتِ الذي وصلَهُ كتابُ سيِّدِنا أحمدَ خرجَ السُّلطانُ من دارهِ آمراً بالجهادِ عزماً في قوَّةٍ ونشاطٍ من غيرِ سببٍ، وبعثَ القائدُ المذكورُ إلى المعمورةِ، فلم يَنشبْ أنْ أخذَ ما حولَها ولحقَ بهِ السُّلطانُ فأخذَها وذلك غدوةَ يومِ الأربعاءِ حادي عشرَ ربيعٍ الثَّاني من هذا العامِ سنةَ أثنينِ وتسعينَ وألفٍ.

فسمعتُ سيِّدَنا أحمدَ في أثناءِ ذلك يقولُ

" لو أنَّ عندي من القمحِ ما عسى أنْ يكونَ عندي لطحنتُهُ وجعلتُهُ طعاماً وأرسلتهُ للمسلمينَ "

وقال أيضاً

" لولا خشيةُ لقاءِ السُّلطانِ وتطلبهُ إيَّاي هناك فيهنّوه بي لجعلتُ في رجلي سبَّاطاً أحمرَ وفي رأسي كرزيّةً "[1] كي لا يعرفَني أحدٌ فأدخلَ في زمرةِ المسلمينَ وأتذكَّرُ مشاهدَ الصِّحابةِ وقتالَهم الكفرةَ في سبيلِ اللهِ "

فكان ذلك هو جهادُهُ وكان السببُ في ابتدائهِ وعلى يدهِ، نجحَ فانظر هذه المنفعةَ العظيمةَ للمسلمينَ ما أعظمَها وهذا الحرصُ على الدِّينِ ما أكبرَهُ ﷺ.

ويداومُ على غُسلِ الجمعةِ ويؤكدهُ لتأكيدِ سُنَّتهِ ويفعلُهُ على الوجهِ المسنونِ من كونهِ متَّصلاً بالرَّواحِ، ويلبسُ نقيَّ ثيابه إنْ كانَ وإلَّا ذهبَ للمسجدِ الجامعِ بما عليه, ومن المعتادِ عنده وعند غالبِ مَنْ بهذهِ البلادِ أنَّهم يتحرون بغسلِ الثِّيابِ اليومَ الموالي للجمعةِ قبلَها، وهذه عادةٌ موافقةٌ لِما يُطلَب من تحسين الثِّيابِ يومَ الجمعةِ، ولا نراه يتطيَّبُ بالمسكِ ونحوهِ يومَها، وإنْ كان الطِّيبُ لها مستحباً ولا في سائر الأيَّامِ ولعلَّهُ لأجلِ ما كثُر من استعمالِ أهلِ الرَّفاهيَّةِ له وكثيرٌ من السُّفهاءِ بقصدِ الترفُّهِ والتَّنبهِ لهم، أو لِما يُخشى من شمِّ النِّساءِ له

---

1. وهي ما يُشَد بهِ الرأسُ من ثوبِ صوفٍ كالعمامةِ.

لكثرةِ خروجهن في هذا الزَّمانِ من ديارهنَّ ومُرورِهنَّ بالطَّرفِ في هذه البلدةِ وغيرِها، فلا يمرُّ الرَّجلُ بطريقٍ إلَّا لقيهنَّ مُلتحفاتٍ، والسُّنَّةُ اذا كان يترتَّبُ عليها محذوراً يباحُ تركُها، وقد ترك العاملون سُنناً لأجلِ ذلك منها تركُ استعمالِ الخاتم حيث صارتْ شعارُ السُّفهاءِ اليومَ كما نبَّهَ عليه غيرُ واحدٍ.

ويمشي هوناً على إسراعٍ طبيعي في خطواتهِ ولا يهرولُ في سعيهِ للجمعةِ وإنْ سمعَ الأذانَ بالطَّريقِ وكذا في غيرِها من الصَّلواتِ, ولا يُحبُّ فاعلَ ذلك عملاً بمقتضى الحديثِ

" إذا أتيتم الصَّلاةَ فأتوها بسكينةٍ ووقارٍ ولا تأتوها تَسعُون)[1]

أو كما هو لفظُ الحديثِ.

ولا يمشي معهُ أحدٌ في الطَّريقِ ولا يتبعهُ ذاهباً وراءَهُ البتَّةَ إلَّا ولدَيهِ, يذهبُ بهما معهُ أحياناً لصلاةِ الجمعةِ أو غيرِها ولا يخصُّ موضعاً من المسجدِ الجامعِ يُصلِّي فيهِ بل بحسبِ ما تيسَّرَ ولا يتخطَّى أحداً أبداً، ويصلِّي مرَّةً بجامعِ القرويين ومرَّةً بجامعِ الأندلُسِ لا يقصرُ صلاتَهُ على واحدٍ منهما مخافةَ ازدحامِ النَّاسِ عليهِ أو امتيازهِ عن النَّاسِ هنالك كما صرَّحَ بذلك.

ولا يحبُّ الوسوسةَ في الوضوءِ والغُسلِ ولا في غيرِهما ويقبِّحُها غايةَ التَّقبيحِ وقد عرضَ لي وقتاً منها شيءٌ في استحضارِ نيَّةِ الوضوءِ عند الوجهِ فأُعيدُ غسلَ الوجهِ لأجلِها مرَّاتٍ كثيرةٍ، فرآني مرَّةً أفعلُ ذلك وهو يتوضَّأُ بإزائي فقال لي

" أهَربتْ لك النِّيَّةَ "

ووقف وقال لرجل كان بإزائي

" تعالَ نقبضُ لهُ النِّيَّةَ فإنَّها قد هربتْ لهُ "

---

[1] . الحديث (إذا سمعتم الإقامةَ فامشوا إلى الصلاةِ، وعليكم بالسَّكينةِ والوقار، ولا تُسرعوا، فما أدركتُم فصلُّوا، وما فاتكُم فأتمُّوا) رواه البخاري وفي صحيح مسلم (إذا ثُوِّبَ للصَّلاةِ فلا تأتوها وأنتم تسعون ..).

وقبضَ على طرفِ ثوبي كالشّادِّ على شيءٍ خوفَ فرارهِ فبعد ذلك اليومِ ذهبَ عنّي ما كنتُ أجدُ والحمدُ للهِ وعادَ ببركتهِ ﷺ نسياً منسيًّا.

ويحضرُ مجالسَ العلمِ المقروءِ بالزَّاويةِ بين المغربِ والعشاءِ من توحيدٍ وفقهٍ وغيرِهما، وما يُقرأ بغيرِ ذلك الوقتِ من حديثٍ وسِيَرٍ إلَّا اذا اتَّفقَ لهُ إنْ كان في شغلٍ خارجَ المدينةِ أو داخلِها، ومن عادتِهم التي استمرُّوا عليها بالزَّاويةِ منذُ قديمٍ قراءةَ الجامعِ الصَّحيحِ للبخاري كُلَّ سنةٍ في شهرِ رمضانَ وما يليهِ.

ولم تتقدَّم له قراءةَ علمٍ من العلومِ ولا فنٍّ من الفنونِ الاصطلاحيَّةِ في صغرهِ وإنَّما جمعَ الآيةَ فقط، ومع هذا فتجدهُ واعياً لكلِّ ما يسمعُ خبيراً بمعنى ما يقولُ حافظاً للحديثِ النَّبويِّ لا يشذُّ عنهُ من أحاديثِ البخاري إلَّا قليلٌ تأوُّلاً عن العلمِ لا يقدُمُ على أمرٍ حتَّى يعلمَ حُكمَ اللهِ فيهِ، وإذا عَلِم أمراً لم ينسَهُ، عالماً بضروريات دينهِ كلِّها بَلْ وبأحكامِ كثيرٍ من المعاملاتِ ممَّا عرفَهُ بالسُّؤالِ عنهُ عندَ مباشرتهِ حتَّى إنَّهُ ربَّما تُعرضُ عليهِ معاملةٌ قد يخفى وجهُ منعِها على الفقهاءِ فيتفطَّنُ لمنعِها.

وقد ذكرَ له في هذه الأيَّامِ بعضُ الأصحابِ معاملةً ارتكبَها فقالَ لهُ

" إنَّها ممنوعةٌ ولكنْ إسألْ سيّدي فُلاناً "

بعضَ العلماءِ المعتبرينَ، فسألَ صاحبَ المعاملةِ ذلك الفقيه فقالَ لهُ

" لا أرى فيها بأساً "

فرجعَ إلى سيِّدِنا أحمدَ فقالَ لهُ

" راجعْهُ أو اسألْ غيرَهُ فإنِّي لا أراها جائزةً "

فسألَ فقيهاً آخرَ يُمارسُ الفقهَ فأفتى بالمنعِ وجزمَ بهِ، وإذا المسألةُ قد اجتمع فيها ما صورتهُ بيعٌ وسلفٌ ولا شكَّ في منعهِ.

وقد يظهرُ للمتوسِّمِ أنَّ هذا التَّفطُّنَ ليس مستندهُ تعليمٌ ولا فطنةٌ، وإنَّما هو آيةٌ نشأتْ عن ما لَهُ من قوَّةِ البصيرةِ الربَّانيَّةِ والفراسةِ النُّورانيَّةِ حيثُ لم يقبلْ قلبهُ

ذلك ولم يطمئنْ لِما نُقلَ لهُ عن الفقيهِ الأوَّلِ مع علمهِ بمنصبِ ذلك الفقيهِ في العلمِ ورتبتِهِ فيهِ.

وقد كان يوماً يتوضَّأُ فأشكلَ عليهِ أمرٌ في الوضوءِ ولم يعرفْ حكمَهُ شرعاً ثُمَّ فعلَهُ معتقداً صوابَهُ، ثُمَّ لما فرغَ أتى بعضُ الفقهاءِ وسألَهُ عن ذلك فأخبرَهُ بأنَّ ما فعلَهُ هو الصَّوابُ الموافقُ للعلمِ فتبسَّمَ وقالَ

" إنَّ المخصوصَ قد يفعلُ الشيءَ ويعتقدهُ صواباً وهو لم يتقدَّمْ لهُ علمٌ بهِ، ثُمَّ يسألُ بعد ذلك عنهُ فيجدهُ موافقاً للعلمِ ".

ثُمَّ رأيتُ العارفَ بنَ أبي حمزةَ قال في كلامٍ لهُ ومن ذلك ما يتَّفقُ لبعضِ الأولياءِ من معرفتِهِم لبعضِ المسائلِ الفقهيَّةِ من غيرِ أنْ يتقدَّمَ لهُم بها علمٌ ثُمَّ يجدونَ ذلك موافقاً للعلمِ المنقولِ سواء.

ولقد أفتاهُ أيضاً بعضُ الفقهاءِ من الأصحابِ في معاملةِ كان سألَ عنها مكاتبةً في الجوازِ وأثبتَ ذلك بقياساتٍ لهُ على مسائلَ فقهيَّةٍ من دونِ جلبِ منصوصٍ على عينِ النَّازلةِ فلم يقبلْهُ، وقال

" الذي أعتقدهُ في المسألةِ المنعِ ولا يغرُّني أحدٌ بتأويلاتٍ ولا برُخصٍ "

وكان الأمرُ على ما ذكرَهُ من المنعِ ولولا خشيةُ الخروجِ عن الغرضِ لبيَّنتُ وجهَهُ في النَّازلةِ ودليلَهُ.

شَأنُهُ ﷺ في طَلَبِ التَّحقيقِ

ومن شأنهِ ﷺ عندَ طلبِ التَّحقيقِ في كلِّ شيءٍ حتَّى أنَّهُ إذا سألَ عن مسألةٍ علميَّةٍ سألَ عن وجهِها وتعليلِها خروجاً عن محضِ التَّقليدِ حتَّى لقد احتوى على العلومِ التَّكليفيَّةِ جميعِها والفروضِ والسُّننِ العينيَّةِ بأسرِها عالِماً بتعاليلِها وحُكمِها وجميعِ كلِّ ما يضطرُّ إليهِ منها عزائمَها ورُخصَها، فكانَ بما يخصُّهُ من علمِ الظَّاهرِ عالماً باستفادتِها وإفادتِها لمَن لاذَ بهِ قائماً، فاستجمعَ شروطَ المشيخةِ والاقتداءِ على وجهِها وأتى على حقيقتِها وكنهِها، إذ مَنْ جمعَ بين العلمِ باللهِ باطناً وعلمِ ما لا بدَّ منهُ من الأحكامِ فقد جمعَ بين العلمينِ.

ولا يشترطُ التَّبحُّرَ إلَّا في علمِ الباطنِ دون الظَّاهرِ قال الشَّيخُ أبو عبدِ الله السَّاحلي ﷺ عندما ذكرَ شروطَ الشَّيخِ الثَّالثِ أنْ يكونَ عندَهُ من الكتابِ والسُّنَّةِ ما يقيمُ بهِ ما لا بدَّ لهُ منهُ من الرُّسومِ الشَّرعيَّةِ.

وقال الشَّيخُ عفيفُ الدِّينِ اليافعي ﷺ

" لا خلافَ بينهم أنَّ السَّالكينَ العارفينَ باللهِ تعالى يجوزُ الاقتداءُ بهم سواءٌ حصلَ السُّلوكُ قبل الجذبةِ أو بعدَها وسواءٌ عرفوا جميعَ العلومِ الشَّرعيَّةِ المفروضةِ والمندوبةِ أو لم يعرفوا سوى فرضِ العينِ الذي لا بدَّ منهُ " انتهى.

ويحبّ ﷺ مجالسةَ الفقهاءِ لهُ ليتناولَ معهم العلمَ ويحتجَّ عليهِم في مخاطبتِهم بما يعلمون، وكثيراً ما يباحثُنا في الفروعِ الفقهيَّةِ وغيرِها حتَّى تتحرَّرَ في ما بينَنا كلَّ التَّحريرِ، وينقدَ علينا أحياناً ما نذكرهُ بحسبِ الفهمِ في حكمِ بعضِ الجزئيَّاتِ التي يجري ذكرُها في المجلسِ ويردُّ علينا بمقتضى القواعدِ الشَّرعيَّةِ.

وإذا ذكرَ أحدُنا أمامَهُ مسألةً لم يظهرْ لهُ وجهُها اعتنى بالبحثِ عنها حتَّى يتحصَّلَ حكمُها لديهِ، فإذا تبيَّنَ بعد أنْ ذكرَها على الوجهِ الأوَّلِ أخطأ فيها

الصَّوابَ نبَّهَهُ لا محالةَ عندَما يراهُ أو أرسلَ إليهِ مَنْ يُعلمْهُ بحكمِ المسألةِ على ما هو عليهِ لا يتوانى في ذلك، ولقوَّةِ رغبتهِ في العلمِ والدِّينِ جمعَ اللّهُ بزاويتهِ من الفقهاءِ المشاركينَ والطَّلبةِ النَّاسكينَ جماعةً وافرةً فيهم نحوَ العشرةِ مدرسون لهم مشاركةٌ في فنونٍ.

وقد مُلئت زاويتهُ اليومَ والحمدُ للهِ بدروسٍ من العلمِ في كلِّ وقتٍ فلا تدخلُها حيناً من الأحيانِ إلَّا رأيتَ فيها مجالسَ وحلقاتٍ يقرأون فيها الفنونَ العلميَّةَ من الحديثِ والسِّيَرِ والفقهِ والنَّحوِ والبيانِ وغيرِها، وحبسَ فيها على ذلك لهذا العهدِ كتبٌ عديدةٌ تنيفُ على مائةِ سِفرٍ في فنونٍ متعدِّدةٍ تشتملُ عليها خزانةٌ هنالك عليها قيِّمٌ يحوطُها ويعرِّفُ الكتبَ على المدرسِّينَ هنالك، فاستغنتِ الزَّاويةُ والحمدُ للهِ كتباً وعلماً وديناً فلا يوجدُ اليومَ[1] بفاسٍ موضعٌ يُقرأ فيه مثلَ ما يُقرأ بها مع ما فيها من الخيراتِ والأنوارِ والبركاتِ أدامَها اللّهُ لإقامةِ الدِّينِ ونشرهِ وتتابعِ ذكرهِ وشكرهِ آمين.

ويذكرُ اللّهَ عزَّ وجلَّ في جميعِ أحيانهِ من ليلٍ أو نهارٍ وعندَ النَّومِ واليقظةِ لا تفارقهُ سبحتهُ، ويحبُّ الإكثارَ من ذكرِ اللّهِ ويحضُّ عليهِ ويقولُ

"كلُّ شيءٍ حدَّهُ اللّهُ لنا إلَّا ذكره سبحانَهُ وتعالى فإنَّهُ قالَ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾[2].

ويذكرُ أيضاً قولَهُ تعالى

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾[3]

ويقولُ

---

[1] . أي زمن المؤلف المتوفى سنة 1110هـ.

2 . الأحزاب (41)

[3] . آل عمران(191)

" ليذكرِ الإنسانُ اللهَ بلسانهِ ولو خالياً من الحضورِ القلبي فعسى أنْ يصلَ الذِّكرُ من لسانهِ لقلبهِ فيحيى بعد موتهِ بذكرِ ربِّهِ، ويكونَ كَمَنْ أخذَ في حفرِ بئرٍ وداومَ عليهِ بينما هو يحفرُ إذ نبعَ لهُ الماءُ ".

يريدُ أنَّ الإنسانَ إذا داومَ على الذِّكرِ بلسانهِ ولو خالياً من الحضورِ نبعَ لهُ الذِّكرُ الحقيقي الحالي من قلبهِ الناشيءُ عنهُ الذِّكرُ اللِّساني وصارَ ذاكراً ذِكراً حقيقياً لا ينقطعُ أبداً، وسمعتهُ يقولُ

" الحالُ العارضُ إنْ لم يكنْ أساسُهُ الذِّكرَ أو لم يجعلْ مرساهُ ذكرَ اللهِ خيفَ عليهِ الذِّهابُ وعدمَ الإيابِ ".

قراءتُهُ ﷺ للأورادِ والأحزابِ

ويواظبُ على قراءةِ الأحزابِ التي تُقرأ في الزَّاويةِ بعد الصُّبحِ وبعد المغربِ ويحضرُها مع النَّاسِ جالساً معهم كيفما اتَّفقَ لهُ، وإنْ اشتغلَ عنها لسببٍ خارجَ المدينةِ قرأها وحدَهُ أو مع مَن يكونُ معهُ من الأصحابِ، وكذا في سفرٍ لزيارةٍ لسيِّدي عبدِ السَّلامِ بنِ مشيشٍ أو غيرهِ يقرؤُها مع الأصحابِ مجتمعين راكبين على دوابِهم ذاهبينَ في الطَّريقِ.

والأحزابُ التي يقرؤونَها بالغداةِ هي حزبُ الفلاحِ للشَّيخِ سيِّدي مُحمَّد بنِ سليمانَ الجزولي ﷺ أولُّهُ بعد الاستعاذةِ والبسملةِ

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾[1]

الآية، وآخرُها " ثبِّتْنا يا ربِّ بقولِها إلى آخرها "

فالمُسبَّعاتُ العشرُ المعلومةُ المذكورةُ في " القوتِ والإحياءِ والعوارفِ " وهي الفاتحةُ بعد التَّعوذِ والبسملةِ والمعوذتانِ مع البسملةِ، والإخلاصُ والكافرونَ مع

1 . الإسراء/ 111.

البسملةِ أيضاً، وآيةُ الكُرسي وسبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ إلى آخرِهِ، واللَّهمَّ صلِّ على مُحمَّد وعلى آلِ مُحمَّد إلى آخرِهِ، واللَّهمَّ اغفرْ لي ولوالدي إلى آخرِهِ، واللَّهمَّ افعلْ بي وبهم عاجلاً وآجلاً إلى آخرِهِ كلُّ ذلك سبع مرَّاتٍ.

فالحزبُ الكبيرُ[1] للشَّيخِ أبي الحسنِ الشَّاذلي ﷺ أوَّلهُ بعد التَّعوذِ بسم الله الرحمن الرَّحيم

﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا ﴾[2]

ويذكرونَ إثرَهُ الهيللةَ خمسمائة مرَّةٍ ثُمَّ اسمَ الجلالةِ كذلك، لا ينقصون عن هذا العددِ فيهما، فإذا حميَ الذِّكرُ وطابَ الوقتُ زادوا على ذلك أضعافاً مضاعفةً.

والأحزابُ التي يقرؤونَها بعد المغربِ هي حزبُ الفلاحِ المذكورِ، ثُمَّ حزبٌ صغيرٌ لسيِّدِنا عبدِ القادرِ الجيلاني ﷺ أوَّلهُ

" لا اله إلَّا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ " وآخرُهُ " اللَّهمَّ صلِّ على سيِّدِنا مُحمَّد وعلى آلِ سيِّدِنا مُحمَّد عددَ ما غفلَ عن ذكرِكَ وذكرِهِ الغافلون " ثُمَّ صلاةُ سيِّدِنا عبدِ السَّلامِ بن مشيش " اللَّهمَّ صلِّ على مَنْ منهُ انشقَّتِ الأسرارِ إلى آخرِهِ "[3].

وأوَّلُ مَنْ رتَّبَ هذه الأحزابَ لهذهِ الطَّائفةِ شيخُ الجماعةِ بفاسٍ الوليُّ الكبيرُ أبو المحاسنِ سيِّدي يوسفُ الفاسي ﷺ وكانَ رتَّبَ لأصحابِهِ ثلاثةَ أوقاتٍ الغداةَ والعشيَّ وبعد المغربِ.

وكانَ المُرتَّبُ عندَهُم في الغداةِ أكثرَ ممَّا ذكرنا، فكانوا يزيدون المُسبَّعاتِ, وبينَ الحزبِ الكبيرِ المُعشرَّاتِ التِّسعِ، وحسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ سبعينَ مرَّةً،

---

1 . الحزب الكبير هو حزب (البر) لسيدي أبي الحسن الشاذلي.

2 . الأنعام (54)

3 . هي الصلاة المشيشية.

ووظيفةَ الشَّيخِ زرُّوقٍ ﷺ وبعدَ الحزبِ الكبيرِ حزبِ الشَّيخِ الجزولي المشهورِ وهو " العزيزُ ذو الجلال " إلى آخره.

وكانَ المُرتَّبُ عندهم في العشيّ بعد صلاةِ العصرِ المُسبَّعاتُ المذكورةُ ووظيفةُ الشَّيخِ زرُّوقٍ أيضاً.

والمرتَّبُ بعد المغربِ ما ذكرناهُ مرتَّباً عند الأصحابِ عدا حزبِ سيِّدِنا عبدِ القادرِ الجيلاني لكن يجعلون مكانَهُ " حسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ " سبعينَ مرَّةً، وبقيَ العملُ عندَهُم على ذلك إلى زمنِ خليفةِ الشَّيخِ أبي المحاسنِ ووارثِ حالهِ أخيهِ الشَّيخِ سيّدي عبدِ الرَّحمنِ فنقصَ وقتَ العشيِّ وحذفَ من أحزابِ الغداةِ ما ذكرنا من المزيدِ، وزادَ في المُرتَّبِ بعد المغربِ حزبَ سيّدي عبدِ القادرِ المذكورِ وعلى ذلك أستمرَّ عملُ هذه الطائفةِ إلى الآنَ.

ويواظبُ على قراءةِ ما تيسَّرَ من المصحفِ كلَّ يومٍ وعلى كيفيَّةِ الدُّعاءِ بالأسماءِ الحُسنى للشَّيخِ ابنِ عبَّادٍ ودلائلِ الخيراتِ ويُكثرُ الصَّلاةَ على النَّبيِّ ﷺ إثرَ عصرِ يومِ الجمعةِ ثمانينَ مرَّةً كما وردَ في الحديثِ، ويُكثرُ الصَّلاةَ على النَّبي ويلازمُ الأذكارَ الواردةَ في السُّنَّةِ في أوقاتٍ مخصوصةٍ كالذي بعدَ الفجرِ وعندَ النَّومِ واليقظةِ وغيرِ ذلك.

وكلمَّا قامَ من مجلسٍ قال

" سبحانكَ اللَّهُمَّ وبحمدِكَ أشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا أنت أستغفرُكَ وأتوبُ إليكَ "

وليسَ لهُ وِردٌ معيَّنٌ يتعبَّدُ بهِ سوى ذكرِ ممَّا وردَ جميعُهُ في السُّنَّةِ والاشتغالِ بأفضلِ الأذكارِ

" لا إلهَ إلَّا اللهُ مُحمَّد رسولُ اللهِ "

واذا سُئل في بعضِ الأحيانِ عمَّا يذكرهُ الإنسانُ أو جرى في حديثهِ الكلامُ على الذِّكرِ استشهدَ في الحديثِ الذي في المُوطَّأ

" أفضلُ ما قلتُ أنا والنَّبيّون من قبلي لا إلهَ إلَّا اللهُ "[1].

قالَ والدهُ الشَّيخُ سيّدي مُحمَّد

" وهو ذكرُ الأقطابِ والكُمَّلِ من الأولياءِ "

وليسَ من شأنهِ إعطاءُ الأورادِ ولا توظيفُ الوظائفِ بل إذا خالطَهُ أحدٌ تركَهُ حتَّى يُشرقَ بباطنِهِ التَّوحيدُ، وتترَّشحَ فيهِ الأنوارُ فيهتدي إذ ذاك للإتِّباعِ والعملِ وذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ من غيرِ كُلفةٍ ولا تعمُّلٍ، وربَّما يحملهُ حينئذٍ على كثرةِ الذِّكرِ وقد أمرَ مرَّةً بعضَ خاصَّةِ أصحابهِ من أهلِ الأحوالِ بأنْ يذكرَ لا إلهَ إلَّا اللهُ في كلِّ يومٍ سبعينَ ألفَ مرَّةٍ، فكانَ يذكرُ ذلك العددَ كلَّ يومٍ كما أمرَ.

وسمعتهُ يقولُ وقد سُئلَ عن جوازِ الانتقالِ من ذكرٍ لآخرَ كالصَّلاةِ على النَّبي تارةً وذِكرِ اللهِ أخرى

" إنَّ ذلك كمَنْ ينتقلُ من فاكهةٍ لأُخرى "

وكثيراً ما ينهى عن ذكرِ الأسماءِ الحُسنى والتزامِ الدُّعاءِ بها أو بواحدٍ منها بخصوصهِ مخافةَ قصدِ الأغراضِ الدُّنيويَّةِ، إذ هي أجلُّ من أنْ يُقصدُ بها ذلك ويقولُ

" هي رهَّاطيَّةُ الفقراءِ تؤثِّرُ في الإنسانِ فيظنُّ إنْ حصلَ لهُ شيءٌ وليسَ هنالك ".

ويقولُ ينبغي للإنسانِ أنْ يُكثرَ من الاستغفارِ في هذا الزَّمانِ ويحفظَ جوارحَهُ ممَّا نهى اللهُ عنهُ فَيُعرضُ عن اللَّغوِ وما لا يعني، ويصونُ عنهُ لسانَهُ ولا يسمعُ الباطلَ، ولا يقدرُ أحدٌ أن يذكرَهُ بمحضرهِ، وإنْ نطقَ ناطقٌ بخلافِ الصَّوابِ ردَّهُ للصَّوابِ لا محالةَ كائناً مَنْ كانَ لا يتساهلُ في ذلك وإنْ شرعَ مَنْ لا يعرفُ حالَهُ في إغتيابِ أحدٍ أمرَهُ بالسُّكوتِ قبل تمامِ كلامهِ وقَطعهِ عليهِ بمرَّةٍ.

---

[1] . الحديث رواهُ الترمذي والإمام مالك في الموطأ وتمامه (لا إلهَ إلَّا الله وحدهُ لا شريكَ له، له الملك ولهُ الحمدُ، وهو علي كلِّ شيءٍ قدير).

تَحذيرُهُ مِن الغِيبةِ وتَحَرّيهِ ﷺ عَنِ الصِّدقِ

يحذِّرُ عن الغيبةِ غايةَ التَّحذيرِ ويُنفِّرُ عنها غايةَ النَّفيرِ، ويذكرُ ما وردَ في ذلك من الوعيدِ من آيةٍ أو حديثٍ ويطلبُ في ذلك مبالغةً في التَّحذيرِ، ولا يُذكرُ عندَهُ أحدٌ بسوءٍ إلَّا أنْ يكونَ على سبيلِ النِّكايةِ ورفعِ المظلمةِ، وإذا جاءَ أحدٌ يشكو أحداً أنصتَ لهُ حتَّى يتمَّ كلامَهُ ثُمَّ يقولُ لهُ

" هذا نصفُ الكلامِ حتَّى يأتيَ النِّصفُ الآخرُ ويظهرُ الأمرُ ".

يريدُ أنَّ الحقَّ لا يتبيَّنُ إلَّا بسماعِ كلامِ كلٍّ من المُدَّعي والمُدَّعى عليهِ، ولا يُعلمُ حقيقةَ الأمرِ إلَّا بمجموعِهما ويقولُ

" لا أحدُ ممَّنْ يرى خصمَهُ الظَّالمَ في كلِّ شيءٍ ولا يشعرُ بفعلِ نفسهِ، وهل كانَ النِّزاعُ قطُّ بين اثنينِ إلَّا بسببِ مرافعةِ كلٍّ منهُما عن نفسهِ وعدمِ الإنصافِ منها ".

وكثيراً ما يأتيهِ الإنسانُ متظلِّماً فيكرُّ عليهِ بإظهارِ ما خفيَ عليهِ من ظُلمهِ فيتبيَّنَ لهُ الحقُّ، وينصرفُ عنهُ وهو يقرُّ على نفسهِ إنَّهُ هو الظَّالمُ, وأتاهُ يوماً بعضُ الأصحابِ يشكو أحداً فقال لهُ

" اسكتْ إلَّا أنْ تشكو بنفسِكَ أوَّلاً وتبتدئ بما فعلتَ أنت ففعلَ "

فأنصتَ لهُ, ويتحرَّى الصدقَ في حديثهِ ويحضُّ على تحرِّيهِ ويقولُ

" إنَّ الإنسانَ إذا زادَ كلمةً في حديثهِ ينبغي أنْ يُكذِّبَ نفسَهُ في الحينِ بمحضرِ مخاطبهِ لئلَّا يعودَ "

ويسرُّهُ مَن صدقَهُ في حديثهِ، ويسوؤهُ مَن يكذبُ عليهِ ولا يقبلهُ بوجهٍ ولا بحالٍ حتَّى إنَّهُ إذا وجدَ بعضَ صبيانِهم يلعبون وسألَهُ عمَّا كانَ عليهِ فأخبرَهُ بذلك على وجههِ لم يضرَّهُ وإذا كذبَ عليهِ لم ينجُ منهُ البتَّةَ.

ويعجبهُ الصَّادقُ في فعلهِ الذي يظهرُ كلُّ من شأنهِ أنْ يفعلَهُ ولو كانَ قبيحاً ويستحْسنَهُ، ويحظى عندَهُ صدوقُ اللِّسانِ غايةَ الحظوةِ، ولا يُحبُّ الإكثارَ من الحلفِ باللهِ مخافةَ الوقوعِ في الحنثِ ويقولُ

" ينبغي للإنسانِ أن يُعوِّدَ نفسَهُ عند إرادةِ الحلفِ قولَ إنشاءَ اللّهُ مخافةَ أنْ يُعقِّدَ اليمينَ فلا يعي أو يحنثَ فلا يُكفِّرُ ولا يحبُّ التَّساهلَ في ذلك ".

تَبسُّمهُ ﷺ ومُخالَطتهُ للنَّاسِ

ويغضُّ طرفَهُ فلا تراهُ ذاهباً في الطَّريقِ إلَّا ناظراً للأرضِ لا يسرِّحُ بصرَهُ يميناً ولا شمالاً ولا يلتفتُ, ذلك دأبُهُ وعادتُهُ دائماً وأبداً، فإذا جلسَ مع النَّاسِ كانَ ذلك الغالبُ عليهِ ويُؤدِّبُ أولادَهُ بذلك.

جُلُّ ضحكهِ التبسُّمُ, واذا زادَ عليهِ لم يقهقهْ، وما رأيتهُ قهقهَ قطُّ، لا يحبُّ الإكثارَ من الضَّحكِ وينهى عنهُ ويقولُ

" إنَّهُ يُميتُ القلبَ "

ولقد رأى مرَّةً بعضَ الأصحابِ يضحكُ مع بعضهِم بالسُّوقِ، فنظرَ شزراً وتنكَّرَ لهُ زجْراً مراجعة ثُمَّ وبَّخهُ بعد ذلك غايةَ التَّوبيخِ ما عادَ بعدَها لمَّا رأى من تشديدهِ عليهِ.

وكانَ مرَّةً يتكلَّمُ مع بعضِ النَّاسِ ممَّنْ فيه دعابةٌ بضحكٍ فقالَ لهُ ذلك البعضُ

" أضحكتُكَ يا سيِّدي ".

فقالَ لهُ

" لا بل اللّهُ أضحكَنا "

ثُمَّ تلى

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾[1]

---

[1] . النَّجم (43)

يعني أنَّ ضحكَهُ ﷺ لم يكنْ لتعجُّبٍ طبيعي وإنَّما هو للهِ وناشئٌ عنِ الفرحِ باللهِ فهو ضحكٌ حالي عن نفحةٍ رحمانيَّةٍ كما هو شأنُ القومِ لا يضحكون تَعجُّباً بل لمَّا خامرَ باطنَهم من الفرحِ والسُّرورِ باللهِ فيستريحون بذلك ويتنفَّسون بهِ تنفُّسَ الإناءِ المملوءِ إذا رشحَ أو فاضَ، لكنَّهُم يبرزون ذلك في قالبِ الضَّحكِ العادي ستراً منهم على أنفسِهم كما يتنفَّسون بكثرةِ الكلامِ مع النَّاسِ أو الاشتغالِ بالمخاصمةِ معهُم لأدنى سببٍ إذا ترادفتْ عليهمُ الأحوالُ فيفيقون بذلك من سكرِهم ويردُّونَ بهِ الموجودَ يعرفُ ذلك مَنْ خالطَهُم ومارسَ أحوالَهُم.

ويكرهُ الهزلَ المشتغلَ بهِ وكثرةَ الممازحةِ في الأمورِ لكونِ ذلك ممَّا يُميتَ القلبَ أيضاً ويقولُ

" لكلِّ شيءٍ سوسةٌ، وسوسةُ الدِّينِ الهزلُ "

يعني إنَّهُ يُفسدُ الدِّينَ ويَذهبُ بهِ كما يُفسدُ السُّوسُ القمحَ ويأكلُهُ.

ولا يحبُّ الإكثارَ من ملاقاةِ النَّاسِ ولا الخوضَ معهُم فيما هم فيهِ، لا يذهبُ أحدٌ معهُ في الطَّريقِ وإذا لقيَهُ أحدٌ من الأصحابِ لم يزدْهُ على

" السَّلامُ عليكُم "

ولا يقدرُ أحدٌ أن يُقبِّلَ يدَهُ منهم حملاً لهم على عدمِ الاستعمالِ والتَّكلُّفِ وميلاً بهِم إلى الأدبِ الباطنيِّ, وهو الأدبُ الحقيقي خلافاً لما اعتادَهُ النَّاسُ من تأكيدِ تقبيلِ اليدِ لكلِّ مَنْ يعظِّمونَهُ، هذا شأنُهُ مع مَنْ لهُ معرفةٌ بهِ ومخالطةٌ إلَّا مَنْ غلبَ عليهِ أو كانَ ذا نيَّةٍ.

لا يعرفُ تصنُّعاً ولا إستعمالاً، وأما الأجنبيُّون فإنَّهُ يسامحهُم ويتغافلُ عنهم ويعذرُهم مخافةَ أنْ يكسرَ قلوبَهم وما أكثر ما يفعلون ذلك معهُ، فلا يمرُّ في طريقٍ إلَّا أكبَّ النَّاسُ عليهِ كبارُهم وصغارُهم، يسلمُّونَ عليهِ بتقبيلِ أطرافهِ كلَّما مرَّ بأحدِهم، وربَّما يزدحمونَ عليهِ وذلك لِما يفاجئُهم من جلالتهِ ومهابتهِ،

ويسري إلى قلوبِهم ممَّا ألقى اللهُ عليهِ من محبَّتهِ, واذا أحبَّ اللهُ عبداً ألقى في القلوبِ محبَّتَهُ وتعظيمَهُ، ووضعَ لهُ القبولَ في الأرض كما وردَ في الحديثِ[1].

وكانَ قبل هذه الأزمنةِ وخصوصاً زمنَ شيخهِ يفرُّ من ذلك غايةَ الفرارِ ويزجرُ كلَّ مَنْ يفعلُهُ من قريبٍ أو بعيدٍ كما تقدَّمَ في بابِ بدايتهِ، وأمَّا الآنَ فلم يبقَ على ذلك بل نقلَهُ اللهُ إلى حالِ الخلافةِ الدينيَّةِ فصارَ حالهُ ﷺ في ذلك على ما وصفنا.

وقد مرَّ يوماً بسوقِ العطَّارينَ راكباً دابَّتَهُ وبعضُ الأصحابِ معهُ فجعلَ النَّاسُ يزدحمون للتَّسليمِ عليهِ، يقبّلون ركبتَهُ ورجليهِ حتَّى أوقفوا الدَّابَّةَ، فلمَّا انفصلوا عنهُ التفتَ لمَنْ معهُ من الأصحابِ وقالَ لهُ

" لا عليَّ من ذلك ولا يخافُ من ذلك إلَّا المدَّعي"

وأظنُّهُ تلى عليهِ الآيةَ

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾[2]

ويعني بالمُدَّعي مَنْ معهُ بقيَّةٌ من الشُّعورِ بنفسهِ ولم يستغرقْهُ شهودُ الإحسانِ من ربِّهِ وهو ﷺ قد استغرقَهُ ذلك وتحقَّقَ بما هنالك.

---

1 . حَدَّثَنَا زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ سُهَيْلٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إنَّ اللَّهَ إذا أَحبَّ عَبْداً دعا جبريلَ عليهِ السَّلامُ فقالَ إِنِّي أُحبُّ فُلاناً فأَحبَّهُ، قالَ فيحبُّهُ جبريلُ، ثمَّ يُنادي فِي السَّماءِ فيقولُ إِنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يُحِبُّ فلاناً فأَحبُّوهُ، فيحبُّهُ أَهلُ السَّماءِ، قَالَ ثمَّ يُوضَعُ لهُ القبولُ في الأرض، وإذا أَبغضَ اللهُ عبداً دعا جبريلَ عليهِ السَّلامِ فيقولُ إِنِّي أُبغضُ فلاناً فأَبغضْهُ، قالَ فيبغضُهُ جبريلُ ثمَّ يُنادِي في أَهلِ السَّماءِ إِنَّ اللَّهَ يُبغضُ فُلاناً فأَبغضُوهُ، قالَ فيبغضونَهُ، ثمَّ تُوضعُ لهُ البغضاءُ في الأرضِ. رواه مسلم.

2 . الفتح (**10**)

صِلَتُهُ لرَحمِه ﷺ

ويصلُ رحمَهُ الدِّيني والطِّيني، فأمَّا الطِّيني فإنَّهُ يواصلُ كلَّ مَن لهُ قرابةٌ بهِ من نسبةٍ وذوي رحمهِ كبني إخوانهِ وبني أخواتهِ كلِّهِم بأنواعِ الصِّلاتِ كلِّها، يُعطيهِم ويُواسيهِم ويقضي حوائجَهُم، ويتفقَّدُ أحوالَهُم ويضيِّفَهم بدارهِ دائماً ويُكرمُ مثواهُم ونُزلُهم، ويُكرمُ نساءَهُم من بناتِ إخوانهِ وبناتِ أخواتهِ بالمُكثِ في ديارهنَّ ويقولُ لهُنَّ

" إنْ أردتُّنَّ الضِّيافةَ فإلى داري متى تشأْنَ ".

ويتعاهدُ زيارةَ سائرِ أقاربهِ بديارهِم ويُسهمُهم ممَّا رزقَهُ اللّٰهُ ويحملُ كَلَّهُم ويُكسبُ معدومَهُم ويُعينُهم على نوائبِ الخيرِ وعلى مؤنِهم ونوازلِهم، وما من مسألةٍ تهمُّهُم إلَّا أنزلوها بهِ فيجدون منهُ الرَّاحةَ ببركتهِ لا يغفلُ عنهم في أمرٍ ديني أو دنيوي، ويحنُّ على كبيرِهم وصغيرِهم ويزجرُ صبيانَهم عمَّا لا يعني، ويؤدِّبُهم كما يؤدِّبُ صبيانَهُ.

لا يرى أحداً منهم فعلَ قبيحاً إلَّا وبَّخهُ لا يألو في نصيحتِهم ما استطاعَ، يقومُ بحقوقِهم أحسنَ القيامِ، حازمٌ في ذلك كلِّهِ قوَّامٌ، ويحضُّ على القيامِ بحقوقِ الأقاربِ ويوصي بالابتداء بهم عند إرادةِ المواساةِ والصَّدقةِ عملاً بما وردَ بهِ الحديثُ[1] ويرى أنَّ تقديمَ غيرِهم عليهم ولو كانَ مُحتاجاً من الخطأ البيّنِ وشهواتِ النُّفوسِ.

وما أكثرَ ما يعظُ في شأنِ الوالدين ويُغري بحقوقِهما، ويحذِّرُ من عقوقِهما، ويقولُ ما معناهُ

" إنَّ مَنْ لم يُطعْهما ويبرَّ بهما لا يتيسَّرُ عليهِ سلوكَ هذه الطَّريقِ ومَنْ صدرَ منهُ عقوقٌ لهُما بعد أنْ دخلَ فيها قطعَهُ ذلك عنها، ثُمَّ لا يقدرُ لهُ أحدٌ بشيءٍ لا شيخَ ولا غيرَهُ "

---

[1]. وردت عدة أحاديث في تفضيل إعطاء الصدقة للأقربين فقد روى البخاري أن أبا طلحة عندما تصدق ببئرهِ (بيرُحاء) واستشار رسولَ اللّٰهِ فيمن يجعلها فقال ((وأرى أنْ تجعلَها في الأقربينَ)).

وما أكثرَ ما يستعظمُ خطرَ المضيّعِ لحقوقِهما وحُقَّ لهُ ذلك وإنَّهُ لعظيمٌ.

وأمَّا رحمهُ الدِّيني فإنَّهُ من أعظمِ النَّاسِ مواصلةً لهُ وأكثرِهم بروراً وإحساناً لأهلِ جانبِهِ، يُواسي إخوانَهُ وأصحابَهُ في اللهِ وكلُّ قولِهِ بهِ معرفةً في اللهِ بأنواعِ المواساةِ كلّها، ويُحسنُ إليهِم إحساناً لا يقدرُ أنْ يقومَ بهِ غيرُهُ، فيُطعمُ جائعَهُم ويحملُ ضائعَهُم ويكسو عاريهم ويُضيّفُ باديهم ويرفِدُ فقراءَهم ويعينُ ضعفاءَهُم ويعودُ مريضَهُم، ويبحثُ عمَّا ينفعهُ من الأدويةِ والأشربةِ، وربَّما يباشرهُ بيدهِ ولو كانَ فيهِ مشقَّةٌ .

ودخل مرَّةً على الفقيهِ العالمِ المنوَّرِ أبي عبد الله مُحمَّد المهدي بنِ أحمدَ الفاسي حفظهُ اللهُ يعودهُ مِنْ مَرضٍ، فلمَّا جلسَ عندَهُ، وتكلَّمَ معهُ في شأنِ مرضهِ رأى أنْ قد احتاجَ إلى علقِ الماءِ يتداوى بهِ، فخرجَ مِن عندهِ إلى وادي فاسٍ وجعلَ يُدخلُ رجليهِ إلى ركبتيهِ في السَّواقي الخارجةِ من الوادي والعلقُ يتعلَّقُ بهما ويَمتَص الدم منهما ثُمَّ يُخرجُهما والدم يسيل منهما فيأخذُ العلقَ المتعلِّقَ بهما حتَّى جمعَ ما احتاجَ إليهِ منهُما وأتى بهِ لسيّدي المهدي المذكورِ اعتناءً بهِ أنْ كانَ من أبناءِ الشَّيخِ سيّدي يوسفَ الفاسي ومن أصحابِ أبيهِ وإخوانهِ في اللهِ ايضاً إذ هو أشدُّ اهتماماً بأهلِ الأخوَّةِ الدينيَّةِ يتألَّمُ لمصابِهُم أكثرَ ممَّا يتألَّمُ لمصابِ ذوي نسبهِ ورحمهِ ويؤثرهُم على سائرِ أقاربهِ ومعارفهِ.

أعظمُ النَّاسِ عندَه قُرباً أكثرُهم في اللهِ حبَّاً، فيقرِّبُ عندَهُ الإنسانُ بذلك ولو كانَ من أبعدِ الأجانبِ ويُبعِدُ عندَهُ البعيدَ عن ذلك ولو كانَ من أقربِ الأقاربِ وتجدهُ يستعظمُ حقوقَهُم ويرى أنَّ القيامَ بها غيرُ مستطاعٍ، وأنَّهُ مقصِّرٌ في القيامِ بها على كثرةِ عنايتهِ بها ورعايتهِ لها وعِظَمِ ما يصدرُ عنهُ في ذلك من الإحسانِ والفعالِ الحسانِ.

وسمعتهُ غيرَ ما مرَّةٍ يقولُ ما معناهُ

" إنَّ الرَّجلَ ليلقاني رغبةً في المعرفةِ لي فأجدُني لا أحرصُ على تقريبِهِ ومداخلتهِ مخافةَ التَّقصيرِ في شيءٍ من حقوقهِ لأنَّ الأخوَّةَ في اللهِ أمرُها عظيمٌ "

وصدقٌ ﷺ فمثلُهُ مَنْ يعرفُ مقدارَها ويجتني ثمارَها

تَعاطيهِ ﷺ للأسبابِ

ويتعاطى الأسبابَ ولا سببَ لهُ سوى ما يتعلَّقُ بما لديهِ من أجنَّةٍ ونحلٍ ونحوِهما، فيكثرُ الذِّهابَ لخارجِ المدينةِ لمناولةِ ما يحتاجُ لهُ، ويُباشرُ أُمورَها بيدِهِ من زَبرِ[1] دوالي العنبِ وخدمتِها وتفقُّدِ النَّحلِ بعملِ ما يصلحُ لهُ وقطعِ الشَّهدِ وعصرِهِ وغيرِ ذلك من أمورِ الحراثةِ وغيرِها، فلا يأكلُ إلَّا صرْفَ الحلالِ ومن كسبِ يدِهِ، ولا يتركُ السَّببَ وقتاً من الأوقاتِ حتَّى إنَّهُ إذا لم يخرجْ خارجَ المدينةِ لا تراه إلَّا مشتغلاً بعملِ شيءٍ من الآلاتِ التي يحتاجُها لمناولةِ أسبابِهِ إنْ كانتْ, وإلَّا رأيتُهُ يفتلُ العَسقَ في الزَّاويةِ أو غيرِها.

فلا يتركُ العملَ إلَّا إذا لم يجدْ شيئاً يصنعهُ أو غشيَهُ أضيافٌ من الشُّرفاءِ وغيرِهم فيتركهُ ليُجالسهُم بصقلبيَّةِ الزَّاويةِ ليلاً ونهاراً حتَّى ينقلبوا لمكانِهم ويقولُ

" لو قيل لي غداً تموتُ لم أتركْ ما أنا عليهِ من الشُّغلِ بلا سببٍ "

وهذا لأنَّ ما هو فيه ﷺ للهِ وباللهِ ولموافقةِ أمرِ مولاهُ، فهو عندَ تعاطيهِ لهُ في طاعةِ سيّدِهِ لا يقطعُها لخوفِ موتٍ ولا غيرِها.

وصدقَ ﷺ فإنَّ أمثالَهُ من أهلِ الرُّسوخِ في اليقينِ والقوَّةِ والتَّمكينِ لا يتعاطون السَّببَ إلَّا على هذه الصِّفةِ فيزيدُهم ذلك كمالاً وجمالاً لما فيهِ من الجمعِ بين الحقيقةِ والشَّريعةِ والتَّمكُّنِ فيهما لا سيَّما إنْ صرفوا ما يتكسَّبونَهُ على عبادِ اللهِ كما يفعلهُ هو ﷺ أبداً وكما هو عادتهُ سرمداً، فدنياهُ بعد أنْ كانت

[1] . أي قطعِ عناقيد العنب المتدلية.

لآخرتِهِ وسببهُ بعد أنْ كانَ لامتثالِ أمرِ الشَّرعِ وموافقتِهِ من أعظمِ القرباتِ عندَ اللهِ وأحبّها إلى اللهِ لما فيها من نفعِ خلقِ اللهِ والرَّحمةِ لهُم, وفي الحديثِ

" **الخَلقُ كلُّهم عيالُ اللهِ وأحبُّهم إليهِ أنفعُهم لعيالهِ** "[1].

فلم يكن لهُ ﷺ طاعةٌ يصرفُ فيها بدنَهُ كلَّهُ للهِ دائماً وأبداً أحسنَ من هذهِ الطَّاعةِ مع ما فيها من السِّترِ لحالهِ الباطنةِ حيثُ لا يظهرُ للنَّاسِ ما هو عليهِ من كمالِ اليقينِ.

وقد اتَّفقَ لهُ يوماً أنْ اجتمعَ مع شيخِنا الإمامِ العالمِ العلَّامةِ أبي مُحمَّد سيِّدي عبدِ القادرِ بنِ عليٍّ بنِ يوسفَ الفاسي رحمهُ اللهُ، فجرى الحديثُ بينهُما فجعلَ سيِّدَنا أحمدَ يهضمُ نفسهُ ويقولُ لهُ

" **ما شُغلي إلَّا الجريُ على الدُّنيا والنَّاسِ يعملون شيئاً واحداً وأنا أستعملُ الحرثَ والنَّحلَ والجنانَ والمعصرةَ ولم أكْتفِ بسببٍ واحدٍ** ".

فقالَ لهُ الشَّيخُ أبو مُحمَّد

" لا تغرُّني بذلك تلكَ ملامةٌ، والكمالُ هو ذلك فإنَّ الذي يخدمُ ويُعطي أصحابَهُ أكملُ من الذي يأخذُ من أيديهِم ".

ثُمَّ جعلَ يفتِّشُ بطاقةً حولَهُ حتَّى وجدَها، فقرأ عليهِ فيها كلامَ الشَّيخِ سيِّدي عبدِ الوهابِ الشَّعراني في مضمنِها

" إنَّ الكمالَ هو تعاطي الأسبابِ، وإنَّ الشَّيخَ الكاملَ هو الذي يتسبَّبُ فيُعطي من ذلك أصحابَهُ "

وهذا دأبُ سيِّدِنا أحمدَ ﷺ لا يفترُ عن السَّببِ لأجلِ ذلك وتعبَّدَ اللهَ بهِ.

وقد قال هو ﷺ

" **المخصوصُ هو الذي يشتغلُ بما يشتغلُ بهِ النَّاسُ من الأسبابِ ويكونُ واحداً مـــن جملتِهم لا يتميَّزُ عنهُم، فيعمـلُ العملَ كالحراثةِ مثـلاً وإن تحقَّقَ أنَّهُ لا ينجحُ** ".

---

[1] . الحديث رواه البزار والطبراني في معجمه،

وجاءَهُ يوماً رجلٌ فقال لهُ

" يا سيّدي أردتُ أن أحرثَ معكَ الأرزَّ".

فقال لهُ

" لا ونهاه عن حرثه "

فأبى إلَّا أنْ يحرثَهُ.

فقال لهُ

" أنت وذاك ".

فذهبَ وحرثَ الأرزَّ قريباً من الأرضِ التي حرثَ فيها سيِّدُنا أحمدُ أرزَّهُ، فكانَ من أمرهِ أنْ وقعَ شرٌّ في تلك النَّاحيةِ، ففرَّتِ الأعرابُ هاربينَ بمواشيهِم، فمرُّوا عليهِ وعلى أرزِّ سيّدِنا أحمدَ فأفسدوهُ، ولم ينتفعْ منهُ بشيءٍ.

فلما رآه سيِّدُنا أحمدُ ﷺ بعد ذلك جعلَ يباسطهُ ويقول لهُ

" يا فلانُ أما تحرثُ الأرزَّ " ؟

ثُمَّ قال لمَنْ حولَهُ

" قد نهيتُ هذا عن حرثِ الأرزِّ مع كوني حرثتُهُ حتَّى أجدُني أستحي".

ففعلَ ما فعلَ ﷺ مع تحقُّقهِ المآلَ ببصيرتهِ ذهاباً منهُ على ما ذكرناهُ من حالتهِ وجرياً على مقتضى السَّببِ وحكمتهِ ونهيُ الرَّجلِ عنهُ لمَّا تعيَّنَ عليهِ من نصيحتهِ ولضعفهِ عن ذلك وعدمِ قوَّتهِ.

لِباسُهُ ﷺ

ويلبسُ المتوسِّطَ من الثِّيابِ ممَّا يلبسهُ عامَّةُ النَّاسِ ومساكنِهم، لا يحبُّ الأمتيازَ بثوبٍ حسنٍ ولا قبيحٍ، ويلبسُ للخدمةِ ثيابَها ولغيرِها ما اعتادَهُ ،فيلبسُ دائماً القلنسوةَ والعمامةَ والقميصَ والسَّراويلَ، وفي زمنِ الشِّتاءِ الفروةَ المسمَّاةَ بالقشابِ في شغلٍ وغيرِه، والجبَّةَ المسماةَ بالجلابيَّةِ، إذا كانَ في شغلٍ من الأشغالِ خارجَ المدينةِ أو داخلِها، ولم يكنْ يستعملَ البرنوصَ منذُ مزَّقهُ إلى أنْ كانَ عامَ أوَّلٍ في زمنِ البردِ، فجيءَ إليهِ ببرنوصِ صوفٍ فاشتراهُ ولبسَهُ, ولا يستعملُ في زمنِ الشِّتاءِ القباقيبَ التي يمشي بها وقايةً من الطِّينِ ولا يمشي بها البتَّةَ.

وقد يتَّفقُ لهُ زمنَ الطِّينِ المشيَ خارجَ المدينةِ حافياً فيدخلَ المدينةَ كذلك إلى أنْ يصلَ لدارِه، وهكذا عادتهُ في أولادهِ يُلبسهُم الخشنَ من الثِّيابِ ويُروِّضُهم على مباشرةِ الأمورِ بأيديهِم فيُرسلُهم إلى شراءِ النَّفقةِ من السُّوقِ وقضاءِ المآربِ لا يفعلُ ذلك أحدٌ عنهُم ولا يتركونَهُ يفعلهُ، ويحملهُم على التَّواضعِ والأدبِ ورفعِ الهمَّةِ والتَّخلُّقِ بأخلاقِ السُّنَّةِ ويحسمُ عنهُم مادةَ الخلطةِ على صغَرِ سنِّهم ويحرسُهم منها ويحملُهم ويمهلُهم ويزجرُهم عمَّا لا بأسَ بهِ مخافةَ ما فيهِ البأسُ ولا يرتكبُ في دارِهِ أمراً لم تردْ بهِ السُّنَّةُ بل قطعَ عنهم جميعَ العوائدِ والتَّكلُّفاتِ والزَّوائدِ في أعراسِهم ونفاسِهم وسائرِ أيَّامِهم، كما كانَ عليهِ والدهُ رحمهُ اللهُ وأمرهُ في ذلك واضحٌ وتفصيلهُ يطولُ.

تَبرُّؤهُ ﷺ مِن الدَّعوى

ويتبرَّأُ من الدَّعوى أتمَّ براءةٍ ويتنصَّلُ منها ومن كلِّ ما يشيرُ إليها غايةَ التَّنصُّلِ فلا يريدُ نسبةَ شيءٍ إليهِ ولا يقبلُ من أحدٍ فعلَ ذلك البتَّةَ، وإذا حكى شيئاً صدرَ عنهُ من محاسنِ الأعمالِ أو أشارَ إلى بعضِ ما لهُ من سنِّيِّ الأحوالِ لغرضٍ من الأغراضِ أسندَهُ إلى مُبْهمٍ فيقولُ

" وقعَ لبعضِ النَّاسِ أو لرجلٍ كذا وكذا "

لا يُسمِّي نفسَهُ، ثُمَّ ربَّما نلتقي بمَنْ حضرَ معهُ في بعضِ تلكَ القضايا بعينِها فيخبرُنا بأنَّهُ هو فاعلُها على التَّعيينِ فصرنا نعلمُ ذلك الإبهامَ وإنَّهُ ليسَ المرادُ سواهُ.

ولا يحبُّ مَنْ ينسبُ إليهِ شيئاً ولا من يُصرِّحُ لهُ بسرٍّ من الأسرارِ ولا من يمدحهُ بمحضرهِ ولا غائباً عنهُ بمراسلةٍ أو غيرِها، وإذا واجهَهُ أحدٌ يوماً بثناءٍ عليهِ لم يسامحْهُ إلَّا إنْ كانَ غائباً عن حسِّهِ أو كانَ غريباً أو غِرَّاً بمداركِ الأمورِ فإنَّهُ يصفحُ عنهُ.

ولا يحبُّ ثناءَ الشُّهودِ إذا أوقعوا الشَّهادةَ عليهِ وكتبوا اسمَهُ في رسمٍ بأنْ يجلوهُ بتحليةٍ ديانةٍ أو يصفوهُ بوصفِ تعظيمٍ، فصاروا إذا كتبوا الشَّهادةَ عليهِ يتحرَّزونَ من إتباعِ إسمهِ بنعتِ عرفانٍ أو نحوهِ ممَّا اختصَّهُ اللهُ تعالى بهِ ولاحتْ عليهِ بَرا منهُ، وكثيراً ما نكتبُ الشَّهادةَ عليهِ فلا نقدرُ على فعلِ شيءٍ من ذلك.

ولقد رأى بيدي يوماً بطاقةً فيها أرجوزةٌ صغرى في سندِ طريقهِ قد ابتدأتُها بهِ فأمرني بقراءتِها فقرأتُها عليهِ، فقالَ لي

" أمحُ هذا "

يعني إسمَهُ، وابدأ بسيِّدي قاسمٍ يعني سيِّدي قاسماً الخصاصي شيخَهُ رحمهُ اللّهُ.

فاتَّفقَ لي معهُ في ذلك مثلَ ما اتَّفقَ لبعضِهم مع الشَّيخِ ابنِ عبَّادٍ ﷺ فيما رأيتهُ منبهاً عليهِ بخطِ تلميذهِ الشَّيخِ سيِّدي يحيى السَّراجِ رحمهُ اللهُ، وذلك إنَّ هذا البعضَ كتبَ إسمَ الشَّيخِ ابنِ عبَّادٍ وهو في قيدِ الحياةِ فحلَّاهُ بالعارفِ فرآهُ بعد ذلك ابنَ عبَّادٍ فضربَ عليهِ بيدهِ ضرباً كثيراً وتركَ اسمهُ مجرَّداً، فكتب تحتهُ سيِّدي يحيى السَّراجُ هذا الضربَ بخطِّ الشَّيخِ ابنِ عبَّادٍ ﷺ.

ويشدِّدُ النَّكيرَ في دعوى الفقرِ وما يشيرُ إليهِ ويقولُ

" إلى الآنَ ما حصلتْ لنا التَّوبةُ "

تنبيهاً للسَّامعينَ وإرشاداً للمتابعينَ، والتَّعليمُ بالفعلَ أبلغُ نصحاً وأتمُّ نجحاً فجزاهُ اللهُ كلَّ خيراٍ وزادهُ مِنَّةً وبِرَّاً، وقد نجحَ والحمدُ للهِ ذلك وسرى للأصحابِ بعضُ ما هنالك، ولا تجدُهم ينتسبون لشيءٍ ولا يتميَّزون بشيءٍ، ولا يحبُّون الدَّعوى ولا مَنْ يشتغلُ بشيءٍ منها لِما يعلمون من حالهِ ويسمعونَ من مقالهِ ويرونَ من فرارهِ منها وممَّنْ هي فيهِ.

وكنتُ يوماً منكسرَ الخاطرِ من بعضِ ما صنعتُه وظللتُ سائرَ يومي مغموماً فدخلتُ عليهِ أبقى اللهُ جلالتَهُ، وجلستُ أمامهُ وقلتُ في نفسي مخاطباً لهُ ما أستحقُّ يا سيِّدي أن أجلسَ بينَ يديكَ، فبينما أنا أُرددُ ذلك في فكري إذ قالَ لنا

" إني لَيعجبُني العاصي المُقرِّ بعصيانهِ يدخلُ عليَّ، ويثقلُ عليَّ أنْ ألقى المتَّقي المعتدَّ بتقواهُ "

ثُمَّ ذكرَ حديثَ

" لو لم تكونوا تذنبون لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العُجب العجب "[1]

---

[1] . حَدَّثنا مُحمَّد بن عبد الملك القرشي ، حَدَّثنا سلام أبو المنذر ، عن ثابتٍ ، عَن أَنَسٍ ، قال : قال رسول الله ﷺ : لو لم تكونوا تذنبون لخشيت عليكم ما هو أكثر منه العجب (مسند البزاز).

فأزالَ ما بي ﷺ بكلامهِ ذلك.

وعلمتُ أنَّ الدَّعوى هي أشدُّ بلاءً من البلوى، وكثيراً ما نراهُ يستعيذُ باللهِ منها ويقولُ

" إنَّ صاحبَها كَم سقطَ من عالٍ إلى سُفلٍ "

يريدُ أنَّهُ نالَهُ العطبُ الذي لا جبرَ لهُ كم انكسرتْ عظامهُ كلُّها ويقولُ

" إنَّ عقوبتَها سوءُ الخاتمةِ والعياذُ باللهِ "

يزجرُ السَّامعينَ بهذا الكلامِ دائماً.

ويطلبُ الخمولَ والخفاءَ أبداً ولا يحبُّ الظُّهورَ، ولا مَنْ يتظاهرُ أو يتمايزُ بشيءٍ كما يأتي في بابِ زهدهِ، يجلسُ حيثُ انتهى بهِ المجلسُ ويحضُّ على ذلك كثيراً ولا يعيِّنُ لنفسهِ أو يُعيَّنَ لهُ موضعٌ يجلس فيه بل إذا تُركَ لأجلهِ تركَهُ، ولا يخصُّ للجلوسِ للنَّاسِ وقتاً مُعيَّناً بل بحسبِ ما اتَّفقَ لهُ زماناً ومكاناً تارةً بعد حزبِ الغداةِ، وتارةً إثرَ صلاةٍ من الصَّلواتِ وتارةً ضحوةً وتارةً بينَ العشائينِ وتارةً بصقلبيَّةِ الزَّاويةِ لا سيَّما إذا جاءَهُ بعضُ الوافدينَ إليهِ.

تَعظيمُهُ ﷺ لأَهلِ البَيت

ويحبُّ آلَ البيتِ النَّبوي المحبَّةَ العظيمةَ، ويودُّهم المودةَ الجسيمةَ، ويهتمُّ بأمورِهم ويعتني بشؤونِهم، لا يزالُ حريصاً على إيصالِ الخيرِ إليهِم، ويهدي لهُم الطُّرُفَ كالشَّهدِ ونحوهِ، ويسعى في قضاءِ حوائجِهم ويضرعُ إلى اللهِ فيما يُصلِحهُم ويكرمُهم غايةَ الإكرامِ، ويبرُّ لهم أشدَّ البرورِ، ويتواضعُ لهم أعظمَ التَّواضعِ، ويتأدَّبُ معهم أحسنَ الأدبِ.

ويستعملُ لهُم إذا قدموا عليهِ الأطعمةَ الرَّفيعةَ، يخرجُها من دارهِ إليهِم، ويتناولُ ذلك بيدهِ أمامَهُم تعظيماً لهم، ويرفعُ لهم الطَّستَ أو الآنيةَ من الماءِ،

فيغسلون أيديهم وهي في يدهِ، ويعزمُ عليهم في ذلك إنْ أبَوْ أو يرى أنَّهُ ليسَ أهلاً لقدومِهم عليهِ ويصرِّحُ بذلك وينصحُهم ويعظهُم ويذكِّرُهم ويرشدُهم إلى التخلُّقِ بأخلاقِ النَّبي والعملِ بسنَّتهِ ويقول

" الشُّرفاءُ أولى النَّاسِ بكلِّ جميلٍ وأحقُّ بالإرثِ من رسولِ اللهِ ﷺ "

ولا يجلسُ في المكانِ مستوياً معهم إنَّما يجلسُ أسفلَ منهم أو على الأرضِ وهم على فراشٍ أو بساطٍ.

وهكذا أهلُ دارهِ وعيالهِ اذا جاءتهُم الشَّريفةُ لا يجلسون في المكانِ مساوينَ لها أبداً بل يتأدَّبون معها غايةَ الأدبِ، ويبالغون في تعظيمِها وإكرامِها تأدبَّاً بآدابهِ ويحضُّ النَّاسِ على محبَّتهِم وتوقيرِهم والتَّواضعِ لهم والأدبِ معهم، ويبيِّنُ عظيمَ مجدِهم ورفيعِ قدرهِم، ويرى أنَّ التَّواني في أمورِهم ومحبَّتِهم نقصٌ في الإيمانِ ولا يحبُّ مَنْ يناوئُهم أو يباريهِم أو يخلُّ بأدبٍ معهم، ويكبرُ عليهِ ذلك ويشقُّ عليهِ ويشدِّدُ فيه النَّكيرُ.

ومرَّ يوماً ببعضِ النَّاسِ يذكرُ بعضَ الأشرافِ بسوءٍ أو يسبُّهُ فلم يتمالكَ أنْ صاحَ صيحةً واعتراهُ حالٌ ثُمَّ هدأ وسكن فزجرَ ذلك البعضَ عن مقالتهِ ووبَّخهُ عليها غايةَ التَّوبيخِ ثُمَّ انصرفَ.

ووقعَ لي مرَّةً مع بعضِ بني عمِّي منافرةٌ فبلغهُ ذلك فلامني عليهِ وقالَ لي **" أتحسبُ أنَّ حقوقَ آلِ البيتِ إنَّما تجبُ على العامَّةِ خاصَّةً بل كذلك الشُّرفاءُ فيما بينهم لأنَّ ذلك حقٌّ من حقوقِ النَّبي ".**

وكانَ بعضُ الشُّرفاءِ ممَّن لهُ بعضُ موالاةٍ لسيِّدِنا أحمدَ من قبيلِ المصاهرةِ ربَّما يجهلُ عليهِ بظهرِ الغيبِ، فإذا لقيهُ استحيى واستغفرَ في نفسهِ وأرادَ أن يعتذرَ عن قولهِ فعرفَ ذلك منهُ سيِّدُنا أحمدُ أو بلغهُ عنهُ فقالَ لهُ يوماً

" أترى أنَّك تنقصُ عندي بسببِ ما تقولُ شيئاً هيهاتَ ذلك "

ثُمَّ حلفَ لهُ أنَّهُ لا يجدُ في نفسهِ فرقاً بينَ أنْ يحملُ عليهِ أو لا يحملُ، وإنَّ منزلتَهُ عندهُ لكُما هي فاعلاً ما فعلَ رعايةً لحقِّ النَّبي ﷺ وأدباً معه.

ومن عظيمِ محبَّتهِ إيَّاهُم وأدبهِ معهُم وتواضعهِ لعليِّ قدرهِم إنْ خطبَ إليهِ بعضُ بناتهِ غيرَ واحدٍ من الشُّرفاءِ فلم يقدرْ أن يصاهرَهُ مخافةَ تقصيرِ البنتِ في شيءٍ من الحقوقِ والوقوعِ في بعضِ العقوقِ فتغضبُ بذلك آلَ البيتِ الذي يُغضبُ فاطمةَ بنتَ رسولِ اللهِ ﷺ ما أغضبهُم ويُغضبُ أباها ما أغضبَها وأعتذرَ للشَّريفِ بذلك ونحوهِ فقبلَهُ.

ووقعَ لهُ في ذلك مثلُ ما وقعَ للمُسورِ بنِ مخرمةَ ﷺ حيثُ خطبَ ابنتَهُ الحسنُ المثنى على ابنةِ عمِّهِ فاطمةَ بنتِ الحسينِ رضيَ اللهُ عنهُما، فاعتلَّ لهُ بحديثِ

" فاطمةُ بضعةٌ منِّي يقبضُني ما يقبضُها ويبسطُني ما يبسطُها "[1]

وبأنَّ عندهُ أبنتَها وذلك يقبضُها ويقبضُ جدتُها بنتُ رسولِ اللهِ ﷺ فوافقَ فعلَ سيِّدِنا أحمدَ ﷺ فعلَ هذا الصَّحابي الكريمِ وسلكَ مسلكَهُ في الإجلالِ والتَّعظيمِ، وكثيراً ما يُقرِّرُ أنَّهُ لا يقدرُ أحدٌ أن يقومَ بحقِّهم العظيمِ، وأنَّ المُصاهرَ لهم قد يرى في نفسه شيئاً من المساواةِ فيخلُّ بالوقارِ، وما فرضَ اللهُ من الإجلالِ والإكبارِ ويذكرُ عن والدهِ الشَّيخِ سيِّدي مُحمَّد ﷺ أنَّهُ كانَ يوصي بتوقيرِهم واحترامِهم.

والاحتياطُ في تعظيمِ مقامِهم بعدمِ المصاهرةِ لهم مخافةَ أنْ يرى الإنسانَ نفسَهُ أهلاً لذلك فيُنكحُ منهم كما نكحُوا منهُ فلا يرى لهم مزيَّةً ويستخفُّ برتبتِهم العليَّةِ، وهذه آفةٌ قلبيَّةٌ وعلَّةٌ خفيَّةٌ لا يراعيها ويحترزُ منها إلَّا أربابَ القلوبِ أمثالِهما رضيَ اللهُ عنهُما.

---

1 . الحديث (وإنَّما فاطمةُ بضعةٌ منِّي يؤذيني ما أذاها) رواهُ البخاري مسلم.

ومن شدَّةِ تعظيمهِ لقدرِهم وغيرتهِ عليهِم إنَّهُ لا يحبُّ مَنْ يخالطُهم على حظٍّ أو يخادعُهم في شيءٍ أو يكتمُ عنهُم نصيحةً ويقبِّحُ ذلك غايةَ التَّقبيحِ ويكرهُ فاعلَهُ وربَّما صرَّحَ لهُ ببعضِ مَنْ يفعلُ شيئاً من ذلك فيغضبُ من أجلهِ للهِ ولرسولهِ غضباً لا يقوم لهُ شيء ولا يقدرُ أحدٌ أنْ ينطقَ عند ذلك بكلمةٍ، ويتوعَّدُ ذلك البعضَ بتعجيلِ العقوبةِ لهُ من اللهِ فينتقمُ اللهُ عزَّ وجلَّ منهُ عاجلاً كما قالَ حسبَما شاهدناهُ.

والحاصلُ أنَّ محبَّتهُ لآلِ البيتِ النَّبوي وتعظيمهِ إيَّاهُم أمرٌ عظيمٌ لم نرَ مثلَهُ لأحدٍ من أهلِ زمانِنا ولا سمعنا بهِ بل هو شيءٌ انفردَ بهِ فاشتهرَ بهِ اشتهاراً وامتازَ بهِ امتيازاً حتَّى عُرفَ بهِ وتحقق منهُ ذلك جملة الشُّرفاء حتَّى حلفَ بعضُهم مع كونهِ لهُ زوجةٌ يمينَ الطَّلاقِ أنَّهُ لا أحدَ يُحبُّ الشُّرفاءَ أكثرَ من سيّدِنا أحمدَ بنِ عبدِ اللهِ، ولقد صدقَ في نفسِ الأمرِ في يمينهِ وأستندَ، لعلمهِ بذلك ويقينهِ، والمحبَّةُ وإن كانتْ وصفاً قلبياً تُعلمُ زيادتُها بالأفعال الدَّالةِ عليها والأماراتِ المرشدةِ اليها، وإنَّا لا نعلمُ مَنْ يحبُّ الشُّرفاءَ ويعظِّمُهم في هذا الزَّمانِ محبَّةً وتعظُّماً مثلَ محبَّتهِ وتعظيمهِ وذلكَ ليسَ بغريبٍ في حقِّ أمثالهِ، ثُمَّ لا نعلمُ أحداً أطبقَ الشُّرفاءُ على تعظيمِ أمرهِ وترفيعِ قدرهِ مثلهِ، ولقد تواطؤُوا على محبَّتهِ وأئتلفتْ قلوبُهم على مودَّتهِ لمَّا سرى من قلبهِ إليهِم وظهرَ من أثرهِ عليهِم.

والقلبُ مرآةُ القلبِ ومظهرُ آثارِ رحماتِ الرَّبِّ، وقال لهُ يوماً رجلٌ

" يا سيِّدي إنِّي أُحبُّ آلَ البيتِ "

فقالَ لهُ

" هيهات ذلكَ لو كنتَ تُحِبُّهم لاتَّبعوكَ من وراء "

يعني لأحبُّوكَ وعلقوا بك لمَّا علمَ من سريانِ المحبَّةِ عند ذوي القلوبِ السَّليمةِ والطِّباعِ المستقيمةِ، ومحبَّةُ آلِ البيتِ النَّبوي رزقنا اللهُ منها أوفرَ نصيبٍ من نتائجِ الإيمانِ الحقيقي وثمراتهِ، وكذا سائرِ هذه السِّيرةِ المُحمَّديَّةِ التي سارَ

بها سيِّدُنا أحمدُ ﷺ ممَّا في تبيانِ آثارِها ونشرِ أخبارِها عبرةً للمعتبرين وتذكرةً للمذكرين وتشديدٌ للمتَّقين وتأييدٌ للموفقين وعونٌ للمتوجِّهين ويقظةٌ للمتنبهين ومحجةٌ للمقتدين وحجةٌ على المعتدين، رزقنا اللهُ بركتَهُ وضاعفَ لنا محبَّتهُ آمين.

أَخلاقُهُ ﷺ

أمَا أخلاقهُ ﷺ وهي ما تكيَّفَ بهِ من الأوصافِ المجيدةِ والسَّجايا الحميدةِ التي هي المسمَّاةُ بمكارمِ الأخلاقِ وهي الذَّكاءُ والفطنةُ والشَّجاعةُ والنَّجدةُ والحنانةُ والشَّفقةُ والرأفةُ والرَّحمةُ والصَّبرُ والاحتمالُ والتَّواضعُ والأدبُ.

وعلوُّ الهمَّةِ التي هي العفافُ والصِّيانةُ والوفاءُ, والفتوَّةُ التي هي الكرمُ والسَّخاءُ والحلمُ والعفوُ والإنابةُ والإيثارُ والسَّعيُ في حوائجِ الأبرارِ، احدى وعشرون فقد تقدَّمَ منها في بابِ نشأتهِ الأربعةَ الأولِ التي هي، الذَّكاءُ والفطنةُ والشَّجاعةُ والنَّجدةُ, ويأتي في البابينِ بعد هذه الثَّلاثةَ المُندرجةَ في علوِّ الهمَّةِ وهي، العفافُ والصِّيانةُ والوفاءُ, والسِّتةُ المندرجةُ في الفتوَّةِ التي هي، الكرمُ والسَّخاءُ والحلمُ والإفاءةُ والعفوُ والإيثارُ وباقيها يذكرُ هنا جميعاً وهي الحنانةُ والشَّفقةُ والرَّأفةُ والرَّحمةُ والصَّبرُ والاحتمالُ والتَّواضعُ والأدبُ، وقد أكرمَهُ اللهُ سبحانَهُ بأوصافِ جُبلَ عليها في أصلِ فطرتهِ.

فلمَّا فُتحَ عليهِ ما فُتحَ عادتْ قربى إلى اللهِ ووصلةٌ لحضرتهِ، فانزلَ كُلّاً منها بمحلّهِ، ولِما خُلقَ لأجلهِ فصارتْ كلُّها للهِ وفي اللهِ، فكان ذكاؤهُ فهمهُ عن اللهِ مرادَهُ, وافاءتهُ اتقائه للعبادة, وصبره سكونه تحت الأقدار واحتماله قضاؤه الحوائج والأوطار, وشجاعته قوة في الدين, ونجدته نصرة طريق المهتدين, وسخاؤه بيع نفسه على الله وفي الله, وعلو همته انقطاعه اليه عما سواه, وفتوته وفاؤه بمعاملة مولاه, وكانت تلك الأوصاف تمهيداً لهذه الأخرى ورقى بها في درجة الإحسان مقامة كبرى

" كلٌّ ميسَّرٌ لِما خُلقَ لهُ "[1]

ومن أخلاقهِ الكريمةِ النَّافعة العميمةِ، الحنانةُ والشَّفقةُ والرَّأفةُ والرَّحمةُ، لا تجدهُ إلَّا عطوفاً رؤوفاً شفيعاً رفيقاً يحنُّ على المسلمين ويرقُّ للمساكين ويألم لمصابِهم ويشفقُ لما بهم، ويلاطفُ ذوي الحاجاتِ ويواسي ذوي الفاقات، ويُودُّ ذوي الإغترابِ أكثر من ذوي الإقترابِ، ويميلُ إليهِم ويتعطَّفُ عليهم، ويجالسُهم ويؤانسُهم وينازلُهم ويعاملُهم وخصوصاً أهلَ الفطرةِ السَّليمةِ منهُم الذين لا يضمُرون من سريرتِهم مثقالَ ذرَّةٍ، فكثيراً ما نراه يبرُّ بهم ويرفقُ بهم ويرحمُهم ويكرمُهم، ويعجبهُ حالُهم ويثني عليهم بظهرِ الغيبِ الثَّناءَ الجميلَ ويقولُ

" يعجبُني أنْ يشرقَ عليَّ أو أرى أحداً من الضُّعفاءِ الخاملين والمساكين المهملين "

وسمعتهُ يقولُ

" إذا وجدَ الأنسانُ في نفسهِ ميلاناً لهؤلاءِ المساكينَ الذين لا بالَ لهُم فذلك من أثرِ رحمةِ اللهِ "

وبِتنا عندَهُ ليلةً في مصريَّتهِ الملاصقةِ للزَّاويةِ فدخلَ معنا رجلٌ غريبٌ من بلادٍ نائيةٍ لهُ بنا مُخالطةٌ، فجعلَ يلاطفهُ ويباسطهُ ويبرُّ بهِ وصرفَ عنانَ عنايتهِ

---

[1] . عن عمران بن حصين، قال: قيلَ لرسولِ اللَّه –صلى اللَّه عليه وسلم–: "يا رسول اللَّه، أَعُلِمَ أهلُ الجنة من أهلِ النار؟ قال: نعم، قال: ففيمَ يعملُ العاملون؟ قال: كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ لَهُ". ((رواه الشيخين)

تلك اللَّيلةَ إليهِ وأكلَ معهُ بعد رفعِ النَّاسِ أيديهِم، وجعلَ يؤكِّدُ عليهِ في المزيدِ، ولمَّا أخذنا مضاجعَنا خرجَ من الغرفةِ التي نحن فيها إلى صحنِ المصريَّةِ وأخذَ وسادةً فتوسَّدها معهُ وناما في عرضِها متساويين، وأخذَ يحدِّثهُ ويؤسهُ حتَّى غلبَ عليهِ النَّومُ وكانت مادةَ الوسادةِ قتّة من نباتٍ يقالُ لهُ أبردي[1].

وما شكى لهُ أحد ألماً و مرضاً إلَّا اهتمّ لهُ وعَظُمَت شفقته عليهِ ورأيت لهُ بهِ اعتناء عظيماً فلا يزال يذكره داعياً لهُ ويسألُ عنهُ وعن مُصابهِ حيناً بعد حينٍ حتَّى يكشفَ ما بهِ ويُفرِّجُ اللهُ عنهُ، ولا يزالُ مشوَّشَ البالِ لأجلهِ حتَّى يسمعَ خبرَ شفائهِ ومعافاتهِ، ولا يحبُّ أن يُكتمَ خبرَ شفائهِ عنهُ.

وسمعتهُ يقولُ وقد سألَ عن بعضِ المرضى فأُخبرَ أنَّهُ برئ

" ما بالُ الإنسانِ يأتي متألماً لمُصابهِ متوجِّعاً منهُ فإذا عوفي سكت وهلا أخبرنا بالشِّفاءِ كما أخبرنا بالمرضِ لنشكرَ معهُ اللهَ كما رفعنا لهُ الضَّراعةَ إليهِ لنقولَ بالأمسِ يا ربِّ منكَ العافيةُ، ونقولُ اليومَ يا ربِّ لك الحمدُ ولا نُحرمُ حمدَ اللهِ وشكرهِ "

وما أبصرَ ذا مصيبةٍ وإنْ لم يشكُ صاحبُها إليهِ إلَّا رقَّ لهُ رقَّةً عظيمةً يظهرُ أثرَها عليهِ، وتجدهُ يذكرُ ذلك مشفقاً منهُ ومعتبراً بهِ، وقلَّما وجدَ كذلك أحداً إلَّا سلَّاهُ أو واساهُ أو جمعَ بينهُما، وكان يوماً ذاهباً في السُّوقِ فلقيَ رجلاً من برابرةِ الخيلِ يسيرُ بسوقِ العطَّارينَ يتلهَّفُ ويتأوَّهُ، ذاهلُ العقلِ ذاهبُ الصَّبرِ في حسرةٍ عظيمةٍ وحيرةٍ شديدةٍ، والنَّاسُ مُحدقون بهِ يقولون

" قُطعَ لهذا صرَّةُ دراهمَ كانت عندَهُ "

فأخذ بيدهِ وقال لهُ

" جبرَ اللهُ عليك "

فتواعى الرَّجلُ واستيقظَ ممَّا هو فيه فمضى بهِ إلى بعضِ حوانيتِ الأطبَّاءِ واشترى لهُ شربةً وسقاه إيَّاها جبراً لعقلهِ وستراً عن أعينِ النَّاسِ لمَّا أرادَ من

---

[1] . لعلهُ البردي.

فعلهِ، ثُمَّ خلا بهِ لمَّا ذهبَ عنهُ النَّاسُ وأعطاهُ عددَ الدَّراهمِ التي سُرقتْ لهُ وكانت كثيرةً، ولم يكن حينئذٍ معهُ أعني سيِّدَنا أحمدَ شئ من الدَّراهم ولكنَّهُ استلفَها من بعضِ معارفهِ، فانصرفَ الرَّجلُ مجبورَ العقلِ والخاطرِ ناعمَ البالِ والحالِ، ولم يعرفْ مَنْ أخذ بيدهِ وواساهُ لكونهِ لم يلقَ قطُّ سيِّدَنا أحمدَ قبلَ ذلك ولا رآه.

صَبرُهُ ﵁

ومن أخلاقهِ العظيمةِ الرَّاسخةِ الجسيمةِ الصَّبرُ والاحتمالُ لا ترى أصبرَ منهُ للتَّكاليفِ ولا أثبتَ منهُ في المخاوفِ يصبرُ الصَّبر الجميل عند المضايق والشدائد كأنه الجبل لا يتزحزح ولا يبرح مكانه, قوّام في نفسه قوي في ذاته غير مَهين ولا مُتضعف, مُتحمل للمشاق ولا يتبين عليهِ أثر النّصَب لشدة صبره واحتماله وثبوته وتؤدته, يتعاطى أسبابُه خارج المدينة فيتعب فيها التّعب الشديد وتنالُه منها المشقة العظيمة دائماً ثُمَّ لا ينقص من نوافله ووظائفه الدينية شيئاً وربَّما يبيت بالليل ساهراً فيصبح بالنهار على عمله أو يظل على عمله فيبيت ساهراً فلا يعطل ذلك منهُ أمراً ولا ينقص لهُ صبراً.

ولا يظهرُ عليهِ كربُ نفسٍ أو قلقُ نفسٍ, ويتحمَّلُ إذايةَ مَنْ آذاهُ ولا يكترثُ بمَنْ ناواهُ, ولا ينتصرُ إلَّا لأخٍ في اللهِ أو أحدٍ من آلِ بيتِ رسولِ اللهِ ﷺ أو حقّ من حقوقِ اللهِ، ويصبرُ في اللهِ وللهِ, وقد أُوذيَ في معرفةِ شيخهِ سيّدي قاسمٍ رحمَهُ اللهُ فما سأمَ ولا ضجرَ ولا شرَّدَ ولا نفَّرَ, ولا يجزعُ لنازلةٍ معضلةٍ ولا لواقعةٍ مذهلةٍ ممَّا ينزلُ بالنَّاسِ عموماً أو بجانبهِ خصوصاً ويثبِّتُ النَّاسَ في ذلك وربَّما يزجرُ بعضَهم فيثبتون ويتلو في ذلك كثيراً قولهُ تعالى

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾[1]

وقد تمرُّ بهِ أو بمَنْ معهُ عظامُ الدَّواهي وإنَّ حالَهُ في الوقتِ لكما هي لا ينقصُ ذلك منهُ شيئاً، ولا يُحوّلُ لهُ ظلّاً ولا فيئاً بل يستمرُ على ما كان عليهِ من عادةٍ أو عبادةٍ ركوناً واستسلاماً لمَنْ لهُ القدرةُ والإرادةُ.

وقد كان يومَ وقوعِ الثَّورةِ الكبيرةِ بفاسٍ الكائنةِ أوّلَ يومٍ من جمادي الثَّانيةِ سنةَ ثلاثٍ وثمانين وألفٍ يستمعُ لقراءةِ كتابِ قوتِ القلوبِ بين المغربِ والعشاءِ كانوا يقرؤونَهُ بالزَّاويةِ حينئذٍ فقيلَ لهُ

" إنَّ النَّاسَ قاموا على السُّلطانِ مولاي اسماعيلَ وقتلوا قائدَهُ الأعظمَ زيدان، وإنَّ الدُّنيا قد قامتْ قيامتُها "

ففزعَ النَّاسُ حولَهُ والتفتوا يميناً وشمالاً وهمُّوا بقطعِ القراءةِ والذِّهابِ لديارِهم فقال لهم امكثوا وزجرَهم فاستمُّروا على قراءتِهم مطمئنّين إلى صلاةِ العشاءِ على عادتِهم, واتَّفقَ أنْ وقفَ القاريءُ يومئذٍ على كتابِ الصَّبر فكان اتِّفاقاً عجيباً وواقعاً غريباً, وكم لهُ ﷺ من مثلِ ذلك في أمثالِ هذهِ النَّوازلِ ممَّا يزادُ بهِ صبرهُ وتظهرُ بهِ قيمتَهُ وقدرَهُ .

وكذلك إذا نزلَ بهِ مرضٌ كان أجملَ النَّاسِ تحمُّلاً وأرضاهُم صبراً حتَّى لا يظهرَ ما هو فيهِ من شدَّةِ المرضِ، وإن عظُم ألمهُ ولا يؤثِّرُ ذلك في معناهُ وخلقهُ، وإنْ أثَّرَ في جسدهِ وحسّهِ بل يظهرُ عليهِ أثرُ بشاشةٍ وسرورٍ بل يعظُمُ سرورهُ إذ ذاك جداً، ويظهرُ عليهِ أثرُ حالهِ الباطني حتَّى يستحي الإنسانُ أنْ يقولَ كيف أنت لما يرى عليهِ من أثرِ الرِّضى والصَّبرِ, وقد مرضَ مرَّةً مرضاً شديداً ألزمَهُ الفراشَ وكانتْ الحمَّى فيه لا تفارقهُ وينزلُ بهِ من ثقلِها وحرارتِها وآلامِها مالا يوصفُ قدرهُ حتَّى خافَ النَّاسُ عليهِ واشتدَّ ألمهُم عليهِ ومع ذلك فكان إذا دخلَ عليهِ أحدٌ لا يجدهُ إلّا في غايةِ ما يكونُ من السُّرورِ والانشراحِ.

1 . العنكبوت (2)

وقد كان عندَهُ يوماً جماعةٌ من الأصحابِ فرأوا ما بهِ من حرارةِ الحمَّى ووهجِها ما أذهلَهُم وهو على حالهِ ذلك يردِّدُ ويقولُ

في القلبِ موضعٌ للحبيبِ   إنْ غابَ أو حضر

دعه يحرز أو يبيـــع   مَنْ يمنعُ فيما ملك

وجعلَ يكرِّرُها بصيغتِها المعلومةِ يتلذَّذُ بها والأصحابُ يقولون معهُ ذلك تبعاً لهُ, وظهرَ عليهِ من الحالِ وعلاهُ من السُّرورِ ما عجبوا لشأنهِ, ودخلَ عليهِ في هذا المرضِ بعضُ الأصحابِ فرأى وجهَهُ عليهِ أثرُ السُّرورِ والحُسنِ ما بهرَ عقلَهُ فقال لهُ

" يا سيّدي وجهُك مليحٌ على خيرٍ "

فتبسَّمَ وقال

" أقولُ كما قالَ سيِّدي عبدُ الرَّحمنِ يعني بنُ مُحمَّد الفاسي, وجهي على قلبي"

يعني لا يظهرُ عليهِ إلَّا ما سكنَ بالقلبِ.

ودخلَ عليهِ مرَّةً بعضُ الأصحابِ فرأى من عظيمِ ما نزلَ بهِ ما أدهشَهُ فبكى فالتفتَ إليهِ ﷺ وقالَ

" أما رضيتَ بما فعلَ اللهُ "؟

وسألتُ عنهُ مرَّةً الطَّبيبَ الذي كان يتفقدُ أحوالَهُ في مرضهِ فقالَ لي

" إنّي اذا دخلتُ على سيّدي أحمدَ فسألتهُ كيف هو؟ جعلَ يهوّنُ ذلك حتَّى أستحي من سؤالي لهُ على ذلك مع أنَّهُ يكونُ حينئذٍ في غايةِ المرضِ والألمِ "

يهوّن المصاب ويوهنه ويقول إنما المصيبة مصيبة الدّين والقلب لا مصيبة البدن والمال ويحمل المتضجِّر على الصَّبر ويندبه إليهِ ويُعجبه الصابر ويثني عليهِ ويقول كل شيء من الثواب تجد لهُ في الشرع قدراً وحداً إلَّا الصَّبر فقد قال الله فيه

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[1]

ودخلتُ عليهِ يوماً معهُ لعيادةِ بعضِ الأصحابِ من الشُّرفاءِ الطَّاهرينَ كان أصابَهُ الوباءُ ففاضتْ عيناي لما رأيتُ من هلاكهِ ولم أصبرِ فقالَ

" لا يستغربُ وقوعَ النَّازلةِ إلَّا مَنْ لا عِلمَ لهُ بها ولا يقينَ بوقوعِها, وأمَّا مَنْ علمَ شيئاً قبلَ وقوعهِ فلا يستغربهُ ولا يدهشُ منهُ ولا يتألَّمُ لهُ ".

ثُمَّ قال

" ما على وجهِ الأرضِ إلَّا الأمواتُ يسيرون، فليسَ نزولُ الموتِ بهم بغريب"

وهذا منهُ ﷺ إشارةٌ إلى نتيجةِ اليقينِ والى أهلهِ، وما الصَّبرُ في الحقيقةِ إلَّا لهم وبقدرِ قوَّةِ اليقينِ تكونُ قوَّةُ الصَّبرِ جعلَنا اللهُ من الصَّابرينَ.

تَواظعُهُ ﷺ في نَفسهِ لله

ومنْ أخلاقهِ التي سبقَ فيها مَنْ قبلَهُ وأعجز مَنْ يأتي بعدهِ التَّواضعُ والأدبُ فيتواضعُ في نفسهِ لله وفي ذاتِ اللهِ لعبادِ اللهِ أهلِ النِّسبةِ إلى اللهِ وآلِ البيتِ النَّبوي، وكلِّ ذي نسبةٍ دينيَّةٍ ومحبَّةٍ إيمانيَّةٍ.

أمَّا في نفسهِ فإنَّهُ لا يرى لها قدراً ولا ينسبُ لها أمراً ولا يرى استحقاقَ شيءٍ على أحدٍ حتَّى أهلهِ وعيالهِ، ويخدمُ نفسَهُ وأهلَهُ لا تستنكفُ نفسهُ عن فعلِ شيءٍ كائناً ما كان حتَّى أنَّهُ عندما بنى معصرتَهُ التي بعرصتهِ كان يطحنُ الزَّيتونَ ويعصرهُ بيدهِ كما مضى التَّنبيهُ عليهِ، وأنَّهُ بأمرٍ من شيخهِ مكثَ على ذلك بضعَ سنينَ، ثُمَّ اشتغلَ بخدمةِ أجنَّتهِ خاصةً حسبما هو على ذلك الآن, يحملُ

[1] . الزمر (10)

شيئهُ من نفقةٍ أو متاعٍ أو حاجةٍ أو آلةٍ أو ما تيسَّرَ من جليلٍ أو حقيرٍ ويحملُ لغيرِهِ أحياناً إنْ كان معهُ إعانةً، ويخرجُ أحياناً عجينَهُ من دارِهِ حاملاً لهُ على رأسِهِ لا يتركُ مَنْ يحملُ عنهُ كعادتهِ في كلِ شيءٍ, ولا يحبُّ امتيازاً ولا اختصاصاً بشيءٍ, ويرى لغيرِهِ المزيةَ عليهِ ويقولُ

" لعلَّ اللهَ يرحمُنا بالكونِ في جماعةِ المسلمين "

وينسبُ لنفسهِ الأشياءَ الوضيعةَ ويُحصي في بعضِ الأحيانِ ما صدرَ عنهُ من الأفعالِ التي هي من أعظمِ الطَّاعاتِ في صورةِ الشَّهواتِ وينسبُها للنَّفسِ, لا يبرِّئُ نفسَهُ من خصلةٍ ذميمةٍ أو فعلةٍ قبيحةٍ حتَّى أنَّهُ إذا سُرِقَ بإزاءِ بعضِ أجنَّتهِ شيءٌ يقولُ

" أخشى أنْ يتَّهموني "

ولا يحبُّ من يتبرَّأ من شيءٍ من ذلك أو مأزقٍ من شبهةٍ إلى نفسهِ.

وسمعَ يوماً بعضَ النَّاسِ يتشكَّى من رجلٍ ويقولُ

" إنَّ فلاناً قالَ لي سرقتَ كذا أتعلمونَ إنّي أفعلُ ذلك " ؟

وجعلَ يكرِّرَها فردَّهُ ﷺ إلى التَّواضعِ وقال لهُ

" مَنْ الذي يسرقُ بنوا آدمَ أم البهائمُ ".

فقالَ ابنُ آدمَ.

قال لهُ سيدنا أحمد

" لم يصفُكَ بغيرِ وصفِك إذن ولا بما لا يليقُ بجلالِك "

فاستحيى الرَّجلُ وعرفَ معنى ذلك.

وقد حُبسَ المطرُ مرَّةً حتَّى ضجرَ النَّاسُ فاتَّفقَ أنْ خرجَ لزيارةِ مولانا عبدِ السَّلامِ بنِ مشيشٍ، وبعد خروجهِ نزلَ مطرٌ كثيرٌ ثُمَّ قدمَ من الزِّيارةِ فجاءَهُ رجلٌ وقالَ لهُ

" يا سيِّدي لمَّا خرجتَ إلى الزِّيارةِ مُطرنا والحمدُ للهِ "

فقالَ لهُ

" **شأنُ العاصي المذنبِ يكونُ مع النَّاسِ فتنزلُ بهم النَّوازلُ فإذا خرجَ من بينهم رُحموا**"

ويشهدُ حقوقَ النَّاسِ عليهِ ويقولُ

" **لم نُوفِّ لِمَنْ عرَّفناهُ حقَّهُ ولا نستوفيهِ أبداً** "

ويقولُ

" **المؤمنُ هو الذي يعرفُ حقوقَ الخلقِ عليهِ ولا يرى لنفسهِ حقّاً على أحدٍ** ".

تَواضُعهُ ﷺ في الله لِعبادِ الله

وأما التَّواضعُ في اللهِ لعبادِ اللهِ فإنَّهُ يخدمُ بنفسهِ مَنْ والاهُ من الأصحابِ وغيرِهم في الحضرِ والسَّفرِ لا يبالي بعناءِ نفسهِ في وردٍ ولا صدرٍ, وإذا ظهرَ أمرٌ يحتاجُ النَّاسُ لمناولتهِ كان أوَّلَ سابقٍ إليهِ, ولا يتركُ أحداً يشتغلُ بتعظيمهِ أو يميّزهُ بشئٍ كتقبيلِ اليدِ ونحوهِ, ولا يتركُ أحداَ يخدمهُ أو يتولَّى فعلَ شئٍ عنهُ بل لا يقدرُ أحدٌ أنْ يسومَهُ بشيءٍ من ذلك، ولا يرى نفسَهُ أهلاً لشيءٍ منهُ أبداً، يحملُ الأضيافَ ومَنْ حضرهُم على الغسلِ في يدهِ إنْ أكلوا فلا يمكنُهم الامتناعَ منهُ لِما يعلمونَ من حالهِ في ذلك وكراهتهِ مَنْ يشتغلُ بهِ حتَّى إنّا إذا كُنَّا معهُ لنتحيَّلَ في التَّخلصِ من ذلك ونحوهِ قبلَ الوقوعِ فيه ما أمكننا, وإذا مرَّ أحدٌ بإزائهِ أو غسلَ يدهُ في يدهِ فقال لهُ حاشاكَ يا سيّدي نهاهُ وقالَ لهُ

" **أيُّ شيءٍ يتحاشى عنهُ الإنسانُ فإنْ كان لا بدَّ من هذهِ المقالةِ، فالدُّعاءُ أحسنُ** "

وكثيراً ما يحضرُ طعامَهُ هؤلاءِ المساكينُ الخاملونَ المضافون منهُم لبعضٍ قد يأتي لزيارتهِ فيناديهم للأكلِ مع مَنْ حضرَ، وربَّما يتأخَّرُ أحدُهم تأدُّباً أو لا يسعهُ الجلوسَ مع الآكلينَ فيؤخِّرُ هو نفسَهُ حتَّى إذا فرغَ النَّاسُ من الأكلِ قرَّبَ إليهِ الطعامَ وأكلَ معهُ.

وربَّما يحضرُ طعامَهُ بعضُ أهلِ الجانبِ المخزني فيأمرهُ إذا فرغَ النَّاسُ من الأكلِ يلعقُ الآنيةَ إزالةً لبعضِ كبرهِ فيلعقُها فرحاً مسروراً، وقد ذكرَ ﷺ يوماً أنَّهُ دخلَ جامعَ القرويين لصلاةِ الجمعةِ فرأى فرجةً بين رجلينِ عليهما ثيابٌ رثَّةٌ وسخةٌ قال

" فصرتُ إليهما وجلستُ بينهُما فما رأيتُ قطُّ جلسةً ألذُّ من تلك الجلسةِ ولا أحسنُ منها "

وذهبَ ﷺ يوماً لمواصلةِ بعضِ الشُّرفاءِ، فلمَّا وصلَ إلى دارهِ وجدَ ببابِها قبة زبلٍ فحملَها وذهبَ إلى الوادي فرمى بهِ الزِّبلُ ورجعَ بها إلى حيثُ وجدَها فردَّها هنالك وانصرفَ، وأتى يوماً دارَ بعضِ أخوانهِ في اللهِ فوجدَ ببابِها زبلاً فأرادَ رميَهُ فلم يجدْ وعاءً يجعلهُ فيهِ فوضعَهُ في طرفِ كسائهِ وذهبَ بهِ إلى الوادي ورمى بهِ وغسلَ كساءَهُ .

وكنتُ مرَّةً معهُ في جماعةٍ من الأصحابِ في زيارةِ الشَّيخِ سيّدي عبدِ الرَّحمنِ المجذوبِ نفعنا اللهُ بهِ، فلمَّا أردتُ دخولَ الرَّوضةِ رأى برجلي أثرَ الطِّينِ فتناولَ دلواً من الماءِ وجعلَ يصبُّ على رجلي ويقولُ لي

" اغسلْ "

فما استطعتُ أنْ أمتنعَ خوفاً منهُ وخجلتُ خجلاً شديداً، فرامَ بعضُ الحاضرين أخذَ الدَّلوِ من يدهِ فزجرَهُ زجراً غليظاً وقالَ لهُ

" اتركُونا من هذهِ العوائدِ "

ونحو هذا من فعلهِ ﷺ كثيرٌ لا يزالُ يفعلُ مثلَهُ ويحضُّ على التَّواضعِ دائماً ويعلّمهُ النَّاسَ قولاً وفعلاً وما تركَ شيئاً منهُ إلَّا فعلَهُ.

أَدبُهُ ﷺ الظَّاهرُ و البَّاطنُ

وأمَّا أدبهُ ﷺ ظاهراً وباطناً في الشَّريعةِ المُحمَّديةِ ومع اللهِ جلَّ جلالهُ فشئٌ بلغَ فيهِ أقصى الغاياتِ وبرعَ فيهِ أهلُ البداياتِ والنِّهاياتِ حسبَما يُعلمَ ذلك من حالهِ ومقالهِ ويشهدُ لهُ ممَّا تقدَّمَ من خِلالهِ وفعالهِ

والأدبُ عند الفقهاءِ عبارةٌ عن القيامِ بما بعد الواجباتِ والسُّننِ من الفضائلِ والرَّغائبِ المتعلِّقةِ بأحوالِ الإنسانِ من نومٍ ويقظةٍ وأكلٍ وشربٍ وذكرٍ ودعاءٍ ونحوِ ذلك.

وعند الصُّوفيَّةِ عبارةٌ عن جمعِ خصالِ الخيرِ وأوصافِ البرّ، فهو وصفٌ جامعٌ لأوصافٍ مجيدةٍ وأخلاقٍ حميدةٍ تناسبُ وصفَ العبوديَّةِ وجلال الرُّبوبيَّةِ ومَن جمعهِا فقد اتَّصفَ بالأدبِ وكان أديباً متأدِّباً مع اللهِ ورسولهِ, والأدبُ بالمعنى الأوَّل مندرج في هذا وقد جمع سيّدنا أحمد ﷺ الأدب ظاهراً وباطناً وسرَّاً وجهراً .

إذا نطقتْ جاءتْ بكلِّ مليحةٍ وإنْ سكتتْ جاءتْ بكلِّ مليح

فمِنْ أدبهِ الظَّاهرِ مواظبتهُ على ما وردَ في السُّنَّةِ من الآدابِ الشَّرعيَّةِ المتعلِّقةِ بأحوالِ الإنسانِ ومحافظتهِ عليها بقدرِ الطَّاقةِ والإمكانِ في قيامهِ وقعودهِ واصطحابهِ ومشيتهِ وجلوسهِ مع النَّاسِ، وما رؤيَ قطُّ مادَّاً رجليهِ إلى القبلةِ، وإذا دخلَ بيتِ أحدٍ وكان بهِ ألمٌ سألَ عن القبلةِ أينَ هي؟ ثُمَّ مدَّ رجلهِ لغيرِ ناحيتِها وما بصقَ قطُّ وهو جالسٌ في المجلسِ ولا رفعَ بهِ صوتَهُ وما سمعَ أحداً يرفعُ بهِ صوتَهُ إلَّا نهاهُ، وما رأى أحداً أخلَّ بشيءٍ من آدابِ الشَّريعةِ إلَّا نبَّهَهُ ويقولُ لهُ إذا كان لمَنْ لهُ معرفةٌ بها على سبيلِ الإنكارِ والتَّوبيخِ هكذا وردَ في السُّنَّةِ، ولا يحبُّ ارتكابَ شيءٍ من آدابِ النَّاسِ العاديَّةِ التي لم ينهَ عنها

الشَّرعُ ولم يردْ بها السُّنَّةُ اقتصاراً منهُ على ما وردَ في الشَّريعةِ وتخلُّقاً بأخلاقِ السُّنَّةِ الرَّفيعةِ، وقد تقدَّمَ كثيرٌ من الآدابِ أثناءَ هذا البابِ.

ومن أدبهِ الباطنِ الذي دلَّتْ عليهِ أقوالهُ وأفعالهُ أنَّهُ ﷺ لا يختارُ مع اللهِ ولا يدبِّرُ مع تدبيرهِ شيئاً كما تقدَّمَ حتَّى أنَّهُ إذا دعا لنفسهِ أو لأحدٍ بشيءٍ ممَّا كان مجهولَ العاقبةِ أو فيهِ حظٌ كان دعاؤهُ طلبُ الخيرةِ من اللهِ فيقولُ

" **اللَّهمَّ خِرْ واخترْ**" لا يزيدُ على ذلك تأدُّباً مع اللهِ سبحانهُ وعلماً منهُ بأنَّ ما يختارهُ هو أحسنُ ممَّا يختارهُ العبدُ.

أمّا الدُّعاءُ بما وردَ عن الشَّارعِ ممَّا فيهِ ترغيبٌ أو تقرَّبٌ أو وصلةٌ إلى اللهِ جلَّ جلالهُ أو وصفُ عبوديَّتهِ من اظهارِ فاقةٍ وتملُّقٍ وتضرُّعٍ وخضوعٍ للهِ سبحانَهُ وكذا طلبُ التَّوبةِ والمغفرةِ والرَّحمةِ والقبولِ منهُ جلَّ وعلا ونحو ذلك فلا يزالُ لهجاً بهِ رطباً بهِ قلبهُ ولسانهُ ويقولُ

" **إنَّ ذلك كلَّهُ هو ليسَ فيهِ اختيارٌ مع اللهِ لأنَّهُ مأمورٌ بهِ شرعاً** "

فتجدهُ في المجلسِ الواحدِ يتكرَّرُ منهُ الدُّعاءُ بذلك لنفسهِ ولمَنْ طلبَ ذلك منهُ يقعُ ذلك منهُ ما لا يُحصى ولا يُستقصى وكثيراً ما يجري على لسانهِ قولهُ

" **اللَّهمَّ تُبْ علينا اللَّهمَّ أقبلْ علينا** ".

ومن آدابهِ ﷺ أنَّهُ لا يريدُ الخوضَ في شيءٍ من تصاريفِ أقدارِ اللهِ سبحانَهُ ولا التَّعرضِ للكلامِ فيما وقعَ ولا تمنَّى زوالَ ما هو واقعٌ منها، ويعدُّ الخوضَ في ذلك كلِّهِ اعتراضاً على اللهِ سبحانَهُ وسوءَ أدبٍ معهُ وينسبُ القصورَ للنَّفسِ ويرى النَّقص منها فيما يُبتلى بهِ العبدُ من القضاءِ بعد اعترافٍ أنَّهُ من اللهِ تخلُّقاً بأخلاقِ الشَّريعةِ، وتحقُّقاً بأنَّ الكمالَ لا يُنسبُ إلَّا للهِ ولا يُنسبُ لغيرهِ وإنْ كان أثراً من آثارِ قدرتهِ إلَّا لغيرهِ مراعاةً لمقامِ الأدبِ معهُ تعالى.

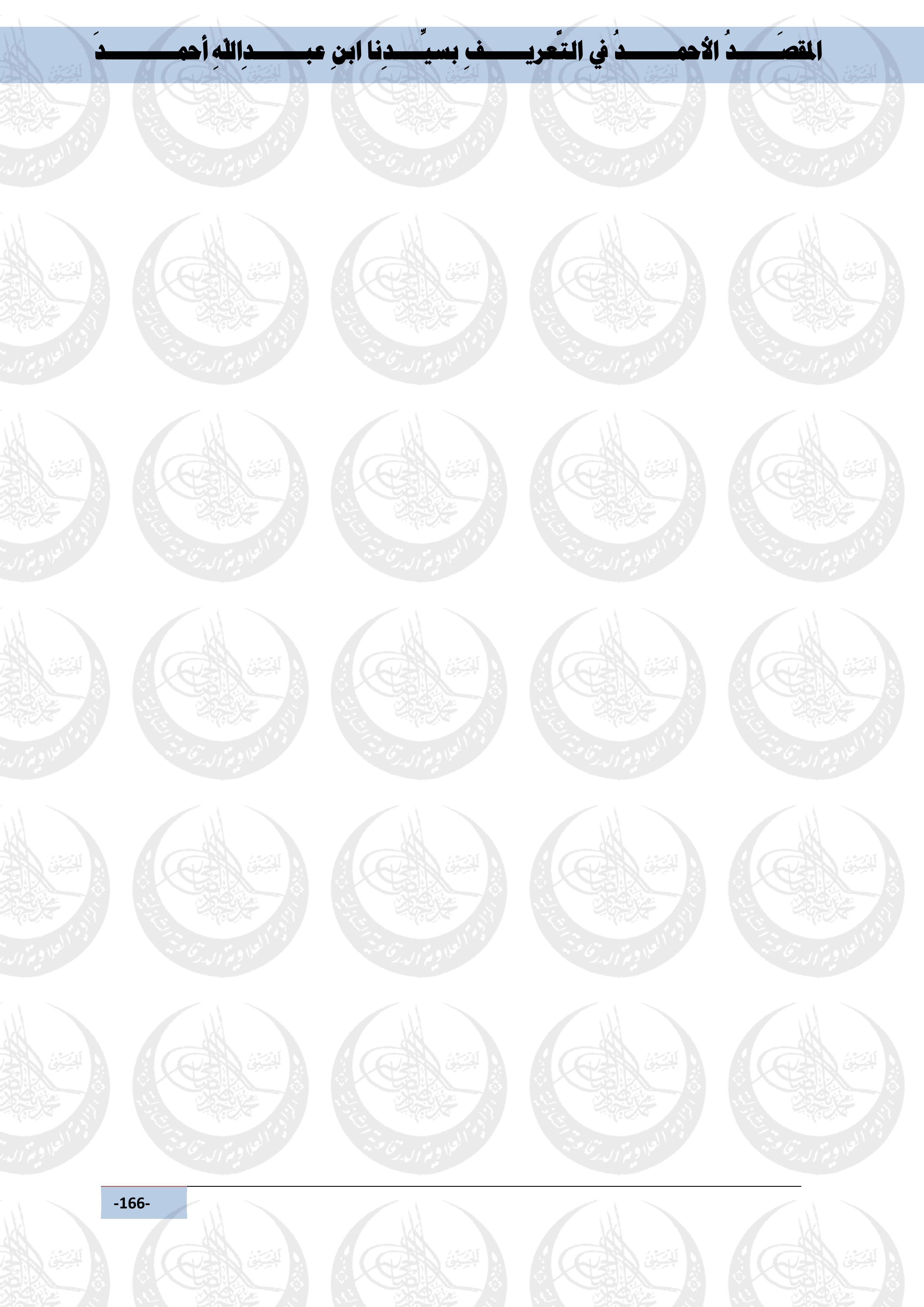
ويحكي في ذلك حكايةً معلومةً لبعضِ الملوكِ السَّالفينَ أنَّهُ

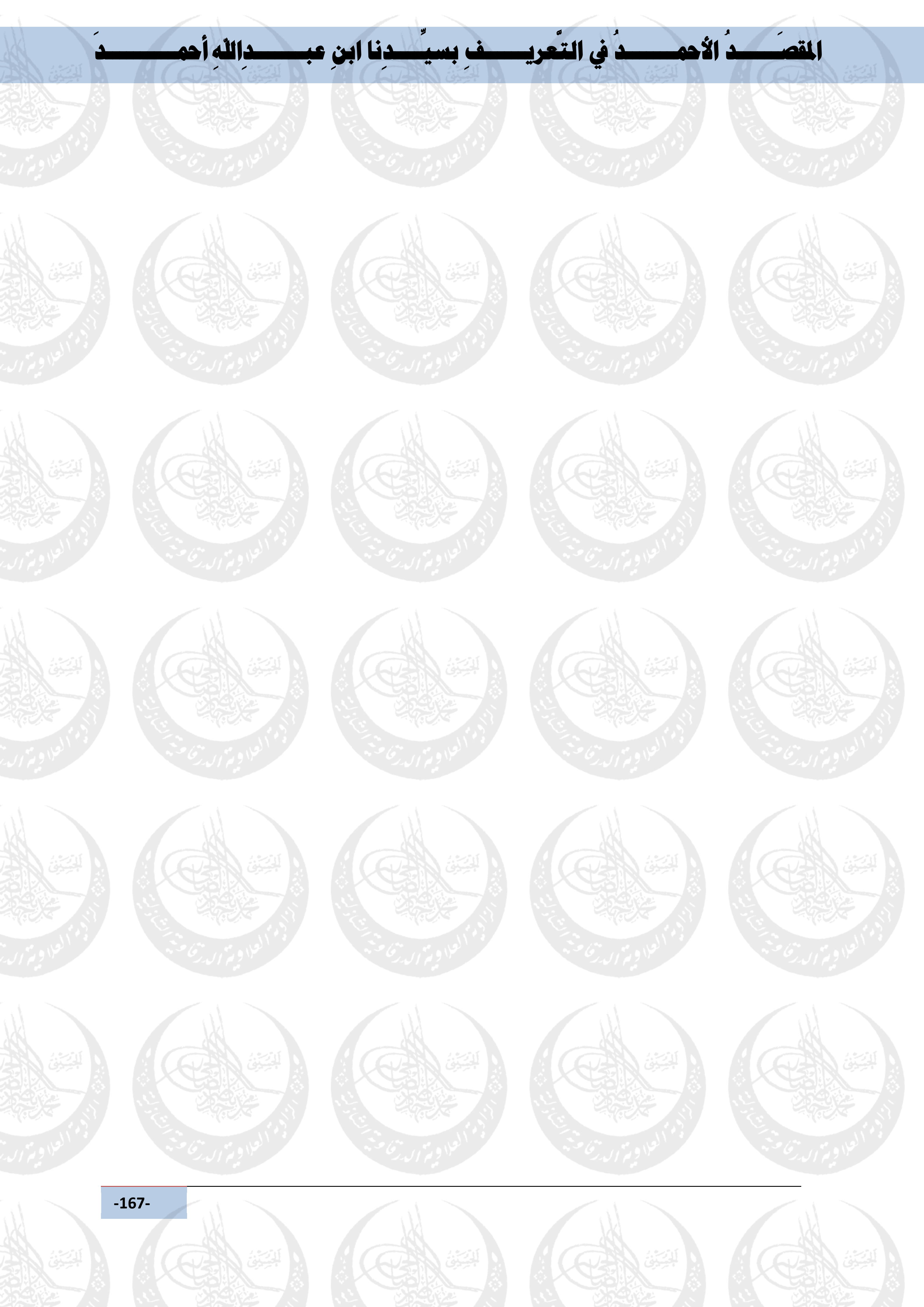
" كان لهُ غلامٌ عزيزٌ عليهِ جداً فكلَّمَهٌ قُوَّادهُ في ذلك فأرادَ إظهارَ مزيَّتِهِ لهم وأخرجَ لهُم ياقوتةً نفيسةً وأمرَهُم بكسرِها فجعلَ كلٌّ منهُم يشيرُ عليهِ بإبقائِها، فأمرَ الغلامَ بكسرِها فكسرَها مكانَهُ دون تردُّدٍ فزجرَهُ السُّلطانُ ووبَّخَهُ على كسرِها، فجعلَ يتضرَّعُ إليهِ يا سيِّدي يا مولاي، فقالَ السُّلطانُ عند ذلك للآخرينَ أنتُم أمرتُكم أوَّلاً فجعلتُم ترشدونني ولو كسرتُموها ولمتُكم لقلتُم أنت أمرتَنا وهذا امتثلَ أوَّلاً وتضرَّعَ ثانياً لهذا أحبُّهُ "

هذا ما يدلُّ على نوعٍ من آدابهِ الباطنةِ ﷺ.

وأمَّا ما وراءَ ذلك من مراعاةِ خواطرِهِ وانفاسهِ وتقلباتهِ وإذ بهِ مع اللهِ في ذلك كلِّهِ ممَّا لا نطَّلعُ عليهِ، وقد يكونُ هنالك آدابٌ باطنيَّةٌ ظهرتْ عليهِ علامتُها فلم نعرفْ دلالتَها على ذلك.

والأدبُ على قدرِ المعرفةِ ولن يخفَ عليك بعد معرفةِ ما تقدَّمَ كمالَ معرفتهِ ﷺ الملزومَ لكمالِ أدبهِ بل ولكمالِ هذه الأخلاقِ كلِّها المنطويَّةِ في الأدبِ التي بلغَ فيها مبلغاً كاملاً، وبالجملةِ فأدبهُ مع اللهِ ورسوله وتواضعهُ في نفسهِ وللخاصِّ والعامِّ من أبناءِ جنسهِ وصبرهُ واحتمالهُ وشفقتهُ وحنانتهُ وعظيمُ فتوَّتهِ وعلوُّ همَّتهِ هذهِ خصوصاً وسائرُ أخلاقهِ عموماً أمرٌ عزيزُ الوجودِ غريبُ الورودِ لا يتَّفقُ إلَّا لخواصِّ الخواصِّ من ذوي الصِّدِّيقيَّةِ والإخلاصِ والمعرفةِ والتَّوحيدِ الخاصِّ الذين استغرقتْهُم رحمةُ الرَّحمنِ وعمَّهُم الفضلُ منهُ والإحسانُ، وإذا أرادَ اللهُ أنْ يُظهرَ فضلَهُ على عبدهِ أهَّلَهُ لحبِّهِ وودِّهِ وجعلَ فيهِ اتلافَهُ ومحا بوصفهِ أوصافهِ فأثمرتْ بكلِّ جميلٍ أغصانهُ وتنوعتْ فنونهُ وأفنانهُ، واتَّصفَ بكلِّ نعتٍ كريمٍ وخلقٍ عظيمٍ فسبحانَ الرَّحيمِ الودودِ الواسعِ الكرمِ والجودِ الذي أكرمَ خلقَهُ وأوسعَ لمَنْ شاءَ رزقَهُ لا إلهَ غيرهُ ولا خيرَ إلَّا خيرهُ ولا مُعطيَ الأمورَ ولا راحمَ سواهُ.





البابُ الخامسُ في كرمهِ وسخائهِ وعظيمِ فتوَّتهِ ووفائهِ

إنفاقُهُ ﷺ

ومن أخلاقهِ ﷺ وسجاياهُ, كثرةِ إنفاقهِ في سبيلِ اللهِ وعطاياهُ, ربا على ذلك منذُ نشأ يتقلَّبُ فيهِ كيف شاءَ, جعلَ اللهُ لهُ الكرمُ وصفاً طبيعيّاً ثُمَّ صرَّفَهُ فيهِ تصريفاً شرعيَّاً إلى أنْ أرقاهُ الله سبحانَهُ مرقى الكمالِ وصيَّرَهُ ممَّنْ لا يشهدُ في ذاتهِ مُلكاً لنفسٍ ولا مالٍ, فجمعَ اللهُ لهُ بين الحالتين جمعاً صنعاً من اللهِ لهُ " ومَنْ أحسَنُ من اللهِ صُنعا "

فكانتْ وقائعهُ في ذلك عظيمةٌ, وأياديهِ فيهِ جسيمةٌ, وأفاعيلهُ عجيبةٌ, ومآثرهُ غريبةٌ نادرةٌ من نوادرِ الزَّمانِ, وآيةٌ من آياتِ اللهِ التي بَرَزتْ للعيانِ.

يُعطي عطاءَ مَنْ لا يخافُ الإفقارَ, ولا يُبالي بإفراطٍ ولا بإكثارٍ, وكيف يُبالي مَنْ تخلَّى قلبهُ عن العرضِ الفاني, ورقَّى مقامَ الإحسانِ والعرفانِ وصعدَ مصعدَ الكمالِ, ومراتبَ فحولِ الرّجالِ الذين تركوا النَّفائسَ والأرباحَ, ووهبوا النُّفوسَ والأرواحَ, فهُم كُرماءُ الخليقةِ, والأسخياءُ على الحقيقةِ, فلا فضلَ إلَّا أفضالُهم ولا نوالَ إلَّا نوالُهم، إذ من عينِ الجودِ ينفقون، وبوابلِ فضلَهُ يرفقون، وباللهِ وعن اللهِ يفرّقونَ.

لا يرون لهم مُلكاً ولا إعطاءً ولا تركاً, فأنَّى يوصفُ أمرُهم أو يُقدَّرُ في ذلك قدرُهم, ولكنَّا نتعرَّضَ لشيءٍ ممَّا وقعَ لسيّدِنا أحمدَ ﷺ من جزئيَّاتِ القضايا وبعضِ ما شهدَ لهُ من وافرِ الإحسانِ والعطايا, إذ المقصودُ ذكرُ الأخبارِ ونشرِ تلك المكارمِ والآثارِ, فدأبهُ ﷺ الانفاقُ في سبيلِ اللهِ والإطعامِ لوجهِ اللهِ يعرفُ مالَهُ في ذلكَ شذرَ مذرَ, في كلِّ وقتٍ من رخاءٍ وشدَّةٍ وفي حالِ سفرٍ وحضرٍ, من كلّ ما يشاءُ ولهُ من المكتسباتِ من

عينٍ وعروضٍ وطعامٍ وفواكهَ وخضرٍ, ما بينَ مُواساةٍ ونفقةٍ أو صلةِ رحمٍ أو صدقةٍ, وكلُّ ذلك من كدِّ يمينهِ وتكسُّبهِ وعرَقِ جبينهِ, ويقول

" المالُ مالُ اللهِ وإنَّما أنا خازنٌ لهُ ومُسخَّرٌ فيهِ "

وقالَ مرَّةً

" إنَّما كانَ المخصوصُ سخيًّا دائماً يستهونُ العطايا لا يستصعبُها ولا يستكثرُها لأنَّهُ يرى أنَّهُ منفقٌ من مالِ غيرهِ، ومَنْ أنفقَ من مالِ غيرهِ لم يخفْ على نفسهِ التَّقتيرَ, ولم يُبالِ بقليلٍ ولا بكثيرٍ ".

وقال يوماً

" مذهبي إنِّي لا أحثُّ على المخصوصِ عندَ الإكثارِ من الإنفاقِ والعطايا لأنَّهُ لا ينفقُ من عندِ نفسهِ بل من خزائنِ اللهِ وخزائنُ اللهِ لا نفادَ لها "

ويذكرُ أحياناً الحديثُ

" يدُ اللهِ ملأى لا تغيضُها نفقةٌ سخَّاءُ اللَّيلَ والنَّهارَ أرأيتُم ما أنفقَ منذُ خلقَ السَّمواتِ والأرضَ فإنَّهُ لم يَغِض ما في يدهِ "[1].

ومن عادتِهِ ﷺ في ذلك وخصوصاً ما كان من قبيلِ الصَّدقاتِ المبالغةِ في الإخفاءِ جداً حتَّى لا يشعرَ إنسانٌ بما هو يصدرُ عنهُ من الإحسانِ في عمومِ الأوقاتِ وغالبُ الأحيانُ, فإذا أعطى أحداً شيئاً لا يعطيهِ بيدهِ إنَّما يأمرُ بذلك ويُرسلُ بهِ ويوصي المرسَلَ معهُ بالكتمانِ طالباً للوجهِ الأكملِ الذي فضَّلَ اللهُ سبحانَهُ في كتابهِ بقولهِ

﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾[2]

وإبقاءً على المُعطَى بفتحِ الطَّاءِ وحرصاً على إعلاءِ همَّتهِ ليشكرَ نعمةَ سيِّدهِ ولا يتشوَّفُ للذي جرتْ المنحةُ على يدهِ ويقولُ

---

1 . الحديث في الصحيحين وفيهِ (السَّماءَ) بدلاً من (السَّموات).

2 . البقرة(271)

" إنِّي إذا تشوَّفَ أحدٌ إليَّ انقبضَ قلبي عنهُ فلا أريدُ أنْ أعطيهِ شيئاً، فإذا انقطعَ نظرَهُ عن الخلقِ كنتُ أحرصَ النَّاسِ على إعانتهِ وايصالِ العطاءِ إليهِ وأجدُني أستحلي مناولةَ ذلك حيثُ أعطي مالَ سيّدي لعبدِ سيِّدي وهو لا يلتفتُ إليَّ ويشعرُ بما لديَّ "

وممَّا وقعَ لنا معهُ في مثلِ ذلك أنَّهُ كان لنا مرَّةً بالدَّارِ قمحٌ فنفدَ فأحببنا شراءَ مثلهِ أو مجيئَهُ فتحاً بدونِ شراءٍ، فجعلنا نفكِّرُ من أين؟ فلم يتيسَّرِ المرادُ، فمكثنا نكيلُ من السُّوقِ كلَّ يومٍ قوتَ يومِنا مدَّةَ أيَّامٍ فلمَّا نسيتِ النَّفسُ ما أضمرَتْ وآيستْ ممَّا دبَّرتْ جاءنا من عندهِ وسقٌ من القمحِ أعطى ثمنَهُ رجلاً من أصحابهِ وأمرَهُ بشرائهِ لنا وقال لبعضِ أصحابِنا إنَّ ذلك الثَّمنُ كان عندَهُ مُعدّاً لنا منذُ أيَّامٍ طويلةٍ فلم يرد قلبهُ اعطاءَهُ لنا وقتئذٍ، وكلمَّا أرادَ اعطاءَهُ انقبضَ قلبهُ عن ذلك فعلمنا ممَّا وقعَ لنا في انفسِنا من التَّشوقِ لما يفتحُ بهِ علينا لنستريحَ من الاكتيالِ سببَ ذلك وعجبنا من أمرهِ بشراءِ القمحِ بخصوصهِ الذي لم يكنْ الاحتياجُ إلَّا إليهِ ولم يكُنْ التَّدبيرُ إلَّا لهُ، وربَّما يتولَّى الإعطاءَ بيدهِ لكونِ المُعطَى لهُ لا يشعر بمَنْ أعطى.

وقد كان رجلٌ شريفٌ أعمى من أهلِ الدِّينِ والخيرِ يفتلُ العسقَ بحانوتهِ يجلسُ بها يُقالُ لهُ مولاي أنسيق من فقراءِ المسلمين وضعفاءِ المساكين، فكان أعني سيِّدَنا أحمدَ يتعاهدهُ بالعطايا ويأتي حانوتَهُ على حين غفلةٍ من المارِّينَ في الطَّريقِ فيُعطيهِ الدَّراهمَ يجعلُها في يدهِ وهو صامتٌ لا يتكلَّمُ، ثُمَّ يمرُّ كذلك من فورهِ فلا يعرفُ ذلك الشَّريفُ مَنْ هو ولا يراهُ لكونهِ ضريرُ البصرِ.

وقد يُعطي بيدهِ أيضاً إذا كان المعُطي لهُ من المُوالين لهُ من الأصحاب وغيرِهم ممَّنْ يعرفُ أنَّهُ لا يُنوِّهُ بهِ ولا يفشي سرَّهُ وما من أحدٍ

من الأصحابِ إلَّا لحقَهُ نائلهُ ووسعتْهُ عوارفهُ وفضائلهُ، فلا يلقى بعضُهم بعضاً إلَّا حدَّثَ بعطاياهُ لهُ دائماً من كلِّ شيءٍ، ثُمَّ لا يقدرُ واحدٌ أنْ يواجهَهُ بثناءٍ عليهِ لأجلِ ذلك أو يذكرَهُ لهُ أو يُشيعَ خيرَهُ، وإذا أكلَ أحدٌ الطَّعامَ عندَهُ فقالَ لهُ

" كثَّرَ اللهُ خيرَك "

ردَّهُ إلى شكرِ نعمةِ اللهِ وشهودِ ما تفضَّلَ بهِ سبحانَهُ وأولاهُ ويقولُ

﴿ كُلوا من رزقِ ربِّكُم واشكروا لهُ ﴾[1]

ويقولُ

" المِنَّةُ للهِ "

ومن كراماتهِ الجاريةِ في هذه العطايا أنَّهُ لا تصلُ عطيَّتهُ أحدٌ إلَّا وجدتهَ على حينِ ضرورةٍ وشدَّةِ احتياجٍ لا يجدُ ما يحاولهُ ولا ما يناولهُ حتَّى كان سيِّدُنا أحمدُ باتَ ينظرُ إليهِ أو ظلَّ معهُ مطَّلعاً عليهِ وتكونُ معهُ الجماعةُ من النَّاسِ أهلِ الفاقةِ فيُعطي بعضَهم ويتركُ بعضاً فيتبيَّنَ أنَّ البعضَ الذي تركَ كان مُستغنياً في ذلك الوقتِ عن الصَّدقةِ وأنَّ الآخرَ كان حينئذٍ في غايةِ الاضطرارِ، بل الرَّجلُ الواحدُ من الفقراءِ الموالين لهُ يقعُ لهُ ذلك معهُ فيطعمهُ أو يعطيهِ الدَّراهمَ في بعضِ الأحيانِ مهتمَّاً بهِ وإذا بالرَّجلِ في غايةِ الحاجةِ ويتغافلُ عنهُ مرَّةً أخرى مع حضورِ ما يعطيهِ ويسرُّهُ وإذا بهِ حينئذٍ لهُ كفايةٌ فيوقعُ ذلك كلَّهُ مواقعَهُ وينزلهُ مواضعَهُ على نورٍ من ربِّهِ وبصيرةٍ في أمرِهِ ويوفي فيما يُعطيهِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ من قريبٍ أو بعيدٍ جامعاً بين العدلِ والإحسانِ، ومراعياً لحالِ كلِّ إنسانٍ فيمتِّعُ أولادَهُ وعيالَهُ ويولي عليهم برَّهُ ونوالَهُ، ثُمَّ يوسعُ الأقاربَ والأصحابَ

[1] . سبأ (15)

مواصلةً ثُمَّ الأباعدَ صدقةً ومفاضلةً شأنَهُ في ذلك كلِّهِ بديعٌ وحالَهُ في ذلك بأسرهِ رفيعٌ.

شَأنُهُ ﷺ في دارهِ وعيالهِ

أمَّا شأنهُ في دارهِ وعيالهِ فإكثارُ الطَّعامِ والإطعامِ والتَّوسعةِ والإنعامِ والإفضالِ والإكرامِ، لا يدعُ شيئاً إلَّا أمتعَهُم فيهِ على وجهٍ شرعيٍّ ومطلوبٍ مرعيٍّ، مَنْ قصدَ كفايتَهُ إيَّاهُم وتنعيمَهُم بأنعمِ مولاهُم لا على الرَّفاهيَّةِ والتَّرفُّهِ مكفولين بخيرِ كفايةٍ، محفوفين بخيرِ رعايةٍ، ظاهرةٍ عليهِم أنعُمِ مولاهُم واضحةٍ عليهِم آثارُها ما شيئت من عفاف وقناعة وكرم نفسٍ وعلوِّ همَّةٍ قد اعتادَهُم السَّخاءُ حتَّى ألفتهُ نفوسُهم، وأثمرتْ منهُ غروسُهم نتيجةَ مقدمةِ والدِهم ﷺ.

يدَّخرُ لهم لإغناءِ نفوسِهم فوق ما يحتاجون ويصرِّحُ أحياناً بأنَّهُ لولا الرِّفقُ بهم والجريُ على مقتضى عقولِهم وصونِهم عن أن يتشوَّفوا لما بيدِ النَّاسِ ما ادَّخرَ شيئاً فيحرزُ لهم من قوتِ سنتِهم طعاماً وإداماً وعسلاً وفاكهةً ما يكفيهم ويكفي أضعافَ أضعافِهم ليعولَ بهِ الضُّعفاءَ والمساكين المنتسبين إلى اللهِ ممَّنْ هو ملازمٌ لهُ ومضافٌ إليهِ في عدد أهلِ نفقتهِ أو مَنْ يردُ عليهِ فينفقُ على عددٍ عديدٍ لا تلزمهُ النَّفقةُ إلَّا على نحو خمسةِ أنفسٍ منهم وهُم أهلهُ وبنوهُ، ويوكِّلُ عندهُ الوسقَ من القمحِ في نحوِ ستَّةِ أيَّامٍ لا تتوفرُ لهُ عولةٌ بالغةٌ ما بلغتْ بجري في أماكنَ متعدِّدةٍ، فيدخلُ لدارهِ الكثيرُ من القمحِ والشَّعيرِ وغيرِهما من القطاني، ثُمَّ يكتالُ من السُّوقِ لتمامِ سنتِه وعلى رأسِ كلِّ سنةٍ يطحنُ لهم زيادةً على ما يدَّخرَهُ أوسقاً من القمحِ يفتلُ أهلَ دارهِ منها على عادةِ أهلِ البلادِ الكثيرَ من الكسكسِ الغليظِ المسمَّى بالمحمصةِ والكثيرِ من الكسكسونِ المعلومِ يكونُ عندَهُ

سائرَ السَّنةِ بعدَهُ لمَنْ عسى أنْ يغشاهُم من الأضيافِ ليلاً فلا يفدون عليهِ إلَّا وجدوهُ مفتولاً.

ويشتري الدَّجاجَ لمثلِ ذلك فيسرِّحَها في عرصةِ الدَّارِ ليجدَها عند عدمِ اللَّحمِ بالسُّوقِ وليسَ يخلو من كثرةِ الأضيافِ، أمَّا الرِّجالُ خارجَ الدَّارِ، وأمَّا النِّساءُ أقاربهُ داخلَها في زمنٍ من الأزمنةِ بل في يومٍ من الأيَّام، ويتفقَّدُ مَنْ باتَ بالزَّاويةِ من الغرباءِ أهلِ النِّسبةِ ويطعمُهم ويوصي مَنْ يفعلُ ذلك لهُم.

ومن كراماتهِ السَّائرةِ في نفقاتهِ الوافرةِ أنَّهُ يشتري النَّفقةَ من السُّوقِ لحماً أو حليباً أو غيرَهُما بعد كفايةِ من الدَّارِ والمضافين لهم من النَّفقةِ ويقولُ لهم

" اصنعوا واحفظوهُ فسيأتي مَنْ يأكلهُ " فيأتيهِ الأضيافُ تلك اللَّيلةَ بعد المغربِ أو بعد العشاءِ فيجدونَهُ مهيَّئاً لهم مصنوعاً.

ومن عادتهِ أنَّهُ لا يخرجُ من دارهِ شيئاً لأضيافهِ أو غيرهِم إلَّا بعد كفايةِ مَنْ بدارهِ منهُ، وإنْ أخرجَ يوماً طعاماً لم يكنْ فيها غيرهُ حاضراً عوضهُم آخرَ مثلَهُ لا محالةَ، وينبِّهُ على ذلك ويُربِّي بهِ غيرَهُ مخافةَ التَّوصُلِ لحقّ بتركِ آخرَ، ويُعلِّمُ أولادَهُ اتقانَ طبخِ الطَّعامِ وينعتُ لهم كيف يصنعونَهُ ليكونَ أدعى لكمالِ الشُّكرِ كالماءِ البارِدِ يردهُ الظمآنُ فيخرجُ من صميمِ قلبهِ حمداً خالصاً، فيجيدون طبخَهُ ويتقنون صناعتَهُ فلا ترى أحسنَ من طعامهِ أصلاً، ولا اشهى للنُّفوسِ منهُ ولا أحلى, ولقد اتَّفقَ لنا أكلَ الأطعمةِ الرَّفيعةِ عند مَنْ يُتقنُها فما شابهَ شيءٌ منها طعامَهُ، وكم واحدٍ ممَّنْ اتَّفقَ لهُ أكلَ طعامهِ يُصرِّحُ بذلك حتَّى تحقَّقَ عندنا أنَّ ذلك خارجٌ عن طورِ العادةِ وإنَّما هو من بركةِ صاحبهِ وطيبِ مكسبهِ.

ومِنْ شأنهِ ﷺ حفظُ الطَّعامِ من التَّضييعِ واحترامهِ تعظيماً لنعمةِ اللهِ متى فضلَ شيءٌ منهُ التمس في الحين مَنْ يأكلهُ لا يدخلهُ الدَّارَ ولا يحبُّ أنْ يبقى ساعةً من الزَّمانِ مخافةَ اهانتهِ ويلتقطُ ما يسقطُ منهُ بعد الفراغِ من الأكلِ لا يغفلُ عن ذلك، ويذكرُ الآثارَ الواردةَ في ذلك تنبيهاً للسَّامعين حتَّى إنَّا لنلتقطُ

ذلك معهُ في غالبِ الأحيانِ تبعاً لهُ ورغبةً فيما هو حريصٌ عليهِ، ويربِّي أولادَهُ مثلَ ذلك فلا يقعُ البصرُ في دارهِم على شيءٍ من الطَّعامِ مضيَّعاً أبداً.

شأنهُ ﷺ في مواساةِ الأقاربِ والإخوانِ

وأمَّا شأنهُ في مواساةِ الأقاربِ والإخوانِ بالإحسانِ إليهِم على مرِّ الدُّهورِ والأزمانِ، يفرِّقُ عليهِم مالَهُ ويُعينُهم بكلِّ ما تيَّسرَ من دراهمَ وقمحٍ وغيرهِما ويسهمُهم ممَّا رزقَهُ اللهُ لا يدَّخرُ شيئاً عنهم كأنَّما هم شركاءُ لهُ في مالهِ ومقاسمون لهُ فيهِ.

وأتاهُ يوماً حفيدُ أخيهِ وهو سيّدي عبدُ السَّلامِ يشكوهُ دَيناً فقضى عنهُ مائةَ مثقالٍ قديمةٍ، وقضى مرَّةً عن بعضِ حفدةِ أخيه بعد موتهِ دَيْناً قدرَهُ خمسٌ وخمسون مثقالاً، ودأبهُ مع الأصحابِ أنَّهُ لا يغفلُ عن ضعيفِهم البتَّةَ بل يواصلُ العطيَّاتِ إليهِم ويوالي الصِّلاتِ عليهم، ويقدِّمُ الأحوجَ فالأحوجَ، فإذا كفى أحدَهُم أمسكَ عن مواساتهِ واشتغلَ بالآخرِ فلا يخلو من اجراءِ العطايا عليهم أبداً يعرفُ ذلك منهُ سائرُ الأصحابِ من جهةِ ما اتَّفقَ لكلِّ واحدٍ منهم معهُ.

وقد اتَّفقَ لنا نحنُ معهُ شيءٌ من هذا وذلك، إنَّا كُنَّا فيما قبلَ سنةِ تسعينَ بتقديمِ الفوقيَّةِ على السِّينِ نتسبَّبُ في الحراثةِ فلا تخلو ادارةُ كلِّ سنةٍ عن القمحِ، فكان يتخولُّنا بالمواصلاتِ ويتفقدُّنا بالعطايا فلمَّا كانت سنةَ تسعينَ أو التي قبلها تعذَّرَ أمرُ الحرثِ علينا ولم نجدْ ما نستعينُ بهِ عليهِ فتركناهُ وأخذنا في الاكتيالِ من السُّوقِ من يومئذ، فكان يأتينا من قِبلهِ تارةً الوسقُ من القمحِ وتارةً نصفَهُ وتارةً مقدار ما يشتري بهِ الوسقُ من الدَّراهمِ، كلَّما انقضى الأوَّلُ جاءَ الثَّاني عقبَهُ هكذا إلى تمامِ السَّنةِ، ثُمَّ فتحَ اللهُ علينا ما نعولُ بهِ أنفسَنا فتحوَّلَ عن

ذلك، وكنَّا نشعرُ تارةً أنَّهُ من عندهِ وتارةً لا نشعرُ بذلك لأنَّهُ كان يتنوَّعُ في ذلك، فمرَّةً يرسلُ بهِ مع بعضِ الأصحابِ وتارةً يأمرُ مَنْ يشتريهِ من السُّوقِ فيأتي من هناك إلينا حتَّى علمنا بعدُ أنَّ كلَّ ذلك من عندهِ.

فعلَهُ ﷺ مع من ضَعُف عن القيامِ بمؤنةِ نفسهِ من سائرِ الأصحاب فيما يرجعِ إلى الاعانةِ في النَّفقاتِ.

وأمَّا مطلقُ المواساةِ كتفقدِهم أحياناً فلا يزالُ أيضاً يتعاهدُ بها جميعَهم على التَّعميمِ ولا يزالون يتردَّدون إلى أجنَّتهِ في وقتِ الغلَّاتِ يتنعَّمون كيف شاؤوا وما استفادَهُ من تمرِ تلك الغلَّاتِ صرفَهُ ما بينَ نفقةٍ على عيالهِ وعلى ضعفائِهم أو غيرهِم من ضعفاءِ المسلمين لا يزيدُ عليهم إلَّا بمباشرةِ خدمةِ ذلك وعناءِ نفسهِ فيهِ.

فتجدهُ ﷺ يخدمُ أجنَّتهُ بلمطةَ ويقومُ بما تحتاجُ إليهِ، يتولَّى ذلك بيدهِ كما تقدَّمَ ويستأجرُ عليهِ الخدَمَةَ بالفؤوسِ الذين ذلك دأبُهم فيرفقُ بهم أحسنَ رفقٍ يسرِّحهُم أوَّلَ وقتِ السَّراحِ ويوسعُهم غداءً ويشبعُهم طعاماً وربَّما يصحبُ معهُ الكسكسونَ المفتولَ من الدَّارِ فيطبخهُ لهم بالجنانِ حرصاً على تنعُّمِهم وشبعِهم لغربتِهم ومسكنتِهم لأنَّهُ لا يتولَّى خدمة الأجنة بالفؤس في هذه البلدة إلَّا الغرباءَ الضعفاء يأتون من بلادِهم بقصدِ ذلك ليجمعوا من الأُجرةِ ما احتاجوا إليهِ.

ولا يتركُ أحداً من الأصحابِ يخدمُ معهُ دونَ أجرةٍ البتَّةَ كعادتهِ في غيرِ ذلك وإذا وجدَ أحداً شرعَ في الخدمةِ مع المستأجرينَ بقصدِ الإعانةِ عرضَ عليهِ الأُجرةَ فإمَّا رضيَ لها أو انصرفَ مكانَهُ, ثُمَّ في وقتِ الغلَّاتِ يأتيهِ الوفودُ من النَّاسِ فيبيتُ عندَهُ في كثيرٍ من الأحيانِ الأربعون والثَّلاثون من الفقراءِ وغيرِهم فيوسعُهم إطعاماً ويكرمُهم إكراماً، وكلٌّ يأكلُ من العنبِ والتِّينِ على قدرِ طاقتهِ، فإذا أراد أن ينصرفَ ملأ لهُ وعاءً من العنبِ سلَّةً أو جراباً يمضي بهِ لأولادهِ.

لا يهملُ أحداً ولا يغفلُ عنهُ ومَنْ لم يأتِ من الأقاربِ والمعارفِ وخصوصاً الشُّرفاءِ أرسلَ إليهِ العنبَ إلى دارِهِ، وكذلك عادتهُ في قطعِ العسلِ لا يبقى بجار ولقرى نحلهِ ولا مجاورٌ لدارِهِ أو مارٌّ ساعتئذٍ إلَّا أكلَ من عسلهِ ويرسلُ بالشَّهدِ لكثيرٍ من الأشرافِ والمعارفِ فيهِ يتعجَّبُ النَّاسُ ممَّا يخرجُ من يدهِ من ذلك من سائرِ الغلَّات وما يؤكلُ في أجنَّتهِ عند مجيءِ أبانِها والبركةُ من اللهِ سبحانَهُ.

وما عوَّدَ أولياءَهُ إلَّا مناً ولا أسدى إليهِم إلَّا حسَناً، وقد شوهدتْ البركةُ معهُ في ذلك وفي سائرِ أمورِهِ فما زادَ إحساناً إلَّا زيدَ خيراً وبركةً من اللهِ سبحانَهُ وهكذا دأبهُ ﷺ في جميعِ أسفارِهِ وزياراتهِ يُوسعُ النَّاسَ انفاقاً وإرفاقاً، فإذا خرجَ لزيارةِ القطبِ الكبيرِ مولانا عبدِ السَّلامِ بنِ مشيشٍ الحسني ﷺ.

وعادتهُ أنْ يخرجَ إليهِ كلَّ عامٍ وكذا إذا خرجَ لزيارةِ الشَّيخِ سيّدي أبي يعزى والشَّيخِ سيِّدي أبي سلهام نفعنا اللهُ بهما أخرجُ معهُ من الدَّراهمِ والطَّعامِ ما يكفي العددَ العديدَ والجمَّ الغفيرَ من النَّاسِ فلا يردُ منهُ شيئاً كلَّ ذلك يصرفهُ في سبيلِ اللهِ على مَنْ لا زادَ لهُ ويعيّنُ بهِ مَنْ رأى أنَّهُ يحتاجُ إليهِ ويضمُّ الكثيرَ منهم في رفقتهِ ليطعمُهم ويرفدُهم.

ويوكِّلُ على الطَّعامِ من يطبخهُ من بعضِ أقاربهِ ولا يتركُ أحداً من الأجانبِ يتكلَّفُ لهُ أمراً ويتفقَّدُ الشُّرفاءَ الذين يكونون معهُ بركبِ الزُّوارِ فيتخيَّرُ لهم أحسنَ الطَّعامِ ويُرسلهُ لهُم مطبوخاً, وإذا اشترى شيئاً من هذه الفواكهِ في الطَّريقِ أسهمهُم منهُ ولابدَّ واتحفَهم بهِ.

وإذا وصلَ إلى جبلِ العلمِ أكرمَ الشُّرفاءَ حفدةَ مولانا عبدِ السَّلامِ وبالغَ باكرامِهم وأعطاهُم الدَّراهمَ الكثيرةَ والملابسَ وغيرَها ولا يألوهُم إكراماً ما استطاعَ فينفقُ في الزِّيارةِ بين خروجهِ وقفولهِ أموالاً عريضةً ومطاعمَ كثيرةً، وإذا تأمَّلتَ ما يخرجُ من يدهِ سفراً وحضراً من انفاقاتٍ وارفاقاتٍ وجدتَ ما لا يقدرُ عليهِ إلَّا

المؤيدون أمثالهُ الذين باعوا نفوسَهُم وأرواحَهُم وأموالَهُم وأرباحَهُم على اللهِ وفي سبيلِ اللهِ لا يريدون غيرَهُ ولا يلوون على سواهُ.

ولقد كان يقبضُ كلَّ يومٍ من خراجِ معصرتهِ ثلاثين أوقيَّةً قديمةً مع ما ينضمُّ إلى ذلك من أثمانِ الغلَّاتِ التي هي أضعافه أضعاف ذلك كغلةِ جنانهِ بلمطةَ ومن أثمانِ عسلِ النَّحلِ المتخذةِ عندَهُ للتَّكسُّبِ في مواضعَ دون ما يحصلُ لهُ من أصنافِ الحنطةِ والقطاعِ التي يجعلُها كلَّ عامٍ عولةً لعيالهِ ومَنْ يتعلَّقُ بهِ فما يبيتُ عندَهُ ممَّا يستفيدهُ من ذلك كلِّهِ درهمٌ واحدٌ، وما لزمتْهُ قطُّ زكاةُ ذهبٍ ولا فضَّةٍ مع كثرةِ ما يدخلُ منها بيدهِ بل صارَ مالهُ كلُّهُ زكاةً منفقةً للهِ ومصروفةً في سبيلهِ دائماً وأبداً كما اتَّفقَ ذلك لغيرِ واحدٍ من أسخياءِ الصَّالحين والعلماءِ العاملين أهلِ الخراجِ الكثيرِ والمالِ الجزيلِ كاللَّيثِ ابنِ سعدٍ والشَّيخِ ابنِ أبي زيدٍ وغيرِهما ممَّنْ حكى ذلك عنه.

وقد أخبرَ ﷺ عن نفسهِ أنَّهُ لا يبيتُ عندَهُ ستةَ عشرَ فلساً أبداً إلَّا أنْ تكونَ على ذمَّةِ صاحبِها, وقالَ أيضاً وقد كان زمنَ غلاءٍ

" أنا لا أصرُّ درهماً والنَّاسُ في حاجةٍ إليهِ "

وتركَ هذا العامُ فولاً لهُ محروثاً في بعيدٍ من المدينةِ قد أفرطَ حَبَّهُ مهملاً لم يتَّخذْ حارساً يحرسهُ فقيل لهُ إنَّ الأعرابَ تسلَّطوا عليهِ يأكلونَهُ فقالَ

" لا يليقُ استعمالُ الحارسِ في هذا الزَّمانِ بل ينبغي للإنسانِ أنْ يتغافلَ لأنَّ النَّاسَ مضطرُّون اليومَ لما هُم فيهِ من الغلاءِ الكبيرِ الفارطِ "

قبلَ هذا وهو غلاءُ عامِ سبعينَ فما يليهِ البالغُ فيهِ من القمحِ خمسَ أواقٍ أتى جنانَ زيتونٍ وعنبٍ كبيرٍ بموضعٍ يُقالُ لهُ دارُ ابنِ عمرَ خارجَ بابَ الفتوحِ كان مُلكاً من أملاكهِ المعتبرةِ فباعَهُ غيرَ محتاجٍ إلى بيعهِ وأنفقَهُ كلَّهُ في سبيلِ اللهِ على إخوانهِ المؤمنين فما أبقى منهُ درهماً.

ومن صنعِ اللهِ وكرامتهِ لهُ أنْ صارَ هذا الجنانُ مُلكاً لأبنائهِ اليومَ، أوصى بهِ لهُم بعضُ الأمواتِ عامَ أوّل فسبحانَ المُتفضِّلِ على المتفضِّلين والمجزلِ إحسانَهُ لعبادهِ المُحسنين، وربَّما ذكرَ سيِّدُنا أحمدُ ﷺ هذه الحكايةَ مستشهداً بها على فضلِ اللهِ سبحانَهُ ثُمَّ يقولُ هذا جزاءُ الدُّنيا فكيف إذا أتى اللهُ بجزاءِ الآخرةِ

﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾[1].

وقد باعَ أيضاً هذه السَّنَةَ جناناً بلمطةَ لا أكبرَ منهُ في أجنَّةِ لمطةَ بثمنٍ قدرهُ ستَّةُ آلافٍ قضى بِجُلِّهِ ما كان في ذمَّتهِ من المالِ المترتّبِ عليهِ من قِبَلِ العطايا والمُواساة، ثُمَّ أعطى منهُ شيئاً كثيراً وأنفقَ باقيهِ ثُمَّ عوَّضَهُ اللهُ منهُ جناناً آخرَ أكبرَ منهُ بكثيرِ غرسٍ جلُّهُ بيدهِ المُباركةِ، هذا شأنهُ ﷺ فيما يتعلَّقُ بمعاملةِ الإخوانِ من إنفاقٍ وإرفاقٍ حضراً وسفراً.

ما يَصدُر عَنهُ ﷺ في مُعامَلَةِ الأباعدِ

وأمَّا ما يصدرُ عنهُ في معاملةِ الأباعدِ من المواساةِ الجليلةِ والصِّلاتِ الجزيلةِ فاعظمُ من ذلك كلِّهِ لكونهِ يجمعُ ما يجمع ويقبضهُ[2] كذلك مجموعاً ثُمَّ يُعطيهِ دفعةً واحدةً لكنَّا لا نطَّلعُ على غالبِها لِمَا قرَّرناهُ قبلُ من عادتهِ ﷺ في اخفاءِ الصَّدقاتِ وإنَّما يتَّفِقُ لنا الاطِّلاعَ على بعضِها والنَّزرِ اليسيرِ منها, كما إذا تعرَّض لهُ أحد بمحضرِ أحدِنا فواساهُ أو اقتضى الحالُ معاملةَ أحدٍ مراسلةً فيطَّلعُ عليهِ المرسَلُ معهُ أو قضاءَ دَيْنٍ عن أحدٍ ونحوَ ذلك.

---

1 . القصص (60)

2 . في الأصل (بل يقبضهُ) بدلا من (ويقبضهُ) وقد صححت لمناسبة المعنى.

وقد كان يوماً جالساً بالزَّاويةِ في ملأ من النَّاسِ فجاءَهُ رجلٌ مسِنٌّ ممَّنْ يقرأ القرآنَ ويُعلِّمُ الصِّبيانَ لنا بهِ بعضُ معرفةٍ وكان ذا فاقةٍ وإقلالٍ فقالَ لـهُ

" يا سيِّدي ضاقَ عليَّ أمرُ المعيشةِ وليسَ بيدي قليلٌ ولا كثيرٌ وجئتُكَ أستعينُك ".

فقالَ لهُ

" أيَّ شيءٍ أعطيك أنا، إنَّما يُعطيكَ اللهُ "

ووعضَهُ موعضةً بليغةً وذكَّرَهُ وبيَّنَ لهُ ما في السُّؤالِ أو أنَّهُ لا ينفعهُ رفعاً لهمَّتهِ وحرصاً على توجيههِ لمولاهُ، وأنَّهُ إنْ أعطاهُ واحدٌ منعَهُ الآخرَ فيبقى متردِّداً بين الخلقِ غيرَ واثقٍ بالملكِ الحقّ وكذا وكذا وأطالَ في ذلك فصغى الرَّجلُ لكلامهِ وانبسطتْ نفسهُ وقامَ من عندهِ فرِحاً مسروراً، فلمَّا انصرفَ جاءَ سيِّدُنا أحمدُ إلى بعضِ مَنْ كان هنالك وأعطاهُ حفنةَ دراهمَ خِفيةً من النَّاسِ وقالَ لهُ

" اتْبَعْ الرَّجلَ خارجَ الزَّاويةِ وجاوزْهُ حتَّى تمضي إلى بعيدٍ واعطهِ هذه الدَّراهمَ "

فذهبَ وجاوزَ الرَّجلَ المذكورَ حتَّى وصلَ إلى حذاءِ ابن برقوقةَ أو قربِها فتلقَّاهُ وأعطاهُ تلك الدَّراهمَ ولم يعرفِ المُعطى لهُ الرَّجلَ المرسَلَ معهُ بالدراهمِ لكونهِ لم يكنْ من أهلِ مدينةِ فاسٍ.

وكان رجلٌ شريفٌ قادريٌّ من ذريَّةِ سيِّدِنا عبدِ القادرِ الجيلاني نفعنا اللهُ بهِ، ثُمَّ من ولدِ ابنهِ الشَّيخِ إبراهيمِ فرعِنا نحنُ ممَّنْ سكنَ دمشقَ وقسطنطينيةَ قد قدِمَ على المغربِ يلتمسُ بعضَ الأغراضِ، فوفدَ على فاسٍ زمنَ السُّلطانِ مولاي الرَّشيدِ ابنِ الشَّريفِ رحمَهُ اللهُ ثُمَّ على مراكشَ وبها يومئذٍ مولاي أحمدُ بنُ محرزٍ نائباً عن عمِّهِ مولاي الرَّشيدِ المذكور، فأكرمَ مثواهُ ونزلَّهُ وأحسنَ إليهِ كلَّ الإحسانِ فاستوطنَها وتزوَّجَ بها ووِلدَ لهُ وأقامَ هنالك إلى أنْ كان الوقتُ الذي حاصرَ فيهِ السُّلطانُ مولاي إسماعيلُ نصرَهُ اللهُ ابنَ أخيهِ مولاي أحمدَ بنَ محرزٍ

بمراكشَ فقلَّ تأييدهُ إذ كان ذا سخاءٍ عظيمٍ لا يُبقي ولا يذرُ فتقتَّرَ عليهِ المعاشُ وضاقَ ذرعاً فخرجَ بعيالهِ من مراكشَ وقدمَ على فاسٍ وبقيَ مُقيماً بها مدَّةً.

ثُمَّ أجمعَ المسيرَ إلى وطنهِ من بلادِ المشرقِ فلم يجدْ ما يتزوَّدُ بهِ فطافَ بسائرِ الرؤساءِ والولاةِ يذكرُ سفرَهُ وما يحتاجهُ من الزَّادِ عسى أنْ يزوِّدوهُ فما عنى بحاجتهِ أحدٌ، وكان يأتي لزيارةِ سيِّدي أحمدَ ﷺ يشكو لهُ حالَهُ وضعْفَهُ ويذكرُ ما أرادَ من رحيلهِ وسفرهِ فلم يجدْ آنذاك ما يزوِّدهُ بهِ فجاءَ يوماً ليودِّعهُ ويسافرُ وجلسَ إليهِ، فبينما هو ﷺ جالسٌ معهُ ساعتينِ إذ جاءَ رجلٌ قد أُرسلَ إليهِ فاستخلصَهُ من المجلسِ وأعطاهُ صِداق ابنتينِ اثنتينِ لهُ كان قد عقدَ نكاحَهُما قبل ذلك فأخذَ مجموعَ الصِّداقينِ معاً قبل أنْ يُدخلَهُ الدَّارَ وينظرَ إليهِ وقدرَهُ ستمائةِ أوقيةً قديمةً فأعطاهُ الشَّريفُ المذكورُ إعانةً لهُ وإكراماً وودَّعَهُ وانصرفَ ثُمَّ بعد ذلك أعطى قدرَ الصِّداقينِ ابنتيهِ وجهزَّهُما بهِ وبأزيدَ منهُ أحسنَ الجهازِ وقامَ بمؤنتهِما وشورتهما أحسنَ القيامِ.

وكان رجلٌ ممَّنْ صحبَ أباهُ الشَّيخَ سيِّدي مُحمَّداً ﷺ عليهِ دينٌ قدرهُ خمسمائة أوقيةٍ قد أعوزَهُ قضاؤهُ وأعجزَهُ أداؤهُ فألحَّ عليهِ الغرماءُ في القضاءِ وشدَّدوا عليهِ في الاقتضاءِ وألجؤوهُ إلى مجلسِ الشَّرعِ العزيزِ وحكمهِ، ولم يكنْ عنده حينئذٍ دينارٌ ولا درهمٌ ولا ما يباعُ بهما فعزمَ على أنْ يقيمَ البيِّنةَ على فَلسهِ واعدامهِ فبلغَ ذلك سيِّدُنا أحمدُ ﷺ فاشفقَ منهُ، فلمَّا رآهُ قالَ لهُ

" لا تقدمْ ومضى إلى دارهِ فبعثَ لهُ تلك الدَّراهمَ كلَّها فقضى دينَهُ بوفائهِ واستراحَ من مطالبةِ غرمائهِ ".

وقضى مرَّةً عن بعضِ جيرانهِ ديناً أزيدَ من أحدَ عشرَ مثقالاً ونحوِ هذا من أفعالهِ ﷺ كثيرٌ، وبالجملةِ فسخاؤهُ ﷺ عظيمٌ واحسانهُ جسيمٌ ليسَ على سننِ ما يُؤلفُ خارقٌ للعادةِ وخارجٌ عن الأمورِ المعتادةِ لا يناظرهُ فيهِ مثلهُ من أهلِ الخصوصيَّةِ فضلاً عن غيرهِم إذ من عادةِ المشايخِ الفاعلين لمثلِ ذلك كسيِّدي

أبي بكر الدِّلائي وغيرِهِ أنْ يقبضوا أو يدفعوا فيصرفون ما يُؤتَوْن بهِ من مالِ اللّهِ على عبادِ اللّهِ لا يدَّخرون شيئاً وهو ﷺ لا يدَّخِرُ شيئاً ولا يأخذُ من يدِ أحدٍ شيئاً وتخرجُ من يدهِ الأموالُ العريضةُ والعطايا العظيمةُ التي لا يتيَّسرُ مثلُها للأغنياءِ من التجَّارِ وما ذلك إلَّا آيةٌ من آياتِ اللّهِ وبركةٌ مُحمَّديَّةٌ من آثارِ بركةِ سيّدِنا ومولانا مُحمَّد ﷺ وراثةً منهُ ومقام أقامَهُ اللّهُ فيهِ.

وقد كان بعضُ خاصَّةِ الأصحابِ دخلَ يوماً بيدهِ مالٌ فأعطى منهُ ثُمَّ أرادَ إعطاءَهُ بمِرَّةٍ فعلمَ بهِ سيّدُنا أحمدُ فقالَ لهُ

" لا تفعلْ ودعْ مالَكَ عندَكَ لأنَّكَ إنْ فعلتَ ذلك وجدتَ فقدانَ مالِكَ وأثَّرَ ذلك فيكَ فلا تقتدي بي في هذه العطايا فأنا إنْ رأيتَني فعلتُ شيئاً منها ففي ذلك أقامَني اللّهُ".

فُتوَتُه ﷺ

وأمَّا فتوَّتهُ ﷺ فقد تقدَّمَ ما يُنبئُ عن شيءٍ منها في البابِ قبلَ هذا عندَ التَّعرُّضِ للكلامِ على بعضِ أخلاقهِ ﷺ والمرؤةُ شعبةٌ منها والفتوَّةُ من الأخلاقِ الجامعةِ لأنواعٍ من الأوصافِ الحميدةِ والخِلالِ السَّديدةِ كالحلمِ والعفوِ والسَّخاءِ والوفاءِ والسِّترِ على عيوبِ الأصدقاءِ واعانتِهم ومعاملتِهم بجميلِ الإحسانِ ومرجعِها إلى الإيثارِ والسَّخاءِ الأعظمِ وهو السَّخاءُ بالنُّفوسِ وأصلُها كما قالَ القشيري

" أن يكونَ العبدُ ساعياً في أمرِ غيرِهِ دائماً "

وقد بيَّنها أهلُ الطَّريقِ بتفسيراتٍ أوردَها في الرِّسالةِ وعبَّروا عنها بعباراتٍ كلٌّ بحسبِ ما غلبَ عليهِ وبحسبِ نوعٍ من أنواعِها ففسَّروها

" بكفِّ الأذى وبذلِ النَّدى"

وهي عبارةُ الجنيدِ

و" بالصَّفحِ عن عثراتِ الإخوانِ "

و" بأن تنصِفَ ولا تنتصفَ"

و" بأن إذا أُعطيتَ آثرتَ "

وإذا " مُنعتَ شكرتَ "

و" بأنْ لا ترى فضلاً لنفسِك على غيرك "

و" بالوفاءِ والحفظِ "

و" بفضيلةٍ تأتيها ولا ترى نفسَكَ فيها "

و" بحُسنِ الخُلقِ "

و" باتِّباعِ السُّنَّةِ "

وأكثر ما تستعملُ عندَهُم

" في المواساةِ والعفوِ عن الإساءاتِ "

قالَ سيِّدي أبو مدين ﷺ في قصيدتهِ الرَّائيةِ

وبالتَّفتِّي على الإخوانِ جُدْ أبداً حسَّاً ومعنى وغُضَّ الطَّرفَ إنْ عثرا

ولسيّدِنا أبي العباسِ ﷺ من هذهِ الأوصافِ أعظمَ نصيبٍ، والسَّهمُ الذي ما عثرَ عليهِ في هذا الوقتِ مُصيبٌ، ورثَها بالفرضِ المقسومِ لهُ لا بالتَّعصيبِ، وحازَ منها أسمى مرتبةٍ وأسنى مرقبةٍ، وأعلى مقدمٍ، وأكملَ مرامٍ.

سَخاؤُهُ ﷺ بنَفسهِ

فأمَّا سخاؤهُ بنفسهِ الذي هو أعظمُها فإنَّهُ إذا كان وقتُ خوفٍ من لصوصٍ أو سِباعٍ أو غيرِهما رأيتهُ يتقدَّمُ بنفسهِ ويدفعُ بها عن غيرهِ ولا أحداً يتقدَّمهُ رفقاً بهِ وحرصاً على نجاتهِ وإيثاراً لهُ بنفسهِ، وقد كان يخرجُ إلى أجنَّتهِ بلمطةَ وغيرِها في زمنِ الشُّرورِ وكثْرةِ القاطعين للطَّريقِ، فلا يستصرخُ أحداً من جيرانهِ إلَّا كان أوَّل سابقٍ ولا يفرُّ أحدٌ بسببِ أحدٍ إلَّا كان أوَّل لاحقٍ, ولهُ في ذلك وقائعُ شهيرةٌ وغرائبُ كثيرةٌ.

ومن عادتهِ حينئذٍ أنْ يحملَ المدفعَ فيُهدِّدُ اللُّصوصَ ولا يريدُ ضربَهُم فيذلُّون لهُ بقدرةِ اللهِ، وإذا ظفرَ بأحدٍ منهُم عفا عنهُ وأطلقَ سراحَهُ، ولا يرضى بجيرانهِ ذوي الأجنَّةِ أنْ يقتلوا أحداً بعد الظَّفرِ بهِ وينهاهُم عن ذلك ويحملُهم على العفوِ والصَّفحِ وتجدهُ إذا كان في سفرٍ يتكفَّلُ بصعابِ الأمورِ ويتحمَّلُ مشاقَّها ولا يتركُ أحداً يسبقُ إليها ولا يتحمَّلُها عنهُ حتَّى إنْ أصحابَهُ ليشقُّ عليهِم ذلك شفقةً عليهِ ويتمنَّى أحدُهم أنْ يحملَ عنهُ شيئاً من ذلك فلا يجدُ لهُ سبيلاً لِمَا يعلمونَهُ من جدِّهِ في ذلك وعدمِ رجوعهِ عنهُ لقيامهِ فيهِ للهِ, ويُكثرُ المشيَ على رجليهِ لتتوفَّرَ دابَّتَهُ لمَنْ يركبُها، وإذا أمرَ أحداً بالرُّكوبِ لم يستطعْ مخالفتَهُ, حاجةُ إخوانهِ أهمُّ عندَهُ من حاجةِ نفسهِ ونازِلتُهُم أعظمُ عليهِ من نازلتهِ لا يُبالي بنفسهِ أين ألقاها عند نزولِ الدَّواهي بغيرهِ.

ولقد كان وقعَ في بعضِ دورِ الجيرانِ حريقٌ واشتعلتِ النَّارُ وكثُرَ ضِرامُها ولهيبُها وتَطايرَتْ لناحيةِ السَّقفِ فجعلَ سيِّدُنا أحمدُ يتقدَّمُ إليها ويبادرُها بنفسهِ يطفيها بما في يدهِ حتَّى كان أهلُ الدَّارِ أخوفَ عليهِ منهُم على الدَّارِ لكثرةِ ما رأوا منهُ من عدمِ مبالاتهِ بنفسهِ حتَّى أخمدَها اللهُ تعالى وفرَّجَ عن أهلِ الدَّار ما هم فيهِ.

وكان مرَّةً بعضُ النَّاسِ ذاهباً معهُ في طريقٍ ضيّقٍ فإذا بدابَّةٍ رفعتْ رجلَها لتضربَ الرَّجلَ فحالَ بينهُ وبينَها بنفسهِ ناصباً ظهرَهُ فضربتْهُ هو ونجا منها الرَّجلُ إلى غيرِ ذلك من حكاياتهِ في هذا المعنى وهي أكثرُ من أنْ تُحصى.

حكمُهُ ﷺ وعَفوه

وأمَّا حكمهُ وعفوهُ فشأنهِ ﷺ الصَّفحُ عمَّنْ اشتغل بإذايتهِ وعدمِ المؤاخذةِ لهُ والنَّظرِ فيهِ بعينِ الحقيقةِ والتماسِ المعذرةِ لهُ ويقولُ

" إذا نظرتُ إلى النَّاسِ وما يجري عليهِم من قدرِ اللهِ عذرتُهم، وإنَّما يجيءُ الملامُ من عدمِ شهودِ أمرِ اللهِ النَّافذِ فيهم "

ويحنُّ مع ذلك عليهِم ويُشفقُ من حالهِم مخافةَ أنْ يدركَهُم الهلاكُ بسببِ تماديهم على فعلِهم ذلك, وكثيراً ما يعاملُهم ويهاديهِم وخصوصاً إنْ كان لهُم قرابةٌ نسبيَّةٌ أو دينيَّةٌ حرصاً على إزالةِ ضغنِهم ومحوِ ما في قلوبِهم, وإذا شكى أحدٌ من أصحابهِ إذاية أحدٍ سلَّاهُ عن ذلك وحملَهُ على الحلمِ والعفوِ وحضَّهُ على الاشتغالِ بما يعنيهِ.

ويقولُ إنَّ المُصلّي لا يلتفتُ في صلاتهِ وإنْ التفتَ بطلتْ صلاتهُ وكذلك المُتوجّهُ أنْ التفتَ بطلتْ وجهتهُ فلا يلتفتُ لإذايةِ الخلقِ إيَّاهُ فيفتنوهُ عن وجهتهِ ويقولُ على سبيلِ ضربِ المثلِ

" إنَّ مَنْ يطحنُ قوتَهُ في رحاهُ بيدهِ لا يشتغلُ بالإنصاتِ للنَّاس، وإنْ اشتغلَ بهِ باتَ أولادُهُ جائعين دونَ عشاءٍ "

يعني أنَّهُ إذا اشتغلَ بذلك ضيَّعَ عبادتَهُ وفتنَ قلبَهُ، ويستشهدُ بقولِ الشَّيخِ سيِّدي مُحمَّد الكومي ﷺ

" إذا سبَّكَ أحدٌ فقلْ كلَّمني، وإذا بصقَ عليكَ فقُلْ رُشَّني بالماءِ "

ولا يحبُّ المعتنين بنصرةِ أنفسِهم ولا المُشتغلين بمُلاحاتِ الرِّجالِ ولا يحبُّ الغلظةَ ولا الفظاظةَ ولا أهلَها ويقولُ

" إنَّ الحليمَ يحلُمُ اللهُ عليهِ "

ويستشهدُ بحديثِ

" الرَّاحمون يرحمُهم الرَّحمنُ "[1].

ويترحَّمُ على الكبيرِ والصَّغيرِ وكلِّ ضعيفٍ مُستضعَفٍ ويُوصي مَنْ أتاهُ من أربابِ الولايةِ بالعفوِ عن المساكين ويقولُ لهم

" بضعفائِكم تُرحمون ولا عملَ أحسنَ من ذلك لكُم ومَنْ عَفى عُفيَ عنهُ ".

وكتبَ يوماً لبعضِهم فقالَ لهُ

" واعلموا أنَّكُم لا ترجُون عملاً يتقبَّلهُ اللهُ منكم إلَّا ثلاثاً, العفوُ عن المظالمِ, وإغاثةُ الملهوفِ, والأخذُ بيدِ المسكينِ "

وقد يلقى بعضَ الأجلافِ في الطَّريقِ ممَّنْ لا معرفةَ لهُ بهِ فيتَّفقُ لهُ أنْ ينهاهُ عن شيءٍ أو يقبِّحَ عليهِ محذوراً رآه فعلَهُ فيجفوهُ ذلك الجاهلُ لكونهِ لا يعرفهُ ويغلظُ لهُ في القولِ فيحكُمُ عند ذلك ويتجاوزُ عنهُ، وربَّما يحكي ذلك ضاحكاً منهُ ومعتذراً عن فاعلهِ.

يعرضُ عن جهلِ الجاهلين ويصبرُ لجفوةِ الجافين، ويعفو عن إذايةِ المُؤذين بل يُحسنُ إلى مَنْ أساءَ إليهِ ويحنُّ عليهِ بعد التَّجاوزِ عنهُ ويحدِبُ عليهِ ولا يزالُ يلاطفهُ قولاً وفعلاً، ويعاملهُ بالجميلِ وبالتي هي أحسنُ ويبشِّرُ بهِ ويتعطَّفُ عليهِ ويحرصُ على إيصالِ الخيرِ إليهِ رحمةً لهُ وشفقةً عليهِ حتَّى يستحي ذلك

[1] . الحديث رواهُ الترمذي بسندٍ صحيح.

المُسيءُ غايةَ الحياءِ، ويخجلُ غايةَ الخجلِ، ويتعجَّبُ من عفوهِ عنهُ ثُمَّ تَفضُّلهُ عليهِ ومن سابقِ سيِّئاتهِ التي عادتْ كالحسناتِ لديهِ، كما شاهدنا ذلك وقعَ لهُ مع[1] بعضِ إخوانهِ في اللهِ المشاركين لهُ مع شيخهِ سيِّدي قاسمٍ رحمَهُ اللهُ، فما زال يَحلمُ عنهُ ويُحسنُ إليهِ حتَّى كان أحبَّ الأحبَّاءِ إليهِ والكلامُ على حلمهِ وعفوهِ ﷺ أوسعُ من هذا، وقد تقدَّمَ بعضُ ما هو منهُ في السِّيرةِ.

وَفاؤُهُ ﷺ لِنَفسِهِ

وأمَّا وفاؤهُ ﷺ والوفاءُ نوعٌ من الفُتوَّةِ، وعطفهُ في التَّرجمةِ عطفٌ خاصٌّ على عامٍّ، فمنهُ أنَّهُ إذا استسلفَ شيئاً قضاهُ بسرعةٍ لا يتوانى في ذلك ولا يغفَلُ وإذا اشترى سلعةً لأَجَلٍ لا يتجاوزُ ذلك الأجلَ البتَّةَ، وما حُفِظَ لهُ تأخيرُ قضاءِ دَيْنٍ قطُّ حفظاً من اللهِ لهُ وكفايةً لهُ إيَّاهُ، ولا بُدَّ عنده من الإشهادِ في ذلك، ولقد كان مرَّةً عليهِ دَينٌ لرجلٍ إلى أجَلٍ فانقضى الأجلُ أو قاربَ ولم تحضُرْهُ الدَّراهمُ فعمَدَ إلى أرضٍ بل جِنانٍ من أجنَّتهِ بقُربِ المدينةِ فباعَهُ ليقضيَ بثمنهِ الدَّينُ فلمَّا سمعَ بذلك ربُّ الدَّينِ جاءَهُ وقال لهُ

" يا سيِّدي لا عليك أنْ لا تفعلَ فأنا أصبرُ إلى أن يتيسَّرَ المالُ "

وراودَهُ على ذلك كلَّ المُراودةِ ورغِبَ إليهِ فيهِ فأبى عليهِ وقال

" إنَّ أجلَنا إلى هذه المدَّةِ فلا نزيدُ عليها شيئاً وما عندي هذه الأرضُ وغيرُها إلَّا لهذا القصدِ ونحوهِ ".

---

1 . ليست في المخطوطة وأُضيفت لمناسبة المعنى.

وَفَاؤُهُ ﷺ لإخوَانهِ

ومنهُ وفاؤهُ بمعاملةِ الإخوانِ وحفظِ عهودِهم وعهودِ أصحابهِ في كلِّ أوانٍ على ما قدَّمناهُ قبلُ من مواصلتهِ إيَّاهُم أتمَّ المواصلةِ، وتعطُّفهِ عليهم أحسنَ التَّعطُّفِ، وإحسانهِ إليهم كلَّ الإحسانِ، وكذلك أصحابُ أبيهِ الشَّيخِ سيِّدي مُحمَّد ﷺ فإنَّهُ لا يزالُ يحفظُ لهم ودَّاً ولا ينسى لهم على طولِ الزَّمانِ عهداً ولا يألوا في إكرامِ مَنْ أمكنَهُ إكرامُهُ منهم جُهداً، وإذا جاءَهُ أحدُهم يلتمسُ قضاءَ حاجةٍ منهُ قضاها لا محالةَ وسعى في تحصيلِها ما أمكنَ, ويُواسي الضَّعيفَ منهم ويتعاهدَهُ على عادتهِ في أصحابهِ ويقولُ

" لا أتركُ أصحابَ أبي ولا أُهمِلُ حاجتَهُم "

وسمعتهُ يقولُ

" إنِّي إذا لقيتُ يوماً أحداً من أصحابِ الوالدِ رحمَهُ الله وجدتُ قلبي يحنُّ عليهِ ويميلُ إليهِ "

وهذا من حُسنِ عهدهِ ﷺ وتمامِ وفائهِ وحُسنِ مودَّتهِ في اللهِ وإخائهِ.

وَفاؤُهُ ﷺ لِعَهدِ شَيخهِ وحِفظِه لِوَصَاياه

ومنهُ وفاؤهُ بما عهدَ إليهِ شيخُه وحِفظه لوصاياه وشدة رعايته لها فقد استوصاه أيَّام حياته بأناس خيراً فلمَّا توفى أكبّ عليهم يحسن إليهِم ويعتني بأمورهم ويحرص على هدايتهم كثيراً ويتعاهدهم ويسأل عنهم ويواصلهم بما أمكن من أنواعِ المواصلاتِ كأنَّهُم من ذوي رحمهِ يُراعي بذلك كلِّهِ فيهم وصيَّةَ شيخهِ ويحفظُ فيهم عهدَهُ مستوفياً أكثرَ ممَّا عهِدَ إليهِ.

وقد أخبرني يوماً ﷺ عن شيخهِ سيِّدي قاسمٍ رحمَهُ اللهُ وقد جرى الكلامُ عليهِ أنَّهُ رحمَهُ اللهُ ونفعنا بهِ كان أوصاهُ بي وبأخي أبي عبدِ اللهِ العربي خيراً وقد وفّى ﷺ بهذهِ الوصيَّةِ وزاد عليها بكلِّ مطلوبٍ وأمنيةٍ فلا أكثرَ ممَّا صنعَ من الجميل معنا وجرى منهُ من المودَّةِ والإحسانِ إلينا فجزاهُ اللهُ عن النَّبي ﷺ وعن شيخهِ وعنَّا أحسنَ ما جزى بهِ وليَّاً من أوليائهِ وصفيَّاً من أصفيائهِ، وأدامَ ذلك علينا ورزقَنا محبَّتهُ، وضاعفَها لنا وجعلَنا من الشَّاكرينَ والموفين بحقّ هذا الوفاءِ العظيمِ، وممَّا يندرجُ في هذا الوفاءِ أيضاً توفيتُهُ في معاملاتِ مولاهُ وعباداتهُ لهُ وقيامهُ للهِ في سائرِ حركاتهِ وسكناتهِ حيث لا يقطعُ شيئاً ابتدأهُ ولا يرجعُ عن شيءٍ للهِ عزمَ عليهِ وأعظِمْ بذلك وفاءً من اللهِ وإعطاءً.

سَعيُهُ ﷺ في أمُورِ غَيرهِ وكَثرةُ إحسَانهِ لِذَوي الصَّلاحِ وبِرّهِ

وأمَّا سعيهُ في أمورِ غيرهِ وكثرةُ إحسانهِ لذوي الصَّلاحِ وبِرّهِ فيكفيكَ منهُ ما ذكرناهُ خلالَ ذكرِ أخلاقهِ من التَّفضُّلِ والإحسانِ إلى الأصحابِ والإخوانِ والذي يخصُّ هذا الموضعَ من هذا المعنى هو ما كان بمعنى الإيثارِ ومُنخرِطاً في مسلكهِ وايثارهِ ﷺ الإخوانَ في اللهِ على نفسهِ ممَّا لاحتْ للعيانِ دلائلهُ

واوضحتْهُ مآثرهُ وفعائلهُ، وكم لهُ فيهِ من مآثرَ غريبةٍ ومنقبةٍ عجيبةٍ وما أكثرَ ما يرشدُ إليهِ ويدلُّ عليهِ.

وقيلَ لهُ يوماً أنَّ بعضَ المشايخِ أمرَ أصحابَهُ يحملُ أشباحَ نحلٍ يأتونَهُ بها فجعلَ بعضُهم يحملُ واحداً وبعضُهم اثنين وبعضُهم ثلاثةَ، فلمَّا وصلوا إليهِ أعطى لكلّ حاملٍ ما حملَهُ فندمَ المقللون في الحملِ، وكان غرضُ الذين حملوا الكثيرَ تخفيفَ الثِّقلِ عن إخوانِهم فقالَ عند ذلك سيّدُنا أحمدُ

" لو كنتُ أنا فيهم لاخترتُ حملَ الأقلِّ لينالَ غيري الأكْثرَ يعني إيثاراً لهُ ".

ومن عظيمِ فتوّتهِ وإيثارهِ وسعيهِ في منافعِ الغيرِ وأوطارهِ ما هو عليهِ من معاملةِ السَّيّدِ الفقيهِ الجليلِ العارفِ الكاملِ الأصيلِ أبي العبَّاسِ سيّدي أحمدَ اليمني ﷺ ومرافقتهِ إيَّاهُ بأنواعِ المَبرَّةِ والإكرامِ والإجلالِ والإعظامِ والقيامِ بهِ وتضييفِ أصحابهِ وعظيمِ أدبهِ معهُ وحسنِ معاشرتهِ ومؤاخاتهِ في اللهِ ومودَّتهِ وإيثارهِ لهُ على نفسهِ في كلِّ شيءٍ من الأشياءِ فقد كان أولاً سيّدي أحمدُ اليمني ﷺ بجامعِ الأبَّارينَ من حارةِ قيسٍ من عدوةِ فاسِ القرويين يأوي بصقلبيةٍ منها وهي التي فوق السِّقايةِ من صحنِ الجامعِ المذكورِ، فكان سيّدُنا أحمدُ ﷺ يرسلُ إليهِ ما يحتاجهُ من الطَّعامِ المطبوخِ كلَّ يومٍ ويتخيَّرُ لهُ من أنواعِ الأطعمةِ جيّدِها وأرفعِها ويقيمهُ من كلِّ شيءٍ حتَّى الأواني الصِّغارِ، ولا تجدُ عندَهُ منها إلَّا أبدعَها وأحسَنها ويتعاهدُ أمورَهُ كلَّها، ويستعملُ لهُ الأدويةَ والأشربةَ إذا مرضَ ويباشرُها بيدهِ وربَّما فَصدَ لهُ في ذراعهِ بيدهِ لأنَّهُ يُحسنُ ذلك ويبادرُ إلى الأمرِ الذي فهمَ عنهُ إرادتَهُ ولا يتركهُ يعنى بشيءٍ ويشفعُ فيمَنْ تعلَّقَ بهِ عند ولاةِ فاسٍ مراسلةً ولا يُحوجهُ إلى مراسلتِهم، ويواسي أصحابَهُ بأنواعِ المواساةِ كلِّها فيكسوا أغاربهم ويُشبعُ جائعَهُم ويدافعُ عنهُم مَنْ أرادَ ضيمَهم ويغارُ عليهِم ولا يألوا جُهداً في نصيحتِهم وإيصالِ الخيرِ إليهِم.

وإذا خرجا معاً لزيارةِ مولانا عبدِ السَّلامِ بنِ مشيشٍ ﷺ وعن غيرهِ من المشايخِ نفعنا اللّهُ بهم في رفقةٍ واحدةٍ استصحبَ معهُ لأجلهِ أطايبَ الطَّعامِ وأحسنَها وأعدَّ لهُ مركوباً ليركبَهُ وفرساً ووسادةً وسجَّادةً، وأمرَ لهُ بتسخينِ الماءِ فلا يتوضَّأ في كلِّ منزلٍ ينزلهُ ليلاً إلّا بالماءِ السُّخنِ، ولا يغفلُ عنهُ فيما يحتاجهُ من ضرورياتِ السَّفرِ كلِّها ويبالغُ في إكرامهِ وتوقيرهِ واحترامهِ، ويرفقُ بأصحابهِ ويرفدُهم فيضيّفُ إليهِ منهم عدداً يأكلون معهُ وينزلون معهُ فلا يحتاجون إلى زادٍ سائرَ سفرِهم .

ولمَّا كثرَ اعتراءُ الأمراضِ لهُ أعني سيّدي أحمدَ اليمني ﷺ حتَّى أنَّها في بعضِ الأحيانِ تُلزمهُ الفراشَ أيَّاماً طويلةً ورأى سيّدُنا أحمدُ ﷺ احتياجَهُ إلى مَنْ يُباشرُ لهُ بعضَ ضروريَّاتهِ عرضَ عليهِ التَّزويجَ وندبَهُ إليهِ فأجابَهُ لذلك فنهضَ إذ ذاك سيّدُنا أحمدُ ﷺ لتحصيلِ هذا المطلوبِ وإمضائهِ، فظهرَ لهُ بمقتضى نظرهِ السَّديدِ ورأيهِ الحميدِ وبحسبِ ما يليقُ بهذا السَّيّدِ المباركِ المجيدِ أنْ يخطبَ لهُ ابنةَ الولي الصَّالحِ ذي الكشفِ الواضحِ الخاشي أبي مروان سيّدي عبدِ المالكِ بنِ مُحمَّد الغمري بالمعجمة دفينَ أكرال من بلادِ غمرةَ على نصفِ مرحلةٍ من فاسٍ رحمَهُ اللّهُ ونفعنا بهِ لكونِها من بيتِ صلاحٍ وديانةٍ وعفافٍ وصيانةٍ، وممَّنْ لا يعرفُ عوائدَ هذه البلدةِ أعني فاساً ولا تكاليفَها بل من أهلِ باديةٍ لا يترفَّعون ولا يترفَّهون.

فذهب إلى بلدةِ غمرةَ خاطباً لها من أخيها السَّيّدِ الفاضلِ أبي العبَّاسِ أحمدَ بنِ سيّدي عبدِ المالكِ المذكورِ، وهو من أصحابِ سيّدِنا أحمدَ ﷺ واستصحبَ معهُ جماعةً من معارفهِ من الشُّرفاءِ والفقهاءِ والفقراءِ والطَّلبةِ كنتُ أنا وأخي فيهم.

ووفدنا بهِم على أخي المخطوبةِ المذكورِ بمنزلهِ، ففرحَ بلقياهِم وأكرمَ مثواهُم وأجلَّ رتبتَهُم ولبّى دعوتَهُم وسُرَّ بهِم وبما جاؤوا إليهِ رغبةً في جانبِ اللّهِ

سبحانَهُ, وعظُمَ عليهِ الفرحُ بمصاهرةِ هذا السَّيِّدِ المباركِ وبمباشرةِ سيِّدِنا أحمدَ ﷺ لذلك فعقدُوا النِّكاحَ حينئذٍ على صداقٍ قدرهُ خمسمائةِ أوقيَّةٍ قديمةً الكالي منها مائةَ أوقيَّةٍ وأمَة من وسط الرقيق وكنت أنا وأخي الشاهدين على ذلك كله

وتولَّى سيِّدُنا أحمدُ ﷺ على عادتهِ القيامَ بجميعِ ذلك، ونقدَ الصِّداقَ المذكورَ المعجَّلَ منهُ كلَّهُ من مالهِ ساعتئذٍ ثُمَّ اشترى الأمةَ المُشترطةَ من أفضلِ الرَّقيقِ أحسنَ ممَّا اشترطوا بعد تحرّيهِ فيها وتحقَّقَ أنَّها سُبيَتْ كافرةً ليصحَّ تملُّكُها شرعاً بثمنٍ قدرهُ أربعمائة أوقيَّةٍ قديمةٍ تنقُص مثقالينِ، وكان بعضُ مَنْ حضرَ الخِطبةَ يريدُ أنْ يكونَ الصِّداقُ أقلَّ من ذلك ويحرِّضُ على الرِّفقِ فيهِ فقالَ سيِّدُنا أحمدُ ﷺ

" الذي عندي أنَّ المنسوبَ إلى اللهِ لا يُرفَقُ بهِ في نحوِ هذا لأنَّهُ لا يرى الإنفاقَ من مالهِ، إنَّما يراهُ من مالِ اللهِ ومن عندهِ ".

ثُمَّ قامَ ﷺ بجميعِ ما بعد ذلك من المُؤنِ ممَّا يُجهَّزُ بهِ العروسَ من قبلِ الزَّوجِ وما يحتاجهُ الزَّوجُ من اللِّباسِ وحوائجِ الدَّارِ وأوانيها ووظيفةِ العُرسِ، وصنعَ وليمةً عظيمةً بدارِ سيِّدي قاسمٍ قبلَ البناءِ بيومٍ، وحشَّدَ لها من الضُّعفاءِ والغرباءِ والطَّلبةِ المسافرينَ ما لا يكادُ يُعدُّ وأطعمَهم الثَّريدَ واللَّحمَ والعسلَ، وظلَّ النَّاسُ يومَهُم يجيئون ويذهبون ترجعُ طائفةٌ وتأتي أخرى، وكثيرٌ من النَّاسِ أتاها دون دعاءٍ[1] تعرُّضاً للبركةِ.

وأعدَّ لهُ للبناءِ داراً أخرى مجاورةً لحفدةِ أختهِ أولادِ الفقيهِ وأسكنَهُ بها وجعلَ يُنفقُ عليهِ ويُقيمُ دارَهُ من كلِّ ما تحتاجُ إليهِ من قمحٍ وإدامٍ وعسلٍ وغيرِ ذلك يجعلُ ذلك كلَّهُ بدارِ سيِّدي أحمدَ اليمني مُعَداً متى احتاجَهُ أو غشيَهُ الأضيافُ وجدَهُ، ويُرسلُ إليهِ زيادةً على ذلك ما يكفيهِ من الطَّعامِ المطبوخِ كلَّ يومٍ، ويُقيمُ أصحابَهُ وأضيافَهُ وأعدَّ لهم داراً يبيتون بها، ويبعثُ لهُم بها من الطَّعامِ المطبوخِ

[1] . أي دون دعوةٍ.

غداءً وعشاءً قدرَ مؤنتِهم وكفايتِهم بالغينَ ما بلغوا، وكثيراً ما يفضُلُ عنهُم الطَّعامُ فيلتمسون مَنْ يأكلهُ إذ من شأنهِ أنْ لا يرجِعَ ما خرجَ من دارهِ إليها، هذا مع ما علمَ من شدَّةِ هذا الوقتِ وغلاءَ الزَّرعِ فيهِ حيثُ يباعُ المُدُّ بأوقيتينِ فأزيدَ، وحالُ هذه البلدةِ من صعوبةِ المؤنةِ فيها دائماً.

وبقيَ يتعاهدُ أمورَهُم، ويسعى في قضاءِ حوائجِهم لا يغفُلُ عنهُم في شيءٍ من الأشياءِ، وبقيَ سيّدي أحمدُ اليمني ﷺ على ما كان عليهِ لا يتعنَّى لأمرٍ ولا يعرجُ على شيءٍ مشتغلاً بعبادتهِ مقبلاً على شأنهِ مجموعَ القلبِ، وعلى مولاهُ وقد راودَهُ بعضُ أهلِ فاسٍ لِما سمعوا بتزويجهِ أنْ يشتروا لهُم داراً بإزائهم ليسكُنوا فيها فأتى عليهم وامتنعَ من قبولِ مِنَّتِهم واختارَ مجاورةَ سيّدي أحمدَ ﷺ وارفاقهِ ومرافقتهِ لِما بينهُما من المؤاخاةِ في اللهِ.

وقد قالَ مرَّةً إنَّ سيّدي أحمدَ بنَ عبدِ اللهِ لا يقدرُ أحدٌ أنْ يردَّ عليهِ شيئاً وإنْ ردَّهُ خافَ على نفسهِ يعني لأنَّ مالَهُ للهِ وفي اللهِ، فمَنْ دفعَهُ خشيَ ما ينزلُ بهِ من عقوبةِ اللهِ، فانظرْ رحمَكَ اللهُ ما أقوى هذا السَّيِّدُ في ذاتِ اللهِ وما أعظمَ معاملتهِ فيهِ حتَّى لا يسعُ أحداً التَّخليَ عند مواساتهِ وإحسانهِ ﷺ ونفعنا بهِ.

وسيّدي أحمدُ اليمني هذا المُؤثَرُ بهذه المعاملاتِ والمكرَمُ بهذه المفاضلاتِ هو من جلَّةِ الزَّمانِ وأكابرِ الأعيانِ ومن أهلِ الرُّسوخِ والعِرفانِ، شهدَ لهُ سيِّدُنا أحمدَ ﷺ بالخصوصيَّةِ الكاملةِ والبصيرةِ التَّامَّةِ وزُهدهُ وورعهُ وكمالُ اتِّباعهِ للسُّنَّةِ المُحمَّديَّةِ وكرمُ أخلاقهِ أدلُّ دليلٍ على ذلك.

وقد أخبرَ هو عن نفسهِ ﷺ بما يؤذِنُ بعظيمِ المعرفةِ وحالِ الجذبِ فقالَ يوماً لصاحبِنا السَّيِّدِ الصَّالحِ الثِّقةِ الصَّدوقِ أبي عبدِ اللهِ مُحمَّد بنِ مُحمَّد سيِّدي الدريج التَّطاوُني حفظهُ اللهُ وقد تكلَّمَ معهُ في شأنِ الخواطرِ التي تعتري الإنسانَ ولا يمكنهُ الانفكاكَ عنها

" **إنَّ هذه الخواطرَ لا بُدَّ منها لكُلِّ إنسانٍ ولا انفكاكَ لأحدٍ عنها حتَّى المخصوصِ من الخلقِ ولا ينجو منها إلَّا مَنْ كان غائباً في شهودِ الذَّاتِ العليَّةِ** "

قالَ

" **وقد وقعتْ لي تلكَ الغيبةُ مرَّةً فبقيتُ مُصطلِماً غائباً لا أشعرُ بشيءٍ يوماً وليلةً ثُمَّ استصحيتُ من ذلك واستأنستُ بهِ ولم تبقَ الغيبةُ على ظاهري** " انتهى.

ولمَّا حدَّثَ بذلك العالِمُ الفاضلُ المباركُ الأنورُ أبو عبدِ اللهِ سيِّدي مُحمَّد المهدي بنُ أحمدَ الفاسي كلأهُ اللهُ استعظمَهُ وقالَ

" هذا التَّصريحُ بالعرفانِ!! "

وصارَ بعد ذلك إذا كتبَ اسمَهُ عبَّرَ عنهُ بالعارفِ الكاملِ الرَّاسخِ وهو أعني سيِّدي أحمدَ اليمني ﷺ من رجالِ التَّصريفِ لهُ الكراماتُ الكثيرةُ والأفاعيلُ الكبيرةُ مع الكشفِ القويِّ والفراسةِ النَّيِّرةِ يظهرُ كلُّ ذلك عليهِ إذا تنكَّرَ لأحدٍ ظهرَ عليهِ أثرُ الخسرانِ مكانَهُ، وإذا أضرَّ بهِ أحدٌ أهلكَهُ الله لحينهِ.

وقد قالَ يوماً لبعضِ المُوالين لهُ

" **إنِّي إذا آذاني أحدٌ ففاضتْ عيناي أهلكَهُ اللهُ لا محالةَ** ".

ولمَّا أنهى هذا البعضُ هذه المقالةَ لسيِّدِنا أحمدَ بنِ عبدِ اللهِ ﷺ قالَ

" أمَّا أنا فلستُ كذلك بل على العكسِ فإنِّي إذا آذاني أحدٌ وضحكتُ أخذَهُ اللهُ ".

وهذا البكاءُ والضَّحكُ منهُما رضيَ اللهُ عنهُما حاليَّاً غيرَ اختياريينِ، ولذا نشأ عنهُما ما نشأ وهو ﷺ من المتجردِّينَ عن الأسبابِ الواقفينَ بالبابِ ممَّنْ أوتيَ في التَّوكُّلِ قوَّةً وصارَ فيهِ عَلَماً وقُدوةً، وقد صرَّحَ مراراً بأنَّ أمرينِ كُفيهُما لا يُهمَّانهِ أبداً همُّ الرِّزقِ وخوفُ الخلقِ.

ولهُ ﷺ همَمٌ ساميةٌ واشاراتٌ في الطَّرِيقِ عاليةٌ، وهو على ما منحَهُ اللهُ من العلومِ اللَّدنيَّةِ والأسرارِ الوهبيَّةِ، يتعاطى قراءةَ العلومِ ويعتني بدقائقِ الفُهومِ، يقومُ على مختصرِ الشَّيخِ خليلٍ يُعلّمَهُ بعضَ الطَّلبةِ من أصحابهِ، لهُ درسٌ منهُ كلَّ يومٍ أحضرُهُ أنا لهذا العهدِ وأقرؤهُ عليهِ، وقد أمرني بإقرائهِ الطَّلبةَ فأخذتُ في هذا الوقتِ في تدريسهِ ووجدتُ ببركتَهُ تيسيراً والحمدُ للهِ.

لقيَ ﷺ عدداً كثيراً من المشايخِ الكمَّلِ وفحولُ الرِّجالِ وأخذَ عنهُم وانتفعَ بِهم نفعاً تامَّاً يذكُرُهم لنا في كثيرٍ من الأحيانِ ويذكرُ أخبارَهُم.

منهُم الشَّيخُ العالِمُ العارفُ المُتمكِّنُ سيِّدي دفعَ اللهُ بهِ ابنُ الشَّيخِ العارفِ أبي عبدِ اللهِ مُحمَّد العراكي وهو عمدتهُ وعلى يدهِ فتحَ لهُ وإليهِ ينتسبُ وهو من مدينةِ أربجي وهو أخذَ عن والدهِ ووالدهُ عن أخيه الشَّيخِ سيِّدي عبدِ اللهِ البرقاوي الذي تُوفيَ يومَ آخرِ خميسٍ من شهرِ ربيعِ الثَّاني سنةَ " 1228 " وهو ابنُ " 43 " سنةً، وهو عن الشَّيخِ حبيبِ اللهِ العجمي بالسَّندِ المُتَّصلِ إلى الشَّيخِ عبدِ القادرِ الجيلاني ﷺ كما قالَهُ سيِّدي أحمدُ اليمني المذكورُ.

ومنهُم الشَّيخُ العالِمُ العارفُ الكبيرُ المجذوبُ الشَّهيرُ صاحبُ وقتهِ وأعجوبةُ دهرهِ أبو مُحمَّد عبدُ اللهِ بنُ الإمامِ عبدُ الجليلِ بنُ عمرَ البرقاوي الحميَري القاطنُ ببرنو من بلادِ السُّودانِ، وكثيراً ما يذكرهُ ويحدِّثُ عن جلالةِ قدرهِ وعظمِ أمرهِ.

ومنهم الشَّيخُ الولي الجليلُ العالمُ العارفُ أبو العبَّاسِ سيِّدي أحمدُ الصَّادقُ المدعو بالصَّادقِ لقباً لهُ ابنُ الشَّيخِ أبي مُحمَّد أويِّسٍ بنِ عبدِ القادرِ التَّاركي بالكاف المعقودة وهو قاطنٌ في باكزر[1] من بلادِ السُّودانِ وطريقهُ سهروردِيَّةٌ.

ومنهم الشَّيخُ العالمُ الولي الكبيرُ المجذوبُ الخطيرُ ذو الكراماتِ الظَّاهرةِ والآياتِ الباهرةِ أبو النَّجدةِ سيِّدي فارسٌ السَّناسنُ بالنُّونِ بعد السِّينِ الأولى

---

[1] . عدم وضوح الكلمة في المخطوطة , وورد مكان سكناه في موسوعة أعلام المغرب في (باكُزر) بكاف معقودة مدينة بأطراف السودان

والثَّانيةِ اسمُ طعامٍ هنالك سمِّيَ بِهِ هذا الشَّيخُ لأنَّهُ لا يزالُ يطعمهُ النَّاسَ ولا يطعمُهم غيرَهُ.

يُحكى عنهُ تصريفاتٌ عظامٌ وآياتٌ وإخباراتٌ، وحُدِّثَ عنهُ أنَّهُ قالَ مراراً "إنَّ طرقَ الصُّوفيَّةِ الموجودةِ في هذا الزَّمانِ محصورةٌ في أربعٍ لا خامسَ لها كالمذاهبِ الأربعةِ وهي الطَّريقُ الغزاليَّةُ والقادريَّةُ والرِّفاعيَّةُ والشَّاذليَّةُ ".

والشَّيخُ فارسٌ هذا حنفي المذهبِ نازلٌ بولدهِ مُسِنّ حي لهذا الوقتِ, والثَّلاثةُ قبلَهُ ماتوا عامَ تسعينَ بتقديم المثناة بل تُوفيَ الشَّيخُ دفعَ اللهُ بهِ قبله بأربعِ سنينَ وكلُّهم مالكي المذهبِ.

ويلقى أعني سيِّدي أحمدَ اليمني الخضرَ عليهِ السَّلامُ ويعرفُ اسمَ اللهِ الأعظمِ عرَّفَهُ إيَّاهُ أحدُ أشياخهِ الشَّيخُ فارسُ السَّناسنِ ﷺ وسببُ معرفتهِ لهُ أنَّهُ ذهبَ للشَّيخِ المذكورِ ليسألَهُ عن ذلك ويأخذَهُ عنهُ، فلمَّا وصلَ إليهِ وجلسَ بين يديهِ وتكلَّمَ معهُ استحيى فانصرفَ راجعاً ولم يسألْهُ فكاشفَهُ الشَّيخُ بذلك وأرسلَ إليهِ بطاقةً مكتوبٌ فيها الإسمُ الأعظمُ فعلَّمَهُ إذ ذاك وأخذَهُ عنهُ وهو ﷺ قادري الطَّريقةِ كما صرَّحَ بهِ مراراً، شريفُ النَّسبِ أصيلُ الحسبِ لهُ سلفٌ في الخصوصيَّةِ إلَّا أنَّهُ لا يُشيعُ نسبَهُ بل لا يذكرهُ، وصرَّحَ لبعضِ الأصحابِ أنَّهُ ترك ذلك للهِ، وقد وصفَهُ بالشَّرفِ وبالولايةِ والعرفانِ الشَّيخُ الولي الكبيرُ المجذوبُ الشَّهيرُ أبو حفصٍ عمرُ ابنُ الشَّيخِ عبدِ اللهِ البرنوي فقالَ في أثناءِ كتابٌ أرسلَهُ إليهِ وبعد

" مِن محبِّكَ عمرُ أفضلُ الدُّعاءِ إليكَ يا قرَّةَ عيني وحبيبي ذلك الشَّيخُ المبروكُ الولي الصَّالحُ العارفُ لربِّهِ تعالى الشَّريفُ أحمدُ مع جميعِ العلماءِ والفقهاءِ والفقراءِ بلا تبقية يا حبيبي و يا خليلي لا تمحُ خطِّي لمَّا كتبتُ فيهِ من تعظيمِك إنَّ ذلك أمرٌ من اللهِ الكريمِ العظيمِ " انتهى الغرضُ منهُ.

وهو من قريةٍ يُقال لها مَعَلَّى بفتحاتٍ وتشديدِ اللّامِ بين أربجي بفتح الهمزة وسكون الراء وكسر الموخرة والجيم ثُمَّ مثناه تحتية وبين سُنَّر بضم السِّينِ وفتح النُّونِ المشدَّدةِ وراء مريشان بصحراء بين أعالي مصر وبلاد السودان بينهُما عشرين يوماً وسُنَّرُ على ضفَّةِ النّيلِ.

بيتهُ بيتُ ولايةٍ وصلاحٍ، ولجدِّهِ هنالك مزارةٌ كبيرةٌ شهيرةٌ ولأبيهِ وأخيهِ ولايةٌ فهو ﷺ سيِّدي أحمدُ بنُ الشَّيخِ الولي الجليلِ أبي عبدِ اللهِ سيِّدي مُحمَّد بنِ الشَّيخِ العارفِ الكبيرِ الشَّهيرِ الولي أبي العُلا سيِّدي ادريس ﷺ ونفعنا بهِم.

وكان خروجهُ من بلادهِ المذكورِ سنةَ خمسٍ وسبعينَ وألفٍ سنةَ ظهورِ النَّجمِ المستطيلِ الذَّنَبِ الطالعِ قبل دخولِ السُّلطانِ مولاي الرَّشيدِ بنِ الشَّريفِ رحمَهُ اللهُ دارَ المُلكِ بفاسٍ بقريبٍ كما أخبر بهِ هو ﷺ وقد طافَ في البلادِ وجالَ في الأقطارِ برسمِ لقاءِ المشايخِ وحجِّ البيتِ الحرامِ، ودخلَ بلادَ السُّودانِ وأطالَ فيها التَّردُّدَ ثُمَّ قدِمَ على سجلماسةَ وأقامَ بها مدَّةً فحصلَ لشرفائِها بهِ معرفةٌ أكيدةٌ ومودَّةٌ عظيمةٌ كلُّهم مُطبِقٌ على محبَّتهِ وتعظيمهِ.

ثُمَّ وفدَ على فاسٍ فدخلَها في اليومِ الثَّامنِ والعشرينَ من جمادي الآخرةِ سنةَ تسعٍ بتقديم المثناة وسبعينَ بتقديم السين وألفٍ، وكان مبيتهُ يومَ دخلَ بجامعِ القُرويّينَ إذ لم يعرفْهُ إذ ذاك أحدٌ, ومن الغدِ سكنَ بصقلبيَّةِ مسجدِ الأبَّارينَ أنزلَهُ بهِ القاضي أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد بنُ الحسنِ المجاصي من غيرِ أنْ يطلبَ منهُ ذلك وبقيَ بها إلى أنْ تزوَّجَ في ذي القعدة سنةَ تسعين بتقديم الفوقية وألفٍ وسكنَ حينئذٍ بالمخفيَّةِ من عدوةِ فاسٍ الأندلس وهو الآن بها في مجاورةِ سيِّدِنا أحمدَ بنِ عبدِ اللهِ ومرافقتهِ كما أسلفناهُ، والكلامُ على هذا السَّيِّدِ أوسعُ دائرةً من هذا اقتصرنا منهُ على ما تدعو حاجةُ التَّاريخِ إليهِ إذ استيفاءُ الخبرِ عن التَّعريفِ بهِ وبمآثرِهِ يستدعي طولاً لسنا بصددهِ.

وقد ظهرَ من القيامِ بوظيفةِ ومعرفةِ حقِّهِ ما لسيّدِنا أحمدَ ﷺ من الفُتوَّةِ والإيثارِ بل ما لهُ من الحريَّةِ عن الأغيارِ إذ الحريَّةُ مطعمُها كما قالَ القُشيري في خدمةِ الفقراءِ، وفي الخبرِ أوحى اللهُ إلى داوودَ

" **إذا رأيتَ لي طالباً فكنْ لهُ خادماً** ".

وعن يحيى بنِ معاذٍ

" أبناءُ الدُّنيا يخدمُهم الإماءِ، والعبيدُ وأبناءُ الآخرةِ يخدمُهم الأحرارُ ".

وفي الحديثِ

" **سيِّدُ القومِ خادمُهم** "[1]

وأمرُ هذينِ السِّيّدينِ في مؤاخاتِهما ومودَّتِهما وكمالُ حالِهما واتِّفاقُ سيرتِهما واتِّحادُ نظرِهما من أعاجيب الزَّمانِ وكذا قوَّةُ كلِّ واحدٍ منهُما في اللهِ وغناهُ بهِ إعطاءً وأخذاً وما أمرهُما في ذلك إلَّا كما اتَّفقَ لبعضِ أهلِ اللهِ مع بعضِهم قالَ لهُ

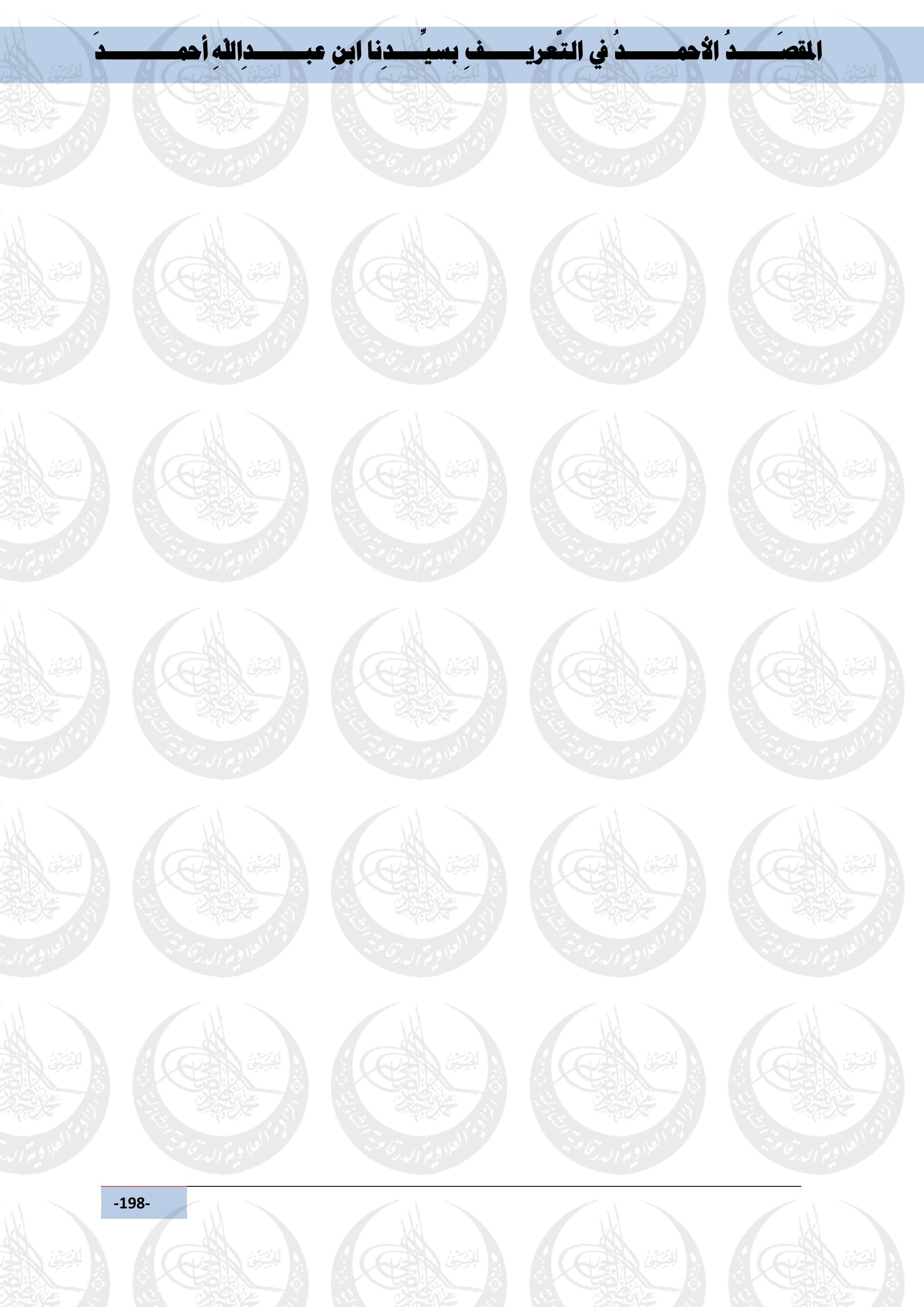
" خُذْ لا لك "

فقالَ لهُ الأخر

" آخذهُ لا منك "

فكان كلُّ منهُما باللهِ وللهِ عنِ اللهِ كما كان هذين السَّيّدينِ في كلِّ امورِهما رضيَ اللهُ عنهما ونفعنا بهما وأماتَنا على محبَّتهِما آمين.

[1] . رواهُ الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد) بسندٍ ضعيف.



البابُ السَّادسُ في علُوِّ همَّتهِ وورعهِ وزُهدهِ وحريَّتهِ

علوُّ هِمتُهُ ﷺ في الطَّريق

قد بلغَ سيّدُنا أحمدُ بنُ عبدِ اللهِ ﷺ من علُوِّ الهمَّةِ في الطَّريقِ والسُّموّ فيها على أهلِ هذا الفريقِ مع ما جمعَهُ من الخِلالِ الحميدةِ والخِصالِ السَّديدةِ والمقاماتِ العليَّةِ والأحوالِ السَّنيَّةِ ما أدركَ فيهِ غايةَ هممِ السَّابقينَ وأعجزَ نهايةَ هممِ اللَّاحقين، ومن الورعِ والزُّهدِ والحريَّةِ ما عُدمَ فيهِ النَّظيرِ في هذا الوقتِ بالكليَّةِ ولم يدعْ مطمَعاً لأحدٍ فيهِ معهُ ولا أمنيةً، إذا رأيتَ سيرَهُ في ذلك علمتَ أنَّهُ مفردُ أوانهِ وسيِّدُ الورعين والزَّاهدين في زمانهِ لا يُجارى في ذلك شاوُهُ، ولا يدركُ فيهِ خطوهُ، كما لا يخاضُ بحرٌ عرفانهِ ولا يُسبقُ فرسُ ميدانهِ، علقتْ همَّتهُ العليَّةُ بمعالي الأمورِ فتجاوزتْ الأواسطُ منها إلى الصُّدورِ لا تقفْ عند الدُّونِ ولا يحجبُ عنها مصون.

لهُ هممٌ لا منتهى لكبارِها وهمَّتهُ الصُّغرى أجلُّ من الدَّهرِ

وكيف تقفْ همةُ من ليس مناهُ إلَّا سيّدهُ ومولاهُ، قد خلَّف وراءَهُ كلَّ مشتهى ﴿ وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾.[1]

فلا همَّةٌ أجلُّ منها ولا تبيانٌ يُنبئُ عنها، وفيها اجتمعت الهممُ بأسرِها ومعالي الأمورِ عن آخرِها من التَّنزُّهِ عن سفساف الأمورِ ومجافاةِ كلِّ محذورٍ، وكرمِ النَّفسِ وإبائِها وعفافِها وصيانتِها، والاستغناءِ عن الخلقِ وقطعِ النَّظرِ عنهم والاكتفاءِ بالواحدِ الحقّ وطرحِ ما كان منهُم، وما بين ذلك من الأوصافِ الكريمةِ والطِّباعِ المستقيمةِ التي عند علوِّ الهمَّةِ مأواها ومنها أساسها ومبناها التي تقدَّمَ

[1] . النجم (42)

ما ينبئُك عن أنَّ سيِّدَنا أحمدَ ﷺ ركبَ متنَ سِماكِها وظفرَ بملاكِها وحازَ جميعَها أصولَها وفروعَها، والذي يختصُّ بهذا البابِ ذِكرهُ، ويناسبُ هذا المقامَ بثُّهُ ونشرهُ هو ما لهُ من علوِّ الهمَّةِ في السُّلوكِ ورفعِها عن كلِّ مملوكٍ.

فأمَّا علوُّ همَّتهِ ﷺ في سلوكِ الطَّريقِ فقد تقدَّمَ في باب بدايتهِ ما يدلُّ على بلوغهِ في ذلك النِّهايةَ وكمالِ الغايةِ، فبالوقوفِ على ذلك يتبيَّنُ ما لهُ من القدمِ هنالك، ويدلُّ عليهِ أيضاً إشارتهُ وكلامهُ ومكانهُ من التَّحقيقِ ومقامهُ، إذ هؤلاء المخصوصون ﷺ إنَّما يتكلَّمون بحالِهم وينبئُون عن الطَّريقِ على حسبِ سيرِهم فيهِ وترحالِهم، ولا تجدُ كلامَهُ ﷺ إلَّا رافعاً لهمَّتِك إلى اللهِ صارفاً لك عن سواهُ لا يقفُ بك دونَهُ ولا يرضى لأحدٍ الالتفاتَ لغيرهِ ولا النَّظرَ إليهِ في شيءٍ من الأشياءِ، ويتكلَّمُ بكلامٍ عالٍ نفيسٍ يعجزُ القولَ فهمهُ ويعوز القلمَ خطُّهُ ورسمهُ.

وقد قرَّرَ يوماً قولَ القطبِ سيِّدي عبدِ السَّلامِ بنِ مشيشٍ الحسني ﷺ ونفعنا بهِ

" وانشلني من أوحالِ التَّوحيدِ " بما معناهُ

" أنَّ الأوحالَ هي الكائناتُ عند النَّظرِ إليها ولحظِ ما اشتملتْ عليهِ من الجمالِ والجلالِ الدَّالينِ على جمالِ اللهِ وجلالهِ والنُّشولِ منها الخلوصِ عنها والنُّفوذِ إلى اللهِ تعالى والغيبةِ فيهِ " انتهى.

وبهِ يتبيَّنُ موقعُ قولهِ بعد

" **وأغرقني في عينِ الوحدةِ** " ويلوحُ لأفهمَ معناهُ فافهم فهَّمنا اللهُ وإيَّاكَ, وقد كان بعضُ العلماءِ من شيوخِنا رحمَهُ اللهُ يستشكلهُ ويقولُ

" أنَّ فيهِ شبهَ يتناقضُ حيثُ يقولُ مرَّةً " وانشلني من أوحالِ التَّوحيدِ " ومرةً " وأغرقني في عينِ بحرِ الوحدةِ " حيرةً منهُ في معنى المقالِ ووجلةً في معنى الأوحالِ، وقد ضربَ بين هؤلاء أهلُ الظَّاهرِ وبين علومِ العارفين بسورٍ وألقى بينهم وبينها حجباً وستوراً، ويفتحُ اللهُ على من يشاءُ من عبادهِ، ويخصُّ مَنْ

يشاءُ بخوارقَ مقاربة وأمداد على أنَّهُ لو نظرَ إلى مقتضى دلالةِ اللَّفظِ لم يجدْ مناجاةً لأنَّ أوحالَ التَّوحيدِ غيرُ التَّوحيدِ, ومثلُ ما قرَّرهُ سيِّدُنا أحمدُ ﷺ في كلامِ سيِّدِنا عبدِ السَّلامِ نفعنا اللهُ به ما أشارَ إليهِ واللهُ أعلمُ من علوِّ الهمَّةِ في التوحيد الأمام تاج الدين بن عطاءِ اللهِ ﷺ في قوله

ما أبينتْ لك المعالـــــــــمُ إلَّا لتراها بعينِ مَنْ لا يراهــا
فارْقَ عنها رقى مَنْ ليسَ يرضى حالةً دون أنْ يُرى مولاها

والعارفون من بحرٍ واحدٍ يغترفون، وعلومُهم نتائجُ يقينٍ وإيمانٍ لا نتائجُ دليلٍ وبرهانٍ جعلنا اللهُ في حماهُم ورزقنا محبَّتهُم ورضاهُم.

رَفعُ هِمتُهُ ﷺ عَنِ الخَلقِ

وأمَّا رفعُ همَّتهِ عن الخلقِ فإنَّهُ ﷺ في غايةٍ من الانقطاعِ عنهُم إلى اللهِ سبحانَهُ لا يرجو إلَّا أفضالَهُ وإحسانَهُ, قد أعرضَ عنهُم لمَّا أقبلَ على مولاهُ وخلَّفهم فيما خلَّفهم وراءَهُ لا يبالي بأقبالٍ منهم ولا بأعراضٍ ولا بسخطٍ ولا بتراضٍ سواء المقبل والشارد والمقارب والمباعد والذام والحامد والمقر والجاحد لا ركون له إليهم ولا معرج له عليهم غني منه بمولاه واكتفاء بما فيه مولاه لا يواليهم ظاهراً كما لا يشاركهم فيما هم فيه باطناً قد قطع عنه منّتهم بمرة, ونبذ كل أحد كائناً من كان من قريب أو بعيد قليلاً ولا كثيراً ولا جليلاً ولا حقيراً حتَّى لا يقدر أحد أن يسومه بعطية ولا بهدية لا غني ولا فقير, وكان يضرب به في ذلك المثل وقد قال يوماً

" لا يأخذ من يد المسكين إلّا قليل الحياء ولا يأخذ من الغني إلّا ساقط الهمة ".

على هذه السِّيرةِ نشأ ﷺ وتلك حاله من لدن صغره ولم يزل على ذلك إلى الآنَ سنةَ اثنتين وتسعين وألفٍ وربَّما رأيناه اليوم قبل الشيءِ اليسير من بين

بعض المساكين أهل النِّيَّة والحسبةِ الذين يعلمُ طيبَ مكسبِهم جبراً لقلبهِ وإقبالاً عليه ليُقبلَ على ربِّهِ ثُمَّ يُعطي ما أخذَ منهُ، ولا يغفلُ عن مجازاتهِ الظَّاهرةِ بعد ذلك فيجمعُ له بين الاختبارِ الظَّاهرِ والباطنِ فلا تجدُ لأحدٍ منة ولا شيءَ من الأشياءِ.

ويتمنَّى الأنسانُ أنْ يقضيَ لهُ حاجة في شراء شيء او تناوله , فما يجدُ لذلك سبيلاً ولا يستطيعهُ بل يُعاني أمورَهُ كلَّها بيدهِ ويتحرَّزُ ممَّنْ يريدُ معاطاتَها معه وإنْ لم يشعرْ بأحدٍ حتَّى قضى لهُ شيئاً كافأهُ وقضى لهُ أمثالَ ذلك ودعا لهُ لايعوِّلُ على أحدٍ في إعانةٍ ولا قضاءِ حاجةٍ لهُ وإنَّما رجلُ الدُّنيا وواحدُها مَنْ لا يعوِّلُ في الدُّنيا على رجلٍ.

وهذه الزَّاوية التي هي محلُّ ذكرِ اللهِ تعالى, وعبادتهُ وقدرٌ مشتركٌ بين سائرِ أهلِها الملازمين لها، ومسجدٌ من مساجدِ اللهِ يُقيمُها منذُ نشأ ممَّا تحتاج إليهِ من حُصرٍ وزيتٍ وإصلاحٍ إنْ إحتاجتْ إليهِ لايحوجُ أحداً إلى القيام بشيءٍ من ذلك ولا يأخذُ من ناظرِ الأحباسِ ولا ممَّنْ يُهدى لها من غيرِ أهلِها شيئاً ممَّنْ تلحقهُ منَّتهُ.

وأرسلَ إليهِ مرَّةً بعضُ كبراءِ الدَّولةِ بمصابيحَ يستصبحُ فيها في الزَّاويةِ فردَّها عليهِ وقال للرَّجلِ الذي جاءَ بها

" إنَّ الزَّاويةَ قد كُفيتْ ففي كلِّ علَّاقةٍ مرتبطةٍ بسقفِها مصباحُ، فاذهبْ بها إلى بعضِ المساجدِ التي ليس لها مَنْ يقومُ بها واجعلْها هنالك "

فرجعَ الرَّجل من حيثُ جاءَ.

وأمرَ عامَ أوَّل وهو عامُ أحدى وتسعين وألفٍ بحفرِ بئرٍ ليشربَ النَّاسُ بها زمنَ المصيفِ ماءً بارداً، فوكَّلَ بها مَنْ يقومُ بأمرِها ويدفعُ الأجرةَ لمَنْ يحفرُها فكان إذا رام أجنبيٌّ أنْ يتطوَّعَ بحفرٍ أو نحوهِ حملَهُ على أخذِ الأجرةِ حتَّى يأخذَها وحتَّى أتمَّ عملَها من عندهِ، فجيءَ بسطلٍ من نحاسٍ وأُعِدَّ هنالك لتسخينِ الماءِ

زمنَ الشِّتاءِ، فهو يوقِدُ تحتَهُ الفحمَ ليلاً ونهاراً ودواماً واستمراراً والنَّاسُ من أهلِ الزَّاويةِ وغيرِهم يتوضؤونَ بالماءِ السُّخنِ منه مدَّةً أيَّامِ البردِ من شتاءٍ وربيعٍ إلى أن يأتيَ المصيفُ, ينفقُ ذلك من عندهِ ويقيمهُ من مالِه، وربَّما تبرَّعَ بعضُ أهلِها بما يُوفِّرُ هنالك فلا يمنعهُ.

وكان في هذه الأيَّام يبني بدارِهِ بعضَ بيوتِها ويصلحُ بعضَ حيطانِها فيريدُ بعضُهم أنْ يتطوَّعَ بشيءٍ من الخدمةِ مع البنَّائينَ فلا يتركهُ ويوصي مَنْ يوكِّلهُ على الوقوفِ مع البنَّائينَ بذلك, وأشرفَ يوماً على البنَّائينَ فوجدَ بعضَ النَّاسِ يخدمُ معهم فغضبَ ورجعَ ولم يدخلِ الدَّار فقيل لهُ

" إنَّهُ يخدمُ بالأجرةِ "

فزال ما به وهذه عادتهُ في كلِّ شيءٍ من محاولاتهِ ومناولاتهِ.

وقال لهُ يوماً بعضُ أصحابِ الشَّيخِ سيِّدي مُحمَّد بنِ مُحمَّد الزورغيتي

" ذهبتُ إلى بعضِ أخوانِنا في اللهِ أستسلفهُ قمحاً ففرح بي وفتحَ مضموناً لهُ وأعطاني ما شئتُ من القمحِ وقال لي متَّى احتجتَ شيئاً منه فهو لك وأنا وأنت فيه سواء "

فقال لهُ سيِّدُنا أحمدُ

" ذلك يصلحُ به ولا يصلحُ بك إلَّا أن تجازيهِ أضعافاً من ذلك "

تأبى همَّتهُ ﷺ أنْ يكونَ لأحدٍ عليه منَّة أو يدٌ، فلا يريدُ إلَّا أنْ يعطيَ النَّاسَ ولا يأخذُ منهُم ويعينُهم ولا يستعينُ بهم عملاً بقوله ﷺ

" اليدُ العليا خيرٌ من اليدِ السُّفلى" [1]

وتخلُّقاً بأخلاقِ الصُّوفيةِ ﷺ حيث لا يقبلون منَّة أحد إذ قالوا

" مَنْ أسدى إليكَ معروفاً فأنتَ أسيرهُ، ومَنْ أسديتَ لهُ فأنتَ أميرهُ ومَنْ استغنيتَ عنهُ فأنت نظيرهُ ".

[1] . متفقٌ عليه.

ولهذا لا يقبلون الهديَّةَ إلَّا من أُذنَ لهُ فيها مع إباحةِ أخذِها، وقبولُ النَّبي ﷺ لها ذلك بأنَّهم ليسوا كهيئةِ النَّبي ﷺ إذ لا منَّةَ تلحقهُ ﷺ من أصحابهِ وذلك إذ هو ﷺ سيِّدُهم ومولاهُم وأولى بالمؤمنين من أنفسهِم، ولهُ عليهم في كلِّ شيءٍ المنَّةُ التي لا تجازى ولا تكافأ، إذ لولا جودهُ ما كان جودهُم ولولا وجودهُ ما كان وجودُهم هذا مع عظيمِ ما ملك قلوبَهم من عظيمِ المحبَّةِ لهُ ﷺ وكثيرِ المودَّةِ التي لا يبقى معها ما يتطرَّقُ لهُ وهمٌ من الأوهامِ, ومع أتِّصافِهم بالمعرفةِ وبيعِ نفوسِهم في ذاتِ اللهِ وفي مرضاتِ رسولِ اللهِ ﷺ، ولذا قيل إنَّ قبولَ الهديَّةِ من خصائصهِ ﷺ وإنَّها في حقِّ غيرهِ ذريعةٌ للرَّشوةِ، وإنَّها تُطفيءُ نورَ القلبِ حيث لا يتمكَّنْ آخذُها من الصَّدعِ بالحقِّ لمُهديها، هذا بالنِّسبةِ لمَنْ يتوسَّمُ فيه النِّيَّةُ الصَّالحةُ من أهلِها فما ظنُّك بمثلِ هذا الزَّمانِ ونيَّةُ غالبِ أهلهِ التي لا يتمُّ معها قبولُ شيءٍ منهُم لفسادِ ما بكثرةِ ما يقصدونَهُ من الأغراضِ الدُّنيويَّةِ.

وسُئلَ سيِّدُنا أحمدُ ﷺ يوماً عن سببِ عدمِ قبولِ الهديَّةِ مع أنَّ النَّبي ﷺ كان يقبلُها فقالَ

"كانتْ الهديَّةُ هديةً واليومَ صارتْ رشوةً فإنَّ النَّاسَ اليومَ إذا أهدى أحدَهُم لآخرَ شيئاً أو قضى لهُ حاجةً مكثَ قليلاً ثُمَّ جاءَهُ يطلبُ منهُ قضاءَ حاجةٍ أو غرضٍ وإنَّما يهدون لذي جاهٍ, ومَنْ لم يكنْ لهُ جاهٌ لا ديني ولا دنيوي لا يهدون لهُ أبداً ".

وصدقَ ﷺ فإنَّ النَّاسَ اليومَ كما هو مشاهدٌ من حالِهم لا يعطون شيئاً بقصدِ المودَّةِ والإخاءِ في الدِّينِ الذي هو معنى الهديَّةِ، وإنَّما يعطون لغرضٍ لفسادِ نيَّتِهم كما قدَّمناهُ، كما فسدَ العملُ عندَهُم في كثيرٍ من المسائلِ التي لها أصلٌ في السُّنَّةِ ثُمَّ انحرفتْ بسببِ ما يخالطُها أو يترتَّبُ عليها إلى بدعةٍ أو معصيةٍ كالولائمِ والوساطاتِ المسمَّاتِ عندَ النَّاسِ بالمشيخةِ ونحوهِما، وقد نظمَ منها بعضُهم تسعَ مسائلَ فقالَ

تسعٌ أبى منها أولوا الأحلامِ والهِمَمِ السَّنيَّة
إلَّا بحالِ ضـرورةٍ نزعوا لها مع حُسنِ نِّية
هي الشَّهادةُ والوساطةُ والحكومةُ في القضيَّة
وكذا الإمامةُ والـوديعةُ والتَّعرضُ للوصيَّـــــة
ثُمَّ الإجابةُ للطَّعـامِ وللولائمِ والهديَّـــــــة
فسدَ الزَّمانُ وأهلَهُ إلَّا القليلَ من البريَّة

وهذه المسائلُ كلُّها لا يعرجُ عليها سيِّدُنا أحمدُ ﷺ ولا يوافقُ على شيءٍ منها فلا يحبُّ أنَّ يتحمَّلَ الشَّهادةَ ويتحرَّجُ من حملِها، وما شهدَ في شيءٍ قطُّ فيما علمتُ إلَّا أنْ يُسألَ عنها فيما اتَّفقَ لهُ رؤيتَهُ وعلمَهُ فيُؤدِّيها، وإنْ وجدَ من يؤدِّيها غيرَهُ اقتصرَ عليهِ ولم يُردْ أنْ تُرفعَ إليهِ، ولا أنْ يعوِّلُ فيها عليهِ ولا يحبُّ الوساطةَ ويقولُ لمَنْ يقصدهُ لأجلِها ويريدُ أنْ يوجِّهَهُ إليها

" لستُ أهلاً لذلك "

وربَّما يتوسَّطُ لإصلاحِ ذاتِ البينِ في أمرٍ مالي أو غيرهِ إذا قصدَهُ في ذلك أحدٌ من الشُّرفاءِ أو ذوي رحمهِ ونحوِهما فيذهبُ منفرداً أو يأتونَهُ فيُصلحُ بينَهم لكنْ لا يكلِّفُ أحداً أسقاطَ حقِّ لأحدٍ وينبِّهُ على أنَّ ذلك لا ينبغي وأنَّهُ لا يُحسنُ إلَّا أنْ يكونَ صدرَ عن صاحبِ الحقِّ ابتداءً وعن نشاطٍ منه.

ولا يؤمُّ أحداً أبداً إلَّا أنْ يكونَ في بعضِ أحبَّتهِ مع أناسٍ لا يجدُ فيهم من يؤمُّهُ ولا يحثُّ مَنْ يتبادرُ للإمامةِ ولا مَنْ يحبُّ أنْ يتصدَّرَ لها حتَّى أنَّهُ ربَّما يريد أنْ يُقدِّمَ في بعضِ الأحيانِ فُفهمُ منهُ محبَّةَ ذلك التَّقديمِ فيتنكَّبهُ ويُقدِّمُ غيرَهُ، ولا يأخذُ الوديعةَ من أحدٍ هو ولا مَنْ يُواليهِ, فما دخلتْ دارهُ وديعةَ أحدٍ قطُّ بل تجدهُ يحذِّرُ منها ويُشدِّدُ النَّكيرَ في ذلك غايةً، ويُبيِّنُ الآفاتِ والمحذوراتِ التي

تترتَّبُ عليها، ويحكي عن أبيهِ الشَّيخِ سيّدي مُحمَّد أنَّهُ كان يحذِّرُ كثيراً من ثلاثةِ أمورٍ

" الأمانةُ والضَّمانةُ والهربانةُ "

يُعبِّرُ عنها بهذه الألفاظِ الثلاثةِ ويأبى أنْ يكونَ وصيَّاً على أولادِ أحدٍ ومُقدَّماً عليهم ويحضُّ على تركِ ذلك ويشيرُ على مَنْ أستشارَهُ في قبولِ ذلك أنْ لا يفعلَ وقدَّمَهُ على أولادهِ عند موتهِ هذه السِّنين بعضُ أصهارهِ فأبى أنْ يقبلَ ذلك وامتنعَ منهُ غايةَ الإمتناعِ مع ما لهذا الرَّجلِ بهِ من المُوالاةِ الأكيدةِ فتولَّى ذلك غيرهُ من أهلِ الثِّقةِ والحزمِ في الدِّينِ وكفاهُ اللهُ مؤنتَهُ، ولا يأتي وليمةَ أحدٍ لأنَّ النَّاسَ في هذا الزَّمانِ يدعون لها الأغنياءَ ويتركون الفقراءَ، فكان طعامُهم بسببِ ذلك شرَّ طعامٍ كما وردَ في الحديثِ[1]

فتركَ نفسَهُ منهُ لأجلِ ذلك ولمَّا يلابسُ صاحبَها من العِشرة غالباً ومن أمورٍ منكراتٍ أخرى فصارَ النَّاسُ لا يدعونَهُ لها أبداً لِما يعلمون من حالهِ, وقد ذكرَ لنا ﷺ أنَّهُ حضرَ في أوَّلِ أمرهِ طعامَ ختمةٍ لبعضِ جيرانهِ دُعيَ إليهِ فجيءَ باللَّوحِ إلى الفقهاءِ يكتبونَهُ على عادتِهم فجعلَ بعضَ أعيانِهم يضحكُ مع بعضِ من رجلٍ لم يُحسنْ رسمَ كلمةٍ كتبَها فقالَ سيِّدُنا أحمدُ في نفسهِ

" أهكذا يكونُ النَّاسُ في مثلِ هذه الولائمِ "

وعقدَ في نفسهِ أنْ لا يحضرُها أبداً فما حضرَ من يومئذٍ شيئاً منها.

---

1 . في رواية في الصَّحيحين من حديث أبي هريرة (بئسَ الطَّعامُ طعامُ الوليمةِ يُدعى إليها الأغنياءُ ويُترَكُ الفقراءُ).

وَرَعُهُ ﷺ

وأمَّا ورعهُ ﷺ فمنهُ استمرارُهُ على تركِ هذه الأمورِ التِّسعةِ المذكورةِ ومداومتهُ على اجتنابِها لِما يداخلُها من الأغراضِ الفاسدةِ غالباً ويشوبُها من الأمورِ المنكراتِ أو الشِّبهةِ بالمنكرةِ كما ذكرنا، فكان التَّنزهُ عنها علُّواً في الهمَّةِ وورعاً في الدِّينِ إذ

" **الورعُ تركُ ما يريبُك إلى ما لا يريبُك** "

ومنه شدُّةُ احتياطهِ في معاملاتهِ ومناولاتهِ من بيعهِ وشرائهِ وسائرِ تصرفاتهِ فيما يتعلَّقُ به وبأولادهِ ومَنْ لهُ ارتباطٌ به بالغاً في ذلك الغايةَ وواصلاً فيه النِّهايةَ, فإذا ذهبَ إلى السُّوقِ وليشتريَ شيئاً لا يتركُ مَنْ ينقصهُ من قيمتهِ وإن ظنَّ أنَّهُ أرخصَ لهُ فيه وفَّى لهُ قيمتهُ وزادَهُ مخافةَ أنْ يكونَ ذلك لأجلِ ديانتهِ, وإذا تحقَّقَ ذلك منهُ لم يأخذِ البتَّةَ بل إذا علمَ أنَّ أحداً من شأنهِ فعلُ ذلك تركَ ذلك وتركَ الشِّراءَ منهُ.

وإذا وجدَ زحمةً على لحمٍ أو غيرهِ لم يتقدَّمْ على أحدٍ ولو علمَ محبَّةَ كلِّ مَنْ حضرَ لذلك, ولا يحبُّ مَنْ يقدِّمَهُ عليهِ، وإذا قدَّمَهُ أحدٌ ذهبَ عنه وتركَ ما أرادَ شراءَهُ منهُ، ولا يريدُ أنْ يرجِّحَهُ أحدٌ في الميزانِ شيئاً وإذا رجَّحَهُ نهاهُ وأمرهُ بالتَّسويةِ حتَّى إذا ساواهُ أخذَهُ, وإذا نابَ عنه أحدٌ في الشِّراءِ أوصاهُ إلَّا يقبضَ للبائعِ شيئاً من الثَّمنِ.

ومن شأنهِ إلَّا يشتريَ سلعةً ممَّنْ يعلمُ حالَهُ التَّخليطَ في مكتسبهِ ومالهِ أو ما يضرُّ به ذلك, وكذلك لا يبيعُها منهُ ولا ممَّنْ يعلمُ أنَّهُ يخالطُ أحداً من أهلِ الجانبِ المخزني مخافةَ أنْ يكونَ نائباً عن صاحبهِ في شرائهِ أو يكونَ اختلطَ مالهُ بمالهِ, وقد أتاهُ بعضُ التُّجَّارِ بدواءٍ جاءَ به من بلادِ الهندِ وصنعَهُ هنالك لهُ فأبى أنْ يقبلَهُ إلَّا بثمنٍ وأخذَهُ منهُ بقيمةٍ ثُمَّ سمعَ بأنَّ هذا الآتي كان يخالطُ

بعضَ أهلِ الرِّياسةِ في معاملاتهِ فردَّ عليهِ ذلك الدواءَ مع شدَّةِ احتياجهِ إليهِ وعدمِ وجودهِ في هذا القطرِ, واشترى لهُ مرَّةً رجلٌ بظهرِ الغيب شجرةً عظيمةً لعصرِ الزَّيتِ بمعصرتهِ اقتطعتْ لأناسٍ من عرصةٍ ورثوها من أبيهم وكان ابنُ عمِّ أبيهم رئيساً قائداً فلمَّا أبلغَهُ الخبرَ وذكرَ لهُ ممَّنْ أشتراها تركَها وأبى ذلك الشِّراءَ وقالَ

"فيه دخنٌ "[1]

وكان قائدُ القصرِ الكبيرِ هذه السِّنينَ طلبَ من سلطانِ الوقتِ مولاهُ أسماعيلَ أنْ يشتريَ الشَّمعَ إلَّا هو ليتاجرَ بذلك النَّصارى دمرَّهم اللهُ وينتفَع بسلعتِهم فأجابَهُ إلى ذلك وحجرَ على أهلِ الأسواقِ وأنْ لا يشتروا شيئاً إلَّا لهُ، فلمَّا بلغَ ذلك سيِّدُنا أحمدُ ﷺ كفَّ عن بيعِ شمعهِ واتَّخذَ معصرةً يعصرهُ فيها ويخزنهُ بدارهِ ثُمَّ يبيعهُ شيئاً فشيئاً لأهلِ الحرفِ المحتاجين إليهِ يخدمونَهُ وينتفعون به في خاصَّةِ أنفسِهم، فما ظفرَ به الجانبُ المخزني ولا أنتفعَ بشرائهِ نصراني قطُّ وهكذا عادتهُ في اليهودِ لعنَهم اللهُ لا يبيعُهم ولا يبتاعُ منهُم شيئاً أبداً بل إذا أحسَّ بنيابةِ أحدٍ من المسلمين عنهم في الشِّراءِ لم يبعْهُ وما أكلَ يهودي قطُّ طعامَهُ ببيعٍ ولا بغيرهِ معاداةً لهم في اللهِ وفي رسولهِ، وتنزُّهاً عن ملاقاةِ وجوهِهم الخبيثةِ، وكثيراً ما ينهى عن مخالطتِهم ومتابعتِهم وسائرِ معاملاتِهم حتَّى صارَ الأصحابُ كلُّهم يتخلقون بخُلقهِ في ذلك، ولا يزالُ ﷺ يأمرُهم باجتنابِهم هذا وشِبهِهِ ويحثُّهم على ركوبِ متنِ الورعِ في أمورِهم كلِّها لا يرضى منهُم بغيرِ ذلك ولا يرخِّصُ لهم فيه ويقولُ

" ما لا أرضاهُ لنفسي لا أرضاهُ لغيري وما لا أفعلهُ لا آمرُ به "

ويحبُّ الورَعُ ومَنْ أرتكبَهُ ويكرهُ مَنْ رغبَ عنهُ وتنكَّبَهُ.

---

[1] الدخن / الفساد.

ولقد أستشرتهُ في هذه الأيَّام في دارٍ كان اشتراها بعضُ قوَّادِ الزَّمانِ بمالٍ طلبَهُ من السُّلطانِ وماتَ عنها فورثَها عنهُ ورثتهُ وأرادوا بيعَها فلمَّا ذكرتُ لهُ ما أردتُ من شرائها حيث مسَّتِ الحاجةُ لدارِ سُكنى ولم يتيسَّرْ غيرُها قالَ لي

" لا تدخلوا مساكنَ الذين ظلموا أنفسَهم إلَّا أنْ تكونوا باكين حذراً أنْ يصيبَكُم مثلَ ما أصابَهُم "[1]

وجعلَ يسردُ في شأنِ مرتكبِ التَّأويلاتِ والرُّخصِ لنفسهِ ويذكرُ أنَّ ذلك في حقِّ طلبةِ العلمِ ومَنْ يعتريهِ أشدُّ فقلتُ لهُ

" يا سيِّدي صدقتَ ولكنِّي ما ارتكبتُ الورعَ قطُّ "

فقالَ بعضُ مَنْ حضرَ

" نذهبُ إلى بائعِها لعلَّنا نجدُ تيسيراً "

فسكتَ، ثُمَّ ذهبَ ذلك الحاضرُ من فورهِ إلى ربِّها فما انقلبَ عنه إلَّا مشترياً لها نيابةً عنِّي، فلمَّا علمتُ بذلك جئتهُ فقلتُ لهُ

" يا سيِّدي إنِّي قد اشتريتُ الدَّارَ"

فقال لي

" بالتَّيسيرِ "

فأعادَ كلمتَهُ الأولى وقالَ

" اللَّهمَّ خِرِ واخترْ "

فانصرفتُ عنهُ ومكثتُ مُجمعاً على أمرهِ ذلك اليومَ وليلتَهُ فلمَّا استيقظتُ سحَراً وجدتُ في قلبي قولهُ لي أولاً

" لا تدخلوا مساكنَ الذين ظلموا أنفسَهم " الحديث

---

[1] . الحديث في الصحيحين باختلاف يسير ببعض الألفاظ

وجعلتُ أفكِّرُ فيه وفي مقتضاهُ أردِّدهُ ترديداً لا يزولُ عن بالي ولا أجدُ عنه محيداً وحصل لي في نفسي انكساراً وكربتُ لذلك كرباً شديداً، ثُمَّ من الغدِ جعلتُ أسألُ مَنْ أثقُ به من الفقهاءِ متَّهماً لنفسي أفي ذلك ضررٌ من حيث الشرعَ؟

فيقولون لا بأس واشتغل الواسطة في البيعِ, فتيسَّرَ الثَّمنُ حتَّى جُمعَ وأُحضرَ عند الشُّهودِ, فما هو إلَّا أنْ حدثَ أمرٌ جعلَ اللهُ لنا فيه حجَّةً على البائعِ فتفاسخنا فجئتُ سيِّدَنا أحمدَ وأخبرتهُ فسُرَّ بذلك وقال كالمُنكلِ لي

" والآنَ أيخيرُ اللهُ ويختارُ أم لا "؟

يشيرُ إلى كلامهِ السَّابقِ وذكرَ لي حينئذٍ أنَّهُ أوَّلُ ما ذكرتُها لهُ انقبضَ قلبهُ عنها ولم يردْها، فعلمتُ أنَّ ما كان نزلَ بي من القبضِ من قِبلهِ وأنِّي نجوتُ منها بسببهِ وأنَّ حالتَهُ القويَّةُ في الورعِ هي التي ورَّعتنا جبراً فجزاهُ اللهُ عنَّا في الدُّنيا والأخرةِ خيراً وأدامَ علينا بركتَهُ.

واستشارَهُ أيضاً بعد ذلك بعضُ النَّاسِ في شراءِ دارٍ كانتْ لبعضِ مَنْ كان من قوَّادِ السُّلطانِ كان ملكَها من شراءٍ فقالَ لهُ

" إذا كان فيها حجرٌ واحدٌ عملَهُ فيها أهلُ المخزنِ فلا أوافقُ عليها ولا تستشرني في شيءٍ من ذلك أبداً "

ومن ورعهِ أنَّهُ يتَّقي أكلَ طعامِ النَّاسِ كائنين ما كانوا إلَّا أيقنَ بتجريدِ الحلالِ وصفاءِ معاملتهِ من المتشابهِ كبعضِ الموالين لهُ من الأصحابِ ولا يتَّفقُ لهُ ذلك إلَّا نادراً كما إذا جلبَ أحدُهم طعامَ وليمةٍ للزَّاويةِ وقد حضرَ فيها فأكلَ منهُ لقيماتٍ أو نحوَ ذلك، ولا يأكلُ طعامَ مَنْ لا يعرفهُ أو جهلَ حالَ مكسبهِ، وقد كنتُ معهُ في بعضِ زياراته لسيِّدي عبدِ السَّلامِ بنِ مشيشٍ نفعنا اللهُ به وسيِّدي أحمدَ اليمني ﷺ حاضرٌ فأتَوا بلحمِ بقرٍ أرسلَهُ إليهِم بعضُ الشُّرفاءِ العلميين كان قد أتى ببقرةٍ لضريحِ الشَّيخِ وذبحَها هنالك وأضافَ بها الزَّائرين

وفرَّقها فيهم, فسألَ سيِّدُنا أحمدُ ﷺ بعضَ مَنْ حضرَ عنهُ كيفَ مكسبهُ, وهل يخالطُ المخزنَ؟

فقيل لهُ أنَّهُ يتكسَّبُ وليسَ عندهُ إلَّا خالصُ مالهِ

فقالَ " **لعلَّهُ قصدَ الصدقةَ على المساكينِ فيما أتى به لضريحِ الشَّيخ** "

وأبى قبولَهُ وأكْلَهُ، ثُمَّ لمَّا رأى الشَّيخَ سيِّدي أحمدَ اليمني ﷺ أكلَ منهُ وقالَ " **المقصودُ به الزَّائرين بأسرِهم** "

تناولَ شيئاً منهُ وأعطى الذي جاءَ بهِ ما يُكافيءُ ما أتى.

ومن ورعهِ ﷺ أنَّهُ لا يأخذُ شيئاً من يدِ مَنْ لا يأكلُ بالورعِ ولو كان تافهاً، ومن غيرِ المأكلِ والمشربِ، ولا يستعيرُ شيئاً يحتاجُ إليهِ من الآلاتِ أو غيرِها ممَّنْ لا يتَّقي الحرامَ ولا يتحافظُ في مكسبهِ, كلُّ ذلك لا يفعلهُ ولا يحبُّ مَنْ يفعلهُ.

وقد انقطعَ يوماً خيطُ سبحتهِ في السَّفرِ وأنا حاضرٌ فعقدَهُ وأرادَ أنْ يصلحَهُ بالشَّمعِ فسألَ عن شيءٍ فبادرتهُ بشيءٍ كان معي فقالَ لي

" **أهو من الشَّمعِ الموقدُ على ضريحِ سيِّدي أحمدَ الشَّاوي** "؟

فقلت لهُ " نعم "

فتركَهُ في يدي ولم يأخذْهُ، ففهمتُ أنَّ ذلك لأجلِ أنَّ أصلَ تكسُّبي إيَّاهُ من الصَّدقةِ وهو غنيٌّ عنها، وهذا غايةُ الورعِ إذ هو لنا صدقة ولهُ هديَّةٌ بل هو لنا ليسَ بصدقةٍ، وإنْ كان الأصلُ صدقةً إذ هو خراجٌ من صاحب بيتِ المالِ يدفعهُ لمستحقّهِ لا على سبيلِ الصَّدقةِ، وقد أنفذهُ لنا لننتفعَ به.

واستعارَ يوماً بعضُ أصحابِنا نسخةً من كتابِ " **قوتِ القلوبِ**" ليقرأ بها في الزَّاويةِ فرآهُ فسألَ عنهُ لمَنْ هو؟

فقيلَ لهُ لفلانٍ رجلٌ من الجانبِ المخزني فنهى عن القراءةِ فيه فردَّهُ لصاحبهِ من فورهِ.

ومن ورعِهِ ﷺ أنَّهُ لا يستعملُ في عبادتهِ وأمورِ ديانتهِ من طهارةٍ وبقعةٍ وغيرِهما إلَّا ما خلصَ خلوصاً تامَّاً وصفا صفاءً كاملاً مبالغةً في الاحتياطِ لبدنهِ وإتقانِ عبادتهِ التي هي وصلةٌ بينَهُ وبين ربِّهِ ومعاملةٍ بينَهُ وبين مولاهُ كما هو شأنُ الخواصِّ من المخلصين فلا يدخلُ الحمَّامَ للطَّهارةِ ولو ليلاً حيث لا أحدَ فيه لأنَّهُ صارَ بيتاً للشَّيطانِ يعصي فيه المولى عزَّ وجلَّ بفضيحةِ العذراتِ دائماً وأبداً بل يتطَّهرُ في دارهِ في موضعٍ عندَهُ مُعدٍّ لذلك، وهذا شيءٌ ربِّيَ عليهِ منذُ وُلد ربَّاهُ عليهِ والدهُ الشَّيخُ سيّدي مُحمَّد ﷺ وكذلك أبناءَهُ ولهذا العهدِ على ذلك الشيءِ لا يعرفون سواهُ.

ويتخيَّرُ من البقعةِ والملأ أطيبَ محلًّا وأصفى حِلًّا لا يتعاطى في ذلك مشابهاً ولا مُتشابهاً ولا مقارباً للمتشابهِ, وقد مرَّ يوماً بروضةِ الولي سيّدي أبي جيدة نفعنا الله به في جماعةٍ من الأصحابِ، وقد حانَ وقتُ صلاةِ العشاءِ فالتمسوا هنالك موضعاً للصَّلاةِ فقال بعضُهم

" ندخلُ روضةَ سيِّدي أبي جيدة "

فسكتَ عنه فأعادها عليهِ فقال لهُ منكراً عليهِ

" مَنْ بناها "؟

وقد كان بناها أهلُ جانبِ المخزنِ، فلم يصلِّ بها مع أنَّ المبني بها إنَّما هو الحائطُ والأرضُ بانية على ما هي عليهِ إلَّا أنْ يكونَ لأجلِ الزَّلجِ الذي تجتنبُها.

ويوماً آخرَ مرَّ على جامعِ الزَّلجِ الذي بإزائهِ قنطرةُ الرَّصيفِ فأرادَ أنْ يتوضَّأ بهيضاتِها فوجدَها قد جرد بناؤها, فسأل مَنْ كان معهُ

" مَنْ بناها " فقيل لهُ بعض الولاةُ كان جارياً على بنائِها فذهبَ ولم يتوضأ بها, وأُخبرتُ أنَّهُ لا يمرُّ على صحنِ جامعِ القرويين منذُ فرشهِ بالزَّلجِ زمنَ السُّلطانِ مولاي الرَّشيدِ رحمَهُ اللهُ بعضُ قوَّادهِ, ومسائلهُ في ذلك أكثرُ من أنْ تستوفى.

ومن ورعهِ ﷺ أنَّهُ إذا أعطى شيئاً ثُمَّ خرجَ من يدِ المُعطى لهُ بهبةٍ أو بيعٍ لا يكتسبهُ بعد ذلك بشراءٍ ولا بغيرهِ ولو من غيرِ يدِ المُعطى لهُ أو لا, وقد تعرَّضَ لهُ يوماً وهو مارٌّ لصلاةِ الجمعة رجلٌ وقال لهُ

" أضرَّني البردُ فاكسُني "

فقال لهُ ﷺ

" ليس عندي الآنَ شيءٌ إلَّا ما عليَّ من الثِّيابِ "

فكرَّرَ عليهِ السُّؤالَ فقال لهُ

" نعم طلبتَ حقَّك هذا البرنسُ عليَّ زائدٌ على ما عليك "

فخلعَهُ وأعطاهُ إيَّاهُ على حينِ احتياجٍ منهُ لهُ إذ كان ﷺ يجعلهُ فوقَ غطائهِ ليلاً ويلبسهُ نهاراً توقيًّاً من البردِ، فعلمَ بذلك بعضُ النَّاسِ فذهبَ للسُّوقِ فوجدَ الرَّجلُ يبيعَهُ فاشتراهُ وجاءَ به سيِّدنا أحمد ليشتريه منهُ ويلبسه من قبل, فأتى به عليهِ وقال لهُ

" أعطيتهُ للهِ فلا أعودُ إليهِ ولا يرجعُ إلى ملكي بوجهٍ ولا بحالٍ "

إلى غيرِ ذلك من أمورِ ورعهِ ممَّا يطولُ تتبُّعهُ.

وبالجملةِ فتحفُّظهُ ﷺ وورعهُ في كلِّ شيءٍ قد بلغَ الغايةَ ووصلَ حدَّ النِّهايةِ لا تدورُ معاملتهُ إلَّا عليهِ، ولا تصيرُ إلَّا إليهِ على بصيرةٍ في سبيلهِ ومعرفةٍ لدليلهِ يدبرُ قلبهُ عن الأمرِ الذي يريدُ تعاطيهِ فيظهرُ بعد ذلك محظوريتهُ باطِّلاعهِ على أصلهِ أو إخبارِ أحدٍ إيَّاهُ عنه حفظاً من اللهِ لهُ ويقولُ

" إنَّ الأنسانَ إذا رخَّصَ لنفسهِ في أكْلِ المتشابهِ فها هو ذاهبٌ إلى أكْلِ الحرامِ "

يعني أنَّهُ إنَّما يملكُ قيادَها بسدِّ الذَّريعةِ فبذلك تيأسُ من المنهياتِ وتوطَّدُ على تركِها ويقولُ

" إنَّ أصلَ الورعِ واتِّقاءَ الشُّبهاتِ هو المداومةُ على أكْلِ الحلالِ مع الصِّدقِ مع اللهِ في ذلك "

ويقولُ كقولِ سيّدي أبي العبَّاسِ المرسي ﷺ

" الورعُ مَنْ ورَّعهُ اللّهُ "

يشيرُ إلى حفظِ اللهِ وصرفَهُ عمَّنْ شاءَ من عبادهِ ما شاءَ بمحضِ فضلهِ, وقد وقعتْ لهُ في ذلك قضايا متعدِّدةٍ دلَّتْ على صدقِ معاملتهِ مع اللهِ تعالى في حفظِ جوارحهِ وعلى عنايتهِ تعالى بهِ وحمايتهِ لهُ عمَّا ليسَ بخالصِ الحلالِ.

ومنها.أنَّهُ جاءَهُ يوماً قاضي فاسِ الجديدِ زائراً لهُ وكان يتعاهَدُ زيارتَهُ، وكان بعضُ الفقهاءِ ممَّنْ لهُ مقربةٌ بهذا القاضي وممَّنْ لا يتحافظُ في لقمتهِ بل ليس عندَهُ إلَّا الحرامَ ساكناً بقربٍ من الزَّاويةِ، فلمَّا سمعَ بمجيءِ القاضي المذكورِ جاءَهُ وهو بالزَّاويةِ مع سيِّدِنا أحمدَ ﷺ فجلسَ معهُما ساعةً ثُمَّ قاموا وخرجوا فطلبَ الفقيهُ المذكورُ من القاضي أنْ يدخلَ دارَهُ فأجابَهُ إلى ذلك وأرادَ أنْ يدخلَ معهُما سيِّدُنا أحمدُ فرغبا معاً إليهِ في ذلك فساعفَهُما لمكانِ علمِهما إذ هو معظِّمٌ للعلماءِ غايةً وإلَّا فمِن شانهِ أنْ لا يدخلَ دارَ أحدٍ ولا يأكلَ طعامَ آخرَ كما قدَّمناهُ.

فلمَّا دخلوا واطمأنَّ بهم المجلسُ قدَّمَ إليهِم الفقيهُ إسفنجاً وعسلاً وعنباً فأكلوا وأكلَ سيِّدُنا أحمدَ من الإسفنجِ ولم يأكلْ من العسلِ مع العنبِ فقال لهُ

" إنَّ قلبي قد أقبلَ على الإسفنجِ ولم يقبلْ على غيرهِ "

ثُمَّ لمَّا خرجَ سألَ ﷺ جارَ الفقيهِ القاطنِ معهُ بالدَّارِ عن أصلِ ما اشترى به ذلك، وذكرَ لهُ أنَّ قلبَهُ أقبلَ على الإسفنجِ ولم يقبلْ على ما عداهُ، فقال لهُ يا سيِّدي

" لمَّا سمعَ بمجيئِك أهلُ دارِ سيِّدي فلانٌ يعني الفقيه المذكور فرحوا لذلك فرحاً شديداً وأخرجوا دراهمَ كانتْ عندَهم من ميراثِ أمِّهم وقالوا لا يأكلُها أعزُّ من سيِّدِنا أحمدَ فاشتروا بها السِّفنجَ، وأمَّا العسلُ فكان لربِّ الدَّارِ، وأمَّا العنبُ فمن داليةٍ لمحتاجين وغيرِهم ".

فقالَ

" الحمدُ للهِ ما خانتي قلبي ولا كذَّبني قطٌّ "

وقد صرفَهُ ﷺ في هذا قلبهُ حيث أكلَ من ذلك الطعامِ طيِّبَهُ وتركَ خبيثَهُ، فكان ورعهُ عن الهامٍ من اللهِ وبصيرةٍ منهُ كما قال الشَّيخُ سيِّدُنا أبو العبَّاس المرسي ﷺ

" الورِعُ مَنْ ورَّعَهُ اللهُ "

قال الشَّيخُ زروقٍ ﷺ

" وإنَّما يورعَهُ إذا علمَ صدقَهُ في ورعِهِ "

وممَّا وقع لهُ في ذلك أيضاً أنَّهُ كان معهُ بعضُ الشُّرفاءِ خارجَ المدينةِ فأرادوا أكلَ الخبزِ فأخرجَ الشَّريفُ خبزةً كانت معهُ فأخذَها سيِّدُنا أحمدُ ليجعلَها مع خبزهِ تطييباً لخاطرِ الشَّريفِ ولكونهِ ليسَ ممَّا يأكلُ الحرامَ فقسمَها نصفينِ، ثُمَّ نظرَ إليها ملياً وهي في يدهِ وقالَ لهُ

" أعندكَ شيءٌ من زرعِ أهلِ الجانبِ المخزني "؟

فقال لهُ

" يا سيِّدي عندي في قمحِ الغولةِ نصفٌ ممَّنْ أعطانيهِ فلانٌ رجلٌ فلَّاحٌ لهُ أقاربَ يصحبون السُّلطانَ وكان أوَّلَ أمرهِ معهم ثُمَّ نزعَ عن ذلك فكان لا يأخذ منهُم شيئاً "

فتركَها سيِّدُنا أحمدُ تنزُّهاً عنها وحماهُ اللهُ منها حيث رأى فيها ما رأى، وقال للشَّريفِ **" أنت لابأس عليك منها وأمَّا أنا فلا "**

ووقفَ مرَّةً في بابِ حانوتِ جزَّارٍ يشتري اللَّحمَ فجعلَ الجزَّارُ يزنُ اللَّحمَ ويناولهُ المشتري منهُ واحداً بعد واحدٍ ويعدُّ دراهمَهُ ولم يُعطِ سيِّدَنا أحمدَ شيئاً شغلاً عنه بما هو فيه وسيِّدُنا أحمدُ ينظرُ ساكتاً كأنَّهُ يتوقَّعُ بيانَ شيءٍ ظهرَ فقيل للجزَّارِ

" مالك عن سيّدي أحمدَ "

فأخذَ يعتذرُ بأنَّهُ شُغلَ بجمعِ الدَّراهم لأهلِ المخزنِ وإنَّ الغنمَ لهم وإنَّهُم ينتظرونَهُ، فتبيَّنَ الأمرُ إذ ذاك لسيّدِنا أحمدُ ﷺ وانصرفَ ذاهباً من مكانهِ محفوظاً بحفظِ اللهِ عزَّ وجلَّ من شراءِ ذلك اللَّحمِ ولم يسألْ عنهُ أولاً لعدمِ اقتضاءِ الشَّريعةِ سؤال أهلِ الأسواقِ ولكنَّ اللهَ سبحانَهُ حافظٌ لأوليائهِ وكفيلٌ بصونِ أصفيائهِ وله أيضاً ﷺ في هذا المعنى غيرُ ما حكايةٍ وفي الاعتبارِ بما ذُكرَ كفايةٌ.

زُهدُه ﷺ

وأمَّا زهدهُ ﷺ فلا أعظمَ منهُ ولا أكثرَ مباعدةً من الدُّنيا وأهلِها فيما رأيناهُ ولا فيما سمعناهُ، قد احرزَ قضيَّةَ السَّبقِ في مراقبةِ الثَّلاثِ, تركُ المنهيَّاتِ الذي هو زهدُ العوامِ, وتركُ فضولِ الحلالِ الذي هو زهدُ الخواصّ, وتركُ ما يُشغلُ القلبَ عن اللهِ الذي هو زهدُ العارفين لا أرقى منهُ في ذلك كلِّهِ ولا ارفعُ منهُ همَّةً فيه.

والنَّوعُ الأوَّلُ منهُ مندرجٌ في السِّيرةِ لكونهِ فعلاً ظاهريَّاً، والمقصودُ هنا الزُّهدُ الخاصُّ الذي هو باقي النَّوعينِ وهو أمرٌ باطني ووصفٌ قلبي لكن تظهرُ في الأفعالِ نتائجهُ وثمراتهُ وتلوحُ على الظَّاهرِ أماراتهُ وعلاماتهُ ولا تخفى شواهدهُ ودلائلهُ ومظاهرهُ ومخائلهُ وهو على قسمينِ ما يتعلَّقُ بالأمورِ الظَّاهرةِ وما يتعلَّقُ بالأمورِ الباطنةِ.

زُهدُه بالأمورِ الظَّاهرةِ

فمنهُ الزُّهدُ في المالِ والجاهِ والرِّياسةِ والظُّهورِ، وثناءُ الخلقِ ومُحمَّدتُهم وموالاتُهم وتردُّدُهم ويندرجُ في هذا القسمِ المرتبةُ الثَّانيةُ كلُّها وبعضُ الأخيرةِ وما فيها يندرجُ في القسمِ الثَّاني وهو ما يتعلَّقُ بالباطنِ إذ هو زهدُ العارفين خاصَّةً.

زهدُه ﷺ في المَال

أمَّا زهدهُ ﷺ في المالِ فيعلم بتفرقتهِ إيَّاهُ على الدَّوامِ والاستمرارِ وإنفاقهِ كلِّ ما يدخلُ يدَهُ داخلَ الدَّارِ وخارجَ الدَّارِ, ومن كثرةِ كرمهِ وسخائهِ وأفراطِ نوالهِ وإعطائهِ، لا يبيتُ من الدَّراهمَ على معلومٍ سواءً عندَهُ الموجودُ منها والمعدومُ تلك عادتهُ وذلك دأبهُ.

وسمعتهُ يوماً يقولُ

" ما باتَ قطُّ على ملكي ستةَ عشرَ فلساً إلَّا أنْ يكونَ شيء بقصدِها حبه "

يعني لقضاءِ دَينٍ أو أرادةِ إعطائهِ لمعيَّنٍ لم يوجدْ تلك الساعةَ ويقولُ غير ما مرَّةٍ

" أنِّي إذا آخذُ في عدِّ الدَّراهمِ وحسابِها يُلقي اللهُ عليَّ النَّومَ والكسلَ عنها فما أُكملُ عدَّ مائةٍ إلَّا بكُلفةٍ"

وكثيراً ما يتولَّى عدَّ مالِه غيرَهُ, فمَنْ يُواليهِ أو يباشرُ عملاً من أعمالهِ ويكونُ ماراً في الطريقِ والدَّراهمَ في يدهِ فما بلغَ دارَهُ أو الموضعَ الذي يقصدهُ إلَّا وقد سقطتْ من يدهِ وتفلَّتتْ وهو لا يشعرُ لغيبتهِ وعدمِ الاعتناءِ بشأنِها, وإذا تذكَّرَها بعد ذلك لم يجدْها, وإذا كان جالساً وهي في يدِهِ لم يشعرْ حتَّى تنتشرَ بالأرضِ يقع لهُ ذلك كثيراً, وقال مرَّةً

" إنِّي أرى الدَّراهمَ كالحصى والتُّرابِ"

ومرَّةً قال للفقيهِ العالمِ المباركِ سيِّدي المهدي الفاسي

" أتتني امرأةٌ متزينَةٌ فكُشفَ لي عن حقيقتِها فإذا هي شبهُ وزغةٍ ولا أراها إلَّا الدُّنيا "

ولهذا تعزبُ نفسهُ وامثالهُ ﷺ عن الدُّنيا وزينتِها لِما يعلمون من حقيقتِها بل ينبذونَها ويكرهونَها كراهيتِهم الشَّيءَ القذرَ.

وجرى مرَّةً بينه وبين الشَّيخِ الفقيهِ العالمِ العارفِ الكاملِ سيِّدي أحمدَ اليمني ﷺ كلامٌ في شأنِها فقال سيِّدي أحمد اليمني

" الدُّنيا خرجتْ من قلبي ولم تبقَ لي ببالٍ "

فقالَ سيِّدُنا أحمد

" أمَّا أنا فالدراهمُ عندي مثلُ قشورِ الحوتِ إذا دخلتْ يدي وجدتُ نتنَها وأجدُني أجتهدُ في غسلِ يدي منها "

يعني يبادرُ بإخراجِها من يدِهِ وصرفِها فيما هي لهُ, ولقد صدقا معاً ﷺ والصِّدقُ شيمتُهما

﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾[1]

واقرارُهما بما خوَّلَهُما اللهُ تعالى من المنحِ أدلُّ على وصفِ حالِهما وأوضحُ وأثبتهُ لهذا المقصودِ وأصرحُ.

قال الشَّيخُ أبو مُحمَّد عبدِ الوهابِ الشَّعراني ﷺ

" قد أجمعَ المحققون على أنَّهُ لا أعلى من تزكيةِ الإنسانِ لنفسهِ إذا كان صادقاً لأنَّهُ يخبرُ عن ذوقٍ وغيرُه يخبرُ عن حسنِ ظنٍّ لا غير"

هذا ومآثرُ سيِّدِنا أبي العبَّاسِ ﷺ الشَّاهدةُ على ذلك كثيرةٌ ودلائلُ قضاياهُ الظَّاهرةُ وأفاعيلهُ الصادرةُ فيه غزيرةٌ لا يُستقصى شيءٌ من جزئياتِها ولا بعضُ مرئياتِها, ولنوردَ منها حكايةً وهي

---

[1] . هود (17)

أنَّهُ كان يوماً في حالةِ فيضٍ وازديادِ حالٍ وذلك في ابتداءِ أمرِهِ وفي حزامِهِ صُرَّةٌ من الدَّراهمِ، فاتَّفقَ أنْ خرجَ على نفرٍ من الأصحابِ جالسين بعرصتهِ المواليةِ للزَّاويةِ فانتزعَ طرفَ حزامهِ من وسطهِ وحلَّ عقدتَهُ عن الدَّراهمِ فنظرَ إليها شزراً ورمى بها إلى الأرضِ نثرَها نثراً، ثُمَّ ذهبَ إلى دارهِ وتركَها ومن معها فقالَ بعضُ الجالسين ممَّنْ يعرفُ حالَهُ في ذلك لمَنْ معهُ

" قوموا نلتقطُ هذه الدَّراهمَ نأخذُها فإنَّما هي لنا "

فأخذوها واقتسموها بينهم، وكانوا ثلاثةً فصارَ لكلِّ واحدٍ منهُم نحواً من سبعين أوقيَّةً, وتقدمتْ حكاياتٌ تنبئُ عن هذا المعنى في بابِ كرمهِ وسخائهِ.

زُهدُه ﷺ في الجَاه والظُّهور

وأمَّا الزُّهدُ في الجاهِ والظُّهورِ فإنَّهُ ﷺ لايزالُ يلتمسُ الخفاءَ والإخمالَ ويُلقي نفسَهُ في زوايا الإغفالِ والإهمالِ، ولا يبالي بإدبارٍ من الخلقِ ولا بإقبالٍ ولا بمدحهِ وثنائهِ، ويفرُّ من مقالاتِ ذي الوجاهةِ والرِّياسةِ ما أمكنَهُ، وينهى عن لقيهِم أشدَّ النَّهي, سمعتهُ يقولُ:

" إنَّك إذا لقيتَ أحداً من أهلِ الدُّنيا يوماً وجالستَهُ فأعلمْ أنَّهُ سلفتْ لك سيئةٌ في ذلك اليومِ عوقبتَ بذلك من أجلِها, وإذا لقيتَ رجلاً صالحاً فأعلمْ أنَّهُ سلفتْ لك حسنةٌ في ذلك اليومِ أُجرتَ بذلك عليها "

ويحذِّرُ من ملاقاةِ أهلِ الرِّياسةِ دائماً ويقولُ إنَّها فتنةٌ في الدِّين ويكرهُ أنْ يعرفَهُ أحدٌ منهُم إلَّا أنْ يتحقَّقَ صدقَهُ ويعلمَ أنَّ مجيئهُ للهِ فيرجو لهُ الخيرَ ويذكِّرهُ وينصحهُ فيظهرُ عليهِ أثرُ ذلك ويمتثلُ ما أُمرَ به، ولا يريدُ أنْ يشاورَ أحداً منهُم على دنيا ولا يساعفهُ في مطلوبهِ ذلك ويتنصَّلُ منهُ بذمِّ نفسهِ وتجميلِها، وإنَّهُ لا يحسنُ شيئاً من الأشياءِ فراراً من مخالطتِهم وعادتهِ مع الرؤساءِ والولاةِ، إذا لقوهُ

أنْ يتنكَّبَهم ويعرضَ عنهم قاصداً سمته وذاهباً على سرِّ مشيهِ, فإذا قصدَ أحدَهم إلى لقائهِ صدمتْهُ مهابتهُ ودُهشَ منهُ، كما اتَّفقَ لغيرِ واحدٍ منهُم وتراهُ يتلطَّفُ فيقفُ به سيِّدُنا أحمدُ حيث لقيَهُ وقوفَ مستعجلٍ, وإذا جاءَ أحدُهم للزَّاويةِ رأيتَهُ أيضاً في دهشٍ ووجلٍ لا يأتون بأسلحتِهم بل يتركونَها، وربَّما ألقى بعضُهم ثيابَهُ وأتى ببدلةٍ رجاءً لقبولهِ عليهِ وعلماً منهُ بحالهِ من أنَّهُ لا يحبُّ هيئةَ المترفين، فإذا جالسَهُ وعظَهُ وذكرَّهُ وبيَّنَ لهُ ما هو عليهِ صادعاً لهُ بالحقِّ وزاجراً لهُ عن سواهُ فيزدجرَ ويذكرَ ويظهرَ عليهِ الخيرُ.

وقد نهى غيرُ واحدٍ من الرؤساءِ والقوَّادِ والقضاةِ والكتَّابِ ممَّنْ يريدُ بزياراتهِ غرضاً دنيوياً عن المجيءِ إليهِ, فيأتونَهُ ويعودون إليهِ وكم مرَّةً يستترُ عنهم في دارهِ فلا يخرجُ إليهم وكم من مرَّةٍ يذهبُ خارجَ المدينةِ لبعضِ أحبَّتهِ إذا شعرَ بأنَّهُم سيأتون إليهِ فيقيمُ هنالك أيَّاماً حذراً من ملاقاتِهم، وقد يلقاهُ أحدُهم في الطَّريقِ فينزلُ عن فرسهِ يريدُ لقاءَهُ فيستترُ عنه ويذهبُ قبلَ الوصولِ إليهِ فلا يجدُ إليهِ سبيلا.

وكان قائدُ السُّلطانِ الحاكمِ عبدِ اللهِ الرُّويسي ممَّنْ عظُمتْ رياستهُ واتَّسعتْ إمارتهُ ودوَّخَ البلادَ واستأصلَ العبادَ لمَّا رأسَ بفاسٍ واستخلفَ بها يأتي لزيارتهِ في الاعيادِ وفي غيرِها، فلمَّا رأى كثرةَ مجيئهِ إليهِ وتكرَّرَ ورودهُ عليهِ بعثَ إليهِ

" لا تأتي إليَّ ولا تعُدْ لما أنت تصنعُ إذ لا فائدةَ لمجيئِكَ إليَّ ووفودِك علي إذ الرِّياسةُ صنعتُكَ والظُّلمُ حرفتُكَ وأنت لا تنتهي عمَّا أنت بصددهِ من أكْلِ أموالِ النَّاسِ بالباطلِ والسَّلبِ والضَّربِ والقتلِ وغيرِ ذلك من أنواعِ المظالمِ أيضاً وإن رأى النَّاسُ مجيئُكَ إليَّ تعلَّقوا بي وإنْ نهيتُك لم تنتهي فلا معنى لإتيانِكَ إليَّ "

فلمَّا بلغَهُ ذلك أُسقطَ في يدهِ ولم يدرِ ما يصنعُ وتخوَّفَ على نفسهِ بذلك من قبلِ سيِّدِنا أحمدَ ﷺ ثُمَّ انقطعَ عن الزِّيارةِ إلَّا قليلًا، ومع ذلك فقلَّما يبعثُ إليهِ في شيءٍ من قضاءِ حاجةٍ مضطَّرٍ أو أمرٍ مهمٍّ إلَّا قضاهُ وبددهُ لهُ مبادرة خائف

وأمضاهُ, وقعَ لهُ في ذلك حكاياتٌ معهُ، وقد كان لمَّا رأسَ بفاسٍ وأمرَ أنْ يجعلَ المسكينَ بأسواقِها وأبوابِها ويتولَّى قبضَ ذلك وطلبَهُ من السُّلطانِ فساعفَهُ في مطلوبهِ وكتبَ لهُ بذلك غيرَ ما كتابٍ، ثُمَّ إنَّ المحتسِبَ الفقيهَ العدلَ الأرضي أبا فارسٍ عبدِ العزيزِ بنِ عبدِ الرَّحمنِ الفلالي كرهَ ذلك ولم يُردْهُ فكلَّمَ الرُّوسي صاحبَ الأمرِ في ذلك فلم ينصتْ لقولهِ ولا رجعَ عمَّا أرادَ من فعلهِ فأعوزَ السَّيِّدُ عبدُ العزيزِ إزالةَ ذلك ورأى فيه ضرراً عظيماً على المسلمين فتعلَّقَ بسيِّدِنا أحمدَ وجاءَهُ شاكياً مستغيثاً به فامتنعَ سيِّدُنا أحمدُ من ذلك أوَّلاً حذراً من التَّعرضِ للولاةِ أو لأمرٍ ظهرَ لهُ, فألحَّ عليهِ المحتسبُ المذكورُ وقالَ

" لهذهِ المسألةِ قصدتُك فيها للّهِ فلا أرجعُ عنك ولا أعذرُك فيها ولا يقدرُ عليها غيرُك"

فحينَ رأى منهُ الجِدَّ وأنَّ الأمرَ قد تعيَّنَ، بعثَ إلى الرُّوسي أنْ أخرجْ خارجَ البابِ لسيّدي علي بن حرزهم ليلتقي معهُ هنالك على عادتهِ من طلبِ الخفاءِ وعدمِ الظُّهورِ وباشرَ ذلك بنفسهِ اعتناءً بشأنِ هذه النَّازلةِ العظيمةِ الضَّررِ فخرجَ إلى حيث قيل لهُ والتقى معهُ سيِّدُنا أحمدُ ﷺ وخاصمَهُ وعاتبَهُ فأنصتَ ورجعَ عن ذلك الفعلِ فما فعلَهُ بعد ذلك وكفَّ اللهُ ببركتهِ عن المسلمين هذه المضرَّةَ العظيمةَ وما علمَ بذلك أحدٌ من النَّاسِ.

فانظرْ رحمَك اللهُ إلى هذا السَّيِّدِ الجليلِ ومنفعتهِ العامَّةِ للإسلامِ وكم لهذه الوقعةِ من أمثالِها حفظَهُ اللهُ وأدامَ النَّفعَ, ولم يزلِ الرُّوسي يقولُ دائماً

" واللهِ ما أخافُ احداً إلَّا سيّدي أحمدَ بنَ عبدِ اللهِ "

وهكذا كان شأنُ الحكَّامِ قبلَهُ يخافونَهُ ويتَّقون شوكتَهُ وما ينزلُ بهم من قِبلهِ ومن أجلهِ, ولم يكنْ ﷺ يلوي على أحدٍ منهُم ولا يعرِّجُ على طريقهِ إلَّا أنْ يواسيهم فيما كان فيه إغاثةُ ملهوفٍ أو إجابةُ مضطَّرٍ، ولم يتَّفقْ لهُ ذلك إلَّا نادراً وفي بعضِ القضايا المتعيِّنةِ التي لا مندوحةَ عنها ممَّا أزعجَهُ إليهِ باعثُ الأمرِ الإلهي واقتضاهُ منهُ الأمرُ الشَّرعي ممَّا يقاربُ ما ذكرناه أو يشبههُ وإلّا فمِن

عادتهِ ﷺ حسمُ المادةِ وقطعُ العلاقةِ بينه وبينهم بالكليَّةِ لِما ينتشرُ عن معرفتهم من الصِّيتِ في النَّاسِ ولبعدِهم عن الحقِ وقبولهِ.

ومن عظيمِ زهدهِ في الجاهِ والظُّهور ما وقع لهُ مع ملكِ الوقتِ السُّلطانُ أبي النَّصرِ مولاي أسماعيلَ بنِ الشَّريفِ الحسيني السَّجلماسي أيدَّهُ اللهُ وذلك أنَّهُ استدعاه لمعرفتهِ واللّقاءِ معهُ وطلبِ الدُّعاءِ منهُ وراسلَهُ بكتبٍ شتَّى فما التفتَ لشيءٍ من ذلك بل ضربَ عنه صفحاً وطوى دون مرامهِ كشحاً وتاهَ عليهِ تيهَ الملوكِ على الحقيقةِ الذين لا يملكُ قلوبَهم سوى اللهِ الحقّ سبحانَهُ.

وقد راسلَهُ مرَّةً في ذلك بكتابٍ وجَّههُ مع بعضِ كبراءِ الدَّولةِ من بطانتهِ وخاصَّتهِ حرصاً على اللّقاءِ وحصولَ المرادِ، فما فتحَ الكتابَ حين وصلَ إليهِ ولا قرأه وأقبلَ على الذي أتى به يعاتبهُ بأنَّهُ هو المتسبِّبُ في ذلك وكذا و كذا حتَّى ذابَ خجلاً وامتلأ رعباً ووجلاً لمَّا رأى من حالهِ وسمعَ من مقالهِ، وجعلَ يعتذرُ عن نفسهِ وما سلفَ لهُ في أنسه إذ كان ذكرهُ عند السُّلطانِ بوصفٍ جميلٍ وثناءٍ حميدٍ.

ثُمَّ راسلَهُ السُّلطانُ أيضاً بكتابٍ يذكرُ فيه أنَّهُ أسندَ النَّظرَ إليهِ في خراجِ روضةِ الشَّيخِ علي بنِ حرزهم يُعطيها على يدهِ لمَنْ شاءَ ثقةً به إذ كان وقعَ التَّنازعُ فيها وطلبَها من السُّلطانِ حاشيتهُ بل بعضُ من هو أقربُهم منزلةً عندَهُ من الشُّرفاءِ وأرادوا أنْ يعطوها على أيديهم مَنْ شاؤوا فاتَّهمَهم السُّلطانُ في ذلك وقال لا أشورُ إلَّا بنظرِ سيّدي أحمدَ بنِ عبدِ اللهِ طمعاً منهُ أنْ يلتفتَ إليهِ بسببٍ من الأسباب وتلطُّفاً من أنْ يفتحَ في الوَصلةِ إليهِ بينه وبينه البابَ فما قبِل ذلك ولا التفتَ إليهِ واعتذرَ عن نفسهِ بأنَّهُ ليس أهلاً لذلك وردَّ الرسولَ ردّاً جميلاً.

ثُمَّ لما حُبسَ المطرُ عن النَّاسِ وقحطوا واستسقوا المرَّةَ بعد المرَّةِ فلم يُسقَوا وحارَ السُّلطانُ في أمرِهِ واعتراهُ من ذلك دهشٌ، كاتبَهُ أيضاً بكتابٍ آخرَ يطلبُ

منهُ الدُّعاءَ فيه وأنْ ينصحَهُ ويعرِّفَهُ بما يليقُ به ويستشيرهُ فيما يفعلُ زاعماً أنَّهُ يمتثلُ كلَّ ما يُشار به عليهِ فلم يجبْهُ أيضاً علماً منهُ أنَّهُ لا يفعلُ وحذراً منهُ فتْحَ البابِ بينه وبينه، فضاقَ السُّلطانُ عند ذلك ذرعاً وأعادَ الكتاب مرَّةً أخرى وكتبَ فيه " سبحانَ اللهِ " بضعاً وعشرين مرَّةً إشارةً إلى التَّعجُّبِ من عدمِ الجوابِ وإعلاماً بغيظهِ ووجدانهِ في نفسهِ، ووقَّعَ فيه اسمه بخطِّ يدهِ تأكيداً في التماسِ الجوابِ أيضاً وحرصاً عليهِ، فما استحقَّ ذلك سيِّدُنا أحمدُ ولا أستخرجَ به من عندهِ جواباً فتغيَّظَ إذ ذاك ووجدَ في نفسهِ, فبلغَ سيِّدُنا أحمدُ تغيُّظهُ فلم يزددْ إلَّا ثباتاً وقال

" الحمد للهِ الآنَ استرحتُ "

ثُمَّ حنقَ السُّلطانُ لأجلِ ذلك على بعضِ خاصَّتهِ ممَّنْ لهُ محبةٌ في سيِّدِنا أحمدَ أكيدةٌ وهو الفقيهُ الكاتبُ الخيِّرُ كاتبُ الدَّولتينِ أبو الرَّبيعِ سليمانُ عبد القادر الزَّرهوني وأكثرَ عليهِ اللَّومَ والعتابَ وذكرَ لهُ ما صنعَ معهُ سيِّدُنا أحمدُ من عدمِ الجوابِ، فلمَّا رأى الكاتبُ ذلك خشيَ على نفسهِ فاستصرخَ بسيِّدِنا أحمدَ ﷺ طالباً منهُ الجوابَ وقائلاً لهُ إنَّما غرضُ السُّلطانِ في مجردِ الجوابِ ولو أجبتَهُ كتاباً لقنعَ فأجابَهُ سيِّدُنا أبو العبَّاسِ ﷺ بكتابٍ قال فيه

" الحمدُ للهِ والصَّلاةُ والسَّلامُ على رسولِ اللهِ ﷺ

منعني من الجوابِ للسُّلطانِ خوفَ الفتنةِ لأنَّ مَنْ توجَّهَ إليهِ السُّلطانُ توجَّهَ إليهِ الخلقُ وأتاهُ النَّاسُ من كلِّ ناحيةٍ, فإن كان طالبُ دنيا فتنوهُ عن دنياهُ وإن كان طالبُ آخرةٍ فتنوهُ عن آخرتهِ ولا حاجةَ لي بشيءٍ من ذلك, وأمَّا إرادةُ السُّلطانِ من مشاورتهِ إيَّايَ ونصحي لهُ فإنَّما يُشاوَرُ واحدٌ من ثلاثةٍ, إمَّا صاحبُ بصيرةٍ أو صاحبُ عقلٍ أو صاحبُ عِلمٍ.

فأمَّا البصيرةُ فلستُ من أهلِها, وأمَّا العقلُ فالذي أعتقدَهُ أنَّ اللهَ سبحانَهُ ما ولَّى أحداً على الخلقِ إلَّا أعطاهُ من العقلِ ما يسمعُهم ويسمع سياستهم وتدبيرهم, وأمَّا العلمُ

فلستُ من أهلهِ والحقُّ ظاهرٌ والعدلُ لا يخفى على أحدٍ وسلْ العلماءَ فهم كثيرٌ يمسون معك ويصبِّحون، وأيضاً ما أفسدَ كثيراً من أولادِ الصَّالحين وأخرجَهم عمَّا كان عليهِ إسلامُهم إلَّا توجُّهُ الملوكِ بالتَّعظيمِ والتَّكريمِ لآبائِهم فرُبِّيَ على ذلك أبناؤهم ففسدوا وتعدُّوا حدودَ الشَّريعةِ وأكلوا الحرامَ وخرجوا عن شكلِهم وتطوَّروا على غيرِ طورِهم وما طلبَهُ الأميرُ مِنّا من الدُّعاءِ فها نحنُ داعون لهُ أناءَ اللَّيلِ وأطرافِ النَّهارِ بالسَّدادِ والتَّوفيقِ والجري على أقومِ طريقٍ وكلُّ المسلمين يجبُ عليهم أنْ يدعوا للأميرِ بخيرٍ ونحن من جملتِهم" هذا مضمنه.

ولمَّا بلغَ السُّلطانُ هذا الكتابَ سُرَّ به سروراً عظيماً وقبَّلَهُ بفيهِ ورفعَهُ على رأسهِ ورضيَ بسببهِ عن الكاتبِ الذي كان تغيَّظَ عليهِ لأجلِ مودَّتهِ وإضافتهِ لسيِّدِنا أحمدَ وأجزلَ جزاءَهُ وأعطاهُ فرساً جيِّداً وانقطعَ من يومئذٍ الحاجةُ على الجوابِ وما كان يظهرُ من تغيُّظهِ وحنقهِ وانجبرَ خاطرهُ وما طمعَ في لقاءِ سيِّدِنا أحمدَ بعد ذلك أبداً.

وقد سألَ بعد ذلك سيِّدُنا أحمدُ ﷺ صاحبَنا أبا الرَّبيعِ الكاتبَ سليمانَ

" هل السُّلطان باقٍ على تطلُّبِ لقائهِ ورؤيتهِ أم لا "؟

فقال لهُ

" قد آيسَ من ذلك " فقالَ سيِّدُنا أحمدُ

" ذلك الذي طلبتُ من اللهِ عزَّ وجلَّ "

هذا ما يتعلَّقُ بالزُّهدِ في الأمورِ الظَّاهرةِ.

زُهدُه ﷺ في الأُمورِ البَاطنةِ

وأمَّا ما يتعلَّقُ منهُ بالأمورِ الباطنةِ فهو الزُّهدُ في المقاماتِ والأحوالِ بترقِّي الأنسانِ عنها شيئاً فشيئاً وانتقالهُ من مقامٍ إلى مقامٍ بالزُّهدِ فيما هو فيه فينقلهُ اللهُ إلى ما هو خيرٌ منهُ, أو التَّخلِّي عنها دفعةً والمحوُ عنها رأساً إلى مالا يعبَّرُ عنه ولا يظفرُ به إلَّا مَنْ منَّ عليهِ به اللهُ سبحانَهُ وقد رقِّيَ سيِّدُنا أبو العبَّاسِ ﷺ من هذا مكاناً مكيناً ولاحَ في سمائهِ نوراً مبيناً يُعلَمُ ذلك من إشاراتهِ وكلامهِ وصدقهِ دائماً عن الوقوفِ عند مرتبةٍ من المراتبِ، أو حالٍ من الأحوالِ وإشاراتهِ إلى حاله من المحو والفنا اللذَين هما حال تضمن الزهد كله بل الغيبة عنه وعن غيره من المقامات.

زُهدُه ﷺ في المَقامَاتِ والتَّصريف

ومن زهدهِ باطناً أنَّهُ ﷺ أُعطيَ التَّصريفَ فكان لا يحبُّ شيئا إلَّا كان بإذنِ اللهِ تعالى ظهرتْ عليهِ في ذلك كراماتٌ كثيرةٌ وآياتٌ منيرةٌ لا يحصرُها الحدُّ ولا يأتي عليها العدُّ، ثُمَّ زهدَّهُ في ذلك وأنتقلَ عنه.

حدَّثني أخي الفقيهُ أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد العربي حفظَهُ اللهُ أنَّهُ سمع سيِّدَنا أبا العبَّاس يقولُ

" كنتُ قبل هذا الزَّمانِ إذا أحببتُ شيئاً وأردتُ أنْ يكونَ كان ووقعَ, واليومَ لا أُريدُ ذلك ولا أحبُّهُ "

يعني يحبُّ الشَّيءَ فيقعُ, يريد ﷺ ما لم يكنْ ما أحبُّهُ فيه هو مرادُ اللهِ تعالى لا في سواهُ أو اقترنَ به أمرٌ من عندِ اللهِ, فإنْ كان كذلك لزمَهُ الإتِّباعَ ووقعَ ما أحبَّ بإذنِ اللهِ تعالى.

حُرّيتُه ﷺ

وأمَّا حريتهُ ﷺ فحسبُك دليلٌ عليها ما تقدَّمَ من علوِّ همَّتهِ في كلِّ شيءٍ وعظيمِ زهدهِ ظاهراً أو باطناً وكثرةِ إيثارهِ سرَّاً وعلناً إلى ما اتَّصفَ به من ولهٍ في المعرفةِ وخالصِ التَّوحيدِ الدَّالينِ على كمالِ عبوديتهِ الدَّالةِ على تمامِ حرّيتهِ, والحرّيةُ حاصلُها الخلوصَ من رقِ الأغيارِ.

قال القُشيري

" هي أنْ لا يكونَ العبدُ بقلبهِ تحتَ رقِ شيءٍ من المخلوقاتِ لا من أعراضِ الدُّنيا ولا من أعراضِ الآخرةِ، فيكونُ فردَ الفردِ لم يسترقُّهُ عاجلُ دنيا ولا حاصلُ هوى ولا آجلُ مُنى ولا سؤالٌ ولا قصدٌ ولا إربٌ ولا حظٌّ " إنتهى.

يعني وإنَّما أنَّ لهُ مولاه وحظُّهُ حبُهُ ورضاهُ, وهي بقدرِ كمالِ العبوديَّةِ, فمن صدقتْ عبوديتهُ خلصتْ عن رقِ الأغيارِ حريتهُ، فهما مصدوقٌ واحدٌ وإن تغايرَ مفهومُهما، وقد أبانَ سيِّدُنا أحمدُ ﷺ في بعضِ كلامهِ عن معناها فسمعتهُ يقولُ

" الفقيرُ لا يملِك ولا يُملَّكُ يعني لا يرى لنفسهِ ملكيةَ شيءٍ ولا يملِك قلبَهُ شيءٌ لا يرى المالكَ إلَّا اللهَ ولا يستولي على قلبهِ سواهُ "

وسُئل ﷺ يوماً عن الحُرِّ فقالَ

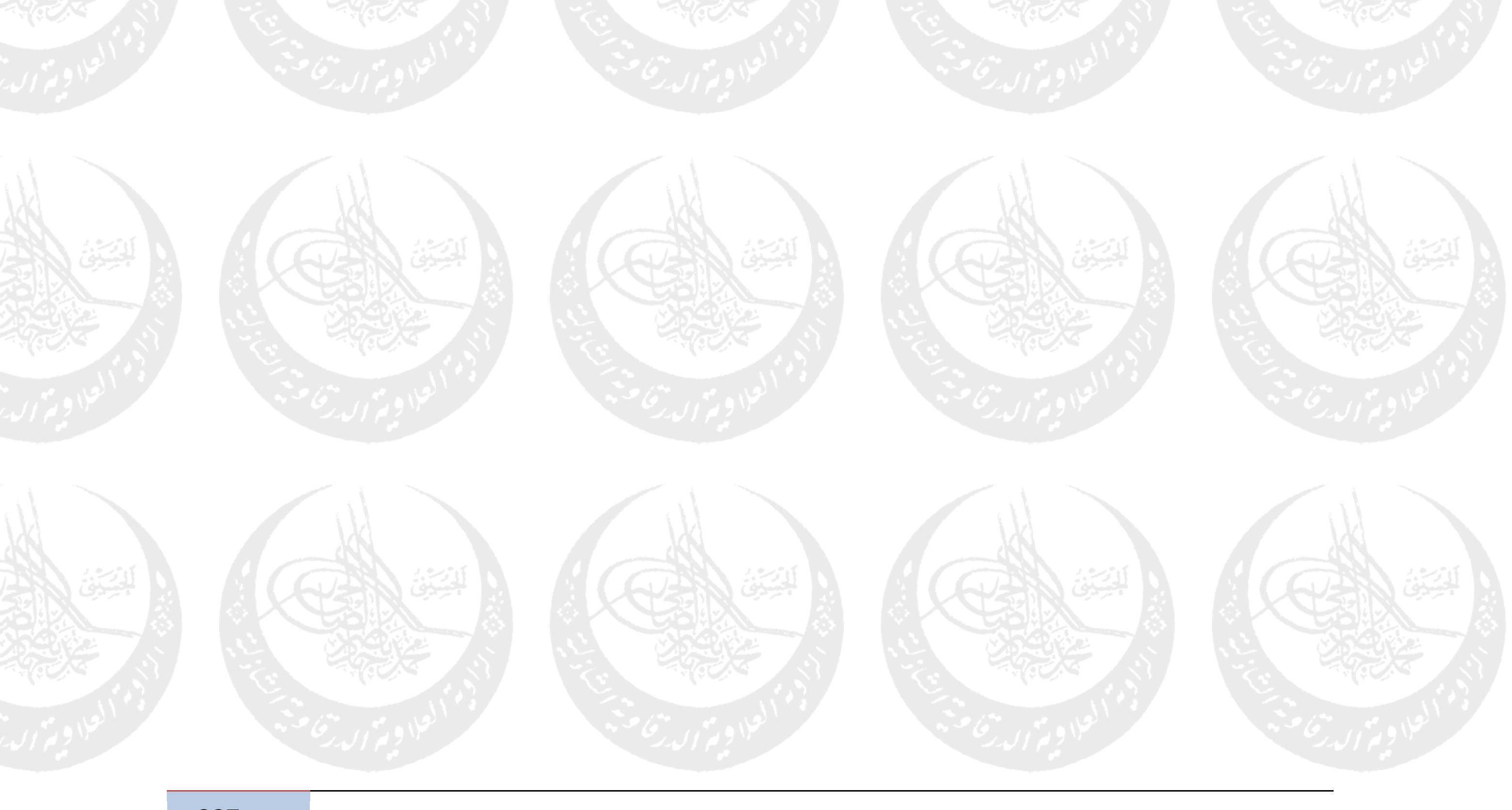
" الحُرُّ هو الذي لا يملكهُ شيءٌ ولا يسترقُّهُ شيءٌ لا نفسَهُ ولا أهلَهُ ولا ولَدهُ ولا زوجتَهُ ولا صاحبَهُ بل ولا الدُّنيا ولا الآخرة "

وكذلك حالُ سيّدِنا أحمدَ ﷺ كما أنبأ عنه مقالهُ وكما دلَّتْ عليهِ خلالهُ وفعالهُ وأثبتَ دليلاً على ذلك ما لهُ من عظيمِ الزُّهدِ في المخلوقِ والانقطاعِ عن الدُّنيا وأهلِها وعدمِ المبالاةِ بها حيث استوتْ عندَهُ أخطارُ الإعراضِ والإقبالِ من النَّاسِ والأعراضِ، لا يبالي بكثيرٍ منها ولا بقليلٍ ولا بجليلٍ, لا يكترثُ ببذلِها ولا يعدُّ أهلَها بل يصرفُها أبداً ويؤثرُ بها سرمداً, وما أثرَّ بها إلَّا بحريتهِ عنها وما نرى أحداً أُكملَ فيه هذا الوصفُ مثل ما كملُ في سيّدِنا أحمدَ ﷺ ذلك هو

الحُرُّ على الحقيقةِ والممتازُ بوصفِ الحريةِ بين الخليقةِ, وقلَّما يتَّفقُ في الوجودِ أيظفرُ منهُ بموجودٍ كما قيل

أتمنَّى على الزَّمانِ مُحالا   أنْ ترى مُقلتايَ طلعةَ حُرِّ

ولا تظنَّ ببالِك أو تتوهَّمَ في خيالِك أنَّ أحداً من أهلِ عصرِك ومصرِك وبلادِك وقطرِك لهُ من وصفِ الحريَّةِ مثلَ ما لهُ أو يُحاكي فيه تمامَهُ وكمالَهُ ذلك وصفُ أنوارِهِ عليهِ لائحةٌ، وآثارهُ فيه واضحةٌ، وأمرهُ ﷺ في هذا وفي غيرِهِ شهيرٌ لا يخفى على ذي ميْزٍ من كبيرٍ أو صغيرٍ رزقَنا اللهُ رضاهُ وأدامَ علينا بركتَهُ آمين.



البابُ السَّابعُ في دلالتهِ على اللهِ وجمعهِ عليهِ وسوقهِ الأقوامَ بحالهِ ومقالهِ إليهِ

دَلالتُه ﷺ على الله

قد شربَ سيّدُنا أحمدُ ﷺ كما تقدَّمَ من هذا الحبِّ الشَّريفِ ما رواهُ ونهلَ من بحرهِ العظيمِ ومددهِ الجسيمِ ما أخذَ بجميعِ عوالمهِ وقواهُ وأفناهُ عن كلِّ معلومٍ ومرسومٍ، وغيَّبهُ أبداً في الواحدِ القيُّومِ فانصبغتْ بالتَّوحيدِ حقيقتهُ، وامتزجتْ به ذاتهُ وهويتهُ وتكيَّفتْ به روحهُ ونفسهُ ومعناهُ وحسُّه وقالبهُ وقلبهُ وعقلهُ ولبُّه فصارتْ أحوالهُ وأقوالهُ وخلالهُ وأفعالهُ وحركاتهُ وسكناتهُ وتقلباتهُ وتصرفاتهُ كلُّها على اللهِ ورسولهِ وجمعٍ على اللهِ وأبوابٍ لوصولهِ لاتدعوا إلَّا إليهِ ولا تحومُ إلَّا عليهِ ولا توقفُك إلَّا ببابهِ ولا تسندُك إلَّا لعليّ جنابهِ.

إذا رأيتَهُ ذكرتَ اللهَ وأُنسيتَ ما سواهُ، واستيقظتَ لأوَّلِ وهلةٍ وانقشعتْ عنك سحائبُ الغفلةِ، ووجدتَ بقلبِك تعظيماً وأجلالاً وتكريماً, وإذا جالستَهُ تداركتْك لمحاتهُ وسرتْ اليك نفحاتهُ وعلقَ طيبهُ الفائحُ ورأيتَ حُسنَه الواضحَ، وعلمتَ أنَّهُ الجليسُ الصالحُ ونورُ النُّبوةِ اللائحُ، لا يخيبُ أبداً جليسهُ ولا يُعدمُ شيئا من الخيراتِ أنيسهُ كما قالَ فيه بعضُ مادحيهِ

هو من أُناسٍ لا يخيبُ جليسُهم   وإذا رأيتَهم ذكرتَ اللهَ

يقدحُ النُّورُ في قلبِ مَنْ أبصرَهُ, ويبثُّ محبَّةَ اللهِ فيمَنْ حضرَهُ, ويزجُّ في الذِّكرِ مَنْ غشيَهُ, ويقذفُ في الجدِّ من لقيَهُ, رؤيتهُ طبٌّ للقلوبِ, وكلامهُ شفاءٌ من العيوبِ, مجلسهُ مجلسُ علمٍ ووقارٍ وإجلالٍ وإكبارٍ, لا يبتدئهُ أحدٌ بالكلامِ غالباً ولو كان في ذلك صائباً بل يفتتحهُ هو إنْ أرادَ فيحصلُ به البغيةَ والمرادَ,

ولا يكثرُ الحاضرون من الكلامِ لرأيهِ، ولا يتسابقون فيما بينهم إليهِ بل دأبُهم الإنصاتُ والأدبُ إلَّا مَن توجَّهَ لهُ من الخطابِ والطلبِ.

عظيمُ الهيبةِ جليلُ الهيئةِ, ذو مهابةٍ ظاهرةٍ وسطوةٍ قاهرةٍ, لا يفاجئهُ أحدٌ إلَّا هزمتْهُ هيبتهُ ولا يداخلهُ إلَّا ملكتْهُ محبَّتهُ, وراثةٌ مُحمَّديةٌ ومنحةٌ نبويَّةٌ, كلَّما ازددتَ إليهِ قرابةً ازددتَ منهُ مهابةٌ, ما رأيتُ أشدَّ منهُ مهابةً ولا أكبرَ منهُ جلالةً, ولقد تعرِضُ لنا المهماتُ فنريدُ أنْ نخبرَهُ فما نستطيعُ الإقدام عليهِ حتَّى يكونَ هو الذي يبتدئنا بما لديه, وكثيراً ما ينبئُنا عمَّا نريدهُ قبل أنْ نشرعَ فيه فيفتحُ لنا بذلك البابَ في الكلامِ معهُ فنتبعهُ ونقتفيهِ.

يتكلَّمُ مع الإنسانِ بما فيه وينبئهُ عمَّا يلاقيهِ، ويراقبهُ ويبيِّنُ لهُ ما خفيَ عليهِ أتمَّ تبيينٍ ممَّا كان قد أضرَّ به من أمرٌ بدينٍ, فيقوّمُ منهُ الاعوجاجَ ويصلحُ ما فسدَ فيه من المزاجِ ويتحفهُ بالدواءِ والعلاجِ, فيبري الخطوبَ ويزيحُ الكروبَ وتنمحي بأنواره ظلمةُ النُّفوسِ وتنجلي عنها المضايقَ والبؤسَ.

يذكرُ الآياتِ القرآنيَّةِ والأحاديثِ النبويةِ، وينتزعُ منها الإشاراتِ واللَّطائفَ والحكمَ والمعارفَ فيذاقُ ذلك منهُ ذوقاً يزيدُ الحاضرَ محبَّةً وشوقاً, يُطربُ السَّامعَ حديثهُ ويحثُّهُ للسَّيرِ إلى اللهِ حثيثهُ، ويمتلئُ القلبَ منهُ سروراً وفرحاً وحبوراً حتَّى يحلفَ الحالفُ عند سماعِ كلامهِ لكأنَّهُ يسمعُ كلامَ النَّبي ﷺ ويشابهُ نورَهُ الأتمَّ وسرَّهُ الأعظمَ, وعلى كلامهِ سطوةٌ تخضعُ لها النُّفوسُ وتنحطُّ لها الرؤوسُ, يجيبُ بالحالِ أكثرَ ممَّا يجيبُ بالمقالِ, فإذا سمع كلامَهُ أحدٌ وخصوصاً مَنْ فيه قابليةُ القبولِ تحوَّلَ في الحين قلبهُ وطارَ به إلى اللهِ لبُّهُ.

يأتيهِ الأنسانُ في كربٍ وأحزانٍ وجحودٍ وكفرانٍ وضلالٍ وطغيانٍ وجفاءٍ وحرمانٍ ودنسٍ وأدرانٍ وظلامٍ وخسرانٍ، فيعودُ حزنهُ سروراً وجحودهُ شكوراً وبعدهُ حضوراً وجفاؤهُ بروراً ودنسهُ طهوراً وظلامهُ نوراً، فتنقلبُ به في القلوبِ حقائقُ الأغيارِ وتطيبُ به الأوقاتُ والأحيانُ، وتجدهُ يتكلَّمُ مع الرَّجلِ كلاماً عادياً وهو

يفعلُ في قلبهِ الأفاعيلَ ويرحلُ به إلى اللهِ المراحلَ، ويجيبُ الرَّجلَ بكلمةٍ أو كلمتينِ فيظفرَ عند ذلك بمرامهِ ويعثرَ على غرضهِ وغرامهِ، كأنَّما تلك الحاجةُ مجرَّدَ كلامه, ويشكوهُ الرَّجلُ بعللٍ معنويةٍ وأمراضٍ نفسيةٍ يذكرُ ما في باطنهِ وهو أمامَهُ فيجيبهُ عنها بعينِها كأنَّما سمعَ كلامَهُ فتشفى علتَهُ وتنقلبُ فطرتهُ فيشاهدُ منَّةَ اللهِ وإحسانهِ وتفضلهِ وامتنانهِ, وما كان قطُّ شاهدَها قبل ذلك ولا تنبَّهَ لما هنالك, ويحضرهُ الحاضرون ما بين متوجِّهٍ وغافلٍ ودنيوي وغيرهِ فيعملُ في الجميعِ حالهُ ويؤثِّرُ فيهم مقالهُ، ويعمُّهم الفرحُ ويزولُ عنهم التَّرحُ حتَّى يظنَّ أحدُهم لا يبالي بالدُّنيا أبداً، ولا يلتفتُ إليها بعد سرمداً، لِما يلوحُ عليهِ حينئذٍ من اليقينِ بالله وبالفرحِ بأنعُمِ اللهِ, ويأتيهِ مَنْ أُصيبَ في مالهِ وبدنهِ وعيالهِ في غايةِ ما يكونُ من المشقَّةِ والضَّعةِ[1] فإذا سمعَ كلامَهُ انزاحتْ عنه الأتراحُ واعتراهُ السُّرورُ والإنشراحُ كأنَّما يقنَ عندهُ الرَّاحُ بالرَّاحِ.

وكان رجلٌ من ناحيةِ البربرِ أهلُ العمودِ من أشياخِ قبيلتهِ قد أمتحنَهُ خدَّامُ السُّلطانِ بأنواعِ المحنِ والنَّكالِ في النَّفسِ والأهلِ والمالِ فضُربَ وأُخذَ مالهُ وساءَ خلقهُ وحالهُ ولم يبقَ بيدهِ كثيرٌ ولا قليلٌ وكان لهُ قبل ذلك مالٌ جزيلٌ فجاءَ إلى الزَّاويةِ وجلسَ بصحنِها مع سيِّدِنا أحمدَ في ملأ من الأصحابِ وأنا حاضرٌ فجعلَ ينصتُ لكلامهِ وكان يتكلَّمُ على عادتهِ في الدَّلالةِ على اللهِ ويُذكِّرُ النَّاسَ بأنعمِ اللهِ الظَّاهرةِ والباطنةِ ويريهُم أنَّ ما ينزلُ بالعبدِ من المحنِ التي هي في الظَّاهرِ نقمةٌ كلُّها رحمةٌ من اللهِ وفضلٌ منهُ ونعمةٌ وأنَّهُ لا يفعلُ ذلك إلَّا بحكمةٍ وجعلَ يُوضِّحُ ذلك, فتحوَّلَ حالُ الرَّجلِ لحينهِ وظهرَ عليهِ أثرُ السُّرورِ والفرحِ وجعلَ يقولُ لا دينَ إلَّا دينُ سيِّدِنا مُحمَّد كأنَّهُ أسلمَ حينئذٍ ويقولُ

" الحمدُ للهِ "

---

[1] . الضعة هوالخاسر في تجارته

يكرّرُها فرحاً منهُ بنعمةِ الإسلامِ التي لم يقدرْ قدرَها قبل ذلك واستخفافاً بالدُّنيا التي رُزِئَها ويقولُ

" ما سمعتُ هذا قطُّ ولا رأيتهُ، ولقد زرتُ غيرَ واحدٍ من الصَّالحين الأعيانِ في هذا الزَّمانِ فما سمعتُ مثلَ هذا الكلامِ عند أحدٍ "

وكم وقعَ مثلُ ذلك المرَّةَ بعد المرَّةِ يأتيهِ الرَّجلُ في كربٍ ووبالٍ فينصرفُ عنه منشرحَ الصَّدرَ والبالَ وتعودُ كربتَهُ عند رؤيتهِ طرباً, ويبصرُ الحاضرون من آياتهِ عجباً ذلك لما تكيَّفَ به من نورِ الحقيقةِ واتَّصفَ به من الرَّحمةِ للخليقةِ حضرتُ من ذلك مالا أحصيهِ ولا أستوفيهِ فهو يجودُ بحالهِ كما يجودُ عليهم بمالهِ ويرحمُهم بما خوَّلَهُ من المعارفِ ورزقَهُ من الخوارقِ.

دَفعُهُ ﷺ لِلخَلقِ الى الله

فيَّاضُ الأمدادِ كثيرُ النَّفعِ للعبادِ, رفيقٌ بالحاضرِ والبادِ كأنَّما النَّاسُ كلُّهم أبناؤهُ وإخوانهُ وأولادهُ لايزالُ حريصاً على نفعِهم وزجرِهم إلى اللهِ ودفعِهم, يستشهدُ كثيراً بحديثِ

" **الخلق كلهم عيال الله تعالى وأحبهم إليهِ أنفعهم لعياله** "[1]

ويلهجُ به في كلامهِ لكونِ حالتهُ تذهبُ إليهِ في كلِّ شيءٍ ويسوقُ الخلقَ إلى اللهِ بما أمكنَ ويكتفي بما يحدثُ في الأنسانِ من قابليةِ الخيرِ ولو لم فيه منهُ إلَّا وصفٌ واحدٌ ويقولُ

" **العارفُ إذا وجدَ فيك خصلةً واحدةً من الخيرِ كالحياءِ أو السَّخاءِ أو شيءٍ من المحبَّةِ مثلاً أو سلامةِ الصَّدرِ أو صدقِ اللَّهجةِ أو نحوِ ذلك عاملَك لأجلهِ وأخذَ بيدِك وحنَّ عليك** "

[1] . سبق تخريج الحديث ص147.

ويقولُ

" إنَّ اللهَ يرحمُ العبدَ بسببٍ وصفٍ واحدٍ ورحمةُ اللهِ غالبةٌ تلتمسُ السَّببَ, فإذا وجدتْ أدنى شيءٍ منهُ نزلتْ "

وإذا شكا لهُ أحدٌ نفسَهُ وذكرَ سوءَ حالهِ وقبيحَ فعالهِ، جذبَهُ من النَّظرِ إلى ذلك إلى النَّظرِ إلى رحمةِ اللهِ وعرَّفَهُ أنَّ اللهَ يرحمُ بلا سببٍ ثُمَّ يذكرُ قولَ سيّدي أبي الحسنِ الشَّاذلي ﷺ

" أنْ لم نكنْ لرحمتِك اهلاً أنْ ننالَها فرحمتُك أهلٌ أنْ تنالَنا "

ويقولُ

" فائدةُ العبدِ مساويه أنْ يعلمَ منَّةَ ربِّهِ عليهِ ويتحقَّقَ بفضلهِ وإحسانهِ حيث يجدُ نفسَهُ لا يعملُ خيراً أو هو مع ذلك مُعافى مُنعَمٌ عليهِ سابحٌ في بحرِ الفضلِ والإحسانِ "

ويقولُ

" لا ينبغي للإنسانِ أنْ يُكثرَ من النَّظرِ إلى مساويءِ النَّفسِ غافلاً عمَّا عليهِ من نعمةِ اللهِ، وإنَّ النَّاظرَ في ذلك كالباحثِ بيدهِ في مزبلةٍ، إمَّا أنْ يجدَ خنفساءَ أو دوداً أو نحوَ ذلك ممَّا يتولَّدُ من العفوناتِ "

ويمثِّلُ النَّفسَ بوعاءِ كرشِ الإنسانِ الحاملِ لفرثهِ ويقولُ

" إنَّها لا تظهرُ حتَّى يظهرُ ذلك الوعاءَ بل يقولُ أنَّها عينُ النَّجاسةِ لا تظهرُ أبداً, وإذا ظهرتْ على العبدِ أوصافُ كمالٍ فتلك أبوابُ منحٍ من الحقِّ سبحانَهُ جعلَها عليهِ لا من قِبلَ نفسهِ ولا لقابليةٍ فيها مُنحتْ ذلك لأجلِها ".

وإذا تكلَّمَ امامَهُ أحدٌ بما يشيرُ إلى الدَّعوى وثناءٍ منهُ على نفسهِ قابلَهُ بالعكسِ وجعلَ يتكلَّمُ معهُ في عيوبِ النَّفسِ وينفِّرُ لهُ عن دسائسها وخسائسها وحقائقِها ودقائقِها وغلطاتِها وورطاتِها وجهالاتِها وضلالاتِها ويقولُ

" إنَّها لا تحبُّ أنْ تتصفَ بالنقائصِ التي هي شأنُها أبداً تنازعُ في أوصافِ الرُّبوبيةِ كالكبرياءِ أو العظمةِ مع أنَّها لا تحصي معايبَها ولها من النَّقائصِ مثل ما للهِ من الكمالاتِ"

يعني لا نهايةَ لها, ولولا أنَّ اللهَ يحولُ بين المرءِ وبينها لهلكَ، ولو أنَّهُ خلَّى سبيلَها لكفرَ باللهِ كما كفرَ بأنعمهِ ويقولُ

" إذا أرادَ اللهُ هلاكَ العبدِ وكلَّهُ إليها لم يزدْهُ شيئاً, وإذا أراد رحمتَهُ عرَّفهُ نعمتَهُ وألهمَهُ شكرَها وجنَّبهُ نكرَها وذلك هو أصلُ كلِّ خيرٍ "

وما جاءَهُ أحدٌ مُظهراً للرَّجا غافلاً عن اللجا إلَّا خوَّفَهُ من سطوةِ اللهِ وقهرهِ وسرعةِ نفوذِ قضائهِ وأمرهِ حتَّى يذهبَ خائفاً مذعوراً, وما جاءَهُ خائفاً أو لاهفاً إلَّا سلَّاهُ ورجاهُ وعرَّفَهُ فضلَ مولاهُ حتَّى يذهبَ فرِحاً مسروراً، يريدُ بذلك جمعَ العبدِ في الحالتينِ على مولاهُ وأنْ لا يقفَ مع شيءٍ سواهُ, وإذا أدَّعى بين يديهِ أحدٌ المحبَّةَ قالَ لهُ

" من علامةِ المحبَّةِ السَّعيُ في رضا المحبوبِ والوقوفُ عند أمرهِ ونهيهِ واتِّباعِ قولهِ وفعلهِ"

وينشدُ قولَ القائلِ

تعصي الإلهَ وأنت تُظهرُ حُبَّهُ	هذا محالٌ في القياسِ بديعُ
لو كان حبُّك صادقاً لأطعتَـهُ	إنَّ المُحبَّ لمَنْ يحبُّ مطيعُ

وربَّما يذكرُ شطرَ أمنهِ وينسى بقيتَهُ فيُكمِّلهُ لهُ، وإذا ذكرَ لهُ أحدٌ عن نفسهِ عملاً صالحاً لامَهُ على ذكرهِ أو عرفَّهُ بما جهلَ من أمرهِ فأخرجَ لهُ دسائسَ ذلك العملِ مبيناً دخائلهُ حتَّى يتبين لهُ أنَّهُ معلولٌ مدخولٌ لا يتركُ لأحدٍ يعتمدُ عليهِ ولا عملاً يستندُ إليهِ ولا حالةً يأنسُ بها ولا الرَّكونَ بشيءٍ إلَّا بفضلِ الله ورحمتهِ ويستشهدُ كثيراً بقولِ والدهِ الشَّيخِ سيّدي مُحمَّد ﷺ عن شيخهِ سيِّدي يوسفَ الفاسي نفعنا اللهُ به

" ما عندنا شيءٌ إلَّا رحمةَ اللهِ وشفاعةَ رسولِ اللهِ ﷺ ".

جَمعُهُ ﷺ لِلخَلقِ على الله

ويدلُّ على اللهِ بصحبةِ أهلِ اللهِ الدَّالينَ على اللهِ الجامعينَ عليهِ والموصلينَ إليهِ ويذكرُ قولَهُ تعالى

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[1]

وحديث

" **المرءُ على دينِ خليلهِ** "[2]

ويقولُ

" **أصلُ كلِّ خيرٍ الخلطةُ والنِّعمةُ، كُلْ ما تشاءُ فمثلهُ تعملُ, وخالطْ مَنْ شئتَ فمثلهُ تفعلُ** "

ويستشهدُ على ذلك بقولِ شيخِ شيخهِ سيّدي عبدِ الرَّحمنِ بنِ مُحمَّد الفاسي ﷺ على سبيلِ ضربِ المثلِ

" خالطِ المبتلينَ تُبتلى "

يريدُ أنَّ مَنْ خالطَ مبتلى بشيءٍ عدا عليهِ ذلك الشَّيءُ كائناً ما كان فإذا خالطَ ذا محبَّة صار محبَّاً وذا حالٍ صار كذلك وهكذا, وشكوتهُ يوماً سوءَ حالي فأرشدني إلى مجالستهِ وأشارَ عليَّ بها ولم يزدْ على ذلك، وحضر فيها الدَّواءُ والعلاجُ ولاشكَّ أنَّ مجالستَهُ ﷺ ترياقٌ مجرَّبٌ للأمراضِ القلبيةِ والعللِ النَّفسيةِ

---

1 . الكهف (28)

2 . أخرجهُ الإمام أحمد في مسنده وقال الإمام النووي حديث صحيح.

وكم تعرِضُ لنا ولغيرِنا أمراضٌ معنويةٌ، وتتراكمُ على القلبِ ظلماتٌ رديَّةٌ فتنجلي بسببِ مجالستهِ والحمدُ للهِ حقَّ حمدهِ وكما ينبغي لجلالهِ لا أحصي ثناءً عليهِ.

وكثيراً ما نسمعه يقولُ مشيراً إلى ذلك والى ما يحصلُ منهُ لغيرِنا من المرضِ

" إذا اجتمعَ حادثٌ وحادثٌ كان أمرٌ ثالثٌ "

وسمعتهُ يقولُ في ذلك المعنى أيضاً

" النَّظـــرُ في التَّقي استقامـــةٌ وفي المخصوصِ كرامةٌ "

ويقولُ ما معناهُ

" مـــن رحمةِ اللهِ بعبدهِ وعنايتهِ بـــه أنْ يُسخِّرَ لهُ قلبُ مخصوصٍ من عبادهِ "

ويذكرُ كثيراً قولَ الشَّيخِ ابنِ عبَّادة ﷺ في دعائهِ بالأسماءِ الحُسنى

" يا ودودُ يودُّ أولياءَهُ وأصفياءَهُ المقربينَ، أجعلْ في قلبي ودَّاً لك واجعلْ لي ودَّاً في قلوبِ المؤمنينَ "

ويستحسنهُ جداً ويقولُ

" هو الذي علِمِ قدرَ هذه المسألةِ وقيمتها حيثُ دعا بها) ويقولُ (كلُّ النَّاسِ يحبُّونَ المخصوصَ والحكمةُ أنْ يحبَّك المخصوصُ "

ويذكرُ قولَ بعضِهم

" مَنْ لم يلقَ صاحبَ بصيرةٍ لم تُفتحْ لهُ بصيرةٌ ".

ويقولُ

" ليس شيخُك من تجعلُ بينك وبينهُ عهداً بلسانِك وتعتقدُ مشيختهُ بجنابِك إنَّما شيخُك من جذبَك من قلبِك وأخذَ بمجامعِ لُبِّك ونفعتْكَ نظرتهُ وحاطتْك همَّتهُ "

ويخاطبُ كلَّ واحدٍ على قدرِ فهمهِ وعلى حسبِ علمهِ وما يليقُ بحالهِ وينبغي لأمثالهِ, فيخاطبُ الجاهلَ بالتَّعلُّمِ والعالِمَ بالعملِ وذا المعصية بالتَّوبةِ وذا الطَّاعةِ

بعدم النظر إليها وبرجاء رحمة الله تعالى فيهما, ويعجبه المشفق من عصيانه ويرقُّ لهُ ويحنُّ عليهِ ويدلُّ على اللهِ بكلِّ حالٍ ويقولُ

" في كل من الطاعة والمعصية دلالة على الله, فالطاعة تدعوا إلى شكر الله والمعصية تلجئ للتوبة إلى اللهِ والنِّعمةِ والنِّقمةِ كذلك هذه تفرحُك بمولاك والأخرى ترفعُ بها إليهِ شكواك "

ويذكرُ قولَهم

" مَنْ لم ينقدْ إلى اللهِ بسوابغِ الإمنانِ سيقَ بسلاسلِ الإمتحانِ "

ويجيدُ الكلامَ في هذا الأسلوبِ جدَّاً ويتفنَّنُ في الدَّلالةِ على اللهِ تفنيناً ويتلوَّنُ فيها تلويناً ويبيِّنُ فيها كيفياتِ طرائقَ وخفياتِ حقائقَ, فتارةً يأتيها من حيث الأرضياتِ وتارةً من حيث السَّماوياتِ ويوضِّحُ في طريقِ الجذبِ والسُّلوكِ لأهلِهما مهامَهُ فيها تارةً تصريحاً وتارةً تلويحاً, ويجري في كلامهِ من ذلك ما لا تدركهُ العقولُ ولا تحيطُ به النُّقولُ.

مجالسهُ في ذلك رياضٌ مزهرةٌ كلُّ مجلسٍ, وما يتبقَّى فيه بحسبِ حُكمِ الوقتِ, وما يفتحهُ اللهُ لهُ وعلى يدهِ من أرزاقِ الحاضرين، وربَّما يقرِّرُ في المجلسِ الواحدِ من ذلك أنواعاً منوَّعةً من معارفٍ وأسرارٍ وتذكرةٍ واعتبارٍ وحملٍ على شكرٍ واصطبارٍ وسكونٍ تحت مجاري الأقدارِ، وحملٍ على العملِ وتركِ الأملِ وترغيبٍ وترهيبٍ وتقريبٍ وتحبيبٍ وتبشيرٍ وتحذيرٍ وترجيةٍ وتيسيرٍ كلُّ ذلك ممَّا يجري في محفلٍ واحدٍ، فيأخذُ منهُ كلُّ من الحاضرينَ نصيبَهُ وينتفعُ به كلٌّ على قدرِ حالهِ.

وقد يغلبُ عليهِ في المجلسِ الواحدِ نوعٌ واحدٌ منها، وتجدهُ إذا تكلَّمَ في بابٍ من أبوابِ الدَّلالةِ أمتعَ فيه جدَّاً وأوسعَ فيه المجالَ وشفى منهُ صدورَ الرِّجالِ بعبارةٍ واضحةٍ وإشارةٍ حسنةٍ وأمثالٍ عجيبةٍ وبيانٍ يسحرُ الألبابَ ويقضي منهُ بالعجبِ العُجابِ.

قَولُهُ ﷺ في التَّوبة

يتكلَّمُ بعبارةِ النَّاسِ الجاريةِ بينهم ويُبيِّنُ لهم بلسانِهم فَيفهمُ عنه العالمُ والأُمي والفطنُ والغبي، ويُبيِّنُ لهم مراتبَ الدِّينِ ومقاماتِ اليقينِ، ويريهُم الطَّريقَ الموصلةَ إليها والمقدمةَ المنتجةَ لها يبينها مقالاً ويبثُّها في القلوبِ حالاً, فيُبيِّنُ التَّوبةَ وكيفيتَها وما يوصلُ إليها والزُّهدَ وسببهُ والشُّكرَ والصَّبرَ وكيفيتَهما وسببهما, والرِّضى والمحبَّةَ وكيفيتَهما, وترْكَ التَّدبيرِ والاختيارِ مع اللهِ, وهذان الأخيران عمدةُ كلامهِ ومدارُ مرامهِ ويبرهنُ على كلِّ ذلك بما لا يجهلهُ أحدٌ ويُبيِّنُ مواقعَ كلِّ ذلك بما يعلمهُ كلُّ أحدٍ حتَّى يعلمَ كلَّ ذلك عِلماً ويحصلُ ذوقاً وفهماً ويباشرُ القلبَ يقيناً وجزماً.

ذلك ديدنهُ وشعارهُ ودأبهُ وتسيارهُ, ناجحٌ للعبادِ حريصٌ على الهدايةِ لهم والإرشادِ, يصرفُ وجوهَ الغافلين بالوجهةِ إلى اللهِ ويوقظُهم للتَّوبةِ, ويُحي قلوباً أماتَها الهوى بمددِ الإيمانِ والمحبَّةِ، ويحثُّهم إليها حثيثاً ويرغبُهم فيها فعلاً وحديثاً ويتلو عليهم ما وردَ فيها آيةً آيةً وحديثاً حديثا.

وكم واحدٍ تابَ على يدِهِ ورجعَ عن سوءِ عملهِ بعد أنْ كان منهمكاً في عصيانهِ مستغرقاً في الغفلةِ سائرَ أحيانه, فيأتي الرَّجلُ للزَّاويةِ مستجيراً بسببِ جنايةٍ جناها فتمرُّ عليهِ بها أيَّامٌ فإذا هو تائبٌ, ويأتي الرَّجلُ فيعملُ لهُ عملاً من أعمالِ معصرتهِ أو جنانهِ فيراهُ ويسمعُ من حديثهِ وكلامهِ فيتوبُ لحينهِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ويحسنُ حالَهُ فلا يعودُ يفعلُ شيئاً ممَّا كان يفعلهُ من المخالفاتِ وما أشدَّ إعيائهِ بطالبِ التَّوبةِ, فإذا جاءَهُ صرفَ كُليتَهُ إليهِ وأشفقَ منهُ وعطفَ عليهِ ويذكرُ حديثاً

" للهُ أفرحُ بتوبةِ أحدِكم من أحدِكم بضَّالتهِ إذا وجدَها "[1]

ويقولُ

" أنظرْ كيف أكَّدَ اللهُ أمرَها اهتماماً بشأنِها فكرَّرها في موضعٍ واحدٍ مرتينِ ".

فقال تعالى

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ* وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾[2]

وانظرْ هذه الرَّحمةَ منهُ سبحانَهُ لعبدِهِ حيث لا يريدُ أنْ يعذبَهُ بالمعصيةِ وإنَّما يريدُ أنْ يتوبَ عليهِ ليرحمَهُ فما أوسعَ هذا الأفضالَ وأجزلَ هذا النَّوالَ من الكريمِ جلَّ جلالَهُ.

ويقولُ في شأنِ التَّوبةِ أيضاً

" التَّائبُ يحبُّهُ اللهُ وأيُّ شيءٍ يكونُ أحسنَ ممَّنْ يحبُّهُ اللهُ "

قالَ تعالى

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[3]

وقالَ يوماً وقد شكوتهُ ما أنا عليهِ من المخالفاتِ

" ليسَ يمكنُ الأنسانُ أنْ لا يذنبَ بل المطلوبُ منهُ إذا أذنبَ أنْ يستغفرَ "

ثُمَّ تلى قولَهُ تعالى

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ *أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ

---

[1] . الحديث رواهُ الإمامُ مسلم في صحيحه بلفظ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: " قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي، وَاللهِ لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلَاةِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي، أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ "

2 . النساء (26– 27)

3 . البقرة (222)

مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾[1].

ثُمَّ قالَ لي

" انظرْ كيف جعلَ جزاءهم الجنَّةَ ثُمَّ مدحهم بمدحِ جزائِهم على أيِّ شيءٍ ذلك أنْ أذنبوا فطلبوا النَّجاةَ لأنفسِهم, وسمَّاهم العاملين أيَّ شيءٍ عملوا "

فانبسطتْ نفسي وسررتُ بهذه الآيةِ الكريمةِ وبما سمعتُ منهُ في تقريرِها وكأنِّي لم أسمعْها قطُّ قبل ذلك.

ويرشدُ الغافلَ البعيدَ عن التَّوبةِ إلى مقدمتِها وما يوصلُ إليها فيُبيِّنُ لهُ مساويهِ وما هو عليهِ حتَّى يتَّضحَ لهُ ذلك ويغتمَّ لأجلهِ ويهتمَّ بالتَّوبةِ ويطلبُها, وينبِّهُ على آفةٍ هنا تصدُّ النَّاسَ اليومَ عن التَّوبةِ وهو أنَّهُ يقولُ

" ما بالُ الإنسانَ يشتغلُ بالمعاصي دائماً فإذا ذكرَهُ أحدٌ يوماً ما أو تذكَّر في نفسهِ قبْحَ فعلَهُ قالَ إنَّ اللّهَ غفورٌ رحيمٌ وهلَّا علمَ أنَّهُ شديدُ العقابِ كما علمَ أنَّهُ غفورٌ رحيمٌ "

ويتلوا قولَهُ تعالى

﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾[2]

ثُمَّ يقولُ

" ما موجبُ ذكرِ الإنسانِ المغفرةَ في هذا الموطنِ إلَّا ليُوسِّعَ على نفسهِ فيتمادوا الى قبيحِ فعلهِ ولو علمَ حقيقةَ أنَّ اللّهَ غفورٌ لهُ رحيمٌ به لاستحيى منهُ فما عصاه "

وقلتُ لهُ يوماً

" يا سيِّدي رزقنا اللّهُ تصبينة "[3]

أعني بذلك التَّوبة

فقالَ لي

---

1 . آل عمران(135– 136)

2 . الحجر(49– 50)

3 .تصبينة باللهجة المغربية تعني غسل الثياب

" رزقنا الله تكفيسة "[1]

فقلت لهُ يا سيّدي كيف تطلبُ التَّكفيسَ؟

فقال لي

" الإنسانُ لا يطلبُ غسلَ ثيابهِ حتَّى يعلَم أَنها قد أسودَّتْ فحينئذٍ يطلبُ الطَّابورَ ولا يقدرُ أنْ يتركَها كذلك البتَّةَ "

يريدُ أنَّ الإنسانَ لا يطلبُ التَّوبةَ حتَّى يتنبَّهَ لسوءِ فعلهِ ويتحقَّقَ به ويشفقَ منهُ فحينئذٍ يطلبُ طلباً حقيقياً وكثيراً ما يمثلُ مرضَ المعصيةِ بالمرضِ الحسِّي ويقولُ

" إنَّ الإنسانَ إذا أصبحَ مريضاً جعلَ يطلبُ الحيلةَ للدَّواءِ ما أمكنَهُ ولا يفترُ عنهُ وتراهُ يصبحُ ويمسي على أبوابِ الأطباءِ متملّقاً عسى أنْ ينفعوهُ بشيءٍ، ولو تحقَّقَ أنَّهُ مريضُ القلبِ بعصيانهِ للهِ عزَّ وجلَّ وأنَّهُ معاقبٌ لامحالةَ على فعلهِ لطلبَ التَّوبةَ بكلِّ وجدٍ طلبهُ للدَّواءِ إذا مرضَ ولكنَّ الإنسانَ ساهٍ في غفلتهِ لاهٍ بدنياهُ وهو يحسبُ أنَّهُ طالبٌ للدِّينِ وهيهات ذلك ".

قَولُهُ ﷺ في الخِلطةِ وتَحذيرهِ مِن مُخالطةِ أقرانِ السُّوء

ويحذِّرُ من مخالطةِ أقرانِ السُّوء وغيرِهم, يحذِّرُ منها الغافلين مخافةَ أنْ يزدادوا بها غفلةً والمتنبهين مخافةَ أنْ يصدُّوا عمَّا هم بصدده, ويطيلُ الكلامَ في تقبيحِها لكونِها من أعظمِ الفتنِ ويُبيِّنُ آفاتِها وضررِها على الإنسانِ من أنَّهُ لا يقرُّ معها في الصَّدرِ شيءٌ, ويمثِّلُ مَن نالَ شيئاً من الخيرِ والصَّلاحِ ثُمَّ اشتغلَ بها فمَنْ كان بيدهِ إدامٌ فجعلَ يلمسُ بها الأشياءَ فإنَّهُ لا يبقى ممَّا كان بها شيءٌ,

[1] تكفيسة باللهجة المغربية تطور وتدهور الأمور

ويُمثِل صاحبَها أيضاً بالنَّباتِ الذي تطأهُ الأرجلُ أو لقاحُ الأغصانِ الذي تصيبهُ الأيدي فإنَّهُ يسرعُ إليهِ اليبسُ ولا يتمُّ صلاحهِ.

ويقولُ أيضاً

" الخلطةُ بمنزلةِ المصاهرةُ فكما إنَّ المطلوبَ بالمصاهرةِ أنْ يختارَ الإنسانُ مَنْ يصاهرهُ كذلك في الخلطةِ يختارُ مَنْ يخالطهُ حتَّى العبدُ والأمةُ إذا اشتراهما فليخترْ ايضاً لأنَّ الخلطةَ تعافي لا محالةَ, ألا ترى إلى الثَّوبِ الأبيضِ النَّقي إذا غسلتَهُ أحسنَ غسلٍ وأنقيتَهُ أتمَّ أنقاءٍ، ثُمَّ مسستهُ بها وفركتهُ فإنَّها تؤثِّرُ فيه دنساً ولابدَّ فما بالَك باليدِ الوسخةِ "

ويستشهد كثيراً بقوله ﷺ

" **المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل** "[1]

ويذكرُ أحياناً الشَّطرَ الثَّاني من قولِ القائلِ

أختَرْ لصحبتِك مَنْ أطاعَ   إنَّ الطِّباعَ تسرقُ الطِّباعَ

وأحياناً قولَ الشِّبلي رضي الله عنه

" من علامةِ الإفلاسِ الاستئناسِ بالنَّاسِ "

ولا يحبُّ لأحدٍ بسؤالاتِ المشتغلينَ بالدُّنيا ولا ملاقاتِهم ولا التيامنِ برأيهِم في شيءٍ من الأشياءِ لأنَّهُم لا يدلُّون إلَّا على الدُّنيا، ويذكرُ في ذلك قولَهُ تعالـــــى

﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[2]

ويقولُ

" إنَّ خلطتَهم تثيرُ وهجَ حبِّ الدُّنيا في القلبِ "

ويذكرُ إنَّ بعضَ أهلِ الدُّنيا ممَّنْ يحبُّها كثيراً كان يخالطهُ رجلٌ آخرَ فيخبرُ أنَّهُ إذا جالسَهُ وجدَ بقلبهِ من وجعِ الدُّنيا أمراً عظيماً وأنَّهُ جالسَهُ يوماً فقامَ عنه

---

[1] . حديث صحيح.

[2] . الأنعام (116)

وعليه الحمَّى من كثرةِ ما نزلَ به من الشَّرهِ إلى الدُّنيا، وممَّا اتَّفقَ لي معهُ في ذلك أنَّهُ كان يخالطُني بعضُ التُّجارِ الدُّنيويينَ فرآهُ يوماً أخي يتكلَّمُ معي فنهاني فقلتُ لهُ

" لا يضرُّني هو على شأنه وأنا على شأني "

فقلتُ لهُ ذلك وأنا ذاهب معهُ إلى الزَّاويةِ بقصدِ زيارته ﷺ وذلك قبل ملازمتي لها, فلمَّا جلسنا بين يديهِ قالَ لنا أوَّلَ ما تكلَّمَ معنا

" لا أحمقَ ممَّنْ يخالطُ النَّاسَ ثُمَّ يقولُ لا يضرُّني في ذلك, نعم الخلطةُ لا تضرُّهُ إذا كان بعد مفارقتِهم لا يعلقُ ببالهِ شيءٌ ممَّا كان يخوضُ معهم فيه ولا تجولُ نفسهُ بعد في شيءٍ منهُ وإلّا فهي مضرَّةٌ ".

فعلمتُ أنَّهُ يريدني ويخبرُ عن شأني وتنكَّرَ حينئذٍ باطني لذلك الرَّجلَ ودفعَهُ اللهُ عنِّي من يومئذٍ فلم يكنْ يتردَّدُ الي كما كان من قبل.

وكان ﷺ يوماً يتكلَّمُ مع بعضِ الأصحابِ فقالَ لهُ

" أتدري ما الخلطةُ " ؟

فقال

" الخلطة هي الكلمة الواجزة "

وقال في كلامٍ لهُ عن الخلطةِ

" الحديثُ رضاعُ النُّفوسِ والرِّضاعُ يغيِّرُ الطِّباعَ "

ويذكرُ عن بعضِهم أنَّهُ كان يقولُ

" لولا خفتُ أنْ أُحدِثَ في الدِّينِ ما ليسَ منهُ لقلتُ الخلطةُ حرامٌ لكثرةِ ما تنشأ عنها من الضَّررِ لاسيَّما اليومَ "

إلى غيرِ ذلك من كلامهِ فيها, ويحذِّرُ من حبِّ الدُّنيا وينفِّرُ عنه لكونهِ قاطعاً عن اللهِ وصادّاً عن الوجهةِ إليهِ ويقولُ

" هؤلاء النَّاسُ يعني العارفينَ المنفردةُ قلوبُهم لمولاهُم إنَّما كرهوا هذه الدُّنيا لكونِها تفرِّقُ بينهم وبين محبوبِهم "

ألا ترى أنْ الإنسان مثلاً إذا كان لهُ محبوبٌ يحبُّهُ جداً فاشتاقَ يوماً لرؤيتِهِ وأزعجتْهُ المحبَّةُ لزيارتهِ فذهبَ كذلك مسرعاً إليهِ يريدُ المبادرةَ للقائهِ فلقيَهُ رجلٌ آخرَ في الطَّريقِ فجعلَ يشغلهُ عنه بحديثٍ أو غيرهِ, هل يرى أثقلَ أو أكره منهُ

ويقولُ

" لا تصحُّ الوجهةُ إلى اللهِ مع بقاءِ شيءٍ من حبِّ الدُّنيا "

ويمثِّلُ القلبَ في ذلك بالآنيةِ متَّى عمرتْ بشيءٍ لا يمكنُ تعميرُها بشيءٍ آخرَ **ويقولُ**

" إنَّ القلبَ كالسَّرجِ لا يحملُ راكبَينِ "

ويقولُ

" إنَّ المتوجِّهَ إلى اللهِ كداخلِ حمّامٍ لا يكونُ عليهِ ثيابٌ "

يعني قد أنفردَ قلبهُ لمولاهُ وتجرَّدَ عن سواهُ لم تبقَ لهُ علاقةٌ تجذبهُ ولا أمنيةٌ تصحبهُ, ويذكرُ قولَ الشُشتري ﷺ

" عريانٌ نريدُ نمشي أجل شيء"

ويقولُ

" لا يطمعُ الإنسانُ في شيءٍ من الطَّريقِ يوماً بقيَ في قلبهِ حبُّ الدُّنيا ومتى فتَّشَ الإنسانُ قلبَهُ فوجدَهُ يحبُّ الدُّنيا فليعلمْ أنَّهُ لا شيءَ عندَهُ، الضِّدانِ لا يجتمعان "

ويذكرُ عن والدهِ ﷺ أنَّهُ كان يقولُ

" ألفات الفقيرُ هو الزُّهدُ في الدُّنيا "

يعني أنَّ حروفَ الهجاءِ التي هي أوَّلُ ما يبتدِئُ به متعلِّمُ القرآنِ هي بمثابةِ رفضِ الدُّنيا للفقيرِ المتوجِّهِ إلى اللهِ.

وإذا سئلَ أحياناً ما وجهُ تعذُّرِ الدِّينِ علينا ؟

قالَ

" حبُّ الدُّنيا "

ثُمَّ يذكرُ الحديثِ

" حبُّ الدُّنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ "

وتارةً يقولُ

" الخلطةُ "

وكثيراً ما يقولُ

" ما عطَّلَ الخلقَ وحجبَهُم عن اللهِ إلَّا الغلطُ والجهلُ المركَّبُ وظنُّهم أنَّهم على شيءٍ وأنَّهم حصلَ لهم الإيمانُ الحقيقي يعني الكاملُ وأنَّهم غيرُ محتاجين إليهِ لزعمِهم تحصيلَهُ "

وانظرْ إلى المؤمنين الكمَّلَ فإنَّهم لا يرونَ أنفسَهم إلَّا في غايةِ الاحتياجِ والاضطرارِ إلى زيادةِ الإيمانِ فعندَ ذلك إذا استغاثوا أُغيثوا

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ "[1]

يعني كلَّما طلبوا زيادةَ معرفةٍ أعطوها لاضطرارِهم في طلبِهم بمشاهدتِهم التَّقصيرَ من أنفسِهم في كلِّ شيءٍ.

وبقدرِ شهودِ التَّقصيرِ يُقوّي الاضطرارَ إلى العالِمِ القديرِ كما قالَهُ هو ﷺ في كلامٍ لهُ آخرَ، وهذه آيةٌ أخرى أبتليَ به الخلقُ اليومَ زيادةً على حبِّ الدُّنيا ومخالطةِ أبناءِ الجنسِ, وكلُّها صارفةٌ عن اللهِ أعاذنا اللهُ من جميعِها ومنَّ علينا بالوجهةِ إليهِ آمين.

وأكثرُها خفاءً وأعضلُها دواءً هذه ولذلك يكثرُ اهتمامهُ ﷺ بالتَّنبيهِ عليها تحذيراً منها حتَّى أنَّهُ إذا شكا إنسانٌ عليهِ عدمَ المعرفةِ مثلاً وعدمِ الطَّاعةِ ونحوهُما قال لهُ

" مالَنا أيَّ شيءٍ فقدناهُ من ذلك "

---

1 . النمل (62)

ثُمَّ يقولُ له

" لو علمنا إنا فقدنا ذلك لم يهنأ لنا عيشٌ ولضاقتْ علينا الدُّنيا بما رحبُتْ ولكنَّنا غافلون عن ذلكُم "

ثُمَّ يقولُ

" ولكنَ اللّهَ ليس بغافلٍ عنَّا "

يعرضُ بذلك كلَّهُ مجالَ المخاطبين, ومن بديعِ صنيعهِ في الخطابِ أنَّهُ إذا أرشدَ أحداً إلى مولاهُ ونبَّههُ على غلطهِ وهَداهُ، نسبَ كلَّ ذلك إلى نفسهِ وأسندَهُ في الخطابِ إليها رفقاً به وحرصاً على إرشادهِ بلطفٍ

﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[1]

ويحذِّرُ من المعاصي القلبيةِ كالكبرياءِ والرِّياءِ والعُجبِ ونحوِها أكثرَ ممَّا يحذِّرُ من الظَّاهرةِ ويقولُ

" أنَّها خفيَّةٌ والأخرى لا تخفى "

قَولُهُ ﷺ في الكِبر والعُجب

ويبالغُ في تقبيحِ الكبرِ والتَّعبيرِ عنه ويقولُ

" إنَّ صاحبَهُ ممقوتٌ وإنَّ بعضَ النَّاسِ يغلبُ عليهم حتَّى تُقبِّحَ وجوهُهم وتفسُدَ خلقتَهم والعياذُ باللّهِ "

ويقولُ

" أنَّهُ من أعظمِ المعاصي القاطعةِ عن اللّهِ وأنظرْ إلى مخالفةِ آدمَ عليهِ السَّلامُ حين نُهيَ عن الأكْلِ من الشَّجرةِ ومخالفةِ إبليسَ لعنَهُ اللّهُ حين أمرَهُ بالسُّجودِ فأبى واستكبرَ, هذا تابَ عليهِ ربُّه وهذا طردَهُ من رحمتهِ وأرداه بينهما ما بينهما "

---

[1] . البقرة (213)

ويشدِّدُ في شأنِ العُجبِ والدَّعوةِ بأنَّهما من المعاصي التي تكبُّ الإنسانَ على وجههِ وتردُّهُ بعد حسنِ التَّقويمِ إلى أسفلِ سُفلٍ، وبأنَّ صاحبَهُما إذا كان حصلَ لهُ شيءٌ من الذَّوقِ كالسَّاقطِ من عالٍ إلى هوَّةٍ لا يخرجُ منها، وقلَّما يفلحُ صاحبُها ويقولُ

" إنَّ المعاصي كلَّها أهونَ من الدَّعوى وإنَّ صاحبَها يُخشى عليهِ والعياذُ باللّهِ سوءَ الخاتمةِ "

ومتى ما ذكرَ ذلك قال

" حسبُنا اللّهُ والعياذُ باللّهِ "

وأكثرَ من التَّعوذِ.

وكثيراً ما يقولُ إذا ذكرَ لهُ أحدٌ عيوبَ نفسهِ وذنوبهِ

" هنالك ما هو أشدُّ وهو العُجبُ "

ثُمَّ يذكرُ الحديثَ

" لو لم تكونوا تذنبون لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العُجب العجب"

وكلُّ المعاصي القلبيَّةِ عنده قواطعُ مهلكةٍ لا يتيسَّرُ معها سلوكُ الطَّريقِ لأنَّ صاحبَها لا يزالُ مصرّاً عليها إذ هي أوصافٌ قائمةٌ بالقلبِ ولأنَّها لا تظهرُ للنَّاسِ فكانت أقربَ إلى النِّفاقِ من الظَّاهرةِ ويقولُ

" إنَّ المريضَ بها كالذي أصابَ منهُ المرضُ الأعضاء الرئيسية يعزُّ دواؤهُ الأعضاء قد يعجَزُ الأطبَّاءُ علاجَهُ وليس مَنْ خرجتْ الثَّآليلُ على سطحِ بدنهِ كَمَنْ خرجتْ بباطنهِ "

وتجدهُ إذا كان يخاطبُ من لا يفعلُ شيئاً من المعاصي الظَّاهرةِ كالسَّرقةِ وشربُ الخمرِ مثلاً يستخرج لهُ من المعاصي القلبيَّةِ مثلها حتَّى يتبيَّنُ لهُ أنَّهُ في معنى الفاعلِ لها, فلا ينزِّهُ نفسَهُ بعدُ عنها، ويقرِّرُ ذلك ويقولُ

" إنَّ الإنسانَ يزعمُ أنَّهُ لا يشربُ الخمرَ، ثُمَّ إذا مُدحَ أعجبَهُ ذلك مفرطاً وعلتْهُ نشوةٌ كبيرةٌ ومدحت نفسهُ وذلك شربُ خمرهِ, وإذا مرَّتْ به أجنبيةٌ لا يباحُ لهُ النَّظرُ إليها جعلَ

يسارقُها النَّظرَ خفيةً من النَّاسِ، وذلك مؤشِّرُ فتنةٍ، ثُمَّ يمرُّ على تقريرِها واحدةً واحدةً ما بين مثلاً وأحسنَ معنى "

تَعريفُهُ ﷺ الخَلق أنفُسهم

ويعرّفُ الإنسانُ نفسَهُ ويريهِ التَّوصلَ من معرفتِها لمعرفةِ ربّهِ وأنَّ اوصافَها مظهرٌ لأوصافِ الحقِ سبحانَهُ حيث كانت على الضدِ منها وأثراً من آثارِها ويقولُ

" إذا تحقَّقَ الإنسانُ بأوصافهِ النَّاقصةِ علِمَ أنَّ الأوصافَ الكاملةَ إنَّما هي للهِ سبحانَهُ, فإذا تحقَّقَ بعجزِ نفسهِ تحقَّقَ بوصفِ القدرةِ لربِّهِ, وبمعرفةِ ضعفهِ يعلمُ أنَّهُ القوي, وبذلَّتهِ يعلمُ أنَّهُ العزيزُ, وبجهلهِ وقلَّةِ علمهِ يعلمُ أنَّهُ العالِمُ المحيطُ بكلِّ شيءٍ علمهِ "

وهكذا يقرِّرُها وصفاً بعد وصف ثُمَّ يقولُ

" وبضدِّها تتبيَّنُ الأشياءُ "

ويقولُ ينبغي للإنسانِ أنْ يكثرُ من هذا الدُّعاءِ يعني لِما فيه من الإرشادِ لهذا المعنى وهو

" يا غني مَنْ للفقيرِ غيرُك ويا قادرُ مَنْ للعاجزِ غيرُك ويا قوي من للضَّعيفِ غيرُك ويا عزيزُ مَنْ للذَّليلِ غيرُك "

ويذكرُ مع ذلك أثرَ

" مَن عرفَ نفسَهُ عرفَ ربَّهُ "

ويقولُ

" التَّحققُ بوصفٍ واحدٍ من هذه الأوصافِ القديمةِ تحقُّقٌ بجميعِها وإنَّ معرفةَ واحدٍ منها ملزومٌ لمعرفةِ سائرِها "

ويُبيِّنُ ذلك أحياناً في بعضِها حتَّى تظهرَ كيفيتهُ ويتحقَّقَ معناهُ للحاضرين ويقولُ

" إنَّ في الإنسانِ العوالِمَ كلَّها "

ثُمَّ يتلوا قولَهُ تعالى

﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[1]

ويُبيّنُ تعرفاتِ الحقِّ سبحانَهُ للعبدِ في نفسهِ ويقولُ

" إنَّ في كلِّ حالٍ من أحوالِ العبدِ دلالةٌ على ربِّهِ "

وأنَّ اللهَ سبحانَهُ خلقَ العبدَ وأحاطَ به العجزُ في حركاتِهِ وسكناتِهِ وسائرِ أحوالهِ وتقلباتهِ, فإذا جلسَ أعياهُ الجلوسُ وإذا قامَ أعياهُ القيامُ, وإذا طالَ النَّومَ قل وإذا أطالَ التَّيقظَ اضطرَّ إلى المنامِ, وإذا توكَّأ أو اضطجعَ أعياهُ التَّوكي والاضطجاعُ, وإذا أكلَ أثقلَهُ الشَّبعُ وإذا تركَ الأكلَ جاعَ, وإذا أطالَ الكلامَ سأمَ وإذا صمتَ ضجرَ, ليكونَ مفتقراً في كلِّ أحوالهِ إلى مولاهُ ويعترفُ بقدرةِ سيّدِهِ وغناهُ وينفضُ يدَهُ من كلِّ ما سواهُ تعرُّفاً منهُ سبحانَهُ إليهِ، وجمعاً لهُ لو شعرَ عليهِ سبحانَهُ الحكيمُ العليمُ الذي أحاطَ بكلِّ شيءٍ علمهُ، ونفذَ في كلِّ شيءٍ أمرهُ وحكمهُ، ويُبيِّنُ كيف تعرَّفَ سبحانَهُ بهذهِ الأمورِ التي تتواردُ عليهم من شدَّةٍ ورخاءٍ وعاقبةٍ وفتنةٍ وخوفٍ وأمانٍ ومرضٍ وصحَّةٍ وتحوُّلِ حالِ القلبِ من قبضٍ وبسطٍ وعزمٍ ونقضِ عزمٍ ويتلوا قولَهُ تعالى

﴿ سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾[2]

ويقولُ

" إنَّ النَّاسَ إذا كانوا في شدَّةٍ احسنَ منهُم إذا كانوا في عافيةٍ لو كانوا يعلمون "

لأنَّهم إذا وسعتْهم النِّعمُ كانوا غافلين لا بل ساهين فإذا مسَّتْهم الضَّراءُ اضطرَّهم ذلك إلى دعاءِ مولاهم جبراً ولا تمكنُّهم الغفلةُ حينئذٍ كما أمكنتْهم مع

---

[1] . الذاريات(21)

[2] . فصلت (53)

النَّعمةِ, فحالُهم حينئذٍ أحسنُ لوقوفِهم ببابِ مولاهم وسؤالِهم منهُ دفعَ بلواهم ويذكرُ قولَهُ تعالى

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾[1].

يعلِّمُ النَّاسَ اليقينَ ويُريهم كيف يعرفونهُ ويتوصلُّون إليهِ ويقولُ

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾[2]

أليس اللهُ برحيمٍ بالعبادِ ألم يحسنُ إلينا سائرَ عمرِنا؟ فما بالُنا نتهمهُ ويذكرُ قولَ بعضِهم

" مذ علمتُ أنَّهُ كريمٌ ما سألتهُ "

ويقولُ

" لو أقسمتَ على اللهِ باسمهِ الأعظمِ أنْ لا يعطيك ما كان قسمَ لك لأعطاك إيَّاهُ, ولو طلبتَ ما لم يقسمْهُ لك لم تنلْهُ أبداً جفَّ القلمُ بما أنت لاقٍ "

ويذكرُ كثيراً قولَ الشَّيخِ سيِّدي أبي الحسنِ الشَّاذلي ﷺ لبعضهم وقد سألَهُ عن الكيمياءِ التي عنده

" أقطعْ يأسك من ربِّك أنْ يعطيك غيرَ ما قسمَ لك "[3]

ويقولُ

" إنَّ اللهَ يختبرُ بالفاقةِ وبتيسيرِ شيءٍ من محضِ الحلالِ، فإذا صبرَ قليلاً فتحَ لهُ فتحاً لم تصبْهُ خصاصةٌ بعده"

ويقولُ

" إنَّ الشيءَ إذا أطلقَ على الإنسانِ من عندِ اللهِ وبتسخيرٍ منهُ دامَ استمرارهُ ولم ينقطعْ "

---

1 . فصلت (51)

2 . الزمر (36)

3 . قول الشيخ الشاذلي ﷺ (أسقطِ الخلق من قلبك، واقطعِ الطَّمعَ من ربِّك أن يعطيَك غيرَ ما سبق لك).

ويقربُ ذلك بالتَّمثيلِ بالأمورِ المشاهدةِ ويقولُ

" انظرْ إلى الماءِ لمَّا أطلقَ اللهُ عليهِ الجري جرى فهو لا يقفُ ولا ينفدُ أبداً، وأنظرْ إلى السَّماءِ حيث أمسكَها فهي كذلك أبداً، وكذا وكذا "

وأشرفَ عليَّ مرَّةً وأنا أتكلَّمُ مع بعضِ النَّاسِ على زيارةِ سيّدي أبي يعزى نفعنا اللهُ به لأمرٍ دنيوي فقال لي

﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾[1].

وكثيراً ما يقولُ

" مَن كان لهُ سيِّدٌ ينفقُ عليهِ وذلك السَّيِّدُ غني كيف يخشى الضَّياعَ "

ويحكي في ذلك على سبيلِ التَّذكيرِ والتَّقريبِ حكايةً فيقولُ

"كان بعضُ المماليكِ في زمنِ الغلاءِ يظهرُ عليهِ الفرحُ والسُّرورُ فقال لهُ بعضُ مَن رآه كذلك مالك لا تبالي بما النَّاسُ فيه؟

فقال لهُ إنَّ سيِّدي غني فلا عليَّ من ذلك ".

ثُمَّ يقولُ أعني سيِّدَنا أحمدَ

" أنظرْ إلى هذا مع أنَّ سيِّدهُ ذلك يمكنُ أنْ يُعدمَ فلا يجدُ ويعجزُ فلا يقدرُ فكيف بنا نحن مع ملكِ الملوكِ الذي لا تنفدُ خزائنهُ ولا يدركهُ عجزٌ ولا افتقارٌ؟ تعالى اللهُ الملكُ الحقُّ "

ويدلُّ على اللهِ برحمةِ اللهِ ويُعرِّفُ النَّاسَ إيّاها ويقرِّبُ ذلك للأفهامِ برحمةِ الوالدِ للولدِ ويقولُ

" انظرْ كيف تجدهُ يحنُّ عليهِ منذُ خُلقَ إلى شبابهِ إلى كبرهِ ويحرصُ على إيصالِ الخيرِ إليهِ ودفعِ المضارِّ عنه ويحرسهُ من الآفاتِ ما أمكنهُ ويحدبُ على خدمتهِ وإطعامهِ وأكسائهِ، ولو نالتهُ في ذلك المشقَّةُ الفادحةُ ويتمنَّى لهُ من الخيرِ أكثر ما يتمنَّى لنفسهِ ولو لم

[1] . النجم (26)

ينفعُهُ بشيءٍ, ويشفقُ عليهِ ويرقُّ لهُ إذا مرضَ غايةَ الشَّفقةِ والرأفةِ, أفتكونُ شفقتهُ عليهِ ورحمتُهُ لهُ أعظمَ من شفقةِ اللهِ لعبادهِ ورحمتهِ إيَّاهُ "

ويذكرُ حديثَ

" للهُ أرحمُ بعبادهِ من هذهِ بولدِها "

ويذكِّرُ النَّاسَ بنعمةِ مولاهم وما خولَّهم وأولاهم يرشدُ بذلك إلى محبَّةِ اللهِ سبحانَهُ، والحياءُ منهُ أنْ يُعصى بسببِ ما أسداه لعبادهِ وما يجريهِ عليهم دائماً وأبداً من أفضالهِ وإحسانهِ ويتلوا

﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[1]

ويكثرُ الكلامَ في ذلك جلَّ أوقاتهِ وغالبَ أحيانهِ، ويطيلُ المجالَ فيه ويُبيِّنُ ما هو مستمرٌّ على العبدِ دائماً وأبداً من نعمةِ النَّفعِ والدَّفعِ والمحسوسةِ والمعنويةِ والظَّاهرةِ والباطنةِ، يُفصِّلُ كلَّ ذلك تفصيلاً ويأتي عليهِ بياناً وتحصيلاً فيُبيِّنُ أنَّ الإيمانَ من النِّعمِ الباطنةِ الدَّائمةِ المستمرَّةِ على العبدِ, وأنَّ اللهَ يمدُّهُ به في كلِّ لحظةٍ لحظة، ويمسكهُ سبحانَهُ عليهِ كلَّ خطرةٍ خطرة، ولم يسلِّطْ عليهِ فيه شيطاناً مريداً يفسدهُ عليهِ ولا جبَّاراً عنيداً يسلبُ عنه ما منهُ لربِّهِ عنايةً منهُ سبحانَهُ به ورحمةً وفضلاً ونعمةً، ولو سلِّطَ الشَّيطانُ على افسادهِ كما سلَّطهُ على إفسادِ الأعمالِ لكفر كثيرٍ من النَّاسِ بعد أيمانِهم وانقلبوا بعد ربحِهم إلى خسرانِهم ولكنَّ اللهَ امتنَّ بحفظهِ على الإنسانِ كما أمتنَّ بتخصيصهِ به بسابقِ الفضلِ والإحسانِ ويقولُ

" انظرْ بأيِّ سببٍ استحقَّ العبدُ هذه النِّعمةَ حيث أعطيها يومَ قُدِّرتِ المقاديرُ، وقُسِّمتْ القِسمَ حيث لا وجودَ لذاتهِ هنالك ولا عملَ يتقرَّبُ به إلى مُعطيها ولا شيءَ يُدلي به أو يستندُ إليهِ بل هو محضُ الجودِ والإمنانِ والفضلِ والإحسانِ "

ويذكرُ قولَ ابنِ عطاءِ اللهِ في قصيدتهِ البائيَّةِ

---

[1] . لقمان (20)

ويومَ ألستُ فأذكرْ يا حبيبي

وقولهُ في قصيدةٍ أخرى

وودّي فيك لو تدري قديـــمٌ   ويومَ ألستُ يشهدُ بانفرادي

ويقولُ لو شعرَ الإنسانُ بهذهِ النَّعمةِ وعرفَها لأستغرقَهُ الفرحُ باللهِ، واستولى عليهِ سلطانُ المحبَّةِ والشَّغفِ بهذا المُعطي الكريمِ والمولى العظيمِ الذي خلقَ فهدى وتفضَّلَ فأعطى وخصَّصَ أزلاً واجتبى, ثُمَّ يقولُ

" ولهذا وقعَ ما وقعَ لهؤلاء البهاليلِ المجذوبين من الغيبةِ لمَّا شاهدوا هذه الأزليَّةَ والرَّحمةَ الإلهيَّةَ ذهبَ قلبُهم وغابوا عن محسوسِهم ومستلذاتِ نفوسِهم فهاموا وتولَّهوا وصاروا يبولون على أنفسِهم وهم لا يشعرون "

ويقولُ أحياناً

" إنْ لم ينفذِ الإنسانُ إلى هذه النَّظرةِ فلينظرْ إلى ما يجريهِ اللهُ عليهِ في الظَّاهرِ من الأقواتِ والأرزاقِ والأطعمةِ والأكسيةِ التي لم يعطِها كثيراً من النَّاسِ, ولقد أمرُّ على بعضِهم راقداً في محجَّةِ الطَّريقِ على التُّرابِ زمنَ البردِ وهو يسألُ النَّاسَ فأقولُ في نفسي بأيِّ شيءٍ استحققتُ هذه النِّعمةَ يا سيِّدي يا مولاي فلك الحمدُ "

ويذكرُ حديث

" أحِبوا اللهَ لما يغدوكم به من نعمهِ "[1]

ويقولُ

" قد أعتادَ النَّاسُ النِّعمَ فصارتْ لهُ عاديةٌ لا يحسبُها نِعماً، فإذا أوتيَ شيئاً لم يدرِ أنَّهُ أُنعمَ به عليهِ حتَّى يستوجبَ منهُ شكراً وهذه جوارحهُ وقواهُ مسخرَّةٌ عليهِ بتسخيرِ اللهِ سبحانَهُ يتصرَّفُ فيها كيف شاءَ لا يتعذرُ عليهِ منها شيءٌ، وهو لا يبالي كأنَّ ذلك يجبُ أنْ يكونَ كذلك, ولا يتذكَّرُ مَن أنعمَ بها عليهِ فيعترفُ بنعمتهِ حامداً لهُ ولو تعذَّرَ عليهِ منها بشيءٍ لضاقتْ عليهِ الدُّنيا بما رحُبتْ، وكان ذا دعاءٍ عريضٍ"

---

[1] . الحديث رواه الترمذي والبخاري في تاريخه ونصه(أحبُّوا اللهَ لما يغذوكم من نعمه وأحبُّوني بحبِّ الله ..).

ويذكرُ حكايةً لبعضِ الملوكِ مع بعضِ الصَّالحين[1] حيث قالَ لهُ عظْني.

فقال لهُ

" أرأيتَ إنْ منعك اللهُ شربةَ ماءٍ ماكنت تفتدي به " ؟

فقال

" كذا وكذا "

فقالَ لهُ يأبى عليك.

فقال " أعطي كذا وكذا أكثر من الأوَّلِ. فلم يزل به حتَّى قالَ أعطي نصفَ ملكي "

فقال لهُ

" أرأيت أنْ منعك خروجَها ماكنتَ تفتدي به " ؟

فلم يزلْ به أيضاً حتَّى قالَ لهُ أعطي نصف ملكي الأخر.

فقال لهُ

" هذا ملكُك بأجمعهِ لا يساوي شربةَ ماءٍ دخولاً وخروجاً "

وكم يشربُ الإنسانُ من مثلِها كلَّ يومٍ ويقولُ

" ما بالُ الإنسانِ لا يعتبرُ بغيرِهِ وفي كلِّ آفةٍ أصابتْ غيرهُ نعمةٌ عليهِ حيث دفعَها اللهُ عنهُ "

ويقولُ

" إنِّي لأذهبُ إلى بعضِ المرضى أعودُهم بقصدِ أنْ أشكرَ نعمةَ اللهِ عليَّ "

ويقولُ

" إذا رأيتَ المصيبةَ نزلتْ بغيرِك ولم يهمُّكْ أمرُها فأعلمْ أنَّك في نفسِك أكبرَ منها لا يستحقُّها منصبك ألا ترى أنَّهُ لو نزلتْ بمَن هو مثلُك لأهمَّك شأنُها "

---

1 . الحكاية بين الخليفة هارون الرشيد وابن السماك.

ولايزالُ في محافلهِ يعدُّ نعمَ اللهِ على عبدهِ المتَّصلةِ والمنفصلةِ، وما ساقَ لهُ منها في أرضهِ وسمائهِ ثُمَّ يتلوا

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾[1]

وكثيراً ما يقولُ

" النَّاسُ كلُّهم غرقى في بحرِ النِّعمِ إلَّا أنَّهم لا يشكرون "

ثمَّ يتلوا قولَهُ تعالى

﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾[2]

ويحكي كثيراً قولَ والدهِ ﵁

" النَّاسُ في مقامِ الشُّكرِ وهم يحسبون أنَّهم في مقامِ الصَّبرِ "

ويحكي عنه أيضاً قولَهُ

" إذا أرادَ الله بعبدٍ خيراً وأنْ يجعلَهُ من خصوصِ عبادهِ عرَّفَهُ ما عليهِ من النِّعمِ وألهمَهُ شكرَها ولم يزدْهُ شيئاً على ذلك يكونُ به مخصوصاً "

فكلُّ النَّاسِ مُنعَم عليهِ والمخصوصُ مَن شاهدَها ويقولُ

" الشُّكرُ بابُ اللهِ الأعظمُ وصراطهُ الأقومُ "

ولهذا فعلَ الشَّيطانُ بسبيلهِ يصدُّ عنه المؤمنين ثُمَّ يذكرُ شاهداً على ذلك قولَهُ تعالى حكايةً لقولِ اللَّعينِ

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾[3]

ويقولُ

" أقربُ الأبوابِ إلى اللهِ بابُ الشُّكرِ، ومَن لم يدخلْ في هذا الزَّمانِ على بابِ الشُّكرِ لم يدخلْ لأنَّ النُّفوسَ قد غلظتْ "

---

[1] إبراهيم (34)

2 . سبأ (13)

[3] . الأعراف (16-17)

يعني فلا تتأثَّرَ برياضةٍ ولا بطاعةٍ ولا تزجرُ بمحاسبةٍ ولا مناقشةٍ، فإذا استغرقَها الفرحُ بالمُنعمِ غابتْ عن ذلك كلِّهِ وطوتْ مسافتَهُ ويقولُ ترغيباً فيه أيضاً

" كلُّ وعدٍ في كلامِ اللهِ تجدهُ مقروناً بالمشيئةِ إلَّا الشُّكرَ "

فقال تعالى

﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[1]

وأكَّدَهُ بلامِ القسمِ ونونِ التَّوكيدِ ويقولُ لنا عندما يتلوا الآيةَ

" هذه اللَّامُ هنا للقسمِ كأنَّهُ يستفهمُنا فنقولُ لهُ نعم "

ويقولُ

" انظرْ كيف قدَّمَ تعالى الشُّكرَ على الإيمانِ اعتناءً بشأنهِ "

فقال

﴿ ما يَفعَلُ اللهُ بِعَذابِكُمْ إنْ شَكَرْتم وَآمَنْتم ﴾[2]

وربَّما عبَّرَ عن الإيمانِ وبشرَّهُ به كما تشيرُ إليهِ المقارنةُ في هذه الآيةِ فيقــولُ

" الإيمانُ هو الفرحُ بالمنعِمِ "

فيجعلُ الفرحَ الذي هو شكرُ القلبِ إيماناً ولا شكَّ أنِّ الإيمانَ لا يكونُ حقيقياً إلَّا معهُ إذ هو نتيجتهُ ولازِمهُ، وقد يكونُ العطفُ في الآيةِ للتَّفسيرِ فيؤخذُ منها ما قاله ﷺ من الإيمانِ هو الشُّكرُ ويقولُ تعريضاً بالمخاطَبين وتنبيهاً لهم على حالِهم

" ما عرفنا أنَّ اللهَ أنعمَ علينا ولا أحسنَ إلينا ولو عرفنا ذلك لَمُلئتْ قلوبُنا وطارتْ عقولُنا محبَّةً وسرورا وفرحاً وحبوراً "

---

1 . إبراهيم (7)

2 . النساء (147)

ثُمَّ يذكرُ حديثَ

" **جبلتْ القلوبُ على حبِّ مَنْ أحسنَ إليها** "

ومن كلامهِ في ذلك قولُهُ ﷺ

" **ما أرى مَنْ أحسنَ اليك مرَّةً واحدةً تنسى لهُ إحسانَهُ أبداً وما أحسنَ اليك في الحقيقةِ إلَّا ربُّكَ** "

وما ذكرَ لهُ أحدٌ ثناءً على أحدٍ بأنَّهُ أحسنَ إليهِ إلَّا قالَ لهُ

" **واللهِ ما أحسنَ لك إلَّا اللهُ هو الذي سخَّرَهُ عليك ولو شاءَ قبضَ قلبَهُ عنك فلم ينفعْك بشيءٍ** "

يدلُّ بذلك كلِّهِ على شهودِ النِّعمةِ من اللهِ ويرقِّي عن شهودِ الواسطةِ إلى المُنعمِ سبحانَهُ وأنَّهُ لا منعمَ إلَّا هو ولا محسنَ ولا نافعَ سواهُ وإنَّ غيرَهُ لا يملكُ لنفسهِ فضلاً عن غيرهِ ضراً ولا نفعاً ولا جلباً ولا دفعاً ويقولُ

" **لينظرَ الإنسانُ إذا تألَّمَ منهُ عضوٌ من أعضائهِ هل يستطيعُ أحدٌ من أحبابهِ أنْ يرفعَ ذلك الألَمَ عنهُ؟ بل إذا أصابَهُ مرضٌ من الأمراضِ المنفرَّةِ فرُّوا عنه فلم يبقَ لهُ حبيبٌ** "

ويقولُ

" **أقربُ النَّاسِ اليك وأحبّهم فيك وإليك أبواك, وأنت إذا أسأتَ إلى أحدِهما يوماً غضبَ عليك فسبَّبَ لك في الهلاكِ العظيمِ وأدخلَك النَّارَ, واللهُ تعالى تعصيهِ فيرحمُك وتتوبُ إليهِ فيتوبَ عليك دائماً وأبداً** "

ثُمَّ يقولُ

" **واللهِ ما هو الحبيبُ إلَّا اللهَ وما ينبغي لأحدٍ أنْ يحبَّ سواهُ** "

ويقولُ دائماً

" **الكريمُ مَنْ يعطيكَ دائماً من غيرِ سؤالٍ وهو غايةُ الكرمِ، وأكرمُ من ذلك كلِّهِ مَن يعطيكَ وأنت تعصيهِ وليس هو إلَّا الله سبحانَهُ فالله تبارك وتعالى يعطيك دائماً من غير سؤال, وإحسانه غير منقطع عنك على الدوام ويغيثك إذا استغثته وأنت تعصيه وتخالف**

أمره دائماً يا مغيث من عصاه وهذا الخطاب هكذا لا يخاطب به إلَّا الله جلّ جلاله, ولا يكون هذا الكرم إلَّا لهُ "

ويقولُ

" كلُّ مَن يعاملُك ويأخذُ بيدِك فإنَّما ذلك لعلةٍ وغرضٍ حتَّى العارفُ إذا أخذَ بيدِك ورحَمك إنَّما فعل ذلك معك لأجلِ مولاك، وإنَّما رعاك لوجههِ فذلك لعلةٍ أيضاً إلَّا اللهَ سبحانَهُ وتعالى إنَّما يعاملُك ويرحمُك فضلاً وإحساناً وكرماً وأمتناناً لا لأمرٍ سابقٍ "

فلا ينبغي للعبدِ أنْ يعرفَ إلَّا مولاهُ وأنْ لا يرى إلَّا إحسانَهُ ورحماهُ, فهو الذي أحسنَ إليهِ وأجرى مننَهُ عليهِ، يحبِّبُ بذلك كلِّهِ العبدَ في مولاهُ ويرشدهُ إلى أنْ لا يطلبَ سواهُ، ويدلُّهُ على ذلك بما معناهُ لأنَّ المملوكَ لا يطلبُ غيرَ سيّدهِ إلَّا إذا بخلَ عليهِ سيّدهُ أو لم يجدِ السَّيّدَ ما يعطيهِ.

والسَّيّدُ حقيقةً هو اللهُ سبحانَهُ وهذا بالأمرِ أنَّ عليهِ تعالى محالٌ لا يكونان أبداً فكيف يطلبُ عبدَهُ سواهُ أو يلتفتُ بقلبهِ لِما عداهُ، ومَن كان سيِّدهُ متَّصفاً بالغِنى والكرمِ الذينِ لا يزولان لا يخطرُ ببالهِ الاحتياجُ لغيرهِ، يرد العبدُ إلى مولاهُ في كلِّ شيءِ لا يطلبُ إلَّا منهُ ولا يرفع حاجتَهُ إلَّا إليهِ، ولا يتوجَّهُ إلَّا لهُ، ولا يتعلَّقُ إلَّا به ويقولُ

" اللهمَّ أعلِ الهمَّةَ حتَّى لانطلبَ غيرَك "

ويذكرُ قول القائلِ

" متى يستريحُ القلبُ من الرَّدى" ؟

والجوابُ بقولهِ

" إذا صيَّر الهمومَ همَّاً واحداً "

ويفسّرهُ بأنَّ القلبَ لا يستريحُ حتَّى يجمعَ المطالبَ كلَّها في مولاهُ ولا تتعلَّقُ لهُ همَّةٌ بسواهُ, ويدلُّ على اللهِ وحدَهُ وعلى توحيدهِ خالصاً وعلى محبَّتهِ صرفاً ويقولُ

" ينبغي للعبدِ أنْ لا يطلبَ إلَّا مولاهُ مخلصاً لا لحظٍ عاجلٍ ولا آجلٍ ولا لغرضٍ دنيوي ولا أخروي، فإذا طلبَهُ كذلك حصلَ لهُ في ضمنهِ الدُّنيا والآخرةُ "

ويذكرُ حكايتي أبي يزيدٍ البسطامي ﷺ من أنَّهُ قيل في شأنهِ من قِبلِ الحقِّ سبحانَهُ

" كلُّ النَّاسِ يطلبون منِّي إلَّا أبا يزيدٍ فإنَّهُ يطلبُني "

وما وقع لهُ من أنَّهُ طوَّفَ في الملكوتِ العلوي والسُّفلي، فقيل لهُ

" هل استحسنتَ شيئاً " ؟

فقالَ

" لا "

فقيلَ من قبلِ الحقِّ

" أنت عبدٌ حقَّاً ".

ويذكرُ حكايةً لبعضِ الملوكِ يضربُها مثلاً وهي

" أنَّهُ كان غائباً فأتى فدخلَ قصرهُ على جواريهِ فجُئْنَ يُسلِّمنَ عليهِ فجعلَ يقولُ لكلِّ واحدةٍ اطلبي ما تريدين فتطلبهُ فيعطيها إيَّاهُ إلَّا واحدةً فإنَّها لم تطلبْ شيئاً وكانت أحبَّ جواريهِ إليهِ فروادها أنْ تطلبَ فقالت لهُ إنَّما أطلبُ السُّلطانَ نفسَهُ لا شيئاً آخرَ فقال لها القصرُ وما فيه من الجواري وغيرَهنَّ لك وملَّكها جميعَ ذلك "

ويقولُ

" أفرق بين مَن يطلبُك, فليس مَن أتاك زائراً، ثُمَّ قالَ أردتُ منك كذا وكذا كَمَن اتاك محبَّةً فيك ورغبةً في رؤيتِك لا شيءَ آخرَ, شتَّان ما بينهما "

ويقولُ

" أما يستحي الإنسانُ أنْ يطلبَ من اللهِ الدُّنيا فيكونُ طالباً منهُ ما يصدُّه عنه ويصيرُ كالعبدِ يقولُ لسيِّدِهِ أعطني ما يفرِّقُ بيني وبينك, هذا غايةُ ما يكونُ من سوءِ الأدبِ "

ويقولُ

" قولُ العامَّةِ ما خُلقنا إلَّا لنطلبَهُ صدقٌ وحقٌّ ولكنَّهم فهموهُ على غيرِ وجهِهِ من أنَّهم يطلبونَهُ في أغراضِهم الدُّنيويةِ وإنَّما معنى يطلبونَهُ، يطلبون معرفتَهُ لو كانوا يعلمون "

فيصرفُ ﷺ عن الحظوظِ واللُّحوظِ وكلِّ ما يشعرُ بالشُّعورِ بالنَّفسِ ويتلوا في ذلك أحياناً

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾[1]

ويسمي العمل على الحظ شركاً ويتلوا على طريق الإشارة

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾[2]

ويقولُ دائماً

" ما عطَّلَ كثيراً من المتوجِّهين إلى اللهِ عن النُّفوذِ إليهِ إلَّا الطمعُ "

ويفسِّرُ ذلك بطمعِ الإنسانِ في شيءٍ من هذه المقاماتِ بقصدِ أنَّهُ مطلبُ أماني مع عدمِ شعورِهِ بالخطرِ، ويذكرُ قولَ اللهِ في الزَّبورِ

" **ومَن أظلمُ ممَّنْ عبدني خوفاً من ناري أو طمعاً في جنَّتي، لو لم اخلقْ جنَّةً ولا ناراً ألم أكنْ اهلاً لأنْ أُطاعَ** "

وينشرُ قولَ القائلِ

فقلتُ ذريني قد علمتُ بصدِّها   على المنعِ منها لا على الجودِ أتَّبعُ

وقولهُ

على مثلِ ليلى يقتلُ المرءُ نفسَهُ   وإنْ باتَ من ليلى على اليأسِ طاويا

---

[1]. البينة (5)

2 يوسف (106)

قَولُهُ ﷺ في المَحَبَّة

وما أكثرَ ما يتكلَّمُ في هذا البابِ ويأتي فيه بالعجبِ العُجابِ وبما يسحرُ الألبابَ بل عليهِ مدارُ سائرِ كلامهِ، وإليهِ منتهى كلِّ مرامهِ، وكثيراً ما يتكلَّمُ فيه فيرشدُ إلى المحبَّةِ ويقولُ

" أصلُ كلِّ شيءٍ وأساسهُ المحبَّةُ "

ولن يتيسَّرَ سلوكُ الطَّريقِ إلَّا ويسألُ مراراً عن سببِ اكتسابِها فقالَ

" خلطةُ أهلِها، خالطْ المبتلين تبتلى "

ويفسِّرُها أحياناً بالاتِّحادِ ويقولُ

" أعلى درجاتُ المحبَّةِ اتِّحادُ المُحبِّ بالمحبوبِ, أي فناؤهُ فيه ومحوُ مرادهِ في مرادِه واللهِ أعلم "

وقلنا لهُ يوماً يا سيِّدي إنَّ عِياضاً ذكرَ في شفائهِ اقوالاً في تفسيرِ المحبَّةِ ولم يتعيَّنْ لنا منها شيء فقالَ

" المحبَّةُ هي الاستهلاكُ في المحبوبِ والغيبةِ فيه أو كلاماً هذا معناه "

ويقولُ

" الذي ينبغي للإنسانِ أنْ يطلبَهُ هو المحبَّةُ لا العملَ لأنَّ المحبَّةَ هي أصلُ العملِ، فإذا أُثبتتْ للإنسانِ ثبتَ العملُ ولا يدومُ إلَّا بها لأنَّك إذا أحببتَ احداً كان أحبَّ شيءٍ إليكَ أمرهُ ونهيهُ والعملُ من غيرِ محبَّةٍ لا يدومُ لصاحبهِ وسببُ المحبَّةِ شهودُ الحسِّ والإحسانِ وبها ترتقي درجاتُ الايمانِ ألا لا إيمانَ لمَنْ لا محبَّةَ لهُ "

وذكرَ يوماً قولَ الشَّيخِ سيِّدي عبدِ السَّلامِ بنِ مشيشٍ ﷺ

" من دلَّك على الدُّنيا فقد غشَّك، ومن دلَّك على العملِ فقد أتعبك، ومَن دلَّك على اللهِ فقد نصحَك "

فقالَ

" المرادُ بالعملِ في كلامهِ العملُ بلا روحٍ كما قالَهُ الوالدُ رحمَهُ اللهُ وإلَّا فالعملُ جاءَ به الكتابُ والسُّنَّةُ يعني ممَّنْ دلَّ عليهِ دلَّ على ما في الكتابِ والسُّنَّةِ "

ثُمَّ قالَ

" وروحُ العملِ هو المحبَّةُ "

وما تكلَّمَ في فنٍّ من فنونِ الطَّريقِ ولا على معنى من معانيهِ إلَّا أشارَ في كلامهِ إليها ودلّ بحالهِ ومقالهِ عليها وحضَّ على التَّقرُّبِ للمحبوبِ والتَّوددِ والتَّملقِ والتَّواضعِ لهُ وكثيراً ما ينشدُ

تذلَّلْ لمَنْ تهوى فليسَ الهوى سهلُ — إذا رضيَ المحبوبُ صحَّ لهُ الوصـلُ
تذلَّلْ لهُ تحظى برؤيا جمالهِ — ففي وجهِ مَنْ تهوى الفرائضُ والنَّفـلُ

وينشدُ أيضاً في التَّعظيمِ لجانبِ المحبوبِ كثيراً

رأى المجنونُ في البيداءِ كلباً — فجرَّ لهُ من الإحسانِ ذيلاً
فلاموهُ على ما كان منــــهُ — وقالوا كيفَ أنلتَ الكلبَ نيلاً
فقالَ دعوا الملامَ فإنَّ عينـي — رأتْهُ مرَّةً في حيِّ ليــلى

ويقولُ

" إنَّ ليلى وعدتْ قيساً بالرؤيةِ في مكانٍ فمكثَ سنينَ في ذلك المكانِ ينتظرُها وما يبرحُ مكانَهُ ولا ارتابَ في موعدِها ولا سأمَ مع أنَّها يجوزُ أنْ تعدَ فتخلفَ وما وعدتْهُ برؤيةِ جمالٍ دائمٍ ولا بجنَّةِ الخلدِ "

يعني ونحن قد وعدَنا اللهُ الذي لا يجوزُ عليهِ الحلفُ في وعدهِ بالنَّعيمِ الدائمِ وجنَّةِ الخلدِ ورؤيةِ الجمالِ الباقي الذي لا كيف لهُ ولا مثلَ، وحصولُ عظيمِ الفرحِ ولذيذِ الوصالِ الذين لا يعبَّرُ عنهما ولا يوصفُ قدرهُما ومع ذلك فقد قصَّرنا وما وفيّنا, ويقولُ

" إنَّ سببَ حبِّ قيسٍ لليلى من بينِ سائرِ المشاهدين لجمالها أنَّ قلبَهُ كان فارغاً عند رؤيةِ الجمالِ فعلَقَ به ما علِقَ، وتمكَّنَ منهُ ما تمكَّنَ ممَّا لم يجدُ عنه محيداً ولا بُداً ولم يعلقْ بقلبِ غيرِهِ شيءٌ من ذلك لشغلِ قلوبِهم عنها ولولا ذلك لوقعَ لهم ما وقعَ لهُ "

يذكرُ ذلك كلَّهُ ﷺ إرشاداً لمَنْ يريدُ التَّعلقَ بشيءٍ من هذه الطَّريقِ ثُمَّ يتجاوزُ ذلك ولا سيما إنْ وجَّهَ الخطابَ لمَنْ أتَّصفَ بشيءٍ من المحبَّةِ إلى شهودِ الفعلِ من اللهِ وشهودِ أنَّ المحبَّةَ منهُ وإنَّ العبدَ محبوبٌ ومطلوبٌ، ويذكرُ قولَ المجذوبِ ﷺ

الحبُّ منك ما هو لي   وأنت الحبيبُ ال نَهوى

قَولُهُ ﷺ في التَّدبيرِ والإختيارِ

ويرشدُ إلى تركِ التَّدبيرِ والاختيارِ مع اللهِ ويكثرُ الكلامَ فيه دائماً وأبداً ويتلوا شاهداً على ذلك قولَهُ تعالى

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾[1]

وقولَهُ تعالى

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾[2]

وقولَهُ تعالى

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[3]

وقولَهُ تعالى

---

1 . النساء (65)

2 . الأحزاب (36)

3 . النور (51)

﴿ مَا كَانَ لهَم الخِيرةُ ... الآية ﴾

ويقولُ

" إنَّما يريدُ من يعلمُ عواقبَ الأمورِ ومَنْ لا يعلمُها كيف يدبِّرُ وأيَّ شيءٍ يدبِّرُ "

ويذكرُ قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ كما جاءَ في بعضِ الآثارِ القدسيَّةِ

" ابنُ آدمَ تريدُ وأريدُ ولا يكونُ إلَّا ما أُريدُ فإنْ سلمتَ لي فيما أُريدُ أعطيتُك ما تريدُ وإنْ نازعتني فيما أُريدُ أتعبتُك فيما تريدُ ثُمَّ لا يكونُ إلَّا ما أُريدُ "

ويقولُ ما معناهُ الإرادةُ والقدرةُ متلازمتان فمن لهُ القدرةُ هو الذي لهُ الإرادةُ بحيث إذا أرادَ قدَّرَ, ومن لا قدرةَ لهُ لأنَّ شيءٌ يريدُ ويدبِّرُ ليس ذلك من وصفهِ.

ويذكرُ أحياناً قولَ بعضِهم

" سرْ كيفَ تحملُ مالكَ شيءٌ أذن كان تقدر "

يعني أنَّك إذا اختبرتَ نفسَك فأردتَ شيئاً وجدتَها لا تقدرُ على إيقاعهِ لأنَّ القدرةَ للهِ وحدَهُ.

وأحياناً قول الآخر

انا مالي فيَّ اش   أش عليَّ منِّي

ويعدُّ التَّدبيرَ مع اللهِ تعالى من الشِّركِ ويعبِّرُ عنه بالقيامِ على اللهِ في ملكهِ لأنَّهُ تعالى منفردٌ في ملكهِ بالإيجادِ والتَّدبيرِ

﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾[1]

فمَنْ دبَّرَ في ملكهِ شيئاً فقد تعدَّى ونازعَ أحكامَ الرُّبوبيةِ و تدبيراتِ الواحدِ القيُّومِ سبحانَهُ وذلك معنى القيامِ على اللهِ، تعالى اللهُ عن ذلك علواً كبيراً ويذكرُ قول ابنِ عطاءِ اللهِ رضي الله عنه

أتُحكمُ تدبيراً وغيرُك حاكمُ   فأنت لأحكامِ الإلهِ تُنازعُ

---

[1] . الأعراف (54)

وكثيراً ما يذكرُ قولَهُ في قصيدتهِ الأخرى

مرادي منك نسيانُ المرادِ إذا رمتَ السَّبيلَ إلى الرَّشادِ

ويقولُ

" إنَّ الإنسانَ إذا دبَّرَ عادَ تدبيرهُ عليهِ وبالاً، وإذا لم يدبِّرْ فإنَّ اللهَ ينوبُ عنه وانظرْ إلى الصَّبي لمَّا لم يدبِّرْ وكَّلَ اللهُ به من يقومُ به حتَّى لا يضيعَ من أمرهِ شيءٌ، وعطفَ عليهِ والديهِ أشدَّ العطفِ فهما يبتدران لكلِّ ما يحبُّ، وإذا كبرَ ودبَّرَ لم يبقَ الأمرُ كذلك. وإذا ذُكِرَ لهُ من اشتهتْ نفسهُ شيئاً فتعاطاها فتعبَ فيه أو خسرَ ولم ينجحْ عملهُ قالَ ذلك عقوبةَ الاختيارِ"

وسمعتهُ يقولُ

" الذي ينبغي للإنسانِ أنْ يدعو به أو أحسنُ ما يطلبهُ الإنسانُ إنْ كان لابدَّ أنْ يطلبَ أنْ يقولَ يا ربِّ لا تجعلْ لي تدبيراً معك، ويدلُّ على الرِّضا بفعلِ اللهِ والتَّسليمِ لأحكامِ اللهِ بأنَّهُ سبحانَهُ الحكيمُ وبأنَّهُ الرَّحيمُ، فإذا ذكرتْ لهُ حادثةٌ ألمَّتْ أو مصيبةٌ نزلتْ قالَ من أسمائهِ تعالى الحكيمُ والحكيمُ هو الذي لا يفعلُ الشيءَ إلَّا لحكمةٍ ولا تخلو أفعالهُ عنها أبداً إلَّا أنَّهُ تارةً نفهمُها وتارةً لا نفهمها "

ويقولُ

" لو كُشفَ لنا عن أسرارِ القدرِ لرأينا تلك الأفعالَ التي يعني في الظَّاهرِ نعمةً على غايةِ ما يكونُ من الإحكامِ والإتقانِ وأنَّها لا ينبغي أنْ تكونَ إلَّا كذلك ولا نختارُ لأنفسِنا غيرَها أبداً، وتنزلُ النَّازلةُ بالعبدِ هي في ظاهرِها مصيبةٌ وفي باطنِها رحمةٌ ينقذهُ اللهُ بها ممَّا هو أشدُّ مثلاً أو يرفعُ اللهُ بها عنه فتنةً في دينهِ, واللهِ ما قضى اللهُ لعبدهِ المؤمنُ قضاءً إلَّا كان خيراً لهُ "

ويقولُ

" الحكمةُ التي علَّمها لقمانُ لأبنهِ هي الرِّضا بما يكونُ به القضاءُ "

ويذكرُ عنه حكايةً يحكونَها عنه وهو

" أنَّهُ كان ذاهباً معهُ في السَّفرِ لقريةٍ مع رِفقةٍ فعرجتِ الدَّابةُ فشكا ابنَهُ ذلك لهُ، فقالَ فيه خيرٌ، ثُمَّ أنهَّا ماتتْ فقالَ فيه خير، ثُمَّ أنَّ الرِّفقةَ فاتهم بسببِ موتِها، فقال فيه خير، فلمَّا أشرفوا بعد ذلك على تلك القريةِ وجدَها قد خُسفَ بها وبأهلِها وبالرِّفقةِ التي سبقتْ إليها، فتبيَّنَ حينئذٍ الحكمةَ النَّازلةَ وحسنَ اختيارِ اللهِ لهُما ويقرِّرانِ شهودَ الفعلِ من اللهِ يوجبُ الاستسلامَ والانقيادَ "

كما قالَ القائل

وخفَّفَ عنِّي ما أُلاقي من الأذى　　　بأنَّك أنت المُبتلي والمُقدِّرُ

ويقولُ لنا أعني نحنُ الطَّلبةَ

" مالكم تقرُّونَ بالجَنانِ وتقرُّونَ باللِّسانِ أنْ لا فاعلَ إلَّا اللهُ وأنَّ القدريةَ هم الذين يقولون العبدُ يخلقُ أفعالَهُ، ثُمَّ إذا نالكم أحدٌ بمكروهٍ رأيتم أنَّهُ هو الذي فعلَ ذلك وجعلتُم تلومونَهُ قلباً وقالباً وما هو إلَّا مسخَّرٌ ومسلَّطٌ "

ويقولُ على سبيلِ ضربِ المثلِ والتَّقريبِ

" أنَّ الكلبَ الكبيرَ أعقلُ منَّا إذا ضربَهُ الإنسانُ بحجرٍ تركَ الحجرَ المضروبَ به وعرفَ مَن ضربَهُ فقصدَ إليهِ، ونحن لا نشهدُ إلَّا الوسائط وما شغلنا إلَّا شهودها "

وسمعتهُ يقولُ

" إنَّ هذه الأسبابَ شغلتْنا عن مسبِّبِ الأسبابِ "

يعرِّضُ بحالِ أمثالِنا.

وجلستُ إليهِ يوماً والحالُ غالبٌ عليهِ فجعلَ يتكلَّمُ في التَّوحيدِ والدَّلالةِ على اللهِ وحدَهُ ويذكرُ قولَ الشُّشتري رضي الله عنه مترجماً عن لسانِ الحقيقةِ

أثبتْ إنْ كنتَ هادي　　　وارضَ بالفعلِ منِّي

كلُّ مَن هو عاشقٌ　　　ويريدُ أنْ يصلْنـي

روحْ باللهِ يفـارق　　　إنْ أرادَ نظر منِّي

وقولَهُ

هل ترى غيرَ فعلـي ونفوذِ المشيَّـــا
هي في الخلقِ تسري هذا معنى القضيَّا

وهو يستحسنهُ وذلك لِما اشتملَ عليهِ من الدَّلالةِ على الرضى أولاً وشهودِ الفعلِ من اللهِ والغيبةِ فيه ثانياً.

وسمعتهُ يقولُ وقد تكلَّمَ على التَّوبةِ

" واحدٌ يتوبُ بنفسهِ، وواحدٌ يرجو من اللهِ أنْ يتوبَ عليهِ، وواحدٌ لا يرى لهُ ذاتاً ولا نفساً يطلبُ لها شيئاً "

وكثيراً ما يقولُ

" لا يستقيمُ حالُ الإنسانِ، أوَّلاً يكونُ لهُ شيءٌ حتَّى يزيلَ السَّرقةَ من يدهِ "

يسمِّي شهودَ الإنسانِ نفسَهُ وجوزه لها وتدبيرهِ عليها وأنَّهُ يفعلُ ويتركُ برقَّةٍ لأنَّ كلَّ ذلك للهِ الملكُ ملكهُ والفعلُ فعلهُ، ويذكرُ قولَ القائلِ في الملحونِ

ناقضُ العهدِ وأدرك أينَ حملُ الأمانة
قل لي أش لك ما تملك هذا عينُ الخيانة

تَفسيرُهُ ﷺ لِلعَهدْ

ويفسِّرُ العهدَ بأنَّهُ الإقرارُ بالرُّبوبيةِ يومَ

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾

ويشير إلى أنْ الغيبة عن شهود ذلك نقض للعهد وإذا سمع أحداً يقولُ داري ومتاعي لم يجب وربَّما نهاه وبين لهُ وجاءه يوماً رجل أشترى داراً فجرى في كلِّامه التعبير بقولَهُ داري بالإضافة لنفسه فقال لهُ لا تقل داري قل دار الكراء لأنك تسكنها إلى أجل ثُمَّ ترتحل عنها بما دفعته من ثمن لغيرك إنَّما هو لمنفعة السكنى فهو كراء. وكان رجل آخرَ يتكلَّمُ يوماً معهُ فعبّر بقولَهُ داري بالإضافة أيضاً فقال لهُ من بحاله قل داري يوم خروجك منها في النعش وقد سمعتهُ هو يعبر بشيءٍ من ذلك قطُّ وإذا شكا لهُ أحد نفسه قالَ لهُ مالك ولها دعها ومولاها ويتلوا على طريق الإشارة قولَهُ تعالى

﴿ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾[1]

وإذا قالَ أحدٌ بمحضرهِ

" اللهمَّ غلِّبني على نفسي "

قالَ لهَ قلْ

" اللهمَّ غيِّبني عنِّي فإنَّك إذا غلبتَها يوماً غلبتْك يوماً آخرَ"

ويقولُ على سبيلِ ضربِ المثلِ لها

" إنَّ الإنسانَ إذا قصدَ خيمةً فنبحَهُ كلابهُا فنادى ربَّ الخيمةِ كفَّتْ الكلابُ عنه، وإذا اشتغلَ بهم يطاردُهم تعبَ ولم ينفكَّ عنهم"

---

[1] . الفتح (21)

يريد فكذلك النَّفسُ إذا اشتغلَ الإنسانُ بمعاناتِها ومطاردةِ خواطرِها مثلاً، زادتْ كالكلابِ حرصاً وشرَهاً، فإذا رجعَ إلى مولاهُ نابَ عنه وتولَّاهُ، وكثيراً ما ينشدُ في هذا المعنى قولَهُ

إذا كنَّا به تُهنا دلالاً على الأحوالِ طراً والعبيدِ
وإنْ كنَّا بنا عدنا إلينا وعطَّل ذلُّنا ذلَّ اليهـــود

ويقولُ

" إنَّ الإنسانَ إذا نظرَ إلى السَّماءِ حُجبَ عن النَّظرِ إلى الأرضِ، وإذا نظرَ إلى الأرضِ حُجبَ عن النَّظرِ إلى السَّماءِ "

يشيرُ بذلك إلى التَّوحيدِ وأنَّ الغيبةَ فيه توجبُ الغيبةَ عن النَّفسِ وعن الكائناتِ كلِّها ويدلُّ على اللهِ بأسمائهِ الحسنى وشهودِ صفاتهِ العلى، ويقرِّرُ ذلك بما يبهرُ العقولَ وتعجزُ عنه النُّقولُ ممَّا لا يصلُ فهْمُ مثلي إليهِ, ويقولُ

" إنَّ التَّحقُّقَ بوصفٍ واحدٍ منها موجبٌ للتَّحقيقِ بجميعِها ومستلزمٌ لهُ "

ويأتي على تبيينهِ حتَّى يتَّضحَ بنورهِ للأفهامِ ويفتحُ على يدهِ من الملكِ العلَّامِ، ثُمَّ يتجاوزُ ذلك إلى مرتبةٍ أعلى من هذه وهي شهودُ الذَّاتِ العليَّةِ والغيبةِ فيها ويقولُ

" شهودُ الصِّفاتِ حجابٌ عن شهودِ الذَّاتِ "

وسمعتهُ يوماً يقرِّرُ قولَ القطبِ سيِّدِنا عبدِ السَّلامِ بنِ مشيشٍ ﷺ

" وانشلني من أوحالِ التَّوحيدِ "

بما معناه أنَّ الأوحالَ هي الغيبةُ في شهودِ الأوصافِ العليَّةِ والوقوفِ معها، والنُّشولُ منها هو بالغيبةِ عنها في شهودِ الذَّاتِ العليةِ, وأنَّ شهودَها تتضمَّنُ لشهودِ الأسماءِ والصِّفاتِ، وقد فسرَّهُ بتفسيراتٍ غيرِ هذا وتقدَّمَ واحدٌ منها في البابِ قبل هذا.

وسمعتهُ مرَّةً أخرى يقولُ في قولهِ

" وأغرقني في عينِ بحرِ الوحدةِ "

" ذلك إشارةٌ إلى الاتِّحادِ والاستغراقِ "

وقولهُ "حتَّى لا أرى ولا أسمعَ ولا أحسَّ إلَّا بها "

" تغطيةٌ لهذا السرِّ ومراعاةٌ لمقتضى الشَّرعِ وإلَّا قالَ حتَّى لا أرىَ ولا أسمعَ ولا أحسَّ دون قولهِ بها "

وكثيراً ما يتكلَّمُ في هذا المعنى وفي البقاءِ بعد الفناءِ ومحوِ أوصافِ العبدِ بظهورِ أوصافِ ربِّهِ فيه ويستشهدُ بحديثِ

" وما يزالُ عبدي يتقرَّبُ إلي بالنَّوافلِ حتَّى أحبَّهُ فإذا أحببتهُ كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ به وبصرَهُ الذي يبصرُ به ويدهُ الذي يبطشُ بها "[1]

ثُمَّ يقولُ

" وفي روايةٍ كنت "

وهذه الرِّوايةُ أصرحُ في وجهِ الشَّاهدِ عنده واللهُ أعلمُ

ويقولُ

" إنَّ الوقوفَ عندَ مقامٍ من المقاماتِ يوجبُ القطعَ عن المقصودِ "

ثُمَّ يتلوا

﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾[2]

وربَّما ينشدُ قولَ الشُّشتري رضي الله عنه

ومهما ترى كلَّ المراتبِ تجتلي عليك فحلْ عنها فعن مثلِها حُلْنا

وقلْ ليس لي في غيرِ ذاتِك مطلبٌ فلا صورةٌ تُجلى ولا طرفةٌ تُجنا

وربَّما يتكلَّمُ في هذا البابِ وفي الفناءِ عمَّا سوى اللهِ فينشدُ

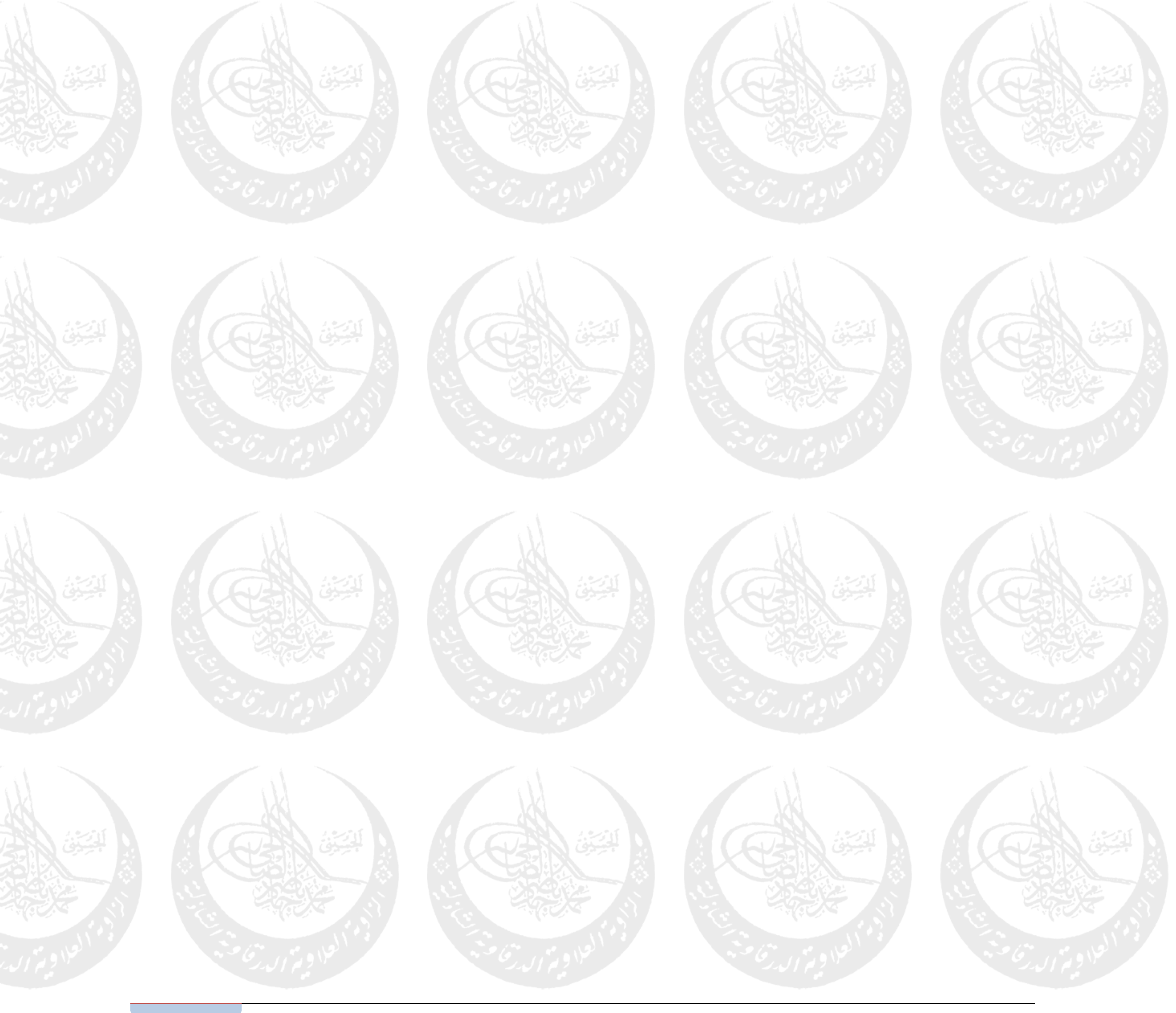
---

1. الحديث رواهُ البخاري.

2 . الفتح (42)

دع العلومَ ولا تبقِ الفهــومَ ولا تبقِ لإيَّاكَ لا عيناً ولا خبرا

هذا ما أمكنني في هذا البابِ جمعهُ، وما جمعتُ منهُ إلَّا اليسيرَ ممَّا تكرَّرَ على السِّماعِ الأيَّامَ واللَّيالي غايةَ التَّكريرِ، وقُرِّرَ للأفهامِ المرَّةَ بعد المرَّةِ غايةَ التَّقريرِ حتَّى علَقَ منهُ ما علَقَ بالبالِ، ورُسِمَ منهُ ما رُسِمَ في الخيالِ، فاسترقتْ سمعَهُ وأحببتُ هنا ضمَّهُ وجمعَهُ ليكملَ به غيره غرضَ الكتابِ، وما هو منهُ إلَّا الخالصُ واللُّبابِ رزقنا اللهُ به الانتفاعَ، وجعلنا من أهلِ المحبَّةِ والأتباعِ آمين.



البابُ الثَّامنُ في كلامهِ وإشاراتهِ وبعضِ ما سمعتهُ من تقريراتهِ

لا خفاءَ أنَّ سيّدَنا أبا العبَّاسِ ﷺ ممَّنْ أوتي التَّحقيقَ وأُعطي كمالَ المعرفةِ بهذه الطَّريقِ، وخاضَ من بحرِ المعارفِ لُججَهُ، وركبَ منهُ ثبجَهُ[1] حتَّى صار فيه إماماً راسخاً وطوداً شامخاً، باعهُ فيه عريضٌ ومجلسهُ منهُ روضٌ أريضٌ[2] حوى من اللَّطائفِ حدائقَ ذاتَ بهجةٍ, واستوعبَ كيفيَّةَ السُّلوكِ ونهجهِ, واشتملَ على دقائقِ الأسرارِ العرفانيةِ, وغوامضِ العلومِ الرَّبانيةِ, والحقائق العليةِ, والأذواقِ السَّنيةِ.

كَلامُهُ ﷺ

فإذا تكلَّمَ في آيةٍ أو حديثٍ سحرَ الألبابَ وأتى بالعَجبِ العُجابِ، وإذا وعظَ أثَّرَ كلامهُ ونفذَ سهامهُ, وإذا أرشدَ إلى مولاهُ أفادَ, وأخذَ بمجامعِ اللُّبِّ والفؤادِ, وانصاعَ لهُ القلبُ وأنقادَ, كلامهُ هدى ونورٌ, وشفاءٌ للصُّدورِ, لهُ الإشاراتُ العاليةُ والعبارةُ السَّاميةُ, يقرِّبُ البعيدَ للأفهامِ، ويفحمُ بواضحِ الحجَّةِ أكابرَ الأعلامِ, بليغُ الخطابِ, مصيبٌ للصَّوابِ, لا تعوزهُ عن مرادهِ عبارةٌ ولا تنبهِمُ عن السَّامعين منهُ إشارةٌ, كلٌّ يحسبُ الكلام صادقاً عليهِ ومتوجِّهاً إليهِ, ينطقُ بجوامعِ الكلمِ وبدائعِ الحكمِ ويدلُّ على اللهِ أبداً ويجمعُ عليهِ، ويدعو بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ إليهِ, يؤيِّدُ كلامهِ بالكتابِ والسُّنَّةِ، ويجلي بنورهِما كلَّ دُجنةٌ. وإذا حضرَ مجلسَهُ أهلُ علمٍ ولا يخلونَ منهُ غالباً، أظهرَ لهم ما خَفي منهُما عليهم وأشهدَهم

---

1 . ثبج البحر وسطه وأعلاه.

2 . مكانٌ كثير العشبِ.

ما كانَ غائباً, يتكلَّمُ في طريقِ القومِ بما يُبهرُ العقولَ من جواهرِ الحكمِ الوهبيَّةِ لا من جوامعِ النُّقولِ، فيتكلَّمُ على المحبَّة والمحبوبِ, والسُّلوكِ والجذبِ والفناءِ والبقاءِ, وعلى عالمَ الملكِ والملكوتِ والجبروتِ, وعالمَ الرُّوحِ وعلى الكشفِ الأكبرِ والأصغرِ, وعلى أسرارِ الأسماءِ الحسنى والصِّفاتِ العلى وطريقِ معرفتِهما وآثارِها وتعريفاتِها, وعلى أحوالِ القيامةِ ومواطنِها على طريقةِ أهلِ الكشفِ, ويتكلَّمُ على عيوبِ النَّفسِ[1] ودسائسِها ورعوناتِها كثيراً, وما أكثرَ ما يتكلَّمُ في تركِ التَّدبيرِ والاختيارِ ومنازعةِ الأقدارِ وفي شكرِ النِّعمةِ وشهودِ الفعلِ من اللهِ كما يُعلمُ بعضُ ذلك ممَّا تقدَّمَ في البابِ قبل هذا, وكلامهُ ﷺ في هذا وغيرهُ من المعارفِ والأذواقِ لا يأتي عليهِ العددُ العديدُ ولا تفي به الكثيرُ من الأوراقِ, ومجلسٌ واحدٌ من مجالسهِ لا تُستوفى علومهُ ولا تُستقصى فهومهُ ولكنَّ المرادَ إلتقاطُ ما حضرَ وجمعُ شيءٍ ممَّا سلفَ في بعضِ مجالسهِ وغيرها على آياتٍ عديدةٍ من القرآنِ وعلى كثيرٍ من الأحاديثِ النَّبويةِ والإشارةُ إنْ وافقتِ اللَّفظَ ولم تغيِّرْ خطاباً ولا إعراباً مقبولةٌ على ما حرَّرهُ الأئمةُ وأعيانُ الصُّوفيةِ كالإمامِ الورتجبي[2] في تفسيرهِ وغيرهِ من الأئمةِ في كتبِهم كالشَّيخِ أبي القاسمِ القشيري والشَّيخِ ابنِ عطاءِ اللهِ والشَّيخِ زروقٍ واضرابِهم ﷺ ورزقنا بركتهم آمين.

---

[1] . في المخطوطة (الناس) بدل النفس.

2 . عالم ومفسر ولغوي.

إشاراتُه ﷺ

والإشارةُ كما قالَ الشَّيخُ زروق

"هي ما وراءَ المعنى من لطائفِ الدِّقائِق"

فمِن كلامهِ ﷺ إشارةً قولُهُ في قولهِ تعالى

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾[1]

" كلُّ أحدٍ من المؤمنين فيه معنى رسولِ اللهِ ﷺ ورسولُ اللهِ ﷺ لايزالُ في هذه الأمّةِ إرثهُ ولا ينقطعُ عنهم مددهُ ولا شريعتهُ مادامَ بقاءُ الأمَّةِ "

وقال مرَّةً أخرى فيها أيضاً

"كلُّ واحدٍ من الصَّحابةِ يعلمُ أنَّ فيهم رسولَ اللهِ وإنَّما هذا الخطابُ على حدِّ قولهِ

" ألا فاسقني خمراً وقلْ لي هي الخمرُ "

أما علمَ النَّاسُ أنَّ فيهم رسولَ اللهِ لكنْ هذا من تشبيههِ تعالى لنا هذه النِّعمةُ العظيمةُ وبيانُ تفضلُّهِ علينا بهذه المنَّةِ الجسيمةِ "

وقال ﷺ في قولهِ تعالى

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾[2]

هو أولى بهم من أنفسِهم إذ هم مماليكهُ وعبيدهُ لهُ عليهم الملكيةُ العظمى والولاءُ الأكبرُ

" مَنْ أحيى أرضاً ميتةً فهي لهُ "

وقال في قولهِ تعالى

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ﴾ الأرضُ الميتةُ, القلوبُ أحييناها بنورِ الايمانِ

﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا ﴾ ما ينتجُ من العلومِ والمعارفِ

﴿ فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ يعملون بالطّاعاتِ والعباداتِ النَّاشئةِ عنها

---

1 . الحجرات (7)

2 . الأحزاب (6)

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ ﴾ المواهبِ والأسرارِ
﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ العلومِ
﴿ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ ﴾ أي ممَّا ثمرةُ هذه الأشياءِ وما ينشأ عنها من الطَّاعاتِ وأنواعِ التَّكليفاتِ كلِّها، وهي المقصودةُ من العبدِ ولذلك جعلَها علَّةً غائبةً
﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي ليسَ ذلك من فعلِهم إنَّما هو فعلُ اللّهِ، ومن فضلِهِ وليس لهم فيه حولٌ ولا قوَّةٌ، ولذلك قالَ توبيخاً لهم
﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾[1]

وقال في قولِه تعالى
﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾
جعلَ الهَهُ الحقَّ محبوبَهُ وجمعَ هواهُ وعينَ مرادِهِ بحيث لا مرادَ سواهُ، وأضلَّهُ اللّهُ صرفَهُ عن السِّوى على علمٍ أي معرفةٍ
﴿ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾
أخذَهُ عن نفسهِ فلا يلتفتُ بقلبهِ ولا يسمعُ ولا يبصرُ سوى ربِّهِ
﴿ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ﴾[2]
فَمن يرحمهُ ويفعلُ هذا به سواهُ.

وقال في قولَهُ تعالى
﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾[3]
" إنَّ المخصوصَ بعد حصولِ النُّفوذِ إلى اللّهِ تعالى والأنسِ به لا يريدُ الرُّجوعَ إلى الخلقِ ولا موالاتِهم, فإذا أذن بهم وعلمَ أنَّ اللّهَ معهُ في ذلك كان أحبَّ شيءٍ إليهِ تلك المعيَّةُ وبادرَ من أجلِها لمَّا هيئَ لهُ وتحمَّلَ تكاليفَ الخلقِ ومعاناتِهم وخفَّ عليهِ ثقلُ ما حمِّلَ فانظرْ قولَهُ تعالى لموسى وهارونَ عليهما السَّلامُ " إِنَّنِي مَعَكُمَا " بعد قولهِ تعالى" اذْهَبَا إِلَى

1 . يس الآيات من (33– 35)
2 . الجاثية (23)
3 . طه (46)

فِرْعَوْنَ " وقولهما " إِنَّنَا نَخَافُ " فلولا تلك المعيَّةُ ما ذهبَ خوفُهما ولا قدرا على ما حملاهُ ولا أحبَّاهُ ".

وقال مرَّةً أخرى "كلُّ مخصوصٍ معهُ مَنْ قالَ

" إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى "[1].

وقال في قولهِ

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[2]

" الأمرُ بالمعروفِ الدَّلالةِ على اللهِ والنَّهي عن المنكرِ النَّهي عمَّا سوى اللهِ "

وقال مرَّةً أخرى في الآيةِ

" المنَكرُ الأعراضُ عن اللهِ "

وقال في قولَهُ تعالى

﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾[3]

على سبيلِ التنظيرِ والاستشهادِ والإشارةِ بشيءٍ منها لنفسِ المرادِ

" إنَّ العبدَ إذا أُمر بالطاعةِ فوجدَ في باطنهِ حرصاً عليها قوياً وفي ظاهرهِ قصوراً عنها وعياً, قويَتْ رغبتهُ لسيّدهِ وتضرُّعهُ لهُ, فإذا لم يتهيّأ لهُ مع ذلك المرادِ تحقَّق بعجزِ نفسهِ وقهرِ السَّيّدِ لهُ فلا يزالُ عارفاً بذنبهِ راغباً لربِّهِ, فعند ذلك يخرجُ لهُ بين هذين الحالينِ معرفةَ وصفِ عبوديتهِ

﴿ لَبَنًا خالصاً ﴾

وقال في قولهِ تعالى

---

1 . طه / الآيات(43– 46)

2 . آل عمران (110)

3 . النحل (66)

﴿ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾[1]

" هي أرضُ النُّفوسِ يعني يملكون قيادَها ويمحون في مرادِ الحقِّ مرادَها "

وقال في قولهِ تعالى

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾[2]

" المرادُ بالرِّزقِ الرِّزقُ المعنوي يعني الأحوالُ والوارداتُ، والمرادُ بالأرضِ أرضُ النُّفوسِ "

وقال في قولهِ تعالى

﴿ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[3]

" النِّعمةُ الظَّاهرةُ سيِّدُنا ومولانا مُحمَّد ﷺ والنِّعمةُ الباطنةُ التَّوحيدُ "

وقال في قولهِ تعالى

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾[4]

" هي السُّنَّةُ المُحمَّدية "

وقال

" هي المحبَّةُ " يعني فمَن ركبها نجى من بحرِ الفتنِ والأهوالِ ووصلَ إلى برِّ المعرفةِ ودرجةِ الوصالِ.

وقال مرَّةً أخرى

" هي منُّ الحقِّ سبحانَهُ " يعني فمَن ركبها أي شاهدَها حتَّى أمتحن في مولاهُ كان سيرهُ ووقوفهُ بربِّهِ لا بهوى نفسهِ.

وقال في قولهِ تعالى

1 . الأنبياء (105)

2 . الشورى (27)

3 . لقمان (20)

4 . هود (41)

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ﴾[1]

" المرادُ من الآيةِ الإرشادُ للسؤالِ وطلبُ العبدِ ربَّهُ كلَّ ما يهمُّهُ ويحتاجُ إليهِ وذلك هو فائدةُ الإخبارِ بكونهِ تعالى عندَهُ خزائنَ كلِّ شيءٍ فإنَّ الكريمَ إذا قالَ عندي كذا وعندي كذا من غيرِ أنْ يسألَ فإنَّما ذلك من أجلِ أنَّهُ أحبَّ أنْ يُطلب ليُعطي"

وقال على قولهِ تعالى حكايةً عن يوسفَ عليه السلام

﴿ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾[2]

" كلُّ مخصوصٍ يقولُها لأنَّهُ خرجَ من سجنِ نفسهِ إلى عالمِ الرُّوحِ وأخوتُه هم أهلُ جنسهِ"

وقال في قولهِ ﷺ

" يموتُ المرءُ على ما عاشَ عليهِ ويُبعثُ على ما ماتَ عليهِ "[3].

" المرادُ بما عاشَ عليهِ الحالُ الذي هو أحبُّ الأحوالِ إليهِ الذي آثرَهُ في نفسهِ على كلِّ شيءٍ بحيث إذا كان فيه كان فرحاً مسروراً وألَّا يبدلهُ بغيرهِ ولا يتمنَّى شيئاً سواه، ولا يجدُ نفسَهُ محتاجاً لشيءٍ آخرَ ذلك هو ما عاشَ عليهِ، وإن كان سائرُ حياته يتقلَّبُ في حالٍ آخرَ "

وقال في قولهِ ﷺ لعمّهِ العبَّاسِ رضي الله عنه

" يا عم سلِ اللهَ العافيةَ "[4]

" العافيةُ أولاً من الكفرِ ثُمَّ من المعاصي ثُمَّ من الأمراضِ ثُمَّ من الطلبِ"

يريدُ في الحقوقِ والجناياتِ في الدُّنيا والآخرةِ.

وقال في قول أبي بكر في حديثِ الهجرةِ

---

1 . الحجر (21)

2 . يوسف (100)

3 . رواهُ الإمام الذهبي في الكبائر.

4 . حديث صحيح رواهُ الترمذي.

" الصُّحبةَ يا رسولَ اللهِ "[1]

" هذا منهُ ﷺ تبرٍّ من الدَّعوى وغايةٌ في الأدبِ حيث لم يثبتْ لنفسهِ شيئاً حتَّى الصَّحبةَ فجعلَ يطلبُها من رسولِ اللهِ ﷺ ولم يرَ نفسَهُ اهلاً لشيءٍ مع ما منحَهُ اللهُ من الفضائلِ الكثيرةِ والمعارفِ الغزيرةِ "

يعني وليس كما يفهمهُ باتُّ الرأي من أنَّهُ طلبَ من رسولِ اللهِ ﷺ أنْ يراعي صحبتَهُ فيكونُ قد رأى لنفسهِ حقاً عليهِ ﷺ إذ في ذلك من سوءِ الأدبِ ما يتحاشى منصبَ الصِّديقِ ﷺ.

وقال في قولِ أبي طلحةَ الأنصاري ﷺ لمَّا نزلَ قولهُ تعالى

﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾[2]

" إنَّ أحبَّ أموالي إلي بئرِ ماء "[3]

" إنَّما كان أحبُّ الأموالِ إليهِ لأنَّ النَّبي ﷺ يدخلهُ ويستظلُّ فيه ويشربُ من ماءٍ فيه طيِّبٍ، فمحبتهُ لهُ لأجلِ رسولِ اللهِ ﷺ لأنَّ مع تلك المحبَّةِ حظٌّ نفسهِ من التَّنعُّمِ فيه ونحو ذلك

قالَ

" وأتِّباعُ الأمرِ مقدَّمٌ وهو من أعظمِ المحبَّة للهِ ولرسولهِ "

ويعني بالأمرِ ما تضمنتْهُ الآيةُ بحسبِ دلالةِ الإلتزامِ.

وقال في قولِ أبي هريرة ﷺ

---

1 . رواهُ البخاري.

2 .آل عمران (92)

3 . لما نزلت الآية أعلاه قال أبو طلحة يا رسول الله إنَّ اللهَ يسألنا أموالنا أشهد أني جعلت أرضي بأريحا لله، فقال رسول الله ﷺ (اجعلها في قرابتك). رواه الآمام أحمد ومسلم وأبو داود.

" كنتُ أمرءاً مسكيناً ألزمُ رسولَ اللهِ ﷺ محبَّةً فيه وشغفاً به وحرصاً على حفظِ الدِّين والتَّفقهِ فيه "

" كما هو اللَّائقُ به وبمنصبِ الصَّحابةِ أمثالهِ رضيَ اللهُ عنهُم وإنَّما قالَ تلك المقالةَ تستُّراً ومضماً لنفسه فهو من كمالِ أدبهِ وتواضعهِ ﷺ "

قالَ

" ولو كانت ملازمتهُ لشبعِ بطنهِ لما حفظَ عن رسولِ اللهِ ﷺ حديثاً واحداً ".

وقال في قولِ سهلِ بنِ سعدٍ السَّاعدي ﷺ في المرأةِ التي كانت كلَّ جمعةٍ تطبخُ لهم حبَّاتٍ من شعيرٍ مع أصولِ من السِّلقِ

" كنَّا نفرحُ بيومِ الجمعةِ لأجلِ ذلك "

" ليس فرحُهم لأجلِ الأَكلِ إنَّما فرحُهم لِما يتَّفقُ لهم من الاجتماعِ بينهم وهم أخوانٍ في اللهِ فجمْعُهم إنَّما يكونُ للهِ وعلى اللهِ، ففرحُهم لأجلِ ذلك ولا أقولُ بظاهرهِ "

وقال على قولِ عمرَ لسعدِ بنِ عُبادةَ ﷺ يومَ السَّقيفةِ حين قالَ القائلُ

" قتلتُم سعداً قتلَهُ اللهُ "

" ذلك سهمٌ خرجَ من القدرةِ وتصديقهُ ما وقع لسعدٍ من قتلِ الجنِّ إيَّاهُ "

يعني أنَّ دعاءَ عمرَ ﷺ بالقتلِ لم يكن عن اختيارٍ منهُ بل باللهِ ومن اللهِ.

وسئل ﷺ عـن قولِ القطبِ سيِّدي عبدِ السَّلام بنِ مشيشٍ نفعنا اللهُ به

" وحجابُك الأعظمُ "

ما معنى كونهُ ﷺ حجاباً مع أنَّ الحجابَ الحائلُ بين الشَّيئينِ والقاطِعُ بينهما، والنَّبي ﷺ هو الموصل الى اللهِ والوسيلةُ إليهِ؟ فقالَ

" معنى كونهِ ﷺ حجاباً أنَّهُ حجبَ الخلقَ عن هدفهِ بتلقِّي التَّوحيدِ إذ لو لم يكن حجاباً وواسطةً بين اللهِ وبين خلقهِ لأحرقَهم نورُ التَّوحيدِ ولما قدروا على تلقِّيهِ, ومثال ذلك ولله

المثلُ الأعلى، قِدرٌ يغلي ماؤهُ أشدَّ الغليانِ فهل يُتوصَّلُ إليهِ إلَّا بواسطةٍ كمغرفةٍ مثلاً أو آنيةٍ؟ فلو لم تكنْ المغرفةُ والآنيةُ لأحترقَ الإنسانُ ولَمَا أنتفعَ بذلك الماءُ الحارُّ "

فالنَّبي ﷺ حجابٌ بين اللهِ وخلقهِ لتلقِّي التَّوحيدِ على معنى ما ذكرَ مثالَهُ رضي الله عنه عن ذلك بعضُ علماءِ الوقتِ وأنا حاضر فأجابهُ بهذا الجوابِ فاستحسنَهُ غايةَ الاستحسانِ وأعجبَهُ كلَّ العجبِ وسُرَّ به كلَّ السُّرورِ وحقٌّ لهُ ذلك.

وقال رضي الله عنه في اسمِ اللهِ العظيمِ الأعظمِ وقد جرى الكلامُ عليهِ وأنا حاضرٌ

" أنَّهُ ثلاثةُ أسماءٍ وليس باسمٍ واحدٍ وهي من الأسماءِ الجامعةِ وإليها يرجعُ جميعُ الأسماءِ"

وقال مرَّةً أخرى زيادةً على هذا لبعضِ الفقهاءِ الجلَّةِ من أصحابِنا وقد سمعني في مجلسِ الدَّرسِ أنقلُ ما للأئمَّةِ من الخلافِ فيه

" إنَّ طريقَ معرفتهِ الكشفُ وليس التَّصرفُ به أنْ يُدعى به نطقاً وإنَّما صاحبهُ الذي أطلعَهُ اللهُ عليهِ يتحقَّقُ به تحقُّقاً ويصيرُ لهُ حالةً لازمةً وكيفاً يتكيَّفُ به, فإذا توجَّهَ إلى شيءٍ أنفعلَ لهُ بقدرةِ اللهِ تعالى كما ينفعلُ الشَّيءُ للعائنِ, وصاحبهُ لا يضرُّ به عبادَ اللهِ ولهذا لا يُعلِّمهُ أهلهُ لكلِّ أحدٍ لأنَّ مَن استعملَهُ في ضررِ عبادِ اللهِ تضرَّرَ به الخلقُ ثُمَّ تضرَّرَ هو بذلك، فكان معرفتهُ لهُ وبالاً عليهِ وصاحبهُ لا يقربهُ جِنٌّ، فإنْ قربَ منهُ حُرِقَ وصُرِعَ, والمؤمنُ منهُم يتباعدُ عنه ولا يطيقُ مقاربتهِ "

والفقيهُ المشارُ إليهِ قبل هو العالمُ المباركُ الخيِّرُ أبو عبدِ اللهِ سيِّدي مُحمَّد المهدي بنُ أحمدَ الفاسي أدامَ اللهُ وحفظَهُ, وقد قرَّرَ هذا الكلامُ سماعاً من سيِّدنا أحمدَ في كتابهِ الإلماعِ.

وقال رضي الله عنه

" العارفُ إذا نظرَ إلى شيءٍ وقال لا إلهَ إلَّا اللهُ كأنَّما إرادةٌ منهُ فلا إلهَ إلَّا اللهُ من العارفِ بمنزلةِ كُن "

وقال ﷺ
" العارفُ باللّهِ هو بمنزلةِ المرآةِ إذا قابلَهُ شيءٌ أرتسمَ فيه "

وقال ﷺ
" العارفُ باللّهِ هو الذي تولَّاهُ اللهُ ولمَّا تولَّاهُ عرَّفَهُ به
﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾[1]
فمعرفتهُ به باللّهِ لا بنفسهِ "

انتهى, وعليهِ فالباءُ في العارفِ باللهِ تشبهُ الاستعانةَ ومعمولُ العارفِ محذوفٌ أي العارفُ باللهِ باللهِ.

وقال ﷺ
" إذا جلستَ أمامَ المخصوصِ يعني الولي وأردتَ أنْ تعرفَ حالَك فهو ما يخاطبَك به أولاً ويكثرُ الكلامَ فيه معك "

وقال ﷺ
" ليس الشأنُ فيمَن يحبُّ المخصوصَ, فإنَّ المخصوصَ كلُّ مَن يراهُ يحبُّهُ حتَّى النَّصارى وذلك لأجلِ الكسوةِ التي كساهُ اللهُ إيَّاها, إنَّما الشأنُ فيمَن يحبُّهُ المخصوصُ"

وقال ﷺ
" إذا أراد الإنسانُ أنْ يشعرَ بما لهُ من السَّعادةِ في الأزلِ فليعتبرْ بقلبِ مخصوصٍ، فإنْ كان يخفُ عليهِ فليحمدِ اللهَ ويستبشرْ لأنَّ قلبَ المخصوصِ مَظهرٌ للفردِ لا يرتسمُ إلَّا ما سبقَ في الأزلِ ممَّا هو مرادٌ للهِ سبحانَهُ يعني فلا يقبلُ إلَّا مقبولٌ عليهِ وبالعكس "

وقال ﷺ
" إنَّ المخصوصَ يكونُ مع النَّاسِ فيمتلئُ مدداً ويفيضُ فيصيرُ يذكرُ اللهَ بكلِّ لحمٍ فيه وعظمٍ وعصبٍ وكلِّ شعرةٍ فيه ويمتزجُ ذلك بكلِّ بدنهِ ودمهِ ثُمَّ أنَّهُ لا يقنعهُ الذِّكرُ بجميع

[1] . الكهف / 65.

ذاتهِ فينظرُ إلى الحاضرين ويذكرُ بهم يعني بمددِهم بالذِّكرِ فيذكرون اللهَ إذ ذاك فيكونُ هو الذَّاكرُ في الحقيقةِ لاتِّصالِ مادتهِ بهم وكونِها من عندهِ "

وقال يوماً

" إنَّ الأمَّةَ كلُّهم ذاكرون بالنَّبي ﷺ فهم في ميزانهِ "

وقال أيضاً رضي الله عنه

" ليس التَّوحيدُ هو الذي يكونُ أنت متوجِّهاً إليهِ بناحيةٍ منك، إنَّما التَّوحيدُ هو الذي يحيطُ بك من جميعِ الجهاتِ لأنَّ مَن توجَّهَ من جهةٍ بقيتْ الأخرى فصارَ مقاتلاً يعني منازعاً، والأمرُ كما في المثلِ

"جاءتكَ الخيلُ من هنا ومن هنا حطَّ الكساءَ" يعني النَّفس "

وقال أيضاً رضي الله عنه

" المحبَّةُ إذا كانت طبعيةً ووصلتْ إلى الرُّوحِ كان المحبُّ يريدُ أنْ يُذكر لهُ المحبوبُ فيستريحَ لذلك بخلافِ ما إذا وصلتْ سويداءَ القلبِ وخامرتْ باطنَهُ فإنَّهُ لا يحبُّ مَن يذكرُهُ غيرَةً عليهِ "

" أغارُ عليها من فمِ المتكلِّمِ "

وقال رضي الله عنه

" لا يكونُ الإنسانُ دائمُ الأفراحِ طيِّبُ الخاطرِ والبالِ، ويصفو وقتَهُ ولا يتكدَّرُ عيشهُ إلَّا اذا صحَّ عنده "

﴿ كان اللهُ ولا شيءَ معهُ ﴾[1]

وقال رضي الله عنه

" لا يُجمعُ العبدُ على سيِّدهِ حتَّى يرى نفسَهُ أنَّهُ العديمُ المملقُ لاشيءَ لهُ "

[1] . رواهُ البخاري في صحيحه.

(وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا)[1]

وقال ﷺ
" في السُّلوكِ هو أنْ يتحقَّقَ الإنسانُ أولاً بمعنى قولَ القائلِ
" وصالٌ وهجرٌ جُعلتْ سَوا "
وثانياً. بمعنى قول الآخر

فما قطُّ حبيبي هجرني أنا ولا جارَ عليَّ ولا قطُّ جنا

وثالثاً. " فكان اللهُ ولا شيءَ معهُ وهو الآنَ على ما عليهِ كان "

وقال ﷺ
" ليس الشأنُ أنْ تشهدَ أنّك عبدٌ إنَّما الشأنُ أنْ تشهدَ أنَّهُ السَّيِّدُ "

وقال ﷺ
" التَّدبيرُ على ثلاثةِ أقسام, تدبيرُ العامةِ وهو الإختيارُ مع اللهِ ومنازعةُ القدرِ بإرادةِ خلافِ ما يجري به، وهو شركٌ وكفرٌ, وتدبيرٌ شرعي وهو اهتمامُ الإنسانِ بما طُلب منهُ شرعاً واجتهادهِ في الأسبابِ الموصلةِ إليه, وتدبيرُ الخاصةِ وهو التَّدبيرُ أنْ لا يدبرَّ "

وقال ﷺ
" الهجرانُ هو التَّدبيرُ، فإذا كان الإنسانُ يدبِّرُ مع اللهِ فليعلمْ أنَّهُ مهجورٌ بمثابةِ مَن كان لهُ ولي مقدمٌ عليهِ يتصرَّفُ عنه ويقومُ بأمورهِ فينبذُ ولايتَهُ ولم يرضَ تصرُّفَهُ وجعل يتصرَّفُ لنفسهِ ويدبِّرُ لها، فأيُّ جفاءٍ أعظمَ من هذا وأيُّ هجرانٍ أكبرَ منهُ "

وقال ﷺ
" لو تنفَّسَ للخلقِ شيءٌ من جلالِ الأولياءِ لماتوا فرحاً يعني فأحرى الجمالُ "

وقال ﷺ

---

1 . يوسف (88)

" إنَّما ضررُ المجذوبِ سريعاً لِمن آذاهُ لأنَّهُ طاحَ وجودهُ فليس هناك ولم يبقَ فيه الحقُّ سبحانَهُ وتعالى، فإذا آذاهُ أحدٌ فإنَّما يرى أنَّهُ أذى الحقِّ سبحانَهُ وجانبُ الحقِّ عندهُ عزيزٌ وشيءٌ عظيمٌ فيسرعُ البطشَ لمؤذيهِ فيقعُ لهُ مايقعُ ".

وقال ﵁

" لا يكونُ العبدُ عبداً حتَّى يكونَ إذا رفعَ يديهِ للدُّعاءِ لا يجدُ ما يطلبُ سوى التَّلذذِ بمناجاةِ مولاهُ والتَّضرعِ بياسيِّدي ويامولاي ".

وقال ﵁

" لا يكونُ المحبُّ محباً حتَّى يكونَ إذا أمرَهُ محبوبهُ بالإحراقِ كان أولُّ مَن يسارعُ إلى جمعِ الحطبِ ".

وقال ﵁

" علامةُ كونِ المحبوبِ محبوباً كونهُ لا يعرفُ إلَّا اللهَ ولا يلتفتُ لغيرِهِ ولا يركنُ يوماً ما لسواهُ أو يُشغلُ نفسَهُ بما عداهُ، ومتى تلبَّسَ بشيءٍ من هذه المباحاتِ كالأكْلِ والشُّربِ والنَّومِ وغيرِ ذلك ندمَ أنْ لم يكن جعلَ بدلَها كلَّها طاعاتٍ للهِ عزَّ وجلَّ حتَّى لا يمرُّ به وقتٌ وله شغلٌ لغيرِ مولاهُ بل يستغرقُ آناءَهُ كلَّها فيما يحبُّهُ سيِّدهُ و يرضاهُ "

فقيل لهُ هذا هو المخلصُ؟

فقال

" الإخلاصُ شيءٌ آخرَ, المخلصُ هو الذي لا يرى لنفسهِ فعلاً ولا عملاً وإنَّما يرى الفعلَ من اللهِ سبحانَهُ وأنَّهُ هو الذي أجراهُ عليهِ تفضُّلًا منهُ ورحمةً ".

وقال ﵁

" الإنسانُ إذا لم يخرجْ على دائرةِ حسِّهِ، وإذا جرى ذكرُ شيخهِ خرجَ عن حسِّهِ وطارَ فرحاً، وكان أحبُّ الأشياءِ إليهِ ذكرُهُ, فإذا حصلَ لهُ ذلك زجَّهُ ذلك في التَّوحيدِ فيحصلُ لهُ على قدرِ محبَّتهِ التي كانت فيه فإنْ التفتَ إليهِ بعد ذلك أملكَهُ، لأنَّ المقصودَ من الصُّحبةِ هو محبَّةُ اللهِ وقد حصلتْ لكنَّهُ يبقى مع شيخهِ بالأدبِ ".

وقال ﷺ

" الإذنُ للولي يكونُ بأحدِ أمرينِ أنْ يقالَ لهُ قُمْ فأنذرْ "

يعني واللهُ أعلمُ بطريقِ المكالمةِ التي هي عندَهم بمعنى الإلهامِ من قِبَلِ الحقِّ سبحانَهُ أو يأمرهُ النَّبي ﷺ بالخلقِ كفاحاً ويقظةً لا مناماً فيلزمهُ حينئذٍ إتّباعُ أمرِهِ.

وقال ﷺ

" ليس الفقرُ الاجتماعُ للحزبِ والذِّكرِ وخدمةِ المخصوصِ والذِّهابِ معهُ والإيابِ وإنَّما الفقرُ تعلُّقُ القلبِ باللهِ ".

وقال ﷺ

" الفقيرُ هو الذي يحلِقُ رأسَهُ ويُطلِّقُ ناسَهُ ويرمي كساءَهُ في الوادي"

يريد واللهُ أعلمُ بتركِ الدُّنيا والخلطةِ والنَّفسِ.

وقال ﷺ

" لا يكونُ المريدُ مريداً حتَّى يكونَ إذا قالَ لهُ شيخهُ كلاماً قالَ لهُ لا واذا قالَ لا قيل لهُ نعم ويكونُ في ذلك موافقاً لقلبِ شيخهِ ".

وقال ﷺ

" في الكشفِ ليس هو أمرٌ يبرزُ للولي فيراهُ عياناً أو يكتب لهُ أو يمثل حتَّى يشاهدَهُ، وإنَّما هو أرقى, امتحقتْ إرادتهُ ولم يبقَ لهُ مع مولاهُ مرادٌ صار مَظهراً للقدرِ ولا يرتسمُ فيه إلَّا هو فحينئذٍ كلَّما يخطرُ ببالهِ يكونُ ".

وقال ﷺ

" في الفرقِ بين الرِّضى والتَّسليمِ, الرِّضى والتَّسليمُ يشتركان في الانقيادِ والإذعانِ ويفترقانِ في أنَّ الرِّضى يصحبهُ فرحٌ في القلبِ وسرورٌ كما تشيرُ إليهِ الآيةُ

﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾[1]
فإنّما يفهمُ منها كثرةَ اغتباطِ صاحبِ العيشةِ بها "

يعني واللهُ أعلمُ حيث أسندَ الرّضى للعيشةِ مبالغةً في رضى صاحبِها كما قرَّرهُ أهلُ البيانِ، ولا معنى للمبالغةِ فيه إلَّا كثرةُ الفرحِ والسُّرورِ واللذين هما معنى كثرة الاغتباطِ كما ذكرَهُ سيّدُنا أبو العبَّاس ﷺ وهو من الإلهامِ للمعاني البيانيةِ دون تقدُّمِ معرفتِها.

وقال ﷺ في الصَّبرِ
" أنَّهُ عبارةٌ عن معرفةِ الفعلِ من اللهِ فلا يجدُ في نفسهِ اضطراباً ولا اعتراضاً ".

وفي الشُّكرِ
" أنَّهُ اعترافُ القلبِ بنعمةِ الرّبِ "

وكثيراً ما يذكرُ في تفسيرهِ قولَ الجنيدِ
" أنْ لا يعصي اللهَ في نعمةٍ "

وقال ﷺ
" سببُ فرحُ قلبِ المخصوصِ بما يجري في الوجودِ من النَّوازلِ أنَّهُ يسبقُ إليهِ ما يكونُ قبل وقوعهِ فيبقى مترقِّباً لهُ ومتشوِّقاً إليهِ ومحبَّاً لهُ حيث علم أنَّ اللهَ أحبَّ وقوعَهُ، فإذا وقعَ ونزلَ كان ذلك هو عينُ ما كان ينتظرهُ فلا يهولهُ أمرهُ بل تجدُ قلبَّهُ مطمئناً ساكناً وإليه قبل نزولهِ راكناً ".

وقال ﷺ
" إذا أرادَ اللهُ وقوعَ أمرٍ في الوجودِ سرى في كلِّ موجودٍ وظهرَ في كلِّ شيءٍ حتَّى الحوتِ في الماءِ، ولذلك يظهرُ ما يظهرُ من آثارِ الحدثاناتِ التي ستقعُ وعلاماتُها في كف الشاة، فإذا رآها مَن لهُ في ذلك فهمٌ علمَها، وأهلُ الكشفِ يرون ذلك في كلِّ شيءٍ ويعلمونَهُ "

[1] . الحاقة (21)

وقال ﷺ

" إذا أراد اللهُ اختصاصَ بعضِ عبادهِ وجعلَهُ من أهلِ حبِّهِ ووداده لا يخصُّهُ بشيءٍ زيادةً على ما لديهِ وعلى ما جرى من المننِ عليهِ "

إنَّما يريدُ ما أسبغَ عليهِ من نعمهِ الظَّاهرةِ والباطنةِ التي أغرقَ فيها سائرَ خلقهِ ويشهدهُ إيَّاها فيجدُ من الفرحِ والسُّرورِ بمَن أنعمَ بذلك عليهِ ما يصيّرهُ من خاصةِ عبادهِ وأهلِ حضرتهِ, فنِعَمُ اللهِ تعالى محيطةٌ بكلِّ عبدٍ، والمخصوصُ من عبادِ اللهِ مَن يشهدُها ويعلمُ فضلَ سيّدهِ عليهِ فيستغرقهُ الفرحُ به حتَّى لا يلتفتُ إلى سواهُ.

وقال ﷺ

" إذا أهانَ اللهُ عبداً وكَّلهُ إلى نفسهِ ولم يزِدْهُ على ذلك، وإذا أخذ بيدهِ لم يكِلْهُ إليها".

وقال ﷺ

" علامةُ الأخوةُ في اللهِ أنَّك إذا رفعتَ يدك لتدعو لنفسِك وجدتَ أخاك نصبَ عينيكَ فيحولُ بينك وبين نفسِك فلا تجدُ بدّاً من أنْ تقدمَهُ على نفسكِ وتؤثرهُ عليها "

ويريدُ بالأخوةِ صحَّةَ نسبةِ المريدِ للشَّيخِ وحصولِ الارتباطِ بينه وبينه حسبما فهمنا ذلك عنه من سياقِ كلامهِ، ومن عادتهِ ﷺ أنَّهُ يعبّرُ عمَّا بين المريدِ والشَّيخِ وخصوصاً في جانبهِ بالأخوةِ أدباً وتواضعاً.

وقال ﷺ

" علامةُ كونِ المعاملةِ للهِ أنْ يرقَّ قلبُك أولاً ويحصلَ فيه رحمةٌ وشفقةٌ على أخيك ثُمَّ تحسنُ إليهِ، وعلامةُ قبولِ العملِ من صاحبهِ أنْ يعملَهُ وينساهُ ولا يبقى لهُ على بالٍ قالَ تعالى

﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾[1]

1. فاطر (10)

وفي هاتين العلامتين من التَّحقيقِ الواردِ من العلمِ اللَّدني مالا خفاءَ به، إذ سببُ حصولِ رحمةِ القلبِ أولاً ونسيانُ العملِ آخراً ينجو الإنسانُ من الرِّياءِ أولاً ومن العجبِ ثانياً ومن السُّمعةِ ثالثاً فيخلصَ عملهُ وإذا خلصَ كان متقبَّلاً ".

وقال ﷺ

" عدمُ الخوفِ من عدمِ التَّحقُّقِ بالقدرةِ، فمَن علمتَ أنَّ لهُ قدرةً عليك خفتَهُ فامتثلتَ أمرهِ واجتنبتَ نهيهِ "

وقال ﷺ

" الاهتمامُ بالرِّزقِ من عدمِ الثِّقةِ باللّهِ, وعدمُ الثِّقةِ باللّهِ تورثُ الذلَّ وعدمَ الاهتمامِ بالرِّزقِ من الثِّقةِ باللّهِ والثِّقةُ باللّهِ تورثُ العزَّ "

وقال ﷺ

" البركةُ في الرِّزقِ ليس بكثرةِ الدَّنانيرِ والدَّراهمِ, وإنَّما هو أنْ تقلَّ الشَّهواتُ والمطالبُ فلا يجدُ الإنسانُ مصرفاً يصرِّفُ فيـــــه ما بيدهِ, وأقوى أسبابِ الرِّزقِ التَّقوى "

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[1]

وقال ﷺ

" من علامةِ التَّقوى إخراجُ العبدِ من المضايِقِ وتيسيرِ الرِّزقِ لهُ، فمَن ادَّعاها ولم يكنْ لهُ ذلك فليس هنالك " ويتلو الآيةَ المذكورةَ

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾

وقال ﷺ

" إنَّ النَّجاسةَ لا تصحُّ بها الصلاةُ قليلُها وكثيرُها سواءٌ, كذلك النَّفسُ لا تصحُّ بها الوجهةُ إلى اللّهِ قليلُها وكثيرُها سواءٌ، فالنَّفسُ تُفسدُ على العبدِ وجهتَهُ مادامَ فيها عرقٌ يتحرَّكُ "

---

[1] . الطلاق (2-3)

وقال ﷺ

" سببُ غلظ النَّفسِ وادِّعائِها الكبرياءَ أنَّها خُلقتْ للحضرةِ وغيرِها خُلِقَ للسُّخرةِ وشتَّانَ ما بين عبدُ الحضرةِ وعبدُ السُّخرةِ "

وقال ﷺ

" الأصـــلُ في الإنسانِ الجهلُ وقد خلقَـــهُ اللّهُ لا يعلمُ شيئاً " قالَ تعالى

﴿ وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾[1]

وإنَّما خلقَهُ ليُعرِّفَهُ إيَّاهُ قالَ تعالى

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[2]

قالَ ابنُ عبَّاسٍ ليعرفون, ثُمَّ تعرَّفَ لهُ سبحانَهُ بصفاتهِ العليَّةِ وجعلَهُ مظهراً لها فجعلَهُ جاهلاً ليعلمَ أنَّ اللّهَ العالِم, وفقيراً ليعلمَ أنَّهُ الغني, وعاجزاً ليعلمَ أنَّهُ القادر, وضعيفاً ليعلمَ أنَّهُ القوي إلى غيرِ ذلك من الصِّفاتِ القديمةِ المقابلةِ للأوصافِ الحادثةِ ".

1 . النحل (78)

2 . الذاريات (78)

تَقريراتُهُ ﷺ

وقال ﷺ في قولِ القطبِ سيّدِنا عبدِ القادرِ الجيلاني نفعنا اللّهُ به

كلُّ قطبٍ يطوفُ بالبيتِ سبعاً   وأنا البيتُ طائفٌ بخيامي

" ما أراه إلَّا كان غائباً في النَّبي ﷺ حين قالَ ذلك، يريدُ واللّهُ أعلمُ، ولذلك قالَ الشَّيخُ أيضاً بعد هذا

" إنَّما القطبُ خادمي وغلامي "

لأنَّهُ إذا كان غائباً في النَّبي ﷺ حتَّى اتَّحدَ وصارَ كأنَّهُ هو كانت الأقطابُ والبيتُ وشعائرُ اللهِ كلُّها تابعةٌ لهُ ومِن عندهِ ".

وقال في قولِ سيّدِنا عبدُ القادرِ أيضاً في قصيدتهِ العينيَّةِ

وإذا قيلَ قُل لا قلتُ غيرَ جمالِها   وإن قيل إلَّا قلتُ حسنُك شائعُ

" إذا قيل انفِ وهو قولهُ " قل لا " قلتُ غيرِ جمالِها أي النَّفي لغيرِ جمالِها لأنَّ الغيرَ هو الذي يُنفى

" وإن قيل إلَّا " أي أثبتْ " قلتُ حسنُك شائعُ " أي حسنُك هو الثَّابتُ في الوجودِ ولا يصحُّ الثبوتُ حقيقةً إلَّا لهُ، والمعنى أنَّ غيرَ جمالِك هو المنفي، وحسنُها هو المثبَتُ ".

وأشار بذلك إلى كلمةِ التَّوحيدِ " لا إله إلَّا الله " يريد ﷺ أنَّ فيها نفياً بلا، وأثباتاً بإلَّا، والمنفي عنه وصفُ الألوهيةِ هو غيرُ اللهِ، والثابتُ لهُ ذلك هو اللهُ جلَّ جلالهُ، وحسنهُ هو الشَّائعُ الظَّاهرُ في الوجودِ وفي كلِّ موجودٍ، يعني والضَّميرُ في جمالِها كنايةً عن المحبوبِ وهو اللهُ سبحانَهُ ولا يضرُّ تأنيثهُ لأنَّ

الغرض الكنايةَ والإبهامَ إذ هو ألطفُ، وقد يكنُّونَ في هذا المقامِ بنحو عزةَ وليلى والقصيدةُ التي هي مطلعُها

فؤادٌ به شمسُ المحبَّةِ ساطعُ   وليس لنجمِ العذلِ فيه مواقعُ

تشتملُ على أكثرَ من ستمائةِ بيتٍ، وقد أمرني يوما بقراءتِها فقرأتُها عليهِ وهو يسمعُ من أوَّلِها إلى آخرِها وفي أثناءِ ذلك تكلَّمَ عن البيتِ المذكورِ بما ذكرتهُ وربَّما توجد هذه القصيدةُ منسوبةً لغيرِ سيِّدنا عبدِ القادرِ ﷺ وقد رأيتُها منسوبةً لسيِّدي عبدِ الكريمِ الجيلي وهو من تلامذةِ ابنِ العربي الحاتمي فاللهُ أعلمُ.

وقال ﷺ في قولِ سيِّدنا عبدِ القادرِ الجيلاني أيضاً

وعارٌ على حامي الحِمى وهو قادرٌ   إذا ضاعَ في البيداءِ عقالُ بعيرِ

" حامي الحِمى هو اللهُ تعالى، والعارُ هو العيبُ والعيبُ على اللهِ تعالى محالٌ فالمراد أنَّ ما يترتَّبُ عليهِ العارُ ويلزمُ منهُ وهو تضييعُ العقالِ محالٌ، كأنَّهُ يقولُ لا يقعُ تضييعٌ من حامي الحمى أبداً "

يعني بذلك أنَّ هذا إخبارٌ من الشَّيخِ ﷺ عن عينِ اليقينِ الحاصلِ لهُ ولا مثالهُ لأنَّ في الكلامِ جزَعاً وضجراً كما قد يُتوهَّم، وفي تقريبِ سيِّدنا أحمدَ هذا بيانٌ لما يقتضيهِ المعقولُ من يقينِ الملزومِ عند نفي لازمهِ وإشارةً إلى قياسِ استثنائي تركيبهُ من ذلك واضحٌ.

وقال ﷺ في قولِ الجنيدِ للذي رآه مناماً وسألَهُ

" طاحتْ تلك الإشاراتُ، وفنيتْ تلك العباراتُ، وأبيدتْ تلك الرُّسومُ، وغابتْ تلك العلومُ وما نفعنا إلَّا ركيعاتٍ كنا نركعُها بالسَّحرِ "

" **ليس ذلك على ظاهرهِ إنَّما هو بحسبِ المخاطَبِ الرَّائي لهُ ونصحٌ لهُ وتنبيهٌ لهُ على ما يفعلهُ وما هو اللَّائقُ بحالهِ, فالمقصودُ به التَّربيةُ وهؤلاء النَّاسِ ناصحون، والكامل يربِّي حيَّاً وميتاً** ".

وقال ﷺ في قولِ الشُّشتري

" ونقرأ سرَّ مكتومٍ في سورةِ العقودِ "

" **المرادُ بالسرِّ المكتومِ المذكورُ فيها هو قولهُ تعالى**

﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾[1]

وقال ﷺ في قولِ القائلِ

يومٌ عجيبٌ, ما كان أحلاهُ   غابَ الرَّقيبُ لا ردَّهُ اللهُ

" **اليومُ العجيبُ هو يومُ المقاديرِ والإقرارِ بالتَّوحيدِ وهو يومُ "ألستُ بربِّكم" والرَّقيبُ الذي غابَ هو النَّفسُ إذ لا نفسَ يومئذ تكدِّرُ صفو المحبَّةَ ولا شهوةٌ تُعرف بين الأحبَّةِ** ".

وقال ﷺ على قولِ القائلِ

مع محبوبي إنَّمـــا هو غيور إن   وجدَ شيئاً في قلبي أمتنعَ أنْ يزور

" **ذلك حبُّ اللهِ تعالى لا يدخلُ إلَّا قلباً صافياً من الأغيارِ خالياً قد أنفردَ لمحبوبهِ وتفرَّغَ لمطلوبهِ، ولذلك إذا حضرتِ القلوبُ عند الاجتماعِ لذكرٍ ونحوهِ يقعُ لها ما يقعُ من الوجدِ والشُّكرِ** ".

وقال ﷺ في قول القائل

" لا ديارَ إلَّا ديارَ المصطفين ".

" **ديارُ المصطفين هي مواضعُ إقامةِ سُنَّتهِ** "

وقال مرَّةً أخرى

---

[1]. المائدة (54)

" ديارُ المصطفين قلوبُ العارفين "

وقال ﷺ في ذكر شيخهِ سيِّدي قاسمٍ رحمَهُ اللهُ عندَ وفاتهِ حديث

" **كان اللهُ ولا شيءَ معهُ** " وكان يكرِّرهُ.

" إنَّ المخصوصَ إذا دنتْ وفاتهُ تلقتْهُ البشرى بما أعدَّ اللهُ لهُ من الجنَّةِ ونعيمِها وبهجتِها وزخرفِها فيُعرضُ عنها زُهداً فيها وثباتاً على ما كان عليهِ في الدُّنيا فلما رأى سيِّدي قاسمٌ ما رأى لم يلتفتْ إليهِ وصار الالتفاتُ عنده لذلك شركاً لغيبتهِ في التَّوحيدِ كما كانت حالتهُ، فجعلَ يقولُ

"كان اللهُ ولا شيءَ معهُ "

أوّله مع اللهِ "

وقال في قولِ سيّدي قاسمٍ أيضاً

" كنتُ إذا آذاني أحدٌ وضربتُ الأرضَ بيدي مجموعةً لم ينجحْ الذي ضربتُ لأجلهِ، واليومَ لستُ كذلك إنِّي لا أضربُ ولا يقعُ ذلك "

" إنَّ ذلك كان في ابتداءِ أمرهِ والآن تكمَّلَ ولم يبقَ فيه إلَّا الرَّحمةُ للخلقِ "

وقال فيما فعلَهُ الولي الصَّالحُ سيّدي عبدُ الرَّحمنِ الشَّريفِ اللَّجات رحمهُ اللهُ حيث أعطى حبَّاتٍ من القمحِ لمَن التمسَ عندهُ الدُّعاءَ بطلبِ الرِّزقِ وقال لهُ

" خذْ هذه الصُّبحَ وأعطاهُ حبَّةً، وهذه الظُّهرَ وأعطاه حبَّةً أخرى إلى آخرِ الصَّلواتِ"

" أشارَ بذلك إلى قولهِ تعالى

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾[1]

---

[1] . طه (132)

وإنَّ الرِّزقَ هو في إقامةِ هذه الصَّلواتِ، وإنَّ الأهمَّ في حقِّهِ الاهتمامُ بالصَّلاةِ لا بالرِّزقِ ".

وقال ﷺ فيما كان يفعلهُ سيّدي عزوزٌ البهلولُ دفينُ " رأسِ الجنابِ " من فاسٍ حيث كان يتسخنُ بالنَّارِ في زمن المصيفِ ويتبرَّدُ بالماءِ في زمن البردِ فقال ﷺ

" ذلك منهُ مبالغةٌ في موافقةِ القدرِ وجرياناً مع مرادِ اللهِ سبحانَهُ، فحيث كان المصيفُ أحبَّ الحرارةَ لأنَّها مرادُ اللهِ في ذلك الوقتِ وحيث كانت الشِّتاءُ أحبَّ البردَ ولأنَّهُ مرادُ اللهِ حينئذٍ فهو تابعٌ لمرادِ اللهِ أبدا" ومحبٌّ لهُ سرمداً "

مُكاتَباتُه وحِكمهُ ﷺ

وله ﷺ مكاتباتٌ مشتملةٌ على فوائدَ وحكمَ أذكرُ منها بعضَ ما وقفتُ عليهِ.

قالَ ﷺ مخاطباً لبعضِهم

" طلَبَك بأمرٍ وهو الطَّاعةُ فأبيتَ, وردَّك إليهِ بالمعصيةِ فسهوتَ، وأسبغَ عليك النِّعمَ فما شكرتَ، وجعلَ البليَّةَ لك جمعاً فشردتَ، وما ذاك إلَّا نعمةٌ منهُ عليك، فبشهودِك التَّقصيرَ يقوى اضطرارُك إلى العالمِ القديرِ وتذلُّلك لهُ هو المرادُ منك فافهم ".

أقامَك في عالمِ الملكِ وأدارَ بك أربعاً، وهي النَّفسُ والدُّنيا والهوى والشَّيطانُ, ولم يتركْ لك في الوجودِ ملجأ إلَّا إليهِ، ومن مِنَّتهِ السَّابغةُ عليك أنْ لم يجعلْ للشَّيطانِ في الحقيقةِ ولا في الشَّريعةِ عليكَ سبيلا, فانظرْ إلى قولهِ تعالى

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[1]

وممَّا أوصيك به وهو من أهمِّ المهمَّاتِ للعبدِ

" التَّحافظُ على اللُّقمةِ, فقد قيل كل ما تمنيت فمثلَهُ تفعلُ، والفرارُ من أبناءِ جنسِك فإنَّ البادئ في الطَّريقِ أكثرُ ما يشوشُ عليهِ في ظاهرهِ وباطنهِ معرفةُ الخلقِ، ومَن أنسَ بشيءٍ أوحشَ ما سواهُ، فما يخالطُ الخلقَ إلَّا مَن أذِي بهم, فإنْ قلتَ الغفلةُ عن اللهِ شغلتْنا فذلك من أعظمِ المنَّةِ عليك، فتأمَّلْ واللهُ يهدينا إلى صراطٍ مستقيمٍ، فإنَّ الغفلةَ من معاصي القلبِ وهي من أهمِّ المهمَّاتِ للعبدِ، يعني التَّنبهَ لها فانظرْ كيف اعتنى بك حتَّى ألهمكَ ما في عالمِ الغيبِ والشَّهادةِ وصدَّ عن ذلك كثيراً من الخلقِ فانظرْ إلى أثرِ رحمةِ اللهِ كيف يُحي الأرضَ بعد موتِها، وفي ذلك أدبٌ وتعظيمٌ في عالمِ الغيبِ للملكِ العظيمِ، فتأمَّلْ هنا يفتحُ لك في عالمِ الغيبِ

وتأمَّلْ في إخوةِ يوسفَ عليه السلام إذ قالوا

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾[2]

فلمَّا اعترفوا بالتَّقصيرِ ولجؤوا إليهِ جاءتهم بشارةٌ عظيمةٌ "

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ﴾[3]

" إنَّما إياسُك من معاملتِك ولم يصفْها لشهودِ وجودِك والغيبةُ عن مشهودكِ، فقابلِ الوصفَ بالوصفِ وتأملْ فما تجدُ منك إلَّا عصياناً ومنه إلَّا تفضلاً وإحساناً، فما أرى مَن يُحسنُ إليك مرَّةً في العامِ تنسى لهُ إحسانَهُ، وما أحسنَ إليك إلَّا ربُّك ومَن أحسنَ إليك ضعافَ ذلك وكانت منَّتهُ عليك في كلِّ نفسٍ كيف تقوم لهُ بحقٍّ؟ ومن أينَ وأينَ الأينُ فليس إلَّا هو كان اللهُ ولا شيءَ معهُ ".

---

1 . الأعراف (201)

2 . يوسف (88)

3 . يوسف (92)

" ثُمَّ قالَ بعد نبذةِ كلامٍ تركتهُ لتصحيفٍ وقعَ فيه ممَّنْ نقلَهُ من خطِّهِ

" ويثمرُ الاشتياقُ القربَ من حضرةِ الملكِ الخلَّاقِ وآشوقاه آه آه فشمِّرْ الذَّيلَ بنقضِ العزيمةِ عن كلِّ شيءٍ فكيف والحادي يقولُ الرَّحيلَ الرَّحيلَ إلى حضرةِ العزيزِ الجليلِ؟ فكيف الاصطبارُ والقومُ قد ساروا؟ مالي سواك يا أملي تجُدْ على عبدِك بفضلِك إنَّك على كُلِّ شيءٍ قديرٍ".

وقال ﷺ ومن خطِّهِ فقلتُ في جوابِ كتابٍ راسلَهُ به بعضُ فُقهاءِالأصحابِ

" أمَّا ما ذكرتَ يا أخي من أحوالِنا الجاريةِ على المخالفةِ فذلك لا يضيرُ فوصفَ العبدَ لا يعدوهُ, ووصفَ السَّيِّدِ وصفه فإنِّي كنتُ أخافُ أنْ ذلك بلغَ القلبَ فالحمدُ للهِ الذي مَنَّ ورحمَ فنعمَ الرَّبُّ فلا ضير

﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾[1]

اعلم يا أخي أنَّهُ ما من أحدٍ يخالطُ هؤلاءِ النَّاسَ يعني العارفين إلَّا يبتلونَهُ خوفاً عليهِ أنْ يدَّعي المحبَّةَ فيسقطُ من عينِ اللهِ وتمحيصاً للنَّفسِ وليكشف لهُ عن سريرتِها فيشاهدُ أنَّ الحبَّ منك ما هو لي ويسلطون عليهِ المخالفاتِ فلا يستطيعُ الخروجَ منها إلَّا أنْ يستغيثَ بهم وذلك كلُّهُ جمع ولا يتأتَّى لنا الكلامُ في أسرارِ التَّصريفِ، فأمَّا أنْ يعادي نفسَهُ ويفضحُها وذلك خيرٌ لهُ عند ربِّهِ، وأمَّا أنْ يسترَها ويرضى بصحبتِها فهذا يُخاف عليهِ حيث استترَ منهُم وهم رسلُ ربِّنا فلو كشفَ لنا عن أسرارِ التَّصريفِ لرأينا العللَ والمخالفاتِ كلَّها جمعٌ على اللهِ لأنَّ للأمراضِ أسراراً خفيَّةً، وفي مثلِ هذا قالَ القائلُ

يا مَن في غفل   انتبه لفعالِـك

جدد برجل من   ديون سكّانك

وهما النَّفسُ والهوى أو كلُّ أحدٍ على قدرِهِ, أما تعلمْ يا أخي أنَّ كلَّ مأذونٍ بالخلقِ معهُ من قالَ

﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾[1]

---

[1] . الأعراف (125)

فلأن أكُونَ أشتكي بعدو في لِمَنْ لهُ عليهِ قدرةٌ أحبَ إليّ من أنْ يملكني، أما تعلمْ أنَّ الطبيبَ يحبُّ مَن يُداوي والتَّاجرُ مَن يشتري منهُ، والعبدُ سُخرةَ سيّدِهِ، والعالِمُ مَن يسألُهُ عن علمه، أمَّا تعلمْ أنَّ النَّاسَ لو وجدوا مَن فيه نسبةُ اللهِ لجعلوا خدَّهم بساطَ نعليهِ.

ثُمَّ قالَ

فكلُّ ما خُضنا فيه فهو عند النَّاسِ شِركٌ ولكنْ نحن في مقامِ المجاهدة واستغفرُ اللهَ حتَّى من مقامِ المجاهدة، فاغفرْ لنا يا مَن يعلمُ السرَّ وأخفى إنَّك على كلِّ شيءٍ قديرٌ" انتهى.

وقولهُ في صدرِ هذا الكلام " **وأمَّا ما ذكرتَ من أحوالِنا الجاريةِ على المخالفةِ** "

هي أحوالُ المراسَلِ لهُ كان شكاها لهُ ﷺ على سبيلِ الاستغاثةِ والوسيلةِ به وأضافها سيِّدُنا أحمدُ إلى نفسهِ تواضعاً وأدبا مع اللهِ، وقولهُ " **فذلك لا يضيرُ** " يعني حيث حصلَ الرُّجوعُ والإنابةُ إلى اللهِ، كما يستفادُ من بقيَّةِ كلامهِ.

وقولهُ " **وهم رسلُ ربِّنا** "

يعني مأذونينَ عن اللهِ ونائبينَ عن رسولِ اللهِ ﷺ والعلماء ورثة الانبياء في العلم والدلالة على الله وهم العارفون بالله فهم رُسُل بواسطة النَّبي ﷺ.

وقال ﷺ مخاطباً لبعضِهم ومن خطِّهِ نقلتْ أيضاً

" وبعدُ فإنِّي أذكرُ لك أمراً ولستُ من أهلهِ فيحملُ فضلُكم جهلي ولحني ولكنَّ اللهَ يعاملُ العبدَ على نيَّتهِ ومقصدهِ، إنِّي أراك منهُ تحبُّ جانبَ من لا يخفاك اسمه، ثُمَّ إنَّك تخالطُ مَنْ لم يسلِّموا قطُّ شأنَهُ وإن لم يظهرْ ذلك شيئاً في شأنهِ فيه فلا يخفاكَ حالُهم ولا يخلوا أنْ تجري على شهوتِهم أو تفارقُهم، فإذا لم تفعلْ يعني لم تفارقْهم فلا تنفعُك عن أنْ تأتي هؤلاء بوجهٍ وهؤلاء بوجهٍ، واللهُ ما فرضَ هذا لك ومِن المُحال وكيدُ النُّفوسِ أنْ تقولَ إنِّي على ديني يعني العهدَ ولستُ أُبالي بهم فلا أعظمُ إيماناً ممَّنْ قالَ تعالى لهم

---

1 . طه (46)

﴿ فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾[1]

ثُمَّ قالَ وقد علمتُ أنَّ الشَّيخَ رحمهُ اللهُ لا أكثرَ ممَّا حذَّرَ من خلطةِ من يُعجبُكَ حالهُ أيتكلمون عبثاً فلا أدري ؟

أمَّا أقولُ لك حقٌّ أم هذه شهوةٌ لأنَّهم قالوا من دسائسِ النَّفسِ أنَّها تقرُّ بضلالتِها عن الطَّريقِ وعصيانِها وتقصيرِها فيما أمرَ به سيِّدُها حتَّى يقولَ صاحبُها الحمدُ للهِ الذي أنقذْني من الغلطِ وما ذاك إلَّا أنَّهُ بحبلِها قد أرتبطَ، وقد رأينا من هو أجملُ منَّا نهاهُ المشايخُ عن خلطةِ الإخوان فما بالُك من ليس بأخٍ، وليس الكلامُ على صلةِ الرّحِمِ إنَّما الكلامُ على الحديثِ الذي هو رضاعةُ النُّفوسِ, أمَّا علمتَ أنَّ الرِّضاعَ يغيِّرُ الطِّباعَ، والإنسانُ لا يشعرُ، وإن ظهرَ لك غيرُ ذلك فأفدني به يرحمُك اللهُ لأنَّ لي عليكَ حقَّ معرفةَ اللهِ".

وقال ﷺ ومن خطِّهِ كتبتهُ

" إعلمْ يا أخي أنَّهُ لا يستجيبُ لسماعِ العلمِ والدِّينِ إلَّا قليلٌ من الخلقِ، فالنَّاسُ مكبُّون على الدُّنيا كالمريضِ لا يشتهي الطَّعامَ لاستيلاءِ المرضِ عليهِ، وهم معذورون من جهةِ الحقيقةِ، والطَّالبُ للدِّينِ نادرٌ قالَ اللهُ العظيمُ

﴿ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾[2]

ولا تبالي بإساءةِ الإخوانِ إليك فذلك نعمةٌ من اللهِ عليكَ

" فشرُّهم كما قيل يُصيبُك في بدنِكَ وخيرُهم يصيبُكَ في قلبِك ولِئِنْ تُصابَ في بدنِك خيرٌ من أنْ تصابَ في قلبِك "[3]

وقالَ ﷺ فيما وجدتْهُ بخطِّهِ أيضاً

" من شأنِ النَّفسِ الميلُ للقبولِ إذا تكلَّمتْ أو أَمرتْ تُحبُّ الامتثالَ إلى أمرِها وفي ذلك فضيحتُها "

---

1 . النساء (140)

2 . ص (24)

3 . الكلامُ للشيخِ أبي الحسن الشاذلي.

﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾[1]

وقال ﷺ يخاطبُ بعضَ الأصحابِ كان قَطَع عنه كلامَهُ تأديباً لهُ فشكا ذلك الصَّاحبُ إليهِ مراسلةً حيث لم يقدرْ على المشافهةِ لما يلاقيهِ بسببِ قطعِ الكلامِ عنه من الغمراتِ والحسراتِ والوساوسِ والخطراتِ وإرادةِ إلقاءِ نفسهِ في المهامهِ والبلواتِ وهو يصفُ إليهِ حالَهُ ويستعطفهُ ويتملَّقُ لهُ فقال ﷺ مجيباً لهُ ومن خطِّهِ نقلتُ ما نصهُ

" الحمدُ للهِ وسلامٌ على مَن اتّبعَ الهدى أمّا بعدُ فلو كنتَ كما زعمتَ لأغاثكَ مَن لهُ العلمُ والحلمُ والقدرةُ لكنْ ادَّعى لسانُك ما ليس لك وغرّك ما غرَّ مَن قبلَك، فما هربتْ نفسُك منّا إلّا خوفَ النَّصيحةِ وإنْ كنَّا لسنا مِن أهلِها، فما اتّهمتَ نفسَك فيما تدَّعي، وما صدقتَ فيما به تشتكي، وقد أسرتْكَ بطمعٍ ليس لها فيه حركةٌ ولا سكونٌ فعادتْ مشورتُك معها فدونَك ما أشارتْ به عليك وأعرضْتَ عمَّنْ ناصيتُك بيدهِ، وأردتَ اتّباعَ الهُدى والتزيُّنَ للخلقِ ولم تخفْ من الملكِ الحقِّ قالَ تعالى

﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾[2]

فتُبْ إلى ربّكَ واسألْهُ غُفرانَ ذنبِك وتبرَّأْ إليهِ من عُيوبِ نفسِك، وقل يا أرحمَ الرَّاحمين عسى الكريمُ أنْ يتوبَ علينا أنَّهُ أرحمُ الرَّاحمين، ولا تلتفتَ للخواطرِ، وأطلبِ اللهَ أنْ يمنَّ علينا بذكرِهِ وأنْ يعاملَنا بفضلهِ أنَّهُ الغني الكريمُ ".

وقال ﷺ يخاطبُ بعضَهم ومن خطِّهِ كتبتُ أيضاً

" اعرفْ كيف تعيشُ وأشرْ إلى ربّك واسألْهُ النّجاةَ في الدُّنيا والآخرةِ أنّهُ جواد كريم ذو فضلٍ عظيمٍ، وأذكرْ مسائلَ تضرُّني بها منها أنّك أنْ كَتَبْتَ لي كتاباً تقول في أوله سيِّدي وضيفي فلا تعدْ لمثله, ومسألةَ الدّراهمِ التي أرسلتَ في شأنِها قالَ تعالى

---

1 . القلم (32)

2 . الكهف (20)

﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾[1]

فالتَّعفيفُ عن الحرامِ إنْ ظهرَ للنَّاسِ فهو معصيةٌ أخرى فاتَّقِ اللهَ فيما لا يظهرُ للنَّاسِ ولا يعلمُه إلَّا هو، واعلمْ أنَّ مرجعَك إلى اللهِ، واعلمْ إنَّك تقفُ بين يديهِ، ولا ينجيكَ إلَّا الصِّدقَ، فاللهُ يرزقُنا الصِّدقَ ويعافينا من ضدِّهِ والسَّلام ".

وقال ﷺ فيما كتبَ به في شأنِ الجهادِ جواباً لمَنْ راسلَهُ في ذلك من القوَّادِ وخطاباً لمَنْ يبعثُ بذلك إليهِ

" ما طلبَ منَّا القائدُ إلَّا الدُّعاءَ فقط واللهُ يكونُ في عونهِ وعونِ المسلمين ولكنْ أذكرُ لكم شيئاً حدَّثني به بعضُ النَّاسِ وهو أنَّ القصبةَ التي كان يحاصرُها المسلمون بطنجةَ، كان بعضُ المجاهدين من البربرِ النَّازلين بها يطلبُ قوتَهُ في السُّوقِ وباللَّيلِ في خفيةٍ والخدَّامُ يضربونَهم وهم في الحفيرِ على إعطاءِ المؤنةِ للجيشِ وهم في غايةِ ما تكونُ الحاجةُ والفاقةُ وهذا لا يعودُ ضررهُ إلَّا على الوالي عليهم فقط، فكيف يكونُ الفتحُ والنَّصرُ؟ قالَ تعالى ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾[2]

وأمَّا القائدُ عمرُ فقُل لهُ إنَّ النَّصرَ مع الصَّبرِ والفتحَ مع الإنابةِ إلى اللهِ والتَّبرِّي من الحولِ والقوَّةِ, والدُّنيا لا يدومُ عزُّها وجاهُها والعاقلُ الكيِّسُ مَن لَم يفتْهُ حظُّهُ من الآخرةِ ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾[3]

فاكتبْ لهُ بما يليقُ وأخبرهُ ببعضِ ما أخبرتُك به وحضُّهُ على الخيرِ ما استطعتَ والرِّفقِ بالمساكين فبذلك يرحمهُ اللهُ ويكونُ في عونِه ويقيهِ العثراتُ وييسِّرُ عليهِ العسيرَ، ويجعلُ لهُ النَّصرَ على مَنْ ناوأهُ إنَّما يرحمُ اللهُ من عبادهِ الرُّحماءَ والسَّلام ".

ومن كلامهِ ﷺ نظماً قولهُ

1 . البقرة (271)

2 . الفتح (29)

3 . الأعلى (17)

يا حادياً قلبي على جمرِ الغضا لديارِهم يشتاقُ كُن لي مُرشِدا
فأجابني إنَّ الدِّيارَ لديكُم ماذا الذي منكُم لذلك أوردا
مطلوبُكم هو من قريبٍ لم يزَلْ أبداً ولم يكُ بالدِّيارِ مقيّدا
كالشَّمسِ تظهرُ فيك نوراً تُجتلى في قربِها وتقولُ ذلك مُبعدا
فالشَّمسُ أوردتْ المسيرَ عليك كمْ تضحى بحدّك في المسيرِ مؤيَّدا
رَدِّدْهُ مِنْ ذِكرٍ إلى فكرٍ وكُن بعنايةٍ في ذا الغرام مجدِّدا
لا تَطلبنَّ سواهُ قاصدُ حاجةٍ تجدنهُ ما قد كُنتَ يومِك أو غدا
ها كيفَ تَطلُبُ منهُ حظَّاً تافها وتركتَ ما قد كان ويحكَ أمجدا
بل ليسَ يُرضى مِنكَ تَطلب دونَه عوضاً لهُ لا حبَّذا لكَ مقصدا
فيما عنايةُ فضلهِ لكَ ترتضي لو كُنتَ عبداً حرَّ نارٍ موقدا
أبداكَ مظهرَ قدرةٍ وعجائب يفنيك به عنك لا تَكُ ملحدا
لا تخشى عن قلبٍ تولَّاهُ له أزلاً وحلَّاهُ بنورِ مُحمَّدا

أنشأها ﷺ أوان بدايتهِ كما يشير إليهِ مطلعُها وكما يشيرُ إليها أيضاً قولهُ فيها " فالشَّمسُ أوردتِ المسيرَ عليك " وكذا بقيةُ كلامهِ فيها فنظمَها لذلك العهدَ هي وقصيدةٌ لهُ أخرى عينيةٌ تتضمَّنُ مدحَ شيخهِ سيِّدي قاسمٍ رحمَهُ اللهُ تقدَّمَ ذكرُها في بابِ بدايتهِ ﷺ.

وقد اتَّفقَ أنْ دخلَ ﷺ يوماً عليَّ أنا ورجلٌ آخرَ من الأصحابِ بصقلبيَّةِ الزَّاويةِ فوجدَهما في بطاقةٍ بيدِ ذلك الرَّجلِ فناولني إيَّاها وأشارَ عليَّ بوزنِهما فعرضتُهما على الوزنِ فإذا هما من عروضِ الكاملِ، وفي بعضِ أبياتهما كسرٌ فأصلحتُهما بعد ذلك حتَّى استقامَ وزنُهما عن إذنٍ منهُ ﷺ مع التَّحافظِ على عبارتهِ ما أمكنَ، ولو خالفتِ الإعرابَ ولم تتَّفقْ لهُ مخالفتهُ إلَّا في آخرِ بيتٍ من هذه حيثُ نصبَ المضاف إليهِ في قولهِ وحلَّاهُ بنورِ مُحمَّداً لحكمِ القافيةِ عليهِ

بذلك، وأمَّا قولهُ فيها " وتقولُ ذلك مبعداً " فجارٍ على لغةِ بني سُليمٍ وليس لهُ نظمٌ على طريقةِ أوزانِ العربِ سواهُما.

وله ﷺ أنظامٌ أُخرَ على طريقةِ أهلُ الملحونِ مشتملةً على حِكَمٍ صوفيةٍ وكلامٍ في الطَّريقِ وبعضُها يشتملُ على اخبارات تأتي غيبيةً، مكتوبٌ كلُّ ذلك بخطِّهِ.

أخبرني بعضُ الثُّقاتِ من خاصَّتهِ أنَّهُ كان لهُ ربعة مملوؤةً بتغييرات من ذلك وأوزانٍ وإنَّهُ أتى على جميعِها الاحتراقُ ووددْنا لو أطَّلعنا على ذلك وامتعَنا بما هنالك ولكنَّ اللهَ يفعلُ ما يشاءُ ويحكمُ ما يريدُ، نسألهُ سبحانَهُ النَّفعَ بما وجدناه وكرامةَ المزيدِ فقصدهُ المأمولُ وبحرُ جودهِ مديدٌ.

تَعبيرُهُ ﷺ للرؤيا

وله ﷺ في تعبيرِ الرؤيا كلامٌ لطيفٌ وتأويلاتٌ حسنةٌ أذكرُ ما حضرني منها وما عبَّر شيئاً منها بفراستهِ النَّيرةِ إلَّا وقعَ كذلك.

فمِن ذلك إنِّي رأيتُ ليلةً هريراتٍ صغارٍ تتعلَّقُ بعنقي من غيرِ إذايةٍ وتدخلُ في أكمامِ قميصي، فحسبتُ أنَّها الشَّياطينُ فلما قصصتُها عليهِ قالَ لي

" تلك القراءةُ علقتْ بك لا تفارقُكَ واقرأ إنْ شئتَ قولَهُ تعالى

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾[1]

ثُمَّ قالَ لي " ألم يقلِ المفسِّرون أنَّهُ الكتابَ "ومن صنعِ اللهِ وظهورِ مصداقِ هذا التَّأويلِ أنِّي لم أكُنْ حينئذٍ مشتغلاً بالتَّدريسِ ولا مهتمّاً به لشغلي بمخالطتهِ ﷺ وفي هذا الوقتِ حرَّكَ اللهُ العزمَ للتَّدريسِ فأنا مشتغلُ به ومداومٌ عليهِ.

ومن ذلك أنّي سمعتهُ يوماً يقولُ

" رأيتُ في المنامِ فئراناً كثيرةً وحماماً كثيراً وذلك الحمامُ ينقُب تلك الفئرانَ، ففي كلِّ فمِ حمامٍ فأرٌ، فأوّلتُ ذلك أنَّ الظُّلَّامَ أهلُ الفسادِ يموتون وأنَّ الحمامَ المرادَ به الحِمامُ بالكسرِ وهو الموتُ، والفئرانُ الظَّلَمَةُ، وكان إذ ذاك جيشُ البربرِ القائمِ على السُّلطانِ مقابلٌ لجيشِ السُّلطانِ "

ففهمنا أنَّ هذه الرؤيا تقعُ هناك، فكان كذلك وظهرَ مصداقُها فيه، وأُخذَ جيشُ البربرِ والعياذُ باللهِ وقتلوا تقتيلاً ولم يتركْ الآخرون منهُم إلَّا قليلا.

ومن ذلك

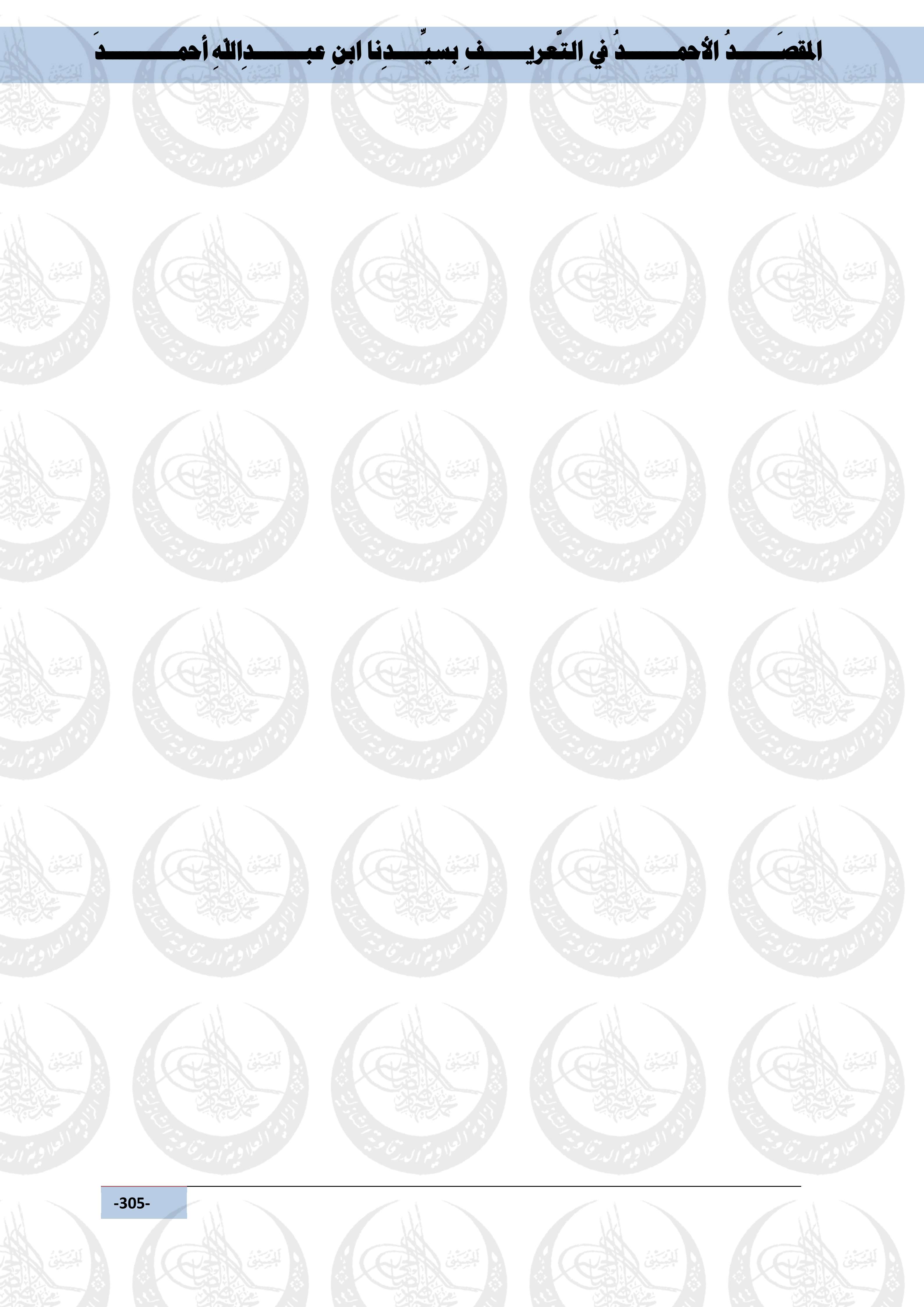
" أنَّهُ رأى ليلةً امرأةً في يديها حنَّاءٌ، فأخبرَ أنَّها تمرُّ عليها محنةٌ "

فكان كذلك إلى غيرِ ذلك ممَّا لا أتذكرُ الآنَ, وهذا البابُ أعني بابَ الكلامِ أوسعُ من أنْ تُستوفى أنواعهُ وفوائدُه وتُجمعُ مسائلهُ وشواردهُ إذ لم نزلْ نسمعُ من كلامهِ حِكَماً وفوائدَ ودرراً من المعارفِ وفرائدَ ولكنَّ النِّسيانَ مُستولٍ على الإنسانِ وما علقَ منهُ بالأذهانِ والأفهامِ إلَّا ما كثرَ سماعهُ وتكرارهُ على مرِّ اللَّيالي والأيَّامِ، وقد تقدَّمَ منهُ في أثناءِ الأبوابِ وخصوصاً البابَ الذي قبل هذا ما ليس بقليلٍ ممَّا لو جُمعَ نَسقاً واحداً لكانَ فيه كمالُ المرامِ وشفاءُ الغليلِ، ولو أُفردَ هذا البابُ بالتَّصنيفِ لكان حقيقاً ولعلَّنا نتعرَّضُ لهُ إنْ شاءَ اللهُ في جزءٍ مستقلٍّ إنْ وجدنا لذلك طريقاً، وقد حكيناهُ بالمعنى وجرينا فيما أوردنا على ذلك

---

[1] . ص (16)

المبنى مع محادات عبارتهِ ما أمكنَ وايرادُها بعينِها إنْ وافقَ اللِّسانَ لفظُها المعينُ، والحكايةُ بالمعنى أمرٌ مألوفٌ وكذا الرِّوايةُ برعايةِ شرطِها المعروفِ، وقد أجازَها للعارفِ أهلُ الحديثِ وروَوا بها كلامَهُ ﷺ في القديمِ والحديثِ فما بالُك بحديثٍ من دونه فما زالوا مرتكبون فيه ذلك ويستعملونَهُ وقد أوجبَ النَّحويُّون في الجملِ غيرِ المُعربةِ الحكايةَ بالمعنى ومنه ما حكيناهُ ﷺ من جُلِّ ما ذكرنا أفاضَ اللهُ علينا من بركاتِه وخوَّلنا من نفحاتِه، ونفعَنا بعلومهِ وأسرارِهِ ومعارفِه وأنوارِهِ آمين.



البابُ التَّاسعُ في جُملةٍ كَراماتِهِ وبَعضِ ما جَرى مِن تَصريفاتِهِ

قد منح اللهُ سيّدَنا أبا العبَّاسِ ﷺ من الإحسانِ والعرفانِ والرُّسوخِ والإيقانِ ومتابعةِ السُّنَّةِ المُحمَّديَّةِ والسيرةِ النَّبويةِ وكمالِ الاستقامةِ التي هي أصلُ هذا البابِ وخلاصةُ كلِّ كرامةٍ ولبابٍ, وحباهُ من ذلك كلِّهِ حالاً وعملاً ما عُدِمَ فيه النَّظيرُ وضُربُ في النَّاسِ مثلاً ممَّا يخبرُك عن جميعهِ ما قدَّمناهُ، ويرشدُك إلى تفصيلهِ ما أسلفناهُ، وأكرمَهُ سبحانَهُ بكراماتٍ ذوات عددٍ، ومدَّهُ من ذلك بأعظمِ مددٍ، وأظهرَ عليهِ من آثارِ التَّصريفِ والكشفِ والتَّعريفِ ما يُنبئُ عن الخصوصيَّةِ العظمى والمحبوبيَّةِ الكبرى المشيرُ إليها قولهُ ﷺ عن اللهِ عزَّ وجلَّ " **فإذا أحببتهُ كُنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ به وبصرَهُ الذي يبصرُ به ويدَهُ التي يبطشُ بها**"[1]

وناهيك بها مع المتابعةِ آيةٌ وكرامةٌ وعنايةٌ

﴿ **أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ** ﴾[2]

ذلك هو الفضلُ العظيمُ والمددُ الجسيمُ، وما اتَّفقَ إلَّا لعبدٍ محبوبٍ ومرغوبٍ فيه مطلوب.

وقد أجرى اللهُ سبحانَهُ من الكراماتِ على يدِ سيّدِنا أحمدَ ﷺ ما لا يكادُ يعدُّ ولا ينحصرُ كثرةً ولا يُحدُّ، فلا تلقى أحداً من قرابتهِ وذويهِ أو ممَّنْ يصاحبهُ يليهِ إلَّا وجدتهُ لهجاً بما اتَّفقَ لهُ من ذلك ومحدّثاً بما رأى لديهِ وشهد من العجبِ هنالك، فصارتْ عندهم لكثرةِ ما يشاهدون منها ويرون من الأمور المُنبئةِ عنها

---

1 . الحديث رواه البخاري وتمامهُ (من عادى لي وليا فقد آذنتهُ بحرب مني، وما تقرب لي عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضتهُ عليه، وما زالَ عبدي يتقربُ إليَّ بالنوافلِ حتى أحبَّهُ فإذا أحببتهُ كنت سمعهُ الذي يسمعُ به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، وقدمهُ التي يمشي بها، وإذا سألني لأعطينهُ وإذا استغفرني لأغفرنَّ له وإذا استعاذني أعذتهُ).

2 . هود (17)

أمراً ضرورياً وعلماً يقينياً لا يستغربون صدورَها ولا يستكثرون أُمورَها، فحدِّثْ عن البحرِ ولا حرجَ، وأروي عن المشاهدةِ لا ما في سلكِ النُّقولِ اندرجَ، وأنقلُ عن ما برزَ للعِيان لا عن النَقَلةِ الأعيانِ فلست ترى مُسطّراً إلَّا ما برز في زمانك وظهر في أوانك ولا يمكن استيفاء ما عنه صَدَر ولكن الغرض جمع ما تيسر وحضر ولو تتبعناها لملأت أسفاراً ولكن بيّنا عن ذلك العنان اقتصاراً على حسب المجهود وما علق بالحفظ من الموجود وهي على أصناف مختلفات الأوصاف ما بين تصريفات من دفع خُطوب ونَصر مَظلوم وإهلاك ظالم وتكثير طعام وإبراء عاهةٍ وبين مكاشفات وإجابة دعوات وغيرها من خوارق العادات من الأمور الصادرة عنه وعلى يده.

تَصريفُهُ رضي الله عنه

فأمَّا ما كان من قبيلِ التَّصريفاتِ، إمَّا ظاهراً بحيث يُفهم ذلك عنه رضي الله عنه تصريحاً أو إشارةً وتلويحاً، وإمَّا محتملاً بحيث يحتملُ أنْ يكونَ من قبيلِ التَّصريفِ أو المكاشفةِ.

فمنها أنَّ روضةَ الشَّيخِ سيِّدي علي بنِ حرزهم نفعنا اللهُ به كانت بيدي وبيد أخي زماناً فأخذ خراجَها، وكان قبل ذلك بيدِ بعضِ أعمامِنا مدَّةً طويلةً فطلبَها من السُّلطانِ بعضُ أبناءِ الصَّالحين وطلبَ معها ولايةَ خطةِ المواريثِ فأعطاهُ السُّلطانُ أيَّاهما وولَّاهُ المطلوبينِ كليهما، فلم تُمكنَّا مراجعةَ السُّلطانِ في ذلك إذ كنا وقتئذٍ نتردَّدُ لسيِّدِنا أحمدَ، ونعلمُ أنَّهُ لا يحبُّ ذلك، فذهبنا إليهِ رضي الله عنه وأخبرناه بخبرِنا وأسلمنا إليهِ الأمرَ، فأرسلَ من غيرِ علمٍ منَّا إلى الرَّجلِ لكونهِ لهُ دلالةٌ

عليهِ يشيرُ عليهِ بالقسمةِ ويذكرُ لهُ احتياجَنا إلى ذلك واستحقاقَنا لهُ، فأبى الرَّجلُ القسمةَ وقال

" لا أقدرُ على شيءٍ من ذلك "

فلمَّا رجعَ المرسَلُ معهُ إلى سيِّدِنا أحمدَ ﷺ وأخبرَهُ بما كان من أمرهِ أخذتهُ غيرةٌ على الجانبِ الفتوِّي وتلوَّنَ وجههُ وقالَ

" واللهِ لا تبقى بيدهِ ولا أتركُها لهُ "

وضربَ بيدهِ على الأرضِ مجموعةً كفُّهُ حين قالَ ذلك، فما مكثَ الرَّجلُ إلَّا مدَّةً يسيرةً وإذا بالسُّلطانِ تنكَّرَ لهُ من دونِ سببٍ علمناهُ وكرهَهُ وأزالَ الرَّوضةَ من يدهِ وعزلَهُ عن خطَّةِ الإرثِ وولَّاها غيرَهُ فبقيَ منعزلاً عن السُّلطانِ خائفاً منهُ إلى أنْ ماتَ.

ومنها أنَّهُ ﷺ كان يوماً جالساً بصقلبيةِ الزَّاويةِ وقد اعتراهُ حالٌ قوي ظهرَ عليهِ فصاحَ ثُمَّ قالَ

" الأندلسَ الظلّامَ الأندلسَ الكلابَ، الأندلسَ المشتغلون بالخلاطِ والفسادِ، واللهِ إنَّ الغشَّ الذي يجتمعون عليهِ ما أطلقتُ النَّارَ فيه إلَّا بيدي ".

فمضتْ بعد ذلك مدَّةٌ ثُمَّ قبضَ الحاكمُ على عصابةٍ من أعيانِهم وكبارِهم ممَّنْ كان يسعى في ثورانِ الفتنةِ منهُم وطلبِ الإمارةِ طولَ عمرهِ السَّعيَ الحثيثَ والطلبَ الكثيرَ وسجنَهُم حتَّى صبيانِهم، وشدَّدَ عليهم من غيرِ كبيرٍ عملوهُ حينئذٍ ثُمَّ أرسلَ إلى السُّلطانِ في شأنِهم يشكوهم بما سولَّتْ لهُ نفسُه فيهم فأجابَهُ بأنْ يفعلَ فيهم ما بدا لهُ فقتلَهُم ببابِ السِّجنِ صبراً وخنقَ بعضَهم في داخلِ السِّجنِ ولم ينجُ منهُم إلَّا بعضَ مسيءٍ كان اختفى بالزَّاويةِ ثُمَّ فرَّ عن البلدِ بل عن القطرِ المغربي، وماتَ باقي عيالِهم وبناتِهم بالوباءِ وتُركتْ ديارُهم بلاقعَ[1] والأمرُ للهِ وحده.

[1] . أرض بلقع أي خالية لاشيء فيها.

ومنها أنَّهُ ﷺ أرسلَ رجلاً من أصحابِنا يُقال لهُ الحاجُّ ابن يحيى إلى الحاكمِ التلمساني وكان حاكماً بفاسٍ بعد مضي الثَّورةِ الكبرى في شأن دارٍ غصبَها من بعضِ المساكينِ، فمضى إليهِ وكلَّمهُ في ردّها فأمتنعَ وأبى فرجعَ إلى سيِّدِنا أحمدَ وأخبرَهُ فقال لهُ سيِّدُنا أحمدُ

" هؤلاء الظَّلمةُ إذا أراد اللهُ هلاكهُم عثروا عثرةً تكونُ سببَ زوالِهم ".

ثُمَّ قالَ لهُ

" يا أبا يحيى أرى الذي يتكلَّمُ مع هؤلاء الحكَّامِ يكونُ تحته موساً ماضٍ إنْ قالوا هكذا يقلْ لهم هكذا، وأشارَ بيدهِ كالضَّاربِ بالسَّيفِ "

فما بقيَ بعدها الحاكمُ المذكورُ إلَّا يومين اثنين وإذا به قد قبضَ عليهِ السُّلطانُ وعزلَهُ والقاهُ في سجنِ فاسِ الجديدِ، وغضبَ عليهِ غضباً شديداً وجعلَ يتوعَّدهُ ويُهدّدهُ بسلبِ مالهِ وقتلهِ فسألَهُ بعضُ خاصَّتهِ عن سببِ ذلك فقالَ

" ما أعرفُ الآنَ على أيّ سببٍ قبضتهُ ".

ولمَّا نزلَ بالحاكمِ المذكورِ ما نزلَ تفطَّنَ إنَّ ذلك أتاهُ من قِبلِ سيِّدِنا أحمدَ وبسببِ ردّ شفاعَتهِ، وكان ممَّنْ يعرفهُ ويأتي لزيارتهِ فبعثَ لدارهِ أولادَهُ الصغارَ شُفعاءَ يطلبون المسامحةَ فيما فعلَ، فلمَّا جاءوا واستغاثوا بسيّدنا أحمدَ وتضرَّعوا إليهِ رقَّ لهم وتعطَّفَ عليهم فسلَّاهُم وأزالَ ما بهم.

ثُمَّ قالَ للحاجِّ ابنِ يحيى

" اذهبْ إليهِ للسِّجنِ وقلْ لهُ لا تخفْ ستطلقُ إنْ شاء اللهُ "

فذهبَ وأخبرَهُ فسُرَّ بذلك وجعلَ يقولُ

" أهو قالَها " ؟

فمكثَ في السِّجن أياماً ثُمَّ لمَّا كانَ ذات يومٍ ذهبَ سيِّدُنا أحمدُ إلى فاسٍ الجديدِ فلقيَ بها صاحبَنا الحاجَّ ابنَ يحيى قالَ

" فذهبَ وذهبتُ إثرَهُ فمررنا على السِّجنِ "

فجعلَ سيّدُنا أحمدُ ينظرُ إليهِ ثُمَّ قالَ

" أما يُطلقُ الحاكمُ التِّلمساني ".

قالَ

" فظننا أنَّهُ يريدُ أنْ يبعثَني إلى بعضِ كُبراءِ الدَّولةِ فقلتُ لهُ يا سيّدي أذهبُ إلى فلانٍ وأكلمَهُ فيه ".

فقال لي مُنكراً عليَّ

" لا لا إنَّهُ سيُطلقُ "

ثُمَّ مضينا فما بقيَ بعدُ إلَّا يومينِ اثنين وإذا بالسُّلطانِ أذنَ بسراحهِ فاطلقَهُ ولم يأخذْ من مالهِ شيئاً، ولم يكنْ رأى منهُ أيَّامَ سجنهِ ما يكرهُ بعد تأمينِ سيِّدِنا أحمدَ لهُ ﷺ ونفعنا به.

ومنها قضيَّةٌ للكاتبِ عبدِ الواحدِ كان حضرَها أخي أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد العربي حفظَهُ اللهُ وقيَّدَها من فورهِ ونصُّ ما قيَّدهُ

" الحمدُ للهِ كنَّا جلوساً بالزَّاويةِ ومعنا الكاتبُ الأرضى صاحبُنا أبو الرَّبيعِ سليمانَ بنُ عبدِ القادرِ الزَّرهوني وسيّدُنا أبو العبَّاسِ ﷺ جالسٌ مع بعضِ الفقهاءِ قريباً منَّا ثُمَّ قامَ سيِّدُنا ليذهبَ فقامَ أبو الرَّبيعِ يتلقَّاهُ، فلمَّا وصلَ إليهِ قالَ لهُ سيّدُنا أبو العبَّاسِ ونحنُ نسمعُ

" أنت مرهونٌ "

فلم يعِ ما قالَ لهُ وصدمتْهُ هيبتهُ فقال لهُ

" ما تقولُ يا سيِّدي " ؟

فقال لهُ ثانياً

" أنت مرهونٌ "

وانصرفَ وتركَهُ فبقيَ أبو الرَّبيعِ متحيّراً في أمرهِ ولم يدرِ ما معنى ذلك.

فلم يكنْ بعد ذلك إلَّا يومان وإذا الخبرُ جاءَ من مكناسةَ الزَّيتونِ أنَّ السُّلطانَ قبضَ ابنَ اختِ الكاتبَ عبدَ الواحدِ وسجنَهُ بدارٍ هنالك وأمرَهُ أنْ يعطيَ مالاً كثيراً، وكان الكاتبُ عبدُ الواحدِ هذا قد أغضبَ سيِّدَنا أحمدَ في شيءٍ فتوعدَهُ بشرٍّ، فعرفَ أبو الرَّبيعِ حينئذٍ أنَّ المرادَ بكونهِ مرهوناً هو رهنُ ابنِ اختهِ إذ هما شيءٌ واحدٌ وخافَ إذ ذاك على نفسهِ أنْ ينالَهُ مكروهٌ من السُّلطانِ من أجلهِ فجاءَ إلى سيِّدِنا أحمدَ فزعاً وقصَّ عليهِ الخبرَ فقال لهُ

" أنت لا بأس عليك فلا تخفْ "

فسكنَ عند ذلك روعهُ ولم يرَ مكروهاً من بركتهِ ﷺ بل جعلَ السُّلطانُ يقولُ للكاتبِ عبدِ الواحدِ وهو مسجونٌ

" لولا سليمانُ لأهلكتُك ولفعلتُ بك كذا وكذا "

وبقيَ محبوساً أيَّاماً وأعطى مالاً كثيراً وقاسى شدَّةً وتيقَّنَ أبو الرَّبيعِ أنَّ ابنَ اختهِ المذكورِ إنَّما أتى من قِبلِ سيِّدِنا أحمدَ إذ كان عالماً بقصَّتهِ معهُ وخائفاً عليهِ من أجلِها مترقِّباً ما ينزلُ بهِ كما أخبرني هو بذلك، ثُمَّ ذهبنا إلى ابنِ الكاتبِ عبدِ الواحدِ صغيرٍ وأُرسلَ به شفيعاً مع أمةٍ لهُ عجوز إلى سيِّدِنا أحمدَ فأدخلتهُ عليهِ بدارهِ ووضعتْهُ في حجرهِ وقالت لهُ

" يا سيِّدي هذا ابنُ سيِّدي فلانٌ المسجونُ جاءك مستغيثاً فعاملْهُ للهِ "

ونحوهِ من الكلامِ، فأشفقَ منهُ ووضعَ يدَهُ على رأسهِ محاسناً عليهِ وقال لها

" أنتم دفعتُم أمرَكم إلينا ونحن نرفعهُ إلى اللهِ " ودعا لهم وانصرفتْ وكان ذلك إثرَ صلاةِ الجمعةِ.

فمنِ الغدِ عندَ طلوعِ الشَّمسِ جاءَ الرَّسولُ من مكناسةَ مبشِّراً بسراحهِ من دونِ شفاعةِ أحدٍ فيه وبلا سببٍ، وأخبرَ أنَّ سراحَهُ كان بعد صلاةِ الجمعةِ، وكان وقتَ كانَ الصّبي في حجرِ سيِّدِنا أحمدَ ﷺ ونفعنا به آمين.

ومنها قضيَّةُ رجلٍ يُدعى برضوانَ وهي قضيَّةٌ طويلةٌ مشتملةٌ على وقائعَ جزيلةً كان هذا الرَّجلُ هو القيّمُ على روضةِ الشَّيخِ سيِّدي أحمد الشَّاوي نفعنا الله به والوالي عليها قد اتَّفقَ لهُ بسببِها وجاهةٌ وظهورٌ، فكان يوالي رؤساءَ الدَّولةِ وكبراءَها ويواصلُهم ويلاطفُهم بأنواعِ الملاطفةِ والتَّقرُّبِ، ويُدلي بالرَّوضةِ التي بيدهِ حتَّى حصلَ لهُ بذلك قبولٌ عندهم فزَها وأُعجبَ وشمخَتْ به نفسهُ وهو مع ذلك ينضاف لروضةِ الشَّيخِ المذكورِ ويتعزَّزُ بها ويزعمُ أنَّهُ من المرابطين وأنَّ لهُ على النَّاسِ حرمةٌ ومزيةٌ، فكان إذا ذُكرَ لهُ سيِّدُنا أحمدُ والثَّناءُ عليهِ كرهَ ذلك وبدا على ظاهرهِ أثرُ البغضاءِ والشَّنآنِ ويقولُ معرِّضاً به

" الولي هو سيِّدي أحمدُ الشَّاوي ".

حتَّى إذا أرادَ اللهُ سبحانَهُ الانتقامُ منهُ لأجلهِ نقلَهُ من الإذايةِ الخفيَّةِ إلى الإذايةِ الظَّاهرة

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾[1]

فحفرَ ساقيةَ ماءٍ بأرضٍ لهُ بصراغةَ وأمرّها على أرضِ سيِّدِنا أحمدَ دون استئذانٍ لهُ فأرسلَ إليهِ سيِّدُنا أحمدُ

" أنَّهُ لا يحلُّ لك أنْ تتصرَّفَ في ملكِ غيرِك دون إذنه وإنَّ في ذلك ضرراً عليَّ، فأمَّا أنْ ترجعَ وأمَّا شكوتُك إلى اللهِ "

أو كلاماً هذا معناهُ، ما زادهُ ذلك إلَّا أنفةً وعدواناً وتجاسراً وطغياناً وقال على سبيلِ المعاندةِ والمقابلةِ

" أنا زاويةٌ وهو زاويةٌ "

ثُمَّ اتَّفقَ أنْ مرَّ يوماً سيِّدُنا أحمدُ بالأرضِ المجراةِ فيها السَّاقيةِ فنظرَ إليها وصاحَ

" واللهِ لا يفلتُ "

---

[1] . الأنفال (42)

وكرَّرَها فقال لهُ بعض النَّاسِ مَنْ يا سيّدي فقال لهُ

" رضوان "

وأخبرني بعضُ الفضلاءِ الشُّرفاءِ الظَّاهرين أنَّهُ كان يوماً مع سيِّدِنا أحمدَ بالزَّاويةِ فسمعَهُ يتكلَّمُ في شأنِ رضوان وفعلتهِ التي فعل وهو يهدِّدهُ ويتوعَّدهُ فقال معتذراً عنه

" إنَّهُ يتعزَّزُ بسيِّدي أحمدَ الشَّاوي"

فقال لهُ سيِّدُنا أحمدُ

" إذا كان يتعزَّزُ بسيِّدي أحمدَ الشَّاوي لحتى أنا كُرمزي "[1]

فقالَ الشَّريفُ في نفسهِ سأذهبُ إليهِ وآتي به ليستعفيَ ممَّا صنعَ ويطلبَ المسامحةَ، قالَ لي فبينما أنا أردِّدُ ذلك في نفسي إذ ذكرَ لي سيِّدي أحمدُ قضيَّةَ سيّدي مسعودٍ الدزاوي حيث قالَ لرجلٍ

" خرجَ السَّهمُ من القوسِ "

قالَ فعجبتُ من ذلك وعلمتُ أنَّهُ نفذَ فيه القدرُ وجعلتُ أتوقَّعُ ما ينزلُ به مِن فِعلهِ.

ثُمَّ بعد هذه القضيَّةِ لم يمكثْ إلَّا يسيراً وإذا ببعضِ رؤساءِ الدَّولةِ تنكَّرَ لهُ وجعلَ يقولُ

" لأيِّ شيءٍ يستحقُّ هذا الظَّالمُ روضةَ سيِّدي أحمدَ الشَّاوي ويأخذُ خراجَها"

وجعلَ يسألُ عمَّنْ يستحقُّ أخذَ ذلك فدُلَّ علينا نحن وعلى أخي فاستحسنَ ذلك وأعجبَهُ وأرسلَ به إلى السُّلطانِ مولاي إسماعيلَ أيَّدهُ اللهُ، فكتبَ به إلينا وأجراهُ علينا فكان في ذلك رغمَ أنفهِ وما هو أعظمُ عليهِ من حتفهِ.

وكان يوماً سيِّدُنا أحمدُ يتكلَّمُ في شأنهِ لمَّا تحدَّثَ النَّاسُ بزوالِ الرَّوضةِ لهُ فقالَ

---

[1] القرموزي تعني باللغة المغربية كاللون الحجري

" إنِّي رأيتُ رأيته يستحقُّ قطعَ الرأسِ يعني لأفعالٍ شنيعةٍ كان يفعلُها دون الإذايةِ لهُ وقطعُ رأسهِ هو زوالُ الرَّوضةِ لهُ وقد أحببتُ زوالَها لهُ "

وقد كان كما أحبَّ ﷺ.

فإنَّهُ لمَّا وقعَ الكلامُ عند السُّلطان على ذلك قامَ جماعةٌ من بطانتهِ لنصرةِ ذلك يداً واحدةً قائلين إنَّما يستحقُّ ذلك نحن وحضُّوا السُّلطانَ على فعلِ ذلك من غيرِ أنْ يسألَ منهُم ولا طلبَهم أحدٌ منَّا بذلك، وعجبنا من حرصهِم على ذلك مع أنَّا لا نعرفُ أكثرَهم ولا رأيناهم قطُّ ولا رأونا، وإذا أراد الله أمراً كان.

وقد ذُكِرَ يوماً خبرُهم عند سيِّدي أحمدَ فقال

" إنَّ النَّارَ اشتعلتْ فيهم فليس كلامُهم في ذلك عن اختيارٍ منهُم "

يشيرُ ﷺ إلى ما تصرَّفَ من ذلك على يدهِ غيباً فعظُمتِ النَّازلةُ إذ ذاك على رضوان إذ لم يكن لهُ سببٌ يدلي به لطلبِ الظُّهور سوى روضةِ الشَّيخِ المذكورِ، فذهبَ من فورهِ إلى محلةِ السُّلطانِ سدَّدهُ اللهُ وكانت بتادلةَ ليستردَّ ذلك ويتلافَّاهُ.

فاتَّفقَ أنْ جلس أخي مع سيِّدِنا أحمدَ فاخبرَهُ بذهابهِ فتبسَّمَ وحرَّكَ رأسهُ استهزاءً من فعلهِ ذلك وذهابهِ وقال

" أتكونُ الحيلةُ على اللهِ؟ لا يغلبُ اللهَ شيءٌ "

يعني أنَّ الأمرَ من عندِ اللهِ ولا مردَّ لقضائهِ، ثُمَّ اتَّفقَ ليلَ ذلك اليومِ أنْ جلس أيضاً سيِّدُنا أحمدَ ﷺ في ملأ من النَّاسِ فذُكرَ بحضرتهِ ذهابُ رضوانَ إلى المحلةِ فقال

" مثلهُ مثلُ جملٍ اصابتْهُ شوكةٌ في بطنِ قدميهِ فأرادَ زوالَها فجعل يضربُ برجلهِ الأرضَ فكلَّما ضربَ ليزيلَها زادتْ دخولاً "

يريدُ فكذلك هذا الرَّجلَ كلَّما أرادَ الوصولَ إلى مطلوبهِ وتسبَّبَ فيه استصعبَ عليهِ وزادَ بُعداً منهُ، وقد كان الأمرُ كذلك فإنَّهُ لمَّا ذهبَ إلى محلةِ السُّلطانِ بقي

هنالك مدَّةً تقربُ من شهرٍ يتردَّدُ بين الرؤساءِ والقوَّادِ ويتعلَّقُ بكلِّ مَنْ لهُ يدٌ مع السُّلطانِ ممَّنْ كان يواليهِم هو قبل ذلك، وعرضَ عليهم الأموالَ فألقى اللهُ الرُّعبَ في قلوبِهم وحيل بينهم وبين مطلوبِهم فتبينوا عن الكلامِ وحيل بينهم وبين المرامِ.

فتعرَّضَ إذ ذاك بنفسهِ للسُّلطانِ شاكياً ومدَّعياً الاستحقاقَ لما كان بيدهِ فزجرَهُ السُّلطانُ وشتمَهُ وقال لهُ

" واللهِ إنْ ذكرتَ سيّدي أحمدَ الشَّاوي يوماً لأقطعنَّ رأسَك "

فأعوزتْهُ المطالبُ عند ذلك وسُدَّتْ دونَهُ الأبوابُ والمسالكُ، وتمكنَّتْ منهُ الشَّوكةُ كما قالَ سيِّدي أحمدُ ﷺ وزادتْ دخولاً ولم يستطعْ بلوغاً لمرامهِ ولا وصولاً، ورجعَ عودَهُ على بدئهِ فدخلَ فاساً وبقيَ مصمِّماً على بذلِ المجهودِ ما أمكنَهُ وأضمرَ الغلَّ لسيِّدِنا أحمدَ ﷺ وزادَهُ حنقاً أنْ صرفَ اللهُ تعالى ما بيدهِ لمَنْ بزاويتهِ، وكان لهُ يدٌ مع الرُّوسي حاكمِ فاسٍ يومئذٍ فجعلَ يلوذُ به ويستنجدهُ وللحاكمِ هذا قبولٌ تامٌّ عند السُّلطانِ، ومع هذا لم يقدرْ لهُ بشيءٍ وطالما جدَّ في أمرهِ ولا غالبَ لأمرِ اللهِ.

وقد خرج معهُ مرَّةً إلى محلةِ السُّلطانِ بتادلةَ ليتكلَّمَ لهُ ويعينهُ فلمَّا وصل إليهِ ألقى اللهُ عليهِ الهيبةُ وخافَ خوفاً شديداً ولم يقدرْ أنْ يفوهَ للسُّلطانِ بكلمةٍ واحدةٍ فرجع رضوانُ أيضاً من فورهِ إلى فاسٍ، فبلغ سيِّدنا أحمد خبر ذهابهِ مع الحاكمِ المذكورِ وإيابهِ، فتبسَّمَ استهزاءً بذلك وقال

" أقول كما قالَ سيّدي قاسم يعني شيخَهُ واللهِ لا أكفِّرُ عن يميني"

يشيرُ واللهُ أعلمُ إلى قولهِ المتقدّمِ

" واللهِ لا يفلتُ "

ونحن مع هذا لا نتسبَّبُ في دفعٍ ولا نفعٍ علماً منَّا إنَّ النَّازلةَ من عندِ اللهِ وبسببِ إذايةِ أهلِ اللهِ لا يستطيعُ أحدٌ دفعَها ولا رفعَها.

وكان يوماً سيِّدُنا أحمدُ بجنانهِ بلمطةَ فجرى الكلامُ عندَهُ على رضوانَ فقيل لهُ يا سيِّدي إنَّ بني فلانٍ لأُناسٍ من أربابِ الدَّولةِ يتكلَّمون في رجوعِ الرَّوضةِ لهُ فقال

" نهى مالكٌ عن صحبةِ مَنْ أدبرتْ أيَّامهُ وإن كان من مواليهِ أو يجري في شأنهِ لا يربحُ"

فما مضتْ إلَّا أيَّامٌ، وإذا بهؤلاء الذين عزموا على إعانتهِ وحمايتهِ، فعلوا أمراً فقُتِلوا صبراً وكان عاقبةُ أمرِهم خسراً.

ثُمَّ لما حُبسَ المطرُ عامَ أوَّلَ واشتغلَ النَّاسُ بحرثِ القطنيَّةِ ذهب سيِّدُنا أبو العبَّاسِ إلى أرضٍ سقي بوادي النَّجا وعيَّنَ قطعةً منها ليحرثَها عن إذنِ ربِّها فاتَّفقَ أنْ ذهبَ رضوانُ إلى تلك البلادِ وحازَ قطعةً منها وإذا هي التي عيَّنَها سيِّدُنا أحمدُ فأخبرَ بذلك فأمتنعَ من الرُّجوعِ عن القطعةِ المعيَّنةِ وأبى الحراثةَ إلَّا بها، فتركَها لهُ سيِّدُنا أحمدُ وانتقلَ إلى قطعةٍ أخرى من تلك الأرضِ وجعلَ يقولُ وهو مارٌّ بها

" ياليتي تبرّ كثيرٌ مَنْ يأكلهُ لكَ "

يعني أنَّ ما أرادَهُ رضوانُ من الحراثةِ بتلك الأرضِ لا يتمُّ لهُ ولا يحرثُها فكان كذلك.

فبالقربِ من تلك الأيَّامِ خرجَ إلى مكناسةَ الزَّيتونِ مدينةِ السُّلطانِ يلتمسُ الواسطةَ في مطلوبهِ من رجوعِ الرَّوضةِ إليهِ وتركَ الأرضَ ولم يحرثْها ومكثَ هنالك أزيدَ من شهرين وعزم على تحصيلِها أو ينفقُ مالَهُ كلَّهُ في سبيلِها، فبلغَ ذلك سيِّدُنا أحمدَ فقال

" صدق اللهُ العظيمُ "

﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾[1]

---

1 . البقرة (189)

يعني أنَّ إنتاجَ الأمرِ ونُجحهِ وحلَّ بابهِ وفتحهِ إنَّما هو على يدهِ، كما أنَّ غلقهِ كان من عندهِ.

وما زال سيِّدُنا أحمدُ ﷺ بعد زوالِ الرَّوضةِ لهُ ومدَّةِ غيبتهِ بمكناسةَ إذا ذُكر بحضرتهِ يُهدِّدهُ ويتوعَّدهُ ويقولُ

" سيرى سيرى ولا بُدَّ أنْ يخلص "

ونحن نتعجَّبُ ونقولُ

" أيَّ شيءٍ يرى بعد زوالِ الرَّوضةِ لهُ " ؟

وقد جدَّ في مرغوبهِ ومطلوبهِ مدَّةَ بقائهِ بمكناسةَ بكلِّ رغبةٍ وطلبٍ، وعملَ في ذلك كلَّ حيلةٍ وتسبَّبَ وتعلَّقَ بخاصَّةِ السُّلطانِ نساءً ورجالاً وبذلَ في التَّوصلِ إليهِم مكاسبَ وأموالاً واستشفعَ للسُّلطانِ ببعضِ أعزَّاءِ بنيهِ ونسائهِ وجواريهِ فلم ينفعْهُ أحدٌ بنافعةٍ ولا قدرَ لهُ على رفعِ تلك الواقعةِ.

فلمَّا لم ينفعْهُ شيءٌ من ذلك وأرادَ اللهُ أنْ ينزلَ به ما توعدَّهُ به من المهالكِ ألقى إليهِ الشَّيطانُ والعياذُ باللهِ أنْ يتوصَّلَ لمطلوبهِ بفضيحةِ رجلٍ يقالُ لهُ عبدُ الكريمِ اللّمّانوا كان وليَ الحكومةَ على أهلِ فاسٍ زمنَ ثورتِهم على مولاي اسماعيل وكان مستتراً بعدها عنده خوفاً من السُّلطانِ المذكورِ بدارِ سيّدي أحمدَ الشَّاوي نفعنا اللهُ به نحو السَّبعِ سنينَ، وطالما بحثَ عنه السُّلطانُ واقتصَّ خبره فلم يعثرْ عليهِ، فأرسلَ رضوانُ إذ ذاك إلى السُّلطانِ بعضاً مَنْ يواليهِ أنَّهُ إنَّ ردَّ عليهِ الرَّوضةَ أمكنَهُ من ذلك الرَّجلِ، فردَّ عليهِ الرَّوضةَ لأجلِ ذلك وضربَ لهُ فيما التزمَهُ أجلاً نحو خمسةَ عشر يوماً، فجاء والياً عليها فبلغَ ذلك سيِّدُنا أحمدُ فقال

" لا تبقى بيدهِ "

وقال مرَّةً أخرى

" سوف يرى سوف يرى ".

فلمَّا أرادَ أنْ يُظهرَ الرَّجلَ الذي كان عنده تفطَّنَ ذلك الرَّجلُ فأصبحَ في بعضِ الزَّوايا فأطلقَ السُّلطانُ عند ذلك سراحَهُ وخلا سبيله.

ثُمَّ أنَّهُ أعني السُّلطانُ تغيَّظَ على رضوان واشتدَّ عليهِ غضبهُ وانقلبَ بالخسرانِ عليهِ إربَهُ فأمرَ عليهِ بالعذابِ والنَّكالِ والعقوبةِ، فأخذَ كثيراً من المالِ فقبضَ عليهِ الحاكمُ وجعلَهُ في السِّجنِ، ثُمَّ ذهب إلى الرَّجلِ الذي كان مختفياً عنده فقتلَهُ ببابِ دارهِ، ثُمَّ جعلَ يهدِّدُ رضوان وهو في السِّجنِ على إعطائهِ المالَ فأمتنع فعصبَهُ والعياذُ باللهِ بعصابةٍ من حديدٍ حتَّى كان يُسمعُ صوتهُ خارجَ السِّجنِ من بعيدٍ، وجعلَ يستخرجُ المالَ منهُ ويبيعُ عليهِ متاعَهُ، وانطلقتْ ألسنَةُ العامَّةِ إذ ذاك فيه بالسَّبِّ والشَّتمِ والدُّعاءِ عليهِ مع ما هو فيه من العذابِ وذلك من أجلِ فعلتهِ التي فعلَ من فضيحةِ الرَّجلِ وقتلهِ على يدهِ بعد مكثهِ بين أولادهِ سنينَ عديدةً، وشاعَ شنيعَ فعلهِ وذاعَ بفاسٍ ومكناسةَ وغيرهِما.

وبعثَ الحاكمُ إذ ذاك إلينا أنْ امضوا لروضتِكم فإنَّما ردَّها لهُ السُّلطانُ ليستخرجَ من عندهِ، فأبينا فبعثَ إلينا ثانياً فأتينا استحياءً ممَّا وقعَ للرَّجلِ بسببِها وكراهيةً لمزاحمتهِ، فجاءنا ظهيرٌ من السُّلطانِ بتنفيذِها فلم يمكنْ ردُّهُ واستقرتْ بأيدينا ورضوانُ إذ ذاك كلُّهُ بالسِّجنِ، فلمّا رأى أهلَهُ ما به وعاينوا هلاكَهُ ولم يجدوا لخلاصهِ سبيلا وعلموا أنَّهُ ما بلغَ ذلك المبلغَ إلَّا بمبالغتهِ في عنادِ سيِّدِنا أحمدَ ﷺ جاؤوهُ إلى دارهِ نساءً وصبياناً مستشفعين لهُ مع كسوةِ سيِّدي أحمدَ الشَّاوي نفعنا اللهُ به فأشفقَ من حالِهم ورقَّ لهم وقال

" لا قدرةَ لنا على خلاصهِ إلَّا أنْ ندعوا اللَّهَ لَهُ "

فلمَّا كان من الغدِ أتى سيِّدُنا أحمدُ للزَّاويةِ وقال لمَنْ حضرَ

" ألم يُطلقْ رضوانُ "

كأنهُ استبطأ سراحَهُ فعلمَ الحاضرون أنَّهُ يطلقُ لا محالةَ فأُطلقَ بعد يومين من دون شفاعةِ أحدٍ فيه ولم يعطَ من المالِ المذكورِ إلَّا نحو خُمسهِ.

وكان الحاكمُ قد غضبَ عليهِ بعد أنْ كان من أصحابهِ بسببِ فضيحةِ الرَّجلِ المتقدِّمِ وخافَ هو على نفسهِ من السُّلطانِ أنْ يتَّهمَهُ بأنَّهُ كان عالماً به، فأرادَ قتلَهُ والفتكَ به، فعطفَ اللهُ عليهِ قلبَهُ إذ ذاك وسرَّحَهُ من بركةِ سيِّدِنا أحمدَ ﵁ ولمَّا أُطلقَ قالَ سيِّدُنا أحمدُ

" اللهُ يهديهِ ويشغلهُ ممَّا يعنيهِ "

يعني مِنْ تركِ بغضهِ والكلامِ فيه لئلا يعودَ عليهِ ضررهُ، فلمَّا اطمئنَّ بدارهِ لامَ بعضَ أصحابهِ حيث كان أرشدَ أهلَهُ إلى ما صنعوا من ذهابِهم بدارِ سيّدِنا أحمدَ ﵁ شفعاءَ لهُ ليتمَّ الخسرانُ نعوذُ باللهِ من الخذلانِ ونزغاتِ الشَّيطانِ، فلم يمضِ إلَّا اسبوعَ أو نحوَهُ وإذا ببعضِ العبيدِ مرَّ بين يدي السُّلطانِ، فسألَهُ

" مَنْ باعَك " ؟

فقال له

" فلانٍ "

فقال له

" ومن باعك لفلان " ؟

فقال لهُ

" رضوانُ "

فلمَّا سمعَ اسمهُ غضبَ وكتبَ في الحينِ إلى الحاكمِ الرُّوسي

" أنْ ابعثهُ إليَّ مثقلاً في الحديدِ "

فقبض عليهِ وألقى عليهِ القيدَ والسِّلسلةَ وبعثَ به إلى مكناسةَ موطنِ السُّلطانِ، فكانتْ عليهِ أشدَّ من الأولى وآيسَ من نفسهِ ولم يشكَّ في دخولِ رمسهِ، فاتَّفقَ أنْ جاءَ بعضُ الشُّرفاءِ الظَّاهرين زائراً سيِّدَنا أحمدَ فأعلمَهُ بخبرهِ وذهابهِ إلى السُّلطانِ فقال سيِّدُنا أحمدُ

" لا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ العلي العظيمِ "

﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[1]

يشيرُ إلى أنْ ما وقعَ لهُ من أجلِ غلِّهِ فقالَ الشَّريفُ

" يا سيِّدي لعلَّ السُّلطانَ بعثَ إليهِ ليقتلَهُ ".

فقال لهُ

" أنَّهُ لا يقتلُهُ "

فكان كذلك فإنَّهُ لمّا وصل إلى مكناسةَ أمرهُ السُّلطانُ يُعطي مالاً عظيماً أو لَيقطعنَّ يديهِ ورجليهِ، ثُمَّ من الغدِ خلا سبيلَهُ وأطلقَهُ كما أخبرَ سيِّدُنا أحمدُ ﷺ.

وكان سيِّدُنا أحمدُ كلَّما ذُكرتْ عنده نازلةٌ نزلتْ بهذا الرَّجلِ ممَّا تقدَّمَ ذكرهُ أشفقَ من حالهِ وقال

" ليتَهُ أزالَ ما بقلبهِ وتابَ إلى اللهِ عسى أنْ يكونَ خيراً لهُ ".

وهذ الرَّجلُ اليومَ في غايةِ الخمولِ لم ندرِ ما اللهُ فاعلٌ به بعد ذلك سمحَ اللهُ لنا وله وتابَ علينا عليهِ بمنِّهِ وكرمهِ آمين.

ومنها أنَّ رجلاً من أرضِ البهاليلِ كان اشتركَ معهُ ﷺ في قريةِ نحلٍ وهي المسمَّاةُ اليومَ بالزَّربيةِ، وكانت تلك الزَّاويةُ عنده بجبلِ البهاليلِ على نصفِ مرحلةٍ من فاسٍ، يتفقدُّها وينظرُ في شأنِها ويأخذُ من عسلِها قدرَ نصيبهِ وعملهِ على سننِ الشِّركةِ وطريقتِها، وطالتْ الشِّركةُ بينهما سنينَ عديدةً حتَّى نالَ هذا الرَّجلُ من ذلك مالاً كثيراً وخيراً جزيلاً واتَّسعتْ عليهِ دنياهُ، وتيسَّرتْ أسبابهُ في الحرثِ والماشيةِ وغيرِهما إذ كان يرى البركةَ لسيِّدنا أحمدَ ويعتقدُ مزيَّتهُ وفضلَهُ ويودُّهُ ويودُّ أصحابَهُ، فظهرَ عليهِ أثرُ بركتهِ في حالِ شركتهِ لهُ ما كفى وشفى.

ثُمَّ إنَّ الشَّيطانَ خدعَهُ وخذلَهُ فتحوَّلَ ودُّهُ وانتقضَ عهدهُ وعظمتْ عليهِ الدُّنيا وكبرتْ في نفسهِ، وأحبَّ الاستقلالَ بما في يدهِ، فجعلَ يأنفُ من أقاربِ سيِّدِنا أحمدَ إذا قدموا عليهِ لخدمةِ النَّحلِ ويتضايقُ منهُم، وطلبَ القسمةَ من سيِّدِنا

---

[1] . الحشر (10)

أحمدَ ورغبَ عن شركتهِ، فأرسلَ إليهِ سيِّدُنا أحمدُ ﷺ بعضَ أقاربِهِ ليقاسمَهُ وقال لهُ

" اقسمْ معهُ وجيء بأشباجنا وقلْ أيا يا النَّحلُ "

ففعلَ ما أمرَهُ به، فما مضتْ بعد ذلك إلَّا أيَّامٌ قلائلَ، وإذا بأشباحِ الرَّجلِ خاليةٌ فرَّتْ النَّحلُ من بعضِها وافترقتْ في فلواتِ الأرضِ وماتَ البعضُ ولم يبقَ شيئاً منها عنده ولا تحت حوزهِ، وجعلَ ينقصُ ما بيدهِ من سائرِ مالهِ ويقلَّ حتَّى أُعدمَ وأفلسَ والأمرُ للهِ وحدهُ ولا قوَّة إلَّا به.

ومنها أنَّ بعضَ الأشرافِ بفاسٍ ممَّنْ لهُ ظهورٌ وقعَ بينه وبين السُّلطانِ مولاي الرَّشيدِ الشَّريفِ رحمه اللهُ منافرةٌ شديدةٌ وعداوةٌ وبغضاءُ لسببٍ يطولُ ذكرهُ، فذُكرَ يوماً عندهُ فغضبَ غضباً مفرطاً وأقسمَ باللهِ لَيقتلنَّهُ، وكان شديدَ الشَّكيمةِ ماضي العزيمةِ إذا قالَ فعلَ كأنَّما القدرُ يجري على لسانهِ، فسمعَ بحلفهِ الشَّريفِ ففزعَ فزعاً عظيماً وخاف خوفاً شديداً لِما يعلمُ من بطشهِ وفتكهِ وبغضهِ إيَّاهُ وضاقتْ عليهِ الأرضُ بما رحبتْ فلجأ من فورهِ إلى سيِّدِنا أحمدَ ﷺ وجاءهُ مستغيثاً، فلمَّا أشرفَ عليهِ تلقَّاه ورحَّبَ به وسألَهُ عن سببِ مجيئهِ، فأخبرَهُ بشأنهِ وقضيَّتهِ فقال لهُ سيِّدُنا أحمدُ

" لا يقدرُ على ذلك ولا يصلُ إليهِ "

وجعلَ يكرِّرُها

" وأنَّهُ ليريدُ ذلك ويتمنَّاهُ لك ولغيركَ ولكنَّهُ مقبوضٌ من هنا "

ووضعَ يدهُ على حلقِ نفسهِ قابضاً عليهِ ثُمَّ آنسهُ وسلَّاهُ حتَّى ذهبَ ما به فلم ينلْهُ السُّلطانُ بمكروهٍ أبداً وأنسى ذكرهُ البتَّةَ، فما ذكرهُ بعدُ بخيرٍ ولا بشرٍّ إلى أنْ انقضتْ مدتَّهُ وفاجأتهُ منيَّتهُ رحمهُ اللهُ.

ومنها أنَّهُ لمَّا ثارَ أهلُ فاسٍ على السُّلطانِ مولاي إسماعيلَ الشَّريفِ أيَّدهُ اللهُ وقتلوا قائدَهُ الأعظمَ زيدان وحاصرَهم أربعةَ عشرَ شهراً وثمانيةَ عشرَ يوماً كانت

تقعُ بينهُ وبينهم حروبٌ عظيمةٌ، فكان إذا يكونُ حربٌ يذهبُ إلى حيث يكونُ الفريقانِ بمرأى منهُ ومسمعٍ ينظرُ إليهِم وكان يقولُ

" لا أريدُ أنْ يغلبَ هؤلاء ولا هؤلاء لأنَّهُ إنْ غلبَ جيشُ السُّلطانِ وتمكَّنَ من أهلِ فاسٍ استأصلَهم وقطعَ دابرَهم، وإنْ غلبَ أهلُ فاسٍ طغَوا ولم تنقطعِ الفتنةُ عنهم لعدمِ قدرةِ أحدٍ منهُم على المُلكِ "

فكان الأمرُ كذلك يقعُ الحربُ بينه وبينهم سجالاً يدالون عليهِ قليلاً ويدالُ عليهم كذلك إلى أنْ وقعَ الصُّلحُ، وكان ﷺ إذا رأى أحداً يذهبُ للنَّظرِ للقتالِ نهاهُ.

وقال مرَّةً لبعضِهم وقد نهاهُ عن النَّظرِ لذلك

" إذا رأيتُم غيرَكم يعني نفسَهُ يفعلُ ذلك فإنَّما هو كمَنْ يذهبُ إلى دارهِ ليتفقدَّها ويرى ما ازدادَ فيها وما انتقصَ "

يعني أنَّهُ ﷺ مأذونٌ لهُ في ذلك لا كغيرِه، فذهابهُ لذلك ذهابُ لِما أقامَهُ فيه مولاهُ وصرَّفَهُ فيه وولَّاهُ فيه يصلحُ اللهُ به الأمورَ ويدفعُ الفتنَ والشُّرورَ.

وكانت هذه الثورةُ على السُّلطانِ المذكورِ بين العشاءينِ من يومِ الخميسِ أوَّلَ يومٍ من جمادي الأولى سنةَ ثلاثٍ وثمانين وألفٍ بعد مضي أربعةِ أشهرَ ونصفٍ من ابتداءِ مُلكهِ، وما زال ﷺ يخبرُ اثناءَ مدَّتِها بأنَّ السُّلطانَ المذكورَ سيظفرُ بالنَّاسِ ويعودونَهُ ليدهِ على لطفٍ يقعُ لهم، وعلى وفقِ ما أخبرَ كان الأمرُ، وكم مرَّةٍ أخبرَ بظفرهِ واستقلالهِ بالأمرِ ويقولُ

" أنَّهُ لا يزيلُها أحدٌ من يدهِ ما دامَ حيّاً يسيرُ بمهازهِ "

فظفرَ بهم واستولى عليهم وما زالَ الأمرُ أيضاً كما قالَ لهذا العهدِ سنةَ اثنينِ وتسعينَ وألفٍ ﷺ ونفعنا به آمين.

ومنها أنَّ السُّلطانَ مولاي إسماعيل بنَ الشَّريفِ أيضاً كان بعد مضي الثَّورةِ الكائنةِ عليهِ كان يتحدَّثُ بالفتكِ بأهلِ فاسٍ، ويُذكرُ عنه شائعاً في الألسنةِ أنَّهُ

أرادَ أنْ يطلقَ السَّبيلَ بها أي يأذنَ لأصحابهِ في قتلِ سائرِ أهلِها، والنَّاسُ من ذلك في وجلٍ عظيمٍ وخوفٍ شديدٍ حتَّى أنَّ أهلَ السُّوقِ إذا رأوا عبيدَ السُّلطانِ وأجنادهِ مارِّينَ بالطَّريقِ ربَّما فرُّوا وتركوا حوانيتَهم وماجَ بعضُهم في بعضٍ، وقعَ لهم ذلك غيرَ ما مرَّةٍ .

فاتَّفقَ أنْ دخلَ سيِّدُنا أحمدَ ﷺ في تلك الأيَّامِ على بعضِ أصحابِنا في الزَّاويةِ معهم أخي وهم يتكلَّمون في ذلك وفيما النَّاسُ فيه من الفزعِ العظيمِ قالَ لي أخي فقالَ لنا

" علامَ تتكلَّمون " ؟

فأخبرناهُ فقال لنا وقد اعتراهُ حالٌ عظيمٌ

" لا يجدُ إلى ذلك سبيلاً "

وجعلَ يكرِّرُها رافعاً بها صوتَهُ، ثُمَّ قامَ على ركبتهِ وقال

" ها هو السُّلطانُ جالسٌ ووضعَ يدهُ على الأرضِ أمامَهُ وها هو الرَّجلُ قائمٌ على رأسهِ مصلِتاً سيفَهُ ورفعَ يدهُ ظهرَها إلى السَّماءِ كأنَّهُ واضعٌ لها على رأسِ أحدٍ فكلَّما أرادَ السُّلطانُ ذلك ونهضَ ليفعلَهُ يعني إطلاقَ السَّبيلِ وجدَ السَّيفَ على رأسهِ فرجعَ إلى موضعهِ ولم يقدرْ على شيءٍ ".

فكانَ كما قالَ ﷺ فلم يفعلْ السُّلطانُ شيئاً من ذلك ولم يجدْ إليهِ سبيلاً وطالما تمنَّاه وصرَّحَ به، واللهُ غالبٌ على أمرِهِ.

ومنها أنْ رجلاً أرسلَهُ بعضُ الحكَّامِ من رؤساءِ وقتهِ إلى معصرتهِ ﷺ ليقبضَ منها أعشارَ الزَّيتِ، وكان قبل ذلك لا يأخذُها بل يتركَها هناك فتُفرَّقَ على المحتاجين، فذهب إليها فوجدَ بها سيِّدَنا أحمدَ فقال لهُ

" يا سيِّدي بعثني القائدُ فلانٌ لأخذِ أعشارِ الزَّيتِ ".

فقال لهُ

" ليس هنا إلَّا زيتاً لبعضِ المساكينِ فلا نعطيكمُوها "

فرجعَ إلى صاحبهِ فردَّهُ من فورهِ، فلمَّا أشرفَ ورآه سيِّدُنا أحمدُ ﷺ تحوَّلَ حالهُ واعتراهُ ما اعتراهُ وصاحَ صيحةً عظيمةً حاليَّةً وجعلَ يتكلَّمُ بكلامٍ لا يُفقهُ، فدُهشَ الرَّجلُ واعتراهُ خوفٌ شديدٌ وأحسَّ أنَّ الأرضَ تميدُ به وكادتْ تنطبقُ عليهِ، وخرجَ من عندهِ ترجفُ فؤادهُ حسبما أخبرنا بذلك عن نفسهِ.

فوقعَ ذلك اليومَ شرٌّ بين أهلِ فاسٍ الجديدِ وفاسٍ البالي، فخرجَ النَّاسُ للقتالِ وخرجَ الرَّجلُ معهم فلم يرجعْ إلَّا برصاصةٍ ضربتْهُ في ساقِ رجلهِ، فعلمَ أنَّها بسببِ ما فعلَ ومن أجلهِ، وبقربِ ذلك كان هلاكُ الحاكمِ المذكورِ وتبديدِ شملهِ وانقضاءِ أمرهِ وظهورِ عاقبةِ فعلهِ، فسبحان الحامي حِمى أوليائهِ والمنتصرِ لهم بإبرامِ عقابهِ وامضائهِ.

ومنها أنَّهُ ﷺ ذهب يوماً إلى ناظرِ أحباسِ[1] جامعِ القروين يكتري منهُ أرضاً فدخلَ عليهِ بمقصورتهِ وطلبَ منهُ ذلك فلم يجبْهُ النَّاظرُ إليهِ وتركَهُ أمامَهُ جالساً وجعل يقرأ سورةَ الفرقانِ وهو ﷺ ينظرُ إليهِ وإلى فعلهِ ذلك كأنَّهُ ينظرُ شيئاً فبينما هو على ذلك إذا بأحدِ شاهدي المقصورة قد دخل عليهما فقال لهُ سيِّدُنا أحمدُ

" تعالَ يا سيّدي فلانٌ نقرأ سورةَ الفرقانِ "

السُّورةُ التي كان يقرؤُها النَّاظرُ حينئذٍ فأجابَهُ إلى ذلك، وجلسَ معهُ يقرؤُها، فسكتَ النَّاظرُ متعجباً من ذلك لا يدري ما يقصدُ به سيِّدُنا أحمدُ، ثُمَّ خرجَ من مكانهِ وتركهُما يقرآنِ، فما مضتْ إلَّا أيَّامٌ قلائلُ وإذا بالنَّاظرِ قد عزلَ ووليَّ الذي كان يقرأ مع سيِّدِنا أحمدَ سورةَ الفرقانِ خطَّتهُ من دونِ سببٍ ظاهرٍ، ولم يرجعِ المعزولُ لها بعد ذلك أبداً بل بقيَ مُترجياً للرُّجوعِ ولم يظفرْ به إلى أنْ ماتَ، وقد كان قبل ذلك عُزل ورجعَ فسبحان المنتصرِ لعبادهِ ومواليهم التَّصريفَ فيمن شاءَ على وفقِ مرادهِ.

---

[1]. الأحباس هي الأوقاف.

ومنها أنَّهُ ﷺ كان بالزَّاويةِ يوماً وهو في سِماعٍ فأخذَهُ الوجدُ واعتراهُ الحالُ وقامَ هائماً وخرجَ من الزَّاويةِ كما هو، وذهبَ إلى دارٍ من دورِ حومتهِ المخفيَّةِ فقالَ لأهلِها

" أعطوني مرزونةً يأتكُم ابنُكم "

وكان إذ ذاك ابنُهم أسيراً في برِّ النَّصارى دمَّرهُم اللهُ منذُ اثنتي عشرة سنةً أو نحوِها، فابتدروا أمرَهُ وأعطوهُ إيَّاها وانصرفَ فما مكثَ إلَّا شهراً أو نحوهُ وإذا بالرَّسولِ جاءَ مبشِّراً بأنَّهُ خرجَ لبلادِ تطاون وأنَّهُ كان ذاهباً بساحلِ البحرِ لحاجةٍ فوجدَ مركباً لجماعةٍ من الأسارى معداً للفرارِ فحملوهُ معهم ونجوا جميعاً، فقدم على أهلهِ وجمعَ اللهُ شملَهُ بهم كما وعدهُم به سيِّدُنا أحمدُ ﷺ.

ومنها أنَّ رجلاً يُدعى العربي الفنيش وقعَ عليهِ في الرِّمايةِ التَّفتيشُ وطُبعتْ دارهُ وآذاه جارهُ، فلاذَ بزاويةِ سيِّدِنا أحمدَ مستجيراً وجلس بها مستهاماً كسيراً، فنظرَ إليهِ يوماً سيِّدُنا أحمدُ ﷺ وهو على حالهِ تلك فأشفقَ منهُ ورقَّ لهُ فأرسلَ إليهِ

" أنْ أخرجْ ولا تخفْ أحداً "

ولم يكنْ لهذا الرَّجلِ حرفةٌ خاصةٌ يحترفُ بها فسأل ما أصنعُ إنْ خرجتُ، فأرسلَ إليهِ أنْ تسببْ ولو بنقلِ التُّرابِ، فنشطَ عند ذلك وأيقنَ أنَّهُ لا ينالهُ مكروهٌ حيث أذنَ لهُ سيِّدُنا أحمدُ وسارَ من فورهِ مبتدراً لأمرهِ.

وذهب إلى الجيَّارين وأخذَ بنقلِ الرَّملِ من هنالك على الدَّوابِ إلى بعضِ النَّاسِ ويتردَّدُ ذاهباً في السُّوقِ وغيرهِ من أزقَّةِ المدينةِ، فكان يُعجَبُ به من لقيهُ من معارفهِ ويقولون لهُ

" أما تخشى أنْ تُقبضَ "

ويخبرونَهُ بأنَّ أهلَ الشُّرطةِ وبعضَ أهلِ حومتهِ يطلبونَهُ وأنَّهم علموا بخروجهِ من الزَّاويةِ فهم يفتشونَهُ وأنَّ الحاكمَ في خدَّامهِ وحرسهِ يدورُ على دورِ الرُّماةِ،

ويسألُ عن كلِّ واحدٍ واجدٍ يصرِّفُ الحكمَ فيهم فلم يرعْهُ شيءٌ من ذلك ولم يبالِ بما هنالك بل جعلَ يضحكُ من مقالتهِم ويذهبُ لما هو بسبيلهِ، فلم ينلْهُ أحدٌ بمكروهٍ، ولمَّا وصلَ الحاكمُ إلى دارهِ سألَ عنه فتكلَّمُ فيه الذي كان آذاهُ بخيرٍ ففتحَ الحاكمُ دارَهُ وأسقطَهُ من عدادِ الرُّماةِ، وظهر بذلك سرُّ اذن سيِّدِنا أحمدَ لهُ في الخروجِ ولم يدخلْ حزبَ الرِّمايةِ من يومئذٍ حمايةً من اللهِ لهُ وإكراماً لأوليائه.

ومنها أنْ عبداً من ذوي الصَّرامةِ والفتكِ من مماليكِ بعضِ الرُّؤساءِ كان أخذَهُ السُّلطانُ مولاي الرَّشيدُ بنُ الشَّريفِ رحمهُ اللهُ ليملكَهُ فشقَّ عليهِ ذلك وفاءً بعهدِ سيِّدِهِ الأوَّلِ، فأحسَّ منهُ السُّلطانُ ذلك فغضبَ وجعلَ عليهِ قيدَ الحديدِ وشدَّدَ عليهِ فأفلتَ لزاويةِ سيِّدِنا أحمدَ مستجيراً بها، فحنقَ عليهِ السُّلطانُ أكثرَ ممَّا كان واشتدَّ غضبهُ عليهِ وجعلَ يطلبهُ ويوكِّلُ به مَنْ يرصدهُ ليقتلَهُ فبلغَ الفزعُ من العبدِ كلَّ مبلغٍ، فلمَّا رأى سيِّدُنا أحمدُ ﷺ ما به وما أحاطَ به من الهلاكِ خرجَ عليهِ ليلةً في يدهِ عصى وقال لهُ

" خذْ هذه العصا ولازمِ الصَّلواتِ الخمسِ واخرجْ من هذه البلادِ فلا يضرُّكَ أنْ شاءَ اللهُ شيءٌ ".

فقُويَ العبدُ عند ذلك وكانت لهُ في سيِّدِنا أحمدُ ﷺ محبَّةٌ فامتثلَ أمرُه سريعاً وخرجَ من عندهِ فذهب متوجِّهاً إلى المشرقِ وحجَّ بها حججاً ثُمَّ رجعَ إلى المغربَ وجعلَ يجولُ فيه حيث أرادَ ولم يلقَ في ذهابهِ ولا في إيابهِ كيداً ببركةِ سيِّدِنا أحمدَ ﷺ وبسبب اعتنائهِ.

ومنها إنَّ بعضَ مَنْ كان استجارَ بزاويتهِ بعد مضي الثَّورةِ من قتلةِ القائدِ زيدان لمَّا خافَ على نفسهِ من السُّلطانِ وضجرَ من طولِ مكثهِ بالزَّاويةِ حيث كان لا يستطيعُ الخروجَ عنها لكثرةِ الطلبِ لهُ والتَّفتيشِ عليهِ جاء مستصرخاً به يريدُ السَّراحَ والوسعَ والارتياحَ فقال لهُ سيِّدُنا أحمدُ ﷺ

" اذهبْ حيث شئتَ فلا بأسَ عليك ولا يضرُّكَ شيءٌ "

ففعل ما قالَ لهُ وذهب في كلِّ ناحيةٍ من بلادِ المغربِ وسافرَ مع الرَّكبِ إلى بلادِ الجريدِ[1] ورجعَ إلى المغرب ودخل فاس فما سامهُ أحدٌ قطُّ بما يكرهُ ولا عرَّجَ عليهِ أحدٌ من طالبيهِ بمضرةٍ، وأنجاهُ اللهُ من كلِّ مؤفٍ وأمَّنهُ كلَّ مخّوف إلى أنْ ماتَ على فراشهِ في عافيةٍ ببركةِ سيِّدِنا أحمدَ ﷺ ولم يستطعْ أحدٌ من ذوي الجنايةِ المذكورةِ ممَّنْ كان بالزَّاويةِ ولا ممَّنْ فرَّ لبلادٍ نائيةٍ أنْ يفعلَ مثلَ فعلهِ لهذا العهدِ.

وقد ذكر يوماً عند سيِّدِنا أحمدَ ﷺ مَنْ كان منهُم فرَّ قيل لهُ أنَّهُ قطعَ البحرَ ونجا فقال

"كلا لم يقطعِ البحرَ ولا ينجو وسيرى "

فوقعَ ما قالهُ ﷺ وجاءَ ذلـك الرَّجلُ إلى فاسٍ ولم يكنْ ركبَ البحرَ وبقيَ مختفياً بها إلى أنْ خرجَ ركْبُ الحاجِّ فخرجَ معهُ يريدُ النَّجا فأُخِذ والعياذُ باللهِ بين الرَّكب وقُتلَ صبراً وكان أمرُ اللهِ قدراً مقدوراً.

ومنها أنَّهُ ﷺ خرجَ غدوةً يومَ خميسٍ من للزَّاويةِ فوجدَ خارجَها صاحبَنا أبا عبدِ اللهِ مُحمَّد بنِ مُحمَّد الدّريجِ حفظَهُ اللهُ فقال لهُ

" قالَ لي خاطرٌ اذهبْ إلى سوقِ الخميسِ لتشفعَ في رجلٍ نسألُ اللهُ أنْ لا يكونَ محبوساً في دمٍ ".

قالَ فمضى ومضيتُ معهُ حتَّى وصلنا سوقَ الخميسِ فبينما نحنُ به إذا برجلٍ قد قَبضَ عليهِ خُدَّامُ حاكمِ الخميسِ وهم يجرونَهُ ويضربونَهُ حتَّى أوصلوهُ إلى السِّجنِ وأدخلوهُ فيه، وكان سيِّدُنا أحمدُ ﷺ واقفاً على بُعدٍ ينظرُ إليهِ وهو يُفعلُ به ما يُفعل فرآهُ بعضُ عبيدِ الحاكمِ وكان لهُ به معرفةٌ فأنهى خبرَهُ لسيِّدهِ وقال لهُ

---

[1] بلاد الجريد هي الأرض الممتدة من الساحل الأطلسي لشمال أفريقيا الى حدود مصر وهي قسمين الجريد الشرقية والغربية

" إنَّ سيّدي أحمدَ واقفٌ ينظرُ إلى الرَّجلِ "

فقام مسرعاً وأتى سيِّدَنا أحمدَ وسلَّمَ عليهِ وقال لهُ

" يا سيِّدي أجئتَ تشفعُ لي في الرَّجلِ " ؟

فقال **لا**

فقال لهُ " أتحبُّ أنْ يسرَّحَ " ؟

فقال لهُ

" لا أكرهُ سراحَهُ "

فأطلقهُ وخلَّا سبيلهِ.

ومنها أنَّ بعضَ الشُّرفاءِ خطبَ لابنهِ ابنةَ أخيهِ عنده، فأبى عليهِ لفقرهِ، فأتى به سيِّدُنا أحمدُ فراودَهُ كلَّ المراودةِ فأمتنعَ وقال

" لا أُعطيها لهُ إلَّا إذا أتاني بضامنٍ يضمنُ لي مهرَ ابنتي لأنَّهُ لا شيءَ لهُ"

فغضبَ إذ ذاك سيِّدُنا أحمدُ غيرَةً على الشَّريفِ حيث امتهنَهُ أخوهُ وتوجَّهَ إليهِ بمرَّةٍ وقال لهُ

" قُمْ فاخطبْ لابنِك امرأةً أخرى وكلُّ ما تحتاجهُ يوجدُ إنْ شاءَ اللهُ ويأتي به الله عزَّ وجلَّ "

فحدثني هذا الشَّريفُ أنَّهُ ذهب وخطب امرأةٌ أخرى من ذوي الوجاهةِ والمالِ مستنداً لقولِ سيِّدِنا أحمدَ ولم يكنْ عنده دينارٌ ولا درهمٌ ولا ما يباع بهما ولا يعلم أحداً يعامله بسلفٍ ولا بغيرهِ، فما أتتْ عليهِ أيَّامٌ حتَّى يسَّرَ اللهُ في المهرِ وكان من صنعِ اللهِ أنْ أوصى لهُ بعضُ المرضى فمات قريباً واستفادَ وصيَّتهُ ثُمَّ يسَّرَ اللهُ في مؤنةِ العرسِ وكلُّ ما يحتاجُ إليهِ، وعملَهُ كما يعملهُ الأغنياءُ على عادتِهم، فكان يعجبُ من ذاك كلَّ العجبِ ويبهرهُ ما شهدهُ من البركةِ لسيِّدِنا أحمد ﷺ.

ومنها وهي نظيرةُ التي قبلها أنِّي كنتُ أنا وأخي عزبينِ قد سلفَ لنا عقدُ النِّكاحِ في الصِّغرِ مع اختين، واحدةٌ لكلِّ واحدٍ فماتتْ التي لأخي ثُمَّ أُعطيَ مكانَها أُختاً لهما أخرى، وطلب حينئذٍ أوليائهُما منَّا البناءَ، وكان الوقتُ إذ ذاك وقتَ فتنةٍ وشرٍّ وهو الوقتُ الذي ثار فيه أهلُ فاسٍ على مولاي إسماعيلَ فحاصرَهم سنةً وأزيدَ من شهرين فلم يكنْ يتيسَّرُ فيه إدامٌ ولا طعامٌ، ولم يكنْ فيه بأيدينا دينارٌ ولا درهمٌ ولا غيرهُما، فرفعنا المسألةَ إليهِ وقصصنا الخبرَ عليهِ وذلك أوَّل ما عرفناه فقال لنا

" أوَ ليسَ اللّهُ بموجودٍ؟ أمضيا على بركةِ اللّهِ لذلك ولا يكنْ بينكما وبين العرسِ إلَّا شهرٌ "

فامتثلنا أمرهُ ففتحَ اللّهُ علينا في المهرِ كلِّهِ، أتانا من حيث لا نحتسب بعد ثلاثةِ أيَّامٍ، فدفعناه ثُمَّ توالى علينا الفتحُ والتَّيسيرُ في كلِّ شيءٍ فكانتِ الدَّراهمُ والقمحُ والثِّيابُ وغيرُها تأتينا من قِبلِ من لا يخطرُ ببالِنا استفادةُ شيءٍ من عنده أبداً وشاهدنا في ذلك عجائبَ صنعِ اللّهِ والآياتِ البيِّناتِ من أمرِ اللّهِ، ولم يكنْ ابتداؤهُ ذلك وانتهاؤهُ إلَّا شهراً كما قالَ ﷺ.

ومنها أنَّهُ ﷺ دخل يوماً على حفيدِ أخيه وهو سيِّدي عبدِ السَّلامِ بنِ علي فوجدهُ جالساً مع زوجتهِ وهي حفيدةُ أختِ سيِّدنا أحمدَ أيضاً، فأراد أنْ يتكلَّمَ معهُ وأراد أنْ لا تسمعهُ الزَّوجةُ، فنظر إليها مليَّاً وتركَها جالسةً لم يأمرْها بقيامٍ وجعلَ يتكلَّمُ معهُ جهاراً لا يُخفي كلامَهُ ولا يخافتُ به، وأطالَ الكلامَ فيما كان يريدُ وجالَ معهُ في أمرٍ من أمورِ الدُّنيا يفهمهُ كلُّ أحدٍ وهي حاضرةٌ منصتةٌ متمكنةٌ من سماعِ قولهِ، فحدثنا السَّيِّدُ عبدُ السَّلامِ المذكورِ أنَّهُ لمَّا خرجَ عمَّهُ من عندهِ تكلَّمَ مع زوجتهِ في بعض ما تكلَّمَ به أمامَها فقالت لهُ

" واللّهِ ما فهمتُ كلمةً واحدةً ولا دريتُ على من تتكلمون "

فعجب من ذلك لخروجهِ عن العادةِ وعلمَ أنَّ ذلك من فعلِ عمّه وآيةً من آياتهِ.

تَصريفُهُ ﷺ في تَكثير الطَّعام ونُزول البَركة

وأمَّا ما وقع لهُ وعلى يده ﷺ من تكثيرِ الطَّعام ونزولِ البركةِ فيه وهو من قبيلِ التَّصريفِ أيضاً

فمنها أنَّهُ ﷺ أخرجَ يوماً من دارهِ مخفيةً صغرى من الكسكسون قدرَ ما يأكلهُ ثلاثةَ نفرٍ أو أربعةً وأتى بها وشيخهُ سيِّدي قاسمٌ رحمهُ اللهُ حاضرٌ ووقفَ بإزائها ينظر إليها، فجلس عليها جماعةٌ كبيرةٌ من النَّاسِ فجعلوا يأكلون منها فلم تتم, فلما رأى ذلك سيِّدي قاسمٌ رحمهُ اللهُ وأنَّ الطَّعامَ لم ينفدْ وعلم أنَّهُ لا ينفدُ ما دامَ ينظرُ إليهِ لتصريفٍ لهُ في ذلك، صاحَ به ستراً عليهِ

" ما هذا الذي صنعتَ في هذا الطَّعامِ، وما هذا الذي أنت مشتغلٌ به "

فانصرفَ من موضعهِ ونفدَ الطَّعامُ في الحين وأتمُّوهُ.

ومنها أنَّهُ كان لأحدِ ولديْ شيخهِ سيّدي قاسمٍ وهو سيّدي علي رضيَ اللهُ عنهُما عرسٌ، فعندما أراد إطعامَ طعامِ الوليمةِ وكان صنعَها هو من مالهِ أتى بثريدٍ ووضعَهُ بزاويةِ البيتِ وغطَّاهُ بكساءٍ وجعلَهُ بيدِ امرأةٍ تُطعم أهلَ العرسِ منهُ وأوصاها أنْ لا ترفعَ الكساءَ عنه ولا تنظرُ إليهِ وأنْ تُدخلَ يدَها من تحتِ الكساءِ عند تفرقةِ الطَّعامِ وجعْلهِ في الأواني وأنْ تُسمّي اللهَ كلَّما جعلتْ يدَها فيه وأنْ تملأ الظُّروفَ كما شاءتْ، وكان لها سخاءٌ ولذلك قدَّمها لذلك، ففعلتْ ما أُمرتْ به وأطعمتْ جمعاً عظيماً من النَّاسِ وكفَّتْ أهلَ العرسِ عند آخرهِم نساءً ورجالاً وكلَّ مَنْ أتى من غيرهِم وكانوا قد أذنوا للمساكين أنْ يأتوا، فجاءَ عددٌ كثيرٌ من

أهلِ البوادي ممَّنْ كان يخدمُ بقنطرةِ وادي سبوا إذ ذاك وشبعَ النَّاسُ كلُّهم، فكان في ذلك عجَبٌ عجيبٌ وأمرٌ غريبٌ.

ومنها أنَّ ستةَ نفرٍ من أصحابِنا وأنا سابعُهم كانوا يوماً بوادي مارز في أرضِ هنالك لسيِّدي أحمدَ بها حرثهُ ونحلهُ قد ذهبنا نلتمسهُ فيها فوجدناهُ ذهب من هنالك لبلادِ البهاليلِ، فبدا لنا أنْ نلتحقَ به ولم يكنْ لنا طعامٌ يومئذٍ فمضينا إليهِ كذلك فأشرفنا عليهِ وقتَ العتمةِ فوجدناهُ ومَن معهُ قد فرغوا من أكلِ عشائِهم فرامَ بعضُ مَن كان معهُ من أهلِ البهاليلِ أنْ يطبخَ لنا طعاماً آخرَ فأبى عليهِ وأخرجَ من جرابهِ خبزتين غيرَ كبيرتين كانتا عنده من خبزِ دارِهِ فقسمهُما بيده المباركةِ وقدَّمَ لنا عسلاً، فجعلنا نأكلُ الخبزَ والعسلَ، وهو يؤكِّدُ علينا في الأكلِ ويرفعُ أطرافَ الخبزِ من هنا ويضعُها أمامَنا حتَّى شبعنا عن آخرِنا ولم نقدرْ على المزيدِ وفضلَ من الخبزتينِ شيءٌ، فعجبنا بذلك كثيراً وأيقنَّا أنَّ ذلك من بركاتهِ ﷺ وآياتهِ ومثلُ هذا كثيراً ما يقعُ لهُ ﷺ إذا إقتضاهُ سببٌ.

وكنَّا مرَّةً جلوساً معهُ وأمامَنا مخفيةٌ صغرى من الكسكسون فذكر لهُ بعضُ الفقراءِ أنَّ شيخَهُ أطعمَ عدداً كثيراً من النَّاسِ بمُدٍّ من طعامٍ فقال

" لولا خشيةُ الفتنةِ وأنْ يصيرَ الإنسانُ يعني نفسه في هذا الزَّمانِ دجَّالاً لأَكلَ من هذه المخفيةِ جماعةٌ حتَّى يفرغوا ثُمَّ جماعةٌ أخرى حتَّى يفرغوا ثُمَّ أخرى كذلك وهلم جرا ولا ينفدُ الطَّعامُ، وجعلَ ذلك سهلٌ وهو أنْ يقولَ الإنسانُ يعني نفسَهُ على الطَّعامِ بسمِ اللهِ، فإذا قالَها لم ينفدْ، ولو كان النَّاسُ إذا رأوا ذلك استعظموا قدرةَ اللهِ سبحانَهُ وتوجَّهوا إليهِ لم يكنْ بذلك بأسٌ ولكنَّهم لا يفعلون، ففِعْلُ ذلك في مثلِ هذا الزَّمانِ لا يليقُ، فهو بمثابةِ شجرةٍ عرتْ عن التُّرابِ وظهرتْ عروقُها فلا جرمَ أنْ يصيبَها الرِّيحُ فتيبسَ وتذهبَ نضارتُها"

فقال لهُ قائلٌ

" يا سيِّدي ليتَهم يفعلون هذا في وقتِ المسغبةِ "

فقال لهُ

" هيهات ذلك بل القومُ حينئذٍ لو أمكنَهم أنْ يوقدوا النَّارَ في بطونِ النَّاسِ موافقةً للقدرِ لفعلوا "

فظهرَ من كلامهِ ﷺ أنَّهُم مع مرادِ الحقِّ في ظهورِ الكرامةِ أيضاً فإذا أُريدَ منهُم إظهارَ شيءٍ منها لم تكنْ عليهم مخافةٌ ولا ملامةٌ وإنَّما قالَ ما تقدَّمَ تربيةً وتنبيهاً لمَن لم يبلغْ مرتبةَ هؤلاء فيخافُ عليهِ في مثلِ ذلك أنْ يقفَ مع الكراماتِ، أمَّا هم فمجذوبون عن أنفسهم وليس ما يفعلونَهُ عن اختيارٍ منهُم ولا يُخشَ عليهم بعد النُّفودِ والوصولِ إلى اللهِ.

وقد سُئل ﷺ مرَّةً وأنا حاضرٌ عن الكرامةِ أهي اختياريةٌ أم لا ؟

فأجابَ بأنَّها ليستْ باختياريةٍ ويغلبُ على ظنّي أنَّهُ تلى بعد قولهِ ذلك

﴿ أَءِلَـٰهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾[1]

تَصريفُهُ ﷺ في إبراء المَرضى

وأمَّا ما صدرَ عنه وعلى يده ﷺ من إبراءِ المرضى وذوي العاهاتِ وهو يندرجُ في التَّصريفِ أيضاً.

فمنها أنَّهُ كان مرَّةً يخدمُ هو والأصحاب جنانَ شيخهِ سيّدي قاسمٍ رحمهُ اللهُ بلمطةَ فجعل يقولُ لرجلٍ ممَّنْ حضرَ معهُ يُدعى مُحمَّد السَّكاج

" قل لفلانٍ رجلٌ من الأصحابِ وهو سيّدي أحمد بتّير يعطيكَ ذهبكَ الأحمرَ أو قالَ ذهبَ أبيكَ "

وكرَّرَ ذلك عليهِ مراراً، فجعل الرَّجلُ يقولُ ذلك لصاحبهِ كما أمرهُ به ولم يفهمْ معناه هو ولا الحاضرون، فبينما هم يوماً يخدمون والرَّجلانِ يخدمان بموضعٍ

[1] . النمل 62.

واحد أحدهما بإزاء الآخر إذ ضربَ الرَّجلُ المطلوبُ منهُ الذَّهبُ يدَ الطَّالبِ بالفأسِ خطأً ضربةً عظيمةً على ظهرِ كفِّهِ كادتْ تنقطعُ بها كفُّهُ شاهدها إذ ذاك غيرُ واحدٍ ممَّنْ كان بإزائه، وسالَ الدَّمُ على ذراعهِ وكأنَّ هو المرادَ بالذهبِ فصاحَ عند ذاك صيحةً فابتدرَهُ سيِّدُنا أحمدَ بسرعةٍ كأنَّما كان يجيبهُ ينتظرُ وقوعَ ذلك ومسحَ يدهُ قابضاً على محلِ الضَّربةِ وربطَها بحزامٍ ستراً لفعلهِ وأوصاهُ أنْ لا يحلَّهُ ولم يصنعْ لها دواءً، فما حلَّ المضروبُ ذلك الرَّبطَ بعد ذلك إلَّا عن بُرءٍ من دون احتياجٍ لجبيرةٍ ولا علاجٍ بأدويةٍ، فكان الحاضرون يتعجبون من أمرِ سيّدِنا أحمدَ في ذلك أولاً وآخراً ولا عجبَ من أمرِ اللهِ.

ومنها أنَّ بعضَ اصحابِنا وهو الفاضلُ الخيِّرُ المرضي أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد بنُ مُحمَّد البكَّاري القرشي أصابَهُ مرضٌ مادِّي أعوجَ منهُ فمَهُ إعوجاجاً شديداً إلى ناحيةِ أذنهِ غيَّرَ صورةَ وجههِ وصفةَ كلامهِ فكنَّا إذا نظرنا إليهِ أفظعنا منظرَهُ واشتدَّ أسفُنا عليهِ إذ هو مرضٌ مغيِّرٌ للخلقةِ الإنسانيةِ عسيرُ البُرءِ كثيراً ما يثبتُ إذا حصلَ لأحدٍ وهو المسمَّى عند النَّاسِ باللَّقوة.

فدخل يوماً الزَّاويةَ على حالهِ ذلك بعد مضي أيَّامٍ من ابتداءِ مرضهِ فوجدَ بها سيِّدُنا أحمدُ ﷺ فرأى فمَهُ وما بلغَ من الإعوجاجِ، فجعل ينظرُ إليهِ نظراً حادًّاً يطيلهُ معتنياً بشأنهِ ومهتمَّاً به كالذي يحاولُ دفعَ شيءٍ عنه حتَّى ظنَّ الرَّجلُ بسببِ ذلك أنْ قد احتاجَ إليهِ لأمرٍ مهمٍّ ثُمَّ التفتَ أعني سيِّدَنا أحمدَ إلى سيِّدي المهدي الفاسي وكان بإزائه وقال لهُ

" قد برأ البكاري ولم يبقَ به شيءٌ "

يعني أنَّهُ ﷺ أزالَ ما به بنظرهِ ذلك وكان كذلك، فمِن يومئذٍ أخذَ فمهُ في البرءِ شيئاً فشيئاً حتَّى لم يبقَ به أثرَ اعوجاجٍ، وعاد كما كان أولاً والحمدُ للهِ بسببِ تلك النَّظرةِ المباركةِ من سيِّدِنا أحمدَ ﷺ التي أنبأ عن فعلِها خبرَهُ في الذي تبيَّنَ في الخارجِ مصداقَهُ ومظهرَهُ ﷺ ونفعنا به آمين.

ومنها أنَّ رجلاً من أصحابِنا وهو أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد أبو ستة دُعيَ به الفاسي المولدُ الشَّرقي المحتدِ أصابَ رجلَهُ مرضٌ طالَ به ألمهُ ومكثَ به نحوَ شهرين وضعفتْ تلك الرِّجلُ وقصرتْ عن الأخرى وحصلَ لها انكماشٌ في رأسِ القدمِ وخافَ على نفسهِ أنْ يكونَ ذلك المرضُ الفالجُ المسمَّى عند النَّاسِ بالنقطةِ، فرآهُ يوماً سيِّدُنا أحمدُ بالزَّاويةِ يتألَّمُ فسألَهُ عن حالهِ فأخبرَهُ بمرضهِ وأراهُ رجلَهُ.

فقالَ لهُ سيِّدُنا أحمدُ

" لا بأسَ عليك منهُ "

وجعلَ يأخذُ من ريقهِ المباركِ ويدلكُ به ما فوق عقبهِ يكرِّرُ فِعلَ ذلك مرَّةً بعد مرَّةٍ، فمِن يومئذٍ أخذَ رجلَهُ في البرءِ حتَّى عاد كما كان دون استعمالِ دواءٍ ولا معالجةِ طبيبٍ بل ببركةِ سيِّدِنا أحمدَ ﷺ ونفعنا به.

ومنها أنَّ بعضَ أصحابِنا أيضاً وهو الخيِّرُ المرضي ذو الحال أبو مُحمَّد عبدُ الحقّ بنُ أحمدَ بو زيَّان الأندلسي برزَ بكفِّهِ شيءٌ يسمى عند النَّاسِ بالحزازةِ بمهملة بزائين بينهما ألف فجعلتْ تتسعُ وتكبرُ شيئاً فشيئاً حتَّى ملأتْ كفَّهُ وموضُعها يتعفَّنُ وأعوزَ دواؤها وخاف على نفسهِ أنْ تكونَ هي الدَّاءُ المسمَّى بالواكلةِ والعياذُ باللهِ، وفزعَ لذلك فزعاً شديداً فلجأ إلى سيِّدِنا أحمدَ ﷺ وشكاها لهُ فقبضَ بيدهِ المباركةِ على زندهِ وجعلَ ينظرُ إليها وهو يقولُ لهُ

" لا بأسَ ما ثَمَّ شيءٌ إنْ شاءَ اللهُ "

فمن يومئذٍ أخذتْ في البرءِ فبرئتْ سريعاً ويبستْ ولم يبقَ بكفهِ منها أثرٌ والحمدُ للهِ ببركةِ سيِّدِنا أحمدَ ﷺ ونفعنا به آمين.

ومنها أنَّ صاحبَنا الأرضى أبا عبدِ اللهِ مُحمَّداً بنَ أحمدَ القرميدي الأندلسي مرضَ بالوباءِ مرضاً شديداً أشرفَ منهُ على الموتِ وآيسَ منهُ، وكان أصابَهُ تحت إذنهِ فأضرَّ به غايةً وانتفخَ منهُ عنقَهُ وعظُمَ جدَّاً حتَّى صارَ مثلَ البطيخةِ

وكان سيِّدُنا أبو العبَّاسِ ﷺ يسألُ عنه ويعودهُ، وكان إذا ذُكِرَ بحضرتِهِ أو رأى من آيسَ منهُ يقولُ ما عنده إلّا الخيرُ، فكان بعضُ مَنْ يسمعهُ يتعجَّبُ من ذلك لكونِ مَن بلغَ مبلغَهُ لا يعيشُ عادةً ثُمَّ أنَّهُ وجدَ من نفسهِ بعضَ خفَّةٍ وبقيَ الوباءُ الذي بعنقهِ على حالهِ.

أخبرني أخي الفقيه أبو عبدِ اللهِ العربي أنَّهُ كان يوماً مع سيِّدنا أحمدَ ﷺ بعرصةِ النُّقطةِ فسألَهُ عنه فأخبرَهُ بحالهِ فقال لهُ

" إنِّي أذكرُ في نفسي إنِّي أذهبُ إليهِ وأمسحُ بيدي على عنقهِ ويبرأ "

قالَ أخي

" فعزمتُ أنْ أُخبرَهُ ليأتيَ فذهلتُ عن ذلك يومي كلِّهِ ومن الغدِ بينا أنا جالسٌ قربَ المغربِ بالزَّاويةِ إذ أشرفَ علينا فأخبرتهُ بمقالةِ سيِّدِنا أحمدَ ".

فقال لي

" ظللتُ أمس وسائرَ اليومِ أحبُّ المجيءَ إليهِ "

يعني من الوقتِ الذي ذكرَهُ فيه فلم استطعْ يعني من أجلِ المرضِ إلّا هذه السَّاعةَ، وكان سيِّدي أحمدُ إذ ذاك جالساً بسطحِ الزَّاويةِ فصعدَ إليهِ، فلمَّا جلسَ بين يديهِ وسألَهُ عن مرضهِ ومدَّ يدهُ المباركةَ إلى عنقهِ وأمرَها على محلِّ الوباءِ فوجدَ الرَّاحةَ حينئذٍ وأخذَ في البرءِ من حينهِ ذلك وجعلَ يضمحلُّ حتَّى لم يبقَ لهُ أثرٌ ولم يحتجْ إلى مداواةِ حجَّامٍ ولا طالتْ عليهِ في ذلك الأيَّامِ ومن شأنِ هذا المرضِ لا سيَّما إنْ انفجرَ أنْ تطولَ مدَّتهُ وتتصلَ مادتَهُ فلا يذهبُ إلّا بعدَ معاناةٍ وطولِ مُقاساتٍ عافانا اللهُ من ذلك بمنَّهِ وكرمهِ آمين.

ومنها أنَّ صاحبَنا الفقيهَ المشاركَ الأرضى أبا الحسنِ علي بنَ عبدِ الرَّحمنِ الخميري اللَّمتوني الأصلَ مؤدبُ صبيانٍ سيِّدِنا أحمدَ بالزَّاويةِ كان قد عضَّهُ فأرٌ كبيرٌ في اصبعِ يدهِ فجرحَهُ جرحاً نالَ به مشقَّةً وانتفختْ يدهُ وأصابتهُ الحُمرةُ المسمَّاةُ عند النَّاسِ بالعدوةِ وصارتْ تنتقلُ في يدهِ من موضعٍ إلى آخرَ واستعملَ

لها من الدَّواءِ ما ظهرَ لهُ فلم يُفدْ وطال ذلك به وأعوزَهَ علاجُها مع ذكائهِ ومعرفتهِ بعلمِ الطبِّ فحارَ في أمرِها و لم يدرِ ما يصنعُ لضُرِّهِ، وكان سيِّدي أحمدُ يريدُ حين يراهُ أنْ يجعلَ يده على محلِّ الدَّاءِ من يدهِ ويريدُ أنْ يقولَ ذلك لهُ فيسكتَ حتَّى يكونَ مسؤولاً منهُ حسبما أخبرَ هو بذلك عن نفسهِ أعني سيِّدَنا أحمدَ، فاتَّفقَ يوماً أنْ جلسنا معهُ ﷺ وأبو الحسنِ المذكورِ حاضرٌ فطلبَ بعضُ الحاضرين الزَّائرين أنْ يضعَ النَّاسَ يدهُم على يدهِ بقصدِ الاستشفاءِ فوضعَ سيِّدُنا أحمدُ ﷺ يدهُ المباركةَ عليها فبرئتْ والحمدُ للهِ وأصبحتْ من غدِ ذلك اليومِ في عافيةٍ قد زالتْ حُمرتَها وذهبَ ألمُها ببركةِ سيِّدِنا أحمدَ ﷺ وقد أخبرَ ﷺ بعد ذلك أنَّ برءَها كان متوقفاً على وضعِ يدهِ عليها نفعنا اللهِ ببركتهِ آمين.

ومنها أنْ رجلاً من الأصحابِ وهو السَّيِّدُ المرضي ذو الحال أبو مُحمَّد عبد العزيز بن علي السكاج التسُّولي الأصل الفاسي الدَّار أصابَهُ وباءٌ بركبتيهِ كليهما فجاءَهُ سيِّدُنا أحمدُ ﷺ يعودهُ فسألَهُ عن حالهِ ومرضهِ فأراه ركبتيهِ معاً فوضعَ يده على الدَّاءِ الكائنِ في أحدهِما ولم يضعْهُ على الأخرى فبرئتْ التي وضع يده عليها سريعاً وخمدَ وباؤها قريباً وطالَ أمدُ التي لم يضعْ يده عليها بقدرةِ اللهِ سبحانَهُ وظهرَ بذلك سرُّ وضعِ يده الكريمةِ وما منحَهُ اللهُ من البركةِ العظيمةِ ﷺ.

ومنها أنَّ أخي أبا عبدِ اللهِ مُحمَّداً العربي حفظهُ اللهُ أصابتهُ حبَّةٌ على ظهرِ قدمهِ اليمنى وحصل لهُ منها ألمٌ أمكنه معهُ التَّحرُّكَ فذهب إلى الزَّاويةِ، ومكثَ بها طويلاً فَعظُمتِ الحبَّةُ و كثُر ألمُها فلم يستطعِ الرُّجوعَ إلى الدَّارِ وباتَ تلك الليلةَ بالزَّاويةِ من أجلِها، فرآه سيِّدُنا أحمدُ وسألَهُ عمَّا به فأخبرَهُ بمرضِ رجلهِ فقال لهُ مُدَّها فمدَّها وأراهُ قدمَهُ فجعلَ سيِّدُنا أحمدُ ﷺ عليها يديهِ معاً اليُمنى من أسفل واليُسرى من فوق مارَّاً بهما إلى الكعبين كالماسحِ على الخفَّين، ثُمَّ قالَ

لهُ ضمَّها فضمَّها فأحسَّ بالاستراحةِ من حينهِ وباتَ ليلتَهُ نائماً وأصبحَ من الغدِ يمشي عليها وانفجرتْ برفقٍ ولم يبقَ بها أثرٌ والحمدُ للهِ ببركتهِ ﷺ.

ومنها أنَّ الأهلَ أصبحوا يوماً يشتكون مرضاً أظنُّهُ وجَع البطنِ، فلمَّا رأوني أريدُ الذِّهابَ للزَّاويةِ طلبوا منّي أنْ آتيهم بشيءٍ من خبزِ سيِّدِنا أحمدَ ﷺ بقصدِ الاستشفاءِ فجئتُ بعضَ بنيهِ وهو سيِّدي العربي، وذكرتُ لهُ ذلك فدخلَ الدَّارَ ليُخرجَ الخبزَ فوجدَ والدَهُ سيّدي أحمدَ بها فأخبرَهُ بخبري وأراد أنْ يقسِمَ طرفاً من خُبزهِ فقال لهُ سيِّدُنا أحمدُ

" لستَ أنت تقسمهُ "

وأخذَ الخبزةَ من يدهِ وكسرَ منها كسرةً أعطاهُ إيَّاها فأخرجَها لي ففرحتُ وذهبتُ بالخبزِ إلى أهلي فأكلوه فبرئوا يومَهم ذلك والحمدُ للهِ.

وهذا النَّوعُ من كراماتهِ ﷺ أكثرُ من أنْ يستوفيهِ أحدٌ لوقوعهِ لكثيرٍ من الأصحابِ وغيرهِم غيرَ ما مرَّةٍ، وكم واقعةً لنا نحنُ معهُ في ذلك وخصوصاً في صبيانِنا يُصيبهِم المرضُ فنرسلُ بهم إلى دارهِ فيأخذُهم ويجعلُهم في حجرهِ ويمسحُ عليهم ويخبرُ بشفائِهم فيعافيهم اللهُ عزَّ وجلَّ.

تصريفُهُ ﷺ مِن قَبيلِ الإستغاثة به

وأمَّا ما كان من قبيلِ الإغاثاتِ الجاريةِ على يدهِ ﷺ بسببِ إستغاثةٍ في شأنِ مرضٍ أو غيرهِم، فما وقع كثيراً أيضاً ولا يزالُ يقعُ مستمراً

فمنها أنَّ امرأةً من محارمِنا أصابتْها مادةً باردةً فمرضتْ مرضاً شديداً لا تستطيعُ معهُ حركةَ يدِها ولا رجلِها ولا رأسِها ولا عضوٍ من أعضائِها فكانتْ لا تنقلبُ يميناً ولا شمالاً إلَّا أنْ يقلبَها غيرُها مع مشقةٍ عظيمةٍ، مكثتْ على ذلك نحو ستةِ أشهرٍ وعولجت بأدويةٍ وأشربةٍ فما عاجتْ بشيءٍ منها وأعوزتْ الأطباءَ

وكانتْ لها أم تمرضُها وتباشرُها فلما طال عليها الأمدُ ولحقتْها المشقَّةَ الفادحَة والعناء الشَّديدَ من مباشرتِها وآيستْ من دوائِها وبرئِها وشفائِها، ألهمَها اللهُ أنْ صرفتْ وجهةَ قلبِها إلى سيّدِنا أحمدَ ﷺ فجعلتْ تستصرخهُ وتناديهِ وتقرأ كلَّ يومٍ عدداً من سورةِ الإخلاصِ وتهديها لهُ، فعلتْ ذلك أيَّاماً فرأتْ ليلةً فيما يرى النَّائمُ أنَّ سيِّدَنا أحمدَ ﷺ بالدَّارِ التي بها المريضةُ وهي تشكو لهُ مرضَ بنتِها فدخلَ البيتَ على المريضةِ ووقفَ عندها ووضعَ يدَهُ على رأسِها ثُمَّ انصرفَ، فانتبهتْ مسرورةً ممَّا رأتْ، ثُمَّ لمَّا أصبحتْ جعلتْ تستغيثهُ وتلحُّ عليهِ ثُمَّ بعثتْ بنتها إلى الحمَّامِ لتزيلَ ما بها من الدرنِ أرسلتْها إليهِ محمولةً على ظهرِ امرأةٍ أخرى، وكان الحمَّامُ بإزاء الدَّارِ، فبينما هي تنتظرُ مجيئَها من الحمَّامِ محمولةً إذ دخلتْ عليها الدَّارَ ماشيةً على رجلِها فبهتتْ متعجبةً وعجبَ الحاضرون كلُّهم من ذلك كلَّ العجبِ، وعلموا أنَّ تلك إغاثةَ سيّدِنا أحمدَ ﷺ وآيةً من آياتِ اللهِ التي أُجريتْ على يدهِ ﷺ ونفعنا به.

ومنها أنَّ صاحبنَا القارئَ الأجلَّ أبا العبَّاسِ أحمدَ بنَ عبدِ الوهاب الوزيرِ الأندلسي الغسَّاني حفظَهُ اللهُ اشتدَّ بزوجتهِ وجعَ النِّفاسِ وطالَ بها أيَّاماً حتَّى وهنتْ وضعُفتْ عن الصِّياحِ، وظهرتْ عليها مخايلُ الهلاكِ وآيسَ منها واستعملَ لها ما أمكنَ من رقيةٍ وغيرِها، فلم ينفعْ شيءٌ فلمَّا عظمَ ما نزلَ بها ولم تبقَ لهُ حيلةٌ، ذهبَ يوماً إلى مسجدٍ بإزاءِ دارهمَ ينفردُ فيه عن النَّاسِ ولجأ بقلبهِ إلى سيّدِنا أحمدَ ﷺ يستغيثهُ ومكثَ ساعةً يذكرُ اللهَ عزَّ وجلَّ وأهلُ الزَّوجةِ معها، فدعا ينو منيتِها ونزولُ الموتِ بها، فبينما هم يتوقعون ذلك إذ فرَّجَ اللهُ تعالى عن المرأةِ ويسَّرَ عليها الولادةَ وخلَّصَها من تلك الشِّدةِ ببركةِ سيّدِنا أحمدَ ﷺ بسببِ الاستغاثةِ به، وقد كان أخو هذه المرأةِ نائماً قبل ولادتِها بساعةٍ فرأى سيِّدُنا أحمدُ ﷺ قد جاءَ ودخلَ الدَّارَ التي فيها النُّفساءُ وخرجَ فأفاقَ وأعلمَ بذلك الزَّوجَ مبشراً لهُ.

ومنها أنَّ رجلاً تلفَ لهُ ولدٌ صغيرٌ من نحوِ ثلاثِ سنينَ وغابَ عنه أيَّاماً وهو يفتِّشُ عليهِ ويتلهَّفُ ولم يجدْ لهُ أثراً فدُلَّ على سيِّدِنا أحمدَ ﷺ فجاءَهُ فوجدَهُ وقصَّ عليهِ خبرَهُ وجعل يبكي فقال سيِّدي أحمدُ إذ ذاك

" سبحان الله أولدُكَ من البارحةِ؟ رأيتُ نفسي أخرجتُ صبياً من الوادي "

ثُمَّ جعل يسلِّيهِ ويزيلُ ما به وذكرَ أنَّ لهُ امرأةً كانت أخذتْ صبياً لغيرِها حسداً لأمِّهِ وذهبتْ به، ثُمَّ قالَ لهُ اذهبْ وفتِّشْ في الديوانِ فمضى الرَّجلُ وتراخى في التَّفتيشِ آيساً من ولدهِ، فمنِ الغدِّ تفقدَّهُ سيِّدُنا أحمدُ ﷺ وأرسلَ إليهِ أنْ يفتِّشَ في الدِّيوانِ أيضاً فنهضَ لذلك واكترى من يفتِّشُ لهُ فيها، فبينما هو كذلك إذا برجلٍ جاءَهُ بولدهِ حياً سالماً قد وجدَهُ بطرفِ وادٍ يقالُ لهُ وادي الشَّرشورِ ألقاهُ ذلك الوادي بضفَّتهِ فبقيَ منغمساً في الطِّينِ يمرُّ بإزائهِ الماءُ، وألفى الأمرُ كما قالَ سيِّدُنا أحمدُ ﷺ وأغاثَ اللهُ والدَ الصَّبي بردِّهِ عليهِ سالماً على يدهِ وببركتهِ ﷺ وذلك بعد خمسةِ أيَّامٍ أو ستةٍ، وأخبرني بعضُ أصحابِ الرَّجلِ أنَّهم اتَّهموا به امرأةً كان طلَّقها والدهُ وأنَّها دخلتْ يوماً دارَهم ومن حينئذٍ فُقدَ الصَّبي، فكان ما حكاهُ سيِّدُنا أحمدُ ﷺ لوالدِ الصَّبي إشارةً إلى هذا الواقعِ وجاءتْ فيه كرامةٌ أخرى فسبحان اللهِ المكرمِ لعبادهِ.

ومنها أنَّ رجلاً من المعارفِ ممَّنْ لهُ محبَّةٌ فيه ﷺ ومن أهلِ الصِّناعاتِ الذين يخدمون بدارِ السُّلطانِ مولاي إسماعيلَ وفَّقهُ اللهُ وقعَ لهُ شيءٌ ممَّا يتعلَّقُ بصنعتهِ فغضبَ عليهِ السُّلطانُ المذكورُ غضباً شديداً وأحضرَهُ أمامَهُ وجعلَ يشتمَهُ ويهددهُ بالقتلِ ويقولُ لهُ

" اليومَ أقتلُك لا تنجو منِّي أبداً "

ومدَّ يدهُ إلى لحيةِ الرَّجلِ وقبضَ عليها قبضاً عنيفاً كاد يقتلعُها ليتمكَّنَ من ضربهِ أو طعنهِ بما كان في يدهِ من الخنجرِ المسمَّى بالكوميةِ، فصاح الرَّجلُ عند ذاك مستغيثاً بسيِّدِنا أحمدَ ﷺ بأعلى صوتهِ قائلاً

" يا ابنَ عبدِ اللهِ العارفَ باللهِ "

فأرسلَهُ من يدهِ ودفعهُ بمرَّةٍ دفعةً سقطَ بسببِها السُّلطانُ وراءَهُ إلى الأرضِ جالساً، وكان وقتَ مطرٍ فتلوَّثَ ما عليهِ من الثِّيابِ، ومع هذا فلم ينتقمْ منهُ عند ذلك بل أعرضَ عنه وجبنَ عن عقوبتهِ وذهبَ وتركَهُ فنجا منهُ الرَّجلُ ببركةِ سيِّدِنا أحمد ﷺ وإغاثتهِ إيَّاهُ.

ومنها أنَّ صاحبَنا الشَّريفَ النَّزيهَ الخيِّرَ الأرضى أبا عبدِ اللهِ مُحمَّداً بنَ عبدِ اللهِ الطَّاهري الحسني الجوطي حفظَهُ اللهُ مرضَ مرَّةً بالحمَّى، وكان إذا اشتدَّ به ضررُها وأثقلتْهُ تكلَّمَ بالهذيانِ لكثرةِ ما يغمرهُ منها، فلمَّا كان ذاتُ ليلةٍ باتتْ عليهِ مستمرةً وأوهنتْهُ فألهمَهُ اللهُ الاستغاثةَ بسيدِنا أحمدَ ﷺ فجعل ينادي

" يا سيِّدي أحمدُ بنُ عبدِ اللهِ يا سيِّدي أحمدُ بنُ عبدِ اللهِ "

يستغيثُ به ليلتَهُ إذ لهُ به صحبةٌ وتعلُّقٌ، فلمَّا أصبحَ من ليلهِ ذلك وطلعتْ شمسُ نهارهِ جاءَهُ سيِّدُنا أحمدُ ﷺ يعودهُ ولم يكنْ جاءَهُ قبل ذلك وأتاهُ بدواءٍ استعملَهُ لهُ بيدهِ المباركةِ وأعطاهُ إيَّاهُ وانصرفَ، فرفع اللهُ عنه الحمَّى من يومئذٍ ولم تعدْ إليهِ بعد ذلك ببركةِ سيِّدِنا أحمدَ ﷺ واغاثتهُ إيَّاهُ.

ومنها أنْ رجلاً من أبناءِ الأصحابِ ذهب مع الرَّكبِ المغربي ليحجَّ، فلمَّا وصلوا إلى الحجازِ ودخلوا دربَهُ عرضَ لهم القاطعون للطَّريقِ هنالك فاقتتلوا مع آخرِ الرَّكبِ ونهبوا منهُ جمالاً وجرحوا رجالاً، وكان هذا الرَّجلُ يقاتل دون جملِهِ فضُرب بحجرٍ في رأسهِ وسقطَ مغشياً عليهِ، فأخذوا جملَهُ وسلبوه بعض ثيابهِ وتركوا عليهِ بعضَها وذهبَ الرَّكبَ وبقيَ بالأرضِ جريحاً طريحاً مغمى عليهِ فلمَّا أفاقَ جعَل ينادي

" يا سيِّدي أحمدَ بنَ عبدِ اللهِ يا سيِّدي أحمدَ بنَ عبدِ اللهِ "

يستغيثه استغاثةَ ملهوفٍ, في بلدٍ مخوف قد انفصلَ عن جمعهِ واشتدَّ روعهُ فألهمَهُ اللهُ أنْ يرجعَ إلى وراءٍ يلتمسُ الرَّكب المصري، إذ كان آتياً بعدهُم فساروا

الطَّريقَ وهو يمرُّ باللِّصوصِ جماعةً بعد جماعةٍ ولا يضرُّونَهُ حتَّى وجدَ الرَّكب المصري فجاءَ معهم آمناً حتَّى لحقَ بالمغربي، فلمَّا أشرفَ عليهِ وجدَ به جملَهُ الذي سلبَهُ، وأخبرَهُ أهلُ الرَّكبِ أنَّهم لمَّا رجعوا إلى مكانِ الفتنةِ بعد انصرافِ القومِ عنه يتفقَّدون هل يجدون شيئاً ساقطاً في الأرضِ وجدوهُ واقفاً وحدَهُ كأنَّهُ حبسَهُ حابسٌ وعليه حملهُ لم يضِعْ منهُ شيءٌ قد ذهبَ عنه اللُّصوصَ وتركوهُ لا يدري بأيِّ سببٍ.

ثُمَّ جعلوا يقولون لهُ وهم يعجبون من شأنهِ هذا الرَّجلُ الذي تعرفونَهُ وتستغيثون به لهُ بركةٌ عظيمةٌ فعليكم بخدمتهِ فأظهرَ اللهُ عزَّ وجلَّ لهم هذه الآيةَ حيث ردَّ عليهِ حملَهُ من بينِ سائرِ من أُخذَ وجمعَ شملَهُ بالرَّكبِ بعد ما تُركَ ونُبذَ, وأبان بذلك بركةَ سيِّدِنا أحمد ﷺ ومزيةَ الاستغاثةِ به، رزقَنا اللهُ محبَّتهُ وأدامَ علينا بركتَهُ آمين.

مُكاشَفاتُه ﷺ وإخبارُه بالمُغيبَات

وأمَّا ما كانَ من قبيلِ المكاشفاتِ والإخبارِ بالمغيباتِ وهو ممَّا لا يأتي عليهِ الحصرُ لكثرةِ جريانهِ لكنَّا نوردُ منهُ ما علقَ بالحفظِ.

فمنها أنَّهُ ﷺ دخلَ يوماً على الشَّيخِ الفقيهِ العارفِ أبي العبَّاسِ سيِّدي أحمدَ اليمني ﷺ يعودهُ وقد كان مرضَ بالحمَّى مرضاً شديداً، فلمَّا جلسَ عندَهُ ورأى ما به قالَ لهُ

" إنَّ الحمَّى قد ذهبتْ عنك يا سيِّدي لا تعودُ إليك "

ثُمَّ دخلَ عليهِ بعد ذلك رجلٌ آخرَ يعودهُ فقال لهُ

" كيف أنت يا سيِّدي " ؟

فقال لهُ سيِّدي أحمد اليمني

" إنَّ الحمَّى قد ذهبتْ عنِّي لأنَّ سيِّدي أحمدَ بنَ عبدِ اللهِ أخبرني أنَّها لا تعودُ "

فكان كذلك فما عادتْ إليهِ الحمَّى بعد ذلك اليوم والحمدُ للهِ.

ومنها أنَّهُ لمَّا ثارَ أبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ الرئيسِ عبدِ اللهِ بنِ الأميرِ أبي عبدِ اللهِ مُحمَّد الحاج الدِّلائي في قبائلِ البربرِ بناحيةِ الدِّلاءِ على السُّلطانِ مولاي إسماعيلَ سدَّدهُ اللهُ وجمعَ لهُ من الجيشِ مثلَ جيشهِ أو أزيد قالَ ﷺ

" إنَّهم يُهزمون ويولُّون الدُّبرَ ولا يثبتون عند اللِّقاءِ ".

وقال

" شبَّهتُهم كحطامٍ أصابتْهُ نارٌ، فالنَّارُ السُّلطانُ والحطامُ البربرُ ".

وقال مرَّةً أخرى

" كبقرةٍ بيدِ الجزَّارِ، أترونَ البقرةَ تقاومُ الجزَّارَ ".

فكان كما أخبر ﷺ فإنَّهُ لمَّا ذهب السُّلطانُ متوجِّهاً إليهِم انهزموا عندما لاقاهم بمِرةٍ ولم يصبروا فَواق ناقةٍ[1] واستولى السُّلطانُ على محلتِّهم وانتهبَ أموالَهم وقتلَ منهُم العددَ العديدَ، وقطعَ رؤوسَهم والعياذُ باللهِ وأتى بها إلى فاسٍ وملئ بها أسوارَ مدينةِ الخميسِ نسألُ اللهُ العافيةَ، فلم تقمْ لهم قائمةٌ بعد ذلك وفرَّ صاحبُهم إلى بعضِ الجبالِ وبقيَ به إلى أنْ مات بالطَّاعونِ عفا اللهُ عنا وعنه وكان هذا الرَّجلُ يقولُ

" أنَّهُ مأذونٌ فيما فعلَهُ "

فنُقل ذلك لسيِّدِنا أحمد ﷺ فسمعتهُ يقولُ

" نعم أذنَ لهُ بعضُ الصَّالحين كان لقيَهُ ولكن جاءَ من هو أكبرُ منهُ فضربَ على يدهِ "

يعني نقضَ ذلك الإذنَ.

[1] . الفيقة هو اللبن الذي يجتمع في الضرع بين الحلبتينِ أي لم يصبروا في المعركة وقتاً طويلاً.معجم المعاني.

ومنها أنَّهُ لمَّا بويع السُّلطانُ مولاي إسماعيلُ بنُ الشَّريفِ سدَّدهُ اللهُ بفاسٍ الجديدِ بعد وفاةِ أخيه السُّلطانِ مولاي الرَّشيدِ رحمه اللهُ وذلك منتصفَ ذي الحجة من سنةِ اثنين وثمانين وألفٍ وتقرَّرَ بفاسٍ الجديدِ، وهي إذ ذاك مملؤةٌ بالعبيدِ والحشمِ والممالكِ والخدمِ يأوي إليهِ الأجنادُ والقوَّادُ والوفودُ من أهلِ الحواضرِ والبوادِ ما فيها موضعٌ ولا بإزائها إلَّا وهو مرغوبٌ فيه ومطلوبٌ، مُلئتْ بأخلاطٍ من الأقوامِ وكثرَ في طرقِ داخلِها وخارجِها الازدحامُ فكان ﷺ إذا مرَّ بإزائها نظرَ إليها وقال

" أنا ما أراها إلَّا خاليةً "

تكرَّرَ ذلك منهُ مراراً فألقى اللهُ في قلبِ السُّلطانِ المذكورِ المبايعِ لهُ بها النُّفورَ منها وحبَّبَ إليهِ سُكنى مكناسةَ الزَّيتونِ فكان يأوي إليها ويتركُ بعض أهلهِ بفاسٍ الجديدِ، ثُمَّ بدا لهُ أنْ يرتحلَ منها رأساً فأخرجَ أهلَهُ وعيالَهُ وعبيدَهُ وأموالَهُ ولم يُبقِ ببيتِ المالِ شيئاً وسكنَ مكناسةَ واتَّخذَها دارَ ملكهِ ولم تكنْ دارَ مُلكٍ قطُّ وتفرقتِ المملكةُ التي كانت بفاسٍ الجديدِ، ثُمَّ أمرَ بإخراجِ أهلِها القاطنين بها فخرجوا وتفرَّقوا في البلادِ وبقيتِ اليوم خاليةً من الملكِ فارغةً من كثرةِ الرِّجالِ كما رآها سيِّدَنا أحمدَ ﷺ وانظر ما يفعلُ اللهُ بها بعد ذلك والأمرُ للهِ وحدَهُ.

ومنها أنَّهُ ﷺ كان في بعضِ زياراتهِ ذاهباً في أزغارَ من بلادِ الغربِ وبإزائهِ الفقيهُ الخيِّرُ الأنورُ أخونا في اللهِ أبوعبدِ اللهِ مُحمَّد بنُ مُحمَّد الدِّريجِ الغرناطي السَّلفِ التُّطواني المنشأ الأنصاري الأصلُ فالتفتَ إليهِ وسألَهُ عن رجلٍ من الشَّاميين القاطنين بالمخفيَّةِ وقال لهُ

" أهو مريض "؟.

فقال لهُ لا أدري يا سيِّدي.

فقال لهُ

" إنِّي سمعتُ أنينَهُ ".

فلمَّا قدموا من سفرهِم لقيَ سيّدي مُحمَّداً الدِّريج المذكورَ ذلك الرَّجلُ فسألَهُ

" أكنتَ مريضاً حين كنَّا مسافرين " ؟

فقال لهُ " مرَّ عليَّ مرضٌ بتُّ به ليلةً في محنةٍ وقاسيتُ به شدةً "

قالَ فعرفتُ أنَّهُ الأنينُ الذي سمعَ سيِّدُنا أحمدُ وهو بإزغارَ ﷺ وأرضاهُ.

ومنها أنَّ رجلاً من قبيلةِ غمرةَ بالمعجمة مات وأوصى بثلثِ متخلفهِ للمساكين من أهلِ زاويةِ سيِّدي أحمدَ، وجعل تفريقَهُ بيدهِ، وكان لهُ أخٌ يرثهُ فطلب من هذا الأخِ إخراجَ الثُّلثِ لأربابهِ، فاعتذر وتلكئ وتظَّلمَ وتشكَّى من غيرِ موجبٍ شرعي ولا سببٍ مرعي، ثُمَّ أنَّهُ أتى يوماً سيِّدَنا أحمدَ وتكلَّمَ معهُ في ذلك فحاول عليهِ سيِّدُنا أحمدُ وتلطَّفَ لهُ عسى أنْ لا يمتنعَ من حقِّ المساكين فلم يكنْ منهُ إذعانٌ، فلمَّا انصرفَ التفتَ سيِّدُنا أحمدُ ﷺ إلى مَنْ معهُ وقال

" سبحانَ اللهِ الميِّتُ يخاصمُ كأنِّي به ميِّتٌ قريباً "

فلم تمضِ لهُ إلَّا أيَّامٌ أربعةٌ وإذا به قد مات وذهب وفاتَ وانتقلَ من دنياهُ لأخراهُ رحمنا اللهُ وإيَّاهُ.

ومنها أنَّ صاحبَنا أبا عبدِ اللهِ الدِّريج كان أوائلَ صحبتهِ لسيِّدِنا أحمد ﷺ يبيتُ بصقلبيَّةِ الزَّاويةِ ويأوي إليها، فبينما هو ذاتَ ليلةٍ نائمٌ إذ وقعَ لهُ احتلامٌ في نصفِ اللَّيلِ وذلك في فصلِ الشِّتاءِ في ليلةٍ شديدةِ البردِ فانتبهَ وأخذَ يبكي كيف يصنعُ وقد أعجزَهُ البردُ قالَ لي

" فبينما أنا كذلك إذا بسيِّدِنا أحمدَ يدقُّ البابَ ففتحتُ لهُ وهممتُ أنْ أخبرَهُ بشأني فقال لي قبل أنْ أذكرَ لهُ شيئاً

" لذلك أتيتُ "

وإذا بيدهِ برمةٌ مملؤةٌ بالماءِ السَّاخنِ فدفعَها لي وانصرفَ ﷺ "

ومنها أنَّ صاحبَنا الدَّريج المذكور لقي يوماً الشَّيخَ الفقيهَ العارفَ أبا العبَّاسِ سيِّدي أحمدَ اليمني ﷺ عند خارجِ بابِ الفتوحِ فقال لهُ

" اذهب لسيِّدي أحمدَ بنِ عبدِ اللهِ وقل لهُ أردتُ أنْ ألقاهُ "

وذلك أوائلَ وقوعِ المعرفةِ بينهما فذهب إلى دارهِ من ناحيةِ العرصةِ، فعندما وصلَ إليها وأرادَ أنْ يدقَّ البابَ أخذتْهُ هيبةٌ فرجعَ القهقري وجلسَ إلى أصلِ شجرةٍ قالَ فبينما أنا كذلك إذا سيِّدي أحمدُ قائماً على رأسي قد خرجَ من الدَّار فقال لي قبل أنْ أذكر لهُ شيئاً

" أجئتَ مرسلاً من عند سيِّدنا أحمدَ اليمني "

" فقلتُ نعم "

فقال لي

" ارجعْ إليهِ وقل لهُ ينتظرني عند روضةِ سيِّدي مُحمَّد بنِ عبّادٍ "

" فذهبتُ متعجباً من ذلك ".

ومنها أنَّهُ ﷺ أرسلَ بعضَ خاصةِ أصحابهِ وهو الدَّريج المذكور إلى السُّوقِ ليشتريَ لهُ منهُ لحماً لدارهِ ولحماً لدارِ سيِّدي أحمدَ اليمني رضيَ اللهُ عنهُما فاشتراهما كلَّ واحدٍ على جِرب، وعمدَ إلى قطعةٍ كبيرةٍ من اللَّحمِ سمينةٍ أعجبتْهُ من اللَّحمِ الذي كان اشتراهُ بقصدِ سيِّدي أحمدَ اليمني فجعلَها فيما اشتراه لسيِّدِنا أحمدَ بتأويلِ أنَّ ذلك كلَّهُ لهُ ومن مالهِ وإنَّ عيالَ سيِّدي أحمدَ أكثرَ من عيالِ سيِّدي أحمدَ اليمني وجعلَ اللَّحمتينِ في جرابٍ بينهُما فارقٌ يفصلهُما، فلمَّا وصلَ إلى سيِّدِنا أحمدَ وأعطاهُ الجرابَ فتحَهُ وأخذَ اللَّحمَ الذي اشترى لهُ وجعلَ يقلِّبهُ طرفاً بعد طرفٍ حتَّى وصلَ إلى القطعةِ التي نقصَها ممَّا اشترى لسيِّدي أحمدَ اليمني فأخذَها وردَّها فيه كما كانت أولاً فبُهتَ وعجبَ من ذلك ولم يقلْ شيئاً وولَّى عنه منصرفاً إلى الزَّاويةِ، فبينما هو بها يتعجَّبُ ويضحكُ من نفسهِ إذا سيِّدُنا أحمدُ مشرفاً عليهِ فقال لهُ

" ما عندك أحسبتَ أنَّك تغفِّلُني "

يريدُ ﷺ أنَّهُ لا يخفى عليهِ ما يفعلُ في جانبهِ بظهرِ الغيبِ منهُ في كلِّ شيءٍ ﷺ ونفعنا به.

ومنها أنَّ السَّيّدَ أبا مُحمَّد عبدِ السَّلامِ بنِ عبدِ اللهِ حفيدُ أخي سيّدِنا أحمدَ ﷺ كان ليلةً وهو في بيتهِ يريدُ أنْ ينامَ فخطرَ في خلدهِ أمرٌ لم يخبرنا ما هو أرادَ أنْ يعرفَهُ ساعتئذ وفي تلك اللَّيلةِ وعلقَ به قلبهُ وذهب إليهِ وهلهُ[1] ولبُّه فشردَ عنه الكرى[2], وبقيَ متفكّراً قالَ لنا فبينما هو كذلك يفكِّرُ فيما هنالك إذ أتاه عمُّهُ سيّدُنا أحمدُ ﷺ ودقَّ عليهِ بابَ بيتهِ فعندما فتحَ لهُ قالَ لهُ

" المسألةَ هي كذا وكذا وانبأهُ عمَّا كان في ضميرهِ وأراحَهُ من تعبِ من الفكرِ وتدبيرهِ وانصرفَ غيرَ مريدٍ لشيءٍ آخرَ "

ومنها أنَّهُ ﷺ دخل على بعضِ أعمامِنا يعودهُ من وباءٍ أصابَهُ فلمَّا جلس عنده وسأله عن مرضهِ قالَ لهُ يا سيّدي

" أردتُ أنْ أدفنَ في موضعِ كذا ويفعلُ لي كذا يوصيهِ بأشياءَ ذكرَها لهُ "

فقال لهُ سيّدُنا أبو العبَّاسِ

" مهلاً عليك حتَّى يكونَ مرضٌ آخرَ أمَّا هذا فلا "

فعجبَ عمُّنا من ذلك وعلمَ أنَّهُ سيسلمُ من مرضهِ ذلك ثقةً بقولهِ ﷺ فكان كذلك عافاهُ اللهُ من ذلك الوباءِ وعاشَ بعدهُ مدَّةً طويلةً ثُمَّ مرضَ مرضاً آخرَ مكثَ به أشهراً فدخل عليهِ أيضاً سيّدُنا أحمدُ يعودهُ ووجد ولده الأكبرَ حاضراً معهُ فجعل يودعَهُ، ولمَّا خرجَ من عنده أوصى الولدَ أنْ لا يفارقَ أباهُ وأشار لهُ أنَّهُ سيموتُ من ذلك المرضِ فكان كذلك أيضاً ﷺ ونفعنا به آمين.

---

[1]. الوهل الفزعُ والهلعُ.

2 . الكرى النعاس والنومُ.

ومنها أنَّ السَّيِّدَ الخيِّرَ المسنَّ أبا العبَّاسِ أحمدَ بنَ عبدِ الرَّحمنِ بلوطٍ الأندلسي من أصحابِ والدِ سيِّدِنا أحمدَ ومن الموالين لهُ كان في آخرِ أمرِهِ يصيبهُ مرضٌ حقنةُ البولِ يمرضُ به المرَّةَ بعد المرَّةِ، ينحصرُ فيه البولُ أيَّاماً ثُمَّ ينطلقُ فيبرأ فلمَّا مرضَ مرَّةً وانحصرَ فيه البولُ كما كان يقعُ لهُ صرَّحَ سيِّدُنا أحمد ﷺ بأنَّهُ يموتُ من مرضهِ ذلك ونعاهُ للنَّاسِ جهاراً وتكرَّرَ ذلك منهُ مراراً، فلمَّا يذكرُ عندهُ وهو مريضٌ مرضهُ ذلك إلَّا قالَ معبِّراً بصيغةِ الماضي مشى فلانٌ وذهبَ وجعلَ يدعو لهُ دعاءَ المودِّعِ لهُ بقولهِ

" اللهُ يقبلُ علينا وعليهِ اللهُ يلقيهِ خيراً ونحو ذلك "

فمكثَ هذا الرَّجلُ محقوناً مرَّةً ثُمَّ سرَّح فلم ينفعْهُ السَّراحُ بل استمرَّ مريضاً ومات من مرضهِ ذلك كما قالَ سيِّدُنا أحمدُ ﷺ ونفعنا به.

ومنها أنَّهُ لما ظهرَ الوباءُ بفاسٍ في هذه الأزمنةِ وكان أوَّلُ ظهورِهِ بها في المحرمِ سنةَ تسعٍ بتقديم الفوقية على السّين وثمانين وألفٍ ومكثَ بها أشهراً يموتُ به العددُ الكثيرُ من النَّاسِ كلَّ يومٍ من مائتين إلى أربعمائة فأكثرَ بل بلغَ عددَ الأمواتِ به في اليومِ الواحدِ ثمانمائةٍ ثُمَّ أقلعَ عن النَّاسِ ولم يبقَ لهُ أثرٌ فلمَّا كان كذلك قالَ بعضُ النَّاسِ لسيِّدِنا أحمدَ ﷺ إنَّ الوباءَ والحمدُ للهِ قد ذهب ومضى فقال لهُ

" ما ذهبَ وكرَّرَها وإنَّهُ باقٍ يدورُ ويرجعُ وسوف ترى "

فكان كذلك فإنَّهُ لمَّا كان العامُ القابلُ رجعَ ثُمَّ كذلك العامُ القابلُ وما زال يعودُ ويرجعُ كلَّ سنةٍ ويدورُ في نواحي المغرب إلى عامِنا هذا سنةَ اثنين وتسعين وألفٍ رزقنا الله العافيةَ وأماتنا مسلمين آمين.

ومنها أنَّهُ ﷺ ذهب ذاتَ يومٍ مسرعاً وقد أزعجَهُ باعثُ الذَّهابِ إلى دارِ بعضِ أقاربِهِ فدخلَ عليهم وجعلَ يقولُ

" شدُّوا عليكم الدَّارَ واغلقوا البابَ واجعلوا عليهِ المعراضَ ولا تفتحوا لأحدٍ "

يوصيهم بذلك وصيةَ المتخوِّفِ عليهم فامتثلوا لأمرِهِ واوجفوا البابَ وفهموا أنَّهُ سيكونُ أمرٌ فما هو إلّا أنْ ذهبَ ربُّ الدَّارِ، وكان أختلَّ عقلهُ متقلِّدا سيفَهُ لبعضِ الحكَّامَ ففتكَ به ضرباً بالسَّيفِ فابتدرَهُ الخُدَّامُ والحرسُ فأفلتَ هارباً فذهبوا في أثرِهِ حتَّى ظفروا وقتلوهُ وعلقوهُ وجاءوا الدَّارَ يدخلونَها وينتهبون ما فيها فحيل بينهم وبينها ولم يجدوا للدُّخولِ سبيلاً وأنجى اللهُ أهلَها بوصيةِ سيِّدِنا أحمدَ ﷺ التي كانت لأجلِ ذلك .

ومنها أنَّ رجلاً من المُتفقِّرة البدعيين ممَّنْ أولعَ بالجمعِ على الكسكسون والرَّقصِ وأكلِ أموالِ النَّاسِ بالباطلِ يُقال لهُ علي بنُ سعيدٍ لقيَهُ سيِّدُنا أحمدُ ﷺ يوماً وقد اعتراهُ حالٌ أعني سيِّدَنا أحمدَ فقال لهُ

" إنَّكَ ستُضربُ بالسِّياطِ "

وذهب وتركهُ فمضتْ مدَّةٌ ثُمَّ قبضَ عليهِ القاضي أبو عبدِ اللهِ المجاصي لمَّا أمرَهُ السُّلطانُ مولاي الشَّريفُ الرَّشيدُ بنُ الشَّريفِ رحمه اللهُ بالبحثِ عن شأنِ الفقراءِ البدعيين فضربَهُ ضرباً شديداً ثُمَّ أُطيف به في الاسواقِ واوجعَ ضرباً وقاسى شدةً ثُمَّ أُلقيَ في السِّجنِ فما أطلقهُ حتَّى تبرأ والعياذُ باللهِ من شيخهِ ومن نسبتهِ للفقراءِ وزعم أنَّهُ تاب منهُ، تابَ اللهُ علينا وعليه.

ومنها أنَّ بعضَ أصحابِنا ممَّنْ لهُ حالٌ يظهرُ عليهِ ويتحرَّكُ بسببهِ قد عراهُ يوماً حالٌ غلبَ عليهِ وكان إذا غلبَهُ الحالُ يهدِّدُ ويضربُ بكلِّ ما يجدهُ فلقيَ وهو في تلك الحالِ سيِّدِنا أحمدَ ﷺ فهدَّدهُ فقال لهُ سيِّدُنا أحمدُ

" ها هوَ وادي اللَّبنِ قدَّامكَ "

فمكثَ بعدها مدَّةً طويلةً ثُمَّ ذهب مسافرا إلى بلادِ هوَّارةَ[1] فمرَّ بوادي اللَّبنِ ليلاً معهُ دوابَهُ فرأى أمامَهُ قوما بالطَّريقِ مقبلين لناحيةٍ لهم جلبةً فاعتراهُ خوفٌ

[1] هوّارة قبيلة تنتشر بشكل واسع بالشمال الأفريقي وأيضاً ببلاد الشام والأندلس وصقلية تنتسب الى هوار بن برنس

شديدٌ وحسبَهُم اللُّصوصَ، فتركَ دوابَهُ وفرَّ هارباً ونشبَ لهُ سلهامٌ في سدرةٍ وهو هارباً فتركَهُ ظانَّاً أنَّ أحد أجذبَهُ، ومرَّ كذلك على جرفٍ سقطَ منهُ في غديرِ ماءٍ فمكثَ به مختفياً وباتَ ليلتَهُ خائفاً مُتَنقِّعاً في الماءِ وقاسى شدَّةً ومشقَّةً، وظهر لهُ حينئذٍ ما أخبرَهُ به سيِّدُنا أحمدُ ﷺ متوعِّداً لهُ به وذلك بسببِ تهديدِهِ لهُ، وإنْ كان عن غيرِ اختيارٍ منهُ مَنَّ اللهُ علينا بالأدبِ آمين, وهذه والتي قبلها محتملان التَّصريفَ.

ومنها أنَّ صاحبَنا الخيِّرُ المرضي أبا فارس عبدِ العزيز بن علي السكَّاج حفظَهُ اللهُ كان جالساً بالزَّاويةِ فجاءه سيِّدُنا أحمدُ ﷺ قاصداً إليهِ وقال

" لهُ إلَّا تتزوج "؟

وكان إذ ذاك متزوجاً لا يخطرُ ببالهِ تزويجٌ ولا يفعلهُ ما دامتْ زوجتهُ في عصمتهِ، فبعد ذلك بأيامٍ قلائلَ مرضتْ زوجتهُ وماتتْ فتزوَّجَ بعدها امرأةً أخرى وذلك كلُّه في شهرٍ واحدٍ، وظهرَ لهُ بذلك ما قاله سيِّدُنا أحمد ﷺ مخبراً لهُ في صورةِ العرضِ والتَّخصيصِ.

ومنها أنَّ بعض أصحابِنا عقدَ النِّكاحَ لابنهِ وتواعد للبناءِ مع أهلِ الزوجةِ ليومٍ معلومٍ على عادةِ النَّاسِ فلمَّا قربَ ذلك اليومُ مرضَ الابنُ بالحمَّى فجاءَ أبوهُ إلى سيِّدِنا أحمدَ وقصَّ عليهِ خبرهُ فقال

" اصبرْ حتَّى تمضيَ عشرةُ أيَّامٍ أو اثنا عشرَ يوماً واعملِ العرسَ ".

فأراد أنْ يمتثلَ أمرَهُ وينتقلَ لوعدهِ عن الوعدِ الأوَّلِ فأبى عليهِ أهلُ الزوجةِ فساعفهم وأنجزَ العرسَ فمرضتِ الزَّوجةُ عند البناءِ وازدادَ الابنُ مرضاً وبقيا كذلك إلى تمامِ العشرةِ أيَّامِ الوقتُ الذي وقتَّهُ سيِّدُنا أحمد ﷺ لعرسهما فبرئا معاً ولم يبقَ بهما بأسٌ وظهر لهم هو ذلك الميعادُ وما قصدَهُ ﷺ به وأرادَ وما فيه من الإخبارِ بالبرءِ قبل وصولهِ وتعيَّنَ وقتَ وقوعهِ وحصولهِ ﷺ ونفعنا به.

ومنها إنِّي لمَّا أتممتُ عقدةَ النِّكاحِ مع أهلِ الزَّوجةِ الأولى ودفعتُ المهرَ وتواعدنا للعرسِ لقيني سيِّدُنا أحمدُ ﷺ وقد قربَ يومُ البناءِ فقال لي

" إنْ يشترطوا عليك الأمةَ فاقبلْها فإنَّها تُيسَّرُ ويأتي اللهُ بها "

فقلتُ أي نعم يا سيِّدي، ولم أكنْ أظنُّ أنَّهُم يذكرون ذلك بعد أنْ تمَّ الأمرُ بيننا فلمَّا عزمنا على الإشهادِ امتنعوا منهُ إلَّا أنْ تكونَ الأمَةُ ولو دَيْناً مؤجَّلاً فتذكرتُ إخبارِ سيِّدِنا أحمدَ بذلك وتحققتُ صدقَ وعدهِ بنا، فقبلتُها فبعد وقوعِ البناءِ بنحوِ عشرةِ أيَّامٍ أرادت الزَّوجةُ شراءَ الأمةِ من مالِها فجعلتُ أفتِّشُ وأسألُ عمَّا يصلحُ وما عندي أنا درهمٌ فبينما أنا على ذلك إذا ببعضِ المعارفِ أتيا من بعضِ الكبراءِ بأمتينِ, أمةٍ وبنتِها , فقال لي

" إنَّ فلاناً أعطاكَ هاتين الأمتين لوجهِ اللهِ ووجهِ النَّبي ﷺ "

ودفعهُما لي وانصرفَ، فتعجبتُ من ذلك وعلمتُ مصداقَ قولِ سيِّدِنا أحمدَ ﷺ كما أخبرني به وكم لهذه الحكايةِ من أمثالِها ممَّا وقع لنا نحن معهُ ﷺ ونفعنا به آمين.

ومنها أنَّ صاحبَنا أبا عبدِ اللهِ سيِّدي مُحمَّد الدريج حفظَهُ اللهُ ذهب مرَّةً عن أذنِ سيِّدِنا أحمدَ ﷺ لبلادهِ تطوان لزيارةِ أمِّهِ هناك وطال مكثُه بها أشهرا عديدةً فتكلَّم يوماً عليهِ سيِّدُنا أحمدُ مع بعضِ الأصحابِ وأخبرَهم أنَّهُ يأتي قريباً وأنَّهُ لا يمرُّ العيدُ الأكبرُ إلَّا وهو حاضرٌ معهم، ولم يكن بقيَ للعيدِ يومئذٍ إلَّا نحوَ أربعةِ أيَّامٍ فكان كذلك وقدمَ علينا ليلةَ العيدِ وحضرَهُ معنا كما قالَ سيِّدُنا أحمدُ ﷺ وأخبرَنا أنَّهُ كان كلَّما أرادَ أنْ يخرجَ من تطوانَ تعذَّرَ عليهِ الأمرُ إلى أنْ كان سفرهُ هذا فخرجَ قلقاً مزعَجاً من غيرِ رفقةٍ ولم يلحقْهُ في ذلك ضررٌ ولا مشقَّةٌ.

ومنها أنَّهُ ﷺ كان يوماً بجنانهِ بلمطةَ مع جماعةٍ من الأصحابِ فتذكَّرَ بعضَ الغائبين منهُم وهو السَّيِّدُ أحمدُ بنُ الولي الصَّالِح سيِّدي عبدِ المالكِ الغمري بالمعجمة أو ذُكرَ عنده فقال لهم

" إنَّهُ آتٍ والآن ترونَهُ معكم "

وهو إذ ذاك في منزلِهِ من بلادِ غمرةَ، فما تمَّ لهُ النَّهارُ إلَّا وهو معهم بلمطةَ قدمَ من أرضهِ إليها وبينهما تقديراً مسيرةَ يومٍ وكأنَّهُ كان حين قالَ سيِّدُنا أحمدُ ذلك ماراً في الطَّريق ﷺ ونفعنا به.

ومنها أنَّ بعضَ أصحابِنا هو الحاجُّ أحمدُ بن يحيى الجراري كان مجاوراً بالمدينةِ المشرفَّةِ، وكان إذا زارَ الرَّوضةَ المشرَّفةَ طلبَ رضى سيّدِنا أحمد وعطفَ قلبَهُ عليهِ ومحبتَهُ، لهُ فلمَّا قدمَ على فاسٍ جاءَ زاويةَ سيّدِنا أحمدَ بقصدِ التَّسليمِ عليهِ فتلقَّاهُ سيّدُنا أحمدُ ﷺ تلقياً حفيلاً وفرح به فرحاً جزيلاً زيادةً على ما كان يعهدهُ منهُ وقال لهُ

" قد علمتُ ما طلبتَهُ "

ثُمَّ قالَ لهُ

" هذا موضعُك، وكان جالساً بصقلبيةِ الزَّاويةِ فيه تمكثُ آكلاً شارباً إنْ شئتَ إلى أنْ تموتَ "

ثُمَّ لمَّا أراد أنْ ينامَ بالليلَ، أمَّا ليلُ ذلك اليومِ أو بعده هيَّأ لهُ سيّدُنا أحمدُ فراشَهُ ونامَ معهُ فيه وغطَّاهُ بكسائهِ مباشراً لذلك كلّهِ بيدهِ مبالغةً في إكرامهِ، ثُمَّ قالَ لهُ على سبيلِ الملاطفةِ

" ماذا أصنعُ لك غيرَ هذا "؟

يريدُ أنَّ ذلك هو رضاهُ الذي طلبَهُ هذا الرَّجلُ في الرَّوضةِ المشرَّفةِ ممَّا لا مزيدَ عليهِ، وما زال بعد يقرُّ به ويباسطهُ إلى الآنَ وقال لهُ يوماً

" إذا متَّ فأنا أجعلُك في القبرِ بيدي وأقولُ لك كلاماً تفهمهُ حينئذٍ وتعرفهُ "

ومنها أنَّ ابنَ عمِّنا الفقيهَ أبا العبَّاسِ أحمدَ بنَ عبدِ القادرِ القادري حفظَهُ اللهُ كان يوماً بالزَّاويةِ فأرادَ أنْ يطلعَ إلى صقلبيتِها ليجلسَ بها مع سيّدِنا أحمدَ وتمنَّى

في نفسهِ أنْ يأكلَ عنده بها ثريداً فطلعَ وجلس معهُ وإذا بمخفيةِ[1] ثريدٍ جاءتْ من دارِ سيِّدي أحمدَ فقدَّمها لهُ ولمَنْ حضرَ وقال لهُ

"كُلِ الثَّرِيدَ الذي أنت تحبُّهُ "

وكرَّرها عليهِ يُعَرِّفهُ بما تمنَّاهُ، وذكر لهُ حكايةً وهي أنَّ نفراً ثلاثةً قصدوا لزيارةِ سيِّدي عبدِ الرَّحمنِ الشَّريفِ بجبلِ بجايةَ فتمنَّى كلُّ واحدٍ منهُم في الطَّريقِ أنْ يأكلَ عنده نوعٌ من الطَّعامِ، فلمَّا وفدوا عليهِ هيَّئَ لكلِّ واحدٍ ما أحبَّ وجعلَ يقولُ لرجلٍ منهُم تمنَّى الإسفنجَ

" أين أجدُ لك الإسفنجَ, وهل أنا بفاسٍ في عينِ علوه " ؟

يريد سوقاً من أسواقِها يُباعُ فيه ذلك، ثُمَّ دخل إلى دارِهِ وأخرجَهُ لهُ فتعجَّبَ ابنُ عمِّنا من ذلك ومن مشابهةِ قضيَّتهِ لهذه القضيَّةَ.

تَصريفُهُ ﷺ مِن قَبيلِ إستجابة دُعاءِهِ

وأمَّا ما كانَ من قبيلِ اجابةِ الدُّعاءِ ممَّا هو واقعٌ كثيرٌ أيضاً، وما نعلمهُ دعا في شيءٍ أو على أحدٍ في شيءٍ إلَّا استجيبَ لهُ

فمنها أنَّهُ ﷺ كان معنا في حزبِ الغداةِ من يومِ جمعةٍ وكان المطرُ في ذلك الوقتِ قد حُبسَ أياماً كثيرةً ومدةً طويلةً واحتاجَ النَّاسُ إليهِ احتياجاً كثيراً حتَّى قنطوا وكادوا يخرجون للاستسقاءِ، فلمَّا فرغنا من قراءةِ الحزبِ نادى ﷺ وقد اعتراهُ حالٌ بقولهِ

" قولوا اللهمَّ اسقنا آمين "

[1] خبز مبلل ودجاج وتلقب أيضاً بالرفيسة

فقالَها النَّاسُ دفعةً واحدة فأعادَها عليهم ثانياً فقالوها ثُمَّ ثالثاً كذلك، فنشأ سحابٌ يومئذٍ ولم يظهرْ للشَّمسِ فيه شعاعٌ ونزلَ عندما انتصفَ النَّهارُ مطرٌ خفيفٌ استبشر النَّاسُ به، ثُمَّ بعد يومينِ أرسلتِ السَّماءُ مدراراً وهطلتْ أمطارٌ وتتابعَ مطرُها نحو عشرةِ أيَّامٍ حتَّى رويتْ البلادُ ورُحمَ العبادُ وفرحَ الحاضرُ والبادِ ببركةِ دعائهِ ﷺ وأرضاه.

ومنها أنَّهُ ﷺ كان يوماً بعد وفاةِ والدهِ ﷺ بقريبٍ ذاهباً في الطَّريقِ على كتفهِ مزودُ قمحٍ يحملُها للرَّحى فلقيهُ بعضُ مَن كان من أصحابِ والدهِ رحمهُ اللهُ فأراد أخذَها من يدهِ يحملُها عنه فأمتنعَ على عادتهِ ﷺ فناشدَهُ اللهَ ليسلمَّها إليهِ فأعطاهُ إيَّاها فحملَها عنه إلى أنْ وصلَ إلى الرَّحى ثُمَّ انفصلَ عنه، فبعد ذلك بيومٍ أو أيَّامٍ قامَ سيِّدُنا أحمدُ ﷺ بالزَّاويةِ وقد اعتراهُ حالٌ وجعل يدعو لهُ ويقولُ

" اللهُ يأخذُ بيدِك يا فلانُ "

ويكرِّرَها فمن يومئذٍ لازمَ الرَّجلُ الزَّاويةَ وصحبَ سيِّدي قاسماً رحمهُ اللهُ وفتحَ لهُ قريباً وأقبلَ على الذِّكرِ والعبادةِ وانتفعَ انتفاعاً كثيراً وما زالَ على ذلك إلى الآنَ ظاهراً عليهِ أثرُ الخيرِ والصَّلاحِ ببركةِ دعاءِ سيِّدِنا أحمدَ ﷺ والرَّجلُ المدعو لهُ هو الحاجُّ الخيِّرُ ذو الحالِ أبو العبَّاسِ أحمدَ بتِّير وكم واحدٍ دعا لهُ بخيرٍ فنفعَهُ اللهُ بدعائهِ، وكم مكروبٍ أيضاً نفَّسَ اللهُ عنه بسببهِ ممَّا لا يعدُّ كثرةً، وخصصنا هذه وما قبلَها بالذِّكرِ لوقوعِها بباعثٍ حالي كما ذكرنا.

ومنها أنَّ جماعةً بفاسٍ من أهلِ البغي والفسادِ وثوران الفتنةِ في البلادِ اجتمعوا خفيةً وتشاوروا وتوافقوا فيما بينهم وتآمروا وسولَّتْ لهم أنفسُهم والشَّيطانُ أنْ يثوروا على السُّلطانِ مولاي إسماعيلَ مرَّةً أخرى بعد مضي الثَّورةِ الكبرى فبلغَ الخبرُ سيِّدَنا أحمدَ ﷺ فغضبَ غضباً شديداً وأرسلَ إليهم مَن نهاهُم سرَّاً عن إذنهِ وعدَهم بنزولِ البلاءِ بهم إنْ فعلوا ذلك تهديداً، فخافوا وفزعوا ونكصوا على

عقبِهم ورجعوا لما يتحقَّقونَهُ من صدقِ كلامهِ، ثُمَّ بعد مضي مدَّةٍ تذكَّرَ إساءهم أو ذُكروا لهُ فدعا عليهم وقال

" **اللهمَّ بدِّدْ شملَهم وفرِّقْ جمعَهم واقطعْ دابرَهم** " فبقربِ ذلك فعلَ بعضُهم فعلةً شنيعةً قبضَ عليهم السُّلطانُ بسببِها وقتلَهُم والعياذُ باللهِ صبراً، ومَن ولم يُقبضْ منهُم انتفى لأرضِ المشرقِ فلم يجتمعْ لهم شملٌ بعد ذلك وخلتْ فاسٌ منهُم نسألُ اللهَ العافيةَ.

ومنها أنَّهُ ﷺ كان يوماً بوادي النَّجا يتفقَّدُ قطينةً[1] لهُ هناك على السَّقي فوجدَ السَّواقي قد أفسدَها الماءُ فقطعَهُ عنها، وجعلَ بينها وبين الوادي سداً ليتمكَّنَ من إصلاحِها وتركَهُ يوماً أو يومين، فلمَّا رجعَ إليهِ وجدَ بعضَ الظَّلمةِ المضافين لجانبِ المخزنِ قد نقضَهُ وأفسدَهُ وأبطلَ لهُ ما أرادَهُ من العملِ والإصلاحِ، فدعا عليهِ والعياذُ باللهِ بالهلاكِ، ثُمَّ جعلَ يقولُ ساعةً بعد ساعةٍ لمن معهُ قولوا

" **اللهمَّ لا تربحْهُم** "

فيقولونها ثُمَّ ردَّ السدَّ مثلَ ما كانَ وأصلحَ السَّواقي وأجرى فيها الماءَ فلمَّا رأى ذلك بعضُ الحسدةِ الجهلةِ من الأعرابِ أقبلَ بعضُهم على بعضٍ وأخذوا يخاصمون فقال لهم سيِّدي أحمدُ

" **ماذا عندكم** "؟ فقال بعضُهم

" يبِسْنا "

يعني انقطعَ الماءُ عن أرضهِ فقال لهُ سيِّدي أحمدُ

" **لكنَّ المسلمون كلُّهم يسقون وأنت وحدكَ تيبسُ** "

---

[1] . أي مزرعة قطن.

ودعا عليهِ فلم يأتِ عليهِ وعلى الأوَّلين إلَّا قليلٌ وإذا بهم ماتوا بعضُهم قتيلاً وبعضُهم بالوباءِ وبقيتْ أرضُهم فيها قطنيتُهم على حالِها لا يوجد من يقوم بسقيها حتَّى فسدتْ ويبستْ ولم ينتفعْ بها ذو كبدٍ رطبٍ والأمرُ للهِ وحده.

ومنها أنَّ رجلاً لهُ جنانٌ مجاورٌ لسيّدي أحمدَ بلمطة زعمَ ملكيةَ شجرةِ زيتونٍ من جنانِ سيّدي أحمدَ فقال لهُ سيّدي أحمدُ

" أمَّا نصيبي منها فهو لك من غيرِ خصامٍ وأمَّا حقُّ شركائي في الجنانِ فمالي وله "

فلمَّا بلغَ وقتُ الغلَّةِ جاءَ شركاءُ سيّدي أحمدَ إليها ليأخذوا غلَّتَها فبلغَ ذلك الرَّجلُ خبرَهُم فأقبلَ على سيّدِنا أحمدَ وكان إذ ذاك بالجنانِ فقال لسيّدي أحمدَ ﷺ على سبيلِ التعنُّتِ والتَّعدي

" اتبعني لمحلِّ الشَّرعِ "

فقال سيّدُنا أحمدُ داعياً عليهِ

" سرْ لا ردَّكَ اللهُ "

فذهب الرَّجلُ لمجلسِ الشَّرعِ فبدا لهُ في الطَّريقِ خلافُ ذلك فأتى بعضَ معارفهِ فطلبَ منهُ أنْ يشتريَ منهُ حقَّهُ في جنانهِ ذلك فأمتنعَ، وكان من قبلِ هو يطلبُ منهُ ذلك فألحَّ عليهِ فيه فاشتراهُ منهُ بأقلَّ ممَّا كان يسومهُ به أولاً فخرجَ من ملكهِ ولم يرجعْ إليهِ قطُّ ولا ردَّهُ اللهُ إليهِ بعدُ كما دعا به سيّدُنا أحمدُ ﷺ ونفعنا به،

وإجابةَ دعائهِ ﷺ كثيرةٌ قضاياه لا سيَّما دعاؤهُ لأجلِ تيسيرِ أمرٍ أو اصلاحِ حالٍ أو جلبِ منفعةٍ أو دفعِ مضرَّةٍ، فينتجُ المطلوبُ ويحصلُ المرغوبُ فإنَّهُ أكثرُ من أنْ يُحصى وأوسعُ من أنْ يستقصى، ولكونِ هذا النَّوعِ وهو الدُّعاءُ على الظَّالمِ أظهرُ في الانخراطِ في سلكِ الكرامةِ لكونهِ أدلُّ على مزيدِ عنايةٍ للهِ تعالى بعبدهِ حيث ينتقمُ من أهلِ اذايتهِ سريعاً آثرنا ذكرَ شيءٍ من قضاياهُ ووقائعهُ وهي

قليلةٌ بالنِّسبةِ لما يدعو به من غيرِ هذا النَّوعِ قلمَّا يتَّفقُ وقوعَها إذ لا يدعو ﷺ إلَّا على من خُذلَ وآيسَ من خيرِهِ والعياذُ باللهِ، وقد قالَ ﷺ يوماً

" إنِّي لا أدعو إلَّا على ظالمٍ كثرَ ضررهُ بالعبادِ ولم تبقَ فيه منفعةٌ للمسلمين "

تَصريفاتُه ﷺ مِن غَير ما ذُكر

وأمَّا ما كان من هذه الكراماتِ من غيرِ ما قدَّمناهُ من هذه الأنواعِ السِّتةِ وهو أيضاً قد اتَّفقَ وقوعَ أشياءَ منهُ عديدةً

فمنها أنَّهُ ﷺ كان يوماً مع أهلهِ نائماً في بيتهِ نومةَ اللَّيلِ وفي ظلمتهِ فتعارَّ [1] من اللَّيلِ وتحرَّكَ في مضجعهِ فقالَ

" الله "

فاستضاءَ البيتُ نوراً وملأتْ بالأضواءِ جوانبهُ وزواياهُ حتَّى أبصرَ أهلهُ ما على المرفعِ من الأواني الدَّقيقةِ ذكر ذلك سيِّدُنا أحمدُ ﷺ لبعضِ من يواليهِ ممَّنْ أخبرَنا به وجعلَ يتعجَّبُ من مشاهدةِ أهلهِ لذلك مع كونِهم مع نفوسِهم ووجودِهم الحسِّي.

وسمعتهُ أنا منهُ مسنداً إلى فهمٍ على عادتهِ في نحوِ ذلك فسبحانَ مَن قوَّى أنوارَهُ وأفاضَ أسرارَهُ وأكملَ عليهِ نعمتَهُ وأجزلَ لهُ منَّتَهُ.

ومنها إنَّ بعضَ أهلِ العدالةِ والثِّقةِ من أصحابِنا حدَّثني عن بعضِ قرابتهِ المحبِّينَ لسيّدِنا أحمدَ ﷺ أنَّهُ ليلةً آوى إلى فراشهِ وأطفأ القنديلَ واضطجعَ وجعلَ يبكي في شأنِ سيّدِنا أحمدَ، إذ كان تلك الليلةَ بائتاً بجنانهِ بلمطةَ في فصلِ الشّتاءِ وزمنِ البردِ، فبينما هو كذلك إذ مُلئَ عليهِ البيتُ نوراً واستضاءتْ أركانهُ

[1]. أرقَ وتقلَّب في فراشهِ ليلاً مع كلامٍ وصوتٍ..

وجوانبهُ وإذا بسيّدِنا أحمدَ ﷺ مشرفاً عليهِ فعظمَ عليهِ الأمرُ إذ رآه واعتراهُ من الحالِ ما اعتراهُ ﷺ وأرضاهُ.

ومنها أنَّ بعضَ الفضلاءِ من الأصحابِ ماتتْ لهُ زوجةٌ فاغتمَّ لأجلِها غمَّاً شديداً قالَ فبينما هو يوماً مغتمٌّ قد أصابَهُ ضجرٌ وضيقٌ وهو جالسٌ في بيتِ دارهِ مستيقظٌ نهاراً وإذا بسيّدِنا أحمدَ ﷺ قد دخل عليهِ البيتَ ووقفَ على رأسهِ وجعلَ يقولُ لهُ

" أتقنطُ واللهُ معك "؟

ويكررُها ثُمَّ ولَّى عنه وغابَ عن عينهِ بمرَّةٍ فلم يجدْهُ فأيقنَ أنَّهُ ذهبَ خطوةً كما أنَّهُ جاءَ كذلك دفعةً واحدةً ليس على طريقِ العادةِ ﷺ ونفعنا به.

ومنها أنَّهُ ﷺ أتاهُ يوماً بعضَ الحُجَّاجِ من الأصحابِ بإبريقِ قزدير [1] صغير فيه ماءُ زمزمَ فأعطاهُ إيَّاهُ وهو بصقلبيةِ الزَّاويةِ فشربَ منهُ فيما يظنُّ ثُمَّ أرسلَ به مع بعضِ الأصحابِ إلى مَنْ بأسفلِ الزَّاويةِ، وكان بها عددٌ كثيرٌ من النَّاسِ فشربوا منهُ كلُّهم وبقيَ سؤرُ يسيرٌ فقدمتُ عليهم فأعطانيه ذلك الصاحبُ فشربتهُ ولم يبقَ بالإبريقِ شيءٌ، ثُمَّ قلبَهُ الذي أعطانيهِ وأنا أنظرُ فلم يجدْ فيه قطرةً واحدةً وذهبَ به إلى سيّدِنا أحمدَ فوجدَ عندهُ بعضَ مَن كان من الأصحابِ غيرَ حاضرٍ ولم يشربْ وهو يريدُ أنْ يشربَ منهُ فقال لهُ ﷺ

" ناولني الإبريقَ ".

فقال لهُ

" يا سيّدي ما بقيَ فيه شيءٌ ".

فقال لهُ ثانياً

" ناولنيه "

فقال الرَّجل مرَّةً أخرى

---

[1] أي ابريق قصدير.

" يا سيّدي ما بقيَ ولو قطرةٌ "

فقال لهُ ﷺ

" ناولنيه "

فناولَه إيَّاهُ فأخذهُ وأفرغهُ على يدهِ اليُسرى مجموعةَ الأصابعِ كالحفنةِ فملأها ماءً وهو يتبسمُ، ودعا الرَّجلَ ليشربَ من كفِّهِ المباركةِ ومسحَ باقيهِ على وجههِ وعجبَ الحاضرُ لذلك والشَّاربُ وبهتوا لما رأوا من عجبِ الغرائبِ.

ومنها أنَّهُ ﷺ اشترى شجرةَ توتٍ ذكراً عظيمةً جداً لا يوجد اليومَ مثلَها عِظماً ليتَّخذَها قضيباً للمعصرةِ يعصرُ بها الزَّيتَ، وقطَّعها لهُ النَّجارون ورفعوها فوقَ آلات تسمَّى اليومَ العجلات وبالكراريط ليُمكنَ جرَّها، فكان عددٌ من النَّاسِ نحو مائتين أو أزيدَ يجرونَها بالحبالِ فأوصلوها من عرصةٍ بالبابِ الجديدِ أحدِ أبوابِ فاسٍ إلى معصرتهِ بوادي الزَّيتونِ في أربعةِ أيَّامٍ وكانوا إذا مالتْ لهم هذه الشَّجرةُ إلى الأرضِ وقعتْ على جانبِ العجلاتِ أو مرَّت على حفرةٍ أو ربوةٍ قاسوا في قلبِها وجرِّها الشَّدائدَ ومكثوا طويلاً من النَّهارِ يحتالون ومعهم النُّجارُون لهم آلاتٌ وتدبيراتٌ وذلك لعظمِ ثقلِها وقَدرِهِ كما حزروه مائة قنطارٍ فأكثرَ وقد حضرَ ﷺ مع النَّاسِ اليومَ الرَّابعَ، فلمَّا وصلوا إلى موضعٍ بإزاءِ السُّورِ منحدرٌ مالَ القضيبُ إلى الأرضِ واتَّكأَ على احدى عجلتيهِ فوقفَ النَّاسُ وأمسكوا فما جاءَ النَّجارون يحتالون بآلاتِهم على عادتِهم حتَّى ركَّهُ بيدهِ ﷺ سريعاً كما كان واقفاً على عجلاتهِ، فرأى تلك الآيةَ مَنْ بإزائهِ وجعلوا يتعجَّبون وما علمَ إلَّا بعد ردِّهِ لسرعةِ تقلُّبهِ سبباً حتَّى أخبروا بعد ذلك وما سمعَ أحدٌ منهُم به إلَّا تعجَّبَ تعجباً عظيماً ولا عجبَ من أمرِ اللهِ.

ومنها أنَّهُ ﷺ دخل دارَهُ يوماً فوجدَ أمتينِ لهُ تختصمان باللُّغةِ السُّودانيةِ وتتجاوبان بها فأتى واحدةً منهما كانت هي المتغيِّظةُ على الأخرى وكلَّمَها بلُغتِها بمرَّةٍ كلاماً طويلاً فانبسطتْ نفسُها وزالَ ما بها وجعلتْ تضحكُ مستحسنةً

لكلامهِ ومتعجِّبةً من قولهِ، ثُمَّ أُرسلَ مَن يسألُها ماذا قالَ لها فسألوها فقالتْ كلَّمني بكلامٍ فليحٍ مليحٍ كأنَّها تعني الموعظةَ والتَّذكرةَ فتكلَّمَ ﷺ بلغةٍ ما عُرفَ قطُّ كلمةً منها، فوقعَ لهُ شِبهُ ما وقعَ لأبي مفزر الأسودِ بنِ قطبةَ[1] ﷺ حين اعتراهُ ما اعتراهُ في وقعةِ المدائنِ وكلَّمَ الفرسَ بالفارسيةِ ولم يدرِ ما قالَ حين فسَّرَهُ بعد ذلك بعضُ مَن سمعَهُ من الفرسِ حسبما ذكره في الاكتفاءِ[2] وفي كلا القضيتينِ عجبٌ عجيبٌ ولا عجبَ من أمرِ اللهِ.

كراماتُه ﷺ

ومن كراماتهِ ﷺ الجاريةِ المتتابعةِ المتواليةِ عدةُ أشياءَ لا تزالُ تقعُ مراراً ودواماً واستمراراً

أحدُها أنَّهُ ﷺ إذا ذكرَ أحداً بظهرِ الغيبِ على سبيلِ التَّعطفِ عليهِ وأراد رؤيتَهُ أو سأل عنه وكان لهُ به حاجةٌ جاء هذا المذكورُ لا محالةَ وقامَ به باعثُ الذِّهابِ إليهِ بحيث لا يجدُ انفكاكاً عنه فيقومَ ساعتئذٍ أو بعدها بقريبٍ فكثيراً ما يكون بجنانهِ بلمطةَ فيذكرُ أحداً يريدُ إتيانه فإذا به مشرفاً عليهِ فيه، وكذلك إذا ذهب مسافراً لزيارةٍ يريدُ فيها الانفرادَ فيقومُ باعثُ اللُّحوقِ لهُ ببعضِ الأصحابِ دون بعضٍ فيجدونَهُ قد ذكرَهم دون الآخرين.

وقد وقع هذا في غيرِ ما قضيَّةٍ لغيرِ واحدٍ من أصحابِنا وغيرِهم من ذلك ما وقع لي أنا معهُ وذلك إنِّي كنتُ يوماً من رمضانَ جالساً بدارِنا بعد صلاةِ

---

1 . صحابي من جند سعد بن وقاص الذين فتحوا مدينة نهر شير في معارك المسلمين مع الفرس والقصة في البداية والنهاية ج7 والكامل في التاريخ ج2 ص357.

2 . كتاب (الاكتفاء في ذكر مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء) لسليمان بن موسى الكلاعي البلنسي ت/ 634هـ.

المغربِ والطَّعامُ مهيَّأ لي فجعلتُ أفكرُّ وقلتُ في نفسي أذهبُ الآنَ إلى الزَّاويةِ لعلّي أجدُ سيّدي أحمدَ فأجلسُ معهُ وتشوَّشَ بالي وتركتُ الطَّعامَ وقمتُ ذاهباً مسرعاً حتَّى دخلتُ الزَّاويةَ فوجدتهُ بصقلبيتِها جالساً مع بعضِ الأصحابِ والطَّعامُ أمامَهم فذكروا لي أنَّ سيّدَنا أحمدَ ذكرني ساعتئذ وسأل عنّي يريدُ أنْ نأكلَ من ذلك الطَّعام فعلمتُ أنَّ ذلك سببُ مجيئي.

ومرَّةً أخرى كان لهُ أضيافٌ من الأشرافِ حفدةِ سيّدِنا عبدِ السَّلام بنِ مشيش نفعنا الله به يبيتون عنده بالدارِ المجاورةِ للزَّاويةِ، فدخلتُ يوماً معهم وقلتُ في نفسي اليومَ أتطفَّلُ على سيّدي أحمدَ وأبيتُ عندَهُ مع هؤلاء الأضيافِ فلمَّا أشرفتُ عليهِ بالبيتِ قالَ لبعضِ مَنْ معهُ

"هذا الرَّجلُ وأشارَ إليَّ أردتُ أنْ يبيتَ عندي وهممتُ أنْ أقولَ لهُ ذلك فسكتُّ عنه "

ففهمتُ حينئذٍ أنَّ ذلك من قِبلهِ وأنَّ سكوتَهُ هو النِّداءَ لي، وكم واقعةٍ لي معهُ في هذا المعنى ممَّا سوى هاتينِ.

ومن ذلك أنَّهُ ﷺ كان يوماً بصقلبيةِ الزَّاويةِ والأصحابُ مشتغلون بالسِّماعِ فسأل عن بعضِ الأصحابِ ممَّنْ يحفظُ الأوراقَ والألحانَ هل هو هنالك معهم فقيل لهُ لا.

فقالَ

" الآنَ يأتي "

فإذا به في الحينِ جاءَ مُسرعاً حافياً يمشي في الطِّينِ، والمطرُ مُنصبٌّ سائلٌ، فأخبرَنا أنَّهُ كانَ جالساً بحانوتهِ في سوقِ الشّماعينَ فأزعجَهُ باعثُ الذَّهابِ إلى الزَّاويةِ بمرَّةٍ من دونِ سببٍ، فنهضَ قائماً وترك بابَ حانوتهِ غيرَ مغلقٍ وكأنَّهُ في غيرِ حسِّهِ.

وقيل لسيِّدِنا أحمدَ لمَّا دخلَ الرَّجلُ للزَّاويةِ قد جاء فلانٌ فقال

" أنا ناديتهُ "

ومن ذلك أنَّهُ ﷺ ذهب مرَّةً لزيارةِ سيّدنا عبدِ السَّلامِ بن مشيشٍ نفعنا الله به هو وسيِّدُنا أحمدُ اليمني ﷺ فخرجا معاً في نحوِ ستَّةٍ من الأصحابِ يريد تقليلَ الرِّفقةِ وأنْ لا يلحقَ به أحدٌ ومَن لحقَ به ردَّه، فلمَّا كان في الطَّريقِ قال لمَن معهُ

" ندمتُ أنْ لم أكنْ أعلمتُ فلاناً "

رجلاً من الأصحابِ أحبَّ مجيئَهُ، فإذا بهذا الرَّجلِ قد قام به باعثُ الذَّهابِ بعد أنْ لم يكنْ عزمَ على السَّفرِ أوَّلاً ولحقَ به في الطَّريقِ مع رجلٍ آخرَ من الأصحابِ أحبَّ في هذا السَّفرِ مجيئَهُ أيضاً فلحقَ به سريعاً، فلمَّا أشرفَ عليهِ قالَ لهُ مباسطاً لهمـــا

" نحن كأهلِ عرفاتٍ مَنْ ذكرناهُ جاءَ "

إلى غير ذلك ممَّا هو مستمرٌّ دائماً وأبداً.

ثانيهما أنَّهُ ﷺ إذا أتاهُ ذو أمرٍ مهمٍّ ليسترشدَهُ فيه أو يشكوهُ لهُ ذكرَهُ لهُ قبل أنْ يذكرَهُ وابتدأهُ هو بالكلامِ عليهِ لأوَّلِ وهلةٍ، يقعُ ذلك معهُ للأصحابِ وغيرِهم كثيراً وقد وقع لي أنا معهُ ذلك مراراً أيضاً.

فمِن ذلك أنِّي خرجتُ من الزَّاويةِ يوماً فلقيتُ بعضَ الشُّرفاءِ الطَّاهرين أتى إلى الزَّاويةِ يريدُ أنْ يشكو بعض بني عمِّهِ كان منعَهُ من ابنةِ عمٍّ لهُ كان خطبَها عنده فراودني أنْ ارجعَ معهُ لأحضرَ معهُ عسى أنْ أعينَهُ بكلمةٍ فانقلبتُ معهُ ودخلتُ على سيّدي أحمدَ ﷺ وسلَّمنا عليهِ وجلسنا أمامه وسكتنا ولم يقدرْ واحدٌ منا أنْ يفوهَ بكلمةٍ، فكان من أوَّلِ ما بدَأنا به أنْ قالَ لنا

" **أربعةٌ لا يليقُ التأخيرُ فيها شرعاً البنتُ إذا بلغتْ تبادِرُ بتزويجِها ولا تؤخَّرُ، ثُمَّ عدَّ بقيةَ الأربعِ** ".

فقال لهُ الشَّريفُ

" يا سيّدي لشيءٍ من هذا جئنا وقصَّ عليهِ خبرَهُ ".

ومن ذلك أنَّ بعضَ الشُّرفاءِ الطَّاهرينَ أيضاً كان تحت نظرِ عمٍّ لهُ قد رُبِّيَ في حجرهِ كائناً معهُ أين ما يكونُ، وكان قد عقدَ النِّكاحَ مع أبنةِ عمٍّ لهُ آخرَ ولم يتيسَّرْ لهُ البناءُ في الموضعِ الذي هو فيه مع هذا العمِّ ولم يأذنْ لهُ في الخروجِ فكان يتناولُ حديثَهُ معي ويشكو لي عمَّهُ، فجلستُ يوماً بين يدي سيِّدِنا أحمدَ ﷺ وأردتُ أنْ أعلمَهُ بذلك، فبينما أنا أردّدهُ في فكري إذ بدأني بالكلامِ على المسألةِ وقال لي مستفهماً

" ما فعلَ الشَّريفُ مولاي فلانٌ "؟

وسألني عن شأنهِ فأخبرتهُ.

ومن ذلك أنَّ ابنَ عمٍّ لي جاءَ يكلِّمُ سيّدَنا أحمدَ ﷺ ولم يكنْ رآه قبل ذلك في أنْ يشفعَ لهُ عند أبيهِ أنْ يبادرَهُ بالعُرسِ ويقومَ لهُ بمؤنتهِ إذ كان قد عقدَ النِّكاحَ وطالَ الأمرُ حتَّى ضجرَ أهلُ الزَّوجةِ، فرغبَ إليَّ أنْ أذهبَ معهُ إلى سيِّدِنا أحمدَ ﷺ وأحضُرَ معهُ كأنَّهُ استحيى أنْ يكونَ وحدَهُ، فذهبنا إليهِ فوجدناهُ بالزَّاويةِ، فلمَّا جلسنا أمامه كان أوَّلَ ما قالَ لهُ

" أنت ابنُ فلانٍ "؟

وسمَّى والده.

فقال لهُ نعم.

فقال لهُ سيِّدُنا أحمدُ

" إلى متى لا يزوجُكَ والدُك"

فقال لهُ

" يا سيّدي لهذا جئتُ "

وقصَّ عليهِ خبرَهُ أيضاً، إلى غير ذلك من الحكاياتِ الواقعةِ لنا ولغيرِنا في هذا المعنى ممَّا هو جارِ أبداً ومستمرٌّ سرمداً ولا ينحصرُ عدداً.

ثالثهما أنَّهُ ﷺ إذا عادَ مريضاً وأرشدَهُ لاستعمالِ دواءٍ عيَّنَهُ برئَ منهُ لا محالةَ بإذن اللهِ سبحانَهُ استُقرئَ في ذلك من عادتهِ حتَّى صارَ عندنا ذكرُهُ لذلك من علاماتِ بُرئهِ وأماراتِ شفائهِ، متى سمعناهُ استبشرنا بسلامةِ المريضِ ولو أشرفَ على الهلاكِ لا سيَّما إنْ اعتنى بذلك وباشرَ شيئاً منهُ، وكذا إنْ جاءَهُ ذو مرضٍ يلتهبُ قاصداً لهُ وأرسلَهُ لزيارةِ بعض الصَّالحينَ الأمواتِ فإنا نعلمُ أنَّهُ يشفى وأنَّهُ قُضِيتْ حاجتهُ بإذن الله سبحانَهُ لما تكرَّرَ علينا من عادتهِ في ذلك أيضاً ونفهم أنَّهُ يفعلُ ذلك الإرسالَ ستراً منهُ على نفسهِ ﷺ، وكم وقعتْ في هذا وفي الذي قبله من وقائعَ لا تُحصى ولا تُستقصى.

فمنِ الأوَّلِ أنَّ بعضَ بني عمّي مرضَ مرَّةً مرضاً شديداً ألزمَـــهُ الفراشَ واعتراهُ بسببهِ انتفاخٌ كثيرٌ خيف عليهِ منهُ فتذكَّرهُ يوماً سيِّدُنا أحمدَ ﷺ فقالَ لأحدِ الأصحابِ كان معهُ

" إنِّي ذاهبٌ إلى ذلك الشَّريفِ يعني ابنَ عمِّي أعودهُ للهِ عزَّ وجلَّ "

كأنَّهُ يتعطَّفُ عليهِ.

فقال لهُ

" يا سيّدي إنَّهُ مريضٌ بعلَّةِ الاستسقاءِ "

فقال لهُ سيِّدُنا أحمدُ منكراً لذلك

" مَنْ قالَها "

فعادَهُ ﷺ وذكرَ لهُ دواءً فصنعَهُ فبرءَ وانفشَّ انتفاخَهُ وذهبَ مرضهُ، وكان يذكرُ لنا أنَّهُ لمَّا دخلَ عليهِ سيِّدُنا أحمدُ ﷺ وجدَ الرَّاحةَ وما زالَ من يومئذٍ يجدُ الرَّاحةَ شيئاً فشيئاً إلى أنْ تمَّ بُرؤهُ والحمدُ للهِ، وذلك كلُّهُ في أيَّامٍ قليلةٍ.

ومن الأوَّلِ أيضاً أنَّ صاحبَنا الخيِّرُ المرضي ذا الحالِ أبا العبَّاس أحمدَ بنَ قاسمٍ بتّير حفظَهُ اللهُ أصابَهُ وباءٌ فعُدناهُ فوجدناهُ لا يستطيعُ من أجلهِ حركةً فاشتدَّ خوفُنا عليهِ وظننا أنَّهُ من الأمواتِ، فعادَهُ سيِّدُنا أحمدُ ﷺ فعيَّنَ لهُ دواءً

يستعملهُ ولا دواءَ يُعلمُ للوباءِ وباشرَ شيئاً منهُ بيدهِ الكريمةِ وعالجَهُ به فبرأ الرَّجلُ قريباً كأنْ لم يكنْ به بأسٌ، وكان برؤهُ غريباً وعجباً للنَّاسِ.

وكان ﷺ إذا دخلَ على هؤلاء المصابين بالوباءِ ليعودَهم, بعضُهم يُذكِّرهُ باللهِ ويثبِّتهُ ويدعو لهُ، وبعضُهم يُبشِّرهُ بالبراءِ والشِّفاءِ ولو كان ميؤوساً منهُ يصرِّحُ بذلك ويلوِّحُ به أخرى، وما باشرَ أحداً منهُم إلَّا عافاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ، وقد اتَّفقَ لهُ ذلك مع أُناسٍ متعددين أحفظُ منهُم جماعةً يطولُ ذكرُهم.

ومن الثاني أنَّ بعضَ الفقهاءِ من العدولِ ممَّنْ لهُ محبَّةٌ فيه ﷺ وهو صاحبُنا الفقيهُ الفاضلُ العدلُ الأرضى أبو مُحمَّد عبدُ اللهِ بنُ الفقيهِ الخطيبِ الخيِّرِ المرضي سيِّدي أحمدَ بنِ زيَّانٍ كان أصابَ احدى عينيهِ مرضٌ علاهُ بسببهِ بياضٌ قلَّ معهُ بصرهُ وضعفَ من أجلهِ نظرهُ فتخوَّفَ عليها خوفاً شديداً واهتمَّ لأجلِها اهتماماً أكيداً، فذهبَ إلى الاطبَّاءِ فلم يقدروا لهُ بشيءٍ واستعملَ ما تيسَّرَ من الدَّواءِ فلم ينفعْهُ شيءٌ، ففزعَ إلى سيِّدِنا أحمدَ ﷺ وجعلَ يقصدهُ في ذلك ويذكرُ لهُ خشيتَهُ لذهابِ بصرهِ وتخوُّفهِ ويستعطفهُ على نفسهِ بما أمكنَهُ أنْ يستعطفَهُ، فعطفَ ﷺ عليهِ وتوجَّهَ بقلبهِ إليهِ وأرسلَهُ إلى ضريحِ الولي سيِّدي "أبي غالبٍ " نفعنا اللهُ به فعافاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ وعاد ينظرُ بعينيهِ معاً كما كان من أوَّل, وكم نازلةٍ تقعُ مثلَ هذه فتعرفُ بها فضلَ اللهِ وكرامتَهُ لهذا السَّيِّدِ المباركِ ﷺ ونفعنا به.

رابعُها أنَّهُ ﷺ ما استشارَهُ أحدٌ في أمرٍ ديني أو دنيوي وتبعَ مقتضى إشارتهِ إلَّا كان عاقبةَ أمرهِ فلاحاً ونجاحاً، وظهرتْ بركتهُ عليهِ فيما يحاولهُ ويناولهُ كفلقِ الصُّبحِ، وما ترك أحدٌ مقتضاها إلَّا كان الأمرُ بالعكسِ، هذا مُطَّردٌ منهُ في كلِّ مسألةٍ مسألةً لا يتخلَّفُ أبداً بل مستمرٌّ سرمداً لا أحصي ما وقعَ لنا نحن فيه فضلاً عن غيرِنا من الأصحابِ فضلاً عن غيرهِم، وقد يشيرُ ﷺ بأمرٍ لا يرى الرَّائي بحسبِ الظَّاهرِ فيه منفعةً فتظهرُ بعد ذلك ثمرتهُ وتتبيَّنُ لكلِّ

ذي عينينِ فائدته، ويكشفُ الغيبَ في بعضِها عن غرائبَ لا تخطرُ ببالٍ، ونوادرَ لا يكونُ بها اهتبالٌ فيخرجُ للمستشيرِ، فمقتضى الاشارةِ أحسنُ ممَّا تعلَّقَ به أملهُ وأفضلُ ممَّا كان توجَّهَ إليهِ عملهُ، لهُ في ذلك كلِّهِ حكاياتٌ ووقائعَ وآياتٍ.

فمن ذلك أنَّهُ كان عندي ثوبُ حريرٍ مطرَّزٌ صدرهُ بالذَّهبِ وهو المسمَّى بالفوقي عند أهلِ فاسٍ كنتُ ورثتهُ من زوجةٍ لي توفيتْ، وكنتُ أظنُّ إنِّي أبيعهُ وأتزوَّجُ بثمنهِ فأدخلتهُ السُّوقَ مرَّةً فأُعْطيتُ فيه خمسمائة أوقيةٍ فلم أبعْهُ ثُمَّ بعد مدَّةٍ أدخلتهُ السُّوقَ فأُعْطيت فيه دون ذلك فجئتهُ ﷺ مشاوراً لهُ فقال لي

" بعْهُ بما تيسَّرَ ولا تُبقهِ "

فأدخلتهُ السُّوقَ أيضاً فأُعطيتُ فيه دون الثَّمنِ الأوَّلِ ودون الثَّاني بكثيرٍ فامتثلتُ أمرَهُ ﷺ عالماً أنَّ في موافقتهِ البركةَ والحكمةَ فبعتهُ بذلك وانفدتُ ثمنَهُ، ثُمَّ إنَّ اللهَ تعالى أظهرَ لي بركةَ موافقتهِ عند التَّزويجِ الثَّاني الذي كان هذا الثَّوبُ معدَّاً لأجلهِ، فعقدتُ النِّكاحَ وليس لي دينارٌ ولا درهمٌ ففتحَ اللهُ عليَّ في الثَّمنِ موهوباً وفي كلِّ ما أحتاجُ إليهِ من مؤنةٍ إلى انقضاءِ العُرسِ وإذا المرأةُ التي بنيتُ بها هي كانتْ اشترتِ الثَّوبَ المذكورَ بعينهِ، وجاءتْ به في سورتِها في حوائجَ معهُ بديعةٍ وملابسَ من الحريرِ رفيعةٍ، فكنتُ أعجبُ من تلك الآيةِ وأقولُ البركةَ أعلمنا اللهُ مع الأكابرِ.

ومن ذلك أنَّ صاحبَنا الحاجَّ الخيِّرَ أبا الحسنِ علي بن أبي شتاءٍ المنغوشي استشارَهُ ﷺ في أنْ يسافرَ إلى تلمسانَ للتِّجارةِ وكان طريقُها إذ ذاك مخوفٌ لكونِ مَنْ به خارجاً عن طاعةِ سُلطانِ الوقتِ، فأشارَ عليهِ بالمسيرِ فذهبَ حتَّى وصل إليها وقضى إرَبهُ ثُمَّ قفلَ إلى فاسٍ في رفقةٍ من النَّاسِ، فبينما هو ليلةٌ مستنداً إذ أخذتْهُ سنةٌ، فرأى قوماً أتوهُ يريدون قتالَهُ وأخْذَ مالهِ فتعرَّضَ لهم سيِّدُنا أحمدُ وحالَ بينهم وبينه وجعلَ يدافعُهم عنه من هاهُنا وهاهُنا حتَّى ذهبوا عنه ثُمَّ

انتبه، فعلمَ أنَّهُ يقعُ لهم شيءٌ، فبينما هم من الغدِ سائرون إذ فاجأهُم فرسانٌ من الأعرابِ فانتهبوا القافلةَ وجرحوا وسلبوا وبقيَ هو على فرسهِ فضربَهُ كبيرُهم برمحهِ فأخطأه ثُمَّ عطفَ اللهُ قلبَهُ عليهِ فجعلَ يكلّمهُ بالأمانِ ويسألهُ من هو فانتسبَ لرهطهِ فزادَهُ أماناً وحلف بطلاقِ زوجتهِ لا يضيعُ لهُ شيءٌ من مالهِ وقال لهُ

" ميِّزْ دوابَك من غيرها "

فعزلَ دوابَهُ وبعضَ دوابِ غيرهِ كان عليها مالٌ عريضٌ ليُعطيها لأربابِها إذا انفصل عنهم فصدَّقوهُ وتركوا مالَهُ ولم يضِعْ لهُ من بين سائرِ أهلِ القافلةِ قلامةُ ظُفرٍ، فلمَّا دخل فاس حكى ما وقع لسيّدِنا أحمدَ وما رأى قبل ذلك من أنَّهُ كان يدافعُ عنه فقال لهُ

" إنَّ قلبي كان معك وإنِّي لمَّا قلتُ لك سِرْ بقِيَ بالي مشوَّشاً عليكَ "

فكان لهُ في موافقةِ هذه الاشارةِ بركةٌ ظاهرةٌ وآيةٌ باهرةٌ.

ومن ذلك أنَّ بعضَ الأصحابِ ممَّنْ يتسبَّبُ في التِّجارةِ ويسافرُ لها أراد مرَّةً السَّفرَ إلى أرضِ السُّودانِ فأنفقَ مالَهُ وأجمعَ المسيرَ إليهِ مع رفقةٍ توافَقَ معهم على ذلك، فجاء سيّدَنا أحمدَ ﷺ ليستشيرَهُ في ذلك فأشارَ عليهِ بعدمِ السَّيرِ فامتثلَ أمرَهُ في الحينِ وباعَ ما أنفقَهُ ومكثَ بفاسٍ، فذهبتِ الرِّفقةُ عنه فتعرَّضَ لهم الأعرابُ في أقصى البلادِ فأخذوهم وانتهبوا مالَهُم، ثُمَّ أنَّهُ أجمعَ السَّيرَ إلى أرضِ المشرقِ بقصدِ أنْ يحجَّ تطوعاً ثُمَّ يتَّجِرُ، فجاءَ أيضاً يستشيرُ سيّدَنا أحمدَ ﷺ فأشارَ عليهِ بالمسيرِ، فسارَ وحجَّ وسافرَ إلى الأقطارِ من ناحيةِ اليمنِ والهندِ وغيرِهما ولم يلقَ في طريقٍ من الطُّرقِ التي سلكَها كيداً مع عدمِ الأمنِ في بعضِها، وقد أُخِذَ غيرهُ ممَّنْ سلكَها وسلمَ هو ونجا وظفرَ بما رجا وسلكَها سلوكاً جميلاً وربحَ ربحاً جزيلاً وقضى كلَّ مطلوبٍ لهُ أرباً، ورأى من آياتِ ربِّهِ

عجباً وانقلبَ كذلك إلى فاس لا يرى من بأس إلى أنْ وصلَ إليها محدِّثاً عن فضلِ اللهِ شاكراً لأنعمُ اللهِ، وكان لهُ في موافقةِ الإشارةِ بركةٌ وآيةٌ وحفظٌ ورعايةٌ.

وقد كان رجلٌ من الموالين لهُ ﷺ استشارَهُ في معاملاتٍ متعدِّدةٍ فأشارَ عليهِ فيها بالتَّركِ فغلبَ عليهِ هواهُ وفعلَ فخسرَ في جميعِها إلَّا واحدةً منها وافقَ فيها الإشارةَ فربحَ وما ربحتْ تجارتهُ إلَّا في تلك خاصَّةً، وكم أناسٍ وقعَ لهم مثلَ هذا معهُ ﷺ لا تحصى أفرادُهم ولا تستقصى آحادهُم.

خامسُها أنَّهُ لا يتكلَّمُ في محبوسٍ ظلماً أو في جنايةٍ بواسطةٍ أو بدونِها إلَّا أُطلِقَ سراحهُ وخُلِيَ سبيلهُ ولو عسُرَ فِكاكهُ من يدِ الأمراءِ بأنْ كان عدواً لهم أو لهُ اساءةٌ في جانبهِم عظيمةٌ، ولا في أمرٍ من أمورِ المسلمين إلَّا قضاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ وذلك إذا توجَّهَ لهُ بقلبهِ واهتمَّ لهُ في باطنهِ حتَّى صرْنا نتحقَّقُ بمجرَّدِ ذلك الاهتمامِ سراحَ المهتمِّ لهُ لا محالةَ وقضاءِ المهتمّ به كائناً ما كان لأنَّهُ ﷺ مظهرٌ للقدرِ لا يفعلُ ذلك إلَّا بإذنٍ خاصّ وحالٍ يصحبهُ في ذلك ربَّاني.

فتجدهُ ﷺ إذا توجهتْ لهُ الشَّفاعةُ في أحدٍ تارةً يتصدَّى لها وتارةً لا يتصدَّى لها، وإذا الذي أعرضَ عن الشَّفاعةِ فيه لا فكاكَ لأسرهِ ولا رفْعَ لضُرِّهِ، وكثيراً ما يشيرُ أو يخبرُ بذلك قبل نفوذِ الأمرِ فيه فيقولُ

" بعد الغدِ وفي فلانٌ "

أو " إذا جاء أمرُ اللهِ فلا مردَّ لهُ "

أو نحو ذلك من الكلامِ, وما أكثرَ السُّؤالَ عن محبوسٍ وظهرَ منهُ الإهتمامُ بشأنهِ إلَّا أُطلقَ ولو لم يشفعْ فيه، وقع لهُ في ذلك كلّهِ وقائعَ كثيرةً وحكاياتٍ متعددةً.

فمِن ذلك أنَّ قوماً من ناحيةِ الصَّحراءِ ممَّنْ لا مالَ لهم ولا جاهٌ سُجنوا بسببِ أنَّ بعضَ أهلِ ناحيتِهم أنتهبَ قافلةً فيها مالٌ لبعضِ الأشرافِ، وكان فيهم من لهُ به معرفةٌ فذهبَ إلى السِّجنِ ليراهُ فرغبوا إليهِ ليشفعَ لهم فأشفقَ ﷺ منهُم وكلَّمَ

خليفةَ السُّلطانِ فيهم مراسلةً ولم تكنْ بينهُ وبينهُ معرفةٌ فقبلَ وأرادَ سراحَهم فتعرَّضَ لهُ الشَّريفُ الذي ذهبَ مالهُ في القافلةِ وكان من بني عمِّ السُّلطانِ وحرَّضَهُ على سجنِهم ففعلَ فأغمَّ ذلك سيّدَنا أحمدَ ﷺ فقالَ للمُرسلِ معــهُ

" يا فلانُ أقولُ لك شيئاً ولو كان فيه الدَّعوى إنّي لا أشفعُ إلَّا فيمَنْ يُسرَّحُ "

فإذا بالخليفةِ أطلقَهُم في الحينِ قبل أنْ يقومَ من مقامهِ ذلك ونبذَ قولَ الشَّريفِ ليكونَ بإرادة اللهِ ما أرادَهُ سيِّدُنا أحمدُ ﷺ.

ومن ذلك أنَّ السُّلطانَ مولاي إسماعيلَ وفقَّهُ اللهُ لمَّا أرادَ إخراجَ الأندلسِ[1] من فاس عقبَ ثورةِ أهلِ فاس عليهِ وغضبَ عليهم مفرطاً وأمتنعَ من الشَّفاعةِ فيهم من هو بصددِها من أهلِ الوقتِ المعتبرين أرسلَ ﷺ الكاتبَ سليمانَ وقال لهُ

" اذهبْ إلى السُّلطانِ وقلْ لهُ علامَ تُخرجُ عامَّةَ الأندلسِ من فاس؟ أنْ كان لابد فأهلُ الفسادِ ".

فقال لهُ يا سيّدي أخافهُ إنْ قلتُ لهُ ذلك لأنَّهُ قد غضبَ غضباً شديداً، فقال لهُ

" إنْ لم تقل لهُ ذلك تخفْ "

فذهب من فورهِ ممتثلاً لأمرهِ فلقيَ بعضَ خاصَّةِ السُّلطانِ فأعلمَهُ بما يريدُ فدُهشَ ذلك البعضُ دهشاً عظيماً لمَّا علمَ من حالِ السُّلطانِ في ذلك وشدَّةِ غضبهِ فيه، فلم ينشبِ الكاتبُ سليمانُ أنْ قالَها للسُّلطانِ فانحلَّتْ عرى عزمهِ بمرةٍ فرجعَ عمَّا كان أرادَ وأمرَ بإخراجِ أهلِ الفسادِ وذو العنادِ وانجلتْ عنِ العامَّةِ الظلماتُ وفُرِّجتْ عنهم الكُرباتُ.

ومن ذلك أنَّ بعضَ أبناءِ الأمراءِ ممَّنْ يؤمَّلُ عودَ الدَّولةِ وظهورِ الصَّولةِ كان سجنَهُ السُّلطانُ بعد قضي ثورةِ أهلِ فاس بقريبٍ مخافةَ إفسادِ بعضِ الرَّعيةِ عليهِ

[1] . أي اخراج أهل الأندلس القاطنين في فاس.

وأطالَ سجنَهُ غيرَ مُريدٍ لسراحِهِ فيما يظنُّ، وكان لهُ معرفةٌ بالشَّيخِ سيِّدي أحمدَ اليمني فأرادَ سيِّدُنا أحمدَ أنْ يشفعَ فيه لأجلِ ذلك فأرسلَ في شأنهِ إلى خليفةِ السُّلطانِ فحبسَ عن سراحهِ فكتبَ إلى الكاتبِ سليمانَ يكلِّمُ فيه السُّلطانَ، وكان غائباً معهُ في محلتهِ بالظَّهراءِ، فعندما وصل كتابُ سيِّدِنا أحمدَ ﷺ إلى هنالك وجدَ السُّلطانَ قد أمرَ بسراحهِ دون رئيسٍ آخرَ كان معهُ وقد بقيَ ذلك الرَّئيسُ إلى الآنَ يسَّرَ اللهُ خلاصَهُ فاعتنى تعالى بمَن أعشقَ به أولياؤُهُ المؤمنون إظهاراً لمزيَّتِهم عنده، رزقنا اللهُ بركتَهم وكم لهذه الواقعةِ من أمثالِها.

أخبرني أخي أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد العربي أنَّ صاحبَنا الكاتبَ سليمانَ قالَ لهُ " ما أرسلَ إليَّ سيِّدي أحمدَ ﷺ في شأنِ مسجونٍ إلَّا سُرِّحَ قبل وصولِ كتابهِ إليَّ بقريبٍ أو حين وصولهِ ".

ذلك قاعدةٌ مطردةٌ, ويأتيهِ النَّاسُ ﷺ عند خروجِهم لهذه الحركاتِ ليستجيرون به فلا يشفعُ لهم ويخبرهم أنَّهم ذاهبون لا محالةَ فيلتمسون الحيلةَ في الخلاصِ بكلِّ وجهٍ فلا يجدونَهُ، ومرَّةً أخرى يشفعُ لهم أو يخبرُهم أنَّهم لا يذهبون فيُسرَّحون بأدنى سببٍ ببركتهِ ﷺ.

سادسُها أنَّ طعامَهُ ﷺ مع حصولِ البركةِ فيه دواماً واستمراراً فلا يأكلهُ عددٌ من النَّاسِ إلَّا كفاهم بالغين ما بلغوا، ومع كونهِ لا يضرُّ مَنْ أكثرَ من أكلهِ ولا تعتريهِ هذه التُّخمةُ المسببَةُ عن كثرةِ الأكلِ عادةً يقعُ به الشِّفاءُ لذوي الأمراضِ المرَّةَ بعد المرَّةِ لمنْ أكلَهُ منهُم مستشفياً متبركاً، وقد استشفى بطعامهِ ﷺ غيرَ واحدٍ فشفاهُ اللهُ حسبما رأينا ذلك مشاهدةً، وكثيراً ما يقعُ ذلك لأصحابِنا لاعتيادِهم إيَّاهُ فتجدُهم عند حصولِ مرضٍ يعمدون لأكلهِ بقصدِ الاستشفاءِ لما يرجون من البركةِ المألوفةِ فيه إذ البركةُ والشِّفاءُ فيه مقترنان لا ينفصلان عنه أبداً يعرف ذلك كلُّ من عرفَهُ ووالاه، وكيف لا يكون ذلك كذلك، وكلُّهُ مصروفٌ بالله ولله وفي الله وعلى الله, ومن طيِّبِ المالِ وخالصِ الحلالِ الذي هو دواءٌ

لعللِ المؤمنين، وما زلنا نسمعُ أنَّ أكلَ الحلالِ شفاءٌ حتَّى رأينا ذلك عنده عياناً فيُشفى به مَن استشفى به قاصداً وأكَلهُ لأجلِ ذلك عامداً كما ذكرنا، وربَّما يقع به الشِّفاءُ لمن اتَّفقَ لهُ مرضٌ ببطنهِ فأكله غيرَ قاصدٍ لشيءٍ، وربَّما يكونُ بعضُ النَّاسِ لا يأكلُ نوعاً من الأطعمةِ وينفرُ عنه بمقتضى طبعهِ فيتَّفقُ لهُ حضورُ أكلهِ عنده فيأكلهُ ويحبِّبهُ اللهُ إليهِ بعد ذلك.

فمنَ الأوَّلِ أنَّ رجلاً كان مريضاً بالحصى دخل على بعضِ أصحابِنا يعودهُ من مرضٍ فوجدَ عنده دشيشَ شعيرٍ[1] كان أتاهُ به سيِّدُنا أحمدُ ﷺ من دارهِ فقال الرَّجلُ المريضُ لصاحبِ الحصى

" خذْ من هذا الدَّشيشِ واطبخهُ وكُلهُ تشفى إنْ شاءَ اللهُ "

فأخذَهُ الرَّجلُ بقصدِ ذاك وطبخَهُ وأكلَهُ فشفاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ، ثُمَّ رجع لصاحبهِ الذي اعطاهُ إيَّاهُ يخبرهُ بتلك الآيةِ ويحمدُ اللهَ عزَّ وجلَّ فرحاً مسروراً أنْ لم يبقَ به بأسٌ، وهذا النَّوعُ كثيرةٌ قضاياهُ جداً وتقدمتْ منهُ حكاياتٌ معيَّنةٌ مذكورةٌ أثناءَ الكراماتِ السَّابقةِ.

ومن الثَّاني أنَّ صاحبَنا ومُوالينا في اللهِ الطالبَ الحسنَ المشعيري الخادمُ الآنَ لروضةِ الشَّيخِ سيِّدي أحمدَ الشَّاوي نفعنا اللهُ به مرض بطنهُ مرَّةً وحصلَ لهُ القبضُ وحُصِرَ عن الغائطِ ومكثَ كذلك نحوَ خمسةَ عشرَ يوماً فكان لا يأكلُ الطَّعامَ مخافةَ أنْ لا يخرجَ منهُ، فضعُفَ جسمهُ وظهرَ عليهِ أثرُ ما به من المرضِ إلَّا أنَّهُ كان يذهبُ ويجيءُ، فاتَّفقَ أنْ بتنا ليلةً عند سيِّدِنا أحمدَ ﷺ في دارهِ فباتَ معنا، فلمَّا حضرَ العشاءُ تنحَّى عن الأكلِ فأخبرتُ بمرضهِ سيِّدَنا أحمدَ فحتَّمَ عليهِ الأكلَ فأعتذرَ لهُ بالمرضِ فقال لهُ

"كُلْ ولا تخفْ "

[1] . أي شعيرٌ مجروش، دشَّ الحبَّ دقَّهُ ولم ينعمْهُ.

فجعلَ يأكلُ وكلَّما رفعَ يدهُ حثَّهُ على الأكلِ وهو يلاطفهُ ويباسطهُ حتَّى شبعَ فكانَ في ذلك الشَّبعِ دواؤهُ بإذن الله تعالى، فمن الغدِ انطلقَ بطنهُ وصلحتْ معدتهُ وعادَ إلى أكلِ الطَّعامِ كأن لم يكنْ به مرضٌ.

ومن الثَّالثةِ أنَّ أخي أبا عبدِ اللهِ مُحمَّداً العربي كان ينفرُ طبعهُ عن الطَّعامِ المسمَّى عند النَّاسِ " بالفداوش "[1] ويكرهُ أكلَهُ كراهيةً شديدةً لا يقدرُ على صوغِ لقمةٍ واحدةٍ منه منذُ خُلق وإن تكلَّفَ أكلَها قاءَها في الحينِ، فحضرَ أكلَهُ يوماً عنده ﷺ فتحيَّرَ في أمرِهِ كيف يفعلُ؟.

فأخبرَ بعضُ الحاضرين سيِّدَنا أحمدَ بذلك فنظرَ إليهِ فشرعَ عند ذلك في الأكلِ وأكلَ حتَّى شبعَ، فمحا اللهُ كراهيتَهُ من قلبهِ وزالَ ذلك النُّفورُ من طبعهِ في الحينِ وصارَ يأكلهُ بعد ذلك من غيرِ حرجٍ عليهِ ولا وجدٍ أي ما كان يجدهُ من قبلُ.

ومنه أيضاً أنَّ بعضَ أخواتهِ ﷺ كانتْ لا تأكلُ الزَّيتَ البتَّةَ بل لا تقـــدرُ أنْ تمسَّهُ بيدِها لنفورِ طبعِها عنه رُبِّيتْ على ذلك إلى أنْ كبرتْ، فاتَّفقَ أنْ دخلتْ عليهِ يوماً فوجدتْ أمامَهُ زيتاً فأقرَّها بالأكلِ منهُ وهو يعرفُ عادتَها في ذلك فاستعظمتْ ذلك وانقبضتْ عنه نفسُها غايةَ الانقباضِ، فأكَّدَ عليها فلم يكنْ لها بُدٌّ من طاعتهِ فأكلتْهُ، فمن يومئذٍ أطلقَ اللهُ عليها أكلَهُ من بركتهِ وبركةِ طعامهِ ﷺ إلى غيرِ ذلك ممَّا ظهرَ من الآياتِ ببركةِ طعامهِ ﷺ وخصوصاً ما قبلَ هذا النَّوعِ فهو أكثرُ من أنْ يُحصى، وظاهرٌ من هذه القضيَّةِ والتي قبلَها التَّصريفُ واللهِ أعلمُ.

سابعُها أنَّهُ ﷺ لا يريدُ شيئاً ولا يتطلَّب أمراً ممَّا يحتاجُ إليهِ من أمرِ دارهِ وجنانهِ وحرثهِ ومعصرتهِ، وكلُّ ما تدعو ضرورةٌ منهُ إليهِ وتتوقفُ حاجةٌ لهُ عليهِ إلَّا تيسَّرَ بإذنِ اللهِ تعالى ووجدَهُ ميَّسراً موفَّراً صفواً عفواً من دون مشقَّةٍ ولا كلفةٍ

[1] . الفداوش معكرونة بالدجاج بالطريقة المغربية.

ولا كبيرِ مؤنةٍ، ويكون الأمرُ الذي يحتاجُ إليهِ مفقوداً في الوقتِ عند النَّاسِ فإذا بحثَ عنه وطلبَهُ وجد منهُ ما ليس بقليلٍ وهُيِّيءَ لهُ إليهِ السَّبيلُ وظهرَ بعد أنْ كان باطناً وبرزَ بعد أنْ كان كامناً.

وإذا أرسلَ أحداً لقضاءِ حاجةٍ بالسُّوقِ لم تكنْ به أو كانتْ ولكنَّها قليلةٌ لا يتوصَّلُ إليها إلَّا بمشقَّةٍ وبعد تفتيشٍ كثيرٍ وجدَها ذلك المُرسلِ معهُ عند أحدٍ كلَّمَهُ كأنَّهُ كان ينتظرهُ بها، وربَّما يحتاجُ إلى عددٍ ممَّا يطلبهُ معيَّنٌ فلا يجدُ بالسَّوقِ إلَّا ذلك القدرَ دونَ زيادةٍ ولا نقصانٍ، أو يحتاجُ إلى طعامٍ قد قربُ أبانهُ وأبطأ بهذه البلدةِ ظهورهُ، فيردُ عليها من غيرِها ويسوقهُ اللهُ إليهِ دونَ كبيرِ طلبٍ حالهُ في ذلك حالُ أهلِ الجنَّةِ، نِعمُ اللهِ مرسلةٌ إليهم لا مقطوعةٌ ولا ممنوعةٌ وكلُّما طلبوهُ وجدوهُ فيها ما تشتهيهِ الأنفسُ، وتقعُ لهُ ﷺ في ذلك نوادرُ وغرائبُ.

فمن ذلك أنَّ بعضَ النِّساءِ ممَّنْ لهنَّ مُوالاةٌ لجنابهِ ﷺ تمنَّتْ زمنَ حملِها شيئاً من القرعِ ولم يكنْ للوقتِ إذ ذاك وقتَ ظهورهِ، فأراد أنْ يبعثَهُ به إليها فخرجَ بنفسهِ متطلِّباً لهُ فذهبَ إلى ناحيةِ سوقِ الخميسِ، فبينما هو ذاهبٌ في الطَّريقِ إذ لقيَ بعضَ الأصحابِ قادماً من سفرٍ على ظهرهِ قرعةٌ يحملُها، قد أتى بها من مدينةِ سلا لظهورِها هنالك قبل أبانِها، فأخذ منهُ نصفَها فراودَهُ ذلك الصَّاحبُ على أخذِ النِّصفِ الآخرِ وأنْ يأخذَ الجميعَ فأمتنعَ واقتصرَ على قدرِ الحاجةِ وترك الباقي لصاحبهِ.

ومن ذلك أنَّهُ ﷺ كان مريضاً فاحتاجَ إلى لحمِ حَجَلٍ نعتَهُ الطبيبُ لهُ لكونهِ يصلحُ به أكلَهُ فلم يوجدْ بالسَّوقِ إذ كان أهلُ تلك الحرفةِ في ذلك الوقتِ لا يصطادونَهُ، فقدمَ عليهِ بعضُ المعارفِ من أعرابِ غمرةَ[1] يريدون زيارتَهُ فجاؤوا بعدةِ طيورٍ منهُ في أيديهم كانوا قد اصطادوها في بلادِهم، ثُمَّ أُولعوا باصطيادِها في ذلك الوقتِ وجعلوا يأتونَهُ بها، فقلَّما جاءَ منهُم أحدٌ إلَّا أتى في يدهِ من غيرِ

[1] . هو دُوَّار يقع بجماعة شرقاوة، عمالة مكناس، جهة فاس مكناس في المملكة المغربية

وصيَّةِ أحدٍ لهم على ذلك، فكثُرَ الحجلُ عنده حتَّى كان يعطيهِ غيرَهُ تيسيراً من اللهِ لهُ، وفضلاً منهُ ونعمةً، وأمثالُ هذه الحكايةِ كثيرٌ.

ومن هذا النَّوعِ أنَّهُ ﷺ ما استسلفَ دراهمَ لأجلٍ, فحلَّ أجلُها إلَّا يسَّرَ عليهِ قضاؤها دونَ تراخٍ ولا مهلةٍ، ولا جاءَ ربُّها يطلبُها إذا كانت لغيرِ أجلٍ إلَّا وجدَ ذلك القدرِ من الدَّراهمِ عنده، وكنَّا يوماً عندهُ وهو مريضٌ فأشهدَنا على دَينٍ كان عليهِ، ثُمَّ حذَّرَ مِن أخْذِ الدَّينِ وكثرةِ السَّلفِ مخافةَ الوقوعِ في المطلِ وأشارَ لنا إلى عدمِ الاقتداءِ به في ذلك وإنَّا لسنا كحالهِ، فسمعتهُ يقولُ حينئذٍ

" ما جاءَني ذو دَينٍ يقتضيهِ منِّي إلَّا وجدَ الدَّراهمَ دخلتْ بيدي قبل ذلك بيومٍ أو ذلك اليومِ بعينهِ، تلك عادتي مع اللهِ، وقطُّ ما جاءني فلم يجدْ شيئاً عندي "

وهذا من صنعِ اللهِ لهُ ومَنْ أحسنُ منْ اللهِ صُنعاً.

ثامنُها أنَّهُ ﷺ لا يتعرَّضُ لهُ أحدٌ بإذاية قوليَّةٍ أو فعليَّةٍ قاصداً لذلك منتهكاً لحرمتهِ ومستخفَّاً برتبتهِ إلَّا انتقمَ اللهُ عزَّ وجلَّ منهُ وعجَّل عقوبتَهُ على يدهِ ﷺ بأنْ يصرِّفَهُ فيه غيباً أو على يدِ غيرهِ بأمرٍ سماوي أو أرضي ما لم يتُبْ, وقعَ ذلك لغيرِ واحدٍ ممَّنْ أرادَ اللهُ إهانتَهُ والعياذُ باللهِ، وما رأينا أحداً قطُّ تصدَّى قاصداً لذلك ومستهزئاً بما هنالك إلَّا هلكَ فيمَنْ هلكَ انجازاً لما وعدَ اللهُ به من النَّصرِ لأوليائهِ وليُخزيَ الفاسقين.

وكذلك ما انتهكَ أحدٌ حرمةَ جنابهِ بسرقةِ شيءٍ من أماكنهِ أو عدمِ توقيرٍ لهُ ولأصحابهِ إلَّا عوقبَ وخسرَ خسراناً مبيناً، وكذلك ما أساءَ أحدٌ الأدبَ أمامَهُ وكان عالماً بشأنهِ إلَّا وقعَ في نفسهِ عبرةٌ وآيةٌ، وقد شاهدنا من ذلكَ كلِّهِ وقائعَ وقضايا غير ما مرَّةً.

فمِنَ الأوَّلِ أنَّ بعضَ المتمردين من الطلبةِ تكلَّمَ يوماً معنا فاعترضَ عليهِ ﷺ تجاهلاً منهُ وتجاسراً فأجبتهُ بما هو المقصودُ فحادَّ إلى العنادِ والجحودِ، ثُمَّ انصرفَ عنَّا على عمايتهِ، فبعد ذلك بيومٍ أو يومينِ انتقمَ اللهُ منهُ فصدرتْ

والعياذُ باللهِ منهُ في جانبِ المولى تباركَ وتعالى كلمةَ كفرٍ فأنهيَ خبرهُ للقاضي ولم تقمْ عليهِ بينةٌ فعزلَهُ عن إمامةِ المسجدِ وخطَّةِ الشَّهادةِ، وشاعَ خبرهُ فمقتَهُ النَّاسُ حتَّى الصِّبيانُ ينادون عليهِ في الطُّرقِ بالسَّبِّ والشَّتمِ فبقيَ طريداً وحيداً ممقوتاً عند الكافَّةِ، أعاذنا اللهُ من التَّعرُّضِ لأوليائهِ، ومن هذا المعنى قضيَّةُ رضوانَ المتقدِّمِ ذكرُها، وقضيَّةُ الحاكمِ التِّلمساني المتقدمَّةُ أيضاً وما شاكلَها.

ومن الثَّاني أنَّ رجلاً من أهلِ الباديةِ عدا ليلةً على زريبةِ نحلهِ ﷺ فسرقَ منها أشباجاً وأكلَ عسلِها فافتضحَ عند معارفهِ ثُمَّ ظهرَ ببطنهِ حيوانٌ كبُرَ فيه وعظُمَ به بطنهُ جداً وتضرَّرَ بذلك غايةً، فكان النَّاسُ يتناعتونَهُ بسوءِ فعلهِ، وكان هو يخبرُ أنَّهُ يتحرَّكُ ببطنهِ ويعترفُ بما فعلَ ويأتي سيِّدُنا أحمدُ ﷺ ليستحلَّهُ ويطلبُ منهُ المسامحةَ فيستحيي ويرجعُ، وبقيَ كذلك إلى أنْ ماتَ عفا اللهَّ عنَّا وعنه.

ومن الثَّالثِ أنَّ رجلاً كان جالساً معهُ ﷺ وأنا حاضرٌ فكان ﷺ يتكلَّمُ علينا من بساطهِ بما فتحَ اللهُ من العلمِ في الوقتِ والرَّجلُ يجيبهُ بتقوُّلٍ من كلامِ القشيري ويتظاهرُ بذلك غيرَ متأدِّبٍ معهُ، فانقبضَ ﷺ عن الكلامِ وعُرِفَ فيه ذلك، ثُمَّ انصرفَ الرَّجلُ لمنزلهِ فسلَّطَ اللهُ عليهِ الحمَّى وانطلقَ بطنهُ، وكان يسكن بمنزلٍ عالٍ فدامَ الهبوطُ إلى أسفلَ فسقطَ من الدَّرجِ على رأسهِ ولحقتْهُ مشقَّةٌ عظيمةٌ ومحنةٌ كبيرةٌ، فمن الغدِ بينا أنا خارجٌ من المسجدِ بعد صلاةِ الجمعةِ إذ لقيتُ سيّدَنا أحمدَ ﷺ فقال لي

" أتعرفُ منزلَ فلانٍ "

يعني الرَّجلَ المذكورَ فقلتُ نعم فقال لي

" اذهبْ بنا إليهِ فإنَّهُ أصبحَ مريضاً "

فلمَّا أشرفَ عليهِ قالَ لـهُ الرَّجل

" يا سيِّدي سامحني للهِ عزَّ وجلَّ فإنِّي أسأتُ الأدبَ معك البارحةَ وأصابني من ذلك ما أصابني ".

فسامحَهُ ﷺ وشفاهُ اللهُ قريباً، فكان الرَّجلُ إذا لقيَني بعدُ أوصاني بالأدبِ وأراني أثَرَ ضربةٍ في قلنسوتهِ وقعتْ لهُ تلك الليلةَ، ومثلُ هذا وقعَ لغيرِ واحدٍ نسألُ اللهَ السَّلامةَ.

تاسعُها أنَّهُ ﷺ لا يخبرُ أحداً من أصحابِنا بشيءٍ من أمرِ دينِهم أو دنياهُم ممَّا هو إرشادٌ لهم أو قضاءُ وطرٍ من أوطارِهم أو مجرَّدَ إخبارٍ بغيبٍ مناماً إلَّا كان يقظةً ووقعَ لا محالةَ، يقع ذلك لهم كثيراً أو غيرَ ما مرَّةٍ وخصوصاً فيما أهمَّهُم من الأمورِ واشتدَّتْ حاجتُهم إليهِ، يُفتيهم فيه إذا استفتوهُ، أو يخاطبُهم به ابتداءً فتطمئنُّ لذلك نفوسُهم وتنشرحُ صدورُهم كما يتَّفقُ لهم ذلك معهُ يقظةً، لا يزال يقعُ لهم من ذلك دائماً سرمداً حكاياتٌ كلها وآياتٌ.

فمِن ذلك أنِّي كنتُ لمَّا توفيتْ لي الزَّوجةُ الأولى ألتمسُ التَّزويجَ فعُينتْ لي امرأةٌ مالتْ نفسي إليها كلَّ الميلِ فجئتهُ مستبشراً فيها فلم يجبنْي بشيءٍ كأنَّهُ كرهَ ذلك فبقيتُ متحيِّراً غايةَ التَّحيُّرِ لا أدري ما أصنعُ ولا أقدرُ أنْ أراجعَهُ مرَّةً أخرى، ثُمَّ رأيته في المنام وهو يقولُ لي مهلاً عليك مهلاً عليك فأصبحت مطمئن النَّفس عالماً بأن الوقت لم يصل وسكن قلبي ممَّا كنت أجد فيه وبقيت بعد ذلك عزباً لا أخطب امرأة ولا اعزم على خطبة نحو من ثلاث سنين ثُمَّ تزوجت بعدما وقع التربص الذي أشار به عليّ نوماً ﷺ.

ومن ذلك أنَّ بعضَ أصحابِنا وهو الخيِّرُ الصدوقُ أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد بنُ عبدِ المجيدِ الدَّبيبِ الأندلسي كان مختفياً بالزَّاويةِ بعد اخراجِ السُّلطانِ إيَّاهُ مع مَنْ أخرجَ من أهلِ فاس بعد مضي الثَّورةِ وبقيَ كذلك مدَّةً طويلةً نحو من عامينِ ثُمَّ رأى نفسَهُ مناماً بجامعِ القرويين والنَّاسُ جالسون بها في حلقةٍ مستديرةٍ كبيرةٍ

وسطُهم رجلٌ جالسٌ كقطبِ الرَّحى وهم يقولون ذلك هو السُّلطانُ، قالَ فجئتهُ فإذا هو سيِّدُنا أحمدُ ﷺ فجعلتُ أقولُ لهُ

" يا مولاي العفوَ "

فقال لي

" ما تريدُ " ؟

فقلت لهُ

" يا سيِّدي أردتُ السَّراحَ ممَّا أنا فيه وأنْ يرجعَ أبي إلى فاس "

" فأمرَ بكَتْبِ السَّراحِ لي ولأبي ".

فاستيقظتُ فرِحاً مستبشراً، فبعد ذلك دخلَ رجلٌ على سيِّدِنا أحمدَ وأنا جالسٌ معهُ فقال لهُ

" أمَّا يسرَّحُ هذا الرَّجلُ " ؟

وأشارَ إليَّ

فقال لهُ سيِّدنا أحمد

" إنِّي أحببتُ أنْ يسرَّحَ في هذه الأيَّامِ "

وفقَ ما فعلَ ﷺ مناماً، فما مرَّ بعد ذلك يومٌ أو يومان حتَّى جاءَهُ وقالَ لهُ

" أريدُ أنْ اشفعَ فيك عند خليفةِ السُّلطانِ وتذهبَ معي إليهِ "

فتخوَّفَ من ذلك، ثُمَّ استأذن سيِّدَنا أحمدَ فأذنَ لهُ وقال لهُ

" **سِرْ ولا تخفْ** "

فسارَ معهُ فأطلقَ سراحَهُ وحرَّكَ اللهُ قلبَ الخليفةِ حينئذٍ فكتبَ للسُّلطانِ يستأذنهُ في سراحِ ابنهِ ومَنْ معهُ من المخرَجين من فاس، فأذنَ لهُ وأطلقَ اللهُ سراحَ الجميعِ وردَّهُم إلى مواطنِهم وظهرَ مصداقُ الرؤيا قريباً وما كان أنفذَهُ سيِّدُنا أحمدُ ﷺ غيبًا ممَّا تدلُّ صورتهُ على أنَّهُ صاحبُ وقتهِ والمُتصرِّفُ في قُطرهِ من بينِ سائرِ أهلِ عصرهِ ﷺ ونفعنا به.

ومن ذلك أنَّ صاحبَنا أبا الرَّبيعِ الكاتبُ سليمانُ كان بمحلَّةِ السُّلطانِ فرأى ليلةً سيِّدَنا أحمدَ ﷺ في المنامِ وهو يقولُ لهُ

" إنَّ السُّلطانَ سيغضبُ عليك غداً ويخاصمُكَ ويعاتبُك عتاباً شديداً فلا تجبْهُ بكلمةٍ".

قالَ ومن عادتي أنِّي اراجعهُ في الكلامِ إذا وقع لي معهُ شيءٌ من ذلك، فلمَّا كان من غدٍ تلك الليلةَ ذهبتُ إلى السُّلطانِ ودخلتُ عليهِ فخاصمني بسببِ أمرٍ وقع لي معهُ وحرَّدَ عليَّ في ذلك وسبَّ وجزَّعَ فلم أجبْهُ بكلمةٍ عملاً بما أوصاني به يوماً سيِّدُنا أحمدُ ﷺ فكان في ذلك لطفٌ فيَّ ونجوتُ منهُ بسببهِ والحمدُ للهِ بل جعلَ إذ سكتَ يعتذرُ لي ويطلبُ المسامحةَ منِّي.

وقد أخبرني هذا الكاتبُ بأنَّهُ ما رأى سيِّدَنا أحمدَ ﷺ نوماً يقولُ لهُ شيئاً إلَّا وقعَ لهُ يقظةً من فورهِ، وإنَّهُ ما من نازلةٍ تنزلُ به إلَّا اخبرَهُ بها نوماً قبل نزولِها يقظةً وهذا أمرٌ واقعٌ ومتكرِّرٌ لغيرِ واحدٍ من الأصحابِ لا يُحصى ما وقعَ منهُ كثرةً وممَّا ينخرطُ في هذا البابِ رؤياه هو ﷺ المناميةُ، لا يرى رؤيا إلَّا جاءتْ كفلقِ الصُّبحِ وظهرَ مصداقُها في الوجودِ ظهوراً بيِّناً فكانتْ كشفاً صَراحاً ونوراً ملتاحاً، وذلك لصدقهِ ﷺ في معاملتهِ إذ صِدقُها مترتِّبٌ على ذلك وناشئٌ عنه بقدرِ ثبوتهِ يكونُ ثبوتهُ.

سمعتهُ ﷺ يقولُ

" صِدْقُ الرؤيا على حسبِ صدقِ العبدِ، فَمَنْ صدقتْ يقظتهُ صدقتْ نومتهُ "

وعلى ذلك يدلُّ حديثُ الرؤيا الحسنةِ من الرَّجلِ الصَّالحِ جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءً من النُّبوَّةِ[1]، حيث جُعلتْ جزءً من النُّبوَّةِ إذا كانت من الرَّجلِ الصَّالحِ لا مطلقاً، ومعنى كونِها جزءً منها أنَّها كشفٌ واطِّلاعٌ على الغيبِ وذلك

1 . الحديث رواهُ البخاري ومسلم ونصه (الرؤيا الصالحةُ جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءً من النبوَّةِ).

من علومِ النُّبوَّة وقد وقع لهُ ﷺ منها كثيرٌ يقصُّهُ علينا أحياناً فنراهُ بعد في الخارجِ عياناً، ولولا الإطالةِ لذكرتُ من ذلك كثيراً ورويتُ منهُ غزيراً.

عاشِرُها أنَّهُ ﷺ لا يمرُّ في الزَّمانِ حادثٌ من هذه الحدثاناتِ إلَّا أخبرَ به قبل وقوعهِ وأَعلمَ به من لهُ به قرابةٌ وموالاةٌ تصريحاً لبعضِهم وتلويحاً لآخرين لما يقصدهُ في ذلك من تبشيرٍ أو تحذيرٍ أو نُصحٍ أو نحوهِ، ثُمَّ لا يقدرُ أحدٌ منهُم أنْ يفشيَ سرَّهُ في ذلك البتَّةَ إلَّا حديثاً فيما بينهم، وهذا الأمرُ متكرِّرٌ منهُ في كلِّ نازلةٍ عظيمةٍ وحادثةٍ جسيمةٍ.

فأخبر ﷺ أصحابَهُ حسبما حدثنا به غيرَ واحدٍ منهُم بوقوعِ الغلاءِ الكبيرِ الواقعِ سنةَ سبعين وألفٍ مستمراً إلى سنةِ ستٍ وسبعين، وأنَّهُ تكون فيه مجاعةٌ عظيمةٌ فكان كذلك وبلغَ مدَّ القمحِ فيه خمسَ أواقٍ وطال كذلك ومات به خلقٌ كثيرٌ، ثُمَّ أخبرَ في آخرهِ وانقضائهِ وبهلاكِ الأُمراءِ الثَّلاثةِ أميرَيْ فاس القائدِ أحمدَ بنِ صالحِ الليريني الأندلسي رئيسُهم والقائدِ مُحمَّد بنِ الصَّغيرِ رئيسِ اللُّمطيين، وقائدِ فاس الجديدِ أحمدَ الدَّريدي وتبديدِ شملِهم، وإنَّهُ يأتي من يهاجمهم ويقطعُ دابرَهُم فلا ينجو منهُم أحدٌ فكان كذلك ظفرَ بهم السُّلطان مولاي الرَّشيدُ بنُ الشَّريفِ الحسني لمَّا استولى على فاس في ذي الحجة سنةَ ستٍ وسبعين وألفٍ وقتلَهم جميعاً وأخذَ أموالَهم ولم يبقَ منهُم أحدٌ والبقاءُ للهِ وحدَهُ.

وأخبر قبل دخولهِ فاس باستيلائهِ على مملكتِها وظفرِهِ بها لمَّا أتاها المرةَ الأخيرةَ محاصراً لها فكان كذلك، ثُمَّ لمَّا ماتَ السُّلطانُ المذكورُ وبويع مكانَهُ أخوهُ مولاي إسماعيلَ سدَّدهُ اللهُ أخبرَ بوقوعِ الثَّورةِ الكبرى عليهِ بفاس الكائنةِ سنةَ ثلاثٍ وثمانين وألفٍ، فكانتْ كما أخبرَ ﷺ، ثُمَّ أخبرَ في أثناءِ مدَّتِها وعند محاصرةِ السُّلطانِ مولاي إسماعيلَ لها بأنَّ أهلَ فاس لا يكونُ منهُم شيء ويظفرُ السُّلطانُ المذكورُ بهم، ويكون في ذلك اللُّطفُ، صرَّحَ بذلك غيرَ ما مرَّةٍ لغيرِ واحدٍ من الأصحابِ وغيرِهم فكان كذلك.

وأخبرَ بموتِ عبدِ الرَّحمنِ الفلالي خليفةِ السُّلطانِ مولاي إسماعيلَ بفاس الجديدِ مقتولاً، حدَّثني صاحبُنا الكاتبُ أبو الرَّبيعِ سليمانُ كان اللهُ لهُ أنَّ سيِّدَنا أحمدَ ﷺ أخبره يوماً بأنَّ عبدَ الرَّحمنِ المذكورِ يموتُ مقتولاً ويؤخذُ مالهُ قالَ وقال لي

" وأنت تكون حاضراً لذلك "

يشيرُ إلى أنَّ السُّلطانَ الذي استخلفَهُ هو الذي يفعلُ به ذلك فكان كذلك، وكان الكاتبُ المذكورُ لمَّا أمرَ السُّلطانُ بقتلهِ وجدَهُ حاضراً معهُ مشاهداً لذلك كلِّهِ، ثُمَّ أخبر بالغلاءِ الذي وقعَ عامَ أوَّلَ وهو عامُ أحدٍ وتسعين وألفٍ الذي بلغ فيه مُدُّ القمحِ أوقيتين قديمتين وربَّما زاد عليها.

وأخبرَ في أوَّلهِ والنَّاسُ يستسقون بأنَّهُ سيكونُ في العامِ القابلِ منهُ رخاءٌ في القمحِ ويصيِّفُ النَّاسُ فيه مصيفاً حسناً، فكان كذلك وبلغَ القمحُ في ذلك المصيفِ الذي هو المصيفُ الفارطُ هذا العام نصفَ أوقيةٍ والحمدُ للهِ.

وسمعتهُ يقولُ في أوّلهِ زمنَ الحرثِ

" رأيتُ مطراً عظيماً وشتاءً كثيرةً تنزلُ حتَّى كان النَّاسُ يطلبوهُ لكثرتهِ العفوَ "

فكان كذلك وما زالَ المطرُ ينزلُ كثيراً متوالياً حتَّى كان النَّاسُ يطلبون اللهَ في رفعهِ وما رأينا في هذه السَّنينَ مطراً نزل أكثر ممَّا نزل هذا العامَ إلى غيرِ ذلك ممَّا هو كثيرٌ.

أخبرني صاحبُنا الكاتبُ المذكورُ أنَّهُ ما توجَّهتْ لهم حركةٌ يريدُ أنْ يذهبَ إليها مع السُّلطانِ وجاءَ إلى سيِّدِنا أحمدَ يتشيَّعُ[1] معهُ إلَّا أخبرَهُ بما يكونُ من أمرِها من غلبةِ السُّلطانِ وطولِ مدَّةٍ ونحو ذلك فيكون كذلك.

وهكذا يتَّفقُ لنا نحن معهُ في كثيرٍ من الأمورِ ولو تتبَّعنا أخبارَهُ في هذا المعنى مسألةً مسألةً لطالَ المدى جداً.

---

1 . شيَّعهُ أي تابعهُ وخرجَ معه عند رحيلهِ ليودعهُ ويآنسهُ ويسير معه الى موضع معا.

وقد أخبرَ ﷺ هذا العامَ وهو سنَّةَ اثنين وتسعين وألفٍ عن حوادثَ تكونُ فيه وقعتْ كلَّها واحدةً بعد واحدةٍ، فأخبرَ أنَّ المطرَ فيه قليلٌ، وقال لبعضِ معارفهِ ممَّنْ حرفتهُ القباقيبُ التي يمشي بها في الطِّينِ

" انظرْ مَنْ تبيعُ لهُ قباقيبَكَ جملةً "

فلم يفقَهْ مرادَهُ وتراخى في ذلك وإذا بالمطرِ قد حُبسَ وطالَ حبسهُ حتَّى قنطَ النَّاسُ، ثُمَّ جاءَهُ الرَّجلُ الذي كان أمرهُ يبيعُ قباقيبَهُ فشكاهُ كسادَ القباقيبِ من أجلِ حبْسِ المطرِ فخاصمَهُ سيِّدُنا أحمدُ ﷺ ولامَهُ على عدمِ امتثالِ أمرِهِ وقال لهُ

" إنِّي لا أمزحُ مثلَكُم ولا أكذبُ مثلَكم ولا أقولُ إلَّا الجدَّ "

ثُمَّ قالَ لهُ

" سينزلُ المطرُ إنْ شاءَ اللهُ في فصلِ اللَّيالي وتبيعُ سلعتَكَ "

فلمَّا دخلت اللَّيالي نزلَ مطرٌ كما أخبرَ، وباعَ الرَّجلُ سلعتَهُ وربحَ فيها.

ثُمَّ حُبسَ المطرُ أيضاً وطالَ حبْسهُ على النَّاسِ واحتاجوا إليهِ احتياجاً شديداً فجعلَ سيِّدُنا أحمدُ أثناءَ ذلك يقولُ

" إنِّي إذا رأيتُ السَّحابَ انقبضَ قلبي ولا أحبُّ أنْ ينزلَ المطرُ "

قالَ ذلك مراراً يريدُ أنَّ مرادَ اللهِ في ذلك الوقتِ عدمَ نزولهِ، وقلبهُ مَظهرٌ لهُ فهو تابعٌ لمرادِ اللهِ سبحانَهُ في ذلك، فكان في كثيرٍ من تلك ينشأُ السَّحابُ وتهبُّ الرِّيحُ الغربيةُ التي يجيءُ معها المطرُ فيظنُّ النَّاسُ بحسبِ جري العادةِ أنَّ المطرَ ينزلُ لا محالةَ فتنقشعُ السَّحابُ وتنجلي الشَّمسُ، وقع ذلك مراراً متعدِّدةً في أيَّامٍ كثيرةٍ.

واشتغلَ سيِّدُنا أحمدُ إذ ذاك بخدمةِ زيتونهِ في جنانهِ بلمطةَ، وكان يخرجُ مع الخدَّامِ في بعضِ الأيَّامِ، فكان بعضُ مَنْ حضرَ من أصحابهِ يقولُ لهُ

" يا سيِّدي أردنا المطرَ "

فيقولُ لهُ

" حتَّى أُتمَّ زيتوني وأخدمُ جناني فإنِّي أحببتُ أنْ أخدمَهُ في الصَّحوِ دونَ شتاءٍ "

ولا يخدمهُ إلَّا ثلاثةٌ من الخُدَّامِ على مهلٍ فيبقى المطرُ محبوساً إلى أنْ تمَّتْ خدمةُ جنانهِ كما قالَ وكما أحبَّ ﷺ.

ثُمَّ بعد فراغهِ منهُ بنحوِ أربعةِ أيَّامٍ كان جالساً بصقلبيةِ الزَّاويةِ بعدما أذَّنَ العصرَ وقبل الصَّلاةِ فرفعَ رأسَهُ إلى السَّماءِ وتبسَّمَ وقال

" أهذا اليومُ الذي يُقالُ لهُ يومُ المعرى "؟ [1]

فقال بعضُ مَنْ حضرَ

" ليس هنا يا سيّدي إلَّا الصَّحوُ والشَّمسُ لا في هذا اليومِ ولا في غيرهِ ".

وقال لهُ سيِّدُنا أحمدُ ﷺ

" لا تقلْ ذلك، اللهُ سبحانَهُ كريمٌ رحيمٌ، إنِّي رأيتُ مطراً كثيراً ينزلُ "

فلمَّا صلَّى النَّاسُ العصرَ نزلَ مطرٌ كثيرٌ كما أخبر ﷺ وبقيَ ذلك أيَّاماً وفرحَ النَّاسُ فرحاً شديداً فقال ﷺ

" ذلك لا فرقَ عندي بين هذا اليومِ الذي نزلَ المطرُ وبين أمس الذي لم ينزلْ فيه مطرٌ إلَّا إنِّي فرحتُ لفرحِ النَّاسِ وسُررتُ بسُرورِهم "

وإخبارهُ ﷺ في هذا وشِبْهِهِ لا تزالُ مستمرَّةٌ تقع بين حيناً بعد حينٍ، والمرَّةَ بعد المرَّةِ، وقد أخبر بأشياءَ ستقعُ لا يمكن إفشاؤُها ولا يصلحُ الآنَ إبداؤها، وبعد هذه سنة واحدة استوفى فيها الخيرُ عمَّا وقعَ من حالِ هذا المطرِ فليقِسْ على ذلك غيرَهُ ممَّا لم يُذكرْ من كلِ ما سلفَ من الحوادثِ وغيرِ.

وهذا ما تيسَّرَ إيرادهُ وسردهُ وتعدادهُ من هذه الكراماتِ المنيفةِ والمآثرِ الشَّريفةِ ممَّا هو قليلٌ من كثيرٍ، ويسيرٌ من غزيرٍ، ونُقرةٌ من بحارٍ، وصبابةٌ من صبيبِ إمطارٍ إذ هذا البابُ لا يستوفي آياتهِ، ولا تُلحقُ غايتهُ، ولا تنحصرُ أنواعهُ

---

[1] . المعرى، عريت الليلة، بردتْ.

وأصنافهُ، ولا تستكملُ نعوتهُ وأوصافهُ، ولا يُحصى عددهُ ولا ينقطعُ مددهُ بل هو أكثرُ من أنْ يُستقصى أو يُنالُ مرامهُ الأقصى، ولو تتبعنا ما وقعَ منهُ واستقرأناهُ وحفظناهُ كلُّهُ وجمعناهُ ومن أينَ لنا ذلك ولنا الوصولُ إلى هنالك لكان ديواناً جامعاً مستقلاً واسعاً، وقد أتينا من ذلك بما فيهِ مقنعُ، ونزعنا من كلِّ نوعٍ منهُ بمنزعٍ ممَّا تفنَّنا فيه تفنيناً، وتلونَّا فيه تلويناً، واقتصرنا على نحوِ سبعين من المستغلاتِ، وأتينا بعشرةٍ من المستمراتِ، مُمثِّلين لكلِّ واحدٍ منها لثلاثٍ, اقتصاراً على أقلِ الجموعِ وربَّما زيد في بعضِها على ذلك القدرِ المجموعِ، فكان مجموعُ العددَ أزيدَ من مئةِ آيةٍ، وفي ذلك القدرِ للمعتبرين كفايةٌ، ولم أجمعْ منها إلَّا ما صحَّ على القطعِ وقوعهُ واستوى عندي لمباشرتي لوقتهِ مَرآهُ ومسموعهُ، فليس منها شاذٌّ ولا نادرٌ ممَّا تشتملُ عليهِ سائرُ النُّقولِ إلَّا المتوال، فبسماعِها فاغتبِطْ وبعروتهِ الوُثقى فارتبِطْ، فإنْ رُويتِ الأخبارُ هذه صحيحُها أو ذُكرتِ الآثارُ فهذه صريحُها، ولي في هذا المعنى فيه ﷺ.

أكثرَ الراؤونَ نقلاً في عُلا قومٍ وسُؤدَد
وصلوا منها حديثاً ورووا من كلِّ مُسند
من عزيزٍ شذَّ معنى وغريبٍ قد تفـرَّد
وصحيحُ النَّقلِ منها مُسندُ يُعزى لأحمـد

وقلتُ أيضاً في ذلك

عجباً للنَّاسِ هامــوا بكراماتٍ تَعـــــدَّد
نقلُوا الأخبارَ فيهــا صاعداتٍ كُلَّ مصعَد
صحَّ هذا النَّقلُ لكنْ لأبي عبدِ اللهِ أحمد

أقسامُ الكرامات

واعلمْ أنَّ هذهِ الكراماتِ على قسمينِ حسيةٌ ظاهرةٌ، ومعنويةٌ باطنةٌ كما عند الشَّيخِ ابنِ عطاءِ اللهِ ﷺ.

فالمحسوسةُ هي هذه الخوارقُ التي يُجريها اللهُ تعالى على يدِ الصَّالحينَ من عبادهِ كطي الأرضِ والمشي على الماءِ والطيرانِ في الهواءِ وتكثيرِ الطَّعامِ والشَّرابِ والإتيانِ بثمرةٍ في غيرِ أبانِها وانباعِ ماءٍ من غيرِ حفرٍ وإجابةِ دعوى بإتيانِ مطرٍ في غيرِ وقتهِ أو اطّلاعٍ على المغيباتِ أو نحوِ ذلك، وشرطُ اعتبارِها وجودُ الاستقامةِ بل لا تسمَّى كرامةٌ إلَّا مقرونةً مع ذلك وهذا إذا ظهرتْ على يدِ ثابتِ العقلِ ظاهرِ التَّمييزِ، وقد يظهرُها اللهُ تعالى على يدِ بهلولٍ ليُظهِرَ بها نصابهُ ويَحمي بها من الإذايةِ جنابهُ فلا يشترطُ فيها حينئذٍ وجودَ الاستقامةِ لكونهِ ساقطُ التَّكليفِ وهي من ذوي الاستقامةِ على الخصوصيَّةِ أدلُّ وأعلى منصباً وأجلُّ لجمعِهم بين الفضيلتينِ دوامَ العاداتِ وخرقِ العاداتِ ومن هذا النَّوعِ جميعُ ما ذكرناه في هذا البابِ.

والمعنويةُ ما يَمنُّ اللهُ تعالى به على عبادهِ من المنَنِ الباطنيةِ كالمعرفةِ باللهِ والخشيةِ لهُ ودوامِ المراقبةِ والرُّسوخِ في اليقينِ والقوَّةِ والتَّمكينِ ودوامِ المتابعةِ والفهمِ عن اللهِ ودوامِ الثِّقةِ به والتَّوكلِ عليهِ إلى غيرِ ذلك، وهذه عندَ اللهِ أفضلُ من الأولى وأجلُّ كما قالَ ابنُ عطاءِ اللهِ ﷺ وأصلُها وأفضلُها الإيمانُ باللهِ قالَ في لطائفِ المننِ

" وما أكرمَ اللهُ تعالى العبادَ في الدُّنيا والآخرةِ كرامةً مثلَ الإيمانِ به والمعرفةِ بربوبيَّتهِ لأنَّ كلَّ خيرٍ من خيرِ الدُّنيا والآخرةِ فإنَّما هو فرعٌ عن الإيمانِ باللهِ من أحوالٍ ومقاماتٍ وأورادٍ وارداتٍ، وكلُّ نورٍ وعلمٍ وفتحٍ ونفوذٍ إلى غيبٍ وسماعِ مخاطبةٍ وجريانِ كرامةٍ وما تضمنتْهُ الجنَّةُ من حورٍ وقصورٍ وأنهارٍ وثمارٍ، أو كان به أهلُها فيها من رِضى عن اللهِ عزَّ وجلَّ ورِضى عن اللهِ ورؤيةٍ للهِ، فكلُّ

ذلك إنَّما هو نتائجُ الإيمانِ ووجودُ آثارِهِ وأمدادُ أنوارِه، جعلنا اللهُ وإيَّاكَ من المؤمنين بربوبيةِ الإيمانِ الذي رضيَهُ لعبادهِ وبسطَنا وإيَّاكَ للتَّسليمِ في مرادهِ "[1] انتهى.

فالإيمانُ أصلُ النِّعمِ كلِّها كما قالَ ﷺ ومنشأ الكراماتِ الظَّاهرةِ والباطنةِ فيه تُرتقى المقاماتُ التي بها يكونُ ظاهرُ الكراماتِ، وقد رتَّبَ أهلُ الطَّريقِ رضي الله عنهم الكراماتُ الحسيةُ الظَّاهرةُ على الكراماتِ المعنويةِ التي هي مقاماتُ الدِّينِ ومنازلُ المقربين، فجعلوها منوَّعةً بحسبِ أنواعِها وعدُّوا ما يترتَّبُ على كلِّ مقامٍ إيماني من هذه الخوارقِ الظَّاهرةِ نبَّهَ على ذلك الشَّيخ زرُّوقٍ ﷺ في بعضِ كتبهِ إجمالاً وبيَّنَهُ الشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد بنُ الشَّيخ عبدِ اللهِ مُحمَّد بنُ أحمدَ السَّاحلي ﷺ في كتابهِ " **بغيةُ السَّالكِ** "[2] بياناً فصَّلَ فيه الكلامَ تفصيلاً وقد أجرى اللهُ تعالى على يدِ سيِّدنا أبي العبَّاسِ أحمدَ ﷺ من هذه الظَّاهرةِ أنواعاً منوعةً كما ذكرناهُ مفصلاً فيما سلفَ، وذلك ممَّا يدلُّ على اتِّصافهِ بمقاماتٍ في الدِّينِ متعددةً ونزولهُ منازلَ منهُ متنوعةً ولنوردَها كما ذكرها السّاحلي مبيناً لما وقعَ منها لسيِّدِنا أحمدَ ومقتصراً عليهِ.

فمِنْ كراماتِ منزلِ التَّوبةِ محبَّةُ الخلقِ لصاحبهِ وهذا شيءٌ ثابتٌ لهُ ﷺ فقد شاعَ وذاعَ وملأ الأفواهَ والأسماعَ أمرُ خصوصيَّتهِ عند الخاصِّ والعامِّ من أهلِ هذه البلادِ وغيرِهم فلا تلقى إلَّا مُحباً لهُ ومتمنياً للقائهِ ﷺ.

ومِن كراماتِ منزلِ الاستقامةِ سطوعُ أنوارٍ عظيمةِ الخطبِ متصلةٍ في أوقاتِ الذِّكرِ، مرَّةً يدركُها بالجنانِ وتارةً يَلمحُها بالعيانِ حتَّى يعدَّ حوائزَ سقفِ البيتِ ويرى ما يخفى في زواياهُ، وقد وقعَ هذا لسيِّدِنا أحمدَ ﷺ في ظلمةِ اللَّيلِ

---

[1] . لطائف المنن ص80.

[2] . كتاب (بغية السالك الى أشرف المسالك) لمُحمَّد بن مُحمَّد بن أحمد بن عبد الرحمن الأنصاري الساحلي المالقي ت/754هـ.

حتَّى شاهدَ أهلُ بيتهِ ما على مرفعِ البيتِ من الأواني الصِّغارِ، وكذا وقعَ لهُ أيضاً مع غيرِهم كما تقدَّمَ.

ومنها روائحُ طيبةٌ تبلغُ في قوَّةِ طيبِ الرَّائحةِ إلى حدِّ الغايةِ منها ما يشبَهُ رائحةُ المسكِ ورائحةُ العنبرِ والعودِ وغيرِ ذلك من الرَّوائحِ الطيِّبةِ ما لا مثلَ لهُ في هذا العالمِ، وقد شَمَّ منهُ ﷺ الرَّائحةَ التي لا مثلَ لها في هذا العالمِ غيرَ واحدٍ من أصحابِنا كما تقدَّمَ ذكرَ بعضُهم فيما قبل هذا البابِ.

ومنها مشافهة النَّبي ﷺ برؤية صورته الكريمة في عالم الحس عياناً لا سيَّما في أوقات الذِّكر وقد وقع هذا لهُ ﷺ عند غلبة الحال عليهِ غير ما مرَّةً فيصدر منهُ الأخبار بذلك ويقولُ هذا رسول الله مشيراً بيده إليهِ ﷺ وتقدمت في باب مواجده حكاية مشهدٍ وقع لهُ فيه ذلك.

ومن كراماتِ منزلِ التَّقوى وضْعُ البركةِ في الطَّعامِ وغيرهِ حتَّى يُكثِّرَ القليلَ ويكفي اليسيرَ بما يشهدُ لخرقِ العادةِ.

ومنها تيسيرُ دنانيرَ ودراهمَ أو كليهما أو غيرِ ذلك ممَّا تدعو إليهِ الضَّرورةُ وتقتضيهِ الحاجةُ في الوقتِ.

ومنها أنْ يكشفَ لهُ عن حقيقةِ ما يريدُ استعمالَهُ من الطَّعامِ ونحوهِ فيعلمُ حرامَهُ من حلالهِ ومتشابههِ بأماراتٍ يجدُها، أمَّا من باطنهِ أو ظاهرهِ أو غيرهِما وكلُّ ذلك حاصلٌ لهُ ﷺ حسبما تقدَّمَ الأوَّلانِ في هذا البابِ، والأخيرُ في بابِ ورعهِ ﷺ.

ومن كراماتِ منزلِ الإخلاصِ صدورُ الحِكمِ من قلبِ صاحبهِ على لسانهِ نعم وعلى حركاتهِ وسكناتهِ فتراهُ يشيرُ إلى أسرارٍ من الغيبِ، منها ما يشعرُ به ومنها ما لا يشعرُ به إلَّا بعد صدورهِ عنه فتجدهُ يقعُ على الحِكمِ ويُدركُ الحقائقَ ويشيرُ إلى الأسرارِ، وتصدقُ مع ذلك أكثرُ خواطرهِ, وبحسبِ قوَّةِ إخلاصهِ يكونُ صدقَ خواطرهِ.

وأمَّا رؤيا نومِهِ فكفلقِ الصُّبحِ، وهذا كلُّهُ ممَّا لا خفاءَ في ثبوتِهِ لهُ ﷺ فإنَّهُ على ما وصفناهُ فيما سبقَ لا يُجارى ولا يُبارى في المعارفِ والأسرارِ والحِكمِ والأنوارِ التي لا تزالُ أبدَ الآبدينَ على لسانهِ جاريةً مستمرةً متواليةً، وكذا خواطرُ قلبهِ لا تزالُ تصدِّقَهُ متى خطرَ ببالهِ شيءٌ وقعَ, وقد قالَ يوماً

" ما كذبني قلبي قطُّ "

وما رأى رؤيا إلَّا ظهرَ مصداقُها يقظةً كما ذكرناهُ قبلُ.

ومنها إجابةُ الدَّعوةِ حتَّى في خرقِ العوائدِ وإنَّهُ ليُقسمُ على اللهِ فيبرَّهُ كما جاء في الحديث[1] وقد وقع لهُ ﷺ من إجابةِ الدُّعاءِ ما لا يكادُ يُحصى، وتقدَّمَ ذكر شيءٌ منهُ في هذا البابِ.

وأمَّا القَسَمُ على اللهِ تعالى فقد أقسمَ على أشياءَ لم تكنْ في الحالِ فكانتْ بعدُ بإذنِ اللهِ تعالى وأبرَّ اللهُ فيها قسمَهُ، وقد حضرتُ أنا بعضَ ذلك وقد تقدَّمَ في هذا البابِ شيءٌ من ذلك.

ومنها تسهيلُ المساعي كتيسيرِ العسيرِ والوقايةِ من الأعداءِ ولا خفاءَ في حصولِ هذا أيضاً لهُ ﷺ كما هو مشاهَدٌ محقَّقٌ شهيرٌ معلومٌ ضرورةً.

ومن كراماتِ منزلِ الصِّدقِ سِماعُ الأصواتِ بظهرِ الغيبِ، وقد سمعَها ﷺ وتقدمتْ من ذلك كرامةٌ في عدادِ الكراماتِ السَّالفةِ.

ومن كراماتِ منزلِ الطمأنينةِ وهي السُّكونُ تحتَ مجاري الأقدارِ الحملُ في جميعِ الأحوالِ حسَّاً ومعنى في الأمورِ الدنيويةِ والأُخرويةِ حتَّى لا يسنحَ في باطنهِ شيءٌ إلَّا تيسَّرَ لهُ من الكونِ على نحوِ ما سنحَ في باطنهِ.

ومنها نطقهُ بالكوائنِ قبل أنْ تتكونَ وإخبارُه ببعضِ الغيوبِ قبل حصولِ أعيانِها وقد تقدَّمَ كلٌّ من هذين لهُ ﷺ في عدادِ كراماتهِ الجاريةِ لوقوعِها لهُ كثيراً دائماً وأبداً.

---

[1] . الحديث (ربَّ أشعثَ أغبرَ مدفوع عند الأبوابِ لو أقسمَ على لأبرَّهُ) رواه مسلم.

ومن كراماتِ منزلِ المعرفةِ جميعُ الكراماتِ السَّالفةِ وغيرِها من الكراماتِ " كلُّ الصِّيدِ في جوفِ الفَرا "[1]

قالَ الشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ السَّاحلي ﷺ

" وهل العارفُ إلَّا كبيرُ هذا العالَمِ به يصلحُ العبادُ وتتجذبُ مواردُ الرَّشادِ، فكلَّما قابلَ بسرِّهِ شيئاً من الموجوداتِ قلبهُ إلى مقتضى إشارةِ سرِّهِ، وهذه الحالةُ هي التي تجري في كلّامِ بعضِهم أنَّها عينُ الاسمِ الأعظمِ لما يرون من نفوذِ تصريفهِ في هذا الوجودِ " انتهى.

وقد تقدَّمَ لسيِّدِنا أبي العبَّاس ﷺ في كراماتهِ التَّصريفيةِ ما ينبئُ عن هذا المعنى ويشيرُ إلى هذا المغزى، وتقدَّمَ أيضاً معرفتهُ لاسمِ اللهِ الأعظمِ وإخبارُه عن كيفيةِ معرفتهِ وأنَّهُ حالةٌ يتحقَّقُ بها الإنسانُ لا مجردَّ معرفةِ لفظهِ، ولن يخفى عليك بعد مطالعةِ ما تقدَّمَ في باب حالهِ ومقامهِ، ثُمَّ في بابي دلالتهُ على اللهِ وكلامهُ وغيرُها أنَّهُ من كُبراءِ العارفين وكُمَّلِ الرَّاسخين وحاملُ لواءِ التَّحقيقِ في زمانهِ، وسيِّدُ أهلِ وقتهِ وأوانهِ وممَّنْ أُعطيَ التَّصريفَ ونفوذَ الأمرِ في الخليقةِ، ووليَ الخلافةَ عليهم حقيقةَ، وإنَّهُ إكسيرُ هذا الوجودِ كما هو شأنُ العارفين أهلُ الشهودِ، وقد قالَ ﷺ

" النَّاسُ بخيرٍ ما دمتُ لهم "

وأشارَ إلى كيفيَّةِ تصريفِ العارفِ بأنَّ " لا إلهَ إلَّا اللهُ " منهُ بمنزلةِ " كُنْ " كما حكينا عنه في بابِ كلامهِ، وإنَّهُ إذا أرادَ شيئاً انفعلَ لهُ بقدرةِ اللهِ تعالى كحجرِ المغناطيسِ إذا قابلَ الحديدَ، وناهيك بهذا دلالةً على هذا المقامِ وإفادةً لهذا المرامِ الذي ليس فوقَهُ مرامٌ إليهِ ينتحي ولا مقامٌ إليهِ ينتهي، وليس فوقَ

[1] . مثل عربي قديم يضرب لمن يفضل على أقرانِهِ (والفرا) هو الحمار الوحشي، وأصله أن ثلاثة نفر ذهبوا يصطادون فصاد أحدهم أرنباً والآخر ظبياً والثالث حماراً وحشياً، فهزؤوا به فقال المثل أي كل ما اصطادوه لا يساوي شيئاً مقابل ما اصطادهُ هو.

الكرامةِ به من كرامةٍ، ولا بعد حصولِ آياتهِ البيّناتِ من آيةٍ، وعلامةٌ إذ فيه انطوتْ سائرُ المقاماتِ واندرجتْ جميعُ الكراماتِ، وكلُّها حاصلةٌ لصاحبهِ ولو لم تظهرْ لنا علامةٌ منهُ على بعضِها، وقد بقيَ ممَّا ذكرَهُ الشَّيخُ السَّاحلي من المنازلِ اثنان منزلُ المراقبةِ ومنزلُ المشاهدةِ.

فمن كراماتِ منزل المراقبة المشيُ على الماءِ وفي الهواءِ، ولم نحفظْ لهُ ﷺ في ذلك شيئاً لكنَّهُ أخبرَ عن حالةٍ في أوَّلِ أمرهِ أنَّهُ كانت تتواردُ عليهِ الأحوالُ حتَّى صارَ في الخِفَّةِ كالرَّيشةِ، وصارَ يرى السَّماءَ قريبةً منهُ جداً، وهو ممَّا يدلُّ على تمكنّهِ في الرَّوحانيةِ وبه يكونُ المشي على الماءِ والطَّيرانِ في الهواءِ كما هو معلومٌ عندَهُم.

وسمعتهُ يقولُ

" ليس سببُ المشي على الماءِ صلابتهُ حتَّى يصيرَ كالأرضِ، إنَّما سببهُ خفَّةُ جسمِ الإنسانِ لتمكُّنه في الرُّوحانيةِ حتَّى أنَّهُ لو دُفعَ إلى باطنِ الماءِ لقذفَهُ الماءُ ورمى به إلى أعلاهُ"

وأخبرني ﷺ عن طيرانِ القومِ وذكرَ في صفةِ طيرانِ الإنسانِ أنَّهُ يذهبُ قائماً يندفعُ مرَّةً بعد مرَّةٍ في سرعةٍ شديدةٍ ربَّما يصوّتُ طيرانهُ في الهواءِ شبهَ الرّيحِ القويَّةِ.

ومن كراماتِ منزل المشاهدةُ انقلابُ الأعيانِ ونطقُ الجماداتِ فسَّرَهُما السَّاحلي بما لم نفهمْ نحن تحقيقَ المرادِ منهُ حتَّى نعلمَ هل وقعَ منهما شيء لسيّدِنا أحمد ﷺ أم لا ؟

وقد تكونُ هنالك كراماتٌ آخرَ تدلُّ على هذا المنزلِ والذي قبلَهُ وقعتْ لهُ ﷺ فلم نعرفْ نحن دلالتَها عليهما إذ لا مريةَ في ثبوتِ هذين المنزلينِ لهُ ﷺ وخصوصاً المشاهدةُ كما عُلِمَ ممَّا تقدَّمَ.

ولا شكَّ أنَّ السَّاحلي ﷺ لم يستوفِ كراماتِ كلِّ منزلٍ كما صرَّحَ هو بذلك وقد

يكونُ الواقعُ أنَّهُ لم يتَّفقْ لهُ شيءٌ من ذلك أصلاً وليس من شرطِ وجودِ المقامِ وجودُ كرامتهِ بل ولا الكرامةُ شرطٌ في وجودِ الخصوصيَّةِ من أصلِها كما ذكرَهُ أهلُ الطَّريقِ وغيرُهم وإنَّما هذه الكراماتُ دلائلُ وعلاماتٌ ويلزمُ من وجودِ الدَّليلِ وجودُ المدلولِ ولا يلزمُ من عدمِهِ عدمهُ كما اقتضاهُ المعقولُ.

نعم يجبُ لمَنْ ظهرتْ على يدهِ مع وجودِ الاستقامةِ أنْ يُكَرَّمَ ويُجَلَّ ويُعَظَّمُ ويُبجَّلُ إذ هي شاهدةٌ باستقامتهِ مع اللهِ كما ذكرَهُ ابنُ عطاءِ اللهِ ﷺ ودليلٌ على مزيدِ عنايةِ للهِ تعالى به حيث أعلمَ بمزيَّتهِ وأظهرَ بها علوَّ منزلتهِ، فمَنْ أظهرَ اللهُ لهُ شيئاً من ذلك على يدِ أحدٍ، فإنَّما أعلمَهُ بخصوصيَّتهِ وعرَّفَهُ بمنزلتهِ فيجبُ عليهِ الاحترامُ والتَّوقيرُ والإعظامُ جعلَنا اللهُ لهذا السَّيّدُ الكريمُ من المحبّينَ ومن المعظَّمينَ لقدرهِ المجلّينَ، ومن الفائزينَ بكمالِ حبّهِ، ومن الظَّافرينَ بالدُّخولِ في علوِّ حزبهِ، والمحشورين في جماعتهِ وسربهِ آمين.

البابُ العاشرُ في شيخهِ الهُمامُ ومشايخُ شيخهِ الأعلامُ

إعلمْ أنَّ أوّلَ من تتعلَّقُ به المعرفةُ والدِّرايةُ وتجبُ المحافظةُ لمكانهِ والرِّعايةُ من أتتْكَ على يدهِ نتائجُ الهدايةِ، وواجهتْكَ بإذنِ اللهِ منهُ العنايةُ إذ هو الأبُ والوالدُ وأحقُّ بالرِّعايةِ من كلِّ طارفٍ وتالدٍ[1] حيث كان السَّببُ لك في إيجاداتٍ ونيْلِ مددِ اسعاداتٍ، فكان السَّببُ في إخراجِك من عدمِ الجهالةِ إلى وجودِ المعرفةِ الحاصلةِ حالةً، ومن مكانِ الغفلةِ والصُّدودِ إلى مكانةِ التَّوجُّهِ والورودِ، ومن موطنِ الغِوايةِ والعِمايةِ إلى منزلِ السَّعادةِ والهدايةِ، ومن ظلماتِ المخالفةِ والعصيانِ إلى أنوارِ المتابعةِ والرِّضوانِ، ومن موقفِ الجفاءِ والبِعادِ إلى كنفِ القربِ والودادِ، ومن دركِ القطيعةِ إلى درجةِ الوصالِ الرَّفيعةِ، ومن محلِّ الإشراكِ والأندادِ إلى مقامِ التَّوحيدِ والإفرادِ، فنقلَكَ من وجودٍ حسِّي إلى وجودِ قدسي ومن وجود نفساني إلى وجود روحاني ومن وجود منفصل إلى وجود متَّصلٍ، ومن وجودٍ كالعدمِ إلى وجودٍ راسخِ القدمِ، فأنزلَكَ في هذهِ المنازلِ الأنيقةِ وأشرقَ عليكَ منهُ نورُ الحقيقةِ فصرتَ موحِّداً حقيقياً وفزتَ فوزاً أبدياً فكانتْ لك الولادةُ المعنويَّةُ أنفعُ من هذه الحسَّيةِ وأحقُّ منها رعايةً، وآكدُ منها درايةً، وأقربُ منها نسباً وأوصلُ سبباً، كما قالَ سيِّدي عمرُ بنُ الفارضِ ﷺ في قصيدتهِ اليائيَّةِ الرَّوي

نسبٌ أقربُ في شرعِ الهوى بيننا من نسبٍ من أبويْ[2]

وصارتْ معرفتُها أحرى من معرفةِ الأخرى ووجبَ كما قالَهُ الشَّعراني ﷺ.

---

1 . الطارف والتالد/ المحدث والقديم، مالٌ طارفٌ، مستحدث وهو خلاف التالد،

2 . البيت من قصيدة (سائق الأظعان) لابن الفارض.

" تعيينُ الأبِ لئلَّا يجهلَ الابنُ النَّسبَ فيتنسبُ أو ينسبهُ سواهُ لغيرِ أبيهِ فيشملهُ حديثُ

" مَنْ انتسبَ لغيرِ أبيهِ أو انتمى لغيرِ مواليهِ "[1]

ولوجوبِ معرفةِ هذا النَّسبِ وكونِ حقّهِ أوْكدُ وأوجبُ تجدُ الأشياخَ في كتبِهم يتعرَّضون للتَّعريفِ بآبائِهم فيه ولبيانِ رُتبِهم فيقدّمون نسبَهم الدِّيني على نسبِهم الطِّيني إذ ليستْ الرُّتبةُ كالرُّتبةِ ولا القربةُ كالقربةِ، ثُمَّ معرفةُ قدْرِ شيخِ الإنسانِ علامةٌ على معرفةِ قدْرِه وعنوانهِ ودليلٌ على قدْرِ مِنَحهِ وقُوَّةِ حالهِ وفتحهِ، إذ على قدرِ فتحِ الشَّيخِ يكونُ فتحُ المريدِ، وبحسبِ ازديادِ قوَّةِ حالهِ وتهذيبهِ يكونُ التَّهذيبُ والمزيدُ, ولا سبيلَ لمعرفةِ هذه تحصيلاً إلَّا بالتَّعرُّضِ للتَّعريفِ بالشَّيخِ تفصيلاً، فكان التَّعرُّضُ من أجلِ ذلك للتَّعريفِ بشيخِ سيّدِنا أحمدَ ﷺ أكيداً، ولتمامِ المعرفةِ بقدرِهِ العلي مفيداً، وبسبيلِ ذلك تأكَّدَ التَّعريفُ بأشياخِ شيخهِ ليحصلَ التَّعريفُ بقدْرِهِ ويتمَّ به بيانُ أمرِهِ فتعرَّضنا لكلا الأمرينِ في هذا البابِ واقتصرْنا فيه على ما لا مندوحةَ[2] عنهُ واللهُ الموفّقُ للصَّوابِ.

شيخُه ﷺ

فأمَّا شيخُهُ ﷺ فهو الشَّيخُ الهمامُ الفاضلُ العارفُ الكبيرُ الواصلُ الموحِّدُ المحقِّقُ المجذوبُ المستغرقُ بحرُ المعرفةِ الغَطمْطَمُ[3] الزخارُ[4] وغيثُ المددِ

---

1 . حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدِّمَشْقِيُّ، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ أَبِي سَعِيدٍ، وَنَحْنُ بِبَيْرُوتَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «مَنِ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، أَوِ انْتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ الْمُتَتَابِعَةُ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (سنن أبي داوود)

2 . لا مندوحة عنهُ / أي هذا الأمر لا يمكن تركهُ.

3 . بحر غطمطم أي بحر واسعٌ كثيرُ الماءِ إذا تلاطمتْ أمواجهُ. .

4 . زخر البحر أي ارتفعَ ماؤهُ، وزخرَ الشخصُ، جاد بما عندهُ.

الوابلِ المدرارِ، منبعُ التَّوحيدِ ومعدنُ التَّفريدِ والمواجدُ الرَّبانيةُ والإشراقاتُ العرفانيةُ والأحوالُ السَّاميةُ والإشاراتُ العاليةُ أبو الفضلِ الخيِّرُ الحسيبُ الزَّكي الحاجُّ الرِّضي أبو الفضلِ قاسمٌ بنُ أبي الفضلِ قاسمِ الخصاصي به عُرِفَ نسبتهُ إلى خصاصةَ مدينةٌ على شاطئِ البحرِ بجبلِ القلعيةِ ذاتُ مياهٍ واجنَّةٍ لا عمارةَ بها الآنَ وهي قربُ مدشرِ أبي جابرٍ وبعد خلا بها، كان سلفهُ بالجبلِ المذكورِ ثُمَّ انتقلوا إلى فاس.

وحدَّثني بعضُ قدماءِ أصحابهِ المنتسبين إليهِ وإلى الشَّيخِ سيِّدي مُحمَّد قبلَهُ أنَّهُ سمعَهُ يقولُ

" نحن من الأندلسِ وإنَّ سلفَهُ كانوا هنالك قبلَ ورودِهم على القلعيةِ "

وُلدَ ﷺ في حدودِ اثنين وألفٍ ورَبى في حجرِ أمِّهِ يتيماً لأنَّ والدَهُ رحمَهُ اللهُ تُوفيَ وتركَهُ في بطنِ أمِّهِ فرُبِّيَ كذلك إلى أنْ شبَّ وبلغَ الحلُمَ، فكانت لهُ خِلطةٌ وصُحبةٌ مع أقرانٍ لهُ كان هو يذكرُها ويذكرُ ما صدرَ عنه من الأفاعيلِ بسببِها يعرِّفُ النَّاسَ بذلك فضلَ اللهِ وإحسانهِ وإنَّهُ لا يتقيَّدُ بعلةٍ ولا بسببٍ فبقيَ كذلك مدَّةً ثُمَّ ألقى اللهُ عليهِ التَّوبةَ والإنابةَ إليهِ والأوبةَ وهبَّتْ عليهِ رياحُها وأَشرقَ عليهِ بعد ظُلمةِ الشَّبابِ عليهِ صباحُها فذهب لزيارةِ بعضِ الأولياءِ خارجَ بابِ الفتوحِ وهو سيِّدي الحسنُ الجزولي من أصحابِ الشَّيخِ الغزواني رضي اللهُ عنهما كانت أمُّهُ أرسلتْهُ لزيارتهِ لأنَّهُ كان لهم استنادٌ إليهِ فلم يعرفْهُ فجاءَ إلى ضريحِ الشَّيخِ العارفِ الكبيرِ سيِّدي أبي المحاسنِ يوسفَ الفاسي ﷺ ووقفَ عليهِ وهو لا يعلمُ صاحبَهُ فقالَ

" يا صاحبَ هذا القبرِ إنْ كنتَ وليّاً للهِ حقاً فنطلبُ منك أنْ يجمعُني اللهُ بشيخٍ أخدمهُ للهِ لا يشاركُني أحدٌ في خدمتهِ "

ثُمَّ رجعَ من عندهِ وذهب إلى جامعِ القروين فدعا لهُ، فرأى فيه رجلاً كوساً مُسنَّاً جداً فألقى اللهُ في قلبهِ محبتَّهُ وقال في نفسهِ

" مثلي مَنْ يخدمُ هذا الرَّجلَ للهِ "

فجاءَهُ وسلَّمَ عليهِ وجلسَ إليهِ فلمَّا تكلَّمَ معهُ واطمئنَّ بين يديهِ قالَ لهُ الرَّجلُ المذكور

" إنِّي مُوصى برجلٍ سبطرى أي ذي حرفةِ الخرازةِ من سوقِ القرافين أو من عقبةِ السَّبطريين "

وكان سيِّدي قاسمٌ قد خدمَ تلك الحرفةَ فيهما معاً فلازمَهُ من حينئذٍ سيِّدي قاسمٌ وصحبَهُ واختصَّ به وسلبَ لهُ الإرادةَ وجعلَ يجالسهُ ويخدمهُ فيما يحتاجُ إليهِ من غسلِ ثوب وإماطةِ أذى ونحو ذلك واستفادَ منهُ وانتفعَ به، وكان لمَّا صحبَهُ أقلعَ عن الخِلطةِ وأهلِها.

فاتَّفقَ لهُ يوماً أنْ ذهبَ لبعضِ معارفهِ الذي كان يخالطُهم فلقيَهُ ثُمَّ انقلبَ من عندهِ إلى شيخهِ، فلمَّا جلسَ بين يديهِ تنكَّرَ لهُ مُغضَباً ثُمَّ قالَ لهُ

" يا بني صاحبي الذي يعرفني لا يكونُ إلَّا في واحدةٍ من ثلاثٍ، أمَّا في المسجدِ يصلِّي فيه أو في دارهِ يجلسُ بها، أو في موضعِ حرفتهِ يخدمُ فيه "

فنزعَ سيِّدي قاسمٌ إذ ذاك عن الخلطةِ بمرَّةٍ نزعاً كلياً فما رُؤِيَ بعد ذلك يفعلُ سوى ما قالَ لهُ كما أخبر هو بذلك ﷺ.

وبقيَ في صحبتهِ سنين لا أدري عددها إلى أنْ تُوفيَ هذا الشَّيخُ رحمَهُ اللهُ فبعد أربعةِ أيَّامٍ من وفاتهِ أو خمسةٍ رآه رجلٌ من معارفهِ في غمٍّ وكربٍ ممَّا نزلَ به من موتِ شيخهِ فدلَّهُ على الشَّيخِ سيِّدي عبد الرَّحمنِ بنِ مُحمَّد الفاسي ﷺ فذهب إليهِ حينئذٍ ولم يكنْ يعرفهُ قبل ذلك وصحبَهُ ولازمَهُ وسلب لهُ الإرادةَ وفتحَ لهُ على يديهِ الفتحُ الأعظمُ وكان معهُ على طريقةٍ مُثلى من الحزمِ والجدِّ في الدِّينِ والتَّحرُّزِ في أمورهِ مع ملازمةِ الأحزابِ بزاويتهِ، وكان إذ ذاك يعتريهِ الحالُ وتصدرُ منهُ صيحاتٌ وربَّما صدرتْ منهُ بمحضرِ الشَّيخِ سيِّدي عبدِ الرَّحمنِ وقال لهُ يوماً وقد صاحَ قدَّامَهُ

" أيَّ شيءٍ تذكرُ " ؟

فقال " لا إله إلَّا اللهُ مُحمَّد رسولُ اللهِ "

فقال لهُ " لا أخافُ عليك ".

ونزلَ يوماً مطرٌ شديدٌ وحُجِرَ وهو مارٌ بالطَّريقِ فصاحَ صيحةً حاليةً وقال **" يكفي " أي " أُكْفُفْ "**

فأقلعَ المطرُ إذ ذلك، فشكاهُ بعضُ النَّاسِ إلى سيّدي عبدِ الرَّحمنِ وأخبرَهُ بما صدرَ عنه فقال لهُ سيّدي عبدُ الرَّحمنِ

" أتقدرُ أنت أنْ تقولَهُا " ؟

فقال لا

فقال لهُ الشَّيخُ

" هو قالَها "

ومرَّةً أضرَّ بعضُ من لهُ رئاسةٌ في قومهِ بالإذايةِ اللّسانيةِ بالشيخِ سيّدي عبدِ الرَّحمنِ وحلفَ ليهدمَنَّ زاويتَهُ فصاحَ أعني سيِّدي قاسماً وهو في حزبِ الغداةِ يقرؤهُ قائلاً

" اليومَ يُقطعُ رأسُ فلانٍ"

يعني الرَّجلَ صاحبَ الإذايةِ، فكان من قدرِ اللهِ أنْ خرجَ الرَّجلُ ذلك اليومَ إلى قتالِ أعرابٍ أغاروا على المدينةِ فما رجعَ إلَّا مقطوعَ الرأسِ وظهرَ مصداقُ قولِه، فكانتْ هذه والتي قبلَها لهُ كرامةٌ بصدقِها وتصديقِ شيخهِ

" أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ "[1]

وقال لهُ الشَّيخُ سيّدي عبدُ الرَّحمنِ

" أنت لي ولستَ لأحدٍ غيري "

يشيرُ بذلك واللهُ أعلمُ إلى أنَّ فتحَهُ كان على يدهِ دون غيرهِ.

---

[1] . هود(17)

وقال لهُ أيضاً

" أنت غريبٌ ليس لك أخٌ "

يريدُ واللهُ أعلمُ أنَّهُ غريبٌ في طريقهِ وعرفانهِ وتحقيقهِ، وفيه مع ذلك إشارةٌ إلى ما كان من أمرهِ بعدُ مع بعضِ إخوانهِ من أصحابِ الشَّيخِ عبدِ الرَّحمنِ وأصحابِ الشَّيخِ سيِّدي مُحمَّد بنِ عبدِ اللهِ، فمَنْ لم يحصلْ لهُ ذوقٌ من عدمِ اذعانِهم لهُ واستنكافِهم عن متابعتهِ بعدَ أنْ استخلفَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ، وربَّما صرَّحَ بالنَّكيرِ عليهِ بعضُهم بعد معرفةِ مكانهِ من الدِّينِ وحالهِ القوي فيه ومعاشرتهِ لهُ على ذلك السِّنينَ ومعرفةِ ما كان يقعُ لهُ مع الشيخينِ سيِّدي عبدِ الرَّحمنِ الفاسي وسيِّدي مُحمَّد بنِ عبدِ الله بعده من الأمورِ الدَّالةِ على شفوفِ منزلتهِ وإنافةِ رتبتهِ والأمرُ للهِ وحدَهُ.

وكان أعني سيِّدي قاسماً يلهجُ دائماً بسيِّدي عبدِ الرَّحمنِ ويذكرهُ ويذكرُ ما قالَ لهُ وما سمعَ منهُ ممَّا حكينا بعضَهُ آنفاً، وبقيَ في صحبتهِ إلى وفاتهِ أعني سيِّدي عبدَ الرَّحمنِ، ثُمَّ صحبَ بعدَهُ خليفتَهُ ووارثَ حالهِ الشَّيخُ سيِّدي مُحمَّد بنُ عبدِ اللهِ معنٌ والدُ سيِّدِنا أحمدَ رضيَ اللهُ عنهُما فلازمَهُ واختصَّ به وسلبَ لهُ الإرادةَ كما كان مع الشَّيخِ سيِّدي عبدِ الرَّحمنِ ﷺ وقامَ بالأدبِ معهُ كما قامَ به مع الأوَّلِ مع ما سبقَ لهُ معهُ من الاخوةِ فيه، وقال لهُ يوماً مشيراً إلى هذا المعنى

" يا سيِّدي أنا عاتقٌ "[1] يعني ليس كالثَّيبِ[2] تميلُ إلى الأوَّلِ أكثرَ من الثاني.

وأمرَ الشَّيخُ سيِّدي مُحمَّد يوماً بكَتْبِ تحبيسِ[1] نسخةٍ من البخاري لهُ على زاويتهِ فقالَ للكاتبِ على سبيلِ التَّواضعِ

---

1 . العاتق/ المرأة التي بلغت وخدرتْ ولم تتزوج،معنى فقهي

2 . الثيب/ هي المرأة التي أزيلت بكارتها بنكاح أي التي تزوجت سابقا، وقد يطلق على البالغة وإن كانت بكراً.

" أكتبْ حبْساً على أصحابِ سيّدي عبدِ الرَّحمنِ "

فصاحَ سيِّدي قاسمٌ صيحةَ حاليةً

" لا بل نحن من أصحابِكَ "

فلم ينكرْ عليهِ فكتبَ ذلك الكاتبُ حبساً على أصحابِ سيِّدي مُحمَّد كما قالَ سيِّدي قاسمٌ وصادفَ مقالهُ الأدبَ ومقتضاهُ.

وكان ﷺ شديدُ الأدبِ قوياً في اللهِ يعرفُ منهُ الشَّيخُ سيِّدي مُحمَّد بنُ عبدِ اللهِ وأصحابهُ ذلك، ويشيرُ أحياناً إلى مرتبتهِ وتمييزهِ، وكان سيّدي مُحمَّد لا يحثُّ لأصحابهِ الاجتماعَ بغيرِ الزَّاويةِ لمنتزَّهٍ ولا لغيرهِ، وإنْ صدرَ منهُم ذلك يوماً ما زجرَهُم ووبَّخَهم عليهِ أشدَّ توبيخٍ لا يسامحُهم في ذلك البتَّةَ، فإذا علمَ أنَّ سيّدي قاسماً كان معهم لم يقلْ لهم شيئاً لِما يعلمُ من شدَّةِ حزمهِ وورعهِ، وأنَّهُ لا يحضرُ محفَلاً إلَّا كان بالجدِّ موصوفاً وبالخيرِ محفوفاً.

وجلسَ مرَّةً أصحابُ سيّدي مُحمَّد بالزَّاويةِ يتحدَّثون وهو معهم، فلمَّا دخلَ عليهم الشَّيخُ سكتوا فصاحَ بهم سيّدي قاسمٌ والشَّيخُ حاضرٌ

" تكلَّمُوا وخوضوا فيما كنتم تخوضون فيه "

إرشاداً منهُ للصدقِ وارادةً لهُ في كلِّ شيءٍ حتَّى لا يُخفي أحدٌ عن الشَّيخِ شيئاً.

وكان رحمَهُ اللهُ منذُ صحبتهِ وقبلَهُ مؤثِراً للعزلةِ شديدَ الفرارِ من الخلقِ مرفوعَ الهمَّةِ عنهم إلى اللهِ تعالى، سبَّاقُ غاياتٍ وصاحبُ آياتٍ يسيرُ مع المشايخِ سيرَ تاركِ الحظوظِ، لا يعرِّجُ على طمعٍ منهُم في شيءٍ.

وكان من عادةِ سيّدي مُحمَّد إذا قبَّل يدَهُ أحدٌ من الأصحابِ دعا لهُ بقولهِ

" اللهُ يباركُ فيك "

فدعا يوماً بذلك لسيّدي قاسمٍ فقال لهُ

---

1 . الحبسُ أي الوقف والأحباسُ الأوقاف.

" لا تقلْ لي شيئاً من ذلك لا باركَ اللهُ فيَّ "

يشيرُ بذلك إلى أنَّ المعرفةَ على اللهِ لا على أنْ يدعوَ لهُ ولا لغيرِهِ.

وخرجَ مرَّةً سيِّدي مُحمَّد لزيارةِ القطبِ سيِّدي عبدِ السَّلامِ بنِ مشيشٍ نفعنا اللهُ به وحدَهُ وقال

" إنَّ الذي يتبعُني لا يربحُ "

فتبعَهُ سيِّدي قاسمٌ من فورهِ إلى خارجِ بابِ الجيسة[1] فقيل لهُ

" أمَّا سمعتَ ما قالَهُ سيِّدي مُحمَّد " ؟

فقال

" لستُ أعرفهُ على الرِّبحِ، إنَّما أعرفهُ على الخسارةِ "

يعني أنَّهُ لا يعرِّجَ على حظٍّ ولا يلوي عليهِ كما قالَ القائل

" على المنعِ منها لا على الجودِ اتَّبعُ "[2]

فلمَّا أشرفَ على سيِّدي مُحمَّد قالَ له

" كلُّ مَنْ أحببتُ أنْ لا يجيءَ لم يجيءْ "

وقدَّمَهُ أمامَهُ وذهبا.

وبنى مرَّةً أعني الشَّيخَ سيِّدي مُحمَّد بابَ زاويتهِ يزجرُ بذلك بعضَ أصحابهِ ويربِّيهِ فبقيَ سائرَ الأصحابِ يتعاهدون زاويةَ الشَّيخِ وموضعَهُ يتسوَّرون عليها بالسُّلمِ وتخلَّفَ هو عن ذلك أيَّاماً، فأرسلَ إليهِ الشَّيخُ سيِّدي مُحمَّد

" أنْ ائتنا "

فأتاهُ فقال لهُ

" ما بالكَ أنت تخلفتَ عن الزَّاويةِ ولم نركَ " ؟

فقال

---

1. أحد أبواب فاس.

2. البيت لكثير عزة وسبق نسبته الى قائله.

" يا سيّدي الأمرُ أمرُ اللهِ والفعلُ فعلُ اللهِ، لمَّا فتحَ اللهُ علينا فتحتَ لنا الزَّاويةَ، ولمَّا لم يفتحْ سدَّتْ عنَّا بابَها والعيبُ منَّا فماذا أصنعُ " ؟

ثُمَّ بكى فأمرَ إذ ذاك الشَّيخُ سيّدي مُحمَّد ﷺ بهدمِ البابِ المبنيةِ ففُتحتْ ودخلَ النَّاسُ الزَّاويةَ، وكان ذلك الفتحُ من أجلِهِ لصدقهِ مع اللهِ في فعلهِ وقولهِ، وهذا كلُّهُ لا يحسنُ إلَّا من الأقوياءِ الصَّادقين أمثالهُ لكونِهم لا يفعلون مثلَ ذلك إلَّا الحالَ اقتضاهُ منهُم، أمَّا مَنْ كان مع نفسهِ وحسِّهِ فحسبهُ ما يسعُ مجهودَهُ ممَّا هو شأنُ أبناءِ جنسهِ.

وقد كان سيّدي قاسمٌ رحمَهُ اللهُ تصحبهُ أحوالٌ دائماً ولم تنقطعْ عنه زمنَ سيّدي مُحمَّد تلك الصَّيحاتُ التي كانت لا تصدرُ عنه زمنَ سيّدي عبدِ الرَّحمنِ وكانت صيحتهُ أنْ ينطقَ باسمِ الجلالةِ مادّاً عليهِ.

وقال يوماً للشَّيخِ سيّدي مُحمَّد

" إنَّ النَّاسَ يعني بعضَ الأصحابِ يقولون إنَّكَ إذا متَّ فإنَّهم يذهبون إلى زاويةٍ أخرى "

يعني زاويةَ الشَّيخِ سيّدي عبدِ الرَّحمنِ الفاسي. فقال لهُ سيّدي مُحمَّد

" أنت هذا موضُعك إنْ شاءَ اللهُ حتَّى تموتَ "

فكان فيه إشارةٌ إلى ما يؤول إليهِ الأمرُ من استخلافِ اللهِ لهُ في ذلك الموضعِ وإلى أنَّهُ يكونُ فيه طولَ حياتهِ إلى مماتهِ فكان كذلك.

وقال شيخُنا الإمامُ العالمُ الكبيرُ أبو مُحمَّد سيّدي عبدُ القادرِ بنُ علي بنُ الشَّيخِ أبي المحاسنِ يوسفَ الفاسي ﷺ لسيّدِنا أحمدَ يوماً وقد اجتمعَ معهُ

" سمعتُ والدَك سيّدي مُحمَّداً يقولُ في شأنِك رأيتُ أحمدَ يتَّبعُ الخصاصي "

يعني سيّدي قاسماً رحمَهُ اللهُ، فهذا تصريحٌ من الشَّيخِ سيّدي مُحمَّد بإمامةِ سيّدي قاسمٍ.

وقد سمعتُ أنا سيّدَنا أحمدَ ﷺ يقولُ يوماً

" إنَّ سيِّدي قاسماً هو الوارثُ لوالدِهِ الشَّيخِ سيِّدي مُحمَّد بنِ عبدِ اللهِ "

وأوصى الشَّيخُ سيِّدي مُحمَّد رحمَهُ اللهُ قربَ موتهِ وفي حالِ صحَّتهِ أصحابَهُ بعد أنْ جمعَهم بالزَّاويةِ فقال لهم

" إذا متُّ فإيَّاكم أنْ تغترُّوا بالتَّزويقِ الظَّاهرِ "

يريدُ أهلَ الظَّواهرِ الخاليةِ من الأحوالِ الرَّبانيةِ ضمائرُهم، ويشيرُ إلى أنَّ الإرثَ في أصحابهِ بعدَهُ ليس في أهلِ الهيئاتِ منهُم.

وكان أعظمَ خمولاً سيِّدي قاسمٌ رحمَهُ اللهُ، وكان من عادتهِ أنَّهُ إذا دخلَ الزَّاويةَ جلسَ منفرداً يذكرُ اللهَ عزَّ وجلَّ، وإذا اجتمعَ النَّاسُ مع الشَّيخِ استفادَ من وراءِ وراءٍ حتَّى لا يحسبُ النَّاسُ في كثيرٍ من الأحيانِ أنَّهُ هنالك كما كان قبلَهُ الشَّيخُ عبدُ الرَّحمنِ بنُ مُحمَّد الفاسي مع أخيهِ وشيخهِ سيِّدي يوسفَ، كان يذكرُ عنه ذلك سيِّدي مُحمَّد بنُ عبدِ اللهِ.

وقيل يوماً للشَّيخِ سيِّدي مُحمَّد بنِ عبدِ اللهِ رضي الله عنه

" يا سيِّدي إنَّ بعضَ النَّاسِ قد قالَ إنَّ سيِّدي عبدَ الرَّحمنِ المجذوبَ خلَّفَ سيِّدي يوسفَ الفاسي وسيِّدي يوسفَ الفاسي تركَ أخاهُ سيِّدي عبدَ الرَّحمنِ، وأنت تتركُ فلاناً وفلاناً "

يريد هذا القائلُ رجلينِ في عددِ أصحابهِ ممَّنْ يُكثرُ القيلَ والقالَ.

فقال الشَّيخُ سيِّدي مُحمَّد

" سنموتُ وتظهرُ التَّركاتُ "

فظهرتْ بزاويتهِ بعد موتهِ تركتهُ كما قالَ واستمرَّتْ والحمدُ للهِ إلى الآنَ، ولم يكنْ ذلك غيرَ سيِّدي قاسمٍ رحمَهُ اللهُ، وفيه ظهرَ مصداقُ كلُّ ما ذُكرَ ممَّا تقدَّمَ تصريحاً وتلويحاً، فإنَّهُ رحمَهُ اللهُ لم يزلْ ملازماً للشَّيخِ سيِّدي مُحمَّد رحمَهُ اللهُ حتَّى توفيَ وبقيَ بعده يتردَّدُ إلى زاويتهِ مع مَنْ بقيَ بها غيرَ متميِّزٍ عنهم بشيءٍ نحو العامينِ ثُمَّ لاحتْ لهم خصوصيتهُ وهبَّتْ عليهم قسمتهُ، وجاء أبانهُ وأظلَّ

زمانهُ على فترةٍ ومضى سيرهُ، فكان كما قالَ سيِّدي عبدُ الرَّحمنِ بنُ مُحمَّد الفاسي ﷺ

" إنَّ الشَّيخَ إذا ماتَ ذهب بما معهُ ممَّا سيكونُ لوارثهِ ثُمَّ يرسلهُ لهُ بعد مدَّةٍ"

قالَ سيِّدي مُحمَّد بنُ عبدِ اللهِ

" وكنتُ أنا لم أفهمْ هذا حتَّى سلَّكتُهُ بعد الشَّيخِ سيِّدي عبدِ الرَّحمنِ فعلمتهُ ".

وقال يوماً سيِّدي قاسمٌ بعد موتِ سيِّدي مُحمَّد بنِ الشَّيخِ يعني سيِّدي مُحمَّداً

" ذهب بحالهِ لم يُعطِ لأحدٍ الآنَ شيئاً "

ثُمَّ بعد ذلك تبيَّنَ أنَّهُ هو الذي أعطيهِ فسلَّكَ من الفترةِ والاطِّلاعِ على كيفيةِ الأمرِ ما سلَّكَهُ مَن قبلَهُ.

وجلس يوماً أصحابُ سيِّدي مُحمَّد بنِ عبدِ اللهِ بعد موتهِ يتحدَّثون متحرِّينَ كيف السَّبيلُ إلى معرفةِ وارثهِ؟ وسيِّدي قاسمٌ معهم فقال لهم

" ها هو النَّبعُ في وسطِكُم ولكنْ أين مَنْ يستخرجهُ ويتفطَّنُ لهُ " ؟

ولمَّا وضحَ أمرُ سيِّدي قاسمٍ وتبيَّنتْ خلافتهُ وظهرتْ رتبهُ ومكانتهُ تبعَهُ جماعةٌ من أصحابِ سيِّدي مُحمَّد ممَّنْ أرادَ اللهُ توفيقَهُ وأنْ يسلُكَ به من الدِّينِ طريقَهُ فانحاشوا إليهِ وأكبُّوا عليهِ فمكَّنَ نفراً منهُم فظهرَ عليهم الحالُ

أوَّلُهم سيِّدي أبو العبَّاس ﷺ وحميَ بالزَّاويةِ ذكرُ الجلالةِ بعد أحزابِ الغداةِ وتتابعتْ حمايتهُ فكان يطولُ بهم المقامُ في ذلك غلبةً فلا يستطيعُ ذو الغلبةِ منهُم أنْ يُمسكَ نفسَهُ عن الذِّكرِ إلَّا أنْ يُقطعَ عليهِ، وربَّما يتمادى بهم الحالُ إلى الزَّوالِ أو قربهِ وتصدرُ منهُم صحياتٌ، فنقمَ عليهم بعضُ من لا معرفةَ لهُ بحالِهم ممَّنْ شاركَ سيِّدي قاسماً في معرفةِ سيِّدي مُحمَّد بنِ عبدِ اللهِ قائلاً

" لم يكنْ هذا الصِّياحُ زمنَ سيِّدي مُحمَّد "

جهلاً منهُ بأنَّ الزَّهرَ ألوانٌ وحصراً لأمرِ الألوهيةِ فيما فهمَهُ عقلهُ ثُمَّ قالَ بعضُهم

" إنْ ردَّ سيّدي أحمدَ للتّماسكِ والتّمكينِ فهو الشّيخُ حقيقةً "

فكان الأمرُ بعد كذلك، وبقوا يتكلّمون في شأنهِ وشأنِ أصحابهِ ليكونَ بقدرةِ اللهِ ما تقدَّمَ لنا عن الشَّيخِ سيِّدي عبدِ الرَّحمنِ بنِ مُحمَّد الفاسي ﷺ من قولهِ

" ليسَ لك أخٌ "

فلزم حينئذٍ سيِّدي قاسمٌ دارَهُ وكانت إذ ذاك بالأقواسِ من عدوةِ فاس الأندلسِ وحانوتَهُ وكانت بسوقِ مولانا إدريسَ نفعنا اللهُ به شفقةً على أُولئك المعترضين إذ كانوا إخوانَهُ أنْ يصابوا في قلوبِهم وينالَ منهُم أصحابَهُ مكروهٌ بسببهِ

" ودرءُ المفاسدِ مقدَّمٌ على جلبِ المصالح "

فكان لا يجالسُهم بالزَّاويةِ ولا يأتي إليها إلَّا أنْ يأتيَ لصلاةٍ، وهم على حالِهم من ملازمةِ الأحزابِ والذِّكرِ مستمدين منهُ ومقتبسين من أنوارهِ.

سمعتُ الخيّرَ الصَّالحَ الثِّقةَ الصَّدوقَ سيّدي أحمدَ بنَ قاسمٍ بتير الأندلسي يقولُ سمعتُ سيّدي قاسماً يقولُ

" واللهِ لولا الشَّفقةُ على هؤلاء المعترضين لكانتْ الجلالةُ بالزَّاويةِ لا تنقطعُ أبداً ".

وصدقَ ﷺ فقد كان ذا فيضان عظيمٍ وقدرٍ جسيمٍ وقد كان بعضُ أولئك المعترضين يأتي الحزبَ لينظرَ أمرَ الأصحابِ فيقعُ فيما هم فيه ويحترقَ بضرامِهم ويصيحُ ويمزّقُ ثيابَهُ، وقع ذلك لغيرِ واحدٍ منهُم، وكان أصحابهُ أثناءَ تلك المدَّةِ التي حبسَ نفسَهُ فيها عنهم يتردَّدون إليهِ في حانوتهِ يُنزلون به أمورَهم وما أهمَّهُم من أمرِ دينِهم، وربَّما يختبرُ أهلَ الصِّدقِ منهُم فيصرفَهُ عنه ويقولُ لهُ

" فارقْني ولا تجيء اليَّ "

فلا يريدُ أنْ ينصرفَ بوجهٍ ولا بحالٍ ويزيدُ صبابةً به وتولُّهاً ولا يألوا لياذاً بجنابهِ ووقوفاً ببابهِ فتظهرُ بذلك قوَّتهُ وما لهُ من التَّصرُّفِ العظيمِ في أحوالِ قلوبِهم رضي الله عنه.

وبقيَ كذلك إلى أنْ كان وقتُ الغلاءِ الشَّديدِ والمسغبةِ العظيمةِ التي بعد عامِ سبعين بتقديم السِّين وألفٍ التي طال أمرُها وبلغَ المدُّ في معظمِها خمسَ أواقٍ فدهَمَ النَّاسَ من أجلِها أمرٌ عظيمٌ واستقبلَهُم أمرٌ هائلٌ جسيمٌ وتفرَّقُوا في البلادِ وأفنوا الطَّريقَ والتِّلادَ، وحيلَ بينهم وبينَ عقولِهم، فتعطلَّتْ قراءةُ الحزبِ بالزَّاويةِ لذلك ولعدمِ جلوسِ سيِّدي قاسمٍ إذ ذاك بها، فلمَّا بنى سيِّدُنا أبو العبَّاس معصرتَهُ التي بعرصتهِ المجاورةِ للزَّاويةِ في تلك الأعوامِ عن إذنِ شيخهِ سيِّدي قاسمٍ رحمَهُ اللهُ كما تقدَّمَ, كان سيِّدي قاسمٌ يأتي إليها بقصدِ سيِّدِنا أحمدَ إذ كان يكونُ بها ويلي عملَ عصرِ الزَّيتِ بيدهِ، فكان يجلس معهما مَن تيسَّرَ من الأصحابِ، فبينما سيِّدي قاسمٌ يوماً جالسٌ بها وقد غلبتْ عليهِ الغيبةُ التي تعتادهُ إذ ذهبَ سيِّدُنا أحمدُ رضي الله عنه إلى رحيلهِ وعيالهِ وأتى بهم إلى عرصةِ أبيهِ المُعدَّةِ للسُّكنى الملاصقةِ للزَّاويةِ وأنزلَهُم بها وهي التي وهبَها لولديهِ كما تقدَّمَ.

ثُمَّ انقلبَ إلى سيِّدي قاسمٌ وجعلَ يستعطفهُ ويلاطفهُ في قبولِ ذلك فقبلَهُ، وكان لا يقبلُ إلَّا منهُ فسكنَ سيِّدي قاسمٌ العرصةَ المذكورةَ وذلك سنةَ ثلاثٍ وسبعين وألفٍ، ثُمَّ أمرَ بقراءةِ الأحزابِ بالزَّاويةِ وقراءةِ البخاري وجعلَ يجلسُ بها وآنسَ الأصحابَ وسلَّاهُم عن مكابدةِ الأوصابِ وتداركَ أمرَهُم وتلافي عمارةَ الزَّاويةِ. أخبرني غيرَ واحدٍ من فضلائِهم أنَّ أحدَهُم كان وقتئذٍ إذا جلسَ مع سيِّدي قاسمٍ واتَّفقَ أنْ كان جائعاً لم يجدْ ألمَ الجوعِ ولم يَحسَّ به ما دام بين يديهِ طائلاً ما طالَ ولم يقمْ إلَّا فرحاً مسروراً.

وكان رضي الله عنه مصطلماً في التَّوحيدِ مستغرقاً في التَّحقيقِ غائباً في اللهِ فانياً به عمَّا سواهُ قوي الحالِ فائضُ النُّورِ فيَّاضُ المددِ تغلبُ عليهِ الغيبةُ وتعتادهُ زيادتُها

في نحو خمسةِ أيَّامٍ من كلِّ شهرٍ فلا يعرفُ فيها الأرضَ من السَّماءِ ويسألُ عن أوقاتِ الصَّلاةِ في كلِّ ساعةٍ، وقد يسألُ عن صلاةٍ نهاريةٍ في اللَّيلِ، وكان إذا وقع لهُ ذلك لا يخرجُ من دارهِ وربَّما تجلسُ قدَّامَهُ ابنتَهُ فلا يعرفُها، وكان ملامتياً قالَ في " **الإلماع** "

" ومن أجلِ قوَّتهِ وغيبتهِ تقعُ لهُ ملاماتٌ وشطحاتٌ ينكرُ ظاهرَها مَنْ لم يعرفْ حقيقتَها، ولم يشاركْ في حالهِ " [1]

﴿ **وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ** ﴾[2] انتهى.

وكانت طريقةُ المحبوبيةِ والفناءِ في التَّوحيدِ لا يشيرُ في كلامهِ إلَّا إليها ولا يعرِّجُ إلَّا عليها وينهضُ بالنَّاسِ إليها من طريقِ المحبَّةِ ولا يلوي على طريقِ الخوفِ ولا يشيرُ إليهِ ولا يحبُّ مَنْ يقفُ مع الخوفِ وشهودِ مساويهِ مخافةَ أنْ يَقصُرَ به ذلك عن النُّهوضِ إلى اللهِ، ويدلُّ على شهودِ الفعلِ من اللهِ والتَّحقيقِ بفضلهِ وإحسانهِ ويحضُّ على تركِ التَّدبيرِ والاختيارِ ويقولُ في تقريرِ ذلك وتمثيلهِ

" كُنْ كحالِكَ في بطنِ أمِّكَ أكنتَ ترى ثَمَّ تدبيراً أو اختياراً " ؟

ويقولُ

" مَنْ كان يُدبِّرُ عليكَ وأنت صغيرٌ " ؟

ويذكرُ سعةَ رحمةِ اللهِ ويبيِّنُها برحمةِ الوالدِ لولدهِ ويقولُ

" أتغلبُ رحمةُ المخلوقِ رحمةَ الخالقِ " ؟

ويلمِّحُ في كلامهِ بحقائقَ يستشهدُ عليها بآياتٍ قرآنيةٍ وهو لا يحفظُها لكونهِ أُميَّاً لكنَّهُ يشيرُ بكلمةٍ إلى ما يريدُ منها فيُكملُ لهُ الآيةَ مَنْ يحضرهُ ممَّنْ يحفظُها, وقد جئتُ يوماً لزيارتهِ وهي زيارتي لهُ الثانيةُ أو الثالثةُ ولم أكنْ زرتهُ

---

[1] . الإلماع ص (95)

[2] . العنكبوت(43)

أنا وأخي أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد العربي إلَّا نحوَ أربعِ مرَّاتٍ فيما قربُ من وفاتهِ، فدخلتُ الدَّارَ عليه بعد أنْ أذنَ لي ولم يكنْ يخرجُ تلكَ الأيَّامِ منها، فجرى في كلامهِ الدَّلالةُ على تركِ الاختيارِ وأنَّ المُدبِّرَ مخاصمٌ مع اللهِ، واستشهدَ عليهِ بقولهِ تعالى

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾[1]

ذكرَ بعضُها وأكملتُ أنا لهُ باقي الآيةِ.

وممَّا اتَّفقَ لي معهُ في ذلك اليومِ أنِّي لمَّا دخلتُ الزَّاويةَ وسألتُ عنه ولم يبادرْني أحدٌ من أصحابهِ للدَّلالةِ عليهِ فقلتُ في نفسي

" إنَّ في هؤلاءِ العوامِ جفاءٌ "

فلمَّا دخلتُ كان أوَّلَ ما قالَ لي

" يا بُني كان يقولُ سيّدي عبدُ الرَّحمنِ الفاسي لبعضِ الطلبةِ إنْ تَحقِرَ العامةَ أحقرُكَ "

فعلمتُ أنَّهُ يريدُني واستغفرتُ اللهَ ممَّا قلتُ في نفسي.

وقيل لهُ يوماً إنَّ فلاناً مسكينٌ فقال

" المسكينُ هو الذي لا يُدبِّرُ مع اللهِ "

وقال لهُ بعضُ النَّاسِ يوماً

" يا سيّدي إنَّ الصِّبيانَ لمَّا علمنا أنَّ عقولَهُم ناقصةٌ عذرناهُم ولم نؤاخذْهُم بشيءٍ، واللهُ تعالى عالمٌ أنَّ عقولَنا قاصرةٌ فهلَّا كان غيرَ مؤاخذٍ لنا ".

فقال رضي الله عنه

" كنْ أنت معهُ كما هو الصَّبي مع أبيهِ لا يبدِّلهُ بسواهُ وحينئذٍ يكونُ لك كذلك"

وذُكِرَ عندَهُ يوماً بكاءُ آدمَ بعد نزولهِ من الجنَّةِ فقال

[1] . يس (77)

" ليس على هبوطهِ منها بكاؤه إنَّما بكى على ما صدرَ منهُ من المخالفةِ "
ودخل يوماً على بعضِ الفقهاءِ من علماءِ الوقتِ يعودهُ من مرضهِ فقال لهُ
" كيف أنت " ؟
فقال
" أُشهدُكَ أنِّي راضٍ "
فقال سيِّدي قاسم
" الرِّضى عند النَّاسِ نقصٌ ".
فتعجَّبَ الفقيهُ من قولهِ وقال
" الرِّضى مفروضٌ علينا فكيف يكون نقصاً " ؟
فقال لهُ سيِّدي قاسمٌ
" لمَنْ جسدُكَ هذا ومَنْ صوَّرَهُ " ؟
فقال " اللهُ "
فقال لهُ
" انظرْ لعلَّكَ صنعتَ فيه شيئاً "
فقال
" هذا شيءٌ لا يمكنُ ".
فقال سيِّدي قاسم
" إذا كان الجسدُ ملكَ اللهِ والفعلُ فعلهُ ففي أيِّ شيءٍ ترضى, أيتصرَّفُ غيرُك في مالهِ فترضى لهُ أنت " ؟
فسكتَ الفقيهُ وعرفَ صحَّةَ الكلامِ وأعجبَهُ وجعلَ يستحسنهُ ويذكرهُ بعدُ لمَنْ يعودهُ، إلى غيرِ ذلك من كلامهِ وحكَمهِ.
وله ﷺ كلامٌ عالٍ في الطَّريقِ وإشارةٌ ساميةٌ، وعلى كلامهِ من قوَّةِ الحالِ سطوةٌ وصولةٌ لا يخفى على ذي قلبٍ سليمٍ، يتأثَّرُ به كلُّ مَن سمعَهُ، لا تنسى

كلامَهُ إذا سمعتهُ، وكان يتحرَّكُ عند السِّماعِ وينهضُ قائماً ويتواجدُ ويقولُ غيرَ ما مرَّةً ويحلفُ باللهِ

" إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لمعكُم "

وقال مرَّةً وقد تحرَّك عند السِّماعِ

" إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ معكُم، وكلُّ أحدٍ يرجعُ إلى أيديكم ".

وقال مرَّةً وهو في حالِ فيضٍ أيضاً

" واللهِ ما يسبقُ المددُ لموضعٍ قبلَ هذا الموضعِ "

وكان يعجبهُ من السِّماعِ قولَ القائلِ

فما قطُّ حبيبي هجرني أنا   ولا جارَ عليَّ ولا قطُّ جنا

وما كان في معناهُ، وكان مع هذا كلِّهِ شديدُ الحزمِ في الدِّينِ واتِّباعِ السُّنةِ رفيعُ الهمَّةِ جداً، منقطعاً عن الدُّنيا وأهلِها في غايةٍ من الزُّهدِ والورعِ وقلَّةِ ذاتِ اليدِ يأكلُ من عملِ يدهِ ويتسبَّبُ في حانوتهِ ولا يقبلُ من أحدٍ شيئاً ولو من أصحابهِ ما عدا سيِّدي أحمدَ رضيَ اللهُ عنهُما .

وجاءَهُ مرَّةً بعضُ أصحابهِ بظرفٍ كبيرٍ مملوءٍ تمراً فردَّهُ عليهِ وتلا قولَهُ تعالى

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾[1]

ولم يكنْ أحدٌ منهُم يأتيهِ بشيءٍ لِما علموا من حالهِ، وكان يأمرُ أصحابَهُ بتصفيةِ اللُّقمةِ والتَّسبُّبِ فيها ورفعِ الهمَّةِ عمَّا في أيدي النَّاسِ ويقولُ لهم

" كدُّ اليمينِ وعرقُ الجبينِ واللهُ المعينُ "

ويحضُّهم على تركِ الخِلطةِ ويوصيهُم بمجانبةِ اللَّهوِ وأهلهِ ويُحذِّرُ من ذلك غايةَ التَّحذيرِ، وإذا رأى أحداً منهُم تلبَّسَ بهزلٍ أو عبثٍ هجرَهُ حتَّى يتوبَ، هذه حالهُ ﷺ إلى أنْ ماتَ، وكان رحمَهُ اللهُ محباً لآلِ البيتِ ومعظَّماً لهم جداً ووقعَ لنا ولغيرِنا من الشُّرفاءِ معهُ في ذلك حكاياتٌ وآياتٌ.

---

[1] . الإنسان (9)

وله ﷺ كراماتٌ كثيرةٌ ومكاشفاتٌ غزيرةٌ منعَ من التَّعرُّضِ لها هنا خشيةَ الإطالةِ، وكان يشمُّ رائحةَ الفجرِ فيخبرُ به فيؤذِّنُ المؤذِّنون إثرَ ذلك، ورأى الخضرَ عليهِ السَّلام وأخبرَ به، وناهيكَ بهديهِ والاهتداءِ به كرامةً

" فليس من تنفتحُ لهُ على يدهِ الدُّروبُ والأبوابُ كمَنْ تنفتحُ لهُ القلوبُ والألبابُ "

كما قالَ ابنُ عطاءِ اللهِ ﷺ وكفاك في ذلك هدي سيِّدِنا أحمدَ وتربيتهِ وتخرُّجهِ به وفتحِ بصيرتهِ على يديهِ رضيَ اللهُ عنهُما.

وقد شرعتُ لهذا العهدِ في تأليفٍ مستقلٍّ في أخبارهِ من كراماتٍ وغيرِها نويتُ تسميتَهُ عند اتمامهِ إنْ شاءَ اللهُ تعالى " **بالزَّهرِ الباسمِ في أخبارِ الشَّيخِ سيِّدي قاسم** " يسَّرَ اللهُ في اكمالهِ بمنِّهِ وأفضالهِ.

وكانت وفاتهُ رحمَهُ اللهُ ونفعنا به وسطَ ليلةِ الأحدِ التَّاسعِ عشرَ من شهرِ رمضانَ سنةَ ثلاثٍ وثمانين وألفٍ، وقد رمزتُ لها بتفجَّرتْ من قولي

وإنَّ الخصاصي الولي تفجَّرتْ   ينابيعُ برٍّ منهُ من خيرِ منهلِ

مشايخُ شيخه ﷺ

وأمَّا مشايخُ شيخهِ الأعلامُ فمِنهُم الثلاثةُ الذين هُمْ عمدتهُ المتقدِّم ذكرهُم وكيفية أخذه عنهُم أثناء هذهِ التَّرجمةِ وكلهم من جلَّةِ المشايخِ ذوي القدمِ الرَّاسخِ.

أوَّلُهم كانَ خاملا، والاثنان الأخيرانِ إمامانِ شهيرانِ، وباقيهم أخذَ عنهُم تبرُّكاً واستفادةً, فأمَّا الثلاثةُ الذين هُمْ عمدتهُ

فأوَّلُهم وهو سيِّدي مباركٌ بن عبابو رحمَهُ اللهُ، كان رجلاً كوشا مسنّاً جداً منفرداً متجرداً غيرَ متأهِّلٍ ولا مُتسبِّبٍ تلك حالتهُ يأوي بالمدرسةِ المصباحيةِ بيتاً

منها، عادتهُ فيما يقتاتهُ أنَّهُ يمرُّ بالسُّوقِ ويقفُ ببعضِ الحوانيتِ يتعرَّضُ لأهلِها من غيرِ أنْ يذكرُ شيئاً وإن حصلَ لهُ مقدارُ الكفايةِ من واحدٍ لم يتعرضْ للثَّاني.

وجاءَ زمنِ غلاءٍ كانَ في وقتهِ فقالَ

" إنَّ النَّاسَ اليومَ لا يعطون "

فلزمَ بيتَهُ ولم يتعرضْ لأحدٍ فقيَّضَ اللهُ لهُ امرأةً تأتيهِ بآنيةٍ مملوءةٍ بالكسكسِ واللَّحمِ كلَّ يومٍ لاتُعرفُ مَن هي, يتعرَّضُ رحمَهُ اللهُ للسؤالِ أوّلاً معَ قوَّةِ توكُّلهِ ارتكاباً لطريقِ السَّببِ الظَّاهري كما فعلَهُ غيرُ واحدٍ من أكابرِ الزُّهادِ المتوكّلين كأبي سعيدٍ الخرَّازِ وأبي جعفرٍ الحدَّادِ شيخِ الجنيدِ وغيرِهما.

وكفَّ عنهُ ثانيا مخافةَ أنْ يتضرَّرَ النَّاسُ بسببهِ إذا مَنعوا, فأظهرَ اللهُ تعالى عندَ ذلكَ عنايتَهُ بهِ ومصداقَ توكُّلهِ عليهِ فأغناهُ عنهُم ظاهراً كما أغناهُ عنهُم باطناً.

وكانَ ﷺ ورعاً زاهداً في غايةٍ من الخمولِ والإنقطاعِ عنِ الدُّنيا وأهلِها مجابَ الدَّعوةِ، ولَهُ مكاشفاتٌ وكراماتٌ.

مِنها أنَّهُ صرَّحَ لجمعٍ في غلاءٍ وقعَ بزمانهِ أخبرَ به قَبلَ ورودِ أبانهِ أظنُّهُ غلاءَ عامِ اثنين وعشرين وألفٍ أنَّهُ بلغ فيهِ مدُّ القمحِ خمسَ أواقٍ وأمرَ سيّدي قاسماً بشراءِ القمحِ فقالَ لهُ

" **لا شيءَ عندي يا سيّدي** ".

فقالَ لهُ

" أستودعُكَ اللهَ "

فلم يَرَ سيّدي قاسمٌ في ذلكَ الغلاءِ مايضرُّهُ ويُسِّرتْ فيهِ والحمدُ للهِ أمورَهُ.

ومِنهُا أنَّهُ كانَ مرَّةً مجتازاً من بابِ المدرسةِ المصباحيَّةِ إلى القرويينَ فتصادمَ معَ رجلٍ كانَ ذاهبا في الطَّريقِ فغضبَ الرَّجلُ مُفرطاً وجعلَ يسبُّهُ

ويشتمهُ, وأكثرَ من ذلكَ وسيّدي مبارك ساكتٌ لايزيدهُ على النَّظرِ إليهِ شيئاً، فلمَّا لم ينتهِ قالَ لهُ

" اللّهُ لايميتُني ميتتُكَ "

فما ذهبَ الرَّجلُ عنْ مكانهِ ذلكَ إلَّا قدْرَ مئةِ خطوةٍ وإذا برجلٍ من أعدائهِ لقيَهُ فعرضَ لهُ وضربَهُ بالسَّيفِ ضرباتٍ فقتلَهُ وماتَ من حينهِ, نسألُ اللهَ العافيةَ ونعوذُ باللهِ من أذايةِ أوليائهِ.

ومنها أنَّهُ لما قربُتْ وفاتهُ أخبرَ سيّدي قاسماً بموتهِ وقالَ لهُ

" إنّي ذاهبٌ إلى البلادِ الكبيرةِ " يعني الدَّار الآخرة " وأنتَ الذين أتَوْا بك قالوا هم أخبَرُ بكَ حيثُ شاؤوا أنزلوكَ "

فكانَ سيّدي قاسمٌ يذكرُ ذلكَ عنهُ ويُعبّرُ قولهُ " الذين أتَوْا بك " بأنَّهُ هو سيّدي يوسف الفاسي ﷺ إذ كانَ سيّدي قاسمٌ رحمَهُ اللّهُ طلبَ ذلك منهُ عند ضريحهِ كما أسلفناهُ وتمنَّى عليهِ أنْ يخدمَ رجلًا من أهلِ اللهِ وحدَهُ فأعطاهُ إيَّاهُ بإذنِ اللهِ تعالى وهو أنَّهُ ردَّهُ بعدَهُ إلى أخيهِ، وإنَّ ما قالَهُ سيّدي عبدُ الرَّحمنِ نفعنا اللّهُ بهما كما قالَهُ هو أعني سيّدي قاسماً رحمَهُ اللّهُ.

وكانَ هذا الشَّيخُ من المنفردين ليسَ لهُ من الأتباعِ فيما نعرفُ سوى سيّدي قاسمٍ، وكانَ لأجلِ تفردّهِ يودُّ أنْ يكونَ موتهُ دون تقدُّمِ مرضٍ ويدعو بذلك ويقولُ

" إنّي غريبٌ اللّهمَّ اجعلْ موتي كطيحةِ القُلَّةِ "

ظرفٌ معروف عندَ الناس, فاستجابَ اللّهُ دعوتَهُ وأكملَ اللّهُ مودَّتَهُ فماتَ كما طلبَ بينَما هو يوماً في جامعِ القرويين في صلاةٍ أو غيرِها إذ سقطَ إلى الأرضِ وماتَ لحينهِ فلم يشعرْ بهِ سيّدي قاسمٌ حتَّى وجدَهُ يُغسلُ.

وكانَتْ وفاتهُ في حدودِ سنةِ خمسٍ وعشرين وألفٍ ودُفنَ رحمَهُ اللّهُ خارجَ باب الجيسةِ بالقربِ منها عن يمينِ الطَّريقِ الذَّاهبةِ إلى الجيارين وقَدْ بنى عليهِ سيّدُنا أبو العبَّاسِ بإذنِ شيخهِ سيّدي قاسمٍ وفي حياتهِ قوساً وجههُ يقابلُ جبلَ زالغَ

وظهرهُ إلى المدينةِ بخلافِ الأقواسِ حولَهُ, وخرج معهُ يومَ الشُّروعِ في بنائهِ سيِّدي قاسمٌ رحمَهُ اللّهُ وحضرَ ذلكَ معهُ، وقد كنتُ نظمتُ في تاريخِ وفاتهِ مشيراً إلى تمييزِ قبرهِ ببيتينِ نقشَتهُما " مَنْ ابتغى الأجرَ في زلجٍ " بُنيَ في وجهِ القوسِ المذكورِ وهما

هذا ضريــحُ ولي اللّهِ سيِّدِنا مباركٍ مفردِ الزُّهادِ في الفاني
في نحوِ خمسٍ وعشرين وألفٍ قضى وسارَ للّهِ في رَوْحٍ وريحـانِ

والدُّعاءُ عندَ قبرهِ مستجابٌ.

حدثني بَعضُ الثِّقاتِ أنَّهُ سمعَ الشَّيخُ سيِّدي قاسماً ﷺ يقولُ قالَ لي سيِّدي مباركٌ

" إذا أردتَ قضاءَ حاجةٍ فأتِ قبري يومَ السَّبتِ قبلَ طلوعُ الشَّمسِ واستقبلِ القبلةَ ونادني ثلاثَ مرَّاتٍ تُقضى لك إنشاءَ اللّهُ "

قالَ لي ذلكَ الثِّقةُ, وقد كنتُ زماناً أدورُ على دورِ الكراء وعسرَ عليَّ وجودُ القرارِ مع العجزِ عن إعطاءِ الكراءِ[1] فضلاً عن شراءِ الدَّارِ، فزرتُ هذا الشَّيخَ كما سمعتُ من سيِّدي قاسمٍ, فما قضتْ جمعةٌ حتَّى فتحَ اللّهُ عليَّ في شراءِ الدَّارِ ببركتهِ ﷺ ".

وقد كنتُ أُنا عليَّ دَيْنٌ نحو الأربعمئةِ أوقيَّةٍ عسرَ عليَّ قضاؤهُ وأهمَّني أقتضاؤهُ فتردَّدتُ لزيارتهِ مرَّاتٍ على الوصفِ المذكورِ فجعلَ اللّهُ لي بعدَ ذلكَ مخرجاً قضى بعضَهُ وسمحَ لي في بعضهِ من غيرِ كُلفةٍ، ثُمَّ بعدَ مدَّةٍ وجدنا من التيسيرِ والحمدُ للّهِ ما لم نكنْ نعهدهُ, وقد قلتُ أيَّامَ تردُّدي إليهِ قصيدةً أذكرُ مبتدأ حاجتي واصفاً حالتي عرضتُها عليهِ بضريحهِ وهي

يا سيِّدي ياذا المقامِ العالي يا مباركَ الأقوالِ والأفعـالِ

[1] أجر المستأجر

يا نابذَ الفاني وراءَهُ رغبةً	في الواحدِ الباقي بغيرِ زوالِ
ياذا الغِنا باللهِ بينَ عبادهِ	في حالةِ الإكثارِ والإقلالِ
ياذخرَ مكتنزي وكنزَ ذخيرتي	يا درَّةَ الإعظامِ والأجـدادِ
اللهُ فضَّلَكُم بأيّ مثوبةٍ	واللهُ أكرمَكُم بخيرِ نوالِ
لي عندَ بابِ نداكَ وقفةُ سائلٍ	أدعو بجاهِكَ ربَّنا المُتعالِ
متشَّفِعاً بكُم لمَنْ أولاكم	مستدفعاً بكُم جميعَ وبالِ
وعليَّ دَينٌ هالني ولطالما	قربت منهُ بليلةِ الأهـوالِ
أودى بديني أمره وأبادني	نقضُ العهودِ وحالـةُ الإذلالِ
فعسى بجاهِكُم تنفَّسُ كربتي	وأفكُّ مَنْ لضُرّي ومِن أوجالِ
ولقد سمعنا عنكم بمقالةٍ	يسلو بِها مثلي كئيب البال
من كانَ ناداكم ثلاثاً باسمِكم	بضريحِكُم مستقبلًا في الحالِ
بغداةِ يومِ السَّبتِ قبلَ شروقهِ	قُضيتَ مأربَهُ بلا امهاري
فبجاهِ سيِّدِنا وحرمةِ شيخـهِ	تلميذُكم وبُكم يجابُ السُّؤالِ
وينيلُنا المولى رضى وكرامةً	منهُ الهدى وبه صلاحُ الحالِ
واللهُ يجزيكُم بأفضلِ ماجزا	أهلُ الولايةِ وهو ذو الأفضالِ
وعليكُم منا عبيقُ تحيةٍ	تغشاكُم بُكراً وفي الآصالِ

وأشرتُ بقولي فبجاهِ سيِّدِنا إلى سيِّدي أحمدَ بنِ عبدِ اللهِ ﷺ ورزقني محبَّتَهُ وأنالني بركتَهُ وبشيخهِ تلميذِكُم إلى سيِّدي قاسمٍ رحمَهُ اللهُ ورضيَ عنهُ.

وثانيهُم وهو سيِّدي عبدُ الرَّحمنِ بنُ مُحمَّد الفاسي ﷺ كانَ إماماً متميّزاً وعالماً كبيراً وعارفاً راسخاً وطوداً شامخاً قوِيُّ الأنوارِ فيَّاضُ الأسرارِ ممَّنْ جمعَ بين الإمامتينِ وحضيَ بالمرتبتينِ.

وُلدَ ﷺ بالقصرِ الكبيرِ في حدودِ سنةِ ثلاثٍ وسبعينَ بتقديمِ السينِ وتسعمئةٍ بتقديمِ الفَوقيَّةِ, وبالقصرِ كانَ سلفهُ رحمَهُم اللهُ، ثُمَّ انتقلَ إلى فاس مع أخيهِ لأبيهِ الشَّيخِ أبي المحاسنِ يوسفَ الفاسي ﷺ استوطنَها معهُ سنةَ ثمانٍ وثمانينَ من القرنِ المذكور وهو إذ ذاك ابنُ خمسَ عشرةَ سنةً أو نحوِها، وأخذَ في طلبِ العلمِ وتحصيلِهِ على مشايخِنا.

فأخذَ عن غيرِ واحدٍ منهُم وتخرَّجَ بالشيخِ الإمام العلَّامةَ الهمامِ قدوةِ المحقِّقينَ وعمدةِ المتَّصلين شيخِ الإسلام ومفتي الأنامِ أبي عبدِ اللهِ سيِّدي مُحمَّد بنِ قاسمِ القصَّارِ دُعيَ بهِ القيسي الغرناطي رحمَهُ اللهُ، ومهرَ في العلومِ وبرعَ في الفنونِ فكانَ إماماً فيهاً وخصوصاً الحديثُ والتَّفسيرُ ورُبِّيَ في حجرِ أخيه وشيخهِ في الطَّريقِ الشَّيخِ أبي المحاسنِ ﷺ ونفعنا بهِ.

فقرأ عليهِ وأخذَ عنهُ العلمَ في عدادِ من أخذَ عنهُم، وتأدَّبَ في أثناءِ ذلكَ بآدابهِ والتمسَ من بركاتهِ، فكانَ علمهُ وطلَّابهُ مصحوبين بالنُّورِ محفوفين بالتَّوفيقِ لايشاكلُ الطلبةَ وماهم عليهِ.

وكانَ شيخهُ القصَّارُ رحمَهُ اللهُ كثيرا ما يقولُ إذا رآه مشرفاً عليهِ

" مرحباً بحبيبٍ لايملُّ "

لِما يرى من حسنِ سيرتهِ وطيبِ سريرتهِ, واستمرَّ في حجرِ أخيه المذكورِ ومشتغلاً بالعلمِ واستفادتهِ وإفادتهِ إلى أنْ أذنَ لهُ اللهُ تكميلَهُ وتهيئتَهُ لحضرتهِ وتأهيلَهُ، وجذبَهُ إليهِ وجمعَهُ عليهِ, فبينَما هو مشتغلٌ بكَتْبِ القاموسِ عندما وصلَ إلى قولهِ فيهِ

" معَ مَن تكونُ للمصاحبةِ "

إذ نزلَ بهِ من قِبلِ أخيهِ الشَّيخِ سيّدي يوسفَ ﷺ واردٌ عظيمٌ ومددٌ جسيمٌ اقتطعَهُ عن حِسّهِ ومألوفهِ أبناءِ جنسهِ فلم يُكملِ الكتابَ المذكورَ ولم يبقَ فيهِ متَّسعٌ لِما كانَ يسعَهُ قبل ذلكَ.

قالَ سيّدي مُحمَّد بنُ عبدِ اللهِ ﷺ

" نزلَ بسيِّدي عبدِ الرَّحمنِ واردٌ عظيمٌ وحالٌ قَوِيٌّ فكانَ يقولُ الشَّيخ سيّدي يوسف رحمَهُ اللهُ أخي عبد الرَّحمنِ لولا أنَّهُ حصلَ بيدِ المعلِّمِ يعني نفسَهُ لكانَ ممَّنْ تبوَّلَ على ساقِهِ"

يعني مثلَ البهاليلِ لكثرةِ ما نزلَ بهِ وغيبتِهِ فيهِ.

وكانَ الشَّيخُ سيّدي يوسفُ ﷺ مهتَّماً بهِ وصارفاً عنانَ العنايةِ إليهِ يربِّيهِ ويرَّقيهِ ويؤدِّبهُ ويهذِّبهُ إلى أنْ تكمَّلَ وتخرَّج بهِ, ومدَّةُ ملازمتهِ لهُ على طريقِ الإرادةِ والتَّحكيمِ ثلاثةٌ وعشرون سنةً، وقد صرَّحَ هو بذلِكَ فقالَ

" إنَّ بَعضَ النَّاسِ لا يلازمُ الشَّيخَ ويمرُّ عليهِ مرورَ الغرابين بسبتةَ "

مثلٌ يُضربُ بهِ عندَ النَّاسِ لسرعةِ الإشغالِ وعدمِ طولِ الإقامةِ.

ثُمَّ يقولُ

" شيخي وأنا ما جلستُ هذي الجلسةَ يعني التَّصدي للمشيخةِ بعدَ سيّدي يوسفَ حتَّى جالستُ أخي سيّدي يوسف كذا و كذا "

وذكرَ المدَّةَ المذكورةَ، وكانَ بعد وفاةِ سيّدي يوسفَ يجلسُ بجامعِ القرويينَ ومعهُ سيِّدي مُحمَّد بنِ عبدِ اللهِ وهو أوَّلُ مَنْ تبعَهُ وعرفَ خلافتَهُ بعدَ وفاةِ سيِّدي يوسفَ، ثُمَّ جعلَ النَّاسُ من أصحابِ أخيهِ وغيرِهِ يأتونَ إليهِ واحداً واحداً ويجتمعون عليهِ هنالك حتَّى كثروا ثُمَّ انتقلَ عنها لسببٍ اقتضى ذلكَ, فجلسَ لأصحابِهِ بالمسجدِ المجاورِ لدارِهِ وهو المسجدُ المغلقُ الذي بوادي الشُّرفاءِ من فاسِ القروينَ، وابتدأ أصحابهُ قراءةَ الأحزابِ هنالك ثُمَّ أذنَ ببناءِ الزَّاويةِ فبناها ببابِ حومةِ القلقيين أمامَ دارِهِ وحولَ المسجدِ المذكورِ سنةَ سبعٍ وعشرين وألفٍ.

وقيل لهُ يوماً إنَّ فلاناً رجلٌ من أهلِ الرِّياسةِ والفسادِ يريدُ هدمَها لِما يرى من عزةِ أهلِ ناحيتِها بسببِها فقالَ ﷺ

" إذا أنا بنيتُها فاللهُ يُعطيها الهدمَ " يشيرُ ﷺ إلى

﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾[1]

وكانَ يجلسُ فيها لنشرِ العلمِ وأقرائِهِ وتربيةِ أصحابهِ وفقرائِهِ، فأفادَ الطريقينِ ونفعَ الفريقينِ، فكانَ يقرأ فيهما الحديثَ والتَّفسيرَ والتَّصوفَ وغيرَ ذلكَ ويُفردُ لأصحابهِ المنتسبينَ إليهِ مجلساً يدلُّهم فيهِ على اللهِ ويرشدُهم إليهِ ويبثُّ فيهم ما منحَهُ اللهُ من الأنوارِ والمعارفِ، وكانَ يظهرَ عليهِ دائماً أثرُ الغيبةِ والفيضانِ حتَّى يكون كهيئةِ الثَّملِ والنَّشوانِ، ولم يكنْ يقعُ لهُ تحرُّكٌ ولا سيَّماء, وكانَ يقولُ بهِ يشير **يعني**

" سيِّدي يوسفُ أمكنُ منِّي وأنا استولتْ عليَّ الحقيقةُ "

وكانَ جمالياً فكانَ أصحابهُ يُكثرونَ السِّماعَ ويستعملونَهُ بمحضرهِ وتطيبُ فيهِ أوقاتُهم، وكانَ يعجبهُ منهُ كلَّما أشارَ إلى الوحدةِ والتَّحقيقِ.

ولَهُ ﷺ كلامٌ بديعٌ في الطَّريقِ وأشاراتٌ عاليةٌ وحِكمٌ ساميةٌ لا يسعُنا إيرادُها وتتبُّعُها وتعدادُها وأكثرها مبثوثٌ في تصانيفهِ.

وخرجَ ليلةً على أصحابهِ وهُمْ بالزَّاويةِ فقالَ لهُمْ

" أتدرونَ على أيِّ شيءٍ يصحبُ النَّاسُ المشايخَ " ؟

فقالوا

" لا ياسيِّدي ".

فقالَ

" على أنْ يصحبُوهم معَ قدرِ اللهِ "

يعني يرضونَهم على الرِّضا بأحكامِ اللهِ حتَّى يكونَ مرادُ اللهِ هو مرادُهم.

---

[1] . الكهف (82)

وذهب مرَّةً هو والقاضي العلاَّمةُ أبو القاسمِ بنِ أبي النَّعيم رحمهما اللهُ إلى فاس الجديد بقصدِ الإصلاحِ بين صاحبها وبين أهلِ فاس فقالَ لهُ القاضي المذكورُ وقد علمَ منهُ أنَّهُ من القوَّةِ في اللهِ والصَّدعِ بالحقِّ

" يا سيِّدي لاطفْ هذا الرَّجلَ "

وتلا عليهِ

﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾[1]

فقالَ لهُ سيِّدي عبدُ الرَّحمنِ

" ذلك مقامٌ موسوي ومقامُنا نَحنُ مُحمَّدي " وتلا عليهِ

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[2].

واجتمعَ معهُ يوماً رجلٌ متفقِّرٌ لهُ شيخٌ فسألَهُ

" بمَ يأمرُكم شيخُكم "؟

فقالَ لهُ

" بالسِّبحيةِ واللَّوحيةِ ".

فقالَ سيِّدي عبدُ الرَّحمنِ

" ليسَ الأمرُ هنالك ولكنْ خالطْ المُبتلينَ تُبتلى ".

وصدقَ ﷺ فإنَّ الأمرَ في الحالِ لا في المقالِ.

ولهُ ﷺ كراماتٌ كثيرةٌ ذكرَها يطولُ, وكانَ في زمنهِ فترةُ شُرورٍ تقع فيما بينَ أهلِ المدينةِ ممَّا يكونُ سببُهُ تمرَّدُ بعضُ الظَّلمةِ من أهلِها، فكان كثيراً ما يصلحُ اللهُ أمرَهم على يدهِ، وإذا آذاهُ أحدٌ بلسانهِ أو أبى إلَّا إذايةَ المسلمين انتقمَ اللهُ منهُ على يدهِ.

ولقد قالَ مرَّةً

---

1. طه (44)
2. الكهف (29)

" اتَّفقَ لي معهُم كما يتَّفقُ للعقربِ تقع في مزودٌ مملوءٌ جراداً تلسعُ حتَّى تملَّ ".

ولمَّا مرضَ مرضَهُ الذي تُوفيَ فيهِ أخبرَ أنَّهُ يموتُ منهُ.

وقالَ

" قيل لي عبدُ الرَّحمنِ يسكنُ الجِنانَ "

فماتَ منهُ كما أخبرَ وكانتْ وفاتهُ ﷺ آخرَ ليلةِ الأربعاءِ السَّابعِ والعشرين من ربيعِ الأوَّلِ عامَ ستٍّ وثلاثين وألفَّ ورمزَ لوفاتهِ في قصيدتهِ التَّاريخيةِ الفقيدُ الأديبُ أبو عبدِ اللهِ المكلاتي يتلو من قولهِ

أبو زيدٍ الفاسي يشكوك معظَّمٌ رثاهُ حديثُ المُصطفى بمسلسلِ

وثالثُهم وهو سيِّدي مُحمَّد بنُ عبدِ اللهِ والدُ سيّدِنا أحمدَ نفَعَنا اللهُ بهِ كانَ أيضاً إماماً شهيراً وصدِّيقاً خطيراً وشيخاً واصلاً وعارفاً كاملاً ووارثاً ربَّانياً ومربياً رحمانياً وراسخاً مكيناً ونوراً مبيناً ممَّنْ كمُلَ في الحقيقةِ والشَّريعةِ وحظيَ فيهما بالرُّتبةِ الرَّفيعةِ، حجَّةٌ من حججِ اللهِ وآياتهِ في إحياءِ السُّنَّةِ والدِّينِ واتِّباعِ غاياتهِ وقد ذكرنا ما تيسَّرَ من التَّعريفِ بهِ فيما تقدَّمَ حين تعرَّضنا في البابِ الأوَّلِ لذِكرهِ فأغنى ذلك عن أعادتهِ هنا.

وقد صحبَ سيِّدي قاسمٌ رحمَهُ اللهُ الشَّيخَ سيِّدي مُحمَّداً بنَ عبدِ اللهِ كما تقدَّمَ منذُ أذنَ لهُ بالتَّصدُّرِ لترقيةِ المريدينَ ونفعِ المقتدين إلى أنْ تُوفيَ وذلك من سنةِ ثمانيةٍ وثلاثين من هذا القرنِ إلى سنةِ أثنين وستين, أربعٌ وثلاثون سنةً.

وصحبَ الشَّيخَ سيِّدي عبدَ الرَّحمنِ بنَ أحمدَ الفاسي ﷺ قبلَ ذلك عشرَ سنينَ, والذي قبلَهُ بضعُ سنينَ فكانت مدَّةَ صحبتهِ بجميعِهم من أوَّلِها إلى آخرِها نيفاً وأربعين سنة، وكان أمرُ بقائهِ هو خليفةٌ بعد سيِّدي مُحمَّد بنِ عبدِ اللهِ نيفاً وعشرين سنةً وعمرهُ يزيدُ على الثَّمانين.

شُيوخُ شيخه ﷺ تبرّكاً

وأمَّا الذين أخذَ عنهُم سيّدي قاسمٌ رحمَهُ اللهُ تبرُّكاً واستفادةً واتِّباعاً فهُم كثيرٌ وكان يقولُ غيرَ ما مرَّةٍ أنَّهُ لقيَ ستاً وعشرين شيخاً ويسمِّيهم وربَّما يعدُّهُم في سبحتهِ فيذكرُ عدداً من المعروفين أدركَ هو وقتَهم ما بينَ ذوي أحوالٍ وبهاليلٍ.

منهُم الشَّيخُ الولي الشَّهيرُ أبو سرحانٍ سيّدي مسعودٌ بنُ مُحمَّد الشرَّاطِ دفينٌ خارجَ بابِ الجيسةِ لقّبَ بالشرّاط لاحترافهِ بذلك في صغرهِ, وكان أسمرَ جداً مقعداً بهلولاً ساقطَ التَّكليفِ، وكان غائباً في النَّبي ﷺ, فكانَ إذا غلبَ عليهِ الوجدُ يقولُ

" أنا مسعودُ رسولِ رسولِ اللهِ ﷺ "

بإضافةِ مسعودٍ إلى رسولِ ويُكرِّرُها, واشتغلَ عندَهُ يوماً رجلٌ بالسِّماعِ فلمَّا ذكرَ قولَ القائلِ

" ماتجني العسلَ إلَّا بنارٍ "

تواجدَ وقامَ على ركبتيهِ وضربَ بكفِّهُ على الآخَرِ وقالَ إنِّي صادحاً بها صدق الله العظيم

﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾[1].

وذكَرَ بعضُ النَّاسِ يوماً أمامَهُ بعضَ الأكابرِ من الأولياءِ معبِّراً عنهُ بالسُّلطانِ فقالَ

" أنا هو السُّلطانُ أنا هو السُّلطانُ "

[1] . آل عمران (92)

وجعلَ يكرّرُها, ولَهُ ﷺ كراماتٌ شتى ومكاشفاتٌ كثيرةٌ ولهُ شهرةٌ واتباعٌ.

زارَهُ سيِّدي قاسمٌ رحمَهُ اللهُ, دخلَ عليهِ يوماً وجلسَ أمامَهُ فقالَ لهُ

" أدنُ منِّي ". فقالَ لهُ سيِّدي قاسم

" لا " وأشارَ بيدِهِ.

فقال لهُ ثانياً " أدن منِّي ".

فقالَ " لا "

وتكرَّرَ ذلكَ منهُ، وكلمَّا قالَ لهُ أدن أجابَهُ سيِّدي قاسمٌ أنْ لا.

فجعلَ أصحابهُ الحاضرون يتعجَّبون ويقولون لسيِّدي قاسمٍ

" أدنُ إلى الشَّيخِ ".

فلمَّا لم يفعلْ قالَ لهُ سيِّدي مسعودٌ قُلْ

" لا اله إلَّا الله ".

فقالَها ثُمَّ أعاد ما عليهِ ثانياً فقالَها، ثُمَّ قالَها كذلك، فلقنَّهُ إيَّاها ثلاثَ مرَّاتٍ وكان ذلك هو مراده

سمعتُ سيِّدَنا أحمدَ ﷺ يقولُ

" إنَّما قالَ سيِّدي مسعودٌ لسيِّدي قاسمٍ أدنُ لأنَّهُ أرادَ أنْ يختبرَ مرادَهُ هل جاءَ للهِ أو طامعاً فيهِ, فلمَّا علمَ هدفَهُ وأنَّ مجيئَهُ للهِ لا إليهِ لقَّنَهُ كلمةَ التَّوحيدِ ولو جاءَهُ حين ناداهُ لضربهِ على عادتهِ في بعضِ الأحيانِ مع بعضِ النَّاسِ ولم يلقِّنْهُ شيئاً "

توفيَ ﷺ يومَ الأربعاءِ سادسَ عشرَ جمادي الثَّانية سنةَ احدى وثلاثين وألفٍ ولم يتركْ عقباً وكانَ قد تزوَّجَ.

ومِنهُمْ الشَّيخُ الولي الجليلُ أبو الحسنِ سيِّدي علي بنُ داودَ المرنيسي التسولي دفينُ مرنيسة على نهرِ ورغةَ لهُ شهرةٌ عظيمةٌ بتِلك النَّاحيةِ ولهُ كراماتٌ كثيرةٌ شهيرةٌ, كان ﷺ منعزلاً عن النَّاسِ مختفياً عنهُم لا يراهُم ولا يرونَهُ, دخلَ بيتاً بطرفِ مسجدِ مرنيسة وأغلقَهُ عليهِ ولزمَهُ فكان لا يخرجُ منهُ إلَّا إذا خرجَ

للمسجدِ الذي ذلكَ البيتُ فيهِ في بعضِ الأحيانِ بعدَ أنْ تُغلقَ أبوابهُ, وكان لهُ صاحبٌ يلازمُ خدمتَهُ فكانَ يناديهِ لقضاءِ ما يحتاجهُ ويكلمُّهُ من وراءِ البابِ، وكان يبلغهُ أخبارُ الزَّائرينَ ويُعلِمهُ بحوائجِهم فيجيئهُ من وراءِ البابِ أيضاً، ولا يتكلَّمُ معهُ أحدٌ من النَّاسِ إلَّا كذلك, ذلكَ دأبهُ إلى أنْ ماتَ, ومدَّةَ مكثهِ كذلك خمسٌ وعشرون سنةً.

زارَهُ سيِّدي قاسمٌ في زمنِ شيخهِ سيِّدي مباركٌ ومكثَ هنالك شهراً، فلمَّا أرادَ الإيابَ قالَ لهُ

" يا سيِّدي إنِّي تركتُ شيخي ووالدتي حيَّينِ ولا أدري الآنَ ما خبرهُما وإنَّ في الطَّريقِ اللُّصوصَ والبلادُ مخوفةٌ "

فقالَ لهُ

" ستجدُ شيخَكَ ووالدتُكَ حيَّينِ وما أنت في ذمَّتي لا يضرُّكَ في الطَّريقِ شيءٌ"

فودَّعَهُ وانصرفَ, فلمَّا كانَ بالطَّريقِ ذاهباً لقيَه رجلاً من اللُّصوصِ بيدهِ رمحٌ فقصدَ الرَّجلُ إليهِ وقالَ لهُ من أينَ جئت؟

فقالَ من عندِ سيِّدي علي بن داود، فهدَّدَهُ بالرُّمحِ، وقالَ مكذِّباً له

" كلُّ مَنْ يأتي يقولُ جئتُ من عند سيِّدي علي بن داود "

وعزمَ على الفتكِ بهِ, ثُمَّ أنَّهُ رجعَ القهقرى ووقف متكئاً على رمحهِ يفكِّرُ ثُمَّ ضربَ على جبهةِ نفسهِ وقالَ

" على رأسي يا أخي سِرْ "

وكرَّرَها فنجا منهُ ولم يلقَ بعدَهُ كيداً, ولمَّا قدمَ مِن عندهِ وجدَهُ ووالدتَهُ حيَّينِ كما أخبرَهُ, تُوفيَ ﷺ في حدودِ سنةِ اثنين وعشرين وألفٍ.

ومنهُم الشَّيخُ الولي الجليلُ أبو عبدِ اللهِ سيِّدي مُحمَّد بن سعيد الكومي دفينُ القليعةِ داخلَ بابِ الفتوحِ من بني كومي, كانَ كوشا عميَ آخرَ عمرهِ, لهُ

أصحابٌ وأتباعٌ، وكانَ ذا سمتٍ ووقارٍ وقبولٍ واشتهارٍ، ظهرتْ لهُ كراماتٌ وخوارقُ عاداتٍ ومكاشفاتٌ وإخبارٌ بالمغيباتِ، ويؤثَرُ عنهُ كلامٌ وحِكَمٌ, يستعملُ أصحابهُ السِّماعَ كُلَّ جمعةٍ ويتحرَّكون وتظهرُ وعليهم أحوالٌ، وكانَ متوسِّماً بالشَّريعةِ عاملاً بالسَّنةِ محفوظةٌ عليهِ أوقاتهُ.

لقيَهُ سيّدي قاسمٌ غيرَ مرَّةٍ وتبرَّكَ بهِ وزارَهُ يوماً بعدَ قدومهِ من عندِ سيّدي علي بنِ داودَ المتقدِّمِ، فلمَّا دخلَ عليهِ وجلسَ عندَهُ ولم يرَهُ لكونهِ ضريراً قالَ

" مرَّتْ رائحةُ سيّدي علي بنِ داودَ "

ثُمَّ قالَ

" أفيكم مَن أتَى من عندهِ "

فسكتَ سيّدي قاسمٌ، ثُمَّ أعادَها ثانياً، فسكتَ أيضاً، ثُمَّ ثالثاً فقالَ لهُ

" أنا ياسيّدي ".

تُوفيَ ﷺ في حدودِ سنةِ ستٍ وعشرين وألفٍ.

ومنهُم الشَّيخُ الولي الشَّهيرُ الجليلُ القدرِ العظيمُ الخطرِ المتَّفقُ على ولايتهِ وعلوِّ مرتبتهِ وجلالتهِ أبو الفيضِ سيّدي عبدُ الجليلِ المدعو جلول دفينٌ داخلَ بابِ الجيسةِ, كان رجلاً مجذوباً هائماً صوَّاماً غائباً في اللهِ فانياً عمَّا سِواهُ دائمُ الغيبةِ بهلولاً ساقطَ التَّكليفِ تعتريهِ الأحوالُ ويتولَّهُ دائماً وتصدرُ منهُ صيحاتٌ ويقولُ في بعضِ الأوقاتِ

" أنصروا جلولا "

ويُكرّرُها ثُمَّ يقولُ

" أنصروا مولاي جلولا "

ويُكرّرُها ثُمَّ يقولُ هو بلسانهِ

" اللهُ ينصرُ جلولا اللهُ ينصرُ مولاي جلولا اللهُ ينصرُ السُّلطانَ جلولا ".

وكان يقولُ

" أطلبوا اللهَ في حياةٍ بابا جلولا فإنَّهُ ماكيدةُ الغربِ "

يعني عمدتهُ ويقولُ في بعضِ الأوقاتِ

" يابا جلول ياجوهرةً في أخراصي، يابا جلولا ياعمامةً فوقَ رأسي ".

وكان الشَّيخُ الإمامُ العارفُ باللهِ أبو مُحمَّد عبدُ الرَّحمنِ بنُ مُحمَّد الفاسي ﷺ يثني عليه ويعترفُ بعلوِّ قدرِهِ ويقولُ

" إنَّهُ رجلٌ قَوِيٌّ "

ولهُ ﷺ كراماتٌ شهيرةٌ ومكاشفاتٌ كثيرةٌ وتصرُّفاتٌ كبيرةٌ، تكلَّمَ على الخواصِ وينبئُ عن الضَّمائرِ وربَّما يضمنُ من أستضمنَهُ في أمرٍ من الدُّنيا والآخرةِ فيظهرُ مصداقُ ذلكَ وأمرهُ, وكان لهُ أتباعٌ، وكان سيِّدي قاسمٌ يتردَّدُ إليهِ ويزورهُ، وكانَ إذا جلس قدَّامَهُ فصاحَ لم يتمالكْ سيِّدي قاسمٌ أنْ يصيحَ معهُ تُوفيَ ﷺ عند طلوعِ الشَّمسِ من يومِ الخميسِ السَّابعَ عشرَ من شوَّالٍ سنةَ ستٍّ وثلاثين وألفٍ, ولم يكنْ تزوَّجَ ولا وُلِدَ لهُ.

ومنهم الشَّيخُ الولي الشَّهيرُ الجليلُ الخطيرُ أبو عبدِ اللهِ سيِّدي مُحمَّد حكيمٌ بهِ عُرفَ الأندلسي دفينُ روضةِ سيِّدي أبي زيدٍ الهزميري, كان رحمَهُ اللهُ صاحبُ فيضٍ وتعتريهِ أحوالُ الجذبِ دائماً ويتحرَّكُ ويتواجَدُ ويصيحُ ويهيمُ وتظهرُ عليهِ الغيبةُ، وكان مع ذلك محافظاً على الشَّريعةِ واقفاً على حدودِها لا يُخلُّ بشيءٍ من التَّكاليفِ الشَّرعيَّةِ, يقرأ القرآنُ, وكان كثيرَ المكاشفاتِ والأخبارِ بالمغيباتِ, ينطقُ بها عندَ غلبةِ الحالِ عليهِ وتارةً دون ذلكَ, وكان الشَّيخُ أبو مُحمَّد سيِّدي عبدُ الرَّحمنِ بنُ مُحمَّد الفاسي يقولُ

" أنَّ مردَّهُ من القرآنِ ".

لقيَهُ سيِّدي قاسمٌ مراراً وتبرَّكَ بهِ, تُوفيَ رحمَهُ اللهُ سنةَ سبعٍ وعشرين وألفٍ وتركَ ولداً ماتَ ولم يخلفْ عقباً إلَّا من البناتِ.

ومنهم الشَّيخُ الولي العظيمُ أبو مُحمَّد عبدُ اللهِ الَدروي المعروفُ بالحدادِ دفينٌ خارجَ بابَ الفتوحِ قربَ روضةِ الولي سيِّدي علي حماموش, كان رحمَهُ اللّهُ قوي الحالِ غزيرهُ ملامتيا، تصدرُ منهُ أمورٌ لا يُفهمُ ظاهرُها، وكان من أهلِ الخطوةِ والطَّيرانِ في الهواءِ، ولهُ كراماتٌ ومكاشفاتٌ.

لقيَهُ سيّدي قاسمٌ مراراً وتبرَّكَ بهِ، وكان يوماً أعني سيّدي قاسماً جالساً بحانوتهِ بالقراقين المقابلةِ للقرويين فرأى سيّدي عبدَ اللهِ ماراً بجامعِ القرويين فاستعظمَ أمرَهُ وقوَّةَ حالهِ وجعلَ ينظرُ إليهِ ويستحسنهُ ويقولُ في نفسهِ

" ما أقواكَ يا رجلُ "

أو كلمةً نحوَها فكاشفَهُ بذلك وأتاهُ من القرويين حتَّى وقفَ عليهِ ببابِ الحانوتِ وقالَ لهُ

" ياأخي قلبُك مِرآك كيفَ تراني أراك "

تُوفيَ رحمَهُ اللّهُ في أواخِرِ العشرةِ الرابعةِ من هذا القرنِ.

ومنهم الشَّيخُ الولي الجليلُ الشَّهير أبو الحسنِ سيّدي علي الهيري الوارثيني دفينُ مسجدِ الفخَّارين داخلَ بابِ الفتوحِ, كان ﷺ قَوِيُّ الحالِ فائضُ النُّورِ متوسِّما بالشَّريعةِ حافظاً لها ذا هيبةٍ وجلالةٍ، وتعتريهِ أحياناً غيبةٌ حتَّى يسألَ عن دارهِ أينَ هي؟

لهُ أتباعٌ وتلامذةٌ ولهُ مكاشفاتٌ وإخبارٌ بالمغيباتِ وكراماتٌ, لقيَهُ سيّدي قاسمٌ مراراً وانتفعَ بهِ، وكان يثني عليهِ ويقولُ

" إذا رأيتهُ رأيتَ جبلاً من نورٍ "

أو كلاماً هذا معناهُ, تُوفيَ رحمَهُ اللّهُ في حدودِ سنةِ سبعٍ وعشرين وألفٍ ولهُ عقبٌ.

ومنهم الشَّيخُ الولي الجليلُ أبو مُحمَّد سيّدي عبدُ العزيزِ المدعو عزُّوزادَ اللهِ أي الذي للهِ, دفينُ رأسِ الجنانِ من فاس القرويين, كان من أهلِ الإغاثةِ

والخطوةِ ولهُ مكاشفاتٌ وكراماتٌ, لقيَهُ سيّدي قاسمٌ مراراً, تُوفيَ رحمَهُ اللّهُ في شهرِ ربيعِ الثَّاني سنةَ أحدى وثلاثين وألفٍ ولم يتزوجْ، وقبرهُ ظاهرٌ يزارُ مجرَّبٌ لقضاءِ الحاجاتِ.

ومنهم الشَّيخُ الولي الشَّهيرُ أبو عمران سيّدي موسى دفينُ جامعِ حومةِ جرنيز من فاس القرويين, كان رحمَهُ اللّهُ أسمرَ جداً بهلولاً ساقطَ التَّكليفِ، وكان آخرَ عمرهِ يأوي بحانوتِ بجرنيز مغلقٌ عليهِ بابهُ لا يخرجُ منهُ، يقصدهُ النَّاسُ فيهِ للزيارةِ ويأتونَهُ بالطَّعامِ كُلَّ يومٍ فيأكلهُ هناك, ولمَّا ماتَ لم يُرَ لهُ فيهِ فضلةٌ ولَهُ مكاشفاتٌ كثيرةٌ وكراماتٌ غزيرةٌ، يخبرُ بِما في الضمائرِ وينبئُ عن السَّرائرِ كان يعدُّهُ سيّدي قاسمٌ فيمن لقيَهُ, تُوفيَ يومَ الأربعاءِ ثاني جمادي الآخرةِ سنةَ إثنين وأربعين وألفٍ.

ومنهم الشَّيخُ الولي الخطيرُ أبو عبدِ اللهِ سيّدي مُحمَّد أكمكام بكافين معقودين دفينُ روضةِ الولي سيّدي علي أبي الذياب بحومةِ العيونِ من فاس القرويين كان رحمَهُ اللّهُ رجلاً كوشا ذا سمةٍ بهيَّةٍ وأحوالٍ سنيَّةٍ وتصريفاتٍ وكراماتٍ جليَّةٍ, لقيَهُ سيّدي قاسمٌ غيرما مرَّةٍ, تُوفيَ رحمَهُ اللّهُ في العشرةِ الخامسةِ من هذا القرنِ.

ومنهم الشيخ أبو عبدالله مُحمَّد الخلطي دفين روضة سيّدي مسعود الدراوي, كان رجلاً بهلولاً ملامتياً له كرامات ومكاشفات, كان يعده سيّدي قاسم ممن لقي من أهل الأحوال.

توفي يوم الأحد الموفي ثلاثين من المحرم سنة ستة عشر وألف.

ومنهم الشيخ أبو زكريا يحيى البهلول الذي كان بقرية أزرو, وكان يدعى بواد يحيى وكان يجلس مع السباع ويأوي اليهم.

لقيه سيّدي قاسم مرات عديدة بالقرية المذكورة وتبرك به, وكان من عادته مع سيّدي قاسم أنه إذا كان سيّدي قاسم بقرية أزرو يجمع له خبزاً ويعطيه إياه

فيعلم سيِّدي قاسم أنه ذاهب الى فاس وأن ذلك الخبز زاده ثم يقع له ذلك كما أشار اليه.

ومنهم الولي الشهير سيِّدي يدير ابن مُحمَّد الجراري دفين التيالين من فاس, كان رجلاً بهلولاً تعتريه أحوال دائماً وينطق بمغيبات وتظهر عليه مكاشفات فتقع كما أخبر.

توفي سنة اثنين وأربعين وألف.

وممَّنْ لقيَهُ أيضاً سيِّدي قاسمٌ رحمَهُ اللهُ الشَّيخُ الولي الشَّهيرُ الجليلُ الخطيرُ أبو الحسن سيِّدي علي بنُ رزقٍ المدعو سيِّدي علي ورزق بالواو, عوض ابن على لغة البربر وبالقاف المعقودة, دفينُ خارجَ بابِ السَّبعِ من فاس الجديدِ بناحيةِ سوقِ الخميسِ.

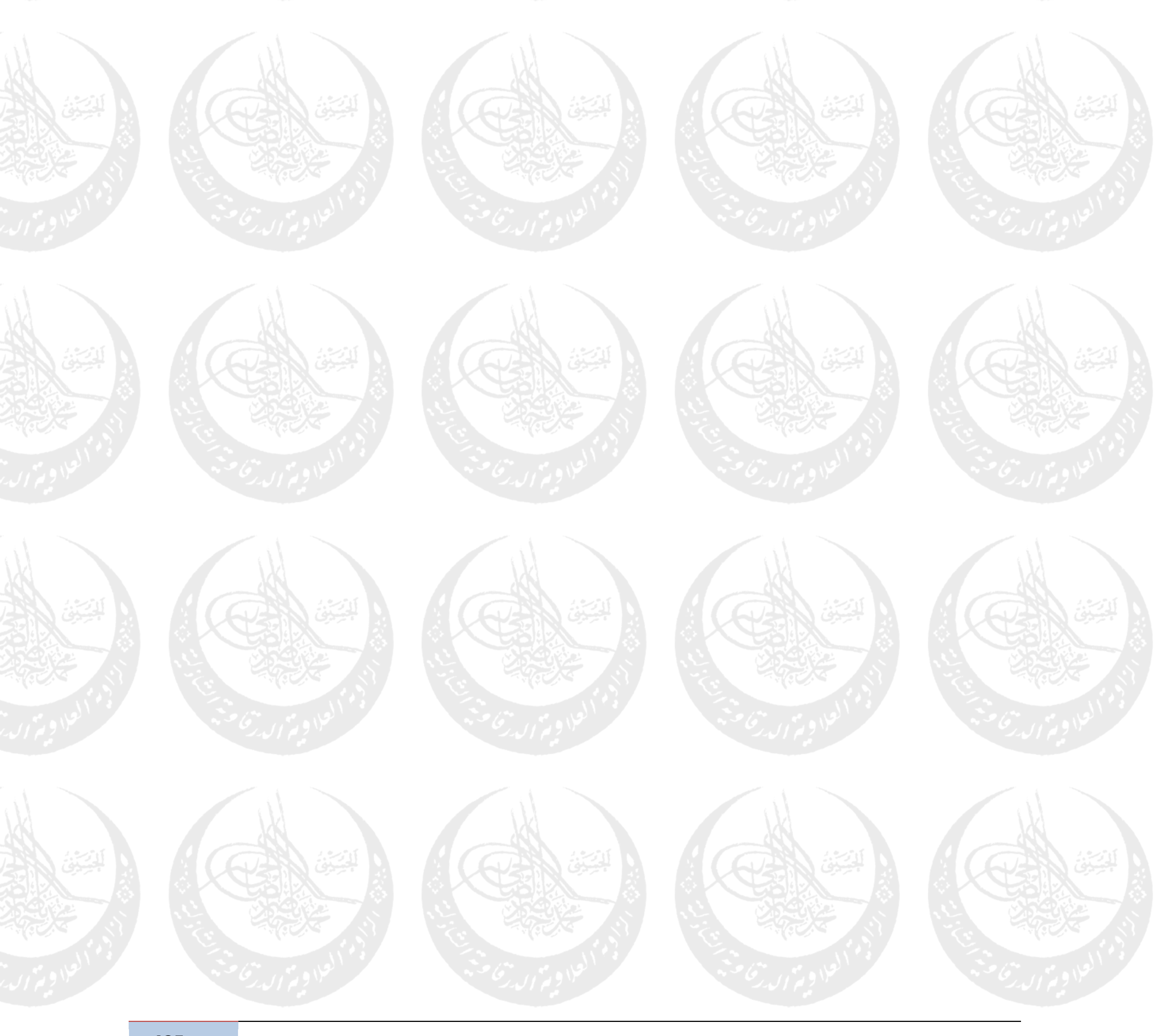
كان رحمَهُ اللهُ رجلاً مجذوباً غائباً في التَّوحيدِ قَوِيُّ الحالِ، أخبرَ عنهُ سيِّدي مُحمَّد بنُ عبدِ اللهِ والدِ سيِّدِنا أحمدَ رضيَ اللهُ عنهُما بذلك، وأخبرَ عنهُ أنَّهُ كان يوماً بجامعِ القرويين فرآهُ بِها، فلمَّا نظرَ إليهِ أخبرَ بهِ كأنَّهُ أحرقَهُ من قوَّةِ حالهِ.

ولهُ كراماتٌ شهيرةٌ وآياتٌ منيرةٌ، ولهُ أتباعٌ وأصحابٌ، وكان ملامتياً تصدرُ منهُ أمورٌ يُنكَرُ ظاهرُها, لقيَهُ سيِّدي قاسمٌ وهو صغيرٌ فضربَ على ظهرهِ, تُوفيَ رحمَهُ اللهُ مُهَلَّ صفرٍ سنةَ خمسَ عشرةَ وألفٍ.

فهذا ماتيسَّرَ من التَّعريفِ بأشياخِ سيِّدي قاسمٍ ﷺ ممَّنْ كان في عصرهِ واستفادَ منهُم وعلى يديهِم خيراً ومدداً، أمَّا بزيارة أو بمجرد ملاقات في الطَّريق إذ كان ﷺ في غاية من القابلية لذلك والاستعداد لماهنالك, ذا عناية عظيمة بهذا الشأن وهِمَّة فيهِ عليهِ متعطشاً لهُ غاية فقَلَّما يلقى احداً إلَّا نال منهُ حالا واستفاد منهُ فائدة من فوائد القوم وبِذلِكَ عدّهم من أشياخه وممَّنْ أخذَ عنهُم.

وقد كان يذكرُ عنهُم حكاياتٌ وقعتْ لهُ معَهُم وآياتٌ لم أوردْها هنا لطولِها ولم أستوفِ التَّعريفَ بمَنْ ذكرَهُ منهُم بل اقتصرتُ على ما تقدَّمَ اختصاراً وإلَّا

فمآثرُهم ﭬ كثيرةٌ وأخبارُهم شهيرةٌ، وقد أدركنا غيرَ واحدٍ من الفضلاءِ ممَّنْ أدركَهُم وعلمَ أخبارَهُم، وكلُّهُم أخذَ عنهُم سيّدي قاسمٌ ﭬ على سبيلِ الاستفادةِ والتَّبرُّكِ ولم يلازمْ إلَّا الثَّلاثةَ الأوَّلين الذين هُمْ عمدتهُ ولا أنتسبَ إلَّا لهُم ولا عوَّلَ إلَّا عليهم كما أسلفنا، وبهم تخرَّجَ ﭬ أجمعين ونفعنا بِهِمْ وحشرَنا في زمرتِهم آمين.



البابُ الحادي عشرَ في أسانيدِ طريقهِ وتحريرِ رفعِها وتحقيقهِ

أعلمُ أنَّ طريقَ سيّدِنا أحمدَ وطريقَ شيخهِ رضيَ اللهُ عنهُما طريقةٌ مجذوبيَّةٌ ذاهبةٌ على سرِّ العرفانِ والمحبوبيَّةِ من معرفةِ اللهِ وكمالهِ وجلالهِ وجمالهِ وصفاتهِ العلى وأساميهِ الحسنى، دائرةٌ على الجذبِ والفنا ومحوِ السِّوى وخلوصِ التَّوحيدِ وكمالِ التَّجريدِ والغيابِ والشُّهودِ والغيبةِ في المعبودِ ومشاهدةِ أنَّ الحبَّ وكلَّ خيرٍ جزيلٍ من مالكِ الملوكِ لا منَ العبيدِ.

إذ هي طريقةُ الشَّيخِ المجذوبِ ومنهلهُ الذي كان منهُ الشِّربُ والمشروبُ الذي هو آخرُ المجذوبينَ الأقوياءِ في اللهِ وخاتمةُ المحبوبين الأغنياءِ باللهِ، فلا جرمَ أنَّها مشتملةٌ على ذلكَ ومتضمنةٌ لكلِّ ما هنالك, وفتْحُ التَّابعِ على قدرِ المتبوع وسرورُ الرَّائي والسَّامعِ على قدرِ المرئي والمسموعِ، وهذه الطَّريقُ هي طريقُ ولادتِهما الرُّوحانيةِ ومنبعُ أسرارِهما النُّورانيّةِ ومسيرُ تربيتِهما وممرُّ سيرتِهما وراثةً وانتقالاً واتصافاً وحالاً وسَيْراً وفعلاً، وقد زادَها الشَّيخُ أبو المحاسنِ الفاسي ﷺ كمالَ تربيةٍ وتهذيبٍ ورياضةٍ معنويةٍ وتدريبٍ, إذ كان إماماً مكيناً ونوراً مبيناً جامعٌ بينَ الإمامتينِ وتمامُ الحالتينِ قد كملَتْ فيهِ المحاسنُ بوراثةِ العِلمينِ الظَّاهرِ والباطنِ.

سَيْرُهُ مقرونٌ بحزمِهِ، وسرُّهُ مصونٌ بعلمِهِ، منبسطاً على بساطهِ ومرتبطاً برباطهِ، فهو كما قالَ فيهِ شيخهُ المجذوبُ

" مصباحُ الأمةِ وغزالُ زمانهِ ".

وكما قالَ فيهِ تلميذهُ الشَّيخُ سيّدي مُحمَّد بنُ عبدِ اللهِ أنَّهُ آخرُ الشُّيوخِ إذ ذاك بالمغربِ وموسومٌ بالقطبانيةِ في أوانهِ، وهو ﷺ المُمهِّدُ لهذهِ الطَّريقةِ المجذوبيةِ بفاس اذ كان الأصلُ لها والأساسُ لا مؤسِّسَ لها سِواهُ، ولا مُمهِّدَ لها عداهُ، جاء بها غضَّةً طريَّةً وتركَها بيضاءَ نقيَّةً، فهو شيخُ الجماعةِ وشيخُ الشيخينِ سيّدي

عبدِ الرَّحمنِ بنِ مُحمَّد الفاسي، وسيّدي مُحمَّد بنِ عبدِ اللهِ الذينِ هُما شيخا سيِّدي قاسمٍ الذي هو شيخُ سيِّدِنا أحمدَ, فطريقتُهما مجذوبيةُ الباطنِ يوسفيةُ المحاسنِ رضيَ اللهُ عن جميعِهم ورزقَنا بركتَهم ووالى علينا محبتَّهم.

ثُمَّ اعلمْ إنَّ الطَّريقَ قسمانِ

ولادة والمرادُ بها الولادةُ الرُّوحانيةُ، وهي أنْ يُفتحَ للإنسانِ على يدِ شيخٍ ويستَمدُّ أوّلاً من نورِه.

وتربيةً. وهو زيادةُ التَّكميلِ والتَّهذيبِ شيئاً فشيئاً إلى أنْ يتمَّ نتاجهُ ويكمُلَ علاجهُ، ثُمَّ هما تارةً يجتمعان للأخذِ في شيخٍ واحدٍ فيُفتحُ لهُ على يديهِ ويتربَّى بهِ يقعُ ذلكَ كثيراً, وتارةً يفترقانِ وذلك بحسبِ المأخوذِ عنه، فيُفتحُ لهُ على يدِ شيخٍ ويُربّيهِ غيرهُ واحداً أو أكثرَ متَّحدةً طريقُهم أو مختلفةً كما اتَّفقَ لكثيرٍ من المشايخِ ﷺ ولكنْ إنَّما يُنسبُ الأخذَ لمَنْ فُتحَ لهُ على يدِهِ كما قالوهُ.

وإن الأخذَ قسمان

أخذُ تحكيمٍ وسلبِ إرادةٍ, ويكونُ عن ولادةٍ ولأجلِ تربيةٍ.

وأخذُ تبرُّكٍ واستفــادةٍ, وهو لا يكونُ ناشئاًعن ولادةٍ ولا لأجلِ تربيةٍ وإنَّما هو مطلق الانتفاعُ، والمرادُ بالانتفاعِ هنا الانتفاعُ الحالي وهو ما يأخذَونَهُ على سبيلِ الاتِّصافِ من حالٍ أو مقامٍ دون سلبِ إرادةٍ.

فالتَّبرُّكُ والإرادةُ بالمعنى العرفي لا يجتمعانِ في أنْ يكونا عن شيخٍ واحد كما تجتمعُ الإرادةُ والتَّربيةُ كذلك, وقد اجتمعَ لسيّدِنا أحمدَ ﷺ الولادةُ والتَّربيةُ في شيخهِ ولم يتبقَ لهُ الانتفاعُ إلَّا عن أبيهِ الذي هو شيخُ شيخهِ كما سلفَ, فولادتهُ وتبرُّكهُ وإن افترقا أوّلاً فقد اجتمعا ثانياً من حيثُ أنَّ السَّندَ واحدٌ.

وسلسلةُ طريقهِ ﷺ منهُ إلى الشَّيخِ سيّدي إبراهيمَ الفحَّامِ الأخذُ عن النَّبي ﷺ سلسةُ وراثةٍ وارثٌ عن وارثٍ كما أُستفيدَ من تنصيصِهم على ذلكَ بعضُهم عن بعضٍ إمَّا بياناً أو تصريحاً أو أشارةً أو تلويحاً.

وراثتُه ﷺ لشيخِه

فقالَ الشَّيخُ سيِّدي قاسمٌ ﷺ في مرضهِ الذي تُوفيَ منهُ وقد ظهرَ عليهِ زيادةُ حالٍ

" قولوا لسيِّدي أحمدَ بنِ عبدِ اللهِ يأخذْ متاعَهُ عنِّي ".

وعندما حضرَ سيِّدي أحمدُ جعلَ يقولُ لهُ أيضاً مشافهةً

" خُذْ متاعَكَ عنِّي " كما تقدَّمَ يشيرُ بذلك إلى وراثتهِ لحالهِ وأنَّهُ هو الذي يأخذُ ماعندَهُ.

وسمعتُ أنا يوماً سيِّدَنا أحمدَ ﷺ يقولُ في شيخِهِ

" هذا سيِّدي قاسمٍ أنَّهُ هو الوارثُ لأبيهِ الشَّيخِ سيِّدي مُحمَّد بنِ عبدِ الله "

كما تقدَّمَ أيضاً.

وقالَ سيِّدي مُحمَّد هذا على نفسهِ بعدَ موتِ الشَّيخِ سيِّدي عبدِ الرَّحمنِ بنِ مُحمَّد الفاسي

" الحقيقةُ ورثتُها ".

وقالَ أيضاً

" إنَّ سيِّدي عبدَ الرَّحمنِ هذا هو الوارثُ لأخيهِ الشَّيخِ سيِّدي يوسفَ الفاسي"

صرَّحَ بذلك مراراً.

وقالَ الشَّيخُ سيِّدي عبدُ الرَّحمنِ المجذوبِ في سيِّدي يوسفَ هذا تلميذهُ وقد دخلَ عليهِ يوماً

" أخذتَ معمورتي بأطواقِها "

يُريدُ بذلك وراثةَ حالهِ وكمالهِ من الأنوارِ والمعارفِ بل صرَّحَ لأصحابهِ بأنَّهُ الخليفةُ وأوصاهم بهِ وقالَ على نفسه بعد موتِ مُوآخيتهِ في الشَّيخِ الوليَّةِ الجليلةِ السَّيِّدةِ أمينة بنتُ ابنِ القاضي وكان لها إرثاً معهُ في شيخِهما سيِّدي علي الصَّنهاجي ﷺ

" اليومَ استكملتُ أو اليومَ أخذتُ إرثي كاملاً "

فهذا تبيانٌ منهُم بإرثِ بعضِهم لحالِ بعضٍ ﷺ أجمعين.

وكذلك سيِّدي علي الصَّنهاجي ﷺ هو الوارثُ أيضاً لشيخهِ سيِّدي إبراهيم إفحام إذ كان هو الذي ظهرَ بحالهِ من القُوَّةِ في الجذبِ والغيبةِ في التَّوحيدِ ولم يوجدْ متَّصفاً بذلك غيرهُ بل لم يعرفْ أخذٌ عن الشَّيخِ إبراهيمَ سِواهُ لاسيَّما، وقد كان أعني سيِّدي عليّاً الصَّنهاجي صاحبَ وقتهِ لهُ اليدُ على أهلِ الغيبِ حسبَما تقتضيهُ حكايتهُ المعلومةُ معَ سيِّدي عبدِ الرَّحمنِ المجذوبِ حيثُ رفعَهُ على إصبعهِ وقالَ للأولياءِ

" مَنْ أحبَّني فليعظِّمْهُ "

والشَّيخُ سيِّدي إبراهيمُ افحامٌ كان قَوِيُّ الجذبِ وأخذَ عن النَّبي ﷺ مباشرةً واستمدَّ منهُ كما سيأتي، فيكونُ هذا السَّندُ متسلسلاً بالإرثِ إلى هذا الشَّيخِ الأخذَ عن النَّبي ﷺ ويكونُ بينَ من بوقتِنا وهو سيِّدُنا أحمدُ ﷺ وبينه ﷺ سبعَ وسائطَ وكفى بهذا علوَّاً للسَّندِ وشرفاً لأهلهِ.

ولم نطَّلعْ بعدُ على مايؤذِنُ بالإرثِ في بقيَّةِ السَّندِ من الشَّيخِ زرُّوقٍ شيخِ سيِّدي إبراهيم إفحام إلى آخره, وقد تركَ الشَّيخُ زروقٌ جماعةً لا ندري الوارثَ منهُم ولكنْ لم يبقَ ظاهراً بمغربِنا سوى هذهِ السِّلسلةِ فيما علمناهُ.

وقد قالَ الشَّيخُ المجذوبُ ﷺ

" ينقطعُ ماءُ الفقرِ بالغربِ ولم يبقَ إلَّا مائي "

وقالَ أيضاً

" يتمُّ الذوقُ ولا يبقى إلَّا فيّ الطوقِ "

وقالَ يوماً سيِّدُنا أحمدُ ﷺ مشيراً إلى نفسهِ

" تمَّ الذوقُ ولا بقيَ إلَّا في طوقٍ بعدي هذا الذي عندي "

وهذا كُلِّهِ مشيراً إلى أنَّ طريقةَ الشَّيخِ زروقٍ بالمغربِ عِندَهُم استقرَّتْ ولهم استمرَّتْ، رزقنا الله بركتَهم آمين.

وهذا أوانُ الشُّروعِ واللهُ المعينُ في ذكرِ السَّندِ متَّصلاً وذكرِ طُرقهِ موصولاً بعضَهما ببعضٍ إلى أنْ تصلَ للشَّيخِ الجزولي والشَّيخِ زرُّوقٍ رضيَ اللهُ عنهُما ثُمَّ منهُما إلى الإمامِ الشَّاذلي ثُمَّ منهُ لأخرِها في احدى طريقتيهِ، ومن الأخرى إلى الشَّيخِ أبي مدينَ ثُمَّ منهُ الى الجنيدِ ومنهُ إلى الحسنِ البصري ثُمَّ إلى الصَّحابةِ، ونتعرَّضُ لجميعِ ما أطَّلعنا عليه منها ممَّا هو منها طريقُ إرادةٍ أو تبرُّكٍ واستفادةٍ استيفاءً لجميعِها وجمعاً لأصولِها وفروعِها فنقولُ

سندُ الشّيخ سيّدي أحمد بن عبدالله ﷺ

أخذَ سيّدُنا ومولانا ووسيلتُنا بعدَ نبيّنا إلى ربّنا أبو العبَّاسِ سيّدي أحمدُ بنُ عبدِاللهِ ﷺ أخْذَ إرادةٍ وتربيةٍ وولادةٍ

عن شيخهِ وعمدتهِ الشَّيخِ أبي الفضلِ سيّدي قاسمٍ بنِ قاسمٍ الخصاصي ﷺ على يديهِ فُتحَ لهُ وبه تكمَّلَ، لا انتسابَ لهُ إلَّا إليهِ ولا معوَّلَ لهُ في الطَّريقِ إلَّا عليهِ.

وأخذَ تبركاً واستفادةً عن أبيهِ الشَّيخِ سيّدي مُحمَّد بنِ عبدِ اللهِ ﷺ حسبَما أخبرَ هو بذلك.

سندُ الشّيخ قاسم الخصاصي ﷺ

وأخذَ الشَّيخُ سيّدي قاسمٌ رحمَهُ اللهُ عن شيوخِهم المتقدّمِ ذكرُهم في البابِ قبل هذا ثلاثةٌ على سبيلِ الإرادةُ والتَّحكيمُ كما تقدَّمَ

وهُمْ الشَّيخُ سيّدي مباركٌ الكوشي، والشَّيخانِ الإمامانِ الشَّيخُ أبو مُحمَّد سيّدي عبدُ الرَّحمنِ بنُ مُحمَّد الفاسي، والشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ سيّدي مُحمَّد بنُ عبدِ اللهِ والدُ سيّدِنا أحمدَ ﷺ وباقيهم على سبيلِ التَّبرُّكِ والاستفادةِ.

فأمَّا الذين أخذَ عنهُم تبركاً واستفادةً أقدِّمُهم لقلَّةِ الكلامِ فيهم بسببِ عدمِ تشعُّبِ طرقِهم وقلَّةِ تفاريعِها

فهُم الشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ سيّدي مُحمَّد الكومي, والشَّيخُ أبو الحسنِ سيّدي علي الهيري, والشَّيخُ أبو سرحانٍ سيّدي مسعودٌ الشَّراط, والشَّيخُ أبو الحسنِ سيّدي علي بنُ داود, والشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ سيّدي مُحمَّد حكيمٌ, والشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ سيّدي مُحمَّد بنُ علي بنُ منصورٍ, والشَّيخُ أبو عمرانٌ سيّدي موسى, والشَّيخُ أبو الفيضِ سيّدي جلُّول, والشَّيخُ أبو مُحمَّد سيّدي عبدُ اللهِ الحدَّادِ, والشَّيخُ أبو مُحمَّد سيّدي عزوزادّ الله, والشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ سيّدي مُحمَّد كمكام, والشَّيخُ أبو المحاسنِ سيّدي علي ورزق, وغيرِهم من بقيَّةِ الستِّ والعشرين الذين لم نظفرْ الآنَ بمعرفتِهم كما تقدَّمَ.

فأمَّا الشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ الكومي فعنِ الشَّيخِ أبي العبَّاسِ أحمدَ بنِ مُحمَّد الفلالي دفينُ بني بوزدا من بلادِ غُمارةَ عن الشَّيخِ أبي القاسمِ الغازي بنِ أحمدَ دفينُ سجلماسة عن الشَّيخِ أبي الحسنِ علي بنِ عبدِ اللهِ دفينُ سجلماسةَ أيضاً عن شيخِ الشُّيوخِ الشَّيخِ أبي العبَّاسِ سيّدي أحمدَ بنِ يوسفَ الرَّاشدي الملياني دفينُها عن الشَّيخِ القطبِ شيخِ الطَّريقةِ أبي العبَّاسِ سيّدي أحمدَ بنِ أحمَد زرُّوقٍ دفينُ مسراتةَ من بلادِ الجريد.

أمَّا الشَّيخُ أبو الحسنِ علي الهيري فعنِ الشَّيخِ أبي مُحمَّد الحسنِ بنِ عيسى الجزولي دفينٌ خارجَ بابِ الفتوحِ من فاس عنِ الشَّيخِ القطبِ أبي مُحمَّد سيِّدي عبدِ اللهِ ابنِ مُحمَّد الغزواني الشاوي دفينُ حومةِ القصورِ من مراكشَ عن الشَّيخِ القطبِ أبي مُحمَّد سيِّدي عبدِ العزيزِ بنِ عبدِ الحقِّ التَّباعِ المدعو بهِ وبالحرَّاقِ دفينُ مراكشَ عن الشَّيخِ القطبِ الشَّريفِ شيخِ الطَّريقةِ أبي عبدِ اللهِ سيِّدي مُحمَّد بن سليمانَ الجزولي السَّملالي الحسني دفينُ رياضِ العروسِ من مراكشَ ثُمَّ عن تلميذهُ بعدَهُ الشَّيخُ سيِّدي الصَّغيرُ السُّملي بهِ تربَّى وعلى يديهِ تمكَّنَ من حالهِ وكمُلَ أمرهُ.

وأمَّا الشَّيخُ سيِّدي مسعودٌ الشرَّاطُ والشَّيخُ سيِّدي علي بنُ داودَ فكلاهما عن الشَّيخِ أبي شتاءٍ دفينٌ أمركُوا بالكافِ المعقودةِ من بلادِ فشتالةَ عنِ الشَّيخِ القطبِ أبي مُحمَّد الغزواني المتقدِّمِ.

وأمَّا الشَّيخُ سيِّدي مُحمَّد حكيم فذكرَ بعضُ المشايخِ ممَّنْ أدركَهُ وأخذَ عنهُ أنَّهُ عن الشَّيخِ أبي النعيم رضوانٌ بنُ عبدِ اللهِ الجنوبي الفاسي دفينٌ خارجَ بابِ الفُتوحِ، وتقدَّمَ عن الشَّيخِ أبي مُحمَّد عبدِ الرَّحمنِ الفاسي أنَّ مددَهُ من القرآنِ ومقتضاها أنَّهُ لا شيخَ لهُ، ويجمعُ بينهُما بأنْ يكونُ مطلقُ الأخذِ حصراً بالمخالطةِ والصُّحبةِ عن سيِّدي رضوانٌ، ثُمَّ كان استمدادُ حالتهِ الخاصَّةِ من القرآنِ أي من تلاوتهِ.

والشَّيخُ سيِّدي رضوانٌ ﷺ

أخذَ إرادةً وتحكيماً عنِ الشَّيخِ أبي مُحمَّد عبدِ اللهِ الغزواني هو عمدتهُ وإليهِ ينتسبُ ثُمَّ عن تلميذهِ وخليفتهِ بفاسٍ الشَّيخِ أبي عبدِ اللهِ مُحمَّد بن علي الغالب الزمراني دفينُ القليعةِ داخلَ بابِ الفُتوحِ.

وتبرُّكاً واستفادةً عنِ الشَّيخِ الحاجِّ أبي عبدِ اللهِ مُحمَّد بن علي الشَّطي زارَهُ ببلادِ بني زروال وعن الشَّيخِ أبي عبد اللهِ مُحمَّد بنِ علي الخرُّوبي دفينُ الجزائرِ لقيَهُ بفاسٍ حينَ وفدَ إليها بقصدِ التَّبرُّكِ والإنتفاعِ.

وأخذَ الشَّيخُ الشَّطي عنِ الشَّيخِ سيِّدي أحمدَ يوسفَ الملياني تلميذِ الشَّيخِ زرُّوقٍ.

وأخذَ الشَّيخُ الخروبي عنِ الشَّيخِ زرُّوقٍ وعن شيخهِ الشَّيخِ أبي عبدِ اللهِ الزَّيتوني بدونِ واسطةٍ.

وأمَّا الشَّيخُ سيِّدي موسى دفينُ جرنيز فيذكرُ أنَّهُ أخذَ عنِ الشَّيخِ أبي الحسنِ علي ورزق المدفونُ خارجَ فاس الجديدِ عن الشَّيخِ أبي عثمانَ سعيدٍ بـــنِ عبدِ النَّعيمِ دفينُ خاخةَ عنِ الشَّيخِ التَّباعِ تلميذِ الشَّيخِ الجزولي.

وأمَّا الشَّيخُ سيِّدي جلول فعنْ أبي عبدِ اللهِ سيِّدي الحاجِّ مُحمَّد الزَّامي دفينٌ خارجَ بابِ الجيسةِ بإزائِها عن يمينِ الخارجِ منها ولا يُعرفُ لهُ سندٌ.

وأمَّا الشَّيخُ سيِّدي عبدُ اللهِ الحدَّادِ فعنْ شيخينِ

أوَّلهما .الشَّيخُ أبو الحسنِ علي بنُ علي الحدَّادِ دفينٌ خارجَ بابِ الفتوحِ قربَ روضةِ الشَّيخِ سيِّدي علي حماموش ولا يعرفُ لهُ سندٌ.

وثانيهُما.الشَّيخُ أبو المحاسنِ يوسفُ الفاسي خدمَهُ في حياةِ شيخهِ الأوَّلِ وبإذنهِ وبسائرِ سندهِ.

وأمَّا الشَّيخُ سيِّدي عزوزٌ والشَّيخُ سيِّدي مُحمَّد كمكام فكلاهما لا أعرفُ لهُ شيخاً ولا سنداً.

وأمَّا الشَّيخُ سيِّدي علي ورزق فقد تقدَّمَ بسندهِ آنفاً.

وأمَّا الذين أخذَ عنهُم سيِّدي قاسمٌ تحكيماً وإرادةً وهُمْ الثَّلاثةُ الأوَّلون

فأوَّلُهم . وهو سيِّدي مباركٌ الكوشي لا معرفةَ لنا بسندهِ.

والشَّيخانِ الآخرانِ وهُما الشَّيخُ سيّدي عبدُ الرَّحمنِ ابن مُحمَّد الفاسي، والشَّيخُ سيّدي مُحمَّد بنُ عبدِ اللهِ يتَّصلانِ معاً بالطَّريقتينِ الزَّروقيةِ والجزوليةِ.

فيتصلانِ بالشَّيخِ زرُوقٍ بالولادةِ الرُّوحانيةِ الاختصاصيةِ، وبالشَّيخِ الجزولي من حيثُ التربيةِ والتَّهذيبِ كما قالَهُ الشَّيخُ سيّدي عبدُ الرَّحمنِ ابن مُحمَّد الفاسي في الشَّيخِ المجذوبِ شيخُ طريقِهم وإمامُ فريقِهم فطريقتُهما رضيَ اللهُ عنهُم زرُّوقيةُ الولادةِ جزوليةُ التَّربيةِ.

سندُ الشّيخ عبد الرّحمن الفاسي ﷺ

فأمَّا الشَّيخُ أبو مُحمَّد سيّدي عبدِ الرَّحمنِ الفاسي ﷺ فعنْ أخيهِ الشَّيخِ أبي المحاسنِ سيّدي يوسفَ ابنِ مُحمَّد الفاسي الفهري دفينٌ أعلى خارجَ بابِ الفتوحِ من ناحيةِ المصلَّى, على يديهِ فُتحَ لهُ وبهِ تربَّى وتكمَّلَ وتخرَّجَ لا يعرفُ غيرَهُ ولا نسبةَ لهُ سِواهُ.

سندُ الشّيخ مُحمَّد بن عبد الله ﷺ

وأمَّا الشَّيخُ أبو عبدِ الله سيّدي مُحمَّد بنُ عبدِ اللهِ والدُ سيّدِنا أبي العبَّاسِ ﷺ فأخذَ إرادةً وتربيةً عن الشَّيخينِ الأخوينِ المذكورينِ الشَّيخِ أبي المحاسن الفاسي على يديهِ فُتحَ لهُ وهو عمدتهُ وإليهِ ينتسبُ والشَّيخِ أبي مُحمَّد عبدِ الرَّحمنِ وبهِ تكمَّلَ ولم يصحبْ سواهُما.

سندُ الشّيخ أبو المَحاسِن يوسف الفاسي ﷺ

ثُمَّ الشَّيخُ أبو المحاسنُ الفاسي ﷺ أخذَ على سبيلِ التَّحكيمِ وسلبِ الإرادةِ والخدمةِ والملازمةِ والتَّربيةِ عن شيخهِ وأستاذهِ وعمدتهِ وملاذهِ الشَّيخِ الأعظمِ والبحرِ الخضمِ أبي مُحمَّد عبدِ الرَّحمنِ بنِ عيَّادٍ المجذوبِ الصَّنهاجي الأصلِ الفرجي بالعرضِ دفينٌ خارجَ مكناسةَ الزَّيتونِ على يديهِ فُتحَ لهُ وبهِ تخرَّجَ وهو عمدتهُ وإليهِ ينتسبُ لا معتمدَ لهُ سواهُ ولا منتسبَ لهُ عداهُ.

شيوخُ التّبرك

وأخذَ في حياتهِ وعنْ إذنهِ تبرُّكاً و استفادةً عن جماعةٍ من المشايخِ

وهم الشَّيخُ أبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ منصورٍ الحيحِي دفينُ القصرِ الكبيرِ، أخذَ عنهُ وانتفعَ بهِ وقالَ إنَّ أوَّلَ حالةٍ تحقَّقَ بِها حالتهُ.

والشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد بنُ علي الزَّمراني المعروفِ بالطَّالبِ دفينُ القليعةِ.

والشَّيخُ أبو مُحمَّد عبدُ اللهِ ابن مُحمَّد الهبطي دفينُ مدشرِ معاتب من حوزِ شفشاوة .

والشَّيخُ أبو مُحمَّد عبدُ اللهِ ابن ساسي دفينٌ خارجَ حوز مراكشَ.

والشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد بنُ مخلوفٍ الضُّرَيسي دفين بو شفان من بلادِ ضريسةَ.

والشَّيخُ أبو عثمانَ سعيدٌ بنُ أبي بكرٍ المسترائي دفينٌ خارجَ مكناسةَ الزَّيتونِ.

والشَّيخُ أبو مُحمَّد الحسنِ بنُ عيسى المصباحي دفينُ الدَّغاغةَ من عملِ القصر.

والشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد الملقَّبُ بكانون المطاعي دفينُ تانسوتا من بلادِ السراغنةَ قربَ مراكشَ.

والشَّيخُ أبو النَّجاءِ سالمٌ العماري ولقَّنَهُ ذِكراً يقوله دبُرَ الصَّلواتِ، أخذَهُ عنِ الشَّيخِ أبي زيدٍ بنِ ريسون عن الشَّيخِ الغزواني، وقد ذكرَ لفظَهُ في " **المرآة** " فانظرْهُ.

والشَّيخ أبو سالمٍ إبراهيمُ الزَّواوي التُّونسي دفينٌ خارجَ بابِ الجيسةِ من فاسٍ.

هؤلاءِ ما عدا أستاذهِ المجذوبِ عشرةٌ.

وأخذَ أيضاً عن آخرينَ من المشايخِ وعددٌ كثيرٌ كما قالَ أخوه الشَّيخُ سيّدي عبدُ الرَّحمنِ لا يُحصَون شهادةً وغيباً، ولم يذكرْ في " **المرآة** " سوى مَنْ ذكرناهُ وكأنَّهُ لم يظفرْ بمعرفتهِم ولا بحفظَ أسماءَهُم واقتصرَ أخوهُ الشَّيخُ أبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ يوسفَ الفاسي رحمَهُ اللهُ في مؤلف لهِ في أسانيدِ طريقِ والدهِ على ثمانيةٍ منهُم قائلاً

" هذا ما حضرني "

وذكرَ أنَّ الشَّيخَ أبا المحاسنِ لقيَ من أهلِ الخفا مالا يُحصى كثرةً، وعدَّ منهُم الشَّيخَ أبا الحسنِ علي الحبشي السُّريفي بمهملةٍ أوَّلهُ وياءِ النَّسبِ أخرهُ المدفونُ بقربِ مرسى أبي جديان من سريفٍ، فأقتضى كلامهُ أنَّ الشَّيخَ أبا المحاسنِ أخذَ عنهُ، وعندَ غيرهِ من أبناءِ الشَّيخِ أبي المحاسنِ عكسهُ، والتَّحقيقُ أنْ يُقالَ أنَّ لهُ معهُ أخوَّةً حصلت باللقي وإنَّهُ لم يأخذْ واحدٌ منهُما عن الآخَرِ لأنَّ الشَّيخَ أبا المحاسنِ ما لقيَهُ إلَّا بعدما كمُلَ تربيةً وترقيَّاً.

والآخرُ لقيَهُ بعدَ ما كان ممتلئاً مدداً يطلبُ التَّخفيف لعظيمِ مانزلَ بهِ من قوَّةِ الحالِ وقد فُتحَ لهُ على يدِ الشَّيخِ المجذوب كما قالَهُ الشَّيخُ أبو المحاسنِ فكانَ يرى نفسَهُ يمتلئُ مدداً من قِبلِهِ، فبينهُما أيضاً أخوَّةٌ في الأخذِ عن شيخٍ واحدٍ هذا ما ظهرَ واللهُ أعلمُ بالصَّوابِ.

فأمَّا الذين أخذَ عنهُم سيّدي يوسفَ تبرُّكاً واستفادةً عن أذنِ شيخهِ المجذوبِ وهُمْ المشايخُ الذين ذكرنا.

فأمَّا الشَّيخُ أبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ منصورٍ، والشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد الطالبُ والشَّيخُ أبو مُحمَّد الهبطي، والشَّيخُ عبدُ اللهِ بنُ ساسي أربعتُهم فعنِ الشَّيخِ أبي مُحمَّد عبدِ الله الغزواني عن الشَّيخِ أبي مُحمَّد عبدِ العزيزِ التَّباع.

وأمَّا الشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد بنُ مخلوفٍ فعنِ الشَّيخِ أبي حفصٍ عمرَ بنِ مباركٍ الحصيني دفينٌ خارجَ مكناسةَ الزَّيتونِ عن شيخينِ الشَّيخِ أبي مُحمَّد عبدِ العزيزِ التَّباعِ والشَّيخِ أبي العبَّاسِ أحمدَ بن عمرَ الحارثي السُّفياني دفينٌ خارجَ بابِ البردعيين من مكناسةَ وكلاهما عن الشَّيخِ الجزولي.

وأمَّا الشَّيخُ أبو عثمانَ سعيدٌ ابن أبي بكرٍ فعنِ الشَّيخِ أبي عثمانَ سعيدٍ الرَّاعي الدغوغي دفينُ المقرمزةَ من أحوازِ فاس.

قالَ في " **المرآة** " وهو أخذَ عن الشَّيخِ التبَّاعِ.

وقالَ في " **الدوحة** "[1] أخذَ عنِ الشَّيخِ الجزولي يعني بلا واسطةً ولعلَّهُ أخذَ عنهُما معاً واللهُ أعلمُ.

وأمَّا الشَّيخُ أبو مُحمَّد الحسن المصباحي فعنْ قريبهِ نسباً الشَّيخِ أبي عبدِ اللهِ مُحمَّد المدعو بأبي عشرية المصباحي عن الشَّيخ التَّباعِ.

وأمَّا الشَّيخُ أبو عبدُ اللهِ كانونٌ فعنِ الشَّيخِ التَّباعِ.

وأمَّا الشَّيخُ أبو النَّجا السَّالمُ العماني فعنِ الشَّيخِ أبي زيدٍ عبدِ الرَّحمنِ ابن عيسى الشَّريفِ العلمي اليونسي بالتَّحتيةِ دفينُ تاهروتا قربَ جبلِ العلمِ عنِ الشَّيخِ الغزواني.

وأمَّا الشَّيخُ أبو سالمٍ الزَّواري فأخذَ عن خمسةٍ وثلاثين شيخاً وصحبَهُم.

---

[1] . دوحةُ الناشرِ لمحاسنِ مَنْ كان بالمغربِ من مشايخِ القرنِ العاشرِ لمُحمَّد بن علي بن عمر بن عسكر.

منهُم الشَّيخُ أبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ عروسٍ دفينُ تونسَ هو عمدتهُ وعلى يديهِ فُتحَ لهُ.

ومنهُم تلميذُ الشَّيخِ ابن عروسٍ هذا أبو المظفر منصورٌ الزُّواري التُّونسي.

ومنهم الشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد الملقَّبُ بعرفةَ القيرواني.

ومنهم الشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ الزَّيتوني.

ومنهم الشَّيخُ أبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ عقبةَ وتلميذُهما الشَّيخُ زروقٌ وتلميذهُ الشَّيخُ أبو العبَّاس أحمدُ بنُ يوسفَ المِلياني، وهو آخرُ مَن أخذَ عنهُ.

ومنهم الشَّيخُ التَّباعُ أخذَ عنهُ بمراكشَ.

فأمَّا الشَّيخُ بنُ عروسٍ فعنِ الشَّيخِ فتح اللهِ العجمي التُّونسي، وكانتْ لهُ طريقةٌ غريبةٌ أي في السُّلوكِ، وذكرَ بعضُ المشارقةِ العصريينَ وهو السَّيِّدُ الحسنُ بنُ علي العُجيمي بالتَّصغيرِ في مؤلف لهِ في الأسانيد أنَّ الشَّيخَ ابنَ عروسٍ أخذَ عن صدرِ الدِّينِ النَّاكوري عن نصيرِ الدِّينِ محمودِ الأودهي عن نظامِ الدِّينِ الخالدي عن فريدِ الدِّينِ شكركنج عن معينِ الدِّينِ الجشتي عن عثمانَ الهاروني عن حاجي شريفِ الزَّندي عن شيخِ الطَّريقةِ الجشتيةِ قطبِ الدِّينِ مورودَ بنِ يوسفَ بنِ مُحمَّد بنِ سمعانَ الجشتي عن والدِهِ مُحمَّد عن والدِهِ سمعانَ عن خالهِ مُحمَّد بنِ أبي أحمدَ أبدال عن والدِهِ فرسنافةَ عن والدِهِ أبي أسحاقَ السَّامي عن ممشادَ الدِّينوري عن هبيرةَ البصري عن حذيفةَ المرعشي عن إبراهيمَ بنِ أدهمَ عن الفضيلِ بنِ عياضٍ عن عبدِ الواحدِ بنِ زيدٍ عن كُميلِ بنِ زيادٍ عن علي بنِ أبي طالبٍ ﷺ.

هكذا وجدتُ هذا السَّندَ عندَ المؤلفِ المذكورِ على تصحيفٍ فيهِ في قولهِ بعدَ قطبِ الدِّينِ مورودٍ عن والدِهِ مُحمَّد مع أنَّهُ قد ذكرَ أنَّهُ ابنُ يوسفَ بنُ مُحمَّد فإمَّا سقط بينَهُما عن والدِهِ يوسفَ، وإمَّا زِيدَ لفظُ يوسفَ أوَّلاً، فيكونُ موروِدٌ بنُ

مُحمَّد ونقلَهُ في " **الإلماع** "[1] كذلك ولم ينبّهْ عليهِ، وفيه ألفاظٌ أعجميةٌ لا نعرفُ ضبطَها كيفَ يكونُ ولا ما لكلِّ حرفٍ منها من حركةٍ وسكونٍ فاللهُ أعلمُ.

وأمَّا الشَّيخُ مُحمَّد عرفة فعنْ والدهِ الشَّيخِ أبي العبَّاسِ أحمدَ بنِ مخلوفٍ الشَّابي بتشديدِ الموحَّدةِ القيرواني عن الشَّيخِ أبي مُحمَّد عبدِ الوهابِ الهندي وهو فيما قالَهُ الشَّيخُ أبو العبَّاسِ الفاسي رحمَهُ اللهُ عن مشايخَ كمَّلٍ هنديين وسنديين ولم يُسمِّهِم عن الشَّيخِ أبي مدينَ وسيأتي سندهِ.

وذكرَ العجيمي أنَّ الشَّيخَ أبا مُحمَّد عبدِ الوهابِ الهندي أخذَ عن الشَّيخِ أبي موسى السَّرواتي عن أبي مُحمَّد عبدِ اللهِ الشَّيخِ الموزوي عن الشَّيخ أبي مدين.

وفي موضعٍ آخرَ عندَهُ أنَّ الشَّيخَ أبا موسى السَّرواتي أخذَ عن الشَّيخِ أبي مدينَ بدونِ واسطةٍ، فذكرَ تارةً بينَ الشَّيخِ عبدِ الوهابِ الهندي وبين الشَّيخ أبي مدينَ رجلينِ، وتارةً واحداً يُضاف ذلكَ للاثنينِ الذين قبلهُما إلى الشَّيخِ عرفةَ شيخِ سيِّدي إبراهيمَ الزَّواري، فيكونُ بينَ الشَّيخِ الزَّواري وبين الشَّيخِ أبي مدينَ خمسُ وسائطَ أو أربعٍ.

قيل ولا يخلو ذلكَ من أنقطاعٍ لبُعدِ زمانيهما، والظَّاهرُ أنْ لا أنقطاعَ لأنَّ الشَّيخَ الزَّواري وُلدَ في حدودِ خمسٍ وعشرين وثمانمئةٍ, والشَّيخَ أبا مدينَ تُوفيَ في العشرةِ الآخرةِ من السَّادسةِ على اختلافٍ في تعيينِ السَّنةِ، فيكونُ بينَهُما وفاةٌ وولادةٌ مئتينِ ونحوِ ثلاثين سنةً وخمسٍ وسائطَ أو أربعٍ لأتى بأهمٍ مثلَ هذه المدَّةِ كما لا يخفى إذا كان كذلك بالسَّندِ عالٍ لا منقطِعَ واللهُ أعلمُ.

وأمَّا الشَّيخُ الزَّيتوني والشَّيخ ابنُ عقبةَ والشَّيخُ زرُّوقٌ والشَّيخُ أبو العبَّاسِ الملياني والشَّيخُ التَّباعُ بقيةُ شيوخِ سيِّدي إبراهيمَ الزَّواري المسمُّونَ فسيأتي سندُهم في محلِّهِ, وأمَّا الذي أخذَ عنهُ سيِّدي يوسفُ الفاسي إرادةً وتحكيماً

[1]. الالماع ص (106) ذكره قطب الدين مورود بن يوسف بن مُحَمَّد بن سمعان الجشتي

سندُ الشّيخ عبد الرّحمن المجذوب ﷺ

وهو الشَّيخُ أبو مُحمَّد عبدُ الرَّحمنِ المجذوبُ ﷺ فأخذَ عن جماعةٍ من المشايخِ المشاهيرِ، فُتحَ لهُ على يدِ واحدٍ منهُم وانتفعَ بالآخرينَ وتربَّى بهم أخذَ عن كُلِّ واحدٍ منهُم ما قُسمَ لهُ، وكان يرثُهم حتَّى قيل فيهِ أبو المواريثِ.

منهُم الشَّيخُ المجذوبُ الفيَّاضُ أبو الحسنِ علي بنُ أحمدَ الصَّنهاجي دفينُ الدَّوارِ، قيل وكان يكرهُ الدُّعاءَ بهِ, دفينٌ خارجَ بابِ الفتوحِ من فاسٍ وهو أوَّلُهم وعلى يديهِ كان فُتحَ لهُ وإليهِ انتسابهُ في الولادةِ.

ومنهم الشَّيخُ القطبُ أبو حفصٍ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ بنُ الخطَّابِ الزرهوني دفينُ جبلِ زرهون وعليهِ اعتمدَ في التَّربيةِ وسَلْكِ الطَّريقِ.

ومنهم الشَّيخُ أبو زكريا يحيى بنُ علَّالٍ القُرشي العُمري دفينٌ خارجَ بابِ الفتوحِ وكان يطحنُ الرَّحى عندَهُ وهو ﷺ يحيى بنُ علَّالٍ بنُ موسى بنُ مُحمَّد بنُ يحيى بنُ الولي الكبيرِ سيِّدي غانمٍ الذي لقَّبَهُ شيخهُ الشَّيخُ أبو مُحمَّد صالحٌ بأبي خصيبٍ بنِ حميدٍ بنِ صباحِ بنِ رافعٍ بن دليح بنِ حمدانَ بنِ مُحمَّد ابن جرعٍ بنِ مالكٍ بنِ عيسى بنِ حرقونٍ بنِ أبي مالكٍ إلى أميرِ المؤمنين عمرَ بن الخطَّابِ ﷺ كذا ثبتَ بخطِّ سيِّدي يحيى المذكورِ قالَ " ونسيتُ اثنين أو ثلاثةٍ " يعني ممَّا يلي سيِّدُنا عمرُ ﷺ أجمعين.

ومنهم أعني أشياخَ الشَّيخِ المجذوبِ الشَّيخُ أبو عثمانَ سعيدٌ بنُ أبي بكرٍ دفينٌ خارجَ مكناسةَ إفادةً وانتفعَ بهِ, ويذكرُ أنَّهُ بهِ تماسكَ وردَّ للوجودِ.

ومنهم الشَّيخُ أبو العبَّاس أحمدُ الشيبةُ الحسني الجُوطي دفينٌ خـــارجَ بـابِ عيسى من مكناسةَ الزَّيتونِ وقد سُقت نسبهِ في تأليفي المسمَّى " **بالرَّدِ السَّني في بَعضِ مَنْ بفاسٍ من أهلِ النَّسبِ الحسني** ".

ومنهم الشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد بنُ علي المعروفُ بجعران السُّفياني دفينُ البيبانِ من بلادِ مزاحمٍ.

ومنهم الشَّيخُ أبو مُحمَّد عبدُ الحقِّ الزيجي الزَّرهوني دفينُ زرهونٍ.

ومنهم الشَّيخُ أبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ حسينٍ المدعو بأبي الرَّواين العبدلي السَّهلي دفينٌ خارجَ مكناسةَ الزيتونِ.

سندُ الشّيخ علي الصّنهاجي رضي الله عنه

فأمَّا الشَّيخُ سيّدي علي الصَّنهاجي فأخذَ عن الشَّيخِ أبي أسحاقَ إبراهيمَ المعروفِ بإفحامِ الزَّرهوني دفينُ جبلِ زرهونٍ.

قالَ الشَّيخُ العالِمُ الحافظُ أبو العبَّاسِ أحمدَ بنِ الشَّيخِ أبي المحاسنِ سيّدي يوسفَ الفاسي رحمَهُ اللهُ في تأليفٍ لهُ في أسانيدِ طريقِ والدهِ وهو فتحَ لهُ أوّلاً على يدي النَّبي ﷺ حيثُ رآه في النَّومِ ثُمَّ أتصلَ بالشَّيخِ القطبِ أبي العبَّاسِ أحمدَ زرُّوقٍ وانتسبَ إليهِ واعتمدَ في الطَّريقِ، والتَّحقيقُ عليهِ أنتهى.

ومثلهُ عندَ أخيه وتلميذهِ الشَّيخِ أبي عبدِ اللهِ العربي في " **المرآة** ".

وقد يعارضُ هذا ما تقدَّمَ عن الشَّيخِ سيّدي عبدِ الرَّحمنِ بنِ مُحمَّد الفاسي رضي الله عنه من أنَّ طريقَ الشَّيخ المجذوبِ تتَّصلُ بالشَّيخِ زرُّوقٍ بالولادةِ الرُّوحانيةِ, فإنَّ ظاهرَهُ أنَّ الفتحَ والولادةَ للَّشيخِ زرُّوقٍ لا التَّربيةِ فقط. ويمكنُ أنْ يُقالَ وقعَ للشَّيخِ

إبراهيمَ ﷺ على يدِ النَّبي ﷺ بَعضُ الفتحِ بلا واسطةٍ ووقعَ لهُ تمامهُ وتكميلهُ بواسطةِ الشَّيخِ زرُّوقٍ وعلى يديهِ فتكمّلَ بهِ حالا وتربيةً وتهذيباً، وبسببِ ذلكَ كان انتسابهُ في الولادةِ لهُ واعتمادهُ في الطَّريقِ عليهِ وحينئذٍ فلا معارضةَ واللهُ أعلمُ.

وأمَّا الشَّيخُ أبو عثمان سعيدُ بنُ أبي بكرٍ فقد تقدَّمَ هو وسندهُ في شيخهِ سيِّدي يوسفَ الفاسي إذ كان أخذَ عنهُ وشاركَهُ في الأخذِ عنهُ شيخهُ المجذوبُ.

وأمَّا الشَّيخُ الشَّريفُ أبو العبَّاسِ سيّدي أحمدُ الشِّيهُ فعنِ أبي عبدِ اللهِ مُحمَّد بنِ عبدِ الرَّحيمِ بنِ يحببش التازي دفينُ مدينةِ تازلَ وهو عن عمِّهِ الشَّيخ أبي الحسنِ علي بنِ يحببش وعَنِ الشَّيخِ أبي فارسٍ عبدِ العزيزِ بنِ خليفةَ القسنطيني دفينٌ خارَج تونسَ، والشَّيخِ أبي سالمٍ إبراهيم التَّازي والشَّيخِ أبي عبدِ اللهِ مُحمَّد بنِ عبدِ اللهِ الزَّيتوني أربعة فعمهُ سيّدي علي لا أعلمُ سندَهُ, وأخذَ سيّدي عبدُالعزيزِ القسنطيني عن الشَّيخِ أبي مُحمَّد عبدِ اللهِ بنِ أبي القاسمِ الجزائري من الشَّاذليةِ هذا عمدتهُ ولم أعرفْ سندَهُ وعَنِ الشَّيخِ زرُّوقٍ والشَّيخِ الزَّيتوني ﷺ.

وأخذَ سيّدي إبراهيم التَّازي عنِ الشَّيخِ أبي عبدِ اللهِ مُحمَّد الهواري ولا أعرفُ سندَهُ وبعدَهُ لقيَ الشَّيخَ أبا عثمانَ سعيد الصفريوي وهو عنِ الشَّيخِ القطبِ أبي الحسنِ علي بن وفا وسيأتي سندهُ.

أمَّا الشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ جعرانٌ فعنِ الشَّيخِ أبي عبدِ اللهِ مُحمَّد بنِ منصورٍ السُّفياني دفينُ البسابسِ من السَّواحلِ التي بين نهري سبو ولكس عن التَّباعِ.

وأمَّا الشَّيخُ أبو مُحمَّد عبدُ الحقّ الزَّليجي فعنِ الشَّيخِ أبي عبدِ اللهِ مُحمَّد الصَّغيرِ السَّهلي العَمْري بسكونِ الميمِ دفينُ خندقِ الزَّيتونِ من حوزِ فاسٍ.

وأمَّا الشَّيخُ أبو الرَّواين فعنِ الشَّيخِ أبي عبدِ اللهِ مُحمَّد بنِ عيسى الكبيرِ الفهري السُّفياني الأصلِ ثُمَّ المختاري دفينٌ خارجَ بابِ البردعين من مدينةِ مكناسةَ عنِ الشَّيخِ أبي العبَّاسِ أحمدَ بنِ عمرَ الحارثي, وعلى يديهِ كان فتحهُ

ثُمَّ بعدَهُ وبأمرهِ عنِ الشَّيخِ التَّباعِ وعلى يديهِ كان تكميلهُ ولقيَ أيضاً الشَّيخَ أبا عبدِ اللهِ الصَّغيرِ السَّهلي وانتفع بهِ.

والشَّيخُ التَّباعُ والشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ الصَّغيرُ والشَّيخُ الحارثي الثَّلاثةُ عنِ الشَّيخِ الإمامِ القطبِ أبي عبدِ اللهِ سيِّدي مُحمَّد بنِ سليمانَ الجزولي ثُمَّ السَّملالي في عدادِهم الشَّريفُ الحسني مؤلفُ " **دلائل الخيراتِ** " ﷺ هؤلاءِ شيوخُ الشَّيخِ المجذوبِ كلُّهُم يتَّصلون بالشَّيخِ الجزولي هذا ومن طريقتِهم إلَّا أوَّلُهم وهو الشَّيخُ أبو الحسنِ الصَّنهاجي فإنَّهُ يتَّصلُ بالشَّيخِ زرُّوقٍ فقط كما تقدَّمَ، وتلكَ طريقتهُ التي هي معتمدُ الشَّيخِ المجذوبِ فتحاً وولادةً.

فطريقُ ولادتهِ ﷺ زرُّوقيةٌ، وطريقُ تربيتهِ جزوليةٌ، فهو يتَّصلُ بالشَّيخِ زرُّوقٍ من حيثُ الفتحِ والولادةِ, وبالشَّيخِ الجزولي من حيثُ التَّرتيبِ والاستفادةِ, وهما معاً يتَّصلانِ بالإمامِ الشَّاذلي ﷺ.

سندُ الشّيخ أحمد زرُّوق ﷺ

أمَّا الشَّيخُ القطبُ الإمامُ أبو العبَّاس سيّدي أحمدُ زرُّوقٍ ﷺ فأخذَ عن مشايخَ بالمشرقِ والمغربِ كثيرين لا يحصونَ كثرةً، وقد ذكَرَ هو جملةً منهُم في برنامجٍ لهُ في عددِ شيوخهِ لم يكملْهُ وقسَّمهُم إلى مجذوبين وسالكين وكاملين وغيرهم من ذوي البركاتِ وعمومِ الإنتفاعاتِ، بعضُهم أخذَ عنهُ على سبيلِ سلب الإرادةِ وبعضُهم على سبيلِ التَّبرُّكِ والاستفادةِ.

فأمَّا أخْذهُ إرادةً فعن شيخينِ

أحدُهما. وهو شيخهُ الأوَّلُ الشَّيخُ الولي الكبيرُ أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد بنُ عبدِ اللهِ الزَّيتوني الفاسي دفينُ المسيلةَ من بلادِ الجريد وليسَ هو سيّدي الزَّيتوني

دفينٌ داخلَ بابِ الجيسةِ من فاسٍ كما قد يُتوَّهمُ، خدمَهُ بفاسٍ سنينَ ولازمَهُ إلى أنْ أرتحلَ أعني الشَّيخَ زرُّوقٍ للمشرقِ.

وثانيهُما. الشَّيخُ العالمُ العارفُ الكاملُ أبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ عبدِ القادرِ بنُ مُحمَّد بنُ عمرَ بنُ مُحمَّد بنُ عقبةَ اليمني الحضرمي ثُمَّ المصري، أخذَ عنهُ بمصر ولازمَهُ نحوَ خمسةَ عشرَ شهراً وانتسبَ إليهِ وعوَّلَ في الطَّريقِ والتَّحقيقِ عليهِ, وقالَ أنَّهُ انتفع بهِ اتِّباعاً ظاهراً لا يخفى على أحدٍ واشتهرتْ نسبتهُ إليهِ وإلى سيّدي مُحمَّد الزَّيتوني المذكورِ قبلَهُ.

وأمَّا أخْذهُ تبرُّكاً وانتفاعاً فعنِ الشَّيخِ الولي أبي عبدِ اللهِ مُحمَّد بنِ زمامٍ الرَّكاعِ والشَّيخِ الولي أبي العبَّاسِ أحمدَ بنِ عروسٍ التُّونسي والشَّيخ العالمِ الولي أبي زيدٍ عبدِ الرَّحمنِ بنِ مُحمَّد الثَّعالبي دفينُ الجزائرَ والشَّيخِ العالمِ الولي الصَّالحِ أبي العبَّاس أحمدَ بنِ عبدِ اللهِ الجزائري دفينُ القصيرِ والشَّيخ الإمامِ العالمِ العاملِ الولي الصَّالحِ النَّاصحِ أبي عبدِ اللهِ سيّدي مُحمَّد بنِ يوسفَ السَّنوسي دفينُ تلمسانَ والشَّيخِ العالمِ الولي أبي العبَّاسِ أحمدَ ابنِ الحسنِ الغماري دفينُ تلمسان أيضاً والشَّيخِ الفقيهِ العالمِ الولي الصَّالحِ أبي الحسنِ الزَّروالي شارحِ المدوَّنةِ المدفونِ خارجَ بابِ الجيسةِ من فاس.

هؤلاءِ سبعةٌ ذكرَهُم هو في برنامجهِ، وباقيهم ممَّنْ لم يذكرْهُ لم نطَّلعْ عليهِ.

وذكرَ الشَّيخُ أبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ مُحمَّد بأنَّهُ عرفَ أنَّ الشَّيخَ زرُّوقِ لقيَ أيضاً الشَّيخَ الجزُولي ﷺ

فأما اللّذان أخذَ عنهُما إرادةً.

قال الشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ الزَّيتوني أخذَ كما قيل عن مشايخَ كثيرين.

قال الشَّيخُ أبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ يوسفَ الفاسي رحمَهُ اللهُ في مؤلفهِ وطريقهِ تنتهي إلى الشَّيخِ أبي مُحمَّد عبدِ القادرِ الجيلاني ﷺ ولم يعيّنْ لهُ سندا.

سندُ الشّيخ أبو العبَّاس أحمد بن عُقبة ﷺ

وأمَّا الشَّيخُ أبو العبَّاسِ بنُ عقبةَ فعنِ الشَّيخِ أبي زكريا يحيى بنِ أحمدَ الشَّريفِ القادري عنِ الشَّيخِ القطبِ أبي عبدِ اللهِ مُحمَّد عنِ الشَّيخِ شرفِ الدِّين أبي سليمانَ داودَ الباخلي عنِ الشَّيخِ القطبِ تاجِ الدِّين ابنِ عطاءِ اللهِ والشَّيخِ ياقوتٍ الحبشي، ويُقالُ لهُ العرشي أيضاً كلاهما عنِ الشَّيخِ القطبِ أبي العبَّاس أحمدَ بنِ عمرَ المرسي الأنصاري عنِ الشَّيخِ القطبِ الإمامِ أبي الحسنِ علي بن عبد الله الشَّاذلي الشَّريفِ الحسني إمامِ الطَّريقةِ وسلطانِ أهلِ الحقيقةِ ﷺ هكذا ثبتَ هذا السَّندِ في بَعضِ التقاييد كما قالَ في "المرآة".

وفي بعضها أنَّ الشَّيخَ أبا العبَّاسِ ابنَ عقبةَ أخذَ عن سيفِ الدِّينِ أبي زكريا يحيى القادري عن والدهِ ظهيرِ الدِّينِ أحمدَ عن والدهِ عمادِ الدِّينِ أبي صالح نصرٍ عن والدهِ تاجِ الدِّينِ عبدِ الرَّزاقِ عن والدِهِ الشَّيخِ أبي مُحمَّد عبدِ القادرِ الجيلاني ﷺ.

وهذا السَّندُ يمنعهُ التَّاريخُ لكونِ الشَّيخِ سيفِ الدِّينِ القادري في طبقةٍ متقدمةٍ بحيثُ لا يمكنُ أنْ يدركَهُ الشَّيخُ ابنُ عقبةَ فيأخذَ عنهُ، وكذا يمنعُ السَّندَ الأوَّلَ إنْ كان سيِّدي يحيى القادري المذكورُ فيهِ هو سيِّدي يحيى سيفُ الدِّينِ بنُ ظهيرِ الدِّينِ وإنْ كان غيرهُ فصحيحٌ, والمُتعين أن يكونُ هو غيرهُ لاختلافِ سنديهما وطبقتيهما وعدمِ وجودِ تسميتهِ أيضاً بسيفِ الدِّينِ في ذلكَ السَّندِ.

وفي بعضِها أنَّ الشَّيخَ ابنَ عقبةَ أخذَ عن سيِّدي علي بنِ وفا بلا واسطةٍ ولا يصحُّ كما قالَ في " **المرآة** " لتأخُرِّ ولادةِ ابنِ عقبةَ عن وفاة ابن وفا بنحوِ سبعةَ عشرَ سنةً وفي بَعضِ ما قيَّدَهُ شيخُ بَعضِ شيوخِنا الإمامُ العالمُ الصَّالحُ النَّاصحُ أبي عبدِ اللهِ مُحمَّد بنِ ناصرٍ الدِّرعي رحمَهُ اللهُ أنَّ الشَّيخَ ابنَ عقبةَ أخذَ عنِ الشَّيخِ أبي الحسن القرافي عنِ الشَّيخِ ابنِ عطاءِ اللهِ.

وردَّهُ في " **تحفةِ أهلِ الصِّدِّيقيَّةِ** "[1] بأنَّ فيهِ واسطةً واحدةً بينَ ابنِ عقبةَ وابن عطاءِ اللهِ وبينهُما تاريخاً مائة وأربعَ عشرةَ سنةً, ولعلَّ الناقلَ لهذهِ الأسانيدِ والنَّاسخَ لها أسقطَ واسطةً أو أكثرَ وذلكَ هو الظَّاهرُ لكثرةِ تدولِ أيدي العوام لها, فما يوجدُ في مثلِها من عدمِ الاتِّصالِ لا يوجب في السَّندِ ريباً ولا بطلاناً, وغايةُ ما فيهِ أنْ يكونَ منقطعاً لا باطلا واللهِ أعلمُ.

وأخذَ الشَّيخُ ابنُ عقبةَ أيضاً كما قالَ هو عنِ الشَّيخِ عبدِ الكبيرِ الحضرمي نزيلِ مكةَ وهو عن جماعةٍ من الشُّيوخِ, وكان أنتفاعهُ بثلاثةٍ

وهُمْ أبو عِمرانَ موسى صاحبُ الحليةِ[2] والحلة, والشَّريفُ أحمدُ الشَّاوي وأبو بكرٍ بن مُحمَّد الزَّيلعي صاحبُ الخالِ بالمعجمة ولم نقفْ على سندِهم.

قالَ الشَّيخُ أبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ يوسفَ الفاسي رحمَهُ اللهُ, وأظنُّ أنَّ الشَّيخَ عبدَ الكريمِ الحضرمي شاذلي الطَّريقةِ.

وأمَّا الذين أخذَ عنهُم الشَّيخُ زرُّوقُ تبركاً و استفادة

فالشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ بنِ زمامٍ أخذَ عنِ الشَّيخِ أبي عبد اللهِ مُحمَّد الأمينُ العطَّارُ دفينُ جبلِ زرهون وهو كما قالَهُ الشَّيخُ زرُّوقٌ في كُناشته

" لا شيخَ لهُ إلَّا أنَّهُ أنتسبَ للشَّيخِ سيِّدي عبد القادر الجيلاني والشَّيخِ أبي يعزى غيباً ونوى أنْ كُلَّ نافلةٍ يعملُها فهي لهُما فرآهُما مناماً وأتاهُ المددُ من قبلِهما ".

وقد لقيَ الشَّيخَ زرُّوقَ هذا الشَّيخُ وتبرَّكَ بهِ فشاركَ فيهِ شيخَهُ سيِّدي ابنَ زمامٍ المذكورِ.

---

[1] . الكتاب من تأليف الشيخ أبو عيسى مُحَمَّد المهدي بن أحمد بن علي بن الشَّيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي ، وقد سبقت ترجمته في صفحة/10.

[2] . أبو عمران موسى بن عيسى المازوني فقيه من القضاة من قرية مازونة وهي قرية في جبال الظهرة بين وادي شلف والبحر الأبيض المتوسط بها نشأ وتعلم له مؤلفات منها "حلية المسافر وآدابه." و " ديباجة الافتخار." و " الرائق في تدريب الناشيء " معجم أعلام الجزائر ص281.

والشَّيخُ ابنُ عروسٍ تقدَّمَ سندهُ عندما ذُكرَ في مشيخةِ سيّدي إبراهيـــمَ الزَّواري وباقيهم لم نطَّلعْ على سندِهم في الطَّريقِ.

وقد قالَ الشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ الخرُّوبي أنَّ طريقةَ شيخهِ الشَّيخِ زرُّوقٍ شاذليَّةٌ, وقالَ في " **المرآة** "

" وعلى كُلِّ حالٍ فالشَّيخُ زرُّوقٌ ينتسبُ للشَّيخِ أبي الحسن الشَّاذلي كما صرَّحَ بهِ تلميذهُ الشَّيخُ ظاهرٌ بنُ زيان القسنطيني, وإنْ كان بعضُ الشُّيوخِ لا يتصلُ بهِ غيرهُ من شيوخهِ "[1] انتهى.

وكذا أيضاً ينتسبُ للشَّيخِ سيّدي عبدِ القادرِ الجيلاني، ويتصلُ بهِ على كُلِّ حالٍ وقد حصلَ اتصالهُ بكلِّ مِنهُما من طرقٍ متعدِّدةٍ كما قرَّرهُ في " **تحفة أهلِ الصِّدِّيقيَّة** ".

فيتصلُ بالشَّيخِ أبي الحسنِ الشَّاذلي من طريقِ شيخهِ ابنِ عقبةَ عن ابنِ وفا وتقدَّمَ سندهُ.

ومن طريقِ الشَّيخِ الجزولي إذا كان لقيَهُ كما حكيناهُ فيما سلفَ عنِ الشَّيخِ أحمد بابا والشَّيخِ الجزولي متصلَ الإسنادِ بالشيخِ الشَّاذلي كما سيأتي.

ومن طريقِ الشَّيخِ ابنِ عبَّادٍ كما ذكرَهُ هو في شروحهِ للحكمِ بواسطةٍ واحدةٍ بينهُ وبينَهُ وبواسطتينِ.

وابنُ عبَّادٍ ﷺ شاذلي الطَّريقةِ صرَّحَ بذلك تلميذهُ الشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ بنِ السَّكادِ ويتصلُ بالشَّيخِ عبدِ القادرِ الجيلاني من طريقِ شيخهِ الشَّيخِ الزَّيتوني, وتقدَّمَ لأنَّ طريقتَهُ قادريةٌ ومن طريقِ الشَّيخِ ابنِ زمامِ الرَّكاعِ وشيخهُ سيّدي الأمين العطَّارِ إذ كان مردُّ هذا الشَّيخِ كما تقدَّمَ مِنَ الشَّيخِ سيّدي عبدِ القادرِ ومن الشَّيخِ أبي يعزى رضيَ اللهُ عنهُما.

---

[1] . ذكر في المرآة ضمن فصل في أسانيد الشيخ أحمد زروق .

ومن جهةِ اتصالهِ بالشَّاذلي من طريقِ سيِّدي أبي مدينَ عنه أي عن الشَّيخِ عبدِ القادرِ فهو ﷺ منتسبٌ لكلٍّ منَ الشَّيخينِ أخذَ من كِلا الطريقينِ القادريةِ والشَّاذليةِ وطريقهُ القادريةُ طريقُ فتحٍ وولادةٍ، وطريقهُ الشَّاذليةُ طريقُ تربيةٍ واستفادةٍ.

قالَ الشَّيخُ الإمامُ العارفُ باللهِ أبو مُحمَّد سيِّدي عبدِ الرَّحمنِ ابنِ مُحمَّد الفاسي ﷺ

" هذهِ الطَّريقُ يعني طريقَ شيخِهم المجذوبِ ولادتُها قادريةٌ وتربيتُها شاذليةٌ " وقد سلف لنا عنهُ أنَّها زروقيةُ الولادةِ، وإذا كانتْ ولادتُها الزَّروقيةُ قادريةً كان الشَّيخُ زرُّوقُ قادريَ الولادةِ لا محالةَ, إذ لا اتَّصالَ للشَّيخِ المجذوبِ بولادةِ الشَّيخِ عبد القادرِ إلَّا من الطَّريقة التي هي طريق ولادته واللهِ أعلمُ.

ويوجد للشَّيخِ زرُّوقٍ ﷺ سندٌ آخرَ يتصلُ بابنِ عطاءِ اللهِ مبدوءً بشمسِ الدِّينِ السَّخاوي العالمِ المحدِّثِ المعروفِ وليسَ من هذا البابِ.

قالَ الشَّيخُ أبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ يوسفَ الفاسي في تأليفٍ له

" أنَّ ذلكَ باطلٌ بحسبِ ما نحن بصددهِ لأنَّ السَّخاوي إنَّما كان من أربابِ علومِ الرِّوايةِ والحديث "

وقالَ أخوهُ في " **المرآة** " وما ذكرَهُ الشَّيخُ زرُّوقُ في أوَّلِ شروحهِ للحكمِ وفي غيرِها من روايةِ كتُبِ الشَّيخِ تاجِ الدِّين بنِ عطاءِ الله عن شمس الدِّين السَّخاوي بسندهِ فليسَ من أسانيدِ القومِ في وِردٍ ولا صدٍّ وإنَّما هي روايةٌ محضة على العادةِ في روايةِ الكتبِ, ولفظهُ في أجازتهِ للفقيهِ المباركِ أبي العبَّاسِ أحمدَ بنِ الشَّيخِ الصَّالحِ أبي عمران موسى بنِ عمرَ وقد سألَهُ أنْ يجيزَ لهُ مايجوزُ لهُ وعنهُ روايتهُ ما نصُّهُ

" أجزتُ لهُ أنْ يرويَ عنِّي جميعَ ذلكَ بشرطهِ ومنهُ كُتبَ ابنِ عطاءِ اللهِ، أخبرَني بها أجازةً شفاهاً شمسُ الدِّينِ السَّخاوي بدارهِ القاهرة سنةَ " 876هـ "

قالَ أخبرني بِها أجازةً من بيت المقدس أبو زيد عبد الرَّحمنِ القبابي بإجازتِهِ من شيخِ الإسلامِ أبي الحسنِ علي بنِ عبدِ الكافي السَّبُكي عن مؤلِّفِها تاجِ الدِّينِ "[1] إنتهى.

وهو واضحٌ لا شكَّ فيهِ، وقد رأيت هذا السَّندَ بخطِّ بعضِ مشايخِنا العلماءِ قيَّدَهُ لبعضِ أصحابِهِ سنداً لطَّريقةِ الشَّيخ زرُّوقٌ فأعتمدَهُ ذاهباً عليهِ ولعلَّهُ قلَّد في ذلكَ شيخهُ لأنَّهُ يتمسَّكُ تبرُّكاً بِهِ بكلِّ مايأخذهُ عنهُ ولو لم يظهرْ لهُ وجههُ حتَّى كادَ يصلَ بنوادرِهِ، أو أنَّهُ لمَّا رآهُ سنداً لكُتبِ ابنِ عطاءٍ المؤلَّفةِ في علومِ القومِ عدّه مَنْ أخذَ الطَّريقَ وليسَ منهُ فليتنبَّهُ لهُ، أو لعلَّهُ هو وشيخهُ قلَّدا في ذلكَ الشَّيخَ العالمَ الولي الصَّالِحَ أبا العبَّاس سيّدي أحمدَ بنَ أبي القاسمِ التَّادلي الصومعي رحمَهُ اللهُ حيثُ ذكرَهُ سنداً للطَّريقِ في تأليفٍ لهُ في " **مناقبِ الشَّيخ سيِّدي أبي يعزى**" نفعَنا اللهُ بهِ حسبَما نقلَهُ عنهُ الفقيهُ الصَّالِحُ سيّدي أحمدُ بنُ أبي القاسمِ المذكورِ هو ما نقلَهُ هو عن الشَّيخِ سيّدي طاهرِ بنِ زيَّانٍ تلميذِ الشَّيخِ زرُّوقٍ من " **الأرجوزة** " لهُ التي ذكرَ فيها ذلكَ السَّندَ إلى آخرِهِ.

وقد قسَّمَ الشَّيخُ سيِّدي ظاهرٌ في هذهِ الأرجوزةِ طريقَهُ إلى معنوي ورسمي وجعلَ المعنوي هو سلسلةُ الأقطابِ، وهذا السَّندُ هو الرَّسمي إلَّا أنَّهُ لمَّا ذكرَ في آخرِهِ عدَّة جمعِه أبينَ العلمينِ كالشَّيخِ أبي مدينَ وأبي طالبٍ والجنيدِ ﷺ وقعَ الاشتباهُ في أنَّهُ سندُ الطَّريقِ ولا أشتباهَ بعدَ تصريحهِ بأنَّهُ رسمي واللهُ أعلمُ.

أمَّا الشَّيخُ القطبُ الإمامُ أبو عبدِ اللهِ سيِّدي مُحمَّد بنُ سليمانَ الجزولي الشَّريفُ الحسني ﷺ فأخذَ عنِ الشَّيخِ أبي عــبدِ اللهِ مُحمَّد الشَّريفِ أمغار الصَّغيرِ نزيلُ رباطِ تيطنفطر قرية بساحلِ أزقور تُعرفُ الآنَ بتيط وبه كان مأوى سلفهِ المباركِ أهلِ الصَّلاحِ والولايةِ عن الشَّيخِ أبي عثمانَ سعيدٍ الهرثناني عن الشَّيخِ أبي زيدٍ عبدِ الرَّحمنِ الرَّجراجي، وأقامَ بحرمِ اللهِ عشرينَ سنةً عنِ

---

[1] . ذكر في المرآة ضمن فصل في أسانيد الشيخ أحمد زروق

الشَّيخِ أبي الفضلِ الهندي عنِ الشَّيخِ عنوسٍ البدوي راعي الإبلِ عنِ الإمامِ أبي العبَّاسِ أحمدَ القرافي عنِ الشَّيخ أبي عبدِ اللهِ المغربي عنِ الشَّيخِ الشَّريفِ القطبِ إمامِ الطَّريقةِ أبي الحسنِ الشَّاذلي ﷺ.

هذا هو السَّندُ الذي عندَ الطَّائفةِ الجزولية المعروف عندَهُم والمتأولُ فيما بينهم وذكرَهُ غيرَ واحدٍ من شيوخِهم كالشَّيخِ أبي الحسنِ علي صالح تلميذِ الشيخ التَّباعِ وخليفتهِ بفاسٍ فيما قيَّدَهُ بخطِّهِ, والشَّيخِ أبي زيدٍ عبدِ الرَّحمنِ الوزروالي تلميذِ الشَّيخِ أبي عمرَ المراكشي في نظمٍ لهُ وغيرِهما, وذكرَهُ أيضاً أبو عبدِ اللهِ ابنُ عسكر في دوحتهِ بإجازةٍ لهُ عن شيخهِ الشَّيخِ الولي أبي الحجَّاجِ يوسفَ الفجيجي بإجازةٍ لهُ فيهِ بروايةِ أخْذِهِ هو متَّصلةٍ منهُ إلى آخرَ السَّندِ، وذكرَ عنهُ أنَّ الشَّيخَ سيّدي عبدَ الرَّحمنِ الرَّجراجي المذكورِ في السَّندِ هو المعروفُ عندَ العامةِ " بابي زيدٍ وإلياس " وقبرهُ بشفشاوة من أعمالِ مراكشَ وقد انتهى مقامهُ إلى القطبانيةِ هذا كلامهُ، ودعاؤهُ عندَ العامَّةِ بأبي زيدٍ وإلياس هو على اللُّغةِ البربريةِ من أنَّ الواو في مثل ذلكَ بمعنى ابن أي " ابن إلياس ".

وذكرَ ابنُ عسكر عن شيخهِ المذكورِ أيضاً أنَّ الشَّيخَ القرافي المذكورَ في السلسلةِ أخذَ عنِ الشَّيخِ أبي العبَّاس المرسي عنِ الشَّيخِ أبي الحسن الشَّاذلي ﷺ وقالَ بعدَ أنْ ساق السندَ المذكورَ بتمامهِ

" هذه الرِّوايةُ الصَّحيحةُ المتَّفقِ على صحتِّها ثُمَّ قالَ وقد أخبرني بصحَّةِ هذا السندِ أيضاً الفقيهُ الحافظُ الراويةُ أبو العبَّاسَ أحمدَ بنُ الشَّيخِ أبي العبَّاسِ أحمدَ بنُ مُحمَّد العبّادي التِّلمساني سنةَ ثمانيةٍ وستينَ وتسعمائةٍ بإجازةِ أبيهِ لهُ في ذلكَ، وأجازني في روايتهِ عنهُ من طريقِ أبيهِ عن الشَّيخِ أبي عبدِ اللهِ مُحمَّد بنِ سليمانَ الجزولي ".

وما قالَهُ الشَّيخُ أبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ الشَّيخِ أبي المحاسنِ يوسفَ الفاسي ﷺ في مؤلفٍ لهِ في أسانيدِ والدهِ ونقلَهُ أخوه الشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ العربي في

"**المرآة**" عنهُ كالمُقرّ لهُ وتبعهُما حفيدُ أخيهما سيّدي المهدي بنُ أحمدَ الفاسي في "**التُّحفةِ والإلماعِ**" من أنَّهُ لا يعرِفُ من هؤلاءِ الشُّيوخِ أحداً سوى الشَّيخِ أبي عبدِ اللهِ أمغار وإنَّ القرافي المذكورَ لا يُدرى هل هو العالِمُ المشهورُ أو غيرهُ وأنَّ أبا عبدِ اللهِ المغربي لم يوجد في "لطائفِ المننِ" ولا في كتابي ابنِ الصَّباغِ وسيِّدي عبدِ النُّور لايوجب شيئاً في هذا السَّندِ ولا يُكسبهُ ضعفاً ولا علَّةً لما عُلِمُ من أنَّ أهل علم الظَّاهرِ لا يعتنون بمعرفةِ رجالِ هذهِ الطَّريقِ ولا بالتَّعريفِ بهم لعدمِ ترتُّبِ حكمٍ شرعي على ذلكَ لما يترتَّبُ عليهِ في نقلِ الحديثِ، وإنَّما يعتني بذلك أهلهُ المنتسبون إليهِ.

وقد تواطأتْ هذه الطَّائفةُ الجزوليةُ على حفظِ هذا السندِ ونقلَهُ بعضُهم عن بعضٍ وكفى بذلك معرفةً لرجالهِ وشهرةً لهُمْ لا سيَّما وقد تظافرتْ كما تقدَّمَ جماعةٌ من أهلِ العلمِ الظَّاهرِ والصَّلاحِ على روايتِهم لهُ أخذاً وإجازةً حتَّى تلميذَ الشَّيخِ الجزولي ﷺ المؤذنُ بأنَّهُ أخذَ ذلكَ عن الشَّيخِ نفسهِ وهو أعرفُ بهم شهادةً وغيباً وناهيك تعريفاً بهم معرفتهُ هو لهُمْ, والتَّرددُ في أنَّ القرافي هل هو العالمُ الكبيرُ المعروفُ أو غيرهُ لا ينبغي, إذ من المعلومِ أنَّهُ لايُعرفُ لهُ أخْذٌ في الطَّريقِ ولو كان لوصفَهُ بهِ الأسيوطي في " **حسن المحاضرة** "[1] عندما عرَّفَ بهِ كما وصفَ كثيراً من العلماءِ بذلك وهو حافظُ الدُّنيا وعالمُها مع كونهِ من أهلِ بلدهِ، وعدمِ وجودِ أبا عبدِ اللهِ المغربي في الكتبِ المذكورةِ لا يُؤذِنُ بكونهِ منفياً ولا مجهولاً لأنَّ تلكَ الكتبِ الثَّلاثةِ كما ذكرَ لم تتعرَّضَ لذكرِ أصحابِ الشَّيخِ الشَّاذلي كلِّهُم ولا استوفتْ منهُم بعضَ البعضِ، ثُمَّ إنَّ العلمَ بهؤلاء السَّادةُ الماضينَ من حيثُ الظَّاهرِ إنَّما هو بالشُّهرةِ والسَّماعِ وقد يكونُ للإنسانِ في قطرهِ شهرةٌ وأهلُ قطرٍ آخرَ لا يعرفونَهُ وهو لم يطأ تلكَ الأقطارِ كلّها حتَّى

---

[1] . كتاب (حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة) للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكرٍ السيوطي أبو الفضل.

يستقرِئ المجهولِ من المعلومِ، وهذا أبو زيدٍ الرَّجراجي لهُ شهرةٌ عظيمةٌ في أرضهِ لم يصلْ خبرهُ، وهل الآخرون بالقياسِ عليهِ إلَّا كذلك؟ وحسْبُ مَنْ لم يعرفْهُم ولا عرفَ شهرتَهم أنْ يستندَ إلى مَنْ عرفَهُم وعرفَها حتَّى لا يحكمَ على معلومٍ بجهالةٍ ولا على مستورٍ بخمالةٍ، رزقَنا اللهُ السَّدادَ وألهمَنا الصَّوابَ آمين.

وأخذَ الشَّيخُ الجزولي أيضاً عنْ سيِّدي عبدِ العزيزِ العجمي لقيَهُ بالجامعِ الأزهرِ من مصرَ عنِ الشَّيخِ أبي الحسنِ الشَّاذلي ﷺ ذكرَ ذلكَ الشَّيخُ الغزواني في جوابٍ لهُ نظماً ونثراً، ولعلَّ المرادَ بأخذِ سيِّدي عبدِ العزيزِ المذكورِ عن الشَّاذلي أنَّهُ من أهلِ طريقتهِ والمنتسبين إليهِ وإلَّا فلا يمكنُ أنْ يأخذَ عنهُ مباشرةً لبُعدِ ما بينَهُما زماناً، وبيَّنَ ذلكَ أنَّ الشَّيخَ الجزولي ﷺ تُوفيَ سنةَ سبعين وثمانمائةٍ والشَّيخُ الشَّاذلي سنة ست وخمسين وستمائةٍ فلا يصحُّ أنْ يكونَ بينَهُما واسطةٌ واحدةٌ واللهُ أعلمُ.

هذا مايتعلَّقُ بسندِ الجزولي وهو ﷺ مُحمَّد بنُ عبدِ الرَّحمنِ بنُ أبي بكرٍ بنُ سليمانَ بنُ يعلى بنُ يخلفٍ بنُ موسى بنُ علي بنُ يوسفَ بنُ عيسى بنُ عبدِ اللهِ ابنُ جندوز بنُ عبدِ الرَّحمنِ بنُ مُحمَّد بنُ أحمدَ بنُ حسَّانٍ بنُ إسماعيلَ بنُ جعفرَ بنُ عبدِ اللهِ بنُ حسنٍ ابنُ الحسنِ بنُ علي ﷺ.

هكذا يوجد هذا النَّسَب عندَ غير واحد ممَّنْ ذكرَهُ وعند بَعضِ الشُّرفاءِ المتَّصلينَ بهذا العمودِ، وجعفرٌ المذكورُ فيهِ ابناً لعبدِ اللهِ الكاملِ لم يذكرْهُ في أبناءِ عبدِ اللهِ مصعبُ الزُّبيدي ولا ابنُ حزمٍ, فأمَّا بقيَ عليهِما أو وقعَ أسقاطٌ في العمودِ بينَ جعفرَ وعبدِ اللهِ ﷺ.

سندُ الشّيخ أبو الحسن الشَّاذلي ﷺ

ثُمَّ الشَّيخُ القطبُ شيخُ الطَّريقةِ وإمامُها سيِّدي أبو الحسن الشَّاذلي الشَّريفُ الحسني ﷺ المنتهى إليهِ سندُ الشَّيخينِ قبلَهُ الشَّيخُ زرُّوقُ والشَّيخُ الجزولي رضيَ اللهُ عنهُما لهُ طريقتان كما ذكرَ غيرَ واحدٍ، طريقةُ تحكيمٍ واقتداءٍ وإرادةٍ، وطريقة تبرُّكٍ ونفعٍ واستفادةٍ.

فأمَّا التي على سبيلِ الاقتداءِ وسلبِ الإرادة فعنِ الشَّيخِ الشَّريفِ قطبِ الأقطابِ أوَّلُ مَن بدأ بمغربِنا قطباً أبا مُحمَّد سيِّدَنا عبدَ السَّلامِ بنَ مشيشٍ بنَ أبي بكرٍ بنَ علي بنَ حرمةَ بنَ عيسى بنَ سلَّامٍ بتشديد اللَّامِ بنَ مزوارٍ ابن حيدرةَ بنَ مُحمَّد بنَ أدريسَ بنَ أدريس بن عبدِ اللهِ الكاملَ بنَ حسن بنَ الحسنِ بنَ علي ﷺ على يديهِ فُتحَ لهُ الفتحُ العظيمُ ومُدَّ بالمددِ الجسيمِ لا عمدةَ لهُ سِواهُ ولا ينتسبُ لهُ عداهُ، وهو عنِ الشَّيخِ القطبِ أبي مُحمَّد عبدِ الرَّحمنِ بنِ الحسينِ الشَّريفِ الحسيني العطَّارِ المدني المشهورِ بالزيَّاتِ لسكناهُ بحارةِ الزَّيَّاتين موضعٌ بالمدينةِ, على يديهِ فُتحَ لهُ وسلكَ الطَّريقَ وهو ابنُ سبعِ سنينَ، وكان يأتيهِ من المدينةِ المشرَّفةِ في ساعةٍ واحدةٍ ويُربّيهِ ويُرقّيهِ ويذهبُ إليهِ هو كذلك إلى أنْ تكمَّلَ, لا ينتسبُ إلَّا إليهِ ولا يعوّلُ في شأنهِ إلَّا عليهِ, وأخذَ عن غيرهِ أيضاً.

سندُ الشَّيخ عبد السَّلام بن مَشيش ﷺ

قالَ الشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ الخرُّوبي في " **شرحِ التَّصليةِ** " أخذَ سيِّدي عبدُ السَّلامِ بنُ مشيشٍ الطَّريقَ عن أكابرٍ.

منهُم الشَّيخُ سيِّدي عبدُ الرَّحمنِ المدني ﷺ أخذَ وصحبَ واقتدى بالشَّيخِ القطبِ تقي الدِّين الفُقيّر الصُّوفي من أرضِ العراقِ المعروفِ بتُقي الفُقيّرِ بالتَّصغيرِ فيهما وهو الذي سمَّى نفسَه بذلك تواضعاً.

وهو صحبَ واقتدى بالشَّيخِ القطبِ فخرِ الدِّين.

وهو صحبَ واقتدى بالشَّيخِ القطبِ نورِ الدينِ أبي الحسنِ علي.

وهو صحب واقتدى بالشَّيخِ القطبِ تاجِ الدِّينِ مُحمَّد بأرضِ التُّركِ.

وهو صحب واقتدى بالشَّيخِ القطبِ شمسِ الدِّينِ مُحمَّد.

وهو صحبَ واقتدى بالشَّيخِ القطبِ زينِ الدِّينِ مُحمَّد القزويني أو الغزواني.

وهو صحبَ واقتدى بالشَّيخِ القطبِ أبي إسحاقَ إبراهيمَ البصري.

وهو صحبَ واقتدى بالشَّيخِ أبي القاسمِ أحمدَ المرواني أو المروالي.

وهو صحبَ واقتدى بالشَّيخِ القطبِ أبي مُحمَّد سعيدٍ.

وهو صحب واقتدى بالشَّيخِ القطبِ سعدٍ.

وهو صحبَ واقتدى بالشَّيخِ القطبِ أبي مُحمَّد فتحِ السُّعودي بياءِ النَّسَبِ.

وهو صحب واقتدى بالشيخ سعيد الغزواني[1].

وهو صحبَ واقتدى بالشَّيخِ القطبِ جابرٍ.

وهو صحبَ واقتدى بأوَّلِ الأقطابِ سبطِ النُّبوَّةِ أبي مُحمَّد سيِّدِنا الحسنِ ابن سيِّدِنا علي عن جدِّهِ سيِّدِنا ومولانا مُحمَّد رسولِ اللهِ ﷺ.

---

[1] اضافة الشيخ سعيد الغزواني الى النسب حسب ماورد في الإلماع ص (118) عند سرد النسب .

ذكرَ هذا السّندَ الشَّيخُ الإمامُ تقي الدِّينِ أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد الإسكندري سبطُ سيّدي أبي الحسن الشّاذلي في كتابهِ " **شفاء الغليلِ ودواء العليلِ** " مسلسلاً بصحبَ واقتدى كما ذكرتهُ، ونقلَهُ عنِ الشَّيخِ إبراهيمَ المواهبي عنهُ كذلك الشَّيخُ سليمانُ بنُ محي الدِّينِ الذّاكرِ المدني في تأليفٍ لهُ في الأسانيدِ رأيتهُ بخطِّهِ ورأيتهُ في " **النُّبذةِ المفيدةِ** " لسبطِ الشّاذلي أيضاً مسلسلاً بالصُّحبةِ والإقتداءِ، وذكرَهُ كذلك أيضاً الشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد زينُ العابدينَ سبطُ المرصفي في كتابهِ " **داعي الفلاحِ إلى سبيلِ النَّجاحِ** " ولم يذكرْ غيرَهُ.

وذكرَهُ الشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ الفروصيني في كتابِهِ " **الأسلوبُ الغريبُ في التَّعلُّقِ بالحبيبِ** " والفقيهُ أبو عبدِ اللهِ ابنُ عسكر في كتابهِ " **دوحةُ الناشرِ**" وغيرُهم.

وقالَ الشَّيخُ سيّدي إبراهيمُ المواهبي

" أنَّهُ طريقةٌ مشهورةٌ "

وقالَ في " **النُّبذةِ** "

" أنَّهُ وجدَهُ منقولاً عندَ الشَّيخِ تاجِ الدِّينِ ابنِ عطاءِ اللهِ ﷺ ".

وقالَ الشَّيخُ أبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ يوسفَ الفاسي رحمَهُ اللهُ

" ذكرَ غيرَ واحدٍ أنَّهُ وُجِدَ بخطِّ ابنِ عطاءِ اللهِ ".

وقالَ الشَّيخُ سيّدي أبو العبَّاسِ المُرسي حسبَما في " **النُّبذةِ** " عنهُ

" هذه الطَّريقةُ يعني الشَّاذليةُ متصلةٌ بالاقطابِ معنعنةٌ برجلٍ عن رجلٍ إلى الحسنِ بنِ علي "

وفي " **لطائفِ المننِ** " عنهُ

" طريقتُنا لا تنسبُ لمشارقةِ ولا لمغاربةِ وإنّما هي واحدٌ عن واحدٍ إلى الحسنِ بنِ علي "

يعني ليسَ شيوخُ طريقِهم من أهلِ قطرٍ واحدٍ بل بعضُهُمْ من هذا القطرِ وبعضُهم من هذا، وأشارَ بقولهِ واحدٌ عن واحدٍ أتَى أنفرادُ كُلٍّ في زمانهِ نظيرُ ما نقلَ عنهُ في " **النُّبذةِ** " من التَّصريحِ بكونِهم أقطاباً وهذا كلُّهُ مطابقٌ لِما ذكرناهُ من السَّندِ مُعيَّناً.

ويُحتملُ أنَّهُ ﷺ عرفَ ذلكَ من حيثُ الرِّوايةِ والنَّقلِ أو من جهةِ البصيرةِ والكشفِ أو كليهما، وعلى كُلِّ حالٍ فهو مؤيِّدٌ لصحَّةِ هذا السَّندِ ومؤذِنٌ بأنَّهُ هو على التَّعيينِ إذ لم يخبرْ ﷺ إلَّا عن الواقعِ خارجاً، والواقعُ المنقولُ هو ذلكَ، ولم ينقلْ غيرَهُ حتَّى يقعَ الاحتمالُ في أيِّهِما مرادهُ, وإذا كان كذلك فلا وجهَ للإستبعادِ الذي أشارَ إليهِ في " **المرآة** " بقولهِ

" فقد أثبتَ الشَّيخُ يعني المرسي وجودَ السِّلسلةِ متَّصلةً فمَنْ وافقَها نقلاً فذاك ومن لنا بالموافقةِ ".

وقولُ أخيهِ الشَّيخِ أبي العبَّاسِ بعدَ ذكرِ هذا السند في تأليفهِ

" إنّي لستُ أعرفُ من هؤلاءِ الشُّيوخِ الذين بينَ الإمامِ أبي الحسنِ والشَّيخِ عبد الرَّحمنِ المدني واحداً يردُ بنظيرِ ماتقدَّمَ لنا من الكلامِ معهُ في سندِ الشَّيخِ الجزولي "

ثُمَّ إنَّ الظَّاهرَ من كلامهِ أنَّهُ لم يطَّلِعْ إذ ذاك على شيءٍ من النُّقولِ التي ذكرنا سوى كلامِ الفروصيني لأنَّهُ أقتصرَ في نقلِ هذه السِّلسلةِ عليهِ، وقولُ الشَّيخِ القصَّارِ رحمَهُ اللهُ

" ولا علمَ لنا لمَنْ ينتسبُ سيِّدي عبدُ الرَّحمنِ المدني ولو تحقَّقنا أخذَهُ عن معيَّنٍ واحدٍ وأكثرَ"

موجَّهٌ بأنَّهُ لم يجدْ عندَهُم التَّصريحُ بخصوصِ الإنتسابِ وذلك مأخوذٌ من قولِهم في السِّلسلةِ صحبَ واقتدى كما تقدَّمَ, إذ معنى الاقتداءِ سلْبُ الإرادةِ

والتَّحكيمِ, والرَّجلُ إنَّما يُنسبُ لمَنْ سلبَ لهُ الإرادةَ لا لمَنْ تبرَّكَ بهِ، وكفى دليلاً على انتسابِ المدني لمَنْ ذُكرَ بعدَهُ في هذه السِّلسلةِ قولُ المرسي المتقدِّمِ

" طريقتُنا متَّصلةٌ بالأقطابِ "

إذ هو يخبرُ عن طريقةِ أنتسابِهم كما لا يخفى, قالَ في " **النُّبذة** " بعد ذِكرِ هذا السَّندِ.

والسَّندُ الآخرُ للشَّاذلي الآتي ذِكرهُ طريقُ الشَّاذلي التي من جهةِ ابنِ مشيشٍ قدوةً وصحبةً ليسَ فيها خرقةٌ البتَّةَ وإنَّما هي كلُّها بالصُّحبةِ والاقتداءِ والتَّوصيلِ كما هو معلومٌ عندَهُم التَّوصيلُ إلى اللهِ, وإذا حصل لأمر الوصول على يدِ أحد فذلك هو شيخهُ الذي إليهِ نسبتهُ بلا ريبٍ، وهذا أصرحُ شيءٍ في أنَّ هذه الطَّريقةِ المذكورةِ التي هي سلسلةُ الأقطابِ طريقةُ انتسابٍ بل هي طريقُ وراثةٍ أيضاً لوجودِ أهلِها كلُّهم أقطاباً وذلك بإرثِ القطبانيةِ بعضُهم عن بعضٍ كما هو ظاهرٌ.

ذكرُ الإختلاف في هذا السند

ويوجدُ في هذه السَّلسلةِ بعضُ اختلافٍ بزيادةٍ ونقصٍ أو بتقديمٍ و تأخيرٍ ممَّا سببهُ تصحيفُ النَّقلةِ لا الاختلافِ في الأصلِ المنقولِ فيما يظهرُ, إذ هذه الأسانيدُ غالبُ مَنْ يتعاطاها كتْباً وتقييد أعوامُ النَّاسِ, فلا جرمَ يقعُ الخللُ لقلَّةِ ضبطِهم وتحفُّظِهم، وقد حرَّرتُ هذه السَّلسلةَ كما ينبغي جهدَ الاستطاعةِ بعدَ تصفُّحِ أهلِ النُّقولِ المتقدِّمةِ ومعرفةِ ما زادَ وما نقصَ، فجمعتُ بين ماينبغي أنْ يُجمعَ من الألفاظِ الواقعةِ فيها مفترقةً عِندَهُم كبعضِ الكُنى والنَّسبِ ممَّا لا يعدُّ الاختلافُ في ذكرِها وحذفِها خلافاً، وسقتُها متحرّياً بالموافقةِ ما لديهِم ومخالفاً

للفروصيني في زيادتهِ بينَ شمسِ الدِّينِ وزينِ الدِّينِ إسمين تكرَّرَ لفظُهما قريباً وبين فتحِ السُّعودِ وجابرٍ إسماً واحداً، ولصاحبِ " **النُّبذة** " في تقديمِ فتحٍ على سعدٍ، ولصاحبِ " **الدَّوحة** " في تأخيرِ سعيدٍ عن فتحِ السُّعوديِ ووصفَهُ بالغزواني لإنفرادِ كلٍّ بما ذكرَ عمَّا عندَ الآخرين جميعِهم وأثبتُّ ذكرَ الشيخ إبراهيم البصري مع وجودهِ عندَ قومٍ وفقدانهِ عندَ آخرينَ تقديماً لمَنْ أثبتَ على مَنْ حرَّفَ ولم أحكِ في خلالِ السَّندِ خلافاً ليكونَ أجمعَ لذكرهِ وأعونَ على حفظهِ فجاءتْ السِّلسلةُ والحمدُ للهِ في تحريرٍ وأتقانٍ فليُتحافظْ عليها كذلك واللهُ المستعانُ.

وقد تحصَّلَ أنَّ طريقةَ اقتداءِ الشَّيخِ سيِّدي عبدِ الرَّحمنِ المدني ﷺ هي هذه الطَّريقُ المسلسلةُ بالأقطابِ وأنَّها عمدتهُ التي إليها الإنتسابُ, فهو المعوَّلُ عليهِ في هذا البابِ وخالصِ ما يُنقلُ واللُّبابُ.

وذكرَ جلالُ الدِّينِ الكركي في تأليفه " **نور الحدقِ في لبسِ الخِرقِ** "[1] أنَّهُ أخذَ عن شيخِ المشايخِ سيِّدي أبي مدينَ ﷺ بلا واسطةٍ، وذكرَ غيرهُ أنَّهُ أخذَ عن الشَّيخِ الولي الكبيرِ أبي أحمدَ جعفرَ بنِ عبدِ اللهِ بنِ أحمدَ بنِ سيِّد بونةَ الخزاعي الأندَلُسي وهو أخذَ

أوَّلاً . عن الشَّيخ أبي مدين ﷺ على يديهِ فُتحَ لهُ وإليهِ انتسبَ وعليهِ عوَّلَ

وثانياً. عنِ الشَّيخِ الولي الكبيرِ الشَّريفِ الجليلِ أبي العبَّاسِ أحمدَ بنِ علي بنِ يحيى بنِ ثابتٍ بنِ حازمٍ ابنِ علي بنِ الحسنِ بنِ أحمدَ بنِ موسى الثَّاني بنِ إبراهيمَ بنِ جعفرَ الصَّادقِ بنِ مُحمَّد الباقرِ ابنِ علي بنِ الحسينِ ﷺ المعروفِ بالرِّفاعي لقيَهُ بالمشرقِ، وكان سُكناهُ بأمِّ عبيدةَ قريةً من البطائحِ والبطائحُ قرى مجتمعةٌ بينَ واسط والبصرةِ، فلبسَ منهُ الخرقةَ وأخذَ عنهُ.

فأمَّا الشَّيخُ أبو مدينَ فسيأتي سندهُ.

---

[1] . كتاب (نور الحدق في لبس الخرق) للمؤلف جلال الدين أحمد خير الدين بن مُحمَّد الكركي.

وأمَّا الشَّيخ أحمد الرفاعي فأخذَ إرادةً كما قالَهُ الحافظُ أبو الحسنِ الشَّطنوفي في " **البهجة** "[1] عن خالهِ الشَّيخِ منصورٍ البطائحي وبهِ تخرَّجَ عن الشَّيخِ أبي مُحمَّد الشُّنبكي عنِ الشَّيخِ أبي بكرٍ ابنِ هواري البطائحي عن أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ وسيأتي كيفيَّةَ أخذهِ عنهُ.

وأخذَ تبرُّكاً ولبساً للخرقةِ كما قالَهُ الذَّاكرُ عنِ الشَّيخِ أحمدَ الواسطي عنِ الشَّيخِ أبي الفضلِ كامخ بنِ غلامٍ عنِ الشَّيخِ علي بنِ بارباني عنِ الشَّيخِ علي العجمي عنِ الشَّيخِ أبي بكرِ الشِّبلي عن شيخِ الطَّريقةِ أبي القاسمِ الجنيدِ ﷺ هكذا أوردَ الذَّاكرُ هذا السَّندَ في تأليفهِ الذي بخطِّهِ، ثُمَّ قالَ نقلاً عن شيخهِ.

صحَّحَ هذا السَّندَ الجلالُ الأسيوطي وذكرَهُ في " **نور الحدق** " حسبَما نقل في " **المرآة** " عنهُ معَ مخالفةِ وزيادةٍ، فذكرَ بدلَ أحمدَ الواسطي علي بن الغاري الواسطي، وزادَ قبلَهُ عن خالهِ منصورٍ، وذكرَ بدلَ ابنِ غلامٍ التَّابعِ لكامخٍ عن أبي علي غلامٍ بنِ توكانَ, والأوَّلُ أصحُّ لتصحيحِ الحافظِ الأسيوطي لهُ واللهُ أعلمُ.

هذا سندُ الشَّيخِ سيِّدي عبدِ الرَّحمنِ المدني ﷺ من طريقِ الشَّيخِ أبي أحمدَ بنِ سيِّد بونةَ وشيخهِ أبي مدينَ رضيَ اللهُ عنهُما وقد ذكرَهُ في "المرآة" على أنَّهُ طريقةُ اقتداءٍ لهُ مقدِّماً لهُ على سلسلةِ الأقطابِ.

والظَّاهرُ على فرضِ صحتِّهِ أنَّهُ طريقةُ تبرُّكٍ لوجوهٍ

أحدُها. أنَّ الشَّيخَ ابن سيِّد بونةَ في طبقةِ تلامذةِ الشَّيخِ سيِّدي عبدِ الرَّحمنِ المدني، إذ قد تُوفيَ في السنَّةِ التي تُوفيَ فيها ابنُ مشيشٍ تلميذُ المدني، فكانَ الظَّاهرُ أنْ يكونَ الشَّيخُ المدني رآهُ في آخرِ أمرهِ فأخذَ عنهُ تبرُّكاً.

---

[1] . كتاب (بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في مناقب الباز الأشهب سيدي عبد القادر الكيلاني) تأليف علي بن يوسف الشطنوفي المتوفى 713هـ.

ثانيهما. أنَّ ابن سيّد بونةَ كان بالمغربِ والآخرَ بالمشرقِ فلا يمكنهُ الاقتداءَ بهِ من تربيتهِ بهِ وترقّيهِ على يدهِ إلَّا إن كان يأتيهِ غيباً أو خطوةً كما اتَّفقَ لابنِ مشيشٍ معَ شيخهِ ولم يُنقلْ ذلكَ.

ثالثُهما. إنَّ ما نقلَهُ عن "نور الحدق" من أنَّ الشَّيخَ المدني أخذَ عن أبي مدينَ بلا واسطةٍ إنَّما هو في لبسِ الخرقةِ لأنَّ التأليفَ المذكورَ موضوعٌ لذلك وقد تقدَّمَ عن "النُّبذة" أنَّ طريقَ الاقتداءِ للشَّاذلي من جهةِ ابنِ مشيشٍ ليسَ فيها خرقةٌ البتَّةَ على أنَّهُ لا سلفَ لهُ في أنَّ ذلكَ طريقةُ أقتداءٍ وإنَّما ذكرَ مَنْ قبلَهُ حتَّى أخوهُ الشَّيخُ أبو العبَّاسِ رحمَهُ اللهُ مجرَّد الأخذ فقطعَ, ولو قيل بعدمِ أخذِ الشَّيخِ المدني رأساً عنِ الشَّيخينِ المذكورينِ أعني أبا مدينَ وتلميذَهُ ابنَ سيّد بونةَ لكانَ أظهرَ لأنَّ أخْذَهُ معَ كونهِ قطبَ زمانهِ عمَّنْ ليسَ بقطبٍ ممَّنْ هو في طبقتهِ كالأوَّلِ أو ممَّنْ هو في طبقةِ تلامذتهِ كالثَّاني, ولو كان ممكناً عقلاً في غايةِ البُعدِ واللهُ أعلمُ.

وما درجَ عليهِ في " **تحفة أهلُ الصِّدّيقيَّة والإلماع** " مِن ذِكرِ الخلافِ في أخذِ الشَّيخِ سيِّدي عبدِ الرَّحمنِ المدني ﷺ هل أخذَ عنِ الشَّيخِ تُقي الفُقيّرِ المتقدّمِ بسندهِ أو عن الشَّيخِ أبي مدينَ المذكورِ بواسطةٍ أو بغيرِها لا ينبغي, إذ المتحصّلُ منِ النُّقولِ التي ذكروا أنَّهُ أخذَ عن الجميعِ لا الاختلافَ في تعيينِ المأخوذِ عنهُ لأنَّ مَن نقلَ أنَّهُ أخذَ عن الشَّيخِ أبي مدينَ مثلاً لم يقلْ أنَّهُ لم يأخذْ إلَّا عنهُ حتَّى يكونَ مخالفاً لما ذكرَهُ غيرهُ فتثبَّتَ في ذلكَ واللهُ الموفّقُ.

وأمَّا طريقُ الشَّيخِ أبي الحسنِ الشَّاذلي ﷺ التي على سبيلِ التبرُّكِ والاستفادةِ فأخذَها قبلَ أخذهِ عن الشَّيخِ سيِّدي عبدِ السَّلامِ بنِ مشيشٍ ﷺ عن جماعةٍ من المشايخِ لقيَ منهُم كثيراً في حالِ بدايتهِ وسلوكهِ وانتفعَ بهم وكان يلقى الخضرَ عليهِ السَّلامُ في حالِ بدايتهِ وحالِ كمالهِ والمُعينِ لهُ في ذلكَ حسبَما ذكرَهُ أهلُ الأسانيدِ طريقان.

أحدهُما. بالصُّحبةِ والانتفاعِ.

وثانيهما. بالصُّحبةِ ولبسِ الخرقةِ.

فأمَّا التي بالصُّحبةِ والانتفاعِ فعنِ الشَّيخِ أبي سعيدٍ خليفةَ بنِ أحمدَ الباجي التميمي دفينٌ خارجَ تونسَ، أخذَ عنهُ في إبتداءِ أمرهِ وقالَ أنَّهُ لازمَهُ وانتفعَ بهِ كثيراً ذكرَ ذلك ابنُ الصَّباغِ وهو كما ثبتَ في بعضِ التَّقاييدِ عن الشَّيخِ أبي مدينَ دون واسطة وفي بعضها عن الشيخ أبي مُحمَّد عبد العزيز بن أبي بكر المهدوي عن الشيخ أبي مدين.

وأمَّا التي بالصُّحبةِ ولبسِ الخرقةِ فذكرَ سبطُ الشَّاذلي فـــي "النُّبـــذة" ومثلهُ للفروصيني في الأسلوبِ أنَّهُ أخذَها عنِ الشَّيخِ أبي عبدِ اللهِ مُحمَّد بنِ الشَّيخ سيِّدي علي بن حرازم وهو عنِ الشَّيخِ أبي مُحمَّد صالحِ بنِ نيصارة بنِ غفيانَ الماجيري الدِّكالي دفينُ رباط مدينةً أسفي[1]، لبسَ منهُ الخرقةَ وصحبَهُ واقتدى بهِ أيضاً وهو عن شيخِ المشايخِ أبي مدينَ لبسَ منهُ الخرقةَ واقتدى بهِ أيضاً وفتحَ لهُ على يدهِ.

قالَ في " **النُّبذة** " وليسَ لهُ شيخٌ في الاقتداء سِواهُ.

وأخذَ قبلَهُ عنِ الشَّيخِ أبي مُحمَّد عبدِ الرَّزاقِ الجزولي دفينٌ خارجَ الإسكندريةِ تلميذِ الشَّيخِ أبي مدينَ وهو الذي أرسلَهُ إلى الشَّيخِ أبي مدينَ وبعثَهُ الشَّيخُ أبو مدينَ إلى الشَّيخِ سيِّدي عبدِ القادرِ الجيلاني نفعَنا اللهُ بهِ فأدخلَهُ الخلوةَ وبقيَ فيها مائةَ وعشرين يوماً ونال منهُ حظَّاً جزيلاً من المواهبِ والأسرارِ والفتوحاتِ والأنوارِ.

ذكرَ ذلكَ الشَّطنوفي في بهجته في أثناءِ قصَّةٍ لهُ معَ الشَّيخِ ثُمَّ ردَّهُ للشَّيخِ أبي مدينَ فلزمَهُ إلى وفاتهِ ﷺ أجمعين.

---

[1] . مدينة في المغرب آسَفي على ساحل المحيط الأطلسي بين مدينتي الجديدة والصويرة

وليسَ للشَّاذلي ﷺ في هذين السَّندينِ سندِ الخرقةِ وسندِ التَّبرُّكِ المذكورينَ من اقتداءٍ، وإنْ اتَّفقَ وجودَ ذلكَ فيهِما لبعضِ شيوخهِ.

قالَ في " **النُّبذة** "

" وطريقُ هذه الخرقةِ للشَّاذلي من جهةِ الشَّيخِ أبي عبدِ اللهِ مُحمَّد بنِ الشَّيخِ أبي الحسنِ علي بنِ حرازم بالصُّحبةِ واللِّباسِ فقط لا بالاقتداءِ فمَنْ قالَ طريقُ الشَّاذلي الخرقةُ أي من جهةِ ابنِ حرازم المذكورِ وشيخهِ الأوَّلِ الذي صحبَهُ وما يقتدي بهِ، ومَنْ قالَ ليسَ طريقه الخرقةِ أي من جهةِ شيخهِ الثَّاني ابنِ مشيشٍ الذي أقتدى هو بهِ ".

هذا مايتعلَّقُ بطريقةِ الشَّيخِ الشَّاذلي ﷺ إرادةً وتبرُّكاً وهو ﷺ شريفُ النَّسَب حسنيهِ يرفعهُ إلى أدريسَ بنِ عبدِ اللهِ فهو أبو الحسنِ علي بنِ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ الجبارِ بنِ تميمٍ بنِ هومَر بنِ حاتمٍ ابنِ قصي بنِ ثقيف بن يوشعَ بنِ وردٍ بنِ علي المكنَّى بأبي طالبٍ بنِ أحمدَ بنِ مُحمَّد بنِ عيسى المكنَّى بأبي العيشِ بنِ إدريسَ الثَّالثِ ابنِ عمرَ بنِ ادريسَ بو ادريسَ بنِ عبدِ اللهِ الكاملِ بنِ الحسنِ ابنِ الحسنِ بنِ علي ﷺ.

هكذا ساقَ هذا النَّسبَ سبطهُ تقي الدِّينِ الإسكندري في " **النُّبذة** " وقالَ

" هذا مايختصُّ بنسبهِ على التَّحريرِ ".

ورفعَهُ الشَّيخُ سيِّدي إبراهيمُ المواهبي كذلك وقالَ

" إنَّهُ الصَّحيحُ "

وصحَّحَهُ الشَّيخُ القصَّارُ أيضاً ونبَّهَ على أنَّ ماعندَ الشَّيخِ ابنِ عطاءِ اللهِ وتبعَهُ البوصيري وغيرهُ خطأً قائلاً

" وليسَ الخطأ بعيب على الرَّاسخِ في العلمِ "

﴿ ففَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[1]

---

[1] . االأنبياء (79)

وقد حرَّرتُ الكلامَ فيهِ مستوفياً ما لديهم في إرجوزةٍ لي في نسبِ الشُّرفاءِ الأقطابِ الأربعةِ سيِّدي عبد القادرِ الجيلاني وسيِّدي عبد السَّلام بن مشيشٍ وسيِّدي أبوالحسن الشَّاذلي وسيِّدي مُحمَّد بن سليمان الجزولي ﷺ سمَّيتُها "**الإشرافِ على نسبِ الأقطابِ الأربعةِ الأشرافِ** ".

سَند الشَّيخُ أبو مَدين الأنصاري ﷺ

ثُمَّ الشَّيخُ أبو مدينَ شعيبٌ بنُ الحسينِ الأنصاري الأندَلُسي دفينُ عبَّادِ تلمسانَ المنتهيةُ إليهِ طرقُ الشَّاذلي المتقدّمةِ سوى سلسلةِ الأقطابِ، أخذَ عن جماعةٍ من الأكابرِ ولَهُ طريقتان طريقةُ اقتداءٍ وارادةٍ واتِّباعٍ، وطريقةُ صحبةٍ وإفادةٍ وانتفاعٍ.

فأمَّا التي على سبيلِ الاقتداءِ فعنْ شيخٍ واحدٍ وهو الشَّيخُ الشَّهيرُ الولي الكبيرُ ذو الفيضِ الغزيرِ أبو يعزى يلنور بنُ عبدِ اللهِ الهزميري أو الهسكوري نزيلُ تاغيا ودفينُها المتوفى بها سنةَ اثنتينِ وسبعينَ وخمسمائةٍ صحبَهُ ولبسَ منهُ الخرقةَ واقتدى بهِ وعليهِ في الاقتداءِ عوَّلَ ولم يقتدِ بغيرهِ ذكرَ ذلكَ في " **النبذة**".

وأمَّا التي على سبيلِ الصُّحبةِ والإنتفاعِ فعنْ جماعةٍ

منهُم الشَّيخُ أبو الحسنِ علي السلوي صحبَهُ في التَّصوفِ أيضاً ولبسَ منهُ الخرقةَ.

ومنهم الشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد الدَّقاقُ السَّجلماسي صحبَهُ في التَّصوفِ أيضاً ولبسَ منهُ الخرقةَ ذكرَ ذلك والذي قبلَهُ في " **النُّبذة** " أيضاً.

ومنهم الشَّيخُ أبو الحسنِ علي بنُ خلفٍ بنُ غالبٍ الأنصاري الأندَلُسي دفينٌ خارجَ بابِ سبتةَ أحدِ أبوابِ القصرِ الكبيرِ المُتوفَى سنةِ ثمانٍ وستِّينَ وخمسمائةٍ,

ذكروا أنَّهُ لازمَهُ وانتفعَ بهِ وقرأ عليهِ كتابَ "السُّنن" لأبي عيسى الترمذي، فهو أخذَ عنهُ العلمينِ معاً خلافاً لما في " **النُّبذة** " من أنَّهُ أخذَ عنهُ العلم الظَّاهر فقط.

ومنهم الشَّيخُ سلطانُ الأقطابِ أبو مُحمَّد عبدُ القادرِ بنُ أبي صالحٍ موسى بنُ عبدِ اللهِ ابنُ يحيى الزَّاهدُ بنُ مُحمَّد بنُ داودَ بنُ موسى بنُ عبدِ اللهِ أبي الكرامِ بنُ موسى الجون ابنُ عبدِ اللهِ الكاملُ بنُ حسن بنُ الحسنِ بنُ علي وفاطمةَ بنتِ رسولِ الله ﷺ المعروفُ بالجيلاني نزيلُ بغدادَ ودفينُها المُتوفَى بِها سنةَ احدى وستِّينَ وخمسمائةٍ.

قالَ في " **البهجة** " أخذَ عنهُ الشَّيخُ أبو مدينَ بعرفات وجلسَ بينَ يديهِ ولبسَ منهُ الخرقةَ وقرأ عليهِ جزءً من مرويَّاتهِ وهو آخرُ مَن أخذَ عنهُ.

ومنهم الشَّيخُ أبو الحسنِ علي بنُ إسماعيلَ بنُ مُحمَّد بنُ عبدِ اللهِ بنُ حرزهم بنُ زيَّانٍ بنُ سومر ابنُ حفصٍ بنُ الحسنِ بنُ مُحمَّد بنُ عبدِ اللهِ بنُ عمرو بنُ عثمانَ بنُ عفانَ ﷺ الفاسي دفينُ خارجَ بابِ الفتوحِ مِنْها المُتوفَى سنةَ تسعٍ وخمسين وخمسمائةٍ.

أخذَ عنهُ أعني الشَّيخَ أبا مدينَ ولازمَهُ وانتفعَ بهِ وسلكَ الطَّريقَ على يديهِ وقرأ عليهِ العلمَ الظَّاهرَ أيضاً، قالَهُ السَّاحلي وغيرهُ خلافاً لِما في " **النُّبذة** " أيضاً من أنَّهُ أخذَ عنهُ العلمَ الظَّاهرَ فقط، وكان أَخْذَ الشَّيخِ أبي مدينَ عن هؤلاءِ الشُّيوخِ ﷺ بمدينةِ فاسٍ إلَّا الشَّيخَ أبا يعزى فقد أخذَ عنهُ ببلدةِ تاغيا والشَّيخَ أبا مُحمَّد عبدَ القادرِ الجيلاني فقد أخذَ عنهُ بمكةَ حينَ لقيَهُ بِها كما ذكرناهُ.

فأمَّا الذي أخذَ عنهُ الشَّيخُ أبو مدينَ اقتداءً هو الشَّيخ أبو يعزى ﷺ فأخذَ عن نحو أربعين شيخاً كما في " **التَّشوُّف** "[1] للتَّادلي.

[1] . كتاب (التشوف الى رجال التصوف) لابن الزيات التادلي المتوفي سنة/ 627هـ.

منهُم الشَّيخُ أبو شعيبٍ أيُّوبُ بنُ سعيدٍ الصِّنهاجي الزَّقوري الملقَّبُ بالسَّاريةِ دفينٌ خارجَ بلادِ أزقور، صحبَهُ ولبسَ منهُ الخرقةَ واقتدى بهِ وهو عمدتهُ، وهو صحبَ ولبسَ الخرقةَ واقتدى بالشَّيخِ أبي ينّور عبدِ اللهِ بنِ وكديس الدَّكالي، وهو صحبَ ولبسَ الخرقةَ واقتدى بالشَّيخِ أبي مُحمَّد عبدِ الجليلِ بن ويحلان الدَّكالي دفينُ أغمات، وهو صحبَ ولبسَ الخرقةَ واقتدى بالشَّيخِ أبي الفضلِ عبدِ اللهِ ابنِ الحسين بن بشري بالياء أخره الجوهري، وهو صحب واقتدى بالشَّيخِ أبي الحسين أحمد بن مُحمَّد النُّوري وهو صحبَ ولبسَ الخرقةَ واقتدى بالشَّيخِ أبي الحسنِ سُري بنِ مغلّسٍ السَّقطي شيخِ الجنيدِ إمامِ الطَّائفة

هكذا سلسلَ هذا السَّندَ سندَ الشَّيخِ أبي يعزى في "النبذة" بالصُّحبةِ ولِبْسِ الخرقةِ والاقتداءِ.

وذكرَهُ الشَّيخُ السَّنوسي مسلسلاً بلبسِ الخرقةِ فقط، وعندَهُما وعندَ غيرِهما أنَّ الشَّيخَ الحسينَ الجوهري والدَ أبي الفضلِ أخذَ عن النُّوري كما ذكرتهُ وزادَ في "**المرآة**" بينَهُما أبا بكرٍ الدَّينوري.

وتابعَهُ على زيادتهِ حفيدُ أخيه في " **التُّحفة** " قالَ

" ولا يصحُّ أنْ تكونَ الواسطةُ بينَ أبي الفضلِ الجوهري وأبي الحسين النوري رجلاً واحداً فقط لبُعدِ ما بينَ وفاتِهما بما يقربُ من مئتي سنةٍ واثنتينِ, والظَّاهرُ في المسألةِ الاستبعادُ لا عدمَ الصِّحةِ على القطعِ فليتأملْ ".

ومن أشياخِ أبي شعيبٍ الزَّقوري المذكورِ أوّلِ السَّندِ الشَّيخُ أبو علي منصورٌ إبراهيمَ المسطاسي، ذكرَهُ التَّادلي ولم يذكرْ لهُ عمَّنْ أخذَ.

وذكرَ أيضاً أنَّ للشَّيخِ أبي مُحمَّد عبدِ الجليلِ المذكورِ في السَّندِ طريقـــةٌ أخرى مبهمةٌ وقالَ

" إنَّهُ رحلَ إلى المشرقِ فلقيَ بهِ شيخاً من الصُّوفيَّةِ وأخذَ عنهُ هذا الشأنَ شيخاً عن شيخٍ بالسَّندِ المتَّصلِ إلى أبي ذرِّ الغِفاري صاحبِ رسولِ اللهِ ﷺ ".

وذكرَ الشَّيخُ سيِّدي طاهرٌ بنُ زيَّانٍ والشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ العنابي والشَّيــخُ أبو العبَّاسِ الفاسي أنَّ من أشياخِ الشَّيخِ أبى يعزى الشَّيخُ أبو الحسنِ علي بنُ حرزهم الآتي سندهُ.

وذكرَ الشَّيخُ أبو العبَّاسِ الفاسي أيضاً وكذا الشَّيخُ أبو العبَّاس أحمدُ بنُ أبي القاسمِ الصَّومعي

" إنَّ من أشياخهِ أيضاً الشَّيخُ أبو بكرٍ بنُ العربي المعافري "[1]

وكتبَ عليهِ الشَّيخُ سيِّدي عبدُ الرَّحمنِ ابنُ مُحمَّد الفاسي فيما رأيتهُ بخطِّهِ

" هذا ليسَ بصحيح وإرجوَّزَهُ التَّاريخُ، فالمعروفُ من حالِ الجميعِ يمنعهُ، والباطنُ لا يهتدُّ من مجرَّدِ الظَّاهرِ ".قالَهُ في " **البهجة** "[2]

يعني أنَّ المعروفَ من حالِهما أنَّ الشَّيخَ أبا يعزى من أهلِ الباطنِ، وإنَّ ابنَ العربي من أهلِ الظَّاهرِ فقط، وأهلُ الظَّاهرِ لا يستمدُّ منهُم أهلُ الباطنِ.

وأمَّا الذين أخذَ عنهُم الشَّيخُ أبو مدينَ صحبة وانتفاعاً.

فأمَّا الشَّيخُ أبو الحسنِ السَّلوي فلم نطَّلعْ على سندهِ.

وأمَّا الشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ الدَّقاقِ فعنْ شيخينِ الشَّيخِ أبي عمرو عثمانَ بنِ علي التِّلمساني نزيلُ سجلماسةَ, والشَّيخِ أبي عبدِ اللهِ مُحمَّد بنِ عمرَ الأصمِّ السجلماسي، ولا أعرفُ سندَهُما.

وأمَّا الشَّيخُ أبو الحسنِ بنُ غالبٍ فعنْ غيرِ واحدٍ

منهُم الشَّيخُ أبو الحكمِ عبد السَّلامِ بنُ عبدِ الرَّحمنِ بنُ بركان دفينُ مراكشَ ولا أعرفُ سندَهُ, والشَّيخُ أبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ العريف دفين داخل مراكش وهو عن أبي العبَّاس الخضر كما قيل وعن جماعة

---

[1] . مُحمَّد بن عبد اله بن مُحمَّد المعافري المشهور بالقاضي أبو بكر العربي الأشبيلي المالكي الحافظ، عالمُ أهلِ الأندلس ومسندهم، وهو غير الشيخ محي الدين بن عربي، توفي رحمه الله سنة 543هـ في فاس.

[2] . ذكر هذا في الهامش

منهُم الشَّيخُ أبو بكر عبدُ الباقي بنُ مُحمَّد ابنُ مُحمَّد بريال الحجاري من وادي الحجارةِ، ولبسَ منهُ الخرقةَ وهو عن جماعةٍ وصحبَهم

منهُم الشَّيخُ أبو عمرَ أحمدُ بنُ مُحمَّد الطلمنطي وهو عن جماعة

منهُم الشيخانِ الشَّيخُ أبو عمرَ أحمدُ بنُ عونِ اللهِ لازمَهُ مدَّةَ حياتهِ واعتمدَ في الطَّريقِ عليه, والشَّيخُ أبو علي الحسنُ ابنُ عبدِ اللهِ الجرجاني، وأخذَ عنهُ بمكةَ وكلاهما عنِ الشَّيخِ أبي سعيدٍ بنِ الأعرابي دفينُ الحرمِ الشَّريفِ، وهو عن جماعةٍ وصحبَهُم

منهُم سلمُ بنُ عبدِ اللهِ الخراساني، وأبو الحسين النُّوري، وأبو عبدِ اللهِ عمرو بنُ عثمانَ المكِّي، وأبو القاسمِ الجنيدُ وهو أصغرُ أشياخه.

فأمَّا مسلمٌ الخراساني فعنِ الفُضيلِ بنِ عِياضٍ، وسيأتي في سندِ ابنِ حرزهم.

وأمَّا الحسينُ النُّوري فعن جماعةٍ منهُم السَّري وقد تقدَّمَ، وهو عمدتهُ.

ومنهم أبو الحسنِ أحمدُ بنُ أبي الحواري وهو عن جماعةٍ

منهُم أبو سليمانَ الدَّاراني وهو عن جماعة منهُم عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ وهو عن جماعةٍ

منهُم الحسنُ البصري.

وأمَّا عمرُ المكِّي فعن جماعةٍ

منهُم أبو سعيدٍ الخرَّازُ وهو عن جماعة

منهُم أبو عبيدٍ البسري، وذو النُّونِ المصري، والسُّري السَّقطي، وبشرٌ الحافي.

فأمَّا أبو عبيدٍ البُسري فعن أبي ترابٍ النخشبي وسيأتي أَخْذهُ في سندِ ابنِ حرزِهم

وأمَّا ذو النُّونِ المصري والثَّلاثةُ بعدَهُ فيأتي أَخْذُهُم في سندِ الجنيدِ.

وأمَّا الشَّيخُ محي الدِّينِ أبو مُحمَّد عبدُ القادرِ الجيلاني الشَّريفُ الحسني الموسوي ﷺ فأخذَ عن جماعةٍ من المشايخِ

منهُم عمدتهُ الشَّيخُ أبو الخيرِ حمَّادٌ ابنُ مُحمَّد الدَّباسِ، صحبَهُ أكثرَ من عشرين سنةً, والشَّيخُ أبو سعيدٍ المُباركِ علي المخرمي لبسَ منهُ الخرقةَ وانتفعَ بهِ وزادَ وهو أنَّهُ لازمَ الاشتغالَ عليهِ يعني سلوكَ الطَّريقِ, والشَّيخُ تاجُ العارفينَ أبو الوفاءِ كاكيس الكردي والشَّيخُ أبو الحسنِ علي بنُ مُحمَّد القُرشي الهكاري.

وصحب أيضاً الخضرَ عليهِ السَّلامُ، وسلبَ لهُ الإرادةَ ثلاثةَ سنينَ.

فأمَّا الشَّيخُ حمادٌ فلم نعثرْ على سندهِ.

وأمَّا الشَّيخُ أبو سعيد المخرمي فعنِ الشَّيخِ أبي الحسنِ علي الهكاري، ولبسَ منهُ الخرقةَ عن شيخهِ أبي الفرجِ الطرسوسي، ولبسَ منهُ الخرقةَ عن أبي بكر الشِّبلي ولبس منهُ الخرقةَ عن شيخهِ الجنيدِ، ولبسَ منهُ الخرقةَ.

وأمَّا الشَّيخُ أبو الوفا فعنِ الشَّيخِ أبي مُحمَّد الشُّنبكي عنِ الشَّيخِ أبي بكرٍ بن هواري الكردي، وهو رأى النَّبي ﷺ وأبا بكرٍ الصِّدِّيقِ في المنامِ، فقالَ يا رسولَ اللهِ ألبسني الخرقةَ, فقالَ يا ابنَ هواري أنا نبيُّكَ وهذا شيخُكَ وأشارَ إلى أبي بكرٍ، ثُمَّ قالَ لهُ " ألبِسْ سميَّكَ ابنَ هواري " فألبسَهُ الصِّدِّيقُ ﷺ ثوباً وطاقيَّةً ومسحَ على رأسهِ وناصيتهِ, وقالَ باركَ اللهُ فيك، ثُمَّ استيقظَ فوجدَ الثَّوبَ والطَّاقيةَ بعينِها عليهِ.

قالَ الحافظُ الشَّطنوفي في " **البهجة** "

" ولم يبلغنا أنَّ احداً من المشايخِ ألبسَهُ أبو بكرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ خرقةً في المنامِ فاستيقظَ فرأى الخرقةَ الشَّريفةَ التي ألبسَهُ إيَّاها سوى الشَّيخِ أبي بكرٍ بنِ هواري والشَّيخِ علي بنِ وهب ".

وأمَّا الشَّيخُ أبو الحسنِ الهكاري فتقدَّمَ سندهُ حيثُ ذُكرَ شيخاً لأبي سعيدٍ المخرمي، وقد شاركَ فيهِ سيِّدي عبدُ القادرِ شيخَهُ أبا سعيدٍ فأخذَ عنهُما معاً أعني عن أبي سعيدٍ المخرمي وشيخهِ أبي الحسنِ الهكاري, قالَ في" **البهجة**"

" قال الشيخ عبد القادر جاءني أبو سعيد المبارك بن علي المخرمي فقال لي لا بُدَّ أنْ تلبسَ منِّي خرقةً وألبسُ منك خرقةً تبرُّكاً، كُلُّ واحدٍ منَّا بصاحبهِ فلبستُ منـــــهُ خرقةً ولبسَ منِّي خرقةً "

وهذا لِبسٌ ثانٍ غيرُ الأوّلِ الذي دخلَ بهِ سيّدي عبدِ القادرِ في صحبتهِ, وقالَ أنَّهُ لازمَ الاشتغالَ عليهِ كما ذكرَ في موضعٍ آخرَ من " **البهجة** " وذلكَ واللهُ أعلمُ أنَّ الشَّيخَ عبدَ القادرِ لمَّا عظُمَ أمرهُ وجلَّ ذكرهُ وساوى مقامَ شيخهِ هذا وجاوزَهُ أذعنَ لهُ وجاءَهُ مريداً للتَّبرُّكِ بهِ.

وأمَّا الشَّيخُ أبو الحسنِ علي بنُ حرزهم فأخذَ إرادةً واقتداءً عن عمِّهِ الشَّيخ أبي مُحمَّد صالحِ بنِ مُحمَّد بنِ عبدِ اللهِ بنِ حرزهم عن القاضي وجيهِ الدِّينِ عمرَ السَّهروردي وهو عن شيخَيْ والدهِ الشَّيخِ أبي عبدِ اللهِ مُحمَّد، والشَّيخِ أخي فرجٍ بنِ يوسفَ الزِّنجاني كلاهُما صحبةً وتلقيناً ولبساً للخرقةِ.

فأمَّا والدهُ مُحمَّد فعن شيخَيْ والدهِ الشَّيخِ عبدِ اللهِ المعروفِ بعمويه أخذَ عنهُ صحبةً، والشَّيخِ أبي العبَّاسِ أحمدَ بنِ مُحمَّد الدِّينوري الأسودِ صحبةً وتلقيناً ولِبْساً للخرقةِ وعن غيرِهما.

فأمَّا عبد الله عمويه فعن والدهِ سعيدٍ عن والدهِ الحسينِ عن والدهِ القاسمِ عن والدهِ النَّضرِ عن والدهِ القاسمِ عن والدهِ مُحمَّد عن والدهِ عبدِ اللهِ عن والدهِ عبدِ الرَّحمنِ عن والدهِ القاسمِ عن والدهِ مُحمَّد عن والدهِ أبي بكر الصِّدّيق عن رسولِ اللهِ ﷺ.

هكذا رأيتُ هذا السَّندَ عندَ السَّاحلي مسلسلاً بالأبو ثُمَّ الصَّحبةِ واحداً بعد واحدٍ كما ذكرتُهم، وكذا رأيتُ فيما كتبَ بعدَهُ السَّهروردي صاحبُ " **العوارف**"[1] بخطِّهِ وهو أعلمُ بأبائهِ[2] خلافاً لما وقعَ في ابن خلَّكان من المخالفة لهُ في بعضُ الآباءِ ولعلَّهُ تصحيفٌ واللهُ أعلمُ.

وأخذَ القاسم أبن مُحمَّد[3] بنَ أبي بكرٍ أيضاً عن عمَّتهِ عائشةَ أمِّ المؤمنين وجدَّتهِ أسماءَ بنتِ عُميسٍ وابنِ عباسٍ وا بنِ عمرَ وغيرهِم ممَّنْ أدركَهم هو وأبوهُ القاسمُ عن سيّدِنا ومولانا رسولِ الله ﷺ.

وأمَّا العبَّاسُ الدَّينوري الأسودُ فأخذَ عن جماعةٍ من المشايخ

منهُم الشَّيخُ أبو علي ممشاد الدَّينوري أخذَ عنهُ صحبةً ولِبساً للخرقةِ وتلقيناً والشَّيخُ أبو العبَّاسِ أحمدَ الجريري.

فأمَّا ممشادُ فعن جماعةٍ

منهُم الجنيدُ أخذَ عنهُ صحبةً ولِبساً للخرقةِ وتلقيناً.

وأمَّا الجريري فعن جماعةٍ أيضاً

منهُم الجنيدُ أخذَ عنهُ صحبةً وهو عمدتهُ وإليهِ ينتسبُ، والسَّري السَّقطي شيخُ الجنيدِ، وسهلُ بنُ عبدِ اللهِ التُّستُري ثُمَّ التُّستري عن خالهِ مُحمَّد بنِ سوارٍ وأبي حبيبٍ حمزةَ بنِ عبدِ اللهِ العباداني ولا نعلمُ سندَهُما.

ولقيَ التُّستري ذا النونِ المصري بمكةَ وسيأتي سندهُ في مشايخِ الجنيدِ.

وروى ابنُ سوارٍ الحديثَ عن جعفرَ بنِ سليمانَ عن ثابتٍ البُناني عن أنسٍ بنِ مالكٍ رضي الله عنه.

---

1 . كتاب (عوارف المعارف) للشيخ عمر السهروردي شيخ الطريقة السهروردية.

2 . يرجع نسب الشيخ عمر السهروردي الى عبد الرحمن بن قاسم (فقيها المدينة المنورة) بن مُحمَّد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

3 . هنا أسقط المؤلف اسم (مُحمَّد) من السند لأنَّ أبا مُحمَّد هو (القاسم) بن مُحمَّد وعمته أم المؤمنين عائشة وسبق للمؤلف أن ذكره قبل هذا.

وأمَّا الشَّيخُ أخي فرج الزِّنجاني فعن الشَّيخِ أبي العبَّاسِ النهاوندي وصحبَهُ ولبسَ منهُ الخرقةَ ولقَّنَهُ عن الشَّيخِ أبي عبدِ اللهِ مُحمَّد بنِ خفيفٍ وصحبه ولبس منهُ الخرقة ولقنه وهو عن جماعةٍ

منهُم الجنيدُ وأبو مُحمَّد الجريري والقاضي أبو مُحمَّدوِّيمٌ بنُ أحمدَ البغدادي وصحبَهُ ولبسَ منهُ الخرقةَ ولقَّنَهُ والحسينُ بنُ منصورٍ الحلَّاجُ، وأبو حامدٍ أو أبو خالدٍ جعفرُ الحذَّاءُ وصحبَهُ ولبسَ منهُ الخرقةَ.

فأمَّا الجريري وروِّيمٌ والحلَّاجُ فعن الجنيدِ، وصحبَ روِّيمٌ الجنيدَ ولبسَ منهُ الخرقةَ ولقَّنَهُ.

وأمَّا أبو حامدٍ الحذَّاءُ فعن أبي عمرو الاصطخري وصحبَهُ ولبسَ منهُ الخرقةَ عن أبي ترابٍ النخشبي وصحبه ولبس منهُ الخرقةَ عن أبي عبد الرَّحمنِ حاتمٍ الاصمِّ عن أبي علي شقيقٍ البلخي.

وأخذَ أبو ترابٍ أيضاً عن شقيقٍ بلا واسطةٍ، وصحبَهُ ولبس منهُ الخرقةَ وزارَ معهُ أبا يزيدٍ البسطامي، ثُمَّ شقيقٌ عن شيخينِ أبي فارسٍ عبدِ العزيزِ بنِ أبي روّاد وأبي اسحاقَ إبراهيمَ بنِ أدهمَ البلخي وصحبه ولبس منهُ الخرقة.

فأمَّا ابنُ أبي روّاد فمِن جُلَّةِ التَّابعينَ يروي الحديث عن نافعٍ عن ابنِ عمرَ

وأمَّا ابنُ أدهمَ فعن جماعةٍ

منهُم أبو عمرانَ موسى بنُ عبدِ اللهِ، ويُقال ابن زيدٍ الرَّاعي وصحبه ولبس منهُ الخرقة.

وأبو علي الفُضيلُ بنُ عياضٍ وسفيانُ الثَّوري وداودُ البلخي وعلَّمَهُ الاسمَ الأعظمَ.

وأمَّا موسى بنُ عبدِ اللهِ فعن أويِّسٍ القرني وصحبه ولبس منهُ الخرقة حينَ قدمَ أويِّسٌ بلادَ الدَّيلمِ عن عمرَ بنِ الخطابِ وعلي رضيَ اللهُ عنهُما، وألبسَهُ

عمرَ ﷺ قميصَهُ على عرفات بحضورِ علي كرَّمُ اللّهُ وجهَهُ وألبسَهُ إذ ذاك علي رداءه وألبسه أيضاً قميصه بصفين .

وأمَّا الفُضيلُ بنُ عياضٍ فصحبَ منصورَ ابنَ المعتمرِ وهو صحبَ إبراهيمَ بنَ يزيدَ النَّخعي وهو صحب علقمةَ بنَ قيسٍ النَّخعي وهو صحب عبدَ اللّهِ بنَ مسعودٍ وهو صحب رسولَ اللّهِ ﷺ.

وأخذَ الفُضيلُ أيضاًعن جماعةٍ

منهُم سليمانُ بنُ مهرانَ الأعمشِ ويونسُ بنُ عبيدٍ وعطاءُ بنُ السَّائبِ وهشامٌ بنُ حسَّانٍ وأبَّان بنُ أبي عيَّاشٍ وحصينٌ بنُ عبدِ الرَّحمنِ الأعورِ وغيرِهم من التَّابعينَ ومن أصحابِ الحسنِ البصري ﷺ.

وأمَّا سفيانُ الثَّوري فعن غيرِ واحدٍ

منهُم منصورُ بنُ المعتمرِ وهو عن إبراهيمَ النَّخعي وهو عن جماعةٍ

منهُم خالهُ علقمةُ ابنُ قيسٍ والأسودُ بنُ بريد وعبيدةُ بنُ عمرو السَّلماني وثلاثتُهم عن ابنِ مسعودٍ عن رسولِ اللّهِ ﷺ وأخذَ عبيدةُ أيضاً عن علي كرم اللّهُ وجهَهُ.

وأمَّا داودُ البلخي فلم أعرفْ سندَهُ.

هذا سندُ الشَّيخِ بنُ حرزهم موصولةً طرقهُ إلى الصَّحابةِ وبعضُها للجنيدِ الآتي سندهُ، وقد تظافرَ على ذكرِ طرقهِ المذكورةِ غيرُ واحدٍ من أهلِ الأسانيدِ لكنَّهم قد يتواطؤون على ذكرِ بعضِ طرقهِ, وقد ينفردُ أحدُهم بذكرِ طريقٍ والآخرُ بغيّرُها وبعضُهم يُسلسلُها بالصُّحبةِ كالسَّاحلي وابنِ مرزوقٍ، وبعضُهم بلِبسِ الخرقةِ كالتَّجيبي والفراوصني، وبعضُهم بالتَّلقينِ وبلِبسِ الخرقةِ أيضاً كسيّدي يوسفَ العجمي ولا مخالفةَ في الحقيقةِ بينهم بل مضمنُ مجموعِ كلامِهم حصولُ كُلِّ ذلكَ إذ لا منافاةَ في اجتماعهِ وعلى ذلك درجْنا.

وما ذكرتهُ من أخْذِ الشَّيخِ ابنِ حرزهم عن عمِّهِ صالحٍ إلى آخرهِ هو التَّحقيقُ والمعتمدُ في طريقهِ الخاصَّةِ وما يوجد عندنا من واحدٍ كالشَّيخِ أبي الحسنِ علي بنِ حميد بنِ الصَّباغ في " **حرز الأتقياء** " والبوصيري في قصيدةٍ له بائيَّةٍ في مدحِ الشَّيخِ أبي مدينَ وصاحبِ "المنهجِ الواضحِ والشَّيخِ أبي العبَّاسِ أحمدَ بنِ يوسفَ الفاسي في بعضِ تآليفهِ وكثيرٌ من أهلِ التَّصانيفِ والتَّقاييدِ مِن أنَّهُ أخذَ الطَّريقَ عنِ الإمامِ أبي بكر مُحمَّد بنِ عبدِ اللهِ بن العربي المُعافري دفينٌ خارجَ بابِ المحروقِ من فاسٍ عن الإمامِ أبي حامد مُحمَّد بنِ مُحمَّد الغزالي عن إمامِ الحرمين أبي المعالي عبدِ الملكِ بنِ عبدِ اللهِ الجويني عنِ الإمامِ أبي طالبٍ مُحمَّد بنِ علي المكي عن الإمامِ أبي القاسمِ الجنيد.

فقالَ عليهِ الشَّيخُ سيّدي عبدُ الرَّحمنِ بنُ مُحمَّد الفاسي ﷺ فيما رأيتهُ بخطِّهِ " هذا لا يصحُّ فإنَّ أهلَ الظَّاهرِ لا يهتدُّ منهُم أهلُ الباطنِ، وكذا لايصحُّ امتدادُ الغزالي في الباطنِ من أبي المعالي وإنْ قرأ عليهِ علمَ الظَّاهرِ وكذا لايصحُّ أخْذُ أبي المعالي عن أبي طالبٍ ولا أخذَ أبي طالبٍ عن الجنيدِ، فإنَّ المعلومَ خلافُ ذلكَ وإنَّما أخذَ أبو طالبٍ عن ابنِ سالمٍ عن سهلٍ لا عن الجنيدِ".

وقد نبَّهَ في " **النُّبذةِ** " على مثلِ ذلكَ أيضاً فقالَ

" وأخذَ الشَّيخُ ابنُ حرزهم العلومَ الشَّرعيَّةَ عن أبي بكرٍ بنِ العربي ".

ثُمَّ ذكرَ أنَّ إمامَ الحرمينِ أخذَ عن ثلاثةٍ وعدَّ منهُم أبا طالبَ المكي وقالَ " الثَّلاثةُ في العلومِ الشَّرعيَّةِ إلَّا أبا طالبَ فزادَ على ذلكَ أخْذَ التَّصوفِ عنهُ".

فصريحُ كلامهِ أنَّ هذا السَّندَ ليسَ في أخذِ طريقِ القومِ.

قلتُ وهذا كلُّهُ ظاهرٌ إنْ كان المرادُ أخْذَ الإرادةِ والتَّحكيمِ وهو الذي أرادَ سيّدي عبدُ الرَّحمنِ المذكورُ, أمَّا مطلقُ التَّبرُّكِ والانتفاعِ مضموماً إلى استفادة علمِ الظَّاهرِ فلا مانعَ منهُ بل هو حاصلٌ على كُلِّ حالٍ لصلاحِ أهلِ الظَّاهرِ

من هذا السَّندِ وعدمِ حصولِ الفتحِ للآخرينَ حبس الشروع في أخذَ العلم عنهُم لكن أخذَ أبي طالب عن الجنيد بطل من جهة النقل فهو غير صحيح من حيثُ ذلكَ فقط واللهِ أعلمُ .

سَند الشَّيخ أبو القَاسم الجُنيد ﷺ

ثُمَّ الشَّيخُ أُستاذُ الطَّريقةِ وسيّدُ الطَّائفةِ وإمامُها أبو القاسمِ الجنيدُ بنُ مُحمَّد القواريري ﷺ المنتهيةُ بعضُ الطرقِ والمتفرّقةُ إليهِ، أخذَ عن جماعةٍ من الأكابرِ

منهُم خالهُ السَّري بنُ مغلسٍ السَّقطي وهو عمدتهُ وإليهِ ينتسبُ، أخذَ عنهُ اقتداءً وصحبةً وتلقيناً ولِبساً للخرقةِ، وأبو عبدِ اللهِ الحارثُ بنُ أسدٍ المحاسبي، وأبو الفيضِ ذو النُّونِ بنُ إبراهيمَ المصري، وأبو عبد اللهِ مُحمَّد بنُ علي القصَّابِ وأبو جعفرَ الحدَّادِ، وأبو الحسين الكرنبي وغيرُهم.

فأمَّا السَّري فأخذَ عن أبي محفوظٍ معروفٍ بنِ فيروزَ الكرخي اقتداءً وتلقيناً ولبساً للخرقةِ وهو عمدتهُ، وهو عن جماعةٍ

منهُم مولاهُ الإمامُ علي الرِّضى، أخذَ عنهُ صحبةً واقتداءً ولبساً للخرقةِ وهو عمدتهُ

ومنهم أبو سليمانَ داودُ بنُ نصيرٍ الطائي، أخذَ عنهُ صحبةً واقتداءاً وتلقيناً ولبساً للخرقة.

ومنهم بشرٌ بنُ الحارثِ المروزي الحافي، قالَهُ ابنُ السَّمعاني وذكرَهُ ابنُ خلكان شيخاً للسَّري بلا واسطةٍ.

ومنهم بكرٌ بنُ حُنينٍ وصحبتهُ لهُ معروفةٌ.

ومنهم أبو عبدُ اللهِ مُحمَّد بنُ صبيحٍ.

فأمَّا الإمامُ علي الرِّضى فعن أبيهِ الإمامِ موسى الكاظمِ صحبةً ولبساً للخرقةِ عن أبيهِ الإمامِ جعفرَ الصَّادقِ صحبةً ولبساً للخرقةِ عن أبيه الإمام مُحمَّد الباقر صحبة ولبساً للخرقة عن أبيهِ الإمامِ زينِ العابدين علي صحبةً ولبساً للخرقةِ عن أبيهِ الإمامِ الحسينِ بالياء سبطِ النُّبوَّةِ صحبةً ولبساً للخرقةِ عن جدِّهِ رسولِ اللهِ ﷺ.

وأمَّا داودُ الطَّائي فعن حبيبِ العجمي صحبةً وتلقيناً ولبساً للخرقةِ عن الحسنِ البصري صحبةً وتلقيناً ولبساً للخرقةِ، ولقيَ داودُ أيضاً التَّابعين وأخذَ عنهُم.

وأمَّا بشرٌ الحافي فعن جماعةٍ

منهُم عامرُ بنُ شعيبٍ، وأبو حفصٍ عمرُ المكي، والفُضيلُ بنُ عياضٍ.

فأمَّا عامرٌ وأبو حفصٍ فعن الحسنِ البصري.

وأمَّا الفُضيلُ فتقدَّمَ أخذهُ.

وأمَّا بكرٌ بنُ حُنينٍ فلا نعرفُ سندَهُ، وهو يروي الحديثَ عن ضرارٍ بنِ عمرَ وسفيانَ الثَّوري ثُمَّ ضرارٌ عن أنس بنِ مالكٍ رضي الله عنه وسفيانُ تقدَّمَ سندهُ.

وأمَّا مُحمَّد بنُ صبيحٍ فلا أعلمُ سندَهُ أيضاً، وهو يروي الحديثَ عن عدَّةٍ من التَّابعينَ

منهُم إسماعيلُ بنُ خالدٍ والأعمشُ وهشامٌ بنُ عروةَ.

وأمَّا الحارثُ المحاسبي شيخُ الجنيدِ فعن بشرٍ الحافي وتقدَّمَ سندهُ قريباً.

وأمَّا ذو النُّونِ شيخُ الجنيد أيضاً فعن الفُضيلِ بنِ عياضٍ المتقدِّمِ.

وأمَّا الثلاثةُ الباقونَ من مشايخِ الجنيدِ وهم أبو عبدِ اللهِ القصَّابِ، وأبو جعفرَ الحدَّادِ، وأبو الحسينِ الكرنبي فلم نطَّلعْ على سندِ واحدٍ منهُم.

وسندُ الجنيدِ من طريقِ سَري عن معروفٍ بطريقتيهِ معاً طريقةِ علي الرِّضى وطريقةِ داودَ الطَّائي، ذكرَهُ جماعةٌ كالشَّيخِ أبي عبدِ اللهِ السَّاحلي في " **بغيةِ**

السَّالكِ "[1] والشَّيخُ القطبُ جمالُ الدِّينِ أبي المحاسنِ يوسفَ بنِ عبدِ اللهِ العجمي الكوراني في " **ريحانة القلوبِ إلى لقاءِ المحبوبِ** " وغيرِهما، وسلسلةُ الأوَّلِ بالصُّحبةِ في الطريقتينِ معاً، وسلسلةُ الثَّاني في احداهُما، وهي طريقةُ معروفٍ عن علي الرِّضى بلبسِ الخرقةِ، وفي الأخرى بالتَّلقينِ مبتدءً لهُ من علي كرَّمَ اللهُ وجهَهُ إلى الجنيدِ فسافلاً إلى أنْ بلغتْ إليهِ هو ﷺ.

وقد نبَّهتُ عندَ ذِكرِ السَّندِ على ما وقعَ فيهِ من لِبسٍ أو تلقينٍ كُلٌّ بمحلِّهِ، وقد تسلسلَ أيضاً سندُ الجنيدِ من طريقِ الحارثِ المحاسبي بأخْذِ السِّبحةِ والسؤالِ واحداً عن واحدٍ إلى الحسنِ البصري، ولمَّا أنتهى السُّؤالَ إليهِ قالَ

" هذا شيءٌ استعملناهُ في البداياتِ فما كُنَّا لنتركَهُ في النِّهاياتِ، أحبُّ أنْ أذكرَ اللهَ تعالى بقلبي ويدي ولساني ".

ثُمَّ الإمامُ التَّابعي الجليلُ أبو سعيدٍ الحسنُ بنُ يسارٍ البصري ﷺ المنتهيةُ إليهِ جُلَّ هذه الطرقِ، أخذَ عن جماعةٍ كثيرةٍ من الصَّحابةِ

أولهُم. أمُّ المؤمنينَ أمُّ سلمةَ كانتْ تلقمهُ ثديَها في صغرِهِ تُعلِّلهُ بذلك، إذا كانتْ أمُّهُ في شغُلٍ وربَّما درَّ اللَّبنُ، إذ كان وُلدَ بالمدينةِ ونشأ بها، وقد لقيَ كما في" **القوتِ** "[2] سبعين بدرياً ورأى ثلاثَمئةٍ من الصَّحابةِ.

وفي " **الحِلية** "[3] أيضاً عنهُ أنَّهُ أخذَ عن سبعين بدرياً وصلَّى خلفَهُم وأخذَ بحجزِهم وقد رأى عليَّ بنَ أبي طالبٍ على ماصحَّحَهُ السُّيوطي وغيرُهُ، ورأى عثمانَ وطلحةَ.

---

[1] . سبق ترجمته ص30.

2 . كتابُ (قوت القلوب في معاملةِ المحبوبِ) لأبي طالبٍ مُحمَّد بنِ عليّ بن عطيَّةَ الحارثي المكّي، كانَ من أهلِ الجبل ونشأ بمكة وتزهَّدَ، صنَّف ووعظ، كانَ في البداية صاحبُ رياضةٍ ومجاهدَةٍ وفي النهاية صاحبُ أسرارٍ ومُشاهدةٍ، توفي ﷺ سنة 386هـ، الوافي بالوفيات ج4 ص86

[3] . كتاب (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء) لأبي نُعيمٍ الأصبهاني، ت/ 430هـ.

وروى عن معقلِ بنِ يسارٍ وأبي بكرٍ وأبي موسى ابنِ عبَّاسٍ وجابرٍ وسُمرةَ بنِ جُندُبٍ وعمرو بنِ تغلبَ، واختصَّ بأنسٍ بنِ مالكٍ وعمرانَ بن حُصينٍ وحذيفةَ بنِ اليمانِ، وعلى حذيفةَ في هذا الشأنِ عوَّلَ كما أخبرَ هو بذلك عن نفسهِ وهو أوَّلُ مَنْ نهجَ هذا السَّبيلَ وفتقَ الألسنةَ بهِ ونطقَ بمعانيهِ.

وسُئلَ عمَّنْ أخذَ هذا العلمَ ومِن أينَ عرفَهُ؟

فقال عن حذيفةَ.

وسُئِل حذيفةَ كذلك فقالَ خصَّني بهِ رسولُ اللهِ ﷺ وذكرَ ذلك في " **القوتِ** ".

وقالَ الشَّيخُ العارفُ أبو الحسنِ الشُّشتري ﷺ في " رسالتهِ العلميةِ "

" قالَ الحسنُ ﷺ أوَّلُ مَن تكلَّمَ في علمِ التَّصوفِ والفقرِ أميرُ المؤمنين الإمامُ علي بنُ أبي طالبٍ عليهِ السَّلام ".

وقال الشَّيخُ الفاضلُ أبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ يوسفَ الفاسي رحمَهُ اللهُ في تآليفهِ " لا مانعَ مِن أخْذِ الحسنِ ﷺ عن علي كرَّمَ اللهُ وجهَهُ كما يقولهُ الصُّوفيَّةُ أهلُ البصيرةِ الصَّافيةِ ﷺ حيثُ ثبتتِ الرؤيةُ لأنَّ هذهِ الطَّريقَ لمَّا كانتْ ليس المعتبرُ فيها أخْذُ العلمِ وتلقِّيهِ من الشَّيخِ باللِّسانِ بل المقصودُ منهُ أنْ يحصلَ على سبيلِ الهِمَّة والحالِ هدايةُ المُريدِ وإشراقُ الأنوارِ في قلبهِ ويحصلُ لهُ بسببهِ تجليَّاتٌ وأسرارٌ من ربِّهِ، ويطَّلعُ على حقيقةِ العلمِ ومكنونِ السِّرِ حتَّى ينقطعَ إليهِ ويؤثرَ خدمتَهُ ويرفضُ ما سِواهُ إلى غيرِ ذلكَ من المواهبِ التي هذه من أوائلِها".

قولُ الشُّيوخ ﷺ في سيّدنا علي

ثُمَّ قالَ

" وقالَ فيهِ يعني سيّدَنا علي الشُّيوخُ ﷺ أنَّهُ أُعطيَ العِلم اللَّدُني ولا تصحُّ النِّسبةُ إلى الولايةِ التي هي منبعُ الولايةِ الحقيقيةِ والمعارفِ الإلهيةِ إلَّا من جهتهِ وحقيقتهِ, فهو إمامُ الأولياءِ المُحمَّديّينَ كلُّهم وأصلُهم، ومنشأُ انتسابِهم إلى الحضرةِ المُحمَّديَّةِ، ومظهرُ نورِ الولايةِ الأحمديةِ حينَ أنشقَّ قمرُ النُّبوَّةِ والولايةِ المندرجُ احدهُما في الآخَرِ حيثُ غلبا نورَ النُّبوَّةِ وخُتمَ ظهورهُ بهِ ﷺ الذي كان انشقاقُ القمرِ صورةَ ذلكَ الانشقاقِ وهو باطنهُ وسرُّهُ الظَّاهرُ ، بسببِ ظهورهِ فإنَّ كُلَّ معنى لا بُدَّ وأنْ يظهرَ لهُ صورةٌ محسوسةٌ وهو أيضاً أرفعُ عارفٍ في الدُّنيا، فما خصَّهُ بهِ ﷺ من قولهِ

" **أنا دارُ الحكمةِ وعليٌّ بابُها** " أخرجَهُ التِّرمذي وغيرهُ.

وقولهُ ﷺ

" **أنا مدينةُ العلمِ وعليٌّ بابُها** "

وهوعلمُ الحقيقةِ ماعدا أصلَهُ ﷺ فكانَ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ بمنزلةِ البابِ من المدينةِ لا يخرجُ من المدينةِ شيءٌ حتَّى مرَّ بالبابِ فافهمْ ".

وكلُّ الصَّحابةِ ﷺ عن سيّدِ الأوَّلينَ والآخرينَ وخاتمِ الأنبياءِ والمرسلينَ ووسيلةِ الخلائقِ أجمعين سيِّدُنا ومولانا مُحمَّد رسولُ ربِّ العالمينَ ﷺ وعلى آله وصحبهِ صلاةً وسلاماً يتعاقبانِ إلى يومِ الدِّينِ عن ربِّ العزَّةِ جلَّ جلالهُ وتعالى مجدهُ وكمالهُ

﴿ **وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى** ﴾[1] وها هنا ماقصدتُ جمعَهُ من الطرقِ قد انتهى.

[1] . النجم (42)

ما اشتَمل عليه هذا السنَد من طُرق

وقد أشتملتْ هذه الأسانيدُ على شُعبٍ متفرّعةٍ وطرقٍ متنوعةٍ

فمنها طريقُ الولادةِ وطريقُ التَّبركِ والانتفاعِ والمسلسلِ بالصُّحبةِ وبالاقتداءِ وبلبسِ الخرقةِ وبالتَّلقين المسلسلِ بالقُطبانيةِ وبالأبوَّةِ والشَّرفِ معاً وبالسِّبحةِ, وقد نبَّهنا على جميعِ ذلك فيما مرَّ إلَّا ما لم نطَّلعْ عليهِ.

والإرادةُ والتَّبرُكِ تقدَّمَ تفسيرهُما أوَّلُ هذه التَّرجمةِ.

والمرادُ **بالصُّحبةِ** طولُ الملازمةِ لا مجردَ اللّقاءِ.

والمرادُ **بالاقتداءِ** أنْ يُحكِّمَ الإنسانُ الشَّيخَ في نفسهِ ويلتزمُ اتباعَهُ وهو بمعنى سلبِ الإرادةِ.

ولبسُ الخرقةِ هو ارتباطٌ بينَ الشَّيخِ والمريدِ وتحكيمٌ منهُ للشَّيخِ في نفسهِ واظهارٌ للتَّصرُّفِ فيهِ، وعلامةٌ على التَّفويضِ والتَّسليمِ، وعتبةٌ على الدُّخولِ في الصُّحبةِ، نصَّ على كُلِّ ذلكَ في الخرقةِ السَّهروردي في " **العوارف** " وقسَّمَهما إلى قسمينِ فقالَ

" وأعلم أنَّ الخرقةَ خرقتان خرقةُ الإرادةِ، وخرقةُ التَّبرُّكِ والأصلُ الذي قصدَهُ المشايخُ للمريدينَ خرقةُ الإرادةِ, وخرقةُ التَّبرُّكِ تشبه خرقة الإرادة فخرقةُ الإرادةِ للمريدِ الحقيقي، وخرقةُ التَّبرُّكِ للمُتشبِّهِ، ومَنْ تشبَّهَ بقومٍ فهو منهُم ".

ولا ينافيهِ قولُ ابنِ عطاءِ اللهِ في " **لطائفِ المننِ** "[1]

" وإنَّما يلزمُ تعيين المشايخِ الذين يستندُ إليهم طريقُ الإنسانِ مَن كانَتْ طريقهُ بلبسِ الخرقةِ فإنَّها روايةٌ إذ معنى كونِها روايةً أنَّ ذلكَ الفعلَ الذي هو علامةُ التَّحكيمِ وزائدٌ على حصولِ الأخْذِ هو الرِّوايةُ لا الطَّريقَ الكائنةَ بها،

---

[1] . كتاب (لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه الشاذلي أبي الحسن) للشيخ العارف بالله أحمد ابن عطاء الله الاسكندري ت/ 709هـ.

وذلك مفهومٌ من قولهِ من كانَتْ طريقهُ بلبسِ الخرقةِ فجعلَ الطَّريقَ غيرَ اللِّبسِ بل مقرونةٌ معهُ فافهمْ "

وقد تداولَ هذهِ الخرقةَ الأقدمونَ من الأكابرِ كلُّهم أو جلُّهم، وليستْ عندهم للتَّبرُّكِ إذ ليسوا متشبِّهين وتعاطوها كثيراً فيما بينَهُمْ إلى أنْ ظهرتِ الشَّاذليةُ فانقطعَ ذلك فلا تجدُ في أسانيدِهم شيئاً منها.

وكذلك التَّلقينُ وصفتهُ أنْ يقولَ الشَّيخُ للمريدِ وهو يسمعُ " لا إلهَ إلَّا اللهُ " ثلاثَ مرَّاتٍ رافعاً بها صوتَهُ مغمضاً عينيهِ ثُمَّ يقولها المريدُ كذلك.

والقطبانية هي وصولُ الشَّيخِ الغايةَ في القوَّةِ والمددِ إلى أنْ يستمدَّ منه أهلُ وقتهِ كلُّهم وتتصرَّفُ أمورُ الخليقةِ كلِّها على يدهِ، فهي خلافةٌ غيبيةٌ.

ومذهبُ الحاتمي[1]

" أنَّها خطةٌ تصريفيةٌ لا الانفرادَ بمزيدِ القوَّةِ "

وسمعتُ الوليَّ الكبيرَ سيِّدي أبا العبَّاسِ اليمني ﷺ يقولُ

" هي خطةٌ يدُ صاحبِها على الجميعِ ويكونُ معهُ في وقتهِ مَن يساويهِ مدداً وقوَّةً ".

وكان الشَّيخُ أبو العبَّاسِ المرسي ﷺ يرى

" أنَّها تكونُ لآلِ البيتِ وغيرِهم، ويخالُ مَن يرى أنَّها تختصُّ بهم ".

---

1 . الشَّيخُ محي الدِّين أبو بكر مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد بن أحمد بن عبد الله الطائي الحاتمي الأندلسي الشَّيخ الأكبر المعروف بابن عربّي، صاحب المصنفات في التصوف وغيره، ولد بمُرسية، سمع بِها وباشبيلية وبمكة (كتاب الترمذي) وسمع بدمشق وبغداد وسكُنْ الروم (أي قونية) لهُ مصنفات كثيرة منها(الفتوحات المكية، فصوص الحكم، وغيرها) توفي بدمشق سنة 638، طبقات الأوَّلياء ص.469

القولُ في أوّلِ الأقطاب

وأوَّلُ الأقطابِ الحسنُ بنُ علي ﷺ قالَهُ في " **لطائف المننِ** " عن الشَّيخِ أبي العبَّاسِ المرسي وعليهِ غيرُ واحدٍ، واستشكلَ بوجودِ أبي بكرٍ قبلَهُ الذي هو أفضلُ هذه الأمةِ بعدَ نبيّها ﷺ، وأجابَ عنهُ الشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ ابنُ السَّكاكِ في شرحِهِ لقصيدةِ سيِّدي علي بنِ وفا والأسيوطي في " **تأييد الحقيقة العلية** " والشَّيخِ القصَّارِ فيما كتبَ بخطِّهِ لبعضِ أهلِ وقتهِ

" كُلٌّ بجوابٍ واحدٍ ظهرَ لهم وتواطؤوا عليهِ من غيرِ اطِّلاعٍ لواحدٍ منهُم على قصدِ الآخرِ حسبَما يقتضيهِ كلامُهم وهو أنَّ معنى كونِ الحسنِ أوَّلُ الأقطابِ أنَّهُ أوَّلُ مَن كانَتْ لهُ الخلافةُ الباطنةُ منفردةً عن الظَّاهرةِ "

وزادَ الشَّيخُ القصَّارُ حكايةَ الخلافِ وجعلَ هذا الجوابَ جمعاً بينَ القولينِ مع تبيانِ وجهِ التَّسميةِ بالخلافةِ والقطبانيةِ ونصُّ كلامهِ

" وأمَّا ما وقعَ في لطائفِ المننِ من أنَّ سيّدَنا الحسن أوَّل الاقطاب فقالَ ولي الله سيّدنا صفي الدّين بن المنصور ما نصه, أبو بكر الصِّدّيق أوَّلَ الخلفاء الاقطاب واستقرَّتِ القطبانيةُ بعدَهُ مستمرةً إلى آخرِ الخلفاءِ المُحمَّديّينَ وهو المهدي المُخبَرُ بهِ وبظهورهِ بمكةَ ومبايعةِ الأبدالِ والأولياءِ لهُ بالمقامِ إلى أنْ ينزلَ عيسى صلَّى اللهُ عليهِ قطبُ وقتهِ, نصُّهُ والذي يجمعُ بينَ الكلاميينِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ

" **الخلافةُ بعدي ثلاثون** "[1]

فكانَت لهُمْ الخمسة خلافة رسول الله ﷺ ظاهراً وباطناً فلمَّا انقضى زمن خلافته الظَّاهرة وحصل في موضعها الملك بقي لسيّدِنا الحسنِ الخلافةُ الباطنةُ فقط وهي القطبانيةُ وهي أحدُ قسمي الخلافةِ فسُمّيَ مَن فيهِ القسمانِ خليفةٌ

[1] . حديثٌ حسنٌ.

باطلاقٍ، ولم يُسمَّ مَن فيهِ القسمُ الواحدُ خليفةً إذ ليسَ خليفةً باطلاقٍ فسُمِّيَ بالقسمِ الذي فيهِ وهو القطبانيةُ، فكانَ سيِّدُنا الحسنُ خليفةً كمَن قبلهِ فلمَّا انقضى زمنُ الخلافةِ سُمِّيَ قُطباً " انتهى كلامُ الشَّيخِ القصَّارِ.

ونقلَ في " **اسفار الصَّباحِ في شرحِ داعي الفلاحِ** "[1] عن الشَّيخ سيِّدي إبراهيم المواهبي أنَّهُ قالَ في " **رسالة الأصولِ ومقدمة الوصولِ** "

" أنَّ شيخَهُ الأستاذَ صفيَ الدِّينِ أبا المواهبِ التُّونسي أفادَهُ طريقاً فيما بينَ الحسنِ بنِ علي وجدِّهِ ﷺ وهي أنَّ أوَّلَ مَن تلقَّى ذلكَ الأمرَ المشارَ إليهِ السَّيِّدةُ فاطمةُ الزَّهراءُ مدَّةَ حياتِها، ثُمَّ انتقلَ بعدَها إلى أبي بكرٍ ثُمَّ إلى عمرَ ثُمَّ إلى عثمانَ ثُمَّ إلى علي ﷺ .

قالَ والدَّركُ عليهِ في ذلكَ لِما يلزمُ عليهِ عندَ التَّأملِ، ولعلَّ اللَّازمَ أحدُ أمرينِ أمَّا معارضةُ الحديثِ الواردِ بأفضليةِ أبي بكرٍ أو تصدِّيهِ للخلافةِ ظاهراً دون حصولِ إرثِ الخلافةِ الباطني الذي هو القطبانيةُ، وقد يجابُ عن الأوَّلِ بأنَّ الخصوصيةَ لا تقتضي التَّفضيلَ فلا يلزمُ من اختصاصِ فاطمةَ رضي الله عنها بما ورثَتْهُ باطناً تفضيلُها على أبي بكرٍ رتبةً، كما لا يلزمُ باختصاصِها بالبِضعةِ تفضيلُها عليهِ مطلقا، وقد منحَ اللهُ أبا بكرٍ من أنوارِ النَّبي ﷺ كما يدلُّ عليهِ حديثُ

" **ما صبَّ في صدري شيءٌ إلَّا صببتهُ في صدرِ أبي بكرٍ** "

ما لا يُعبِّرُ عنهُ لسانٌ بالإنفرادِ عنهُ بذلك لا يُؤذنُ بمجاوزةِ مقامهِ لا سيَّما على القولِ بأنَّ القطبانيةَ خطةٌ, ويجابُ عن الثَّاني بأنَّهُ لا يلزمُ من انفرادِ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها بما ورثَتْهُ أنْ لا يكونَ هو خليفةً في الأرضِ بدليلِ أنَّ كثيراً من أكابرِ الأولياءِ أذنُوا بالخلقِ وليسُوا بأقطابٍ، فأبو بكرٍ ﷺ تصدَّى للخلافةِ على بصيرةٍ من ربِّهِ وإذنٍ منهُ وقامَ بذلك الوظيفِ العظيمِ بِما لهُ من الصِّدِّيقيَّةِ

---

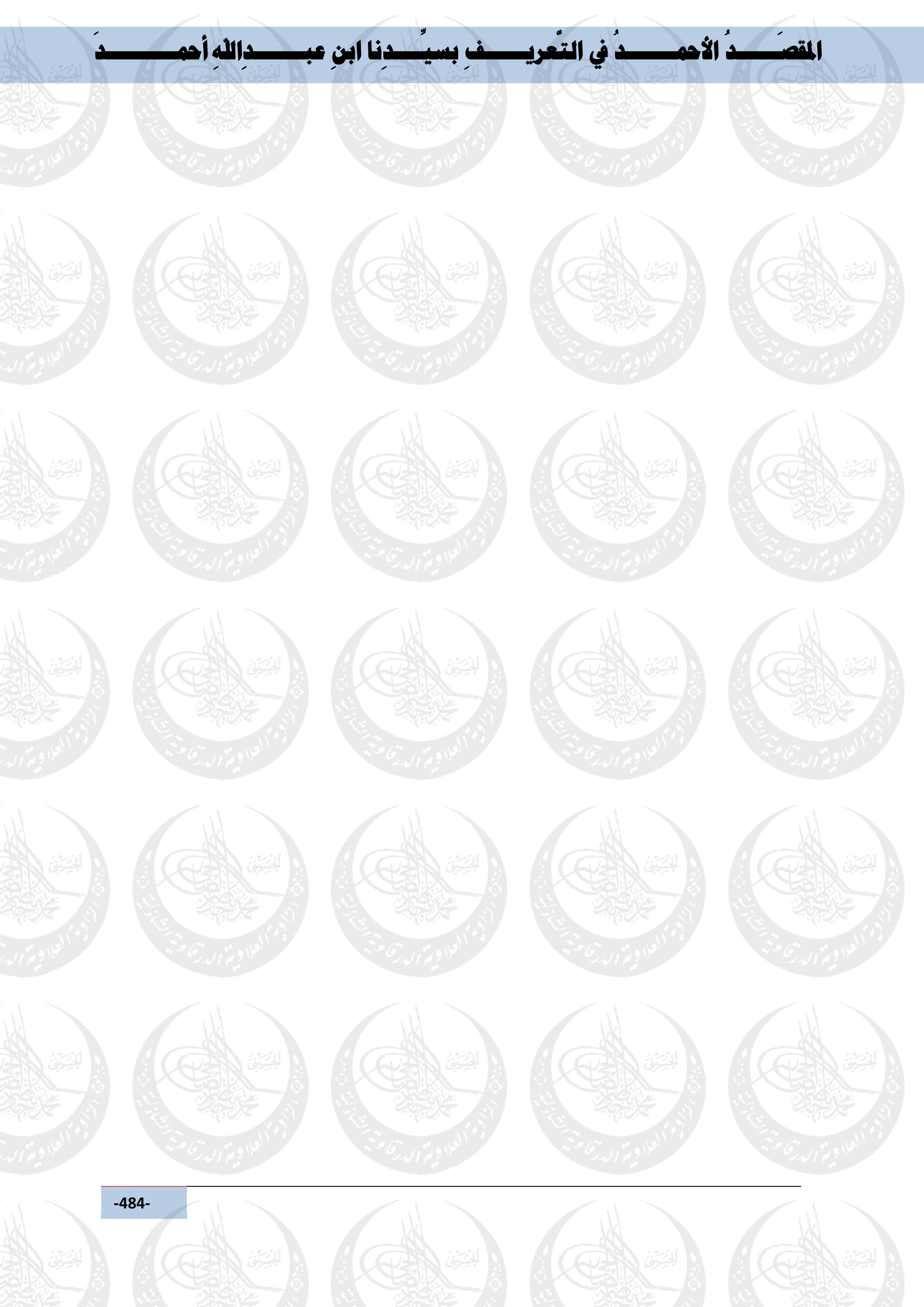
1 . كتاب

العظمى والخصوصيَّةِ الكبرى، ثُمَّ زادَهُ اللهُ تلك المرتبةَ التي ورثَها من فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها، ومعرفةُ اللهِ وفضلهِ لا نهايةَ لهُما، فالأمرُ أوسعُ ممَّا تدركهُ العقولُ ويصفهُ المقولُ، وهذا آخرُ الكلامِ على هذه الأسانيدِ ومِن اللهِ المعرفةُ والتَّأييدُ.

وقد نظمت مِنْها أراجيز عديدة مِنْها أرجوزةِ مزدوجة كبرى مشتملة على ستمائة بيت ونيّف سميتُها " **مناهلُ اللَّهفانِ إلى أسانيدِ أولي العرفانِ** " استوعبتُ فيها جميعَ الطُّرقِ المذكورةِ هنا على نحوِ هذا التَّرتيبِ وشكلهُ مبتدأً بسيِّدِنا أحمدَ ﷺ والتزمتُ اللَّفَ والنَّشرَ المُرتّبَ في سائرِ طرقِها، كما التزْمتهُ هنا كذلك إلَّا يسيراً، فجاءتْ مُرتَّبةً مُهذَّبةً مفصَّلةً أبوابُها ميسَّرةً أسبابُها، سهلةَ المرامِ لا تحتاجُ إلى شرحٍ، ويُحسنُ أنْ تكونَ هذه التَّرجمةُ كالمحاذي لها ويلجأ إليها في كلِّ ما يحتاجُ إليهِ مِنْها واللهُ الموّفقُ.

وقد جعلتُ الطُّرقَ فيها كما هنا موصولةً أوّلاً إلى الشَّيخينِ الجزولي وزرُّوقٍ وثانياً منها إلى الشَّاذلي، ومن الشَّاذلي إلى آخرِ السَّندِ في احدى طريقيهِ والى أبي مدينَ في الأخرى، ومن أبي مدينَ جمعتُها إلى الجنيدِ ومنهُ إلى الحسنِ البصري، وهو أخذَ عن الصَّحابةِ.

ومنها أرجوزةٌ أخرى مقصورةٌ، وأُخرى توطئةٌ فيها التَّوسلُ بالمشايخِ واحداً بعد واحدٍ، وأُخرى صغرى مختصرةٌ، وقصيدةٌ في عَروضِ الكاملِ رويُّها اللَّامُ، إلى غير ذلكَ ممَّا نظمتهُ وهو أكثر ممَّا ذكرتهُ، رزقنا اللهُ التَّوفيقَ ومنَّ علينا بالكونِ معَ هذا الرَّفيقِ وسلوكِ ما سلكوهُ من الطَّريقِ بجاهِ سيّدِ المرسلينَ ووسيلة الخلائقِ أجمعين سيّدِنا ومولانا مُحمَّد ﷺ إلى يومِ الدِّين والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.



البابُ الثَّاني عشر في بعضِ ما قيل فيهِ من القصائدِ الشِّعريةِ المُنبئةِ عن محاسنهِ السَّريَّةِ

قد تصدَّى لمدحهِ ﷺ من أفاضلِ الفقهاءِ وأماثلِ النُّبهاءِ من أصحابِنا وغيرِهم جماعةٌ وافرةٌ وعصابةٌ متظافرةٌ، فتعاهدا تعدادَ محاسنهِ ومآثرِهِ وتقاسموا نشرَ خلالهِ الحميدةِ ومفاخرِهِ، وحاموا حولَ بعضِ ما خوَّلَهُ اللهُ من الأنوارِ والمعارفِ، ومنحَهُ من المواهبِ والخوارقِ، ولهجُوا في كلِّ ذلكَ بمديحهِ ما بينَ كنايةِ القولِ وصريحهِ بقصائدَ رشيقةِ المباني رقيقةِ المعاني أنيقةِ العبارةِ دقيقةِ الإشارةِ، اقتبستْ من الحكمِ أنواراً، واقتَطفتْ من التَّطابقِ أزهاراً، تريكَ من بديعِ المحاسنِ روضاً، ويسيِّرُكَ عند الاستحسانِ بعضهاً بعضاً, مِنْها ما هو على طريقةِ الغزلِ والنَّسبيبِ والإشارةِ للمحبَّةِ والحبيبِ.

ومنها ما هو على سبيلِ التَّصريحِ أوَّلاً والإفصاحِ عمَّا قصدَ منَ الأوصافِ والأمداحِ كُلٌّ على حسبِ ما فتحَ لهُ، ويُسِّرَ لهُ من الصَّنيعِ واتَّضحَ لهُ, وقد وجدوا مكانَ القولِ ذا سعةٍ فسلكوا مجالَهُ ومتَّسعَهُ فأصابَ منهُم المقصِّرُ والمُطيلُ وكان كُلٌّ منهُم كالمأذونِ لهُ كما قيل

فإنْ وجدتَ مكانَ القولِ ذا سعةٍ　　　ثُمَّ وجدتَ لساناً قائلاً فقُلِ

وقد انطقَ منهُم اللَّسانُ تمامَ الحُسنِ منهُ والإحسانِ، وذو الحالِ السَّني والوصفِ الحميدِ، كلَّما رمتَ فيهِ امتدادَ القولِ وجدتَ المزيدَ لا سيَّما العارفون فهم فوقَ ما يقولهُ الواصفون، فطوبى لمَنْ أدلى إليهم بسببٍ وتقرَّبَ منهُم بأدنى سببٍ فنسبُهم هو النَّسبُ المتَّصلُ وسببُهم هو السَّببُ الذي لا ينقطعُ ولا ينفصلُ، وثناءُ الخلقِ في الحقيقةِ وعليهم إنَّما هو ثناءٌ من اللهِ إليهِم إذ كُلُّ مَن أثنى على الإنسانِ بجميلِ أوصافٍ فهو من اللهِ كما قيل

" إنْ لم يكنْ هنالك استشرافٌ ".

ولا يكونُ أحدٌ محلَّ هذا الثَّناءِ إلَّا العارفين أمثالهُ ممَّنْ فنى في اللهِ وصرفَ فيهِ نفسَهُ ومالَهُ، فهم الذين يُثنى عليهم لأضافتِهم إلى اللهِ ويُراعى دون استشرافٍ مكانُهم من اللهِ، فاز واللهِ مَن أخلصَ في امتداحِهم وتعدادِ خصائصهِم وأمناحِهم

﴿ فِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾[1]

و **﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾**[2]

والمرجو لهؤلاءِ المادحين لسيّدِنا أحمدَ ﷺ أنْ يكونوا من هذا القبيلِ وممَّنْ درجَ على هذا السَّبيلِ إذ لا يخلو أحدُهم من محبَّةٍ فيهِ ووِدادٍ وباعثِ خيرٍ حملَهُ على ما قصدَهُ وأرادَ قد تنافسوا في مدحهِ بكلِّ معنى لطيفٍ، وأتوا بكلِّ مطابقٍ لذلك المقامِ المنيفِ، وازدحموا فيهِ على كُلِّ مُدامٍ والمنهلِ العذبِ كثيرِ الزِّحامِ.

قد جمعتُ أشعاري وأشعارَهم كلَّها في ديوانٍ وأتحفتُ بهِ مَن طلبَ منِّي جمعَهُ من الإخوانِ سميتهُ " **مصابيحُ الاقتباسِ في مدائحِ سيِّدِنا أبي العبَّاس** " ولستُ أوردُ هنا غيرَ أشعاري وبناتِ أفكاري لتكونَ هذه البابُ من جنسِ ألفاظِ الكتابِ ويكملُ والحمدُ للهِ المرامُ بجمعِ ما لي فيهِ ﷺ من النَّثرِ والنِّظامِ، فمِمَّا قلتُ فيهِ ﷺ هذه القصيدةُ الميميةُ من بحرِ الكاملِ ذاتَ العروضِ التَّامةِ وضربِها المُماثِلِ، ابتدأتُها بنسيبٍ مناسبٍ للمقامِ جعلتهُ توطئةً وتخلُّصاً للمرامِ، استوعبتُ فيها جُلَّ أوصافِ الممدوحِ وتتبعتُها تتبُعَ الشَّرحِ للمشروحِ، فأشرتُ إلى معارفهِ وأسرارِهِ, ومواهبهِ وأنوارهِ, ورسوخهِ وتمكينهِ وكمالِ معرفتهِ ويقينهِ, وشيءٌ من أخلاقهِ وسجاياهُ ومواساتهِ, وعطاياهُ وفيضِ إمدادهِ, وقُوَّةِ حالهِ وازديادهِ, وما منحَهُ اللهُ من الكرامةِ بدرجةِ الخلافةِ والإمامةِ, معَ تشبيههِ فيما حواهُ من مقاماتِ الدِّينِ بأكابرِ العارفين والمهتدين, فجاءتْ والحمدُ للهِ بالغرضِ وافيةً وفي بابِها

---

[1] . المطففين (26)

[2] . الصفات (61)

مستقلةً كافيةً, كالتَّرجمةِ والتَّعريفِ بمقامِ ممدوحها المنيف, جعلنا الله في حماه ورزقنا بركته ورضاه وهي

حي الديار وسل سؤال متيــــمِ	عن حي ليلى بين تلك الأرســـم
وترددن ما بينها متولهـــا	وأنشد شذى نفحاتها وتنسمِ
وابن بها حال المتيم بالنـوى	واثبت بها شكوى الحشى المتصرّم
عفر بها حر الجبين مذللا	واسحب بها وجنات وجهك واليم
والمح مخايل حسن ليلى بينهــا	واخضع لعز جلالها و تذمـم
وأدم وقوفك بالحمى مترددا	وأقم على عهد الصبابة والـزم
واهتف بهم يا أهل ليلى ضارعـــاً	رقوا لرقكم المعنى المغـــرمِ
لفحته لوعات الهوى فتسعرت	منها لظاه بكل جمر مضرم
أوهي القوى من جسمه لهب الجوا	ورمى الهوى منه الفؤاد بأسهم
أجفانه ذرفت بدر مدامـــــــع	وهمّت لشوقكم سبيل مفعم
فيذوب وجداً فيكمُ وصبابـةً	ويحن نحوكم حنين مؤلــم
لا ينثني لسواكم كلفـــاً ولا	يصغى بحال اللحاة اللـــوّم
ما زال يأمل منكم طيب اللقــا	ويود من بشراه كُلّ المغنم
عدم اصطباراً عند بعد مزاركـم	وعذابه في حبكم لم يعـدم
أبداً يهيم بذكركم وربوعكــم	شوقا لمطلع بدرها المتيمـم
ومتى سرى سحرا نسيم غرامكم	أحيى الفؤاد بنشره المتنسـم
وأهاج من بين الجوانح فأثـرى	من حيكم بتوقد وتضـرم
لا ينعش الارواح إلّا ذكركــم	أنتم حياة المستهام الأهيـم
كم حامت العشاق حول حماكم	وشدت بكم طرباً لحسن ترنم
إن لاح برق غرامكم لقلوبها	طربت به الأعضاء بكل تهيم

واذا تجلى للفؤاد جمالكم صعقت وذكرك طورها بتهدم
لو كان وصلكم بشيء يشترى كانت له الارواح أبخس درهم
أو كان ودكم بأوج يرتقى كان الرؤوس لذاك أوضع سلّم
فاخضع لعز جنابهم تلقى المنى والهج بذكر جمالهم وبهم هم
وأطع لسلطان الغرام وأمــره واحكم بما يرضيه منك وسلم
حم دائماً حول الديار تملقاً واستعطفن في بابهم واسترحم
فعساهم أنْ يقبلوك تكرماً فهم هم أهل لكل تكرم
رحماء للضعفاء أفضل موئل يأوونهم بتعطف وترحم
أباء فضلٍ للبرية قد غروا وحبال وهم لهم لم تفصم
رضعوا ثدى الوصل من سير البقا فلذا رضيع وصالهم لم يفطم
إن المعارف والخوارق خيمــت بربوعهم فالمح سناها تعلم
هم أهل مخفية الجمال ومن هــمُ هم أهل سر في الورى لم يكتم
ولديهم سر التصوف قد بدى واليهم علم الطريقة ينتم
وهم مطالع شمسها إن أشرقت وهم ينابعها اذا لم تنهم
وهم مظاهر سرها وعلومها وهم مناهل بحرها العذب الطم
وهم عرائس حسنها وجمالها وهم نفائس درها المتنظم
بوجودهم قد أظهرت آياتها وبجودهم غاياتها لم تحرم
ذاك ابن عبدالله مصباح الهدى شمس المعارف ذو المقام الأعظم
الشامخ القدر العلي فخاره ضخم السيادة فخم كُلّ مفخم
بيت الولاية والهداية والتقــى طود العناية كنف كُلّ متيم
شمس الزَّمان المستضاء بنوره والمنة العظمى لكل مغنم
سلطان أرباب القلوب ممدهم مرسى الخوارق نور أهل العلم
الوارث السر الذي ما احتازه من سابق في غاية أو مقدمِ

ضربت عليه من المعارف قبـة　　فحوى حقائق لا ترام لروّم

وعليه قد خلعت ملابس حسنها　　من كُلّ ديباج به متعمم

وعلومها وفهومها وفنونها　　طوع انقياداته لا بتعلم

كحلت بذاك عيونه مثل المها　　وغدت له خلقا بوصف ملزم

منح الاشارة للحقائق مثل ما　　منح العبارة في مقالٍ مفهمِ

فكأنما الطوسي غزّ إليهِم　　قد أعاره تبيان كُلّ مترجم

هو ترجمان العارفين بعصرنا　　ولسانهم في ما خفى من مبهم

هو آية الرحمن فيهم أظهرت　　بهرت بسر كُلّ خبراً فخم

ما إن يطير القوم تحت جناهه　　أو ينتهي لهم له من أعلم

فبحاره ما إنّ لها من سابح　　وسماؤه ما إن لها من مستم

خصبت في عصرنا أرض الهدى　　من بعد ما أغبرت بدهر أدهـمِ

وحيّت به البيضاء سنة أحمدٍ　　ومحى سناه كُلّ ليلٍ مظلم

قد قام في ابدائها متشمراً　　يدعوا إلى نهج الطريق الأقومِ

كم أطلعت أنواره في أُفْقها　　من كُل بدرٍ بالبهاء متمّمِ

كم من نحور قلدت من يسرهِ　　بنفيس درٍ في العقود منظمِ

ولكم رسوم من قلوب قد عفتّ　　أحيا مرابعها بغيث مُنهَمِ

ولكم جموح قاده بلجامه　　ولطالما من قبل ذا لم يُلجمِ

ولكم مبانٍ من معالم رشده　　قد استَسّت أركانها لم تثلمِ

قد أعلنت علياؤه بين الورى　　لم تخف من بعد العيان عليهم

شيم له قد أنبأت عن سرّه　　وبدت بها الآيات للمتوسمِ

ظهرت فكانت في الوجود منيرة　　آيات صدقٍ في كتابٍ مُحكمِ

لو أبْصرَتْ عيناك مَنظر حُسنه　　وجمالهِ وجلاله المُستعظمِ

أو لو رأيتَ مطالع النور الذي　　يجلو سناهُ كُلّ داج أسحَـمِ

ومخايلاً لمعتْ بغُرة وجهـه ... تزري بهاءاً بالهلالِ الأتمـمِ
لرأيت أخّاذَ القلوب بنظـرة ... فتّانها المسبي لكُلِ مُهيمِ
وظَلَلْتَ في بحر الصبابة مُغرقاً ... في لجها ما بين موج ترنـمِ
سحا بروحك في هواه مغرمـاً ... في الحان من طاير الحميّا تَحمِ
يرون حسن منه يختطف الحشا ... ويروق منظره لكل متيمِ
ذاك الذي هام الجميع بسره ... واستعبد العشاق فيه بميتمِ
سجدت له الارواح منهم خضعا ... وانقادت الأشباح طوع تحكـمِ
حكمت محاسنُه بان أسرَه ... لا يُفتدى وبغير ذا لم تحكمِ
لله من بدر ومن بحر جرى ... يسبي العقول ويرتوي منه الظممِ
في حوذية وسلوكه مهما سما ... أو سار لم يدرك له من مسرتمِ
وله مآثر أذهلت كُلّ الـورى ... وله شمائل ذات قدر مستمِ
كم من مكارم جمعت أخلاقه ... حذوَ النَّبي حذائها بتَيممِ
يهبّ الندا لا خائفاً فقراً ولا ... مترجياً شكراً لتلك الأنعمِ
يهمي ببحر فائض من جودهِ ... ويمينه في فيضها لم تسئمِ
وسع الأرامل واليتامى نائلاً ... وأنظر فكم آوى له من معدمِ
سهل الجناب لكل عافٍ مملق ... سمح المحيا واضح المتبسمِ
يرضيك منه تواضع وتورع ... وترفعٌ عن مِنّةِ المتكرمِ
وتراه يخدم نفسه في مهنةٍ ... من أهله لم يتخذ من مَخدمِ
وعليه طلعةُ هيبةٍ و جلالةٍ ... قد صادمت قهراً لكل غشمشمِ
فيهابه من قد رآه بديهةً ... ويودّه حباً موال منتمِ
ملبيه مفصالا معيناً منجداً ... غوثاً مغيثاً إن ملم يلمـمِ
يحمي حمى مولاه يؤثر حزبـه ... ايثار ذي فضل مجد مكرمِ
لم يأل في أمر الأنام مسارعا ... بمأرب الحاجات أفضل قيّمِ

ايثاره في المخلوقات شعاره وبغير ذا بين الورى لم يعلمِ
متخلق خلق الشَّريعة كُلّهِ حزم وعزم في اتباع الأعزم
قطع الذرائع حاسماً لرؤوسها ولكم إمام رامها لم يحسمِ
متجرداً متسببا متوكلاً ومُفوضاً في أمره لا يعتمِ
تجريده التوحيد والكسب الغنا عن حادثٍ جمعاً وفرقاً فافهمِ
مستغنيا بالله رافع همةٍ عَمَّا سواه به دواماً محتمِ
في حضرة المولى اعتلى عزاً ومنْ يعظّم شعائره يعُزه ويُعظمِ
في جده مع زهده مع جودهِ ما لا يعبُر منطق المتكلمِ
ما إن ترى في قطرنا وبعصرنا كفؤاً له في ذا الطَّريق الأحزمِ
قد حاز ما للأولياء مُجمعاً ما في الشيوخ مفرق لم يضممِ
ما إن يغير بالمقام وحالةٍ حتَّى له بنهي اذن أو ينتمِ
لكن علي ويحق المقادِر جريه يتلوا مراداً للعليم الأعلمِ
ضاها الأكابر من فضيلٍ والسرّي والأصمّ والشبلي وابن الأدهمِ
فأبو يزيد لو رأى فيضانُه لأحبه من بين كُلّ مُعظّمِ
أو لو رأى النووي له صدقا رأى حبلاً رسا للائذِ المستعصمِ
أو لو رأى الحافي المبجّل حالُه ورعاً أقرّ له بفضل مُقدمِ
أو لو رأى الثقفي الإمام أبو على عقلاً به قد خص بين الفُهّمِ
لرأى له ما لا يقاوم مدركا من كُلّ نُبلٍ للجهابذ مُفحمِ
ويكبّر ابن أبي الخوارق لو راءٔ منه نفوذ بصيرة لم يوهمِ
جن لو رأى مرشيهم عرفانه لذرى تمكنه بمرساةُ السّمِ
من مثلُه في حالِه و مقالهِ وسلوكِه سُنن النَّبي الأكرمِ
من مثله في سِره أو نوره أو فيضه لها مفوح يرتمِ
من مثله في جِدّه و نهوضه ونفوذ عزم في العُلا مستتْمِ

نَبَذ السّوى وراءه ورمى به ... لم تختدعه مطامع من مّوهمِ
جعل الوجود بكلِ شيءٍ واحداً ... وسواه في ايجادِه كالمُعدَمِ
قَطَعَ القواطع ذاهباً متوجهاً ... لم يلتفت لسوى الجمال الأقدمِ
وفنى به عَمَّا سواه وغاب ... في تحقيقه ذاتاً بغير تَوهمِ
حتَّى ارتوى بوصاله من منهلٍ ... وافى به سرَ البقاء الأدومِ
أولاه مولاه ولايَةَ قُربه ... وَحبَاه بالتخصيص حب مُكرَّمِ
وغدا له بصراً وسمعاً له ... ويداً له في بطشِه أنْ يعزمِ
فاذا استعاذ أعاذه وإذا رضيَ ... يحظى وإن يسأل يُجَل ويُكرم
لو كان أقسم راغباً في مقصدٍ ... لأبرّه عِظَما لقدرِ المقسم
قد صار مأخوذاً لحضرة رَبِّهِ ... بالنصر محكوماً له أنْ يحكمِ
ممنوح ما يرجوه موصول المشى ... في بحر إحسان حواه مُعممِ
وغدا الخليفة في الخليقة أمره ... أمر الإله بقاطع مُتحتّمِ
والقلب منه لكل أمرٍ مظهر ... ما يجري فيه الله جبراً يلزَمِ
مفتاحُ تصريف و باب خزائنٍ ... بالله يمضي كُلّ أمرٍ مُبرَمِ
هو مُصحفُ التحقيق فيه تنزّلت ... آيات حقٍ من عزيزٍ مُحكَمِ
هو آخذ لسرّ المصور وراثة ... من سّيِّد الثقلين أفضل مُكرمِ
حقّته أنوار النَّبي رعاية ... وحظى الخُلق العظيم بمعظمِ
نَبَعَتْ ينابِعُه وفاضَ غَبابُه ... مدداً مَعيناً للبريةِ ينهمِ
من خمرة أزلية قدسية ... روى قلوب العاشقين الهيمِ
وأعلهُم من منهل مستعذب ... من كُلّ كأسٍ بالمدام مزمزمِ
طربوا بها زهواً وتاهوا رفعةً ... وسموا مقام الناسكين الصوّمِ
وتذكروا منها عهوداً بالحمى ... في سابق أزلاً لهم متقدمِ

هــذا الــذي وقفْــتُ بســاحل بحــرهِ — أهــل النهــى مــن مُقــدم أو محجــمِ
هــذا الــذي أعلــى منــار رشــادنا — وأقــام ركــن الــدِّين بعــدَ تهــدمِ
هــذا الــذي حرصــت بــهِ جــدد الهــدى — إن يعــدُ طارقهــا بأشــهب رمــي
هــذا الــذي قطــع المهامــة أيقــظ — قومــاً غــدوا فــي غفلــة كــالنيمِ
لاحــت بــهِ شــمسٌ علــى أفاقنــا — مــا أن خَفــت إلّا علــى طــرفٍ عــمِ
فــانظر فــإنَّ الرشــد بــاد واطــرح — عنــك الركــون لقــاطعٍ متــوهمِ
وادخــل حِمــى الاقــوام صــدقاً واعتمــد — تــرك الحجــا فــي ذي المحجــة تسـلمِ
فالعقــل أن يحمــد لنيــل مــأثر — للمــرء فــي هــذي الطَّريقــة يُــذممِ
عامــل بصــدق مــا حييــت فأنــه — مــن لــم يقــدم صــدقه لــم يُقــدمِ
وأنهــم اميــر الــنَّفس غيــر مُبرئــي — مــا فــاز بــالمطلوب مــن لــم يُــنهمِ
وأنبــذ حيــازم حزمهــا متجــرداً — والقــي القيــاد لأمــرهم وستســلمِ
فــالقوم قَــدْ ملكــوا النفــوس ازمّــة — ملــك المضــارب فــي يــد وبطــلٌ ظُــمِ
وتــأدبن لعلاهــم متواضــعا — وأداب مجــداً فــي رضــاهم تغــنمِ
أن التــأدب منــك أكــدُ قُربــةٍ — طــوبى لــذي أدب لــهُ مســتلزمِ
وأحــذر مصــارعَ مكــر ربــك أن تكــن — متعرضَــاً لهُــمْ علمــت وأن لّــمِ
أن الــذي نــاواهم باذايــةٍ — لمُحــاربٌ للهِ غيــر معظــمِ
جاهــد بســيفهم نفوســاً طالمــا — عبثــت بِهــا ايــدي البطالــة واعــزمِ
واســكن بِهــا ارض الخمــول ووارهــا — فــي قبــر اهمــال عفــا ولهــا أهظــمِ
وأنصــف أُذن مِنْهــا لحــق لا لهــا — واركــب لهــا مــتن النجــاة وســلَّمَ
وتــرقَ عَــنْ ارض الحظــوظ ترفعــاً — لِســماء تفــويض بغيــر تهمــمِ
فــالله يــألوك منــهُ رعايــة — تجــري علــى الصــنع الجميــل الأحكــم
واطــب منــازلهم بِهــا متبركــاً — وارتــع بروضــة حســنهم وتــنَعمِ
فعســاهم ان يلحظــوك بنظــرةٍ — فهــي الغنــا مــن نالهــا لــم يُعــدمِ

فـــالقوم لا يشـــقى جليسَـــهم بِهِـــمْ وهُـــمْ الكـرام علـــى الكـريم المـنعمِ
وهُـــمْ الـــدعاة لنـــا لحضـــرة ربنـــا وهُـــمْ إلـــى العرفـــان أوضـــح معلـــمِ
وهُـــمْ النجـــاة مـــن الـــردى لـــرفيقهم مـــن معشـــر غُـــرّ عَلـــيهِم مـــنعمِ
يـــا فـــوز مـــن ظفـــرت يـــداه بقـــربهم وشـــفى علـــل الفـــؤاد الأســـقمِ
فـــالله يولينـــا منـــائح حـــبهم ويـــتم انعمـــهُ لنـــا بتـــتممِ
فلعـــل إن يبـــرأ العليـــل مـــن الضـــنا ويـــراح مـــن تَعـــبٍ بـــهِ متـــألمِ
ويقـال قَدْ اصـبحت فـي كنـف الرضـى فأبشـــر بأقبـــال وبـــالا فـــأنعمِ
هـــذي عـــوارف مـــن لـــدنكم أمَلَـــت بكم رضـى المولى المولى الرحيم الارحمِ
نشـــرت بِهـــا اعـــلام بَعـــضُ علاكـــم وفخـــاركم جهـــد المقـــل المُعـــدمِ
لكـــن لهـــا حلـــل زهـــت بجمـــالكم فحـــلا لهـــا منطـــقٍ بـــتكلمِ
وتشـــرفت شـــرف العقـــود وحليهـــا فـــي جيـــد حـــوراء الحســـان ومعصـــمِ
واللهِ ارجـــو ان أرى يـــوم اللقـــا فرحـــاً بـــهِ لا خائفـــاً مـــن مـــأتمِّ
فـــي زمـــرة الشـــعراء مـــعَ خيـــر الـــورى مستبشـــراً بحمـــى تقربـــهِ الحـــمِ
مســـتوطن الفـــردوس فـــي غـــرف العلـــى فـــي ظـــل الرضـــوان الـــرحيم الارحـــمِ
وعليـــك مـــن رب الآنـــام تحيـــة ورضـــى بـــهِ يحظـــى بِكُـــلِّ تـــنعمِ
مـــا ازعـــج الاشـــواق مـــن مضـــنى الحشـــا نغمـــات حـــاد بـــالحمى مُتـــرنمِ
وسُرت نسيمات الغرام عبيقةٍ وتضوعت ارجا بمسك تختمِ

انتهت وهي مشتملة على مائة وأربعة وثمانين بيتاً, وممَّا قلت فيهِ ﷺ هذهِ القصيدة الكاملية الدالّيةُ التامّة العَروض والضَّرف, وكُنت عارضتُ بِها دالية الشَّيخ العالِم الصَّالِح أديبِ العلماء وعالمِ الأدباء شرفِ الدِّين أبي عبد اللهِ سيِّدي مُحمَّد بن سعيدٍ البوصيري رحمَهُ اللهُ التي قالها في شيخِه سيِّدي أبي العبَّاس المرسي وشيخِ شيخه أبي الحسنِ الشَّاذلي رضيَ اللهُ عنهُما ونفَعَنا بهما حاكيتُ

فيها صنيعهُ وبليغَ قولِه وبديعه ونسجتُ النسيبَ على منوالِهِ, ومن لي بلحوق شأوِ أمثاله لأني وجدت مكانَ القول كما وجدهُ واسعاً, والمقولُ فيه لتلك الأوصاف جامعاً فاستخرجتُ مكنونَ طبعي وأبدلتُ القُوى فيهِ وسرتُ بحسبِ وسعي غيرَ مستمدٍّ من معانيهِ ولا من قوافيهِ نفَعَنا اللّهُ كما نفعَهُ هو بذلك و أهلَّنا للدُّخول في الحضرةِ والفوزِ بما هنالك وهي هذه

كتب الشباب الى المشيب أن اتبعني — آن التحاقــك فــيّ ولــم أتــزود
هــذا صــباحُك لتــر ليلــي مُقبــل — وسراةُ جرى فـي السرى لـم تجهـدِ
أنــتَ النــذيرُ وأيــن ســامعك الــذي — يصــغى لوعــد حــان أو مُتوعــدي
مـــا زالَ ينشـــد للهـــوى لقطافـــهِ — متنكبــاً قـــول المُنـــادي المنشـــدِ
متجافيـــاً عمَّـــا اعـــد لحملـــهِ — فكانَــهُ لســوى الهــوى لــم يُعــدد
يــا ليتــهُ ســلماً لسـلمى لــم يكــن — ومُراد سعدي فـي الهـوى لـم يُسعد
هــذا الشـباب مضــى وَ اخلـق ثوبـهُ — وخلالــهُ بــينَ الــورى لــم تحمــدِ
و إذا الشــبابُ نئــا ولمــا يكتســبِ — شــرفاً فمــن لمشــيبه بالســؤدَدِ
بــدئ الفتــى بالضــعفِ أوَّلَ نشــئهِ — ولسوف تضعفهُ السنون كمـا بُـدي
ضـــعفان بينَهُمـــا تـــرأت فُســـحةٌ — عــين المنيــة حولهــا لــم ترقــد
والمــرءِ فيمــا يــرَ ذلــكَ لقطــة — معروضـــة لمقـــربٍ و مبعـــد
منبــوذة مـــا بـــينَ اضـــداد عتـــوا — هـــذا بمقعـــده وذاك بمـــرض
مــا يــردّ عنــهُ جلـيسَ سـوء خاسـئا — إلَّا والفـــى خاســـئاً لـــم يطـــرد
موقوتـــة أجالـــهُ مضـــروفةٌ — محـــدودةُ ممَّـــا نـــاوُهُ بمحـــددِ
مكتوبـــةُ اســـرارهُ محســـوبةٌ — اعمالـــهُ أبـــداً وأن لـــم يُعـــددِ
مــا بــال موعُــود بمحــدودٍ غفــا — لــم يختبــر يومــاً وفــاء الموعــدِ
وأمامـــهُ وطـــن الســـؤال وموقـــفٌ — مســتوقفٌ فيـــهِ وقـــوف مُهـــددِ

و أمامـــه حـــدُ طـــودٍ حـــاجز ... مـــا بـــين موقفـــهِ وذاك المقعـــدِ
اســـرتهُ خادعـــة تـــروجُ منظـــراً ... بصـــرت برائعهـــا جميـــع النُقـــد
واســـــتوثقت بقيـــــادهِ أمـــــارة ... أن ابرمـــت حكـــاً لـــهُ لـــم تـــردَّدَ
قَـــدْ حملّتـــــهُ بظهـــرهِ أثقالهـــــا ... فتحمـــل الأوزار حمـــل المـــزودِ
حطـــت لـــهُ قـــدراً رفيعـــاً قَـــدْ عـــلا ... وســـرتهُ فـــي ثمـــن لهـــا بخـــس ردئ
واســـتوقفته علـــى نباتـــةِ ســـاقه ... واســـتخدمته الـــدهر خدمـــة اعبُـــدِ
يـــا حســـرتا لمؤيـــد ملـــكٍ غـــدا ... مـــأمورَ ملـــوك يســـاق بمقـــودِ
وكـــذا يعـــود جـــزاء مملـــوك عـــدا ... ونئـــا نـــؤى إلّا يقـــين الســـؤدد
مستوحشـــاً مـــن ربـــهِ متأنســـاً ... بســـرابٍ فـــار زائـــلٍ مُســـتنفدِ
قَـــدْ كـــانَ فـــي أعلـــى وأحســـن رتبـــةً ... فهـــوى لأســـفل ســـافلٍ مســـتوهدِ
قَـــدْ كـــانَ للمـــلأ العلـــي مُحاكيـــاً ... روحـــاً وعقـــلاً لا يُســـام بمبعـــدِ
مـــن عَـــالمٍ متأصـــلٍ لتعـــرفٍ ... مســـتخلصٍ لتقـــرب وتـــوددِ
مـــن حضـــرةٍ فـــي القـــربِ عـــز قرارُهـــا ... فـــي حضـــوةٍ وتفـــردٍ وتجـــردِ
وإذا أهـــين العبـــد خَلـــيَ والهـــوى ... لـــم يســـتغيث يومـــاً ولـــم يســـتنجدِ
فاســـتنجد بمـــولى مغيثـــاً مـــن عصـــا ... مســـتمطراً لنوالـــهِ المتعـــوّدِ
وقفـــاً ببـــاب الله وقفـــة هـــاربٍ ... متنصـــلٍ ممَّـــا سِـــواهُ مُجـــردِ
أن المُصـــاب إذا علـــى عبـــدٍ عَـــدَا ... لـــم تنفـــع الشـــكوى لغيـــر السَّـــيّد
قَـــدْ أوجـــب البعـــد الركـــون لغيـــرهِ ... وتضـــمن القربـــى فـــذا المســـتنجدِ
كُـــلّ المعايـــب محوهـــا يرجـــو الفتـــى ... مـــالم يشـــارك غيـــرهُ فـــي مقصـــدِ
فاســـأل بقلـــبٍ لـــم يمازجـــهُ السِـــوى ... تلقـــى المنـــا مـــن واحـــد متفـــردِ
وانقـــض بنـــاءَ قطيعـــةٍ متوجهـــاً ... لجنابـــهِ الأعلـــى وســـارع واجهـــدِ
واذكـــر ســـوابغ انعـــمٍ مصـــحوبةٍ ... وأدر بهـــا ذكـــرى الحبيـــب ورددِ
أفـــلا يُزيـــدك حبـــهُ نعامـــهِ ... ونوالـــهِ الجـــاري الـــذي لـــم يُفقـــد

مــا زالَ بالإحسـان يـدعوا عبـدهُ ويدلـــهُ بتعـــرفٍ وترفـــدِ
واشـــكر لـــهُ بعبـــادةٍ وزُهـــادةٍ وتقـــرب بتنفـــلٍ وتهجـــدِ
وتـــزودهُ حـــب النَّبـــي وألـــهِ وكـذا الصَّـلاة عليـهِ خيـر تـزودِ
صـــلى عليـــهِ الله أعظامـــاً لـــهُ ان الصَّـــلاة عليـــهِ كنـــزاً الوُفّـــدِ
هـــو الـــدليلُ ولا وصـــول لربنـــا إلّا بمنهجـــهِ القـــويم الأســـعدِ
الخـــاتم الرســـل الكـــريم علـــيهِم والفـــاتح الأمـــر العلـــي الأمجـــد
المُصـــطفى الـــداعي لحضـــرةِ ربـــهِ والقـــائم الملبّـــي بـــذاك المشـــهدِ
نـــور الوجـــود وســـره الســـاري بـــهِ وضـــياء أنجمـــهِ الهـــداة الوقّـــد
فـــإذا اردت لبـــاب ربـــك وَصـــلة فاســـلك بســـنتهِ المحجـــة واقتـــدِ
وجعلـــهُ فـــي كُـــلِّ الشـــدائد ملجئـــاً وعلـــى الغيـــاث بـــهِ اكفـــك فاشـــددِ
مـــا ارشـــد الحيـــران فـــي ظلماتـــهِ أو انجـــد اللهفـــانِ مثـــل مُحمَّـــد
صـــلى عليـــهِ وســـلَّمَ المـــولى الـــذي ابـــداهُ نـــوراً وهدايـــةٍ للمهتـــدِ
واستمســـك بعـــرى الأئمـــةِ بعـــدَهُ مـــن صـــاحبٍ وتـــابعٍ ومزهـــدِ
واقصـــد مقـــام المهتـــدين بهديـــهِ مـــن ســـالكين وواصـــلين وعبّـــدِ
واخلـــص ودادك للمصـــافي ودهُ للهِ واجمـــع فيـــهِ ودك واعقـــد
وإذا قصـــدت إلـــى الالـــه موصـــلاً فـــألى ابـــن عبـــد اللهِ أحمـــد فاقصـــدِ
شـــمس الزَّمـــان ونـــورهِ وشـــهابه وســـراجهِ البـــاهي المنيـــر المُوقـــد
شـــيخ الهـــدى بحـــر الجـــد جـــمّ النـــدا نجـــم اقتـــدا للســـائر المسترشـــدِ
الكامـــل النُّـــور الغزيـــر نوالـــه والمـــانح البَـــذل الممـــد الاجـــودِ
واحطـــط رحـــال منـــاك عنـــدَ بنائـــه واســـتمطرنَّ نفحاتـــهِ واســـترفدِ
واصـــل محافـــل كالجنـــان بـــهِ زهـــت واقصـــد لهـــا متبركـــاً وتـــرددِ
وارتـــع بـــروض معـــارف قَـــدْ أعبقـــت منـــهُ بكـــلِّ معنبـــر ومُنـــددِ
فـــإذا شـــممتَ عبيقهـــا مـــن عـــارفٍ عاينـــت مـــا عاينـــت فاشـــرب واســـعدِ

ما شئت من سر ومن نور ومن — مــدد يفــيض معينــه للــوردِ
جُليت لــهُ الاسرار من استارها — بجــلاء طــرفٍ بصــيرة فتسددِ
وبدت لــهُ الاسماء معَ أوصافها — وأرتــه تصــريف العلــي المُوجــدِ
تهــديك منــهُ اشــارةً وعبــارةً — وتريــك فاشــهد غائــبٍ لــم يُشــهدِ
وإذا الحقــائق اعوزتهــا فهومهــا — فاسمع أخا فتحٍ إليها ترشدِ
لا تحســب الاســناد يشــفي غلــةً — والفــاتح الأمــر العلــي الأمجــد
الســمع يُنبــئ والفــؤاد مُبلــغ — والقــائم الملبّــي بــذاك المشــهدِ
يمشــي الفتــى بــالنور فــي ظلماتــه — وضــياء أنجمــهِ الهــداة الوقّــد
أوَ مــا تــرى ارســال رُسـل حكمــة — فاســلك بســنتهِ المحجــة واقتــدِ
ومــن التلقــي كــانَ كُـلّ موصــلٍ — وعلــى الغيــاث بــهِ اكفــك فاشــددِ
إن الــذي ألقــى الرســول لأمــةٍ — أو انجــد اللهفــانِ مثــل مُحمَّــد
فــاغنم عــوارف عــارف متبتــلٍ — ابــداهُ نــوراً وهدايــةٍ للمهتــدِ
إلّا لا ركــون لــهُ لغيــر إلهــهِ — مــن صــاحبٍ وتــابعٍ ومزهــدِ
ولَــهُ اتبــاع كامــل لنبيّــهِ — مــن ســالكين وواصــلين وعبّــدِ
وافــى الســلوك بحــال جــذبٍ فــاقتني — للهِ واجمــع فيــهِ ودك واعقــد
مــازال يظهــر بــينَ قــوام أسـرفوا — فــألى ابــن عبــد اللهِ أحمــد فاقصــدِ
شــيخٌ كانَــتْ لــهُ وراثــة واصــلٍ — وســراجهِ البــاهي المنيــر المُوقــد
و أبيــك مــا كانَــتْ وراثــة ايتمــت — نجــم اقتــدا للســائر المسترشــدِ
العــارف المــتمكن الشَّــيخ المُربِّــي — والمــانح البَــذل الممــد الاجــودِ
المعلن الحــق المبيــن سنــةً — واســتمطرنَّ نفحاتــهِ واســترفدِ
بأجــل مــن رتــبٍ لديــهِ جليلــةٍ — واقصــد لهــا متبركــاً وتــرددِ
لكنــهُ فضــل علــى فضــلٍ علــت — منــهُ بكــلِّ معنبــر ومُنــددِ
ولأمــهِ الغــراء قــود هدايــةٍ — عاينــت مــا عاينــت فاشــرب واســعدِ

ولجـــده مِنْهـــا فخـــار ينتمـــي مـــدد يفـــيض معينـــه للـــوردِ
تِلــكَ المواهـــب لا مكاســـب تقتنـــى بجـــلاء طـــرفٍ بصـــيرة فتســـددِ
وإذا الفضـــائل جاوزتـــك إلـــى أمـــرئ وأرتـــه تصـــريف العلـــي المُوجـــدِ
شـــرفاً لفـــاسٍ قَـــدْ ســـنت بطلوعـــهِ وتريـــك فاشـــهد غائـــبٍ لـــم يُشـــهدِ
رامـــت بِهـــا مخفيـــة اخفـــاءهُ فاســـمـــع أخـــا فتحٍ إليهـــا ترشـــدِ
مذ بـــان سداهُ أوَّلَ أمـــره لكمـــال منشـــاهُ الســـعيد الاحمـــدِ
وأفـــاق فـــتحَ فيضـــه متـــدفقٍ لا ينتهـــي بتكـــاثرٍ وتزيـــدِ
بالفضـــل عـــداهُ أبـــو الفضـــل الـــذي قَـــدْ كـــانَ قاســـم ســـره المســـتمددِ
الشَّـــيخ قاصـــم الخصاصـــي الـــذي قَـــدْ خصـــه المـــولى بأســـمى مصـــعدِ
افـــديك يـــا شـــيخ الهـــدى مـــن قاســـمٍ رحـــب الجـــدى لمَـــنْ اقتـــدى لـــهُ يحتـــدِ
يـــا فـــائض الأنـــوار والامـــداد يـــا عـــذب المناهـــل للظِّمـــاء الـــوردِ
يـــا بحـــر تحقيـــق واســـرار طمـــا ورمـــى بمـــوج مـــن معـــارف مزبـــدِ
يـــا معـــدن التفريـــد والتجريـــد يـــا كنـــز الغِنـــى للواقـــف المتجـــردِ
يـــا ذا الفنـــى فـــي ربـــهِ يـــا ذا الغنـــى بالاهـــهِ يـــا ذا المنـــى المتجـــردِ
عمتْـــكَ رحمـــات المهـــيمن مثـــل مـــا عمـــت بـــك النعمـــا لكـــل موحـــدِ
يـــا رب صـــافيةٍ يلـــوح شـــعاعها رويـــتُ مِنْهـــا غلـــة القلـــب الصـــدِ
ومـــدفق مـــن فيضـــها أمددتـــه لمعشـــق خـــرب الهـــوى مُســـتبعدِ
وكـــذا الخلـــي بِهـــا اســـتفاد حياتـــهُ وانجتـــهُ مِنْهـــا صـــفي المربـــدِ
خمـــرٌ تـــدفق كاسُـــها لنـــديمها فمـــديُرها لمُريـــدها لـــم يبعـــدِ
مَرجُوعـــة المقـــدار لا ممنوعـــةٍ سَـــل تعطـــى واســـترفد نـــداها ترفـــدِ
قويـــت لأهـــل ودادهـــا أمـــدادها واعتـــاد واردهـــا الوفـــاء بأزيـــدِ
وعتـــت علـــى خزانهـــا فشـــرابها لا مســـتطاع لـــهُ بغيـــر تعربـــدِ
قَـــدْ ازعجـــت اشـــباحها الأرواح إذ شـــهدت بِهـــا معنـــى الوصـــال الأســـعدِ

شـهدت بيـوم ألسـتُ مـا قـرت بـهِ ... افـــلا تجِـــنّ إذن لأول مشـــهدِ
يـا أيهـا البحـر الخصاصـي الـذي ... اجـرى معينـــاً طالمـــا لـــم يُمـددِ
ودعـــا إلـــى المـولى بحالـة عـارفٍ ... واحـــداً بأحمـــد للطريــق الأحمــدِ
أيــــامكم ظهــــرت ولاح ضـــياؤها ... وبـــدت لكـــل موفـــقٍ و مســـددِ
كُنـت المشـير إلـى معـارفٍ قَـد علـت ... لـــم تكتســـب بـــتعلم وتجلـــدِ
كُنـــت الغنـــي علـــى تقشـــف حالـــةٍ ... و الحـــائز الزُّهـد الـذي لـم يعهـدِ
لـــم يقـــرب الراجـــي إليـــكَ بنائـــل ... كـــلا ولـــم تقبـــل نـــوالاً مـــن يـــدِ
أنـــــى يشـــيبُ زلال وردك شـــائب ... أم كيـــفَ تلبســـهُ مَقالـــة ملحـــدِ
قُـــلْ للمعانـــد هـــذِهِ آياتـــهُ ... تتلـــى مقـــررةٍ فـــاقرأ واجحـــدِ
مـا ضـر بـارزة الجمـال وقَـدْ بـدت ... للنـــاظرين جحـــود أعشـــى أرمـــدِ
ان يجحـــدوه وقَـــدْ بـــدت آياتـــهُ ... فلطالمـــا أودى بِهِـــمْ بمهنـــدِ
ماضـــي العزيمـــة منجـــد متجـــدد ... متـــدرب فـــي النائبـــات مجـــردِ
اقواســـــــه وتـــــورة وســـــهامهُ ... محـــدودة وســـيوفه لـــم تغمـــدِ
هـــذا أبـــو العبَّـــاس مظهـــر فخـــرهِ ... هـــذا أبـــي عبـــد اللهِ حسـبُكَ فاهتـدِ
قَـدْ قصـرت عَـنْ شـأوه همـم علـت ... وانقـــاد نحـــو عُـــلاه كُـــلّ مُســـودِ
و بقـدر متبـوع الفتـى شـرف الفتـى ... وبقـــدر مقصـــود فخـــار القصّـــدِ
ابـــــداه مـــــولاه واعلــــى ســــرهُ ... وأبـان فيـهِ الأمـر فاشـكر واحمـدِ
ســـر لوالـــــده أســـــرَّ لقاســــمٍ ... وسـرى لـهُ مـن قاسـم غضّـاً نـدي
ردت إليـــهِ ودائـــع الكنـــز التـــي ... كانَـــتْ ذخيـــرة والـــد لمُولَـــدِ
وغــــدا لــــهُ أرث الطَّريقــــة عارفـــاً ... عَـنْ عـارفٍ ومجـداً عـن أمجـدِ
واعـــددهم مـــن شـــيخهِ للمصـــطفى ... تلفـي ثلاثـين انتهـت مـعَ مفـردِ
فلقاســـم أرث مـــن الفاســـي أبـــي ... زيـــد ومـــن ســـر المعـــارف مُحمَّـــد
وكلاهمـا مـن يوسـف الفاسـي ارتـوى ... مـــن بحـــر مجـــذوب بفـــيض ممـــددِ

وعلــى ابــراهيم حــاز كمــا حــوى زرّوق ســر الابــن عقبــة أحمــد
ووفــاء يحيــى فــي علــي واعتلــى داوود بــابن عطــاء الالــهِ الأوحــدِ
وســرت لمرســي علــوم الشـــاذلي مــن فــائض بــن مشــيشٍ المستوردِ
ولقــد أتَــى المــدني ســرّ فُقيــرٍ من عندَ فخر الدِّين حيثُ بـهِ اهتدِ
وافــاد نــور الــدِّين تــاج الــدِّين مــن أضــواء شــمس الــدِّين نــور توقــد
وأزان زيـــن الـــدِّين ابـــراهيم إذ وافــى باحمــد عَــنْ ســعيد يقتــدِ
ولســـعدهم فـــتحَ أتَـــى بســـعيدهم وبجــابر حســـن عـــلا بمُحمَّـــد
صــلى عليــهِ الله مــا مــدّ الــورى منـــهُ بنـــور نبوءةٍ متوقـــد
ان العـــوارف عنـــده مـــن ربـــهِ لا تنقضـــي بموقـــتٍ ومحـــددِ
آيـــات كُـــلّ الأوليـــاء تجمعـــت فيـــهِ ومنـــهُ تفرعـــت بتعـــددِ
لـــم ينســـخ الـــرَّحمن مِنْهـــا أيـــةً إلَّا وأحيـــا أيـــة بتجـــددِ
نـــور النبـــوءة لا يـــزالُ متمِمَّـــا وتمامــــهُ اســـــتمرارهُ بتأبـــدِ
ولَــهُ الولايــة فــي البريــة مظهــراً فمــن النبــوءة فــاقتبس واســتوقد
هـــذا رســـول الله فينـــا لـــم يـــزل دائمــاً و هــذا ســره لــم ينفــدِ
فــاعرف وجــود الــوارثين ولا تقــل ذهبــوا فتــذهب فــي الظــلال السّرمدِ
مــن كــانَ يحجبــهُ الوجــود فقــل لــهُ حكــم المضــى اذن كحكــم الموجــدِ
عنـــوان عرفـــان الفتـــى لا يختفـــي إلَّا علــى عــين الحســود الأعنــدِ
مـــا دام للانســـان هـــدى ظـــاهرٌ الّا بســـر بـــاطنٍ منابـــدِ
والمـــرء يكســـوه نســـيج ضـــميره ومـــا أكـــنّ مـــن السّـــرائر يرتـــدِ
وكــذا الحــديث عَــنْ الفــؤاد مُحــدثٌ وعَلَيْــهِ حُلــةٌ بــاطنٍ منــهُ أبتــدي
وحـــديث اصـــلاح الجـــوارح كلَّهـــا فـــي مضـــغة حـــدّث بـــهِ وبِـــهِ اقتـــدِ
ان الـــدليل لـــذي الفـــؤاد لواضـــحٌ فطــرد بــهِ وَهــم الضــلول المبعــدِ
واعكـــس بـــهِ امـــل الجحـــود وردهُ واردده فـــي الغـــاوين ردّ مُطـــرّدِ

واعلــم بوعــد الله نصــر عبيــدهِ ... وبمــا لِمــن نــأوي مــن المتوعــدِ

فاشـرد حياتـك عَـن شـرود عـنهم ... واصــرم حبــال الــود منــهُ وبــددِ

وحــذارِ ان تلقــى بــذياً ملحــداً ... ابــدا فتُلقــى فــي الرعيــل الأبعــدِ

والمــرءِ معــدّو عليــهِ بجســهِ ... بتــوقين عــدوى المــزاج الأفســدِ

لا تــأمنن مــن انخــداع فــي الهــوى ... ان الغــرور ذريعــة للمعتــدي

وإذا العهــود يحفظهــا وفّــى الفتــى ... كــانَ الجــدير بــأن يعــود بأفيــدِ

وإذا الفتــى لــم يجتمــع منــهُ الحشــى ... بــأرادة الاقــوام لــم يتقيــدِ

تِلــكَ المواهــب خمــرةٌ فرديــةٌ ... لا تنبغــي ابــدا لمَــنْ لمَــنْ يُفّــردِ

ســرٌ الاهــي بــدا والســر لا ... يفشــى لمشــتركٍ ولا متعــددِ

وأمانــة لا يســتقر مصُــونها ... إلّا بقلــبِ مــؤمن لا يعتــدي

فاطلــب تجــد واقصــد بعــزم تســتفد ... واسترشــد المــولى الــيهم ترشــدِ

والصــدق مفتــاحٌ لبــاب ودادهــم ... ووداهــم مفتــاح كُــلّ الأســعدِ

وســعادة الإنســان فــي اســعادهم ... وشــقاهُ فــي الابعــاد فــاقرب تســعدِ

لا تحســبنَ الوصــل يرقــى أوجــه ... بتعبّــد متحمــل وتجــردِ

ان الوصــال ذوو الوصــول ســبيلهُ ... فــأليهم وعلــى يــديهم فاغتــدِ

والــيهم فلتســتند وعلــيهم ... فلتعتمــد وبهــديهم فلتهتــدِ

وانبــذ مــرادك فــي مــرادٍ مِــنهُمْ ... واتــرك هــواك لــدى هــواهم واقتــدِ

فهنــاك تظفــر بــالمراد و بــالمُنى ... وهنــاك ترقــى فــي علــي المصــعدِ

ان الموصّــل لاعتمــار حمــاهم ... لمَوَصّــل لحمــى النَّبــي مُحمَّــدِ

صــلى عليــه وســلَّم الــرحمن مــا ... هُــدي الــورى بســراجه المســتوقد

فلتبتــدر لحمــاهُم ولتغتــنم ... لرضــاهم والــيهم فتــرددِ

دامــت علَيْنــا نفحــةٌ مــن عطفهــم ... وســقى الفــؤاد زلال ذاك المــوردِ

وحيــاه مــن ودّ ابــن عبــدالله مــا ... يشــفي الغلائــل فــي الحيــاة وفــي غــدِ

مـولاي هـذي نبـذةٌ مـن فضـلكم ... تـروي ثنـائكم بـأرفع مُسـندِ
قَـدْ انطـق الأفـواه فيهـا فضـلكم ... فغـدت تفـوه بِكُـلِّ قـول أحمـد
مـالي يـدٌ ادلـي بِهـا لجنـابكم ... إلَّا التفضـل مـنكم يـا سـيدي
وبفضـلكم كـانَ العُبَيـدُ مـؤملاً ... مـنكم رضـىً يبقـى وأخـذاً باليـدِ
فاسـمح بوصـلٍ مـنكم وبعطفـةٍ ... أبـداً وكـن فـي كُـلِّ خطـبٍ مُنجـدِ
وعليك خير رضى وخيرُ تحيةٍ ... ما استوهب الفقراءُ جودَ الأجـودِ

انتهت وهي مشتملة على مائة وأربعة وثمانين بيتاً كالتي قبلها.

وممَّا قلت فيهِ أيضاً ﷺ وأرضاه هذِهِ القصيدة الرملية الدالية المحذوفة العروضُ والضَّرب المقيَّدة القافية المبدوءَةُ بِما يوذن بعُلُوِّ الممدوح وظهوره وفيضان سرّه وتمام نوره المتضمنة لشيء من آثار عرفانه ورسوخهِ وقُوَّة ايقانه وما فاض من عظيم بحرِهِ من الإمدادات إلى غيره ونحو ذلِكَ ممَّا هو بَعضُ ما هُنالِكَ افاض الله علَيْنا من امداده وجعلنا من أهل وداده وهي هذِهِ

بدر أهل الله في الجو صَعد ... وعلى الأفاقَ نوراً قد وقَد
واستضاء الكل من أنوارِهِ ... واستمدوا السِّرّ منهُ والمدد
هذِهِ آياتهُ قَدْ ظهرت ... أرغمت انفاً حسودٍ قَد جحد
اهتدى السالك مِنها سُبلاً ... واحتدى الواجد منها ما وجد
عدة من رحماتٍ سَبقت ... انجز الرَّحمن مِنها ما وعد
و هبات من كريمٍ واهبٍ ... فضلهُ في الخلق ما قطُّ فقد
لا تقل هذا زمان مُظلمٌ ... نور أهل الحق فيه قَد خَمد
وعفت اثارهُ واندرست ... نضب الما وبقى فينا الثمد
و أبو العبَّاس بادٍ بيننا ... ابن عبدالله منهاج الرشد

حجة الله التي قَد ظهرت آية في كُلِّ هدى تعتمد
جمع اللّهِ بهِ شمل الهدى بعد ما كانَ زماناً في بدد
وبِهِ أوضح منهُ منهجاً وبِهِ اصلح ما كانَ فسد
قَدْ بدا ما بينَ قادات الورى مفرداً لم يرق علياهُ أحد
هو قسطاسُ ومسبار لهُم وبِهِ أحوال كُل تنتقد
روحه التحقيق والشرع لهُ حبس ما بين هذين اقتصد
ماله وسم سوى وسم التقى لا ولا نهج سوى نهج السّدد
عُمريّ الحق صديق الهدى أينَ كانت سنّة الهادي قَصد
صادق قولاً وفعلاً وعلى شيمة الصدق فؤاداً قَد عقد
بحره الطامي بسر زاخرٌ لم يزل يُروى بسر من ورَد
هو مجذوبٌ وفانٍ أبداً في جمال الواحد الفرد الصمد
مظهر العرفان السر الذي هيّم المجذوب قبلا إذ وجد
شاهدُ لله راعٍ حكمه ولَهُ في كُلِّ حال قَد صمد
لا تراهُ لسواهُ راكناً في مهم مدلهيّم ان ورَدَ
لا يرجي عطفة من حادثٍ فسواء من أتَى أو من شرد
طود ايقان وباللهِ رسى ومن اللّهِ إلى اللّهِ استند
نافذاً لوصلة باللهِ فلا وقف إلّا معهُ طول الأبد
في بساط الأنس باللهِ غدا ناعماً من بعد ما كانَ اتحد
حيز ملكاً فاغتنى مفتخراً ولَهُ اذعن صبٌ وسجد
لم تزل انواره سارية في قلوبٍ دائماً منهُ تُمد
مُلئت واللهِ منهُ حِكَماً واستنار الكل مِنْها واتقد
وبها حفّت رعايات لهُ وتقوّي الحزم مِنها واعتضد
طبّه يشفي عليل القلب من غفلات بعدَ ما طال الأمد

منبئٌ عمَّا اختفى من علل وبصير بعلاج يستعد
ومزيجُ كُل داء معضلٍ كانَ منهُ القلب في جهد وكد
ومبين لمعانٍ غمضت لم تكن تخطر يوماً في خلد
صارفٌ عَن كُل حظ هارب سابقٌ باللهِ للّهِ الأحد
أفِّ من لم يلقى يوماً مثلهُ فكانَ للّهِ ما قطُّ عبد
ربَّما ماتَ مصراً وهو لم يدر ما كانَ عليه قَد جمد
نظرةٌ منهُ إذا وافت كفت فوز من راعى مناهُ و رصد
فالذي سار بهِ سار ولم يخشى في قصدٍ سرواهُ ان يُصد
والذي طار بهِ طارَ ولم يرد إلَّا على اللهِ وفد
قَدْ سرى بالقوم يحدوا حاملاً لهُم من دون كدٍ وكبد
هوَ من هوَ إمام كاملٌ أي ذخر وعِمادٌ وسند
هو بحرٌ لا يجارى هدداً هو في العرفان والسر انفرد
هو كيمياء عزيز ليلُها وجد الراجي به ما قَد فقد
كنزت اسراهُ أهل النهى حبّذا كنز عليهِ المرءِ سد
كَم اشارت لهُ قَد برزت ومعان لامعات لاتعد
قُلْ من رام ارتقا عليائهِ رمت امساك السّماوات بيد
ولعمر حادَ عَنها حاسداً حسبك الحرمان منها والصدد
ما على اضواءِ شمسٍ سطعت من جهول ستراً ما عنهُ يود
قَد علت انواره حتَّى انجلت لمقر وجحود قَد عندَ
خصهُ الله بنورٍ وهدى وفق ما كان لهُ في الغيب أعد
وعليه منهُ ما لا ينتهي من رضاءٍ وسلام لا يُحد
ما حدا بالقلب حادٍ للحمى وسرى للّهِ سارٍ واجتهد
وشدا الشاذلي بشوق وفائهِ بدر أهل الله في الجو صعـــد

انتهت وهي مشتملة خمسةٍ وخمسين بيتاً.

وممَّا قلت فيهِ أيضاً ﷺ هذهِ القصيدةُ العينيةُ الكائنةُ من بحرِ الخفيفِ التامَّةِ العروضِ والضَّرب المردوفةِ بالألفِ أنشأتُها بسببِ تعرُّضِ بعضِ أهلِ العصرِ لعظيمِ جنابهِ وتعريضِهم بهِ مع مشاهدتِهم لجلالِ نصابهِ ضمنتُها وصفَ ظاهرِه وبعضَ سِيّرِه ومآثرِهِ اقتصاراً على ما تقوم بهِ على كُلِّ أحدٍ حُجةً ويتضِّح بهِ لكلِّ لبيبٍ وبليدٍ المحجَّةَ, وختمتُها على طريقةِ التَّضمينِ بالبيتِ المشهورِ للبُحتري إعلاماً لِعُلاهُ وإبانةً بهِ لموجبِ ما بهِ افتُرِيَ, فجاءتْ والحمدُ للهِ بالغرضِ وافيةً وفي المقصودِ كافيةً وهي هذهِ

أنَ مــــن تتعرضَـــــون إليـــــهِ	خيـرُ مـن يقتـدى بـهِ فـي اتبـاعِ
ناصـــر السُّـــنَّة الشـــريفة دأبـــاً	والى سبل الهداية داع
وعلى الله جامع واليه	ســــائقٌ أبــــداً بِكُـــلِّ دواعِ
ومُفيـــد الـــورى السـلوك بحـــالٍ	نـــاهض بِهِـــمْ لأفـــق ارتفـــاعِ
ومفـــــيض معـــــارف وعلـــــوم	لـــيسَ ادراكهـــا بمكســـب بـــاعِ
قَـــد بلونـــا مشـــايخ الوقـــت كُـــلا	بســـــؤال ورؤيـــــةٍ وســـــماعِ
مـــا رأينـــا ولا ســـمعنا إمامـــاً	كـــانَ للهِ مثلـــهُ فـــي انقطـــاعِ
فضـلهُ ظـاهرٌ علـى كُـل مـن فـي	فـــاس مـــن عـــالم بغيـــر انتفـــاعِ
رافعـــاً همـــة عـــن الخلـــق طـــرّاً	ومــــع الســــابقين للهِ ســــاعِ
قاطعـــاً للحظـــوظ مـــن كُـــل وجـــدٍ	حاســـماً للهـــوى وللحـــق واعِ
ســـالكاً ســـنة النَّبـــي دومـــاً	فـــي لبـــاس ومأكـــل ومتـــاعِ
داره عرفـــــت بكـــــل صـــــلاح	ضـــربت مـــثلاً بنقـــل مشـــاعِ
اي دار وأي ربــــــعٍ رأينــــــاً	مثلهـــا اليـــوم فـــي جميـــع البقـــاعِ
ســيما اليــوم فــي زمــان مُضــل	ذي هـــوى مُقتفـــى وشـــح مُطـــاعِ

خـل عنـك سـبيل قيـلٍ وقـالٍ	وتشـــرف لخبـــره بـــاطلاعِ
أنَّـــهُ لاتـــزال طائفـــة مـــن	أمـــة المُصـــطفى بحـــق مُـــراعِ
والمــراد بِهـــم أولـــوا العلـــم حقـــاً	وهُـــمْ العـــارفون أهـــل اتّبـــاعِ
لا مجـــرد الاشـــتغال بفهـــم	لظهـــار وعـــده وارتجـــاعِ
واعتبـر قومـه عـن الكـل حـادوا	فمنعـوا ديـنهم بصـون اجتمـاعِ
كلهُـــم متســـبب فـــي خمـــول	حـــافظ للحـــدود للشـــرع راعِ
مـــالهم مـــدع ولا متبـــاهٍ	يُكســـى وتصـــدر واضـــطباعِ
مـــع مـــا قَـــد حبـــاه ربـــهُ ممَّـــا	لا يبـــين مســـطراً بـــيمنٍ يـــراعِ
قُـل لمـن رام سـتر بَعـضُ بهـاهُ	اتعـــب الـــنَّفس ظـــافراً بامتنـــاعِ
لـــيسَ تخفـــى محاســـن وجمـــال	للمليحـــة عنـــدَ كشـــف القنـــاعِ
أتريـــدون تطفـــؤن بقـــول	نـــور شـــمسٍ وَد عـــلا بشـــعاعِ
قَـــد تحقَّـــق فـــي الوجـــود هـــداهُ	عِنـــد كُـــل الـــورى بغيـــر نـــزاعِ
وبمـــرءاً أو مســـمع للبرايـــا	لـــم يـــزل مترقيـــاً لارتفـــاعِ
شجو حسادهِ وغيظ عدَاه	أن يرى مبصر ويسمع واعِ

انتهتْ, وهي مشتملةٌ على ستّ وعشرين بيتاً خلا بيتِ البُحتري.

وممَّا قلتُ فيهِ ﷺ هذهِ القصيدةُ التَّائيةُ من بحرِ المديدِ المجزوءِ على ما هو المستعملُ فيهِ, افتتحتُها بغزلٍ أشرتُ للاشتياقِ للمنزلِ وأهلهِ والاستشرافِ للقاءِ الحبيبِ ووصلهِ وزعمِ المحبَّةِ وادِّعائها وعلاقةِ النَّفسِ بأحبَّائها على سبيلِ تجريدِ النَّفسِ للخطابِ وتعاقبِ السُّؤال عليها والجوابِ جرياً في كلّ ذلك على عُرفِ الشُّعراءِ المعروفِ واستعمالِهم المألوفِ ثمَّ أضربتُ عن ذلك المديحِ وأتيتُ فيهِ

بمعنى بديعٍ مليحٍ, وهو الأمرُ الذي عليهِ مدارُ الأولياءِ وبِهِ كانوا مُحبِّينَ أصفياءَ رزقنا اللهُ بركتَهم وأنالنا محبَّتَهم وهي هذِهِ

ساقك الاطلال من رسم معهد | أنت فيهِ ذا هيام تردَّدْ
قد أثار الربع منك اشتياقاً | واهاج الشوق وجداً وجددْ
وتلظى القلب منك احتراقاً | واغتدت فيهِ جمار توقدْ
وعيون منك اجرت دموعاً | هاملات مثل سيلٍ مجردْ
واصطبار القلب أبدى فراراً | وتولَّى شارداً كُلّ مشردْ
أسرى من ساكني الربع عرف | عاطر من عنبر أو مُنددْ
أم سرى بينهم خيال وطيفٌ | أم تبدى فيهِ من أنت تعهدْ
أم دنى ما ترتجي من تراهُ | وتلاقِ بعد ما كان أبعدْ
أم اتاك الآتي عنهُم بشيراً | برضاءٍ من لديهم تجددْ
ام اتاك الوعد مِنهم صريحاً | بوصال دائم منهُ تسعدْ
بل سباك الحب فالربع هام | والحشى منهُ لهيب تصعدْ
واعترى العقل ذهول وخبلٌ | ونظام الأمر منهُ تبددْ
وجفى الأجفان ليلاً كِراهاً | فهو عَنها مبعد الود مطرد
واعترى الجسم اعتلال وسقمٌ | ونحول بالهوى صارَ يشهدْ
وتبدى ما خفاهُ ضميرٌ | من ضرام في الحشى قَد تخلدْ
إن ذا القلب نَعم خل فيهِ | من هوى المحبوب ما ليسَ يجحدْ
وحوى من لوعة وغرامٌ | ما اغتدى منهُ رهيناً مقيدْ
طوع من يهواه منقاد حُكم | قودَ مملوك أسير مُعبدْ
فهو مسلوب الحجا ذو افتتان | ذو هيام وولوهٌ مؤيدْ
مغرم مضنى حشاهُ مُعنّى | مستهام ذو غرام مجددْ

مـــا ســباهُ مائســات الغــواني   فــي قصــور ذات صــرح ممــردْ
لا ولا اشـــراقُ وجـــهٍ وســـيمٍ   عنـــدما يبـــدوا بخـــدّ مـــوردْ
لا ولا جيـــــد تحلـــــى بـــــدر   ولســــأل راهيــــات وعســــجدْ
لا ولا هيفـــاء ابـــدت صـــباحاً   تحتهــا ليــل مــن الســحر اســودْ
لا ولا حـــوراء طـــرفٍ ولاكِـــن   فــي ابــن عبــد اللهِ حســنٌ تفــردْ
وجمـــــالٌ يوســـــفي بـــــديعٌ   مطلـــقٌ مـــا باشـــتباهٍ تقيـــدْ
حســن ســر بــاهر احمــدي   ماســواه لــيسَ للصــب يحمــدْ
معنـــــوي ازلــــي قـــــديم   مالــه مــن صــورة حيــثُ يرصــدْ
منـــهُ أهـــل الوجـــد جميعـــاً   وبِـــهِ كُـــلّ ترامـــى وعربـــدْ
وبِـــهِ الألبـــاب تاهـــت ولاهـــت   واعتراهـــا مـــا دهاهـــا وبـــددْ
وبِـــــهِ الأرواح للهِ راحـــــت   ورتقــت فــي خيــر مرقــى ومصــعدْ
وتـــراءت فـــي نعـــيم مقـــيم   واغتـــدت فـــي حضـــرة الله تســـعدْ
واجتنـــت اثمـــار قـــربٍ ووصـــلٍ   ووداذٍ مــــــن ودود مســــــرمدْ
ذاك ســـرٌ اي ســـرٍ عظـــيمٌ   لفريـــد القلـــب قَـــدْ صـــارَ يفـــردْ
قَــدْ أتَــى مــن حضــرة الله حقــاً   وســرى مــن ســيّدِ الخلــق أحمــد
فيـــهِ قَـــدْ لاح افتتاحـــاً ومنـــهُ   اســـتمد الخلـــق ذاك المـــدد
منـــهُ انـــوار الـــورى قَـــدْ تجلـــت   وبِـــهِ مصـــباح كُـــلّ توقـــد
وتـــولَّى الله قومـــاً وأولـــى   جمعَهُـــم منـــهُ عـــلاءٌ وســـؤددْ
وحبـــاهم كُـــلّ فضـــلٍ عظـــيم   وهـــداهم كُـــلّ هـــدي وارشـــدْ
فيـــهِ كـــانَ المُصـــطفى للبرايـــا   واســطاً لــولاه مــا كــان يعهــد
مُدمنـــهُ كـــابرٍ مـــن كبيـــرٍ   وحـــواه امجـــدٌ بعـــدَ امجـــدْ
حبـــذا ســـرٌ ســـرى أحمـــدي   وســـرى حتَّـــى اتانـــا لأحمـــدْ
يـــا ابـــا العبَّـــاس بشـــرى وفـــوزاً   قَـــدْ حـــويتم ذلـــكَ السِّـــرّ الأوحـــدْ

قَــدْ حــويتم كُــلّ ســعدٍ ومجــدٍ وســـموتم كُــل أســمى وأصــعدْ
ورقيـــتمُ فـــي مراقـــي كمـــالٍ مــن مقــام العلــم بــاللهِ الأســعدْ
وســـعدتم بـــاقتراب ووصـــلٍ وطـــويتم عنـــدَ ذا كُــلّ مقصــدْ
واغتــــديتم للبرايــــا هــــداة ودعـــاة مـــنكم الكــل يرشــد
قَــد ورثــتم ذاك عَــن خيــر هــادٍ فهـــدى الله بكـــم آي وســـددْ
أنــتَ ذخــر يقتنــى أنــتَ كنــز والـــيكم قاصـــد الـــدِّين يصـــمدْ
دمــت للتوصــيل اســنى دليــلٍ وبقيـــت الـــدهر فـــي الله تُقصــدْ
ومن المولـى عليكـم سـلامٌ ورضاءٍ مُستدام مجـددْ

انتهت, وهي مشتملةٌ على أحدٍ وخمسين بيتاً.

وممَّا قلتُ فيهِ أيضاً ﷺ هذِهِ القصيدةُ التائيةُ الوافريةُ المقطوفةُ العَروضُ والضَّربُ, المفتتحةُ بنمطٍ غريبٍ من فنونِ النَّسيبِ المذكِّرُ لأمثالي ومَنْ حالهُ كحالي, المتخلَّصُ منهُ للمقصودِ على ألطفِ وجهٍ مرصودٍ لثناءٍ جامعٍ بين البلاغةِ والفصاحةِ والظَّرافةِ والملاحةِ رزقنا اللهُ بركةَ المثني عليهِ وجعلنا ممَّنْ أُسندَ حقيقةً إليهِ وهي هذِهِ

الـــى مَـــن اراك مشـــغوفاً مُعنّـــى تميـــــل مولهـــــاً الغانيـــــاتِ
تجـــدُ مـــن الهـــوى ذيـــلاً مُطـــالا وتقصـــر عَـــن مـــراقٍ ســـامياتِ
وقَـــد جـــرّدت مـــن لهـــو ثيابـــاً وللجـــــد اكتســـــيت باليـــــات
تتـــوق إلـــى اميمـــةٍ أو لســـعدى تحـــن إلـــى معاهـــد دارســـات
ولا تـــألوا علـــيهن انصـــباباً لترمـــق حســـن تِلـــكَ الغانجـــات
وتعكـــف فـــي محـــارب كـــل زهـــوٍ عكـــوف الخاشـــعات القانتـــاتِ
وتغفـــل عَـــن رشـــادك لا تبـــالي بِمـــا يجريـــك مـــن ســـبل النجـــاتِ

أمــا هــذا ابــن عبــد اللهِ يشــدوا | بـــانوار تجلـــت مشـــرقاتِ
أمــام فــانٍ فــي الأســرار فــرداً | وحيــد قــد رقــى فــي المعلومــاتِ
ولـــي وابـــن مخصـــوصٍ ولـــيٍ | حيــى أرض الهــوى بعــد المــواتِ
والـــبس ســـنة الهـــادي جمـــالا | غـــدا للســـالكين بـــهِ مُـــواتِ
زهـــى روض الزَّمـــان بـــه بهـــاءً | وســـحّ بســـوحهِ مـــاءُ الحيـــاتِ
فاصـــبح بعـــد مـــا أعفـــاهُ زيـــنٌ | أنـــيس الزهـــر مخضّـــر النّبـــاتِ
ووجــه الــدِّين اسفر عــن صــباحٍ | جــلا حجــب الظــلام المســدلاتِ
إذا مـــا شِـــئت ان تلقـــاه يومـــاً | وتلحـــظ مـــا عـــلاهُ مـــن الصـــفاتِ
تــرى مــا شــئت مــن سمتٍ بهــيٍ | وأوصـــاف الجمـــال المـــذهلاتِ
جمـــال يوســـفي فيـــهِ يبـــدوا | بــهِ قــد خــصَّ مــن بــين الســراتِ
تطلــع فــي ســما العرفــان بــدراً | ســما بعلائـــهِ كُـــل الســـماتِ
فمـــا فـــي عصـــرنا هـــذا شـــبيه | لـــهُ فـــي العـــارفين ولا الهـــداتِ
عليـــهِ تحيـــة مـــا هـــب نشـــر | يمـــر علـــى غصـــون مائســـاتِ
ويتلوهـــا نســـيمُ رضـــىً عبيـــق | لـــهُ نفحـــات عـــرف عـــاطراتِ

انتهتْ, وهي مشتملةٌ على أحدٍ وعشرين بيتاً, وممَّا قلت فيه ﵁ هذهِ القصيدة الكامليةُ التامَّةُ العروضُ والضَّربُ الجيميةُ التي وصلَ رويَّها هاءٌ, خروجُ نفادِها الياءُ, ابتدأتُها بالإشارةِ إليهِ لتميُّزِهِ أكملَ تمييزٍ, والتنويهُ بعددِ ما منّ اللّهُ بهِ عليهِ من الفتحِ العزيزِ وضمَّنتُها بعضَ ما لهُ من فيضانِ المددِ والأنوارِ والمعارفِ والأسرارِ, رزقنا اللّهُ بركةَ الممدوحِ وأدامَ لنا الإيواءَ إليهِ والجنوحَ وهي هذِهِ

هذا ابن عبدالله في افق العلا شمس المعارف قد علت في برجه

شد الإزار وقام في سوق الهدى وأتى بعزم نافذ لم يرجه

قطع المهامة كلها في لمحة وأتى على عرفات مكمل حجه

قد خاض في بحر الحقائق سابحاً حتى توسط منه غمرة لجه

وأفاض مما فاض من عرفانه بحراً رمى في العالمين بموجه

وأقام سنة خير من وطئ الثرى وغدى يدل على الطريق ونهجه

وسقى القلوب بوابل من فيضه فرقت الى درج الوصال وأوجه

وسبا جميع العاشقين بسره فتهمموا مستهينين بفلجه

شربوا به صرف المدامة فاغترى كل يجود من الغرام بمهجه

فاخلع عذارك هائماً متولهاً ودع العذول مخيباً في لجه

هذا الذي سلب العقول جماله إن صاد قلباً في الهوى لم ينجه

ولقد كساه الله ثوب جلالةٍ وأنار في الآفاق كوكب وهجه

لو صادمت طوداً مهابة قدره لغدا به متزلزلاً من رجّه

لا يطرق الشيطان ساحة سربه لا بل يفر مباعداً لمحجّه

ما إن رآه ملاقياً لطريقه إلّا أتى فجّاً مخالف فجّه

بالله صار مؤيداً في سيره في دفعه للمعلوات وزجه

بشرى لمن أمسى خديم جنابه بشّره بالفتح المبين ورجه

انتهتْ وهي مشتملةٌ على سبعةَ عشرَ بيتاً وهي أوَّلُ قصيدةٍ قيلتْ فيهِ رضي الله عنه أنشأتُها سنةَ أربعٍ أو خمسٍ وثمانين وألفٍ وقد ألهمتُ فيها أيضاً بذكرِ مهابتِهِ رضي الله عنه وإنه ما لقيَهُ الشَّيطانُ إلاّ نفرَ كما كان ذلك شأنُ سيّدِنا عمرَ رضي الله عنه, أما المهابةُ فتلك صفتهُ القائمةُ وحالتُه اللّازمة يعلمُها كلُّ من رآه وشاهدَ طلعتَهُ المباركةَ وسناهُ, وأمَّا نفورُ الشَّيطانِ منه فقد وقعَ له رضي الله عنه غيرَ ما مرّةٍ وشاهد الأصحابُ في ذلك أمرَهُ, وقد ألمَّ به غيرهُ ممَّن مدحَهُ وأبانَ عنهُ وأوضحَهُ.

وممَّا قلتُ فيه رضي الله عنه هذه القصيدةُ الكامليةُ التامّة العروضُ والضَّربُ أيضاً الرَّائية الرّوي المردفةُ بالألف الهاوي الموصولِ رويّها بالهاءِ المخروج من نفادِها بالواوِ أنشأتُها بسببِ أنَّ ابنَ عمّنا أبا العبَّاس أحمدَ بنَ عبد القادرِ القادري حفظَهُ اللهُ كان قد قالَ بيتينِ حسنينِ فيما يبدوا على ظاهرِ شريفِ وجههِ من أثرِ ما أودِعهُ باطنُه من حقيقةِ العِرفانِ وكُنههِ, فأشرتُ أنا إلى ما أشارَ إليه وزِدتُ عليه مكمّلاً لما قصدَ إليه تابعاً لذلك المعنى, وبانياً على ذلك المبنى رضي الله بذلك عنهُ وعنَّا وحطَّ عنَّا جميعاً ما أثقلَ وعنا وهي هذه.

انظر لمطلع حسنه وجمالـه	قد أشرفت بجبينه أنـوارهُ
سر المعارف قد حواه ضميـــره	فبدت بغرة وجهه آثارهُ
هو بحرها الطامي ألم ترى أنـــه	تهمن بفيضٍ دائماً أسرارهُ
روض الحقائق قد زها من نـوره	وحيت حدائق زهره أمطارهُ
طلعت شموس جماله في أُفقهـا	وعلا منار العارفين منـارهُ
وبدا لهم كالبدر يعلوه البهـا	في حضرة التقريب عز قـرارهُ
وبكل نشر قد تضّوع ســـره	نمت لعشاقٍ به أسحـــارهُ
ما في المعارف منزل متقـرب	إلا علت في جره أقمـارهُ

ونجومه لمعت به وشموسـه	فلك الجميع عليه صار مدارهُ
فرد المحاسن لا يحاكي سره	محت على قدر به اعصارهُ
قد خاض في التحقيق لجة أبحرٍ	وقفت بساحل موجها انظارهُ
هو بين أهل السبق باز صائل	إذ ترتقي لسمائه طيارهُ
ولدى المواهب بحره مترفق	تجري بأمداد الورى أنهارهُ
ولدى الهزاهز ملجأ متمتّع	سيف لكل فروع بتّارهُ
كم ظامي روى بعذب زلاله	ومجاور حميت به انصارهُ
بالله رُفِع في الوجود ومن يكن	بالله يعلوا فوق ذا مقدارهُ

انتهتْ وهي مشتملةٌ على ستةَ عشرَ بيتاً

وممَّا قلتُ فيه ﵁ هذه القصيدةُ الكائنةُ من بحرِ المديدِ المجزوءِ, وعلى ما هو المستعملُ فيه ذاتُ العروضِ والضربِ الأوَّلين منهُ افتتحتُها بنسيبٍ مشتملٍ على ذكرِ المحبةِ والحبيبِ اتّباعاً لسنَّةِ الشُّعراء والعرفِ الذي بينهم جزاءً من التعرُّضِ لذلك ولو لم يتَّصفوا بما هنالك وإلّا فالمحبَّةُ في مثل هذا المقام من المراتبِ العظامِ ليست لأمثالِنا ولا لِمن حالهُ كحالِنا رزقنا اللهُ منها أوفرَ نصيبٍوضاعفَها لنا في هذا السَّيد الحبيبِ وهي هذه.

يا لقوم حسن حبي سباني	وعراني منه ما قد عراني
صاد قلبي مذ قديم هواه	ودعاني منه داعي افتتان
هذه روحي وقلبي وعقلـي	عنده في قبضة وارتهاني
كلها مأسور ملك لديه	في وثاق دائم وامتحان
في يديه مالها من فكاك	لا ولا من مفتدي أو تهان
ويح مأسور الهوى في هـواه	يا لقلب منه ماذا يعان
يا لنار فيه شبت لظاها	بين أظلاع توارت حواني

سهم هذا الحب أضنى فوادي   وبه المحبوب قصداً رماني
وأراني منه أبهى جمــال   وبهاءٍ فاق كل الحسان
ما رآه ناظر القلــب إلا   مد منه الحسن كل المباني
قد هوى قلبي بهاه ولكن   بعدما أن كان قبلاً هوانــي
منه بدء العطف كان امتناناً   حبذا من عطفةٍ وامتنان
فانعمن مابين فضلٍ ووصل   اسرحن في روض أبهى جَنان
لا تخف حال ابتعاد وهجر   من حبيب القلب كان التدانــي
فاغتنم عهداً قديماً ووِدّا   ومفازاً فيه كل الأماني
واشكراً مولى حباك اقترابـــاً   لابن عبدالله كهف الأمانــي
مطلع الأنوار بدر تلالا   عين هذا الوقت شمس الزمـان
عارف بالله بسر زكي   معرض والله عن كل فــان
موقن بالله طود علــيّ   راسخ الإيقان في كل شــأن
زاخر الأسرار بحر عظيم   جامع والله كل المعاني
كامل الحالين حساً ومعنــى   سره مع سيره ذو اقتـران
شمس أهل الله نور مبين   حامل رايات أهل العيان
ملجأ الإسلام غوث غيــاث   ذخرهم في كل خطب يرانــي
من لهم أن ما عراهم فهـم   مد لهم من لهم بالتهاني
من لهم يوماً سواه إذا ما   حار في حمل العنا كل عانـي
أيُ سر في حشاه مقيمٌ   أي قلب منعم منه هانـي
أي بحرٍ فاض منه معيناً   أي علمٍ منه سَامٍ وساني
أي علياء تناهت علـواً   أي أوصاف حداها حِســـانِ
ما يطيل القول فيه ومـاذا   يجتبيه من ثناء لسانــي
مجد أهل الله مجدٌ تسامــي   ليس يدنوا من علاه مدانـــي

فاقتبس نوراً سما أحمـــدياً — واقترب حول حمـــاه ودان

وانشدن فيه ولوعاً وشوقــاً — يا لقومي حسن حبي سبانــي

انتهتْ وهي مشتملةٌ على اثنينِ وثلاثين بيتاً.

وممَّا قلتُ فيهِ ﷺ هذه القصيدةُ الكائنةُ من بحرِ البسيطِ ذات العروضِ الأولى المخبونَةُ وضربُها الثَّاني المقطوعُ, الحائيَّةُ الرَّوي المردفةُ بالياءِ والواوِ واختها, كان اقترَحها عليَّ أخونا في اللهِ السَّيدُ الأوفى والمحبُّ الأصفى ذو الحالِ القوي والوردِ الرَّوي والسِّيرةُ السَّريةُ والشِّيمةُ المرضيةُ أبو عبدِ اللهِ سيّدي مُحمَّد بنَ الحاجّ مُحمَّد الدِّريج عُرف به التَّطواني الآباءُ والمولدُ الأنصاري المحتدُ نزيلُ فاسٍ بجوارِ سِّيدِنا أبي العبَّاس زادَهُ اللهُ نوراً وفرحاً وسروراً فجئتُ بِها مناسِبةً لحالهِ ونائبةً عن لسانِ مقالهِ, وأخفيتُ فيها اسمِ المشارِ إليهِ هنالك لتكونَ على ألطفِ المسالكِ, فرمزتُ إلى حروفِ اسمهِ الشَّهيرةِ بأوائلِ الأبياتِ الثَّمانيةِ الأخيرةِ, فجاءتْ على نمطٍ حسنٍ وأحسنِ سننٍ وهي هذه.

أدر محاسن من تهواه تصريحــاً — وَروّح القلب في ذكراه ترويحـــا

واسرح بروضة حسن منه مونقــة — وأمتـع السـمع والأحـداق والروحـا

إن المليح متى تلمح محاسنـه — يــزدد جمـــالاً وتحســيناً وتلميحـا

تملــك الــروح لا تنفعــك ترقبــه — وأســر القلــب لا يوليــه تســريحا

قـد هيج الوجد منـه الحالتـان معـاً — وجرح القلب في الأمرين تجريحـــا

فإن نشأ عن عيان الطّرف عذّبَـه — وإن دنـــا زاده شـــوقاً وتبريحـــا

روحـي بـه عَلِقَت نفسـي بـه قَلِقَـتْ — والقلب حيث نوى قد صار مطروحا

لـيس لـه فـي سواه الـدّهر مـن إرَبٍ — ولا يــروم بــديل الــود ممنوحـــا

فيــه المــراد وكـل السّـؤل مجتمـع — وفيــه منــاه المنــا حُســناً وتقبيحــا

دعه يصل أو بين ما شاء يفعله | روحي الفداء له أن يقبل الروحا
زين الصّدود مليح الوصل عطفتُه | أشهى من الطيب المشروب تنقيحا
حلو الشمائل حلو النطق طلعته | أبهى من القمر الأنور توضيحا
حلو اللّمى عاطر الأنفاس نفحته | أذكى من العنبر الفواح تنفيحا
روح الحياة حياة الروح عاشقه | مُهيمٌ أبداً ليلاً وتصبيحا
دعني أهيمُ به والوجد يُسعدني | والشوق يَكسيبُني منه التباريحا
واستريح بتذكار محاسِنِه | فإن لي فيه ترويحاً وتفريحا
هذاالهوى هدّ مِن جسمي القوي | ويؤي بباطن منه لا ينفك ملفوحا
وأضرم الجمر في الأحشاء فاحترقت | فناره أبداً تزداد تلفيحا
أبى الهوى أن يريح القلب من | ألمٍ وأن يَتِحْه تنفيساً وترويحا
إن قلت قد هدأت نيرانه لفحت | أو قلت نفّس أضحى القلب مجروحا
سبا وآسر فالمملوك قبضتُه | أنى يُرى منه للأبواب تفتيحا
يظل في قبضة منه حليق ضنى | ولحظه ليس يعدوا القلب تلميحا
دائم ذكر و فكر في محاسنه | يحبيه ريحٌ سرى يا حبذا ريحا
يغدوا به الحث ذكراً ويروح به | داما له صار بحر الفكر مسبوحا
صار محبته مثوى أقام بها | فصار ممتحناً منه ومشروحا
حلت به الحالتان فرح وضنى | فأعجب الذي فرح لا زال مقروحا
مازال مضنىً به حتى استحال به | دماً ولحماً فأخبره تشريحا
دامت اقامته به ودام له | مثوى ولا زال من ذا الضر تسريحا

انتهتْ وهي مشتملةٌ على ثمانيةٍ عشرين بيتاً.

وممَّا قلتُ فيه ﷺ هذه القصيدة الرائيَّةُ المقيَّدةُ القوافي من بحرِ المنسرحِ الوافي المطويَّة العروضُ والضَّربُ الحسنةُ الشَّكلُ والضَّربُ اتَّفق لي إنشاؤها بعد

مغيبهِ عن الأقوام في بعضِ أجنَّته عدّة أيامٍ ولذلك ابتدأتُها بما يؤذِن بذلك, ويشيرُ إلى ما حصل من البشرى برؤيته هنالك, وأتبعته بنسيبٍ مناسبٍ لما حواهُ ومنبئ عمَّا لاحَ على ظاهرهِ من سناهُ وأتيتُ فيها بمديحٍ على ذلك السنَنِ ذاهباً فيه على نمطٍ حسنٍ مشيراَ إلى ما هو وصْفهُ الأبدعُ وقدرُ حالِ المعرفةِ الأرفعُ ﷺ وأرضاهُ وأدامَ علينا منّتهُ ونُعماهُ وهي هذه.

يا قلب بشرى هذا الحبيب ظهر　　من بعد ما قد طال المغيب حضر

لاح علينا نور محاسنه　　ففاق حسنا شمساً وكل قمر

أقبل بدراً كل الجمال حوى　　ومال غصناً ميلاً سبا وسحر

وبان منه زهر الجبين على　　وَجَناتْ ورد حسن لهن يُقَر

وجنات ورد عار لها زهرٌ　　من أجل أعلى الجبين وقر

يا حسن وجه باه ومبتهج　　اقتسماه ورد به وزهر

والثغر منه فاق منظمه　　عقد جمان حوى نفيس دُرر

منطقه يحلوا عند مستمع　　مجلي عموم النفس كل كدر

كأنما هو كامن العقار غدا　　يديره الساقي بين خير نفر

رؤيته تشفي غلة لصد　　في نظرة منه نيل كل وطر

فاشرب عقاراً قد لذ مشربه　　عند سماعٍ منه وعند نظر

يا قلب بشرى يهنيك منظره　　بشرى هنيئاً هذا الحبيب ظهر

من موصل به وقى كرها　　لك ما قد كان قط هجر

أحيا قلوباً طالت بنا مددٌ　　اذهب عنها الغما وكل غير

اكسبها ليناً بعد قسوتها　　فهي كأرضٍ إذا اعتراها مطر

انعشها للحب الشريف بما　　أودع فيها من فيضه ونشر

هز به أرواحاً إلى حضرة　　قدسيّة فاز من هنالك حضر

بشرى سعدنا كلاً بأ حمدنا	طالع سعد منه علا وزهر
وهذه أعلام العناية من	فوق رؤوس القوم الهداة نشر
لقد بدا من سر الجمال على	طلعته الغراما العقول بهر
ولاح من سطوة الجلال على	ظاهره ما الأقوام منه قهر
وبان من أنوار له وبدا	ما قد رآه ذوو عمىً وبصر
وسار في الناس هُدىً سيرته	مسير شمس في أُفقها وقمر
لقد كساه الله ثياب بهى	ومن علاه أكمل كل سر
أثر ما في الأحشاء منه نوى	فياله من سر نوى واثر
أنواره لا تنفك مشرفةً	تتلى علينا آيٌ لها وسور
كم من غزير العرفان حاز كم	نفيس در من العلوم نشر
اختاره الهادي في طريق هدى	ثم سقاه حتى ارتوى وعمر
فهو لمن قد رام الهدى علم	والبحر منه للواردين زخر
فبحره ملأن إليه جرى	من فيض أمداد المصطفى وهمر
لو أن بعضاً منه سرى وجرى	من فيضه روى منه كل بشر
فسره من سر الإله بدا	ونوره من نور النبي ظهر
ومنه عرفانه استتم سنىً	فروضه قد زهى بكل زهر
فصف بما شئت العارفين وقل	فيهم فكم أفضال هناك وقر
وإن أهل الله الجميع علوا	وهم وجوه والعارفين غرر
لكل ذي حال سورةٌ حصلت	وقد حوى ذو العرفان كل سور
فلا يزالون يرتقون عُلا	لمنتهى لا ينبئ عنه خبر
كما كمالات الله لا تنتهي	عرفانهم ما له الحساب حصر
تبارك الله ثم بارك كم	له من العرفان الذي به قر
فإنه العارف الوحيد الذي	في عصرنا كل العارفين بهر

لا زال منه اقتباس كل الـورى   ودام   السّارين   سناه   أغر

انتهتْ وهي محتويةٌ على أحدٍ وأربعين بيتاً

وممَّا قلتُ فيهِ ﷺ هذه القصيدةُ الرَّائيةُ من بحرِ المقتضبِ المَطوي المجزوء، وعلى ما هو المستعملُ فيهِ والمرتكَبُ، افتتحتُها بنسيبٍ حسنٍ وسلكتُ فيها أبينَ مسلكٍ وسنَنٍ، ثُمَّ أتيتُ بمديحٍ حسنِ المعنى مناسبٍ لِما يُقصَدُ ويُعنى رزقنا اللهُ من بركاتِ الممدوحِ وعوارفهِ، وأنالَنا من نفحاتهِ وعواطفهِ وهي هذه.

أظهرت سنا غـرر   مثل طلعة القمـر
فانجلى ضياء ضحى   تحت ظلمة الشعر
لاحظت بطرف مهى   ادعج وذي حور
اسفرت بمبتسـم   عن منظم الـدرر
وانثنت تميس كمـا   ما تمايل الزهر
واغتدت تتيه علـى   مرتجِ و منتظر
تيمت قلوب النهى   تيهت ذوي الفكر
اضرمت جمارهم   أسلمت الى السهر
ما لمن يهيم بهـا   طاقة بمصطبر
إن بدت لمبصرها   اذهلته عن بصر
ما لحسنها مثل   في العيان والأثـر
إنه بديعٌ سني   باهرٌ لذي النظر
معنوي وصف فلا   مجتلى لمختبر
باطن و موطنه   عند باطن البشـر
قد بدا لأحمدنـا   رأس كل معتبر
ذه سِماه علت   ذات أنجم زهـر

شمسه تلوح فما ضوؤها بمستتر

فيضه جرى مددا مثل فيضٍ منهمر

سره سرى أمدا للصدور والفطر

علمه اللدني سما لا ينال بالفكر

ينثر العلوم لنا منه أي مندثر

حوله الملأين ما خاشع و مذكر

أو مهيم القلب أو غائب به سكر

بحره العظيم لنا زاخر بليل صر

هو عارف العصر ماعلمه بمنحصر

قد أتى به كرماً ربنا على قدر

فابتدر لباب هدى فاز كل مبتدر

واغتنم نداه تنل منه كل مدخر

حبه ذخيرة لمن أمّي باب مقتدر

نسأل الكريم رضىً منه طول للعمر

والسلام منه على ذاته مدا العصر

انتهت وهي مشتملةٌ على أحدٍ وثلاثين بيتاً.

وممَّا قلتُ فيهِ رضيَ اللهُ عنهُ هذه ﷺ هذه القطعةُ الدَّاليةُ الكائنةُ من بحرِ المديدِ المجزوءِ العروضِ والضَّربِ المُردفةُ بالياء الموصول مجراها بالواوِ المزيدِ ضَّمنتُها ثناءً كلّياً ومدحاً جميلاً، وكثرةُ ثناءِ القومِ عليهِ لكثرةِ خصالِ الحمدِ لديهِ وتوافرُها فيهِ سُرى وسيْراً وسرَّاً وجهراً، أدامَ اللهُ علينا بركتَهُ وأفضالَهُ ومودتَهُ، وهي هذه.

بحر أفضال لديكم مديد	وثناء الخلق فيكم عديـد
كلما رمت امتداحاً وغدا	للمعالي منك جاء المزيـد
فكما لا ينتهي منك فضل	لا يتم القول فيك الحميد
قل لقومٍ قد تعاطوا سـواه	انني عن أحمد لا أحيد
إن ممدوحاً حوى كل فضـلٍ	لجديرٌ فيه قولٌ مجيـد
إن قدمٌ مدحا لسير لديه	فهو فيه الأحمدي الفريـد
أو ترم منه امتداحاً لسيرٍ	فهو فيه البحر فيضاً يزيـد
في كلا الحالتين حقاً تسامى	فهو في الأمرين فردٌ وجيد
قد جعلت القول فيه مديداً	في مديدٍ وأنا استزيـد
فإذا ما قلته لا يوفي	بعض جزء منه فيما أريد
قد حباه الله منه رضـاءً	ورضاه لا يفيه المفيـد
يا مريداً للثنا فيه أمدد	بحر أفضال لديه مديد

انتهتْ وهي اثنا عشر بيتاً

وذلك عندَ بعضِ العَروضيينَ هو المسمَّى بالقطعةِ والقصيدةُ إذ هي عندَهُم من عشرةٍ إلى عشرين، فإذا جاوزتْها فهي قصيدةٌ، وعند آخرين كلُّ ما جاوزَ العشرةَ، ولبعضِهم كلُّ ما جاوزَ السَّبعةَ فهو قصيدةٌ، فهذه الأبياتُ قطعةٌ عندَ بعضهِم، وقصيدةٌ عندَ آخرين، وبها يتمُّ لي ممَّا أوردتُ هنا ثلاثَ عشرةَ قصيدةً، ولنقتصرَ عليها وإلَّا فلي في مدحهِ رضيَ اللّهُ عنهُ أكثرُ من ذلكَ.

قالَ مؤلفهُ وجامعهُ العبدُ الفقيرُ إلى مولاهُ الغني عبدُ السَّلامِ بنُ الطَّيبِ القادري الحسني كان اللّهُ لهُ ولياً وبهِ حفياً.

هذا آخرُ ما أوردتُ جمعَهُ من هذا " **المقصد الأحمدِ الجامعِ لمآثرِ سيِّدِنا ابنِ عبدِ اللّهِ أحمد** " وقد ذهبتُ فيهِ والحمدُ للّهِ مذهباً جميلاً وفصَّلتُ الكلامَ فيهِ

تفصيلاً ولم آلُ مع تفصيلهِ في ترتيبهِ وتنقيحهِ قدرِ الإمكانِ وتهذيبهِ, وإيرادِ ما يتأكَّدُ إيرادهُ, ويحسنُ مرادهُ ومفادهُ, فجاءَ بحمدِ اللهِ وافياً بالغرضِ المقصودِ, آتياً بالحاضرِ الموجودِ, حسنَ الصَّنيعِ, ذا نمطٍ بديعٍ, واضحِ المباني, لائحِ المعاني, جامعاً للمُهمَّاتِ، تاركاً للأنفسيَّات، سامياً في بابهِ, ومُسامياً لأضرابهِ غير أنَّهُ لم يوفِ بما هنالك من المآثرِ, ولم يأتِ على تلك المفاخرِ.

وإذا ظهرَ فضلُ اللهِ على أحدٍ لم يستطيعْ الحاسبُ لهُ عدًّا, ولم يبلغْ لهُ غايةً ولا حدًّا, بِسواءِ المُطيلُ والمُقصِرُ, والمُطنبُ والمُختصِرُ, وقد التزمتُ فيهِ تفسيرَ ممَّا يتأكَّدُ تفسيرهُ, ويَحسنُ تقريرهُ وتحريرهُ, ممَّا يتوقَّفُ عليهِ فهمُ المعنى, ويحتاجُ إليهِ فيما يرادُ ويُعنى, ليحصلَ المقصودُ, والغرضُ المرصودُ, فيما أُريدَ من فهمه والانتفاعَ بعلمهِ, كلُّ ذلكَ ممَّا استفيدَ معناهُ, واستنشقتُ فهمَ مدلولهِ ومحتواهُ منَ المؤلَّفِ فيهِ سيِّدِنا وسندِنا ومولانا, ومَنْ تفضَّلَ علينا وأولانا, قدوةُ الأنامِ وحجَّةُ الإسلامِ, السَّيِّدُ الأعمدُ, سيِّدُنا أحمد ﷺ وعنَّا بهِ, وأدامَنا في حِماهُ ونفعنا بهِ, فهو الذي نبَّهَ وألهمَ وعلَّمَ وأفهمَ وآوانا وأعطانا وبجميلِ فضلهِ سترَنا وغطَّانا.

وكثيراً ما أحضرُ كُتبَ التَّصوفِ كأنِّي طمعانٌ أو عربي يستمعُ لعجمي اللِّسانِ فإذا سمعتهُ من خطابهِ فُتحَ البابُ وزالَ عن فهمِ معناهُ الحجابُ, فعدتُ أفهمُ كلامَهم بكلامهِ, ومقامَهم بمقامهِ, فما نطقَ هنا في الحقيقةِ إلَّا لسانهُ, ولا أظهرُ فيما أبرزناهُ إلَّا أفضالَهُ وإحسانَهُ, وما ألَّفَ فيهِ إلَّا مُنطِق فيهِ, هذا ولم أدَّعي هذا الكتابَ, وما جمعتهُ فيهِ من الأبوابِ خصوصاً بابَيْ الدَّلالةِ والكلامِ اللَّذينِ هما خلاصةُ المرامِ شيئاً من نفيسِ دُررِ أسرارهِ وغررِ معارفهِ وأنوارهِ, وإنَّما جُمعتْ من ذلك وأودعتْ هنالك, فأمكنَ ذهني التَّوصلَ إليهِ والتَّسوُّرَ عليهِ, كما بيَّنتهُ فيما قدمتهُ, وهناك ما لا يعلمهُ بالعقلِ الفاهمون

﴿ ومَا يَعْقِلُهَا إلّا العَالِمونَ ﴾[1]

---

[1] . العنكبوت (43)

الذين وجدوهُ فعلموهُ وسلكوهُ ففهموهُ, وفُتحَ لهُمْ فعرفوهُ, وكُشفَ لهُمْ فوصفوهُ فأتيتُ من ذلك بالواضحِ واليسيرِ ممَّا قادَهُ إلى التَّيسيرِ وأوصلتهُ لكلِّ مُتبركٍ ومَن هو بعروةِ اللهِ متَّمسكٌ وأدليتُ مُتبركاً دِلائي مع مَن أدلاهُ من أخلائي في هذا البحر العظيمِ الذي لا يُدركُ قعرهُ, ولا يستنفدُ ياقوتهُ ودرُّهُ, بلَّغَ اللهُ فيهِ مُناهُم ومُنائِي، وأكملَ فيهِ رجاءَهُم ورجائي.

وكان الحاملُ لي على تأليفهِ وجمعهِ, والحاثُّ لي على إتقانِ صُنعهِ ووضعهِ والرَّاغبُ إليَّ فيما أبديتهُ وأداءُ ما أدَّيتهُ أخي الفقيهُ العلَّامةُ المشاركُ المُتفنِّنُ الدَّراكةُ المتقي أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد بنُ العربي بنُ الطَّيبُ القادري الحُسيني أدام اللهُ حفظَهُ وأجزلَ من الخيراتِ حظَّهُ, فهو الذي كان السَّببُ لي في تحصيلهِ وبدئهِ وتكميلهِ, وما زالَ بعد طلبهِ لذلك ورغبتهِ فيما هنالك عونا وظهيراً, ومقوّياً ونصيراً, مُعينا لي على استحضارِ المسائلِ وتلك المحاسنِ والفضائلِ، حريصاً على ترتيبهِ وتفصيلهِ, وتقريبهِ وتهذيبهِ, إلى أنْ يسَّرَ اللهُ اتمامَهُ, وأكملَ فيهِ سبحانَهُ بُغيتَهُ ومرامَهُ, وكثيراً ما أنقلُ عنهُ فيما سلفَ, ولا أجليهِ بما بهِ اتَّصفَ وما منعني من وصفهِ بذلك وتحليتهِ إلَّا مكانَ قرابتهِ واخوتهِ لأنَّهُ مِن أخَصِّ جنسي, ومدحهُ مدحٌ لنفسي وإلَّا فهو حفظَهُ اللهُ علَّامةٌ مُتفننٌ مُشاركٌ, ثاقبُ الذِّهنِ بصيرٌ بغوامضِ المداركِ, من ذوي الإتقانِ والتَّحقيقِ, والتَّنقيرِ عمَّا خَلى والتَّدقيقِ، خيِّرٌ مَرضي تقي زكي, ذو حالٍ سَني, وقدْرٍ في الدِّينِ عليّ, قوَّالٌ للحقّ, مُعرضٌ عن الخلقِ.

قرأ على الأوَّلِ من سنةِ إلى أربعِ سبعينَ بتقديم السِّينِ إلى سنةِ تسعٍ وسبعين ومنها قرأ على الثَّاني إلى آخرِ اثنينِ وثمانين، قرأهُ ملازمةً على كُلِّ منهما وفي هذا التَّاريخِ قرأتُ أنا وعليهِما وتردُّدي إلى مجلسِهما, كما تردَّدَ هو إليهما.

ثُمَّ صحبُ الشَّيخَ الإمامَ, عارفَ الأنامِ, قدوةَ المُتقِّين وعمدةَ المُحقِّقين, شهابَ الدِّينِ, ومصباحَ المهتدين, الطالعَ الأسعدَ, سيِّدَنا أبا العبَّاسِ أحمدَ بنَ الشَّيخِ

الإمامِ, الصِدّيقِ الهُمام, الولي الشَّهيرِ, العارفِ الكبيرِ أبي عبدِ اللهِ سيّدي مُحمَّد بنِ عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُما المؤلَّفُ فيهِ هذا التأليفُ, والمُشرقُ بهِ هذا التَّصنيفُ، فلازمَهُ من المحرمِ فاتحِ سنةِ خمسٍ وثمانين لهذا العهدِ وانضافَ إليهِ, وانجمعَ والحمدُ لهُ عليهِ وتقيَّدَ بذلك لا يشتغلُ بسواهُ, ولا يلتفتُ لِما عداهُ فشملتْهُ بركاتهُ, وعمَّتْهُ نفحاتهُ وانتفعَ بهِ كثيراً, ونالَ خيراً غزيراً, وحالاً شريفاً ومنصباً منيفاً, أدامَ اللهُ ذلكَ لهُ, وبلَّغَهُ في اللهِ ما أملَّهُ، وفي تاريخِ ابتداءِ صحبتهِ المذكورِ كان ابتداءَ لزومي إلى الآنَ لهذا السَّيِّدِ المبرورِ, رزقني اللهُ وإيَّاهُ رضاهُ, وحقَّقَ فيهِ رجائي ورجاهُ.

وممَّنْ سألنيهِ أيضاً وأشارَ بهِ عليَّ وطلبَهُ منّي ورَغبَ فيهِ إليَّ, صاحبُنا وأخونا في اللهِ السَّيِّدُ العالمُ المدرّسِ النفَّاع, الكريمُ الأخلاقُ والطِّباعُ, الخيِّرُ الصَّالِحُ, الثِّقةُ النَّاصحُ, أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد بنُ عبدِ الرَّحمنِ بنُ إسماعيلَ بنُ عبدِ العزيزِ بنُ الشَّيخِ الإمامِ العالمِ العاملِ الولي الصَّالِحِ الفاضلِ أبي العبَّاسِ سيّدي أحمدَ بنِ أبي القاسمِ التَّادلي الصَّومعي رضيَ اللهُ عنهُ فأكدَّ عليهِ الطلبَ الأوَّلَ الذي كان عليهِ المعوَّلُ.

فأخي وهو هُما المشارُ إليهِما في صدرِ الكتابِ ببعضِ الإخوانِ, والفقهاءِ الأعيانِ, وهما الآنَ في قيدِ الحياةِ جزاهُما اللهُ خيراً, وجعلَ ذلكَ لي ولهم في الدَّارينِ ذخراً.

وقد ألَّفَ في سيّدِنا أبي العبَّاسِ رضيَ اللهُ عنهُ ممَّا سوى هذا الكتابِ تأليفانِ آخرانِ أحدهُما، وهو أوَّلُ هذه الكتبِ تأليفاً الذي تفرَّعَ النَّقلُ منهُ غيرَ ما مرَّةً التأليفُ المُسمَّى " **بالإلماعِ** " يشتملُ على نحوِ خمسِ كراريسَ أجادَ فيهِ مؤلفهُ ما شاءَ الله تصنيفاً وتعريفاً إذ لهُ المعرفةُ التَّامةُ بأحوالِ سيّدِنا أحمدَ رضيَ اللهُ عنهُ مع غزارةِ علمهِ وجودةِ إدراكهِ وفهمهِ إلَّا أنَّهُ لم يفصلْهُ بالأبوابِ كتفصيلِ هذا

الكتابِ, ولم يستوعبِ المسائلَ بل أجملَ في ذكرِ الفضائلِ, والفضلُ للسَّابقِ لا للمُتأخِّرِ اللَّاحق

فلو قبل مبكاها بكيتُ صبابةً بسعدي شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلي فهيج لي البُكـا بكاها فقلت الفضل للمتقدم

ووجهُ تسميتِهِ لهُ " **بالإلماع** " أنَّهُ كان ألَّفَ قبلَهُ كتاباً في التَّعريفِ بأصحابِ الجزولي رضيَ اللهُ عنهُ منهُ إلى وقتِنا سمَّاهُ " **ممتعُ الأسماعِ بمناقبِ الشَّيخِ الجزولي ومَنْ لهُ من الأتباعِ** " ولم يكنْ ذكرَ فيهِ أحداً من الأحياءِ فلم يتعرَّضْ فيهِ من أجل ذلكَ لسيِّدِنا أحمدَ، فأفردَ لهُ هذا التَّأليفَ سمَّاهُ " **بالإلماعِ ببعضِ مَنْ لم يذكرْ في مُمتعِ الأسماعِ** ".

وكان تأليفهُ لهُ في رجبٍ سنةَ ستٍّ وثمانين وألفٍ، ثُمَّ زادَ فيهِ بعد هذا التَّاريخِ زياداتٍ أوردَها هنالك، وكان الحاملُ لهُ على تأليفهِ أيضاً والطالبُ لهُ منهُ أخي أبو عبدِ اللهِ العربي الذي كان الحاملُ لي على كتابي هذا وهو المخاطَبُ في آخرِ " **الإلماع** " المذكورِ ويقولُ مؤلِّفهُ فيهِ

" فهذا أيُّها السَّيِّدُ الأطهرُ, الشَّريفُ الأغرُّ الفاضلُ الأنورُ, التَّقي النَّقي الأعفُّ, الفقيهُ المشاركُ الأعرفُ ما سألتنيهِ وألححتَ عليَّ فيهِ غيرَ مرَّةٍ وجزاكَ اللهُ خيراً أعني في إخراجه منِّي ".

هذا لفظهُ ومؤلفُ " **الإلماعِ** " الذي جرى ذكرهُ في غيرِ ما موضعٍ من هذا الكتابِ هو صاحبُنا ومفيدُنا السَّيِّدُ الفقيهُ المشاركُ النَّبيلُ العالمُ المحدِّثُ الصُّوفي الجليلُ الدَّراكةُ الواعيةُ الحفيلُ المصنِّفُ المفيدُ المُتقنُ المُجيدُ ذو الفكرِ الصائبِ والذِّهنِ الثَّاقبِ, الفاضلُ المباركُ المنيفُ المنَّورُ الأعرفُ الزَّاهدُ العفيفُ الخيِّرُ البركةُ أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد المهدي بنُ العلَّامةِ الحافظُ المدِّرسُ أبو العبَّاسِ أحمدُ ابنُ الفقيهِ النَّاسكِ البركةِ أبي الحسنِ علي ابنِ الشَّيخِ الإمامِ العالمِ العلَّامةِ

الهُمام, حجَّةِ الإسلامِ, وقدوةِ الأنامِ العارفِ الكبيرِ الوليِ الشَّهيرِ, طودِ المعرفةِ الشَّامخِ, المُتمكِّنِ الرَّاسخِ الكاملِ العرفانِ والاتِّباعِ المُوصلِ المربي النفَّاعِ أبي المحاسنِ سيِّدي يوسفَ الفاسي رضيَ اللهُ عنهُ وأفاض علينا من بركاتهِ.

قرأَ حفظَهُ اللهُ على أبيهِ وأعمامهِ وعلى غيرِ واحدٍ ممَّنْ في طبقتِهم من مشيخةِ فاسٍ العربيةَ والحديثَ والفقهَ والعقائدَ وغيرَ ذلك، وعمدتهُ قراءةً ومجالسةً واستفادةً والدهُ الشَّيخُ أبو العبَّاسِ أحمدُ وعمُّهُ شقيقُ أبيهِ الشَّيخُ الإمامُ أبو مُحمَّد عبدُ القادرِ بن علي الفاسي، وخالهُ الشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ مُحمَّد بنُ أحمدَ بنُ يوسفَ الفاسي رحِمَهُم اللهُ تَعالى، ثُمَّ صحبَ الشَّيخَ الإمامَ عارفَ الأنامِ الولي الشَّهيرَ الصِّديقَ الكبيرَ أبا عبدِ اللهِ سيِّدي مُحمَّد بنَ عبدِ اللهِ والدَ سيِّدِنا أحمدَ رضيَ اللهُ عنهُما ولازمَهُ بقصدِ الاقتداءِ والإتِّباعِ والتَّبرُّكِ والانتفاعِ، فانتفعَ بهِ نفعاً ظاهراً, ونال منهُ بركةً جمَّةً وخيراً وافراً, وحصل لهُ فهمٌ في الطَّريقِ وذوقٌ في التَّحقيقِ، وبقيَ معهُ إلى أنْ تُوفيَ رضيَ اللهُ عنهُ، وأَمدُ صُحبتهِ لهُ سبعَ سنينَ، ثُمَّ صحبَ بعدَهُ اقتداءً وانتفاعاً خليفتَهُ بزاويتهِ ووارثَهُ الشَّيخَ العارفَ المحقِّقَ المجذوبَ الفاني المستغرِقَ أبا الفضلِ سيِّدي قاسمٍ بنِ الحاجِّ قاسمٍ الخصاصي رحمَهُ اللهُ ورضي عنهُ ولازمَهُ إلى أنْ تُوفيَ سنةَ ثلاثٍ وثمانين وألفٍ، وأَمدُ صحبتهِ لهُ عشرون سنةً، وهو الآنَ في صحبةِ خليفتهِ ووارثهِ سيِّدِنا أبي العبَّاس رضيَ اللهُ عنهُ ونفعنا بهِ.

ولَهُ حفظَهُ اللهُ تآليفُ عديدةٌ مِنْها " **شرحانِ على دلائل الخيرات** "[1] وثلاثةُ تآليفَ في السِّيَرِ، وثلاثةٌ في أهلِ اللهِ نقلْنا عن بعضِهما فيما سلفَ، وواحدٌ في

---

[1]. كتاب (دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار) للشيخ مُحمَّد بن سليمان الجزولي ت/ 870هـ.

أنسابِ العربِ سمَّاهُ " **داعي الطَّربِ** "[1] وغيرُها، وهو الآنَ في قيدِ الحياةِ لم يولدْ لهُ ذكرٌ ولا أنثى، أبقى اللهُ بركتَهُ وأجزلَ عليهِ مِنَّتَهُ.

وثاني التأليفينِ ممَّا عدى هذا الكتابِ تأليفٌ لصاحبِنا الفقيهِ الأريبِ الخيِّرِ الحسيبِ أبي العبَّاسِ أحمدَ بنِ عبدِ الوهابِ الوزم الأندَلُسي الغسَّاني المؤدبِ الآنَ للصِّبيانِ بزاويةِ سيِّدِنا أحمدَ وإمامِ الصَّلاةِ بِها حفظَهُ اللهُ وبارَكَ فيهِ، واسمُ هذا التأليفِ " **المقباسُ في محاسنِ أبي العبَّاس** " وهو قريبٌ من " **الإلماع** " في نحو أربعةِ كراريسَ ألَّفَهُ لهذا العهدِ قبلَ شروعي في هذا التأليفِ ستةَ أشهرٍ، أمرَهُ أيضاً بتأليفهِ وحضَّهُ على تصنيفهِ وندبَهُ إليهِ وأعانَهُ عليهِ ولقَّنَهُ ما يحتاجُ إلى تلقينهِ وبيَّنَ لهُ ما يحتاجُ مثلَهُ إلى تبيينهِ أخونا أبو عبدِ اللهِ العربي الطالبُ لِما ذُكرَ قبلَهُ، ألَّفَهُ على وفقِ نظرهِ مستنداً في أكثرِهِ لخبرهِ.

وبعد تمامهِ وبلوغِ مرامهِ تولَّى عنهُ أيضاً ترتيبَ ما ينبغي ترتيبهُ، وتهذيبُ ما يَحسنُ تهذيبهُ، فكانَ أخي هو السَّببُ في إنتاجِ أمرهِ كما كان السَّببُ في إخراجِ غيرهِ لِما جعلَ اللهُ لهُ من قوَّةِ القريحةِ في ذلكَ وشدَّةِ الرَّغبةِ فيما هنالك، ضاعفَ اللهُ في هذا السَّيِّدِ المباركِ حبَّهُ وأكَّدَ منهُ اتِّصالَهُ وقربَهُ ورزقَنا وإيَّاهُ من محبَّتهِ ما يوصلُنا إلى رِضى اللهِ ورسولهِ، ويُلحقُنا بالسَّالكينَ لسُنَّتهِ وسبيلهِ.

وهذا آخرَ ما قُدِّرَ ابرامهُ وانجازهُ، وجرى بمشيئةِ اللهِ إخراجهُ وإبرازهُ من ذكرِ أخبارِ هذا السَّيِّدِ الكريمِ, ذي المجدِ العظيمِ الذي تَكِلُّ الألسنُ عن استيفاءِ فضائلهِ, وتقصرُ الأقلامُ عن وصفِ محاسنهِ وشمائلهِ، كيفَ وهو من حزبِ اللهِ الذين هُمْ الملئِ الأعلى, ووصْفُ ما هُمْ عليهِ أعزُّ من أنْ يُظفرَ بهِ وأغلى, فليكتفِ بهذا القدرِ المتبرِّكونَ, وليستعنْ بهِ النَّاسكون والسَّالكون, فكفى بهِ بركةً ونوراً وابتهاجاً للمُحبِّينَ وسروراً نفعنا اللهُ بهِ يومَ

﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾[1]

---

[1] . كتاب (داعي الطرب في اختصار أنساب العرب).

ورحمَنا بِهِ يومَ تكثرُ الأهوالُ والفتونُ وسامحَنا فيما صحبَنا من الحظوظِ النَّفسيةِ, وخلَّصنا بجاهِ المؤلِّفِ فيهِ إلى الحضرةِ القدسيَّة, وجعلنا مع ذلك الرَّفيقِ, وسلك بنا نهْجَ هذا الطَّريقِ, إنَّهُ وليُّ التَّوفيقِ والحمدُ للهِ على ما أنعمَ بهِ من الإلهامِ ومَنْ بهِ الأكمالِ والإتمامِ, نسألهُ سبحانَهُ أنْ يمنَّ علينا بالإنابةِ إليهِ, والإنقطاعِ عمَّا سواهُ والجمعِ عليهِ, وأنْ يهبَ لنا توبةً لا تغادرُ ذنباً, ومغفرةً لا تتركُ لوماً ولا عيباً, وأنْ يُكرمَنا بدوامِ رضاهُ وتمامِ نعمتهِ, وأنْ يعمَّنا والإحبَّةَ وسائرَ المسلمين برحمتهِ, والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدِنا ومولانا مُحمَّد نبيِّ الرَّحمةِ وشفيعِ الأمَّةِ وعلى آلهِ الطَّيِّبينَ وصحابتهِ الأكرمينَ وتابعيهم المحبِّينَ صلاةً وسلاماً يتعاقبانِ إلى يومِ الدِّينِ والحمدُ للهِ ربِّ العالمين، انتهى بحمدِ اللهِ وعونهِ وصلَّى اللهُ على سيِّدنا ومولانا مُحمَّد وآلهِ وصحبهِ وسلَّمَ تسليما على يدِ كاتبهِ ومؤلِّفهِ العبدِ الفقيرِ إلى رحمةِ اللهِ عبدِ السَّلامِ بنِ الطِّيبِ القادري الحسيني كان اللهُ لهُ, وكان الفراغُ منهُ يومَ الخميسِ التاسعِ والعشرينَ من المحرمِ عامَ أربعٍ وتسعين والفٍ.

الحمدُ للهِ يقولُ ناسخهُ, قد نسختُ هذا الكتابَ النَّفيسَ للطبعِ الأنيقِ من نسخةٍ نُسختْ للمؤلفِ من خطِّهِ بخطِّ تلميذهِ الفقيهِ ألأجلِّ أبي العبَّاس أحمدَ بنِ عبدِ القادرِ بنِ يحيى كان اللهُ لهُ، وكتبَ عليهِ كلاماً حسناً أثنى فيهِ على المؤلفِ أحسنَ الثَّناءِ ووصفِ التَّأليفِ كذلك بكلامٍ بديعٍ والمؤلَّفِ فيهِ بثناءٍ حسنٍ رفيعٍ ومدحَهُ بقصيدةٍ حُسنى, جيدةِ الصناعةِ والمبنى, بلَّغَهُ اللهُ في الدَّارينِ، قصدَهُ ورزقَهُ بفضلهِ محبَّتهِ وودِّهِ, ثُمَّ بعده تقريظٌ لتلميذِ المؤلِّفِ أيضاً الفقيهِ العلَّامةِ سيِّدي مُحمَّد الطَّيبِ بنِ مسعودٍ المريني، فرأيتُ إلحاقَهُما بالكتابِ من الأمرِ الأكيدِ الذي لابدَّ منهُ ولا عنْهُ مَحيدٌ غيرَ أنَّهُ عجزْنا عن إدراكِ حقيقةِ بعضِ الألفاظِ في التَّقريظينِ المذكورينِ في النَّثرِ والنَّظمِ لِما حصلَ بهما من المحوِ

[1] . الشعراء /88

والتَّمزيقِ فأثبتناها كما ظهرتْ لنا, وجعلْنا عليها علامةَ كذا تاركين أمرَها للقارئ النَّبيهِ

التقريض الأول للفقيه أبي العباس أحمد بن عبدالقادر ابن يحيى

أنجزَ وكمُلَ " **المقصدُ الأحمدُ** " على يدِ كاتبهِ أبي العبَّاس أحمدَ بنِ عبد القادرِ بنِ أحمدَ بنِ يحيى الشُّويسي اليَحياوي الفاسي المنشأ المراكشي المولدُ, وفَّقهُ اللهُ لِما يحبُّ ويرضاهُ وجعلَ في الجنَّةِ مقرَّهُ ومثواهُ, بجاهِ سيِّدِنا أحمدَ بنِ عبدِ اللهِ مَنَّ اللهُ علينا بمعرفتهِ والانحياشِ إلى زمرتهِ والإقامةِ في حوزتهِ, آمين آمين، لا أرضى بواحدةٍ حتَّى أضيفَ إليها ألفَ آميناً.

كتَبْتهُ لمؤلِّفهِ شيخِنا مُصنِّفهِ ومُنشئهِ قدوتِنا, مَنْ بهِ اقتداؤنا وعليهِ اعتمادُنا, الشَّيخِ الإمامِ الحبرِ الهُمامِ, بدرِ التَّمامِ ومسكِ الختامِ, وشمسِ الأنامِ وقمرِ دارةِ الأعلامِ, مولانا عبدِ السَّلام السَّني الشَّريفِ الحسني المنيفِ القادري العفيف, المدرس النفَّاعِ المصنِّفِ النصَّاعِ, الذي أشرقَ على الأفقِ نورُ علومهِ اللمَّاعِ, الذي هو أبدى في حديقةِ الأفكارِ رتاع[1], المبدعُ في تقريرهِ وتصنيفهِ غايةَ الإبداعِ, الذي إنْ تكلَّمَ أطرقتْ لهُ الأسماعُ, وأقبلَ منهُ كلُّ فصيحِ اليراعِ[2], طلقُ اللِّسانِ وفَهِمُ الجَنان, فارسُ المعاني والبيانِ وقابسُ لواءِ الشُّعراءِ الفرسانِ, رئيسُ المنقولِ, وحكيمُ المعقولِ, النظَّارُ المُحقِّقُ, النِّحريرُ المُدقِّقُ, الدرَّاكةُ الفهَّامة المشاركُ العلَّامةُ, ذو الفكرِ الصَّائبِ والذِّهنِ الثَّاقبِ, وكيف لا وهو من بني غالب خصوصاً من أولادِ مولانا علي بنِ أبي طالبٍ خصوصاً, من أبناءِ الحسنِ

---

1 . رتعَ القوم عاشوا في رخاءٍ ونعيم.

2 . اليراع/القصب ،ويكتبُ باليراعِ أي يكتبُ بالقلمِ المصنوع من القصب.

الحاوي لكلِّ المطالبِ سيِّدُ الأقطابِ, والآخذُ بلوائهم وأوَّلُ مَن فَتحَ البابَ, والسَّابقُ لطريقِهم, خصوصاً من أولادِ مولانا عبدِ القادرِ الجيلاني بَيْدَ أنَّهُ من أصحابِ الشَّيخِ العرفاني, الطَّودِ الشَّامخِ الرَّاسخِ, القدسي الرَّباني, مصباحِ الزَّمانِ ومالِكِ الأوانِ, المنقطعِ إلى اللهِ في السِّرِّ والإعلانِ المُعرضِ عن كلِّ ما سوى الرَّحمنِ, محي الإسلامِ والدِّينِ والواثقِ بحبلِ اللهِ المتينِ, والغارقِ بكتابهِ المبينِ, صاحبِ العلومِ الرَّبانيةِ والمواهبِ الإلهيةِ, ذي الحالِ الإلهي, والفاني عن ما سوى اللهِ، غوثِ الأنامِ وكهفِ الإسلامِ مصباحِ الظَّلامِ وشمسِ الأعلامِ, السَّيِّدِ الكاملِ الولي الواصلِ, ذي القدرِ الشَّامخِ والقدمِ الرَّاسخِ, الذي صارتْ أقدامهُ فوقَ كلِّ باذخٍ, مَنْ رامَ في طلبِ العُلى إقدامهُ فوقَ الرُّؤوسِ تتقلَّبُ أقدامهُ, وهذا الشَّيخُ ممَّا لا تُدرِكُ حقيقةَ مقامهِ العقولُ ولا يفي بحقِّهِ كلُّ مقولٍ, وهيهاتَ كيفَ تعرفُ حقيقةَ مَنْ صارَ من العوالمِ السَّماويةِ ولم يبقَ فيهِ شائبةٌ من الأمورِ الأرضيةِ إلَّا الرُّوحَ الملكوتيةِ

﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1]

وما هذا الكتابُ في حقِّهِ جملاً وتفصيلا, إلَّا كغمسةِ قلمٍ من مدادِ بحورٍ أو كنقرةٍ فيها بمنقارِ عصفورٍ, فاللهُ خصَّهُ بما شاءَ من فضلهِ وأرادَ وأنعُمُ اللهِ لا يحيطُ بها مُحصٍ ولا عادٌّ

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2].

وهذا الشَّيخُ هو سيِّدي أحمدُ بنُ سيِّدي مُحمَّد بنُ عبدِ اللهِ, المؤلَّفُ فيهِ هذا الكتابُ الأنيقُ الحُلي والجلبابُ المسخِّرُ أولي الألبابِ, بحسنِ الأسلوبِ والإعرابِ المُضيئُ منهُ كلُّ شهابٍ, الآتي بكلِّ عُجابٍ الخالي من كثرةِ الإطنابِ, الذي لم

[1] . الاسراء 85

[2] . لقمان/ 27.

نعلمْ في الوجودِ بمثالِهِ ولم نرَ ناسجاً ينسجُ على منوالِهِ, فيا لهُ من نَظمٍ رائقٍ وسجَعٍ فائقٍ ودَرٍّ خافقٍ[1], باللؤلؤ المكنونِ منظومٌ وبأنيقِ المعاني مرقومٌ وبوشي البلاغةِ مرسومٌ, لقد تعطَّرَ شذاهُ وفاحَ عنبرُ مزاياهُ وثراهُ، فكم من محاسنَ قد انطوتْ في رِقِّ منشورهِ فصارتْ أعلامُ البلاغةِ تخفِقُ فوق مسطورهِ وفاقَ من حذا حذوهِ بنظمهِ ومنثورهِ

كَمْ من محاسنَ انطوتْ في رِقِّهِ   شمسُ البلاغةِ أشرقتْ بطروسـهِ
أسجاعهُ تَسبي بحُسنِ الرَّونقِ   لقد اكتسى حُللَ البهى من قدسهِ

كيفَ لا وهي من بناتِ أفكارِ مولانا عبدِ السَّلام, الحائزِ ذروةِ المجدِ بالتَّمامِ الفائقِ في نظمِ درها كلا نظام, فصارتْ حمائمُ البراعةِ تنشدُ فوق غصونِ آيِها بحسنِ النِّغامِ, وصارَ وشيُ رونقِها لايعارَضُ ولا يُسامُ, كلأهُ اللهُ بعينهِ التي لا تنامُ, وأدامَ النَّفعَ بهِ لنا ولسائرِ الأنامِ، وجعلنا وإيَّاهُ من أهلِ حضرةِ دارِ السَّلامِ, وختمَ لنا بأحسنِ الختامِ.

وشيخُنا هذا لا يحتاجُ للتَّعريفِ بنسبهِ, ولا بعلُوِّ قدرهِ وجلالةِ منصبهِ لعظمِ شهرتهِ, وظهورِ نسبتهِ, فهي كالقمرِ أو أحلى بل كالشَّمسِ في وسطِ السَّماءِ حين تُعلى, وهل يُعرفُ ما كان ضرورياً, أو كان مشاهداً حضورياً.

أتُعرف الشمس المنيرة في الضحى   والكون كله شاهدٌ بسناها
كُل الورى يحتاجها في ضوئها   والبدر يشرق من سنا مرءاها
كل الكواكب أوقدت من نورها   وغدت مصابيح الدجى لسراها
وإذا تبدت للأنام تـلألأت   وتضوعت أرجاء كل قرآهـا
ذاك الشريف الهاشمي القـادري   مولى الورى شرفاً وقطبُ رحاها
قمر الدجى شمس الضحى أفقه   كل المناكب مشرقٌ بضياها

[1] . الدَّر، صوت تتابع ضربات القلب، والخافق، خفق القلبُ اضطرب وتحرَّكَ.

يا سائلاً عن حلمه وكماله ... أما العلا فلقد أطال سماها
قد حاز سبقاً في العلوم وكلها ... نقادةٌ ألقت له مجراها
حساً ومعنى كل علمٍ قد حوى ... وغدت معانيه به مرساها
حَبرُ وبحرٌ ثم بدرٌ كاملُ ... كلُ المفاخر قد انيل عُلاها
علاّمة فهّامةِ دراكـةٌ ... ومشارك كُل العلوم رقاها
فانسب له كل المعاني وكيف لا ... تنسب له وهو المجدد زاها
حدث عن الطود العظيم ولا حرج ... قد ضم كل محاسنٍ وحواها

كتبتُ هذه النَّسخةَ إليهِ من كتابهِ مُستأجَراً عليهِ من مسطورٍ بيدهِ خطَّهُ أتقنَ شكلَهُ وضبْطَهُ, وهذا أوَّلُ كتابٍ نُسخَ منهُ قدَّسَ اللهُ مؤلِّفَهُ ورضي عنهُ لعشرٍ خلونَ من ربيعِ الأوَّل، قد انتهى بحمدِ اللهِ وكمُلَ عامَ أربعٍ وتسعين بعد الألفِ مَنَّ اللهُ علينا فيهِ بالعفوِ واللُّطفِ، ويطلبُ كاتبهُ المذكورُ من النَّاظرِ في هذا المسطورِ أنْ يتجاوزَ عمَّا جنتْهُ يدُ الغفلاتِ, فإنَّ الحسناتِ يُذهبنَ السّيئاتِ وأنْ يدعوَ لهُ بالفوزِ بالجنَّةِ والنَّجاةِ من النَّارِ, وأنْ يتجاوزَ عن سيئاتهِ الجمَّةِ الغِزارِ بجاهِ النَّبي والسَّالكينَ نهجهِ الأبرارِ, وأنْ يختمَ لنا بالسَّعادةِ المختومِ بِها لأوليائهِ وأنْ يجعلَنا من أحبابهِ وأصفيائهِ, أنَّهُ على ما يشاءُ قديرُ وبالإجابةِ لحقيقٌ وجديرٌ, وهو نعم المولى ونعم النَّصيرُ, وصلَّى اللهُ على سيِّدنا ونبينا ومولانا مُحمَّد خاتمِ الأنبياءِ وإمامِ المُرسلين, وعلى آلهِ وصحابتهِ البررةِ الأصفياءِ الأكرمين, صلاةً وسلاماً تامَّينِ إلى يومِ الدِّينِ.

اللَّهمَّ اغفرْ لنا ولأشياخِنا ولوالدينا ولإخوانِنا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعلْ في قلوبِنا غلاً للذين آمنوا، ربَّنا إنَّك رؤوفٌ رحيم، وسلامٌ على المرسلين، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

ونصُّ التَّقريظُ الثَّاني الذي هو تقريظُ العلَّامةِ سيِّدي مُحمَّد الطَّيبِ بنِ مسعودٍ المريني في مدحِ الكتابِ ومؤلفهِ والمؤلَّفُ فيهِ ونصُّهُ.

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

وصلَّى اللهُ على سيِّدِنا مُحمَّد وآلهِ وصحبهِ

نحمدُك اللَّهمَّ على ما أسديتَ من النِّعمِ, ونُصلِّي ونُسلِّمُ على سيِّدِنا ومولانا مُحمَّد منبعِ الجودِ والكرمِ.

وبعد فيقولُ عبيد الله تَعالى مُحمَّد الطَّيبُ بنُ مسعودٍ بنُ أحمدَ المريني, بلَّغَ اللهُ أملَهُ من مطلوبهِ الدِّيني, لمَّا أرادَ اللهُ سبحانَهُ أنْ يمُنَّ عليَّ بمعرفةِ الشَّيخِ الإمامِ, القدوةِ الهُمامِ, المُحقِّقِ الواصلِ العارفِ الكاملِ, ذي الهمَّةِ السَّنيَّةِ والسِّيرةِ السُّنيةِ, الدالِّ على اللهِ والناصحِ لعبادِ اللهِ, سيِّدِنا وسندِنا ووسيلتِنا ومعتمدِنا أبي العبَّاسِ أحمدَ بنِ الشَّيخِ الشَّهيرِ العارفِ الكبيرِ أبي عبدِ اللهِ سيِّدي مُحمَّد بنِ مُحمَّد الشَّهيرِ بابنِ عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُ وأرضاهُ, وأنالَنا بركتَهُ ورضاهُ.

لقيتهُ يوماً وهو قادمٌ من لمطةَ فنظرَ إليَّ طويلاً, ثُمَّ سرتُ قليلاً وقد أخذَ قلبي وذهبَ بلبِّي, فالتفتُّ أُتبعُهُ نظري فوجدتهُ ملتفتاً بكُلّيتهِ ينظرُ إليَّ فاعتراني من تلك النَّظرةِ دهشٌ وحيرةٌ وجعلتُ أُقدِّمُ رجلاً وأُأخِرُّ أخرى، ولم استطعْ عنهُ صبراً فلقيتُ بعد شيخِنا العلَّامةِ الشَّريفِ الهُمامِ مولانا أبا مُحمَّد عبدَ السَّلامِ فدلَّني عليهِ, وأشارَ عليَّ بما يوصلُني إليهِ جزاه الله عنَّا خيراً, وأعظمَ لهُ عندَهُ منزلةً وقدرا, ثُمَّ وقفَ عليَّ رضيَ اللهُ عنهُ في المنامِ, وتلقَّاني بالتَّرحيبِ وأطيبِ الكلامِ, فانتبهتُ فرحاً مسروراً, وقد نلتُ من القبولِ منهُ حظَّاً موفورا, فأنشأتُ إذ ذاك مقامةً محتويةً على نثرٍ ونظامٍ وبعثتُ بها إليهِ فقبلَها والحمدُ للهِ من غيرِ ملامٍ، ورأيتُ بركتَها على ظاهرِهِ, نفعني اللهُ بها في الدُّنيا والآخرةِ.

ثُمَّ لمَّا وقفتُ على هذا التَّأليفِ الجليلِ الجامعِ الحفيلِ المُسمَّى " **بالمقصدِ الأحمدِ في التَّعريفِ بسيِّدِنا ابنِ عبدِ اللهِ أحمدَ** "

أنشأتُ فيهِ مقامةً ضمنتُها شرحَ ما اتَّفقَ لي معهُ في الورودِ وأسندتُ روايتَها إلى الطُّفيلي بنِ مسعود وختمتُها بقصيدةٍ جعلتُ تغزُّلَها فيهِ، ثُمَّ تخلَّصتُ منهُ إليهِ بما لا ينافيهِ مادحاً للمقصودِ والمقصدِ ومؤلفَهُ الذي جدَّ في تنميقهِ بوجدٍ، فقلتُ وباللهِ التَّوفيقُ. الهادي إلى أقومِ الطَّريقِ حدَّثَ الطُفيلي بنُ مسعودٍ قالَ

لمَّا تلقَّاني, بوجهِ الرِّضى زماني, وحيَّاني طالعُ السَّعدِ بالتَّهاني, نهضتُ لأتمِّمَ الأفراحَ, بالمليحِ والرَّاحِ, ففاجئني بالطَّريقِ, ذو وجهٍ طليقٍ, وخدٍّ شريقٍ, وقدٍّ رشيقٍ, قد نصبَ أشراكَ النَّظرِ, ليقتنصَ البشرَ, فرَنا إليَّ بطَرَفْهِ, وثنا نحوي عنانَ طِرفهِ, فمكثَ نزراً, يلحظُني شزراً, فلم أشعرْ إلَّا وقد نَشبتْ فيَّ حِبالتَهُ, ودخلتُ في إيالتهِ, ثُمَّ عذرني وسارَ, وغادرني في الامَار.

رماني بسهمِ اللَّحظِ عن قوسِ حاجب   بهيِّ المُحيَّا فائقِ الشَّمسِ والبـــدرِ
فصادفَ قلبي ثُمَّ أعرضَ قائمـــا   فجاءتني الأشواقُ من حيث لا أدرِ

فبقيت هيماناً, لا أستطيع كتمانا, متشوِّفاً لأخبارِهِ, متشوّقاً لآثارِهِ, إلى أنْ جرتِ الأقدارُ, بالإيرادِ بعد الإصدارِ, فأزعجتْني بواعثُ الأشواقِ للتَّردُّدِ في الأسواقِ, فلقيتُ بعضَ الأصحابِ, وندبني للأصحابِ فقلتُ لهُ سمعاً, ولبَّيتهُ طوعاً, وسِرنا واليُمنُ أمامَنا, والخيرُ يقودُ زمامَنا, إلى حيثُ المسرَّاتِ مخفية, والمبرَّاتِ مستوفية, فألفينا حضرةً عمَّ السَّعدُ جنابَها, وخدمَ المجدُ بابَها, ووافتْها الأماني بالبُشرى, والمواهبُ تَتْرى, والعزُّ ضربَ بِها سرادقَهُ, والفجرُ يروي عن شرفِها أحاديثَه صادقةٍ, مطابقةٍ لمعانيها, وموافقةٍ يستضيئ راقيها, بنورِ ساقيها قطبُ مدارِهم, وشمسُ نهارِهم, إنسانٌ عينُ إنسانٍ, والجامعُ بين الحسِّ والإحسانِ, يسحرُ العقولَ, ويسخرُ بالفحولِ, يَسبي النُّها بالجمال والبها.

يُنبيك ظاهرهُ عن سرِّ باطنهِ   فقد حوى الحلمَ والإحسانَ والجودا
لولاه ما نظرت عيناي من حسن   ولا ظننتُ هناك الحُسن موجــودا

لا يسمعُ ناديهِ* غيرَ مناديهِ* ولا يُؤثرُ بنعمائهِ* غير نُدمانهِ* فهم مذعنون إليهِ* مجتمعون بكُلّيتِهم عليهِ* قد ظفرَ وأمَّنَهُ بالآمالِ* وتلقَّاهُم بالرِّضى والإقبالِ* فدامَ لهم السُّرورُ* والفرحُ والحبورُ* ورقَّتْ بهم الدُّموعُ السَّواكبُ* وخجِلتْ منهُم نيِّراتُ الكواكبِ* فازوا بأوفرِ نصيبٍ* ورمَوا الواشي بسهمٍ مصيبٍ* ورفضوا العوائقَ* وحسموا العلائقَ* وحصلوا على مطلوبِهم* ونالوا القربَ من محبوبِهم* وعلموا أنَّهُ من أنفَسِهم فحكَّموهُ في أنفُسِهم.

هم الرِّجالُ وعارٌ أنْ يُقالَ لمَنْ   لم يَتّصِفْ بمعاني وصفِهم رجلْ

قالَ الطُّفيلُ بنُ مسعودٍ

فلمَّا رأيتُ ما أعجبَ الألحاظَ* وأعجزَ الألفاظَ* وجدتُ مُقتنصَ قلبي يُشعلُ الرؤوسَ* ومُختلسَ لُبِّي يسترقُّ النُّفوسَ* فخيَّمتُ بفِنائِهم* واستظللتُ تحتَ لوائِهم* لينتظِمَ في سلكِ دُرِّهِم صدفي* ويلتئمَ بهم شملي وينجبرَ بهم تَلفي* فقد سعِدَ قاصدُهم* إذ حَسُنتْ مقاصدُهم* فبينما نحن على بِساطِ الإنبساطِ* نتجاذبُ أطرافَ الإغتباطِ* إذ أقبلَ شخصٌ يتكفَّلُ فرأينا أنَّهُ يريدُ أنْ يتطفَّلَ* فمِلنا على مدحِ الأدبا* لقدحِ الرُّقبا* فلمَّا ألمَّ بنا وحضر* ولم يغنِ منهُ حذر* وخشيَ عتاباً* وتوهَّمَ اغتياباً* أخذَ يستميلُ القلوبَ* بأشعارٍ في المحبوبِ* فقلنا يا هذا إنْ كنتَ ممَّنْ يعرفُ القريضَ* ومُميِّزٌ بين الصَّحيحِ والمريضِ* فَلنا في هذا المحبوبِ مقصدٌ جيّدٌ* وحالُنا فيهِ مُتأيّدٌ* فإنْ ادَّعيتَ بالشِّعرِ علماً* فصِفْهُ نظماً* فمكثَ أقصرَ من جلسةِ الخطيبِ* واعتدالِ الغضِّ الرَّطيبِ* ثُمَّ

استحضرَ براعتَهُ* وشحذَ يراعتَهُ* وانتظاها أمضى من العاملِ* ورقمَ بها في صفاحِ الطُّروسِ من عَروضِ الكاملِ.

لاموا عليكَ وتبادروا بالمقصدِ ورأوا ملامي للسَّلامةِ مُرشدي
زعمُوا بأنَّ تحيُّري بتخيري فرنَوا لطولِ تجلُّدي وتسهُّدِ
هيهاتَ لو ذاقوا هواكَ لأنصفوا وأتَوا بعُذرٍ للمُحبِّ ممهَّدِ
يا لائمي ردِّدْ عليَّ حديثَهُ فالأُذنُ تعشقُ ذكرَ ذاكَ الأغيَدِ
ودَعْ الملامَ فما يصدُّ عزيمتي شَيءٌ فساعدني وإلَّا فأبعِدِ
واعلمْ بأنَّ تولُّهي ما ينقضي أبداً وَوجدي مذْ بدا لم ينفدِ
إنْ كنتَ ذا قلبٍ سليمٍ سالمٍ فأنا السَّليمُ وليس تدري عُوّدِ
قلبي تملَّكَهُ الغرامُ بأسرِهِ فجوارحي أبداً بذاك تقتدي
إنّي رضيتُ من الحبيبِ بهجرِهِ بْني بذاك أهتدي أو أعتدي
لم يُبقِ فيَّ هوى الحبيبِ بقيةً تَصغى لقولِ النَّاصحين السُّرَّدِ

ما زلتُ بينَ صبابةٍ ومهابةٍ متحيِّراً فيهِ أروحُ وأغتدي
لو أبصرَتْ عيناكَ نورَ جبينهِ وضياءَهُ كالكوكبِ المُتوقِّدِ
أو لو سمعتَ خِطابَهُ وحديثَهُ يُشفي غليلَ المُستهامِ المُكمِدِ
أو لو رأيتَ محاسناً في وجههِ جمعتْ وإحساناً لهُ لم يُجحدِ
لخضعتَ إجلالاً صرتَ أسيرَهُ وحلفتَ من شغفٍ بهِ لا تَفتدِ
ورأيتَ صُنعَ المُهيمنِ صورةً وسريرةً في غيرِهِ لم تُوجدِ
ورأيتَ روضَ الحُسنِ حيثُ قلوبنا ما بين طيَّارٍ بها ومُغرِّدِ
حيَّا الحيا أيَّامَ كنتُ بقربِهِ أجني المُنى من خدِّهِ المُتورِّدِ

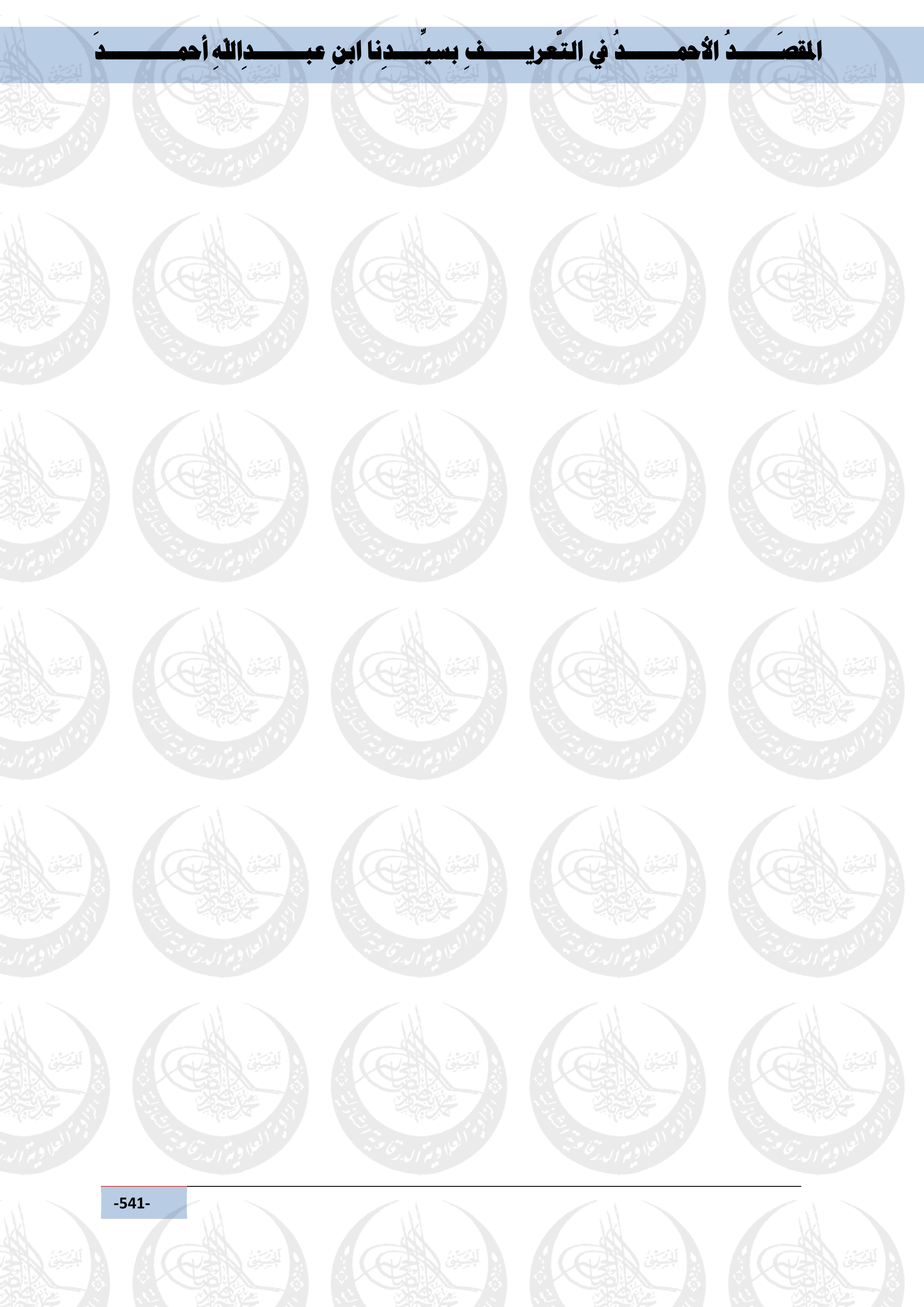
لم أنسَ ليلةَ جادَ لي بتألُّفٍ   وتلطُّفٍ وتعطُّفٍ وتودُّدِ
غفلَ الرَّقيبُ فنِلنا منهُ فرصةً   يا ليتَها دامتْ لصبٍّ مُبعَدِ
بِتنا نشعشعُ خندريس لِحاظهِ   بعذيبِ منطِقهِ الشَّهيّ المُوَّردِ
حتَّى الصَّباحِ وما ألمَّ بديرِنا   إلَّا رقيبَ الفجرِ أدنى موعـدِ
حيثُ الرّبيعُ تفقَّتْ أنوارهُ   كمُنضَّدٍ من لؤلؤٍ وزبرجَـــدِ
والزَّهرُ ينثرُ في بساطٍ أخضـرَ   والنَّهرُ كالسَّيفِ الصَّقيلِ المُغمــدِ
والرَّوضُ مبتهجُ النَّباتِ يزينُـهُ   صوبُ الحيا بتهطل متجــــرد
ما بين أبيضَ كاللجينِ وأحمرَ   مثلَ العقيقِ وأصفرَ كالعسجــدِ
والغصنُ قد بعثَ الصَّبا بدراهمَ   مِن نَوْرهِ كرماً بغيرِ تـردُّدِ
والجوُّ ينفحُ والنَّسيمُ مُعنبرٌ   والطَّيرُ يصدحُ في الغصونِ الميَّـدِ
فتميسُ من طربٍ لذلك وتنثني   وتخرُّ إجلالاً لهُ كالسُّجَّـدِ
للّهِ ما أشهى وأحلى ليلةٍ   جادَ الزَّمانُ بِها برغمِ الحُسَّـدِ
عجزَ اللِّسانُ فلم يطقْ إحصـاءَها   طُويتْ عليهِ من السُّرور السَّرمدِ
ما رُمتُ أحصرُ وصفَها إلَّا انثنـــى   عزمي كأنّي رُمتُ عَليا أحمدِ
يُحصي الحصى والرَّملُ دونَ صفاتِها   لا بل صفاتُ إمامِنا ذي السُـؤددِ
لو كان يُدرِكُ وصفَهُ مُداحهُ   طُرَّاً لكانَ أحقُّهم ذو المقصدِ
فلقد أتَى فيهِ بما يُسبي النُّها   ويزيدُ في إيمانِ كلِّ مُوحِّدِ
ما إنْ رَأى رائي لهُ شِبهاً   ولا راوٍ روى خبراً كهذا المُرشـدِ
فيهِ الفضائلُ والمكارمُ جمّةٌ   ما حازَها في وقتِنا من أمجدِ
نِعمَ الذَّخيرةُ والجليسُ فلم يدع   شوقاً لشخصٍ منهُم أو مُنجدِ
ويؤنسُ الصَّبَ الغريبَ ويُنعـشُ   الفاني ويجلو غمَّةَ القلبِ الصَّدِ
سرِّحْ لحاظَك في رياضِ صفاحه   متعجباً وانشَقْ شذاها تَرشُـدِ
وأنِخْ ركابَ العزمِ تحتَ لوائهِ   ورِدْ المَعينَ بحوضهِ وتـوِّردِ

يغنيك عن زهرِ الرَّبيعِ وزهـوهِ والحوضِ والرَّوضِ الأنيقِ الأصعدِ
واشكرْ لجامعهِ الموفَّقِ سيّدي عبدِ السَّلامِ القادري الأوحـدِ
أكرمْ بهِ من سابقٍ في علمـهِ فردٍ بأنوارِ الإلهِ مؤيَّـدِ
فإذا بهِ طِيبَتْ يا بن الطَّيبِ الأسماعُ من خبرٍ صحيحٍ مُسندِ
وأفدتنا من كيمياءِ علومِكم ببديعِ لفظٍ للجموحِ مُقيـدِ
ما نابَ عن كنزٍ وحرزٍ نافعٍ أو عن مقدامِ الشَّرِّ المُهنَّدِ
وسلكتَ منهاجَ التَّحقُّقِ للعُلى ومَنْ اقتفى سبلَ المحامدِ يُحمدِ
ألا زلتَ نفَّاعاً مفيداً ناصحا للخلقِ مأجوراً ليومِ المشهَدِ
هذه مواهبُ ربّنا ما نالَها إلَّا السّعيدُ ومَن أتاهُ يُسعَدِ
هذا هو الحُسنُ البديعُ طِـرازهُ هذا هو الكنزُ الذي لم ينفدِ
هذا هو السِّحرُ الحلالُ يروحُ العا ني وينفي كلَّ خطبٍ أنكَـدِ
ويزيدُ في القلبِ المشوقِ تولُّعاً وتولُّهاً وتحيُّراً لم يُعهـدِ
خلِّ الخليَّ وما اقتضاهُ رأيهُ فالشَّمسُ ما وضحتْ لعينِ الأرمَدِ
هذي ثواقبُ زاهراتٌ في الدُّجا هذه مناقبُ فوقَ كلِّ تعـدُّدِ
هذي عرائسُ بالمحاسنِ تُجلى تجلو العَشا عن طرفِنا كالإثمـدِ
هذي رياضٌ فتنٌ أزهارُهـا هذه حياضٌ عذبةٌ للـوردِ
هذي ثمارٌ أمجد لكن قطفَهـا باللَّحظِ يحصلُ للبلها لا باليدِ
هذي ينابيعُ الرِّضى هذه مراتعُ العُلا هذه مراضعُ أسعدِ
هذي فضائلُ لا يُحاطُ بقدرِها طولُ المدى هذي شمائلُ سيّـدي
هذي طريقتهُ السَّنيةُ أوضحـتْ سرَّ الشَّريعةِ للمريدِ المهتـدِ
هذي الحقائقُ بعضُ بعضِ علومهِ فأعجبَ لذا البحرِ الخضِمِ المزيدِ
هذا أبو العبَّاس أحمدُنا الـذي ورِثَ المكارمَ عن أبيهِ مُحمَّدِ
هذا ابنُ عبدِ اللهِ من أفضالهِ عمَّ الورى من أبيضَ أو أسودِ

هذا الذي أخذَ القلوبَ فأذعنتْ طوعاً بنظرتِهِ بغيرِ تـردُّدَ
أكرِمْ بهِ مِن أكملٍ ومُفضَّلٍ ومُبَجّلٍ ومُعظَّمٍ ومُمجَّـدِ
نالَ السِّيادةَ والمجادةَ والإفادةَ والعبادةَ والسَّعادةَ في غدِ
ما نالتِ السُّبَّاقُ مثلَ كمالهِ كلّا ولا ضاهاهُ كلُّ مُسدَّدِ
أو هى تخدمهُ قوى حُسَّادهِ لمَّا تفرَّدَ بالعُلا والسُّؤدَدِ
أعيا وأتعبَ مَن تصدَّى بعـدَهُ مَن ذا يصولُ بوالدٍ كمُحمَّدِ
فجزاهُ ربُّ العالمين بفضلـهِ عنَّا جزاءَ العارفين الهُجَّـــدِ
واللهُ يُرضيهِ ويرضى دائمـا عنهُ ويكلأهُ ليومِ الموعدِ
واللهُ يهدينا بهِ لطريقهِ ويديمهُ ليقيمَ كلَّ تَـأوُّدِ
وينيلَنا إحسانهُ بقبولـهِ فينا شفاعتهُ بجاهِ مُحمَّد
صلّى عليهِ إلهُنا ما أقبلــتْ بذلّ تجوبُ لهُ الفلا بالفدفـدِ

انتهتْ بحمدِ اللهِ وحسنِ عونهِ وصلَّى اللهُ على سيّدنا مُحمَّد وآله وصحبه وسلَّمَ.

الحمدُ للهِ يقولُ مصححهُ كانَ اللهُ لهُ وسترَ بمنِّهِ عيبَهُ، قد صحَّحتُ هذا الكتابَ على مُبيَّضةِ المُؤلف حرفاً حرفاً من أولِّهِ إلى آخرهِ وعليها خطُّ حفيدهِ العلّامة الحافظِ النسَّابةِ سيّدي مُحمَّد بنِ الطِّيبِ بنِ عبدِ السَّلامِ وهي نسخةٌ عتيقةٌ مكتوبةٌ سنةَ " 1094هـ" وجدناها بخزانةِ الفقيهِ العلَّامةِ الوزيرِ الخطيبِ المصقَّع التّحريرِ المرحومِ أبي مُحمَّد سيّدي عبدِ اللهِ الفاسي الفهري، وقد بذلْنا المجهودَ في التَّصحيحِ والمقابلةِ جهدَ الاستطاعةِ، ووافقَ الفراغُ من طبعهِ منتصفَ جمادي الثَّانيةِ سنة "1351هـ" على صاحبِها أفضلُ الصَّلاةِ وأزكى التَّحيةِ.



الفهرس

